
ربيع جابر
طيور الهوليداي إن
رواية
التنوير
علي مولا

ربيع جابر

طيور الهوليداي إن

رواية



الكتاب: طيور الهوليداي إن
المؤلف: ربيع جابر

الطبعة الأولى، ٢٠١١

الناشر:
دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان
هاتف: ٤٧١٣٥٧ ١ ٠٠٩٦١ فاكس: ٤٧٥٩٠٥ ١ ٠٠٩٦١
www.dar-altanweer.com
info@dar-altanweer.com
التنفيذ الطباعي: مؤسسة ديمو برس للطباعة والتجارة بيروت / لبنان

ISBN: 978-6589-09-856-5



إلى رينيه ومروى

هذه الرواية من نسج الخيال. وأي شبه بين أشخاصها وأحداثها وأماكنها مع أشخاص حقيقيين وأحداث وأماكن حقيقية هو محض مصادفة ومجرد عن أي قصد.

الجزء الأول

مفقود: غادر كارلوس ميشال حبيب منزله في بناية أيوب في الأشرفية يوم الجمعة الماضي ولم يعد. عمره 22 سنة، يرتدي كنزة صفراء وقميصاً أصفر وبنطلوناً لون كريم. يرجى ممن يعرف عنه شيئاً الاتصال بالرقم 320496 أو 324773.

مفقود: يوم الجمعة 9 كانون الثاني خُطف نديم نقولا ناصيف (أبو لبنان) من منزله في شارع فردان. الرجاء ممن يعرف عنه شيئاً الاتصال بالسيد فؤاد نجم على الرقم 307353.

مفقودتان: غادرت السيدة يوتا الحوارنة (30 عاماً) ومعها ابنتها عليا (عامان) منزلهما يوم الخميس الماضي ولم تعودا. يرجى ممن يعلم عنهما شيئاً الاتصال بأحد الرقمين 310050 أو 301574.

ياسين فقيه: فُقد ياسين محمود فقيه في تاريخ 22 كانون الثاني 1976 على مدخل معمل سليب كومفورت في محلة الكرنتينا. الرجاء ممن يعرف عنه شيئاً الاتصال بالرقم 267440 وله مكافأة.

حسن سليم: غادر حسن سليم الحج مكان عمله في المكلس في 11 آذار

في طريقه الى الشياح ولم يعد. متزوج وله ثلاثة أولاد. التلفون 240044، المقسم 125.

مفقود: يُعلن أهل غسان الياس طراف عن مكافأة مالية لمن يرشد اليه أو يعرف اذا كان حياً أو ميتاً. للاتصال 461030.

مفقود: فُقد يوم الأحد محمد عز الدين (15 عاماً) بين محطة الدنا ومستديرة شاتيلا وهو كان يقود سيارة بيجو بيك آب. الرجاء ممن يعرف عنه شيئاً الاتصال بالرقم 318341 وله مكافأة.

مفقود: فُقد الشاب علي محمود حيدر وهو عائد من عمله في مرفأ بيروت عصر السبت الماضي. يرجى ممن يعرف عنه شيئاً الاتصال بالرقم 274518.

مفقودة: غادرت الشابة لينا نسيب طانيوس منزلها في بدارو يوم الثلاثاء الماضي ولم تعد. عمرها 19 عاماً، ترتدي فستاناً أزرق وكنزة بيضاء. الرجاء ممن يعرف عنها شيئاً الاتصال على الرقم 495371 وله مكافأة.

1
آل حبيب - الطابق الرابع

آل حبيب انتقلوا الى بناية أيوب - التي نسمّيها في الحيّ «المبرومة» بسبب شكلها شبه المستدير - أثناء الاسابيع الأولى للحرب. هربوا من منزلهم في البناية التي يملكها موريس حبيب وراء سينما عين الرمانة عندما قصفتها مدافع الشياح ليلاً وأحرقتها. نجوا من الموت لأنهم كانوا نائمين في السينما التي تحولت ملجأ آمناً للأهالي بسبب وجودها تحت الأرض.

بدوا قادمين من جهنم بينما ينزلون من سيارة محروقة السقف يتبعها بيك آب محمل بأغراضهم. كانوا بين أوائل المهجرين النازحين الى الحيّ. استأجروا شقة على الطابق الرابع. 3 نوم وصالونان وغرفة طعام مع نوافذ خلفية تطلّ على نهر بيروت وخليج الدورة. حين وقعت قنابل على الحيّ سدّوا النوافذ بحجارة الباطون وأكياس الرمل خوفاً من الشظايا. أظلمت الشقة لكن الوجوه الشقراء الباهرة البياض لبنات ميشال حبيب الثلاث سرعان ما أضاءتها. كنّ طوال تلك الشهور الأولى للحرب فتنة الحيّ بأجسامهن البضّة وزغردتهن العالية ونظراتهن الجريئة ثم اختفى أخوهن الوحيد – أمير العائلة- وسكتن عن الزقزقة.

2
آل زغلول- الطابق الأرضي

«ليس على وجهي!»

رفعت يديها وحاولت أن تحمي نفسها. ضربها بيد مسودة الجلد والأظافر، تشبه مخلباً أكثر مما تشبه يداً بشرية. كأنه يفتح بالوعة بالسلك، تحركت ذراعه بانتظام لا تفسده كؤوس العرق التي شربها.

«راغدة سدّي بوزك!»

أنزلت يديها خوفاً من صوته. جربت دفن وجهها في المخدة.

«قحبة بنت قحبة!»

لم يخطر في بالها الشاب الجميل الأسود الشعر إبن السمكري الذي كان يتحمّم ويفرك يديه بالصابون حتى تتقشّر الجلدة السميكة القاتمة ثم يغمس نفسه في الكولونيا وينتظرها في قميص خضراء زاهية أمام باب نادي أبناء نبتون وهي صغيرة، بنت 16 سنة، تكنس وتمسح وتغسل الشبابيك مع

خالتها. في الطابق السفلي في بناية أيوب ستمحو الأعوام ذكرياتها.

«قبحة!»

لسانه السكران لاك الشتيمة.

«الجيران!»، قالت.

شتم الجيران وأمها وأباها. صوته ضاعف قوة قبضته. شعرت بصخرة تسحق كليتها اليمنى. خرج نفسها مبلولاً ساخناً وغطى وجه المخدة الأبيض المغسول بلون أحمر.

«الأولاد! الصبي!»

كان هذا خط دفاعها الأخير.

شتم أولادها كأنهم ليسوا أولاده هو أيضاً وحين ركّز شتائمه على يوسف خافت أن يسمع الصبي اسمه ويحسب أن أباه ينادي عليه فيدخل الى الغرفة.

«الباب!»

رمقته بعينيّ كلبة جريحة. لطمها على خدها. شمّت رائحة العرق والسجق والكبيس. عظمة أذنها طقّت كعظم الدجاج. قضمَت لسانها. بلعت دماً. ضربها ونظرتها تتعلق بالباب وتحاول أن تسدّه. اللون الأسود ملأ الغرفة. طواها على جنبها ممسكاً برقبتها ومدّها كالعجين حتى ألصق جبهتها بالحائط. رشّ على قضيبه السبراي الستود 100 بالغطاء الذهبي والفحل الأسود المرسوم على العبوة الفضية. بدا أضعف كأنه تخدّر وهو يهزّها. علت أنفاسه. شدّ شعرها وغار فيها. كان حاراً كأنه يحترق. مع ذلك امتلأ بطنها بقطع الجليد. من وراء الحائط تناهت دعسات على درج البناية. أولاد يتقافزون في المدخل الواسع. بينما الألم يمزق أحشاءها اقتحم نداء الصبي الغرفة.

«أمي!»

3
آل الخوري- الطابق الثالث

«أنا قوّصت أول رصاصة بالحرب. لا كتائب الشيخ بيار الجميّل ولا أحرار كميل شمعون ولا مخابرات الجيش اللبناني. بوسطة عين الرمانة، بوسطة مصطفى رضا، أنا عملتها. كان دائماً يشتري مناقيش من فرن عمي على مفرق الشياح. لهذا السبب لم أقتله. لأنني عرفت وجهه. الباقون، ركاب الباص كلهم، أنا أول واحد قوّصهم. أول واحد من الحاجز طلع على الباص أنا. مصطفى رضا، السوّاق، لم يعرف من أكون. لأنني غطيت وجهي. اسكتوا! كانوا يصرخون بهتافات فلسطينية كأنهم على الحدود مع اسرائيل في الجنوب وليسوا في قلب بيروت على طريق عين الرمانة. 13 نيسان 1975. وقت الغداء، أحد، بعد القداس. الطرقات فاضية. بوسطة مثل بوسطات المدارس، جي ام سي بشبابيك مسكاتها زنانير قماش، قديمة وأرضها مثقوبة وكلها قناني وأكياس فاضية وقشر بزر. كانوا راجعين الى مخيم تل الزعتر من احتفال لمنظمة فتح بالطريق الجديدة. لم يسكتوا كي أحكي معهم. اسكتوا! كلاشينكوف روسي بمشط بلغاري «دوبل» ملفوف بالسكوتش تايب. تغمّست بالعرق. أبشع شيء قتل الناس بمحل ضيّق. الأصوات والدم. قفزت عن درج البوسطة وتركتهم للباقين حتى يكملوا. كنت جوعان. من ال22 القتلى قبل وصول سيارات الاسعاف قوّصت بالرأس والصدر أكثر من نصفهم... وولعت الحرب اللبنانية.» (من شهادة نزيل دير الصليب جرجي الخوري المقاتل السابق في «حركة الشبيبة اللبنانية» في مجلة «الحرية» عدد 16-23 أيار/مايو 1986 ضمن تحقيق عن مستشفيات الأمراض العقلية في لبنان منشور بمناسبة مرور 90 عاماً على تأسيس مستشفى العصفورية

للأمراض العقلية في الحازمية شرق بيروت على يد المرسل السويسري مؤسس ارسالية الفرندز البروتستانتية في برمانا ثيوفيلوس فالديمير).

4
آل العبد- الطابق السادس

«المبرومة» التي تحضن شققها معظم شخصيات هذه الرواية كانت في البدء تسمى بناية العبد لأن بانيها من آل العبد اللبنانيين الذين هاجروا ضمن موجات الهجرة الشامية الى بلاد المكسيك في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين ورجع قسم منهم الى بيروت بعد أن أصاب ثروة. أحد هؤلاء قدّم سنة 1933 الى بلدية بيروت الساعة المشهورة ذات البرج الحجري القائمة الى هذا اليوم في ساحة مجلس النواب (النجمة) والتي تُسمى ساعة البرلمان والعامة تسمّيها ساعة العبد. قريبه الذي بنى في حيّ الأشرفية الراقي عمارة مستديرة عالية على رأس شارع منحدر انحداراً شديداً يفزع العجائز، أخذ رخصة البناء قبل أن تشق البلدية الشارع المذكور. في ذلك الزمن- أربعينات القرن العشرين- كان المكان قليل البيوت كما يحبّه واسع الفضاء مزروعاً توتاً وتيناً وزيتوناً وجميزاً في حقول تتدرج نزولاً حتى طريق النهر والمطار العسكري الفرنساوي. المهاجر أيوب العبد بنى أيضاً معامل طحن الحبوب (المطاحن) التي أعطت الحيّ غباراً وشهرة مع مرور الوقت. لكن شهرة الحيّ الفعلية لن تسطع الا بعد اندلاع الحرب الأهلية بتدفق المهجرين اليه- مع انتشار المذابح والفرز السكاني- من أحياء أخرى ومن الجنوب والشمال والجبل والبقاع. في بضعة شهور اختفت البساتين والأشجار أمام زحف الباطون والتنك. أحاطت البيوت الفقيرة بعمارة أوروبية الطراز أفقدها تعاقب العقود جمال حيطانها القديم. بينما الصخب يعلو من حولها مع ريش

الدجاج ورائحة السردين هجرتها عائلاتها الى بنايات أجدد في أماكن أرفع مقاماً. تهلهلت شرفاتها مثل أثواب بالية. تقشّر أباجورها الأخضر. تعدّت على رصيفها بسطات الخضر والسمك. مالكها العجوز متعهد الحفريات في مدينة كولون- باناما أيام شق القناة، غادر لبنان في بداية الحرب ولم يعد. كان شبه أعمى قوي السمع يكره أن يقال عن بنايته بناية العبد لأنه طالما كره نبرة التحقير في الكلمة. لهذا أوصى على البلاطة الحجرية المنقورة المعلقة في المدخل، فوق البوابة الحديد المطرقة السوداء: «بناية أيوب». غطى الوسخ حروف البلاطة. مال باعة الخضر والسمانة الى الاشارة الى البناية باسم «المبرومة» وسمّوا الشارع المنحدر بين أكوام البيوت «نزلة المبرومة». لكن الأقدم في الحيّ- السكان الأصليين- ظلّوا يسمّونها بناية أيوب. وهكذا بقي من الأعمى المهاجر إسمه لاصقاً بالبناية في قلب الحيّ الشعبي المزدحم.

5
آل طانيوس- الطابق الخامس

«حبستني أمي في الحمام. من النافذة الصغيرة أرى المطر وحرائق الكرنتينا. الفيلم العربي بدأ وأسمع ضحكة أختي. اذا قصفوا بيتنا من النبعة الآن، اذا قتلتهم الشظايا جميعاً لا أزعل ولا أبكي. حتى أخي الصغير. من يربيه اذا ماتوا كلهم؟ «أنا وزوجتي والسكرتيرة» على القناة 7. أردت أن أشاهد الفيلم الفرنسي على القناة 9 ولينا وأمي كالعادة تريدان الفيلم العربي. ظلّ أبي يلعب بأعصابنا منذ فتحنا التلفزيون حين يبدأ البث بالموسيقى الساعة 5:30 حتى وقت الفيلم على ال6:30. شرب كأس العرق وهو يمزمز علينا لا على اللبنة بالثوم. ولينا قامت الى المطبخ وجلبت له صحن باذنجان مكدوس وأمي ضحكت. قلت له ان راهبات عبرين (العائلة المقدسة) طلبوا

ان أشاهد القناة 9 من أجل ان أجيد اللغة الفرنسية ولفظها. كان يعرف وسمع ذلك منهن بأذنه الطرشاء حين جاء الى المدرسة كي يدفع القسط. رأيت الثلجة ذابت في كأسه وأسرعت الى البراد وجلبت قالب الثلج وأخرجت مكعباً ووضعته في كأسه. ضحك وشرب وقال «هكذا يكون العرق.» فكرت أنني سأربح هذه الليلة. لينا رسمت وجهها الكاذب الحزين وهو مدّ يده في اللحظة الأخيرة وبرم المفتاح تك تك وكل تكة مثل السكين في قلبي من القناة 9 الى القناة 7. قلت هذا ليس عدلاً وأمي قالت لا ترفعي صوتك وأنا قلت لم أرفع صوتي ولينا قالت كل الجيران سمعوا صوتك مع أنها تعرف أن هذا كذب. لا أعرف ماذا قلت- حين أغضب أنسى ما أقول- لكن أبي لم يتدخل وأمي هي التي قالت اربطي لسانك. لم أسكت حتى قالت اختفي من وجهي! وهذه جملة أبي عادة. قمت لكنها قفزت ودفعتني في ظهري حتى وصلت الى الحمام. حاولت أن أفرّ الى الغرفة لكنها قوية، طوال النهار تغسل وتجلي، تفرك وتكوي، تستطيع بأصابعها أن تكسر ذراعي. دخلت قبل أن تضربني لكن معصمي تبقّع بالأحمر كأنه احترق بالماء الساخنة. لماذا يا ربي خلقتني بنتاً ولم تخلقني مثل جان؟ لم أرَها تضربه مرة! لو أنني صبي أفعل ما أريد وأركض في الطريق ولا أحد يقول رتبي تنورتك ولا تلبسي هذا القميص واقعدي جالسة ولا تفتحي رجليك مثل بنات باب التبانة. لماذا خلقتني بنتاً لرجل لا يحب الا ابنته الكبيرة؟ لو أنك يا يسوع خلقتني قبلها ماذا كنت تخسر؟ وتقول انها لا تحب الأفلام الفرنسية لأنها أفلام بلا أخلاق! هل يصدقها؟ وأمي البلهاء تتكلم عن فيلم جديد في السينما. «أنا وابنتي والحب» لمحمود ياسين وشهيرة وهند رستم في سيتي بالاس في الوسط التجاري. كانت تزور زوجة الخواجة دوماني على ساحة البرج ورأت الملصق الكبير في مدخل السينما. لماذا تسميه خواجة؟ أبي ساكت كأنه نائم لكنه بعد كأسين سيتغير ولن يوفر من لسانه أحداً من شوفيرية التاكسي رفاقه الى الزبائن الى

أهل الحي الى الحلاق الى صاحب المسمكة الى رئيس الجمهورية. ولينا يتبدل لونها وتهرب بنظرتها حين تقول أمي سيتي بالاس أو أمبير أو ريفولي وأنا أعرف أنها كانت هناك بالسرّ مع الكساكيس الذي تناديه الكسي وأراه في الظلام وصدرها ينتفخ كالبالون في قميصها الأبيض وهو يضمها ويشم رقبتها ويكبسها عليه وهي تتحرك كي يشم عطرها وجسمها وكي يتعلق بها أكثر. أخذها الى سينما أطلس، ماري رأتها وهي خارجة معه ترنح، كانت سكرانة من الفيلم الهندي ومن يديه وفمه ولسانه. ماري وقحة لا تخاف، اقتربت منها وسلّمت عليها وعليه والتقطت حبة بوشار عالقة بشعرها وأكلتها وضحكت. وماذا فعلت هي؟ لم تفعل شيئاً لكنها نظرت اليّ كما تفعل. لو خلقتني يا ربي أختاً لماري ماذا كنت تخسر؟ وحياة الصليب ماذا تخسر؟ القصف بعيد لكن الدوي مسموع واذا اقترب سننزل الى الملجأ. لو التلفزيون بلا القناة 7! لو تنقطع الكهرباء في هذه اللحظة!»

6
آل سمعان- الطابق الثاني

انتقل الى رحمته تعالى المأسوف عليه

جليل بطرس سمعان

(الحاج بطرس)

زوج ماري كامل ووالد البر سمعان

يحتفل بالصلاة عن نفسه اليوم الاثنين 8/ 11

الساعة الثالثة بعد الظهر في كنيسة سيدة المعونات

في ساقية المسك- بكفيا. تقبل التعازي يومي الثلاثاء

والاربعاء 9 و10 تشرين الثاني في منزل الفقيد
في ساقية المسك- بكفيا ويومي الخميس والجمعة 11 و12 منه
في منزل ابنه المهندس ألبر سمعان في بناية أيوب (الطابق الثاني)
في حي العبد- الأشرفية- بيروت.

يجلس المهندس ألبر سمعان (36 عاماً) الى طاولة المطبخ حاملاً رأسه بين يديه. الأيام الماضية- الجنازة والدفن والتعازي- سبّبت له رشحاً. نوبات البرد فظيعة. قام من الفراش بعد نصف الليل ولبس كلسات صوف وحشا ساقي البيجاما تحت الكلسات الطويل حتى الركبة ثم لبس بنطلوناً مخملاً قديماً مبقعاً لا يلبسه الى العمل، فوق البيجاما. ارتدى كنزة صوف خياطة اليد باقية من ثياب أبيه والتف بغطاء ثقيل وظل يرجف برداً. الكهرباء مقطوعة مع أنه ليس دورنا في التقنين الآن، قطعوها طوال بعد الظهر وطوال المساء، واذا كانت ما زالت مقطوعة فهذا خارج برنامج التقنين ولعلهم قصفوا او أحرقوا مولداً، أو لعل الموظف المسؤول في شركة كهرباء لبنان نسي ببساطة أن يرفع المحول وغيرنا ينعم بضوء اللمبة الآن وأنا أتعثر مع هذه الشمعة التي تسيل وتحرق أصابعي وغداً أجد البقع البيضاء جامدة على السجادة... ارتعش وهو ينظر الى الورقة التي ألصقها على البراد جنب الصور. انتقل الى رحمته تعالى المأسوف عليه... في ضوء الشمعة، ثم في الضوء الأزرق لشعلة الغاز (ثمن القارورة ارتفع من 360 قرشاً الى سبع ليرات)، زاغت الحروف على البراد مثل حشرات «السكيت». لا يعرف لماذا تتكاثر هذه الحشرات هكذا، هنا وفوق المغسلة وفي البانيو المشقق، تشبه برغشاً تزوج ذباباً وأنجب هذا النوع العجيب البندوق الذي تضربه فلا يطير كأنه مخدّر بالكاتول. أطفأ الغاز عندما غلت المياه. شرب الشاي (ظرف ليبتون- سيلان) وهو يكزّ أسنانه ويمسح عينيه ويتمخط. لا الصوف ولا الشاي ينفع. شعر بأحشائه تُقطّع.

شعر بيد- هذه اليد التي تمنع عنه النوم منذ أخبروه- تمتد مثل الكاوتشوك على طول زلعومه وتعبث بمصرانه. هذه يد الموت؟ ماذا يحدث للميت الآن وهو راقد في التابوت تحت المطر؟ أبعد الغطاء ونزع الكنزة الصوف وذهب الى الخزانة في الممر كي يجلب احدى كنزاته. ارتطمت ركبته بحافة كنبة في الظلام وبكى وهو لا يعرف ماذا يصيبه.

7
آل ثابت وشرارة- الطابق الأول

أتجاوز باب السبّاك والناطورة وأنا أتخيل وجهها: البناية كلها تعرف لكن ماذا نقول للرجل وهو زوجها؟ اذا التقيتها هنا- في المدخل الساكن المعتم بسبب المتراس الذي صار يسدّ بوابة البناية- أتجنب النظر الى وجهها الملوّن بالكدمات، أزرق وأسود. تقول وقعت. أو تقول خبطني باب السطح من دون أن أنتبه. لا أعرف لماذا تشرح فأنا لم أسأل. أصعد الدرجات ركضاً- درجتين درجتين- الى الطابق الأول. على اليسار، فوق زرّ الجرس، مكتوب بالحرف الأجنبي «ثابت وشرارة» مع خربشة سوداء على «شرارة». لم تبدل ليديا ورقة الجرس لكنها محت- أو حاولت- بالحبر الأسود، بعلامة اكس، زوجها. منذ بدأ الخطف على الهوية اختفى المسلمون من البناية: هجروا الشرقية الى الغربية أو الى خارج البلد. سليمان شرارة الشيعي من بنت جبيل في الجنوب كان آخر الخارجين ونحن استغربنا كثيراً حين اختفى وترك ليديا وحدها مع أمها المفلوجة.

*

قالت ليديا انهما انفصلا بالتراضي وان معاملات الطلاق عند المحامي. ناس البناية تأسفوا لأن الأستاذ سليمان الذي يُدرّس عدداً من أولادهم مادة

الرياضيات في مدرسة السيوفي كان آدمياً ومحبوباً على وجه العموم ونادراً ما ضايق أحداً. «يلعن الحرب وظروفها!» كان طويلاً عريض الكتفين ضخم الجثة لكنه خفيف الخطوة على الدرج، دائم التبسم حلو التحية، وحين ينزع نظارته السميكة العدستين كي ينظفها يبدو وجهه غائر العينين شديد الهشاشة قابلاً للكسر مع أول هبّة هواء. درّس مادة الجغرافيا أحياناً، وأولاد البناية حفظوا عواصم العالم (السودان: الخرطوم، بلجيكا: بروكسيل، الاتحاد السوفياتي: موسكو، ايطاليا: روما، غواتيمالا: غواتيمالا) وحفظوا حدود الدول في القارات الخمس مقابل حبّات «البومبون» في جيبه. تزوج زواجاً مدنياً في نيقوسيا- قبرص وجاء وسكن مع زوجته في بيت أهلها قبل أن يفرغ البيت ويصير هكذا، طوال الوقت يفوح بعبق المطهرات والأدوية ورائحة الأم المشلولة. النكبة الكبرى حلّت في هذا البيت المعلق فوق «نزلة المبرومة»: أخوة ليديا الشهداء اعتادوا مثل أبيهم أن يعلقوا ثيابهم العسكرية المغسولة خارج النافذة. كانت البناطيل الكاكي تخفق فوق رؤوس النازلين الى بيوتهم ثم اختفت البناطيل ولم تعد الضحكات تفرقع خارجة من النافذة. أولاً قضى الأب (عزيز ثابت، 57عاماً) الرقيب في الجيش اللبناني. عثروا على جثته في «بورة التيان» على طريق النهر مصاباً برصاصة في صدغه وبطعنة سكين في يده. بعده قضى الأخوة المقاتلون الثلاثة (موسى عزيز ثابت26- عاماً، وايلي عزيز ثابت24- عاماً، وطوني عزيز ثابت- 19 عاماً) في غضون شهر واحد موزعين على الجبهات. جنازة خلف جنازة ومن عزاء الى عزاء والصهر الشيعي الاستاذ سليمان شرارة (33 عاماً) صامد كالصنم جنب زوجته الجميلة البيضاء يسندها بقوة الأنبياء ويستقبل التعازي.

*

«أحسن أن تذهب الى أهلك يا سليمان»، قال له صديق مسؤول في «الكتائب» طالما تعشى في البيت ونام نصف سكران على الصوفا الصفراء القديمة.» وضع الشرقية لم يعد يتحمل. لا نقدر ان نحميك من الزعران وكل

الحي يعرف أنك غريب.»

«أنا غريب؟»

«أنت مثل أخي يا سليمان ومن أهل البيت وتعرف كم أنت عزيز علينا لكن ماذا نعمل؟ البلد صار هكذا والذي سيوقفك على حاجز طيّار لن يقرأ حتى اسمك. المذهب: شيعي. وطاخ طاخ. تريد أن تترمل ليديا؟ خذها واترك الشرقية. المدرسة أصلاً مقفلة. أنا أوصلك بسيارتي الى المعبر.»

8
آل زخور- الطابق الأول

على اليمين وأنت تصعد. من السجادة خارج الباب (الدعسة) تعرف أن الساكنين هنا ناس أصليون: السجادة سميكة وثمينة، حمراء مؤطرة بالأصفر. من زر الجرس الفخم أيضاً تستنتج هذه الحقيقة البسيطة. ومن القفل الذهبي والقنديل الأثري المثبت جنب اللمبة. الغبار سميك على القنديل النحاس لكن أحداً لن يحاول سرقته. البيت شبه مهجور لكن ليس تماماً. أصحابه ركبوا طائرة الشرق الأوسط قبل فوات الأوان، لكن الابن الوسيم المدلل للتاجر عيسى زخور وكيل شركة شيفروليه في لبنان ما زال مقيماً في البلد وهو الآن يحارب برصاصاته الأخيرة في أوتيل الهوليداي إن المشتعل. لن يخرج ريمون عيسى زخور من معركة الفنادق سليماً كما دخلها. مع هذا وقبل حلول ساعة الحقيقة في فجر 21 آذار (مارس) 1976، سيكتشف سرّ حياته وهو يضاجع البارعة في التسديد والقنص المقاتلة كاترين نمر (الاسم الحركي: أولغا) على تخت ملوكي بظلة عالية حرير.

❋

غرفة نادين زخور (الأخت التوأم لريمون) في البيت المقفل في بناية

أيوب. على الحائط ملصق ملون للفيلم الأميركي» ذهب مع الريح». السرير مغطى بالنايلون السميك وكذلك المكتب والستيريو الكبير الذي لا يوجد مثله في البناية. رفوف المكتبة شبه فارغة. لم تترك غير القواميس القديمة وكوم مجلات بعضها حزم بشريط كأنه كان معداً للتوضيب والشحن في الصناديق ثم تخلت عنه في اللحظة الاخيرة. الخزانة خالية الا من قمصان وتنانير كفت عن ارتدائها. لكن الجوارير مملوءة بأغراض شتى: دفاتر وقصاصات وأقلام ودمى وكاميرات وعلب جلد فيها تذاكر مسرح وسينما وحفلات غناء لنجوم غربيين في مهرجانات بعلبك. أخذت الرسائل والكؤوس الفضية ومجموعة الطوابع ومجموعة الفراشات التي بدأت بها ولم تكملها لكنها تركت عدداً مخيفاً من البطاقات البريدية. غير بعيد من مكان عملها في حي فرن الشباك مطعم تطلّ نوافذ طبقته العليا على مبنى المتحف الوطني اعتادت ارتياده مع زملائها. لسببٍ ما طلبت من الجرسون «المنيو» الكرتون المذهب الحاشية وأودعته جاروراً في غرفة لن ترجع اليها.

الصحن اليومي – مطعم الصفصاف- فرن الشباك

الاثنين: مغربية على دجاج.

الثلاثاء: محشي كوسا وورق عنب مع مقادم.

الاربعاء: خروف محشي مع لبن.

الخميس: ملوخية على دجاج وموزات.

الجمعة: صيادية سمك. أو مجدرة مع سلطة بندورة وبصل.

السبت: خضرة مشكلة باللحمة مع رز.

الاحد: كبّة بالصينية مع سلطة عربية.

9
آل رزق- الطابق الرابع

«أوتيل فيكتوريا، 11 هاربور رود،

سيدني- نيو ساوث ويلز- أستراليا

بتاريخ 19-12-1975

أبي الغالي، أمي الحنونة، أخوتي الأحباء،

أنا بخير وأفكاري معكم وقلبي لا ينساكم لحظة. أخبرني خالي ابراهيم ان بريد استراليا- لبنان لا يصل دائماً ولهذا لا أعلم هل وصلتكم رسائلي السابقة (أرسلت قبل هذه رسالتين) لكن في حال لم تصل سأقول لكم باختصار ما كتبته: السفر كان طويلاً جداً وصعباً وعدد الساعات في الجو اكثر مما كنت اظن لأننا لم نحسب فارق التوقيت وواجهتنا عواصف والحقيقة خفت كثيراً ثم فكرت فيك يا أمي ولما لم تعد الطائرة تهتز على المطبات قلت هذه أمي تضيء لي الشمعة في كنيسة السيدة وما ان قلت هذا راح خوفي. أعرف يا رامي انك تحلم بالسفر لكن أنا اذا قدرت لا أركب الطائرة الا مضطراً وخالي معلوف يسافر بالباخرة... سأختصر أكثر ولكن الحكي معكم ولو بالمكتوب يريح قلبي ويشعرني أنني معكم في البيت. ما قاله لكم خالي ابراهيم على التلفون صحيح ولهذا السبب أسكن الآن هنا مع خالي معلوف: هذا المخزن واسع ونصفه تابع للمطبخ ونصفه تابع لقسم الغسل والكوي وأنا أسكن في هذا القسم موقتاً فقط. فكّ الخطبة كان أحسن قرار بالنسبة اليّ وأبوس يديك ورأسك يا أمي لا تزعلي مني وأبي يعرف كم يهمني رأيك في كل خطوة أخطوها لكن الزواج قسمة ونصيب وأنا منذ الساعة الأولى لم أرتح لها وأنتِ

بنفسك قلتِ لي أن أفعل دائماً ما أجد أنه يرضيني ويرضي تربيتي. أعرف أنها بنت خالي وأعرف محبتك لخالي ابراهيم وأنا أعزّه وأحترمه كأنه أبي وهو حتى بعد كلامنا الصعب لا يجافيني ويتلفن الى هنا ويسأل عني ويريدني أن أرجع كي أسكن في بيته في برزبن لكن أنا لا أريد لأنني بصراحة محرج جداً أمامهم وأود لو أنسى وجود برزبن كلها في استراليا. أمي أحلفكِ بحياتي لا تزعلي مني، أسهل علي ألم الحرق من أن تكوني غاضبة عليّ. راجح يساعدني كثيراً لأن خالي معلوف غائب في معظم الأيام وأنا أجد الحكي مع راجح سهلاً مع أنه لا يعرف العربية جيداً وأنا أنحس من الابورجين البدائيين بالانكليزية. مرات أحاول أن أتفاهم مع الناس بالفرنسي لكنهم عموماً لا يحبون هذا وهم أصلاً لا يعرفون الفرنسي وأظن أنهم يكرهون فرنسا. المهم راجح يساعدني وصرت أدبر أموري وحدي تقريباً. المكان نظيف لكن ليس بمستوى يرضي وسوسة أخواتي وخصوصاً سارة. فكرت فيك يا سارة كثيراً حين أخذني راجح الى حفلة في الجنينة العامة. هنا عندهم قانون اذا أراد حزب أو نقابة أو أحد الأندية تنظيم حفلة في حديقة عامة يأخذ اذناً مسبقاً من البلدية ومن الادارة كي يحجزوا له المكان ويؤمنوا وجود مناقل الشواء والطاولات والكراسي. أيضاً ترسل البلدية بعض الشرطة لحفظ الأمن لكن هذا غير ضروري لأن سيدني ليست بيروت وأنا تخيلتهم في بيروت بثيابهم المكوية والعصي القصيرة على أجنابهم وقلت لراجح ذلك وأنا أموت ضحكاً. لكن راجح لا يتذكر من بيروت شيئاً الا الفستق الحلبي وغزل البنات والبوظة. سأخبركم شيئاً ولا تضحكوا: راجح أحياناً يبدو أغبى من عبدو السمكري. لا تزعلي يا أمي وأنا أمزح معكم لأنني اشتقت الى ضحكاتكم ترن في أذني. وقبل يومين فقط رأيت رامي في نومي يركض على الطريق أمام مكان يشبه ملحمة السيوفي وقمت من النوم مسروراً لأنه كان يضحك وهو يلعب في منامي. أول شيء أفعله صباحاً الخروج لشرب القهوة وراء

المخزن: أقف وأنظر الى البواخر الضخمة تدخل الى المرفأ أو تخرج، أقرأ أسماء البواخر التي تجيء من آخر الأرض وأصلي من أجلكم ألا تؤذي الحرب شعرة واحدة في رؤوسكم.

10
آل زيدان- الطابق الخامس

أوقفوا الدكتور شفيق شحروري على معبر السوديكو. كان عائداً من عيادته في الغربية. المذيع شريف الأخوي كان كالعادة يدلّ الناس على الراديو الى الطرقات الآمنة الخالية من القنص ومن حواجز الخطف الطيّارة. المسلحون أحاطوا بالسيارة فجأة قبل أن يبلغ شارع بشارة الخوري. لم يعرف الدكتور شحروري من أين خرجوا. قال لهم أنا معكم، كاثوليك لكن معكم، أخي الشهيد رضا شحروري مقاتل في منظمة العمل الشيوعي استشهد في الليلكي، تلفنوا على مركز المنظمة في الحمرا او في المصيطبة واسألوا عني. أعطاهم سلسلة أرقام حفظها في رأسه تحسباً لهذه الساعة السوداء. دفعه ملثم بعقب الأم 16 التي لفّها بشرايط ملونة. بدت البندقية لعبة لا تقتل. ضربه آخر لم ينتبه الى وجوده وهوى على الزفت. استغرب ان يجري الدم من رأسه بهذه السرعة. دبّ على أربع ثم وقف وضغط يده على الجرح. خاف اذا بقي ساكناً ان يجهزوا عليه. لكن صدمة السقطة أخرسته. منذ كان ولداً صغيراً لم يسقط هكذا على الأرض. أحدهم شتمه وسأله أين بطاقته الحزبية اذا كان في منظمة العمل. لم يشرح انه من أصدقاء المنظمة، لكنه مرة أخرى لجأ شبه دائخ الى أرقام التلفونات وأعطاهم أسماء أصحابها. كان يترك دفتر تلفوناته الشخصي في العيادة خوفاً من وقوع الدفتر الصغير في يد النمور الأحرار أو الكتائب في الجهة الأخرى من هذا الشارع المشؤوم الذي بات حداً فاصلاً بين عالمين

عدوين. أعطاهم رقم أمين عام المنظمة محسن ابراهيم وقال تلفنوا له وقولوا له اسمي. أعطاهم أرقام أطباء زملاء عياداتهم جنب عيادته في بناية البنك البريطاني (شارع عبد العزيز) في قلب الغربية. كانوا جميعاً يساريين مثله يقدمون للجرحى والمصابين في الحرب عيادة وعمليات مجانية كل يوم خميس. دفعه الملثم في صدره. «تلفنوا على 345841 واسألوا عني.» كان صوته يرجف الآن، يتهدج ويكسر الكلمات ويوشك أن يبكي. لفظ اسم أخيه الشهيد مرة أخرى. لمح كلاباً كثيرة تتجمع وراء صناديق الزبالة. اهتز بالبكاء. في رمشة عين، بهذه البساطة، بسقطة واحدة وخبطة واحدة على الرأس فقد كل رباطة جأشه. طالما تكلم الزملاء عن هدوء أعصابه في غرفة العمليات. خرطشوا السلاح، قرقع الحديد في المساء الرطب، وعرف أنه لن ينجو. في هذه اللحظة سمع صوتاً أنقذه. أحد المسلحين على الحاجز كان عائداً من محل الفراريج يقضم سندويشته الساخنة في ضوء لوكسات الغاز: تعرّف من بعيد على سيارة الدكتور الزرقاء. «اتركوه، لا تقوصوا.» تكلم المسلح بلا حماسة لكنه أنقذه من موت أكيد. أنزلوا الفوهات المسدّدة الى وجهه. أعطوه قنينة ماء كي يغسل جرحه.

«بسيطة. خدش. الله معك. انتبه!»

ظلّت يده ترجف.

«والضوء اليمين مكسور. صلحه!»

في الجانب الآخر، على حاجز النمور الأحرار، سألوه ماذا حدث له، لماذا يغطي الدم وجهه؟ أخرج هويته لكنهم لم يأخذوها من يده.

«حفظناك، دكتور.»

شكرهم وانتظر كي يسمحوا له بالانطلاق. حدّقوا اليه بنظرات مظلمة.

«تركوك! من يعمل لك الواسطة؟ أنت جاسوس لهم؟ تتجسس علينا

وتنقل اليهم معلومات؟»

نظر الى يد مشعرة سوداء كالعقرب على حافة الشباك.

«قبل نصف ساعة أوقفوا سيارتين بويك ومرسيدس ونزّلوا الركاب وصفّوهم بالرصاص. الرجال والنسوان والصغار. أنت تركوك، لماذا لم يصفّوك؟ انزلْ من السيارة.»

خاف أن يبدأ بالبكاء من جديد. فتشوه وفتشوا السيارة، تحت المقاعد وفي الصندوق الورّاني.

«غداً المعبر مقفل.»

اقترب وجه منه. لمعت سلسلة ذهب في الليل. شمّ رائحة عفن فظيعة. كان الرجل أخضر الجلد وقال له اذا خرجت مرة أخرى لا ترجع الى منطقتنا، الشرقية ليست أوتيلاً. دفعوه على الباب المفتوح وشتموه وركلوا السيارة بالجزم العسكرية، لكنهم تركوه يذهب الى بيته. من حاجز السوديكو الى بناية أيوب لم يكف عن البكاء. ظلّت يده ترجف ولم يسترجع نفسه الا عند نزوله بعد ثلاثة أسابيع في مطار شارل ديغول- باريس.

*

تلفن من الخارج للمحامي وكيل البناية زخريا الزمار وأعلمه أنه استقر مع عائلته في فرنسا ولن يعود. سأله الوكيل عن المفاتيح.

«المفتاح مع الناطورة.»

«وأغراضكم؟ ماذا أفعل بالعفش؟ المستودع ملآن، ماذا أفعل بأغراضكم؟»

كان الخط سيئاً وسمع ريحاً تصفر ثم انقطع الاتصال.

*

استأجر الشقة الحلواني المهجر من الدامور السيد غسان الياس زيدان، مفروشة. أولاده ركضوا وتقافزوا مبتهجين بين قطع الأثاث الضخمة. كان

خشبها ثميناً محفوراً. أخرج الوكيل زخريا الزمار الكنبات الثقيلة من الصالون ونقلها الى بيته. أخذ أيضاً الخزانة الجوز والدرسوار السنديان والبراد الجديد الويستنغهاوس ومعظم الأقنعة الإفريقية المعلقة. قبل أن يغادر سأله أحد الشغيلة ماذا نفعل بهذه؟ نظر الى اللوحة المعدنية المستطيلة التي انتزعوها من فوق باب المنزل وعقد حاجبيه.

الدكتور شفيق بيار شحروري

اختصاصي بجراحة القلب والصدر والشرايين

حائز شهادة «البورد» الأميركية

سأله العامل هل يقدر أن يأخذ اللوحة؟

«خذْها»، قال زخريا الزمار وبكّل زرّ الجاكيتة.

11
آل صعب- الطابق الثاني

على فراش على الأرض في الغرفة التي خصصت لهم في بيت قريبهم ملحم صعب يلتحم الزوجان بلا صوت. على سرير ضيق ينام الصبي وأخته الطفلة. الخزانة مواربة البابين وعلى سطحها حقائب ثقيلة. الحقائب تتوزع أرض الغرفة أيضاً، منتفخة وشبه مخلعة. هذا ما هربوا به. هند ترفع حوضها وتتحرك تحت الرجل الذي يحميها من الموت. هو أيضاً يشعر بينما يغوص في لحمها أنه يموت اذا حدث لها شيء. قميص نومها الزهر مدعوك تحت ظهرها العرقان، وعيناها معلقتان بسقف أصفر غريب شاهق العلو.

*

«أمي قولي لأبي حين يرجع من السوق ان يبقينا هنا. أبي يقبل منك دائماً.»

«هذا بيت عمك وليس بيتنا.»

«حتى ولو! حتى ولو! هنا أحلى مع أولاد عمي. والبرندا طويلة وألعب عليها بالبسكلات! وعمي ملحم قال انه يقدر ان يسجلني في مدرسة الحيّ عندما تفتح المدرسة.»

«عمك قال لك هذا؟»

«وليد قال، عمي قال له، وقال لعمتي انني شاطر وأعرف جدول الضرب حتى التسعة.»

«لكنك لا تعرف جدول الضرب!»

«حتى ولو! حتى ولو! قولي لأبي كي نظلّ هنا.»

من الشرفة تقدر هند التي ينادونها أم وديع أن ترى المسمكة والناس ينظرون الى بسطة السمك والبائع الذي يضع الثلج على الصناديق. أمام محل الكنافة بالجبن يتحلق الأولاد وهم يراقبون رجلاً يأكل كعكة تنقط قطراً على الرصيف. سيارات التاكسي تتزاحم في مدخل الموقف ولا تكف عن التزمير. طوال الوقت يتعاركون ثم يخرج أحدهم سلاحاً ويقوص على شريط الكهرباء ويتفرقون. الضجة غير مألوفة وترعبها لأنها عاشت حياتها في مكان ساكن وسط بساتين موز وبرتقال على الساحل في الجنوب البعيد.

12
آل عطية- الطابق الثالث

جهزوا جوازات السفر وحجزوا تذاكر الطيران الى تورنتو- كندا لكنهم لم يسافروا. حتى مدخراتهم في المصرف حولوها الى الحساب المشترك لابنتهم وصهرهم في الخارج. حزموا أثمن ما عندهم. اتفقوا على الأجرة مع الشوفير الذي سيوصلهم الى المطار. ودعوا الأقارب والمعارف حين

اجتمعوا قبل أيام في كنيس أقامته الطائفة جنب «مدرسة جنفياف» في طرف عبد الوهاب الانكليزي بديلاً موقتاً من كنيس وادي أبو جميل. بدوا غرباء وهم يقفون بين وجوه حفظوا أدق ملامحها. شعروا بالخجل. لكن ما منعهم في النهاية من الخروج الى كندا لم يكن الخجل بل المرض الذي باغت الجدّة. أجّلوا سفرهم ثم وقعت حوادث وضاعت الفرصة.

*

«الحرارة المفاجئة الشديدة. ثم الرجفة والصقيع. وتمضي ساعة أو أقل. ثم يغلي جلدي كأنني أشوى على الجمر. أرمي الغطاء عني وأتخلص من الروب. لكن النار لا تنطفىء. قلت لهدى انني عانيت هذه الأعراض قبل دهر، وأنا أدخل سنّ اليأس وانقطاع دورتي. ظنت أنني أداعبها وضحكت وأخبرت ابنتها بينما أحترق. طلبت منهم ان يبعدوا الشمعدانات. أعطوني ماء ودواء لكن ماذا ينفع؟ أريد أن أموت هنا، حيث مات زوجي وأبي. اذا سمع الربّ صلاتي لا أدفن إلا في بيروت، في المقبرة حد زوجي وراء الكنيس العتيق.»

13
آل هاينيكن- الطابق السادس

جاء البروفسور فريدريك هاينيكن الى لبنان في خريف 1953 هارباً من الأشباح. الشهادة من جامعة برينستون (دكتوراه في الفيزياء) أعطته بسهولة وظيفة في الجامعة الاميركية في بيروت. كان طويل القامة نحيلاً، وطقوسه اليومية (الانحناء ساعات على أدوات المختبر) تنبىء بتقوس ظهره قبل بلوغ الشيخوخة. الزملاء دكاترة الجامعة استغربوا نضوجه وحكمته لأنه بدا شاباً. لم يكن شاباً تماماً لأن ما تعرض له في الجندية ضاعف سنواته.

مع أنه لا يمت بصلة قربى الى أصحاب معامل البيرة الهولندية المشهورة، ولدته أمه في مزرعة أبقار على مسافة 11 كيلومتراً من أمستردام. كان أبوه سبّاحاً بارعاً في الغطس وورث فردريك عنه هذه الموهبة. القدر قاده الى القتال في صفوف الحلفاء أثناء الحرب وهكذا أسره الجيش الياباني. رُمي في معتقل في احدى جزر المحيط الهادىء حيث تعرض للتعذيب باجباره على البقاء مستيقظاً طوال عشرة أيام. كان هذا اسلوب اليابانيين المفضل في التعذيب في تلك الفترة. سلطوا على وجهه بروجكتيرات باهرة النور ولطموه بخراطيم الماء عندما بدأ ينام. هو نفسه لا يعرف كيف بقي حياً. بعد الحرب أكمل دروسه الجامعية في أميركا. صادق الدكتور دودج عضو مجلس الأمناء الذي سرعان ما عرض عليه وظيفة في بيروت. وجدها صدفة غريبة لأنه كان يقرأ «أعمال الرسل» وكان بلغ في القراءة تلك الصفحة حيث يُذكر ساحل بافوس في قبرص. هاتف أباه وأخبره. كان الأب يحيا وحيداً الآن في مزرعة أبقاره ذاتها على مسافة تزيد عن 11 كيلومتراً من أمستردام. وحيداً لأن زوجته ماتت في هذه الأثناء. وعلى مسافة تزيد عن 11 كيلومتراً لأن الأرض تحت المزرعة تحركت وزحلت مع حركة المياه كما يجري دائماً في ذلك المكان العجيب. لاحقاً سيروي البروفسور لبعض تلاميذه ان البيوت في بلده تشبه السفن أكثر مما تشبه البيوت.



الناطورة معها المفتاح وتدخل مرة كل ثلاثة أو أربعة أيام كي تسقي أحواض الزرع. تفتح الشبابيك أيضاً للتهوئة. يجيء البروفسور مع زوجته نهار الأحد - وأحياناً السبت- كي يتفقدا البيت. هذا اذا كانت المعابر بين شطري العاصمة مفتوحة. أعطته الإدارة بيتاً صغيراً داخل الحرم الجامعي في الغربية ونقل مع زوجته بعض الصناديق الى هناك في سيارة بيك آب عليها شعار الجامعة وباتا يغيبان عن بناية أيوب فترات طويلة.

14
آل زغلول 2 - الطابق الأرضي

وقف يوسف في الباب خائفاً. كان جميلاً كبنت، شعره مائج ذهبي، بشرته ببياض الجبنة تتورد حين يلعب ويعرق. فتيات الحيّ كنّ يغرن من فمه الأحمر كثمرالفريز في شهر نيسان. لم يفهم ماذا فعلت أمه ولا ماذا فعل هو. صعقه الصراخ الذي هجم صوبه. صعقه منظر اللحم الابيض العاري والشعر الغزير الأسود. أمرَه أبوه بالخروج واقفال الباب لكنه لم يتحرك. أصابته علبة السبراي كالقذيفة في صدره ثم ارتدّت عن قفص أضلاعه وتدحرجت تحت التخت. رأى الدم على أسنان أمه. كان يكبس يديه على صدره حيث يتألم، وسحبته أخته الكبرى كوليت الى الخارج وأقفلت الباب. الدموع ملأت فمه لكنه لم يزعق. أخرجته كوليت من البيت وأجلسته على الدرج في المدخل. جلبت له كوب ماء وأجبرته أن يشربه كلّه. خافت عليه أن يبلع لسانه. ظلّ يبكي وحين صاح أخيراً أمرته أن يسكت خوفاً من الجيران وخوفاً من أبيها. هرب يوسف الى الشارع ولحقت به. أختاه فريدة ومريم كانتا تلعبان لعبة الاكس في الزاروب المجاور. ركض على المربعات المرسومة بالطبشور وركل البلاطة الصغيرة وركض خلفها ثم التقطها عن الأرض ورماها في البورة حيث تقذف البناية المقابلة نفاياتها. هرب من الصيحات والحصى التي تطارده ولم يتوقف عن الركض حتى لحقت به أخته. أمسكت به كوليت من كتفيه وهي تلهث كالقطار. عجزت عن التنفس من شدّة ما ركضت ونادت. حملته وهو يحاول أن يفلت منها. أخذته الى «دكان أم نجا» واشترت له قنينة ميرندا وبسكويتة على شوكولا. أكل وشرب وهو يرتعش. قتلتها تنهداته وهي واقفة جنبه تنظر الى الناس المارين يلتفتون اليه. ردّت القارورة الفارغة الى الصندوق وطلبت من

أم نجا أن تسجل الثمن في دفتر الحساب. المرأة وضعت سيجارتها على حافة المنفضة وأشارت من وراء الغيمة الى الصبي الباكي أن يأتي اليها كي تبوسه على وجهه. هرب مرة أخرى. لحقت به أخته قبل أن يبلغ درج الكنيسة وحين هزّته بعنف عاد الى البكاء. رجته أن يتوقف. قال» هنا، يوجعني هنا.» ودلّها الى قلبه. رفعت قميصه عندئذٍ ورأت الكدمة. استغربت لأن أباها يضربها هي وأخواتها وأمها، لكنه عموماً لا يمدّ يده الى يوسف. استجمعت شجاعتها ولمست كدمة أخيها ولم تبكِ أمامه. «قنينة.» سألته ماذا يقول ثم فهمت أنه ضربه بتنكة السبراي التي تخفيها أمها في قعر الخزانة. شعّت لمبات الأعمدة. أخذته الى السبيل الحجري وجمعت المياه في حفنتها وغسلت وجهه ويديه ورقبته ومسحت شعره. كان مبلولاً بالعرق الساخن لكن رائحته ظلّت أطيب من الحليب.

*

سمّوها كوليت لأنها ولدت في عيد القديسة كوليت (6 آذار/ مارس). بعدها جاءت داليا التي سبقتها الى الزواج وغادرت «المبرومة» وحيّ العبد كاملاً الى بيت زوجها الدركي في حيّ الناصرة. كان الرجل مخبراً صغيراً في البدء بحكم عمله نادلاً في كباريهات الزيتونة وميناء الحصن ثم أجرى المسابقة المطلوبة ونجح. حصل على مساعدة من نائب يمت لخالته بصلة قربى فدخل جهاز الأمن الداخلي وصار صاحب مرتب شهري ثابت. رأى زوجة المستقبل صدفة في المدخل المكنوس للتو وهي ما زالت بنتاً صغيرة طويلة القامة. اعتاد أن يزور بيت طانيوس في الطابق الخامس لأنه من الأقارب ولأن السيد نسيب طانيوس ليس شوفير تاكسي وحسب ولكنه مخبر عند الدرك أيضاً.

15
آل موراني- الطابق السابع

«أوصلتني زوجة خالي الى أمام البناية. «هذه هي.» كي أشعر أن المطر رذاذ وخفيف وغير مهم أطفأتْ مساحات الزجاج الامامي. كانت مثلي ترتدي الأسود ثوب الحداد لكنني انتبهت الى الطلاء الأحمر الفاقع على أظافر قدميها. هل رأى خالي ذلك وهما يشربان قهوتهما في الصباح؟ رأى أم لم يرَ، لماذا أهتم؟ انهم يتخلون عني منذ اليوم. لم أعد منهم ولا مربوطة بهم. ماتت أمي وصرت بلا أحد. قالت زوجة خالي:» الطابق السابع. لا أعرف أي شقة بالضبط لكن اسمه مكتوب على الجرس. ويعرف أنك آتية. لم ينزل كي يحمل حقائبك. وصلنا أبكر من الموعد. هل تريدين مساعدة؟» سألتني هل تساعدني بينما ألفّ شالي الأسود على رقبتي، لكنها لم تنزل يديها عن المقود ولم تطفىء المحرك. سيارات تتجاوزنا أطلقت أبواقها لأننا نسدّ قسماً من الطريق الضيقة. لم أكن أعرف أنه يعيش في مكان مثل هذا. «الصندوق مفتوح.» قبلتني قبلة وداعية انيقة على خدي. رائحة العطر وكريم الوجه. «تلفني لنا في نهاية الاسبوع وسنأتي ونأخذك الى المطعم ونتغدى معاً. اذا كانت الطرقات مفتوحة.» تحركت بسرعة كي لا أتبلل كثيراً. سحبت الحقيبة الأولى الى الرصيف ثم الثانية. لكن بينما أخرج الأخيرة، الأصغر والأخف، من أعماق الصندوق، علق شالي بشيء. دائماً هكذا. وحين خلصت نفسي ووقفت أخيراً بين الحقيبتين الكبيرتين حاملة الثالثة من حزامها على كتفي كنت محمرة الخدين مبلولة الثياب وبنطلوني المخمل الأسود يلتصق ثقيلاً ورطباً بجلدي. اشارة من يدها وابتسامة، وأنا شعرت بالخجل ورفعت يدي ثم حملت الحقيبتين بسرعة ودخلت بين أكياس الرمل المصفوفة كالحيطان

الى البناية. ما ان دخلت حتى اختفت ضجة الطريق وطرطقة السقوف التنك. شكرت ربي حين رأيت اللمبة مشتعلة: الكهرباء ليست مقطوعة! كان المدخل قديماً وفسيحاً وعالي السقف ذكّرني وقلبي يخفق بعنف ببناية الأونيون جنب حديقة الصنائع حيث كانت أمي تعمل. لا تماثيل أسود هنا لكن رائحة المكان تشبهها. والسكوت. عثرت أخيراً على المصعد في زاوية مظلمة. كان مخيفاً مصنوعاً من الخشب والحديد ويبدو تحفة أثرية. على كرتونة مهلهلة مربوطة الى صندوق قضبانه المتقاطعة قرأت: «الاوسنسير معطل.» هذه الحقائب التي كنا نستخدمها حين تضطر أمي بسبب عملها للسفر. أتذكر كم مرة تصارعنا مع ثقلها في المطارات. أتذكر ضحكات أمي وأنا أسقط تحت الحقائب وأختفي. كنت أحب أن أحمل معي قصصي في كل مرة نسافر. وما تسمح لي به من ألعابي. كنت صغيرة. هذه المرة أنا وحدي ولا عربات بدواليب هنا ولا درج كهرباء. حين بلغت الطابق الثالث أو الرابع جلست على الحقيبة كي أرتاح. هل هو على الطابق السابع أم الثامن؟ من أين يبدأ العد؟ من الطابق السفلي، من المدخل؟ أم أن السفلي يُحسب الطابق الصفر؟ لماذا لم يضعوا أرقاماً على حيطان الطوابق؟ نهضت وتابعت الصعود. أصابعي أوجعتني كأنني أحرقها. تذكرت ان خالي قال «الطابق الفوقاني.» مع هذا تفحصت الاسمين على الجرسين في الطابق الخامس أو السادس (بعد ذلك سأعرف أنه السادس). استغربت الاسم الاجنبي (هاينيكن) في هذا المكان وتابعت الصعود. هنا وجدت عدداً أكبر من الأبواب: خمسة! من دون أن أبحث عرفت في أي شقة هو: كان الباب موارباً ومن الداخل يخرج دخان خفيف ورائحة بطاطا مقلية.

*

على الجرس:» أندريه موراني.» لم يخطر في بالي أنني سأقف يوماً في مكان غريب لا أعرفه كي أقرأ اسمه مكتوباً هكذا بحبر أحمر على كرتونة

جرس مكسورة الزجاج. خفت أن أمد يدي وألمس الزرّ. خفت أيضاً أن أرفع يدي وأقرع الباب. لا أعرف كم بقيت واقفة هكذا أسمع حركته في الداخل كي أتأكد أنه وحده وأصغي الى أغنية منبعثة من الراديو. أسمهان أو ليلى مراد أو أم كلثوم، كنت أعرف أسماء المطربات ولكن أعجز عن التمييز بينهن. أوجعني كتفي وفكرت أن مفصلي انخلع من مكانه بسبب ثقل الحقيبة وكالعادة وضعت اللوم على أمي وعلى هديتها لي التي يفوق وزنها وزن أي كتاب آخر: مجلد «أصل الأنواع» لداروين. لم أتمكن يوماً من انهائه! كانت دائماً تضحك كلما وجدت نفسي بلا روايات أقرأها لأنني قرأت كل ما اشتريته واستعرته، وكانت تقول لي» عندكِ داروين! لا تقولي لي ليس عندي شيء أقرأه!» وكنت أصيح:» داروين ليس قصة! نظرية النشوء والتطور ليست للقراءة. هذا كتاب لتعذيب الأطفال!» كانت تضحك حتى أطلب منها أن تكف عن الضحك لأن الضحك الكثير يصيبها بالحازوقة. وذلك أيضاً كان يضحكها. مرات كثيرة كانت تضحك وأنا أقول شيئاً عادياً كأنني قلت للتو أظرف شيء في تاريخ العالم. أمي. «أندريه موراني». أصبعي لمس الزر لكنني لم أكبس عليه. شعرت بأمي وراء ظهري:» لورا.» صوتها في أذني لا يتركني. في الليل أقوم من النوم باكية وأبحث عنها في الغرف. سمعت صوتها وكانت تناديني لكنني لا أجدها. معظم الناس ينادونني «لولو» اسم التحبب الذي لصق بي منذ طفولتي حتى صار تقريباً اسمي. لكن أمي كانت تحب أن تناديني «لورا». على الصفحة الأولى من كتاب داروين الذي اشترته لي كي أقرأ شيئاً آخر غير المغامرات المصورة والألغاز والروايات التي لا أكف عن «أكلها» كتبت لي اهداء بخطها المنمنم الطفولي: «ابنتي حبيبتي لورا، لا أستطيع أبداً أن أخبرك كم أحبّك.» أبكي وأراها أمام عينيّ تمد يدها كي تمسح دموعي. بقيت واقفة حتى انتهت الأغنية في الراديو ولم أكبس الجرس. سمعت حركة تقترب من الباب. عندئذٍ فقط قرعت الباب.

*

لم يكن كما تخيلته أو كما تذكرته. لم أرَ أبي منذ تسع سنوات تقريباً. لم يعد نحيلاً ووجهه تبدل كأنه تورّم. لكن شيئاً آخر جعله يبدو غريب الوجه. لم أنتبه ولم أتمكن من تحديد ما هو الا بعد أن جلست قبالته الى الطاولة حيث وضع الطعام: حلق شاربيه! سألني لماذا حملت الحقائب وحدي. سألني لماذا لم نزمر له كي ينزل؟ وسألني أين خالي؟ شرحت له أن زوجة خالي هي التي أوصلتني وقلت ان الحقائب أصلاً غير ثقيلة. نظر اليّ كأنني من كوكب آخر أو كأنني أظنه هو من كوكب آخر. كانت يده عرقانة حين صافحني. بينما ينقل أشياء من البراد الى الطاولة انتبهت أنه مثلي كثير الارتطام بالأشياء. كان يلبس بنطلون جينز أزرق جديداً وكنزة خضراء. وكان ينتعل صباطه. استغربت أنه ينتعل صباطه وهو في البيت. أخرج من المقلى العميق المسود «صاجاً» آخر من البطاطا التي احترقت أطرافها. شكرت ربي أنني جالسة في الجهة الأبعد من الغاز. سألني هل ما زلت أحب الاسكالوب الدجاج مع البطاطا والكاتشاب وسلطة الملفوف. هززت رأسي ولم أعرف ماذا أقول. لم أكن جائعة. مع أنني في الصباح، وأنا في بيت خالي في جونيه، لم ألمس الفطور: جلبوا من أجلي فطوري المفضل الكرواسون ساخناً طازجاً من الباتيسري (كرواسون بالجبنة، بالزعتر، بالشوكولا، بالمربى، وكرواسون سادة بلا حشوة) لكنني وجدت الجو الاحتفالي فظيعاً وبلا ذوق. خفت أن أجهش بالبكاء أمام أولاد خالي الصغار. اهتزت الطاولة ورأيته يضع قطعة خشب مربعة تحت قائمة من قوائمها كي تتوازن. كان جسمه قريباً جداً وهو ينحني كي يفعل ذلك وعندما ابتعد وهو يدمدم بجمل لم أفهمها تنفست من جديد. على قطعة الخشب المربعة جنب صباطي الأسود الطويل الساق رأيت رسم بطة والأثر الدائري الذي يتركه كوب. سمعت المطر فوقي، على السطح. نظرت الى المقلى والى صحن البطاطا وشعرت بتعب شديد. أردت أن أنام. لكن ليس هنا. أردت أن أنام في حضن أمي.

16
آل ثابت وشرارة 2 - الطابق الأول

كانت الشمس تشرق على نهار أزرق بارد أعقب ليلة غزيرة الأمطار. اضطرت ليديا، وهي عائدة من عملها في مستشفى أوتيل ديو، الى التوقف قبل ساحة ساسين. رانجات عسكرية سدّت الطريق الخالية الا من سيارة رينو صغيرة صفراء اللون، تناثر زجاج شبابيكها على الزفت يبرق كالماس. من الشعارات المطلية على أبواب الرانجات عرفت أنهم «كوكتيل» من الكتائب والنمور الأحرار. لم تسمع رصاصاً وهذا يعني أنهم لم يشتبكوا بين بعضهم بعضاً. هذا يحدث أحياناً وفي الإذاعة يسمّونه «الحرب في الخندق الواحد»، وفيّ الشارع يسمّى «زعرنات». لم تكن متوترة على نحو مفرط، لكنها حين سمعت الصرخة الحادة أجفلت. لم تعرف وجوه المسلحين ولعلهم من خارج الأشرفية. رأت أنهم يسحلون رجلاً على الأرض. كان ممزق الثياب والدم يترك أثراً خلفه. سمعته يصرخ مرة أخرى. لم تعرف لماذا اقتربت العجوز بائعة اليانصيب والعلكة من نافذتها. اضطرت لإنزال النافذة كي تسمع ما تقول. «هذا مسلم أهبل مسكين بيته هنا على كعب الطريق حد مدرسة زهرة الاحسان. هرب هو وعائلته في الصيف وراح على الغربية. واليوم رجع لأنه نسي غرضين. ولقطناه.» اقترب أحد المسلحين بمعطفه العسكري الأخضر ووجهه المغطى بالشعر. في البداية لم تعرفه، ثم اكتشفت هويته من صوته. كان هذا كميل صليبا، صديق العائلة وأحد أعزّ رفاق أخيها الشهيد موسى. كان مسؤولاً في أمن الكتائب وقبل أن تقع مجازر المسلخ والكرنتينا نبّه سليمان وقال له ان يذهب الى الغربية. «وضع الشرقية لم يعد يتحمل ولا نقدر أن نحميك.» انحنى وهو يبعد الكلاشينكوف المعلق من الكتف الى وراء

ظهره. أنزلت النافذة تماماً لكنه تكلم معها مواربا فمه فلا تصفعها أنفاسه. كان مريضاً وأنفه أحمر متضخم كجزرة والاحتقان يكبس عينيه. سألها عن صحة أمها وقالت إنها أحسن، على الكرسي، لكنها تحرك الجزء العلوي من جسمها وتستطيع أن تدفع الدولابين وتتحرك في البيت. سألها عن رجليها، هل يمكن أن تقف من جديد؟ لم تقل «فالج لا تعالج» كما تقول الممرضات الأخريات زميلاتها. اكتفت بالسكوت. سمعت صرخة أخرى من خلف الرانجات، تشبه خواراً يخفت بلا توقع الى أنين. رفعت وجهاً مخضوضاً وسألته هل تقدر أن تمرّ وتذهب الى البيت. «انتظري دقيقة كي نزيح السيارات.» استدار كي يذهب ورأت ورقاً أحمر يقع من الأشجار عليه وهو ينفضه ويشتم الهواء. كان وجهها ملبداً قاتماً الآن وهو التفت بغتة وبدا في ضيق شديد وسألها هل تسمع من الأستاذ سليمان، هل هو بخير هناك، في الغربية؟ تراجعت الى خلف في مقعدها حتى غار النابض في ظهرها. بدت كأنها تعرضت لطعنة. خرجت الكلمات المطلوبة وحدها وأنقذتها من الموقف الدقيق: «آخر مرة سمعت عنه كانت عبر المحامي قبل شهرين، سكن عند ناس يعرفهم في الحمرا.» لم تلفظ اسمه. قالت «سكن عند ناس يعرفهم في الحمرا.» أبعدت عينيها ونظرت مرة أخرى الى الرانجات المركونة بالعرض، مشرعة الأبواب، تهتز في الريح الشديدة.

*

كان «فرن السيدة» فاتحاً يخبز والناس يتجمهرون على الرصيف أمامه لشراء الخبز. رأت رجلاً مسنّاً يحمل ربطتي خبز وأحدهم يجادله ويطلب منه أن يبيعه الربطة الثانية. صف المنتظرين سدّ الطريق والبوق لم يبعدهم. ثم تحركوا وحدهم وداست دعسة البنزين. لم تنزل وتقف في الصف. مرّت أمام السوبرماركت ولم تتوقف أيضاً. محطة البنزين مقفلة والخراطيم مرفوعة فوق ماكينات التعبئة والعصافير تزقزق في شجرة الجميز جنب الطريق. حيّ العبد

يستيقظ على التغريد. أقفلت باب السيارة وردّت تحيات باعة الخضر وهي تسير بخطى سريعة الى البناية. كانت خائفة ترتجف والأصوات التي تهاجمها من الدكاكين والبسطات تبدو مسننة قاتلة مع أنهم يُصبّحون عليها وهذا كل ما في الأمر. قبل بلوغ «المبرومة» انتبهت- مع أنها لا تريد أن تنتبه- الى تكاثر الصور على الحيطان: عيون أخوتها الثلاثة الشهداء حدّقت اليها من تحت أرزة الكتائب تسألها ما بها، لماذا تخاف هكذا، ماذا جرى؟ الهواء ملأ عينيها رملاً وهي تدخل بين الأكياس المتراصفة. في الداخل المعتم الأليف رأت الناطورة تمسح البلاط. تبادلا تحية الصباح وسألتها الناطورة هل مرّت أمام الفرن. أخبرتها ليديا أنه مفتوح وعنده خبز، ولم تتوقف وقطعت على حافة البلاط الرطب وصعدت الدرج. الناطورة لم تتركها وأسرعت خلفها حاملة عصا الممسحة وسألتها مرتبكة هل هي بخير، هل تحتاج الى أي مساعدة؟ كانت دائماً شديدة اللطف شبه مسحوقة وهي تتكلم معها ولهذا اعتادت ليديا أن تتجنبها قدر الممكن. التفتت ونظرت اليها من فوق وقالت تأخرت على أمي. تركتها واقفة تريد أن تقول شيئاً وتتلعثم كالعادة ولا تقول. قبل أن تصل الى باب البيت كان المفتاح في يدها يسبقها الى ثقب القفل. فتحته بسرعة ودخلت منه وهو موارب كما صارت تفعل وردّته بسرعة وأقفلته بالرتاج. كانت أنفاسها تتدافع في صدرها ورغم البرد انتبهت الى رائحة العرق. كان قميصها لاصقاً بظهرها تستطيع أن تعصره. وضعت المفاتيح على المنضدة ومشت حتى غرفة القعود من دون أن تشعل اللمبة. كان البيت مظلماً لأن أباجور الشبابيك مقفل على الدوام. وحتى الشبابيك غير الخطرة وغير المحمية بمتاريس الرمل كانت مقفلة الأباجورات ولا تفتحها ليديا الا في ما ندر ولضرورة الهواء والشمس. وجدت أمها نائمة في الكرسي وعلى الصوفا جنبها الراديو الترانزيستور الأحمر يخشخش. لم تقترب وتطفئه مع أن بطاريته ستفرغ. نظرت الى الممر والى أبواب الغرف وسمعت هدير البراد يتقطع في المطبخ. بلا صوت ذهبت الى الحمام وتخلصت من ثيابها. اغتسلت بسرعة.

كانت تبكي. ثم مسحت دموعها. وغسلت وجهها ونشفته. مشت بلا صوت ودفعت باب غرفة النوم الموارب وهي تسمع أنفاسه الأليفة. لم يكن نائماً. كان سليمان قد استيقظ للتو وشبك يديه تحت رأسه وهو ينتظر.

17
آل الخوري 2 - الطابق الثالث

«أفظع ما وقع لي؟ بالتأكيد أعرف. أكيد أقدر أن أخبركم. لماذا لا أقدر، هل أنا معاق؟ هل أبدو أخرس؟ ممّ سأخاف؟ أكثر من الذي جرى ماذا سيحدث؟ مجازر الشتاء أفرغت الأشرفية من المسلمين لكننا مع ذلك كنا نجد واحداً هنا أو هناك. شارل، أخي شارل، قتلوه هكذا. لن أحكي عنه. لا علاقة لكم به. لا تسألوني. ثلاثة أسّسوا حركتنا: كامل حداد الذي كان مقرباً جداً من الشيخ بيار لكنه لم يكن عضواً في حزب الكتائب. أخي شارل الذي كان في فريق الفوليبول في المدرسة مع الشيخ بشير وتمرن معه على حمل السلاح في معسكرات بشرّي. وموريس نعيم الذي ترك الكتائب بعد أن ضربه الشيخ أمين كفاً أمام الجميع ولم تتحمل عزّة نفسه الإهانة. الجرايد لم تكتب عن حركتنا الا بعد اقتحام مخيم تل الزعتر لكننا أقدم بكثير وسقط منا 350 شهيداً الى جانب القوات اللبنانية. كنا نرسل البيانات الى الصحافة ولا تُنشر لأننا جبهة مستقلة ولأننا كنا دائماً نرفض التقسيم ونطالب بلبنان واحد موحد لجميع أبنائه لا تحكمه الثورة الفلسطينية ولا غيرها. وكنا ندين التوجهات الطائفية ونرفض التهجير الطائفي. وكامل حداد كتب ذلك في المجلات. وبعد ذلك حدث الانشقاق وصارت حركتنا مقسومة نصفين. أنا مثل أخي شارل كنت ضد قتل المسلمين في الجوهر. لكن مع قتلهم اذا اقتضى التكتيك العسكري ذلك. في سبيل القضية اللبنانية قمنا بأشياء لا نريدها. الاثبات أننا

ضد الطائفية موجود: صاحبة أخي شارل كانت مسلمة، أبوها درزي وأمها شيعية، وبيتهم في عين المريسة حد الجامعة الاميركية. وأخي شارل المجنون ظلّ يروح الى هناك طوال الحرب ويستعمل على الحواجز مجموعة من الهويات المزورة. كان يحلق لحيته ويلبس بذلة بيضاء كأنه عريس جديد ويذهب. لا أقول «مجنون» كي أنتقص من شجاعته بل العكس تماماً. بعد الانشقاق صرنا نقاتل في الأسواق التجارية. أنا وشارل كنا في اللنبي وبين اللنبي وفوش تحت شارع ويغان أي البلدية. لم تكن الجبهة ثابتة لكننا وجدنا نفسينا هناك بعد التقدم الكبير للفلسطينيين ومن معهم من جهة الغربية ومنطقة الفنادق. كانوا مسلحين بالمدفعية الثقيلة ويحاولون الوصول الى المرفأ. وأعدادهم أكبر وخطوط امداداتهم مفتوحة على البر والبحر والجو (المطار عندهم) بينما نحن لا تصلنا الذخيرة الا بالبواخر. لكن الشيخ بيار والرئيس شمعون تمكنا من الحصول على خطوط دعم. ولولا الامدادات، أنا أقول، كانت الشرقية سقطت والطوائف المسيحية أبيدت عن بكرة أبيها. كمال جنبلاط قال للرئيس حافظ الأسد حين زاره في دمشق «بدنا نخلص منهم.» الرئيس الأسد أعلن هذا في خطابه الشهير عندما دخل الجيش السوري الى لبنان. شارل كان يقول انه يستطيع اذا جلس في غرفة واحدة مع المعلم كمال جنبلاط ان يقنعه بوقف الحرب. كان يحبّه ويسميه «المعلم» دائماً ويُغضب الرفاق الذين لا يطيقون سيرته. وكان يقول هذا الرجل ليس تابعاً أو خادماً، هو مكتوب على هويته لبناني ونحن مكتوب على هويتنا لبنانيون، الدروز والمسيحيون يتعايشون في منطقته، مثلنا مثله ولهذا نقدر أن نتفق. في معارك الاسواق كنا أحياناً ندخل وننام في خربة مجلس النواب أو في الجامع العمري لأن الجو بارد في الداخل. كنا نغتسل في البركة بينما الرصاص يطقطق على قبب كنيسة مار الياس وكنيسة مار جرجس. قصفونا بالهاون مرة وشارل أصابته شظية في كاحله وبعد ذلك لم تعد مشيته سليمة. غير العرج

الخفيف لم يتبدل فيه شيء. ظلّ يقاتل في الوسط التجاري المحروق وظلّ يقطع خط التماس الى صاحبته بهوية محمود حمود أو محمد حيدر لم أعد أتذكر. كان يستعمل هويات حقيقية بدّل الصورة الشمسية فيها الى صورة له مختومة ختم الأمن العام اللبناني وهو أصغر سنّاً وشعره أسود مفروق من النصف كما كانت أمي تفرق شعرنا بالمشط بعد الحمام ونحن صغار. كانت عملية خطرة جداً لكنه كان هكذا لا يخاف ويستطيع من دون أن يرمش له جفن أن يغير لهجته ويصير سنيّاً من المزرعة او شيعياً من صور أو درزياً من بعقلين. حين خطفت الأخوين فقيه كنت وحدي أنا وثلاثة عناصر. واحد من الثلاثة الذين كانوا معي استشهد بعد فترة بقذيفة اينرغا دخلت من «طاقة» المتراس. كوّة أصغر من تنكة الحليب التاترا. حظ. كنّا نداعبه ونلقبه «بو بواسير» لأنه في أول الحرب جلس على الوجاق في الجبل واحترق وصار يقعد ملوياً على جهة واحدة. وواحد آخر من الثلاثة قتلوه في قصف زحلة بعد حرب السنتين. والثالث أظن ما زال حيّاً ولن اقول إسمه وأظن أنه في فنزويلا. خطفنا الاخوين فقيه على باب إدريس، بالتحديد بين النزلة ومركز ستاركو. كانت منطقة تماس ولا يدخلها المدنيون، ونتقاتل على كل شبر فيها، ويربحون اكثر منا بسبب وجودهم في برج المرّ. الكبير حمزة عمره 21 سنة والصغير علي عمره 16 سنة. كانوا ثلاثة أشخاص. وواحد منهم قتل بالسيارة. سقنا السيارة بين الحجارة والحديد المكسر وسحبناهم الى بناية وراء بلدية بيروت والميت معهم. لم نعرف أنه مات بسبب العتمة. تركناه على الدرج وربطنا الأخوين بالحبل البطن على البطن. الصغير علي كان ينزف من فمه وأنفه. والكبير حمزة كان يجرب أن يزيح وجهه لأن الدم يفوت في فمه هو. كنا نخزن في تلك البناية ذخيرة وماء ومعلبات سردين ومرتديلا. فتحنا العلب وأكلنا وحين ذهب رفاقي كي يناموا بقيت وحدي مع الأخوين. الصغير الذي توقف نزيفه بكى حتى نام لكن الكبير ظلّ ينظر اليّ. كانت بطاقة هويته

في يدي وقلت له ماذا يشتغل أبوك؟ ولفظت اسم أبيه. لم يتكلم. قلت له أنا إسمي شارل، أنت ما اسمك؟ قال أنت تعرف إسمي، أنا حمزة. قلت ماذا كنت تفعل يا حمزة في بيوت اليهود، كنت تسرق مع أخيك؟ قال واحد مثلك يسرق، هربنا من قنّاص طلعة فينيسيا وعلقنا بين الردم. نظرت اليه وعرفت أنه صادق وأن الحظ فقط أوقعه بين يديّ، هو وأخاه الذي أيقظه كلامنا من النوم.

18
آل رزق 2 - الطابق الرابع

«أوتيل فيكتوريا، 11 هاربور رود،

سيدني- نيو ساوث ويلز- أستراليا

بتاريخ 4-1-1976

أبي العزيز، أمي الحنونة، أخوتي الأحباء

عيد ميلاد مجيد وكل سنة وأنتم بخير وعسى السلام يحل على ربوع لبنان الغالي مع بداية هذه السنة الجديدة... لا أقدر أن أخبركم كم أنا مشتاق لوجوهكم ولسماع أصواتكم... في العيدين حاولت كثيراً ومراراً الاتصال بكم ولكن خطوط بيروت مقطوعة وجربت أيضاً تلفون عمتي في الكورة لكنه أيضاً لم يُعلّق وجربت تلفون جارنا ملحم صعب كما قال أبي لكنه أيضاً مقطوع، وحتى تلفون بيت حبيب طلبته من دون أن أنتبه ولحسن الحظ لم يكن شغالاً لأنني لم أكن أعرف كيف سأتكلم معهم وكيف سأقول لهم وهم يتألمون من دون ابنهم أنا كريم رزق ابن جيرانكم أحكي معكم من أستراليا! راجح ابن خالي لا يتركني ويساعدني كثيراً واكثر مما تتصورون ويُسهّل عليّ الشغل والسكن خصوصاً وأن خالي جاكوب غائب... هذا اسم خالي معلوف على بطاقة عمله في مصلحة سكك الحديد الاسترالية وجاكوب

هو يعقوب بالاسترالي. راجح عنده صاحبة استرالية لطيفة شقراء ومهذبة يا أمي وفي عيد الميلاد ظلّت مع أهلها لكنها في عيد رأس السنة ذهبت معنا ومع بعض الأصدقاء الاستراليين والانكليز والهنود كي نتفرج على الألعاب النارية وعلى الاحتفالات في الشوارع. أكلنا أجنحة دجاج مقلية متبّلة بصلصة حمراء حارة في حانة ايرلندية في منطقة الهاربور أي المرفأ (البور) وشربنا بيرة سوداء سميكة الرغوة. هنا يحبون الشرب لكن أنا كما تعرفون لا أتحمل المشروبات الروحية وأذوقها برأس لساني على سبيل المسايرة وحتى في المناولة كنت اشرب من الكأس خوفاً من عبسة «بونا جيلبير» وكلامه الواقف ولولا ذلك لا أفعل. لكن راجح ظلّ يصرّ عليّ ويظن أنني لا أشرب كي لا أرفع الفاتورة ولهذا شربت معهم وندمت بسرعة كما سأخبركم. كانت الحانة ملآنة جداً وعدد منهم يلبسون ثياباً غريبة خضراء وحمراء واميلي صاحبة راجح شرحت لي انهم في ايرلندا عندهم قديس مشهور اسمه سانت باتريك يلبسون في عيده الأخضر ويشربون كثيراً وفي اليوم الذي بعده يفطرون على الحليب والبيض المسلوق الملون بالأخضر... قلت لها نحن نفعل هذا في عيد الفصح، نلون البيض ونأكله... ضحكت بينما راجح يترجم بيننا وقالت كل الناس عندهم الايستر وهذا معناه الفصح بالاسترالي وأنا ضحكت ولم أتوقف عن الضحك لا بسبب ما قالت فأنا أعرفه تقريباً لكن ضحكت بسبب البيرة القوية ولأنني كنت مشتاقاً كثيراً اليكم ولا أريد أن أبكي وأنا بينهم في الحانة. المهم وكي أختصر رحنا بالقطار الى الجسر كي نتفرج على الأسهم النارية وكنا نرتطم بالناس أينما مشينا وننفخ معهم في الأبواق ونتبادل التحيات كأننا أصدقاء ونحن لم نرَهم مرة من قبل. كانوا يشربون ويأكلون التشيبس والسمك على الطريق والعرق يلصق ثيابنا بجلدنا وفوق مياه الخليج السوداء تطير المفرقعات وتنفجر بكل ألوان المفرقعات في العالم. كانت رائحة البارود قوية وأنا شعرت بينما أنظر الى براكين تتفجر في الليل أنني سعيد جداً وفي الوقت ذاته متضايق جداً. وبعد الاحتفالات حين رجعنا

لم أتمكن من النوم. كنت وحدي في ثياب النوم وفي الفراش لكنني قمت وانتعلت الحذاء وخرجت ودرت حول المبنى ودخلت من الباب الزجاجي الدوّار وطلبت الإذن من السنتراليست التي تعرف راجح وتلفنت من بهو الأوتيل. كنت اعرف أن الوقت متأخر جداً لكن خالي ابراهيم ردّ وتكلم معي وأنا أخبرته أنني لا أنجح في الاتصال بكم وهو أخبرني أنه سمع منكم وأنكم بخير جميعاً وأن القصف صار أقل وأنكم تسلّمون عليّ وأنه تكلم مع خالتي أسمى أيضاً وهي تفكر في المجيء مع عائلتها الى هنا اذا كان زوجها قادراً على الحصول على عمل في برزبن. لولا صوت خالي ابراهيم كان قلبي فقع في تلك الليلة. لا أريدك أن تحزني يا أمي لكن الغربة صعبة صعبة...

تتمة بتاريخ25-1-1976: انشغلت ولم أكمل الرسالة لأن الشغل يصير كثيراً كلما أعطونا يوم عطلة... الذين يداومون بدلاً منا في العطل يتركون كل شيء في فوضى ويا ليتهم لا يعملون اطلاقاً... أردت أن أكتب لكم أشياء حلوة فأنتم لستم بحاجة الى ما يزيد الهمّ على قلبكم. وفي الرسالة الآتية سأكتب لكم عن أخوات إميلي خصوصاً جاين التي جلبت لنا «شوربة العيد» المطبوخة بلحم وعظم ذيل الكنغارو مع جزر وبصل وأعشاب تسمانيا. جلسنا على الرصيف المطلّ على المرفأ وأكلنا بين النوارس وضحكنا وإميلي وأختها غنتا لنا أغنية جميلة جداً. سأحاول أن أرسل لكم بعض الصور لأن راجح طلب صوركم جميعاً. لا تزعلي يا أمي بسبب ما كتبته عن سهرة العيد. خالي ابراهيم كان حنوناً جداً على التلفون وأنا تذكرت حين كان يأتي الى لبنان ونحن أطفال ويجلب لنا هدايا، صبابيط وساعات لي ولأبي، وفساتين وجزادين لكِ ولأخواتي... وتذكرت الدراجة الزرقاء بثلاثة دواليب التي نزل الى السوق وعاد وهو يحملها لأن رامي لم يحبّ هديته... وحاولت أن أتذكر ماذا كانت هدية رامي الأصلية ولم أقدر... لم أبكِ وأنا أحكي مع خالي يا أمي لكنني خفت اذا تكلمنا أكثر أن أبدأ بالبكاء. ليس بسبب الغربة فقط ولكن أيضاً بسبب البي بي سي، الراديو الانكليزي الذي نسمعه هنا كي

نعرف أخبار لبنان. قبل رأس السنة شاهدنا على التلفزيون الاسترالي صوراً فظيعة عن بيروت في التقرير السنوي وهذا برنامج طويل عن أنحاء العالم وأهم الأحداث في نهاية العام. وقلت لنفسي لن أشاهد مرة أخرى شيئاً كهذا، لكنهم عرضوا منذ يومين برنامج الصحافي والمذيع الاسترالي باتريك غرين، وراجح قال هذا مشهور جداً هنا وأنا شاهدته معه. كان يسير في بيروت ويتكلم مع مقاتلين مقنّعين وآخرين بلا أقنعة. لم أعرف الشوارع كلها لكنني عرفت الضبية. وعرفت الكرنيتنا بسبب معمل سليب كومفورت وبسبب مدرستي. الشجرات القديمة وزاوية الطريق حيث كنت أذهب في فرصة الساعة عشرة مع سارة ورولا لنشتري سندويشات فلافل حين لا نجلب معنا زوادة من البيت. لمحت الدكان ونصفه تهدم، والسيارات محروقة مكومة. البيوت مجروفة والجثث فوق بعضها. كيف صوّروهم؟ من يقتل الأولاد الصغار؟ فكرت فيكم وندمت لأنني قبلت منكم وتركت لبنان وجئت الى استراليا. راجح أيضاً تضايق كثيراً. حتى الآن لم يصلني منكم مكتوب واحد، وخالي ابراهيم يقول إن بريد لبنان يتأخر، لكن ليس الى هذا الحد!

19
آل طانيوس 2 - الطابق الخامس

«جيراننا الجدد من الدامور. الأولاد يلعبون ويصرخون بلا توقف. يحاولون فتح المصعد المقفل بالسلسلة ويركلون الطابة على بابنا. حين نفتح الباب يهربون نازلين على الدرج. أمي قالت لهم أن يلعبوا تحت في المدخل لكنهم قالوا ان أمهم لا تسمح لهم. وأمي قالت اطلعوا والعبوا في السادس ولن تزعجوا أحداً لأن السادس فارغ وهم ردّوا ان أمهم لا تقبل. لا تريد أمي أن تتكلم مع أمهم لأن المرأة فعلاً مسكينة ومنظرها محزن وزوجها جلب لنا صينية بقلاوة هدية من محله الذي فتحه، وأبي قال إن زوجة السيد زيدان

تأخذ دواء بوصفة طبية لأنها مصابة بإنهيار عصبي ولأنها رأت مسلحين فلسطينيين يضربون نساء وبناتاً في بساتين الموز ويقوصون عليهن. الورقة اللمّاعة الحلوة (ذهبية منقطة بالأخضر) التي تلفّ صينية البقلاوة مكتوب عليها «حلويات زيدان وأولاده»، ونحن ضحكنا لأن أولاده عفاريت أطفال ربما أكلوا البقلاوة لكنهم بالتأكيد لم يصنعوها، وأبي قال ان غسان زيدان جارنا الجديد أخذ «الصنعة» عن أبيه الياس زيدان الذي كان مشهوراً في زمانه شهرة البحصلي في بيروت وشهرة الحلاب في طرابلس. لينا تقول إن علينا تحمل عفاريت بيت زيدان لأن أبي ضرسه حلو. وهذا صحيح: أبي يقدر أن يعيش بلا طعام شرط أن يأكل حلويات. وكأس العرق في المساء مع عشائه.»

❋

قبل أن ينتقل الى بيروت ويبدأ صفحة جديدة في حياته كان نسيب طانيوس حمّالاً في مرفأ طرابلس. في فترة حوادث ال 58 طعن طرابلسياً مخموراً مثله في وكر للقمار في منطقة باب التبانة على خلفية نقاش سياسي لا علاقة له به وانتهى مرمياً في السجن مدمى يأكله القمل ويصفعه الأقدم منه في الحبس ويطلبون منه خدمات لا تليق بالعبيد فكيف تليق بواحد مثله؟ آمر السجن قبل أن يراه بعد طلبات متكررة وأشفق عليه لسبب ما وهكذا تحسنت حاله قليلاً ولم يعد يُضرب وصار يخدم ويكنس ويمسح البلاط وهذا عظيم في الحبس لأنه يتيح لك الخروج من الأقبية والتنقل في الممرات والخروج الى الباحة وعقد الصداقات مع الدرك والحصول على الدخان ولعب الورق أيضاً. سرعان ما بات عيناً مبصرة وبعد عدد من الخدمات سمحوا له بالخروج كي يرى أهله- كانت أمه مريضة- شرط أن يرجع قبل أذان الفجر. سجناء قلة كان يسمح لهم بهذا وصار منهم وبسبب حسن سلوكه أُطلق قبل ثلاثة شهور من اكتمال مدة حكمه. أبوه الذي لم يساعده من قبل اختار أن يساعده أخيراً. كان يعتبره بلا أدب وبلا نفع لكنه خشي من السمعة العاطلة. خاطر برصيده

المعنوي وذهب الى مكتب رشيد بيك كرامي وقال للمسؤول هناك اسمي فلان الفلاني وأريد مقابلة. المسؤول قال له أعرف من تكون ولكن هل يمكن أن اسأل عن سبب المقابلة. «إبني بلا شغل وفي حاجة الى رخصة سوّاق عمومي.» المسؤول ضحك من الرجل الذي يدبّ فيه الخرف وقال «هذه مسألة بسيطة ولا تحتاج مقابلة، عنده سيارة إبنك؟ يعرف كيف يسوق؟» والرجل تنفس وشرح للمسؤول انه سيشتري للولد المرسيدس وسيدفع أيضاً ثمن النمرة العمومية من جيبه لكن المشكلة ان الولد عنده سجل عدلي، ضرب واحداً سكينة وهو سكران وصارت عنده نقطة سوداء على سجله وهو سأل في المخفر وفي البلدية وهم أخبروه أنه في هذه الحال قد يُحرم من حق الحصول على رخصة شوفير عمومي حتى لو نجح في الامتحان. «... ولهذا المقابلة.»

نسيب طانيوس خرّيج الحبس أثّرت فيه المعاملة المفاجئة الطيبة التي لقيها من طرف أبيه بعد أن احتقره الرجل الختيار طويلاً وأهمله وخصّ بقية أخوته بالمال والعاطفة. ذهب الى الحلاق في الساحة وحلق ذقنه وقصّ شعره الذي طال بسرعة بعد «قَصة» السجن المتوحشة والفظيعة. ابتاع قميصاً أبيض كالثلج واشترى بخوراً لوالدته من الكنيسة وأشعل شمعة وثبّتها جيداً في الصندوق المملوء بالرمل الذي غطّته قشرة شمع سميكة. كانت الكنيسة شبه فارغة لكن الربّ كان هناك مصلوباً على خشبة، ونسيب طانيوس الذي لم يحضر قداساً منذ تخلى عن المدرسة، حلف أن يترك عاداته السيئة وأولها الشرب والقمار وأن يكفّر عن الغمّ الذي سبّبه لأهله مرة تلو أخرى منذ سقط ولم يأخذ السيرتفيكا (الشهادة الابتدائية). لعلها أصدق وأغرب لحظة في حياته.



كانت نيته صادقة لكن رفاق السوء كما كان الأب يسمّيهم سرعان ما ردوه الى مسلكه الأول. تورط في «خناقة» في موقف سيارات الأجرة وهو يشتغل

على خط طرابلس- زغرتا وضرب رجلاً وجاء الدرك وحجزوا سيارته التي تحطم زجاجها الخلفي وساقوه مكبّل اليدين الى المخفر. كانت «الكلبجة» في يديه - أمام عيون الناس الذين يعرفهم ويعرفونه- إهانة أخرى وصفعة جديدة. حلف أن يترك طرابلس. وهذه المرة أفلح. الرجل الذي ضربه لم يرفع دعوة شخصية بحقه. والدرك عقدوا معه اتفاقاً طالما خصّوا به شوفيرية السيارات العمومي. بدأ ينقل الركاب على خط طرابلس- بيروت فاتحاً أذنيه جيداً ومستعداً لنقل أي معلومة مفيدة. كان البلد مضطرباً في تلك الفترة وأحياناً تقع مشاكل لكن السياحة المزدهرة شغلت نسيب طانيوس. في البدء كان حذراً، يسجل اسمه في دفتر الموقف كل صباح، وينطلق بحسب الدور وفي خط مستقيم ذهاباً اياباً بين نقطتين ثابتتين لا تتحركان أثناء غيابه على الاوتوستراد الساحلي: ساحة التلّ (طرابلس) وساحة الدبّاس (بيروت). اكتشف أنه يحبّ سيارته وصار يدلّلها ويتعلم من الميكانيكيين أسرارهم. للمرة الأولى في حياته، وبينما يتناول عملة أجنبية من سواح أجانب أقلّهم بالصدفة من ساحة الدبّاس الى فندق سان جورج البحري الذي يبعد أقل من خمس دقائق، شعر نسيب طانيوس بالفخر. كان خائفاً أن يضيع في طرقات بيروت المجهولة لكنه اكتشف أنه يعرفها بالفطرة كأنها كامنة في عجلات المرسيدس. اكتشف أيضاً أن الحمقى فقط يبدّون حياتهم على الطريق الأبدية بين طرابلس وبيروت. رحلة دقائق من فندق ميتروبول في شاتوبريان أو فندق بالميرا في ساحة البرج الى مطعم فيصل في شارع بلس أو مطعم غلاييني قبالة صخرة الروشة، يجني منها - مع «البخشيش»- أضعاف ما كان يجنيه من عذاب ثلاث ساعات على طريق طرابلس! بقي على هذه الحال فترة ثم اكتشف عالم الليل وصار ينام في السيارة أحياناً لئلا تضيع منه فرصة العمل بين الكباريهات في الظلام. كان الفرح الليلي يمتزج بالرقص والكحول والنساء ويضاعف كرم الزبائن. لم تمض شهور الا وجمع مالاً يكفيه كي يكمل تسديد أقساط السيارة والنمرة الحمراء. اشترى هدايا لأهله

وقبل أن يستأجر غرفة وراء بنسيون بابريكا في شارع جورج بيكو طلب من أمه أن تفتش له عن عروس حلوة بنت حلال كي يتزوجها. «وقولي لها إننا سنسكن في بيروت لا في طرابلس!»

20
آل حبيب 2 - الطابق الرابع

استلقت حلا ميشال حبيب على سريرها تقرأ رواية مغلفة بالنايلون الأزرق الغامق الذي يغلف الكتب المدرسية. من النافذة تسلل هدير راديو ممزوجاً بصوت خشن لجارة غريبة اللهجة تنادي على فتاة «جسيكا! جسي! جسيكا!» كي ترفع صوت الراديو أعلى.

*

أعلنت مؤسسة كهرباء لبنان ان برنامج توزيع الطاقة لليوم الاربعاء سيكون كالتالي:

المنطقة «أ» من الثامنة صباحاً حتى الرابعة بعد الظهر: شارع حمد، رأس النبع، مدام كوري، مستشفى الجامعة الاميركية، الحمراء الوسطى، الصنائع، القنطاري، ساقية الجنزير، فردان، الزيدانية، بئر حسن، وزارة الاشغال، الفتوح، كسروان العالي، ساحل المتن الجنوبي حتى محلة السيوفي، ضاحية جونيه الجنوبية حتى عجلتون ومنطقة جبيل، البترون الساحلية والجبلية.

المنطقة «ب» من الرابعة بعد الظهر حتى ال12 ليلاً: الحرج، العاملية، عين المريسة، جنبلاط، بلس، المنارة، غرب الحمراء، الايتام الاسلامية، سن الفيل، الدورة، الدكوانة، برج حمود، جونية الشمالية حتى نهر ابراهيم، منطقة زوق مصبح الجنوبية والساحلية، اليرزة، الكحالة وبعبدا، وجوارها.

المنطقة «ج» من ال12 ليلاً حتى الثامنة صباح غد الخميس: برج أبي حيدر،

المبسطة، البطريركية، المصيطبة، الملعب البلدي، المزرعة، حارة حريك، برج البراجنة، الشياح، التحويطة، الشويفات، المتن الشمالي والمنطقة ما بين نهر بيروت ونهر الكلب، الرابية والنقاش.

*

كان أشقر الرأس أزرق العينين منحوتاً من عظم بلا نقطة شحم في جسمه. رأته وهي خارجة من المدرسة آتياً من بعيد يحدق اليها. وراء ظهره بانت شاحنة متوقفة أمام سينما سكالا وعمال يُنزلون منها صناديق مشروبات غازية تقرقع في الزحمة الخفيفة لشارع فرن الشباك. كانت تستقل باص النقل المشترك الى البيت في بناية عين الرمانة وحين يكون الطقس صافياً حلواً كما في ذلك اليوم تذهب ماشية. نظرته ابتلعتها. لم تعرف ماذا حدث لها. شعرت بالعرقّ يبلّ ذراعيها كأنها مرضت فجأة وهي تقطع الطريق. لم يتكلم معها في تلك المرة الأولى. لكنها التفتت ورأته واقفاً ينظر اليها. وسّعت خطواتها خائفة. شعرت به يطاردها وحين التفتت مرة أخرى لم ترَ له أثراً. خافت لأنه اختفى. أحسّت أنه سرق شيئاً من جسمها. أحسّت بفراغ مريع في صدرها وظلّت أربعة أيام تتلفت وهي خارجة من المدرسة ولا تعثر عليه ولا على نفسها. في اليوم الخامس ظهر بلا انذار أمام المفرق، بعد المخفر. انتصب حاملاً في يده قبعة قماشاً عليها علامة أديداس. قبالته رأت رجال الأمن الداخلي يدفعون شخصاً مقيد اليدين. لم يكن ينظر اليها هذه المرة لأن مشهد اللص المخفور سرق انتباهه كما سرق انتباه المارة. بينما تدنو منه شعرت، قبل أن يلتفت، بحركة طفيفة تكهرب الفضاء أمام جسمها. 7 تشرين الثاني (نوفمبر) 1974. لم تكن بلغت السادسة عشرة بعد وأرادت أن تختلي به ولم تعرف هل يعرف ذلك من دون أن تتكلم.

*

كانت الصغرى في العائلة ولا تربطها علاقة طيبة بأختيها (هالة وآنا) ولا

بأخيها (كارلوس) ولا بوالديها. أحبّتهم جميعاً لكن من بعيد كأنها تراهم من وراء الزجاج المتسخ لأوتوبيس الدولة. في سهرات الأعياد شعرت بالضجر وتمنت أن تنتهي الليلة بسرعة كي تذهب الى غرفتها وتقرأ. سبقتها أختاها الى الجامعة اليسوعية (القديس يوسف) وهذا أراحها قليلاً لكنه أزعجها أيضاً: باتت وحدها في البيت فضاعفت أمها محاولات التقرب منها. لم تكن تعلم أن الحرب الأهلية ستندلع بعد شهور وأن خط تماس لا يقطع سيفصلها عن الفتى الذي تلتقيه كل يوم أمام سينما سكالا وكل سبت في حديقة السيوفي العامة. كان يكبرها بعامين الا ثلاثة شهور ويدرس في الجامعة اللبنانية، سنة أولى هندسة مدنية. «رضا، رضا حيدر.» ضحكت عندما قال هذا وظلّت تذكره بتلك الدقائق الأولى من التعارف. «بوند، جيمس بوند.» حين نقر اسمها بالبيكار في خشب المقعد الذي صار مقعدهما في جنينة السيوفي ابتسمت: «هذا ما يفعله الأطفال.» عانقها تحت الشجرة بينما المطر يتساقط. في 7 كانون الاول 1974، بعد أربعة أسابيع من هذه اللقاءات، سألته عن أصحابه في الشقة حيث يسكن: «سيذهبون الى الجنوب في العطلة؟» لم يفهم ماذا تقصد. كان يرتب أغراضه جنبه على المقعد تحت الشجرة التي أزهرت في غير وقتها. المسطرة الخشب الطويلة ظلّت تقع على الأرض. ضحكت وقالت له «اتركها، أنا أجمل منها.» في أسفل المنحدر زقزقت طيور فرحة بشمس الشتاء على قطارات أكلها الصدأ. سألها مرة أخرى عن أهلها. «أهلي في البيت.» كانت لا تشبع منه وتجد صعوبة في التوقف عن لمسه. اعتاد أن ينهرها كلما اقترب أحد العجائز منهما.

«لماذا تهتم بهم؟»

«أنتِ مجنونة!»

«أنت تقليدي جداً. هذه بيروت وليست النبطية.»

«هذه جنينة!»

كان وجهها حاراً شديد التورد وسألته مرة أخرى عن الشقة.

21
آل زخور 2 - الطابق الأول

لم يتأكد ريمون زخور من كراهيته للبشر الا مع بدء الحرب. قبل ذلك ظنّ أنه يكره أخته فقط. وأهله طبعاً. ونفسه. كان يعتقد أن خطأ لا يغتفر وقع في رحم أمه قبل الولادة. لم يطلب يوماً أن يكون ذكراً، وسنوات حياته العشرون أكّدت له أن أخته التوأم كانت تعيش حياة أفضل لو لم تكن أنثى. كان يجد نفسه كارهاً للعنف غير قادر على الإذية وحين ذهبت أخته كي تتمرن مع فرقة المقاتلات الكتائبيات في الجبال لم يخطر في باله أنها تتسلى فقط مع صاحباتها، واستطاع بسهولة أن يتخيلها في الخنادق تقوّص وتقتل، أو على حاجز في عرض الطريق تطلب الهوية من شيخ مذعور ثم تطلق رصاصة في صدره. كانت أسرع سبّاحة في المدرسة وأثناء سنتهما الجامعية الأولى فازت بمعظم الميداليات الذهبية واختارتها مجلة الجامعة «أفضل رياضية.» لم يعرف يوماً كيف يتقرّب منها. حتى وهو صغير كانت لئيمة معه، عنيفة، لا ترضى به رفيقاً في الألعاب على درج البناية وفي المدخل. كانت البناية أرستقراطية آنذاك، والحيّ كان هادئاً راقياً قليل العمار وبلا سوق خضر يملأه صخباً منذ شروق الشمس. كان يحبّ أولاد البناية لكنهم صدّوه لأن نادين تصدّه. لم يجدهم قساة القلوب لكنه وجدها طاغية. أخته من لحمه ودمه وتعامله هكذا! اشتكاها لأمه ثم لأبيه وأخذته معها الى الملعب وراء ساحة ساسين مرغمة. حين صارا بعيداً من البيت غدرت به. رمته على التراب وضربته. كانت في حجمه وصارعها لكنه لم يجرؤ على ركلها ولطمها كما

تفعل. انتهى به الأمر الى البكاء وتركته وذهبت كي تلعب. اشتكاها مرات بعد ذلك حتى اكتشف أن الشكوى لا تنفع، لأن أهله مثلها. أمه نادرة الظهور في المنزل تشغلها جمعياتها الخيرية. أبوه اعتاد أن يكشّه عنه بالكتالوج الكرتون المقوى (شيفروليه شيفيل- شيفروليه نوفا- شيفروليه امبالا) كأنه ذبابة. كان غريباً في البيت وما ان دخل مرحلة البلوغ حتى أيقن أنه غريب في المدرسة أيضاً. رأى رفاقه في الحمام في المبنى الأخير يصطفون حيث المباول ويخرجون أعضاءهم ويقارنون طولها. فعل مثلهم من دون أن يفهم ومن دون أن يضحك. لم ينتبه أحد الى شعوره لأن الشعور لا يرى بالعين المجردة. كان مثلهم وليس مثلهم. حين أخبروه عن بنت تنام مع الجميع أبدى الاهتمام لئلا يعرفوا. كان ينظر الى عضوه المنتصب وهو يقف تحت رشاش الدوش القوي ثم ينظر الى الحنفية النحاس اللامعة ويشعر انه لن يفعل ذلك أبداً، لن يقتحم امرأة كما رآهم يفعلون على الشاشة الكبيرة في سينما برج حمود التي صارت تعرض أحياناً «قطشات بورنو للراشدين» بين الأفلام الأميركية. كان يخرج من المكان المظلم صاعداً على الدرج العطن الطويل الى الشارع حيث علقوا اللافتة الجديدة («أقوى الأفلام الأجنبية»)، ويخترق الزقاق الوسخ وراء السينما وهو يرى في عتمة الظل كم هو وحيد وبائس وغير قادر على مصادقة الآخرين. لم يتخيل لحظة واحدة أن الحرب يمكن أن تنقذ مخلوقاً مثله. لكن هذا ما حدث.

«المفاتيح على طاولة السفرة.»

كانت جملة مسحورة لا تصدق: أبوه يسمح له أن يأخذ السيارة! لم تكن الحرب بدأت ولا الجامعة انتهت لكن شيئاً حدث في مكان ما وإسلوب تعامل أبيه معه تغيّر. كانت أخته تغيب كثيراً عن البيت في تلك الفترة ولا يراها الا نادراً وفي معظم الأحيان بالصدفة في حرم الجامعة. سبقته وأوشكت أن تتخرج بينما هو يضيع أيامه حيث لا يعلم: كان يشرد نهاراً كاملاً منطرحاً

على مقعد في كافيتريا الجامعة يدخن ويشرب الشاي ويدبر «مونة» حشيشة للعطلة في الجبل. وجد صديقاً واحداً وكانا يصعدان معاً الى بيت جده في القرية القديمة. مات الجد (الكاهن زخور زخور) عن سبعين عاماً وهو يجمع الدجاج باتجاه القن خلف الكنيسة ساعة المساء. ترك البيت لإبنه الوحيد وكيل الشيفروليه الذي يمقت الكهنوت مقدار مقته للضيعة والجبل. غائباً في السحاب بينما اديث بياف تغني أغانيها الكئيبة رأى ريمون زخور شخصاً لم يره من قبل يدنو منه حاملاً كوباً في يده. لم يعرف من يكون الرجل لكنه مدّ ذراعاً شبه نائمة وقبض على الكأس. لم يجد شيئاً في يده. الكأس مثل الرجل لم تكن حقيقية. على حافة النافذة بانت فراشة ضخمة صفراء، كأن أحدهم لوّنها بالأصفر. لعلها غير موجودة أيضاً.



الصدفة أوصلته الى السلاح. صديقه المذكور أخذه الى معسكر تدريب كي يتفرج. وجد الأمر مسلياً وحين قالت له نادين مرة أنهم جميعاً أغبياء وفقراء ولا يفهمون شيئاً سألها لماذا تتمرن في الجبل اذاً؟ «لم أعد أفعل!» كانت لطيفة وهي تقول ذلك، وبدت حزينة أيضاً، لكن هذا لم يستوقفه ولم يبدل رأيه المستجد: مع القنابل الأولى وجد نفسه في بيت الكتائب- اقليم الصيفي. معركته الأولى على محور عين الرمانة كشفت له شيئاً غامضاً يشبه السعادة. لكن فرحه الحقيقي بدأ بعد أول عملية تطهيرية قام بها ضمن مجموعة إسناد تابعة لجهاز الأمن الذي سيتولى قيادته إيلي حبيقة. لم يعرف ماذا يحدث بالضبط ولم يهتم لأن الأهداف النهائية لا تعني له شيئاً. كان راكعاً فوق صدر رجل يبكي خوفاً مع أنه يرتدي ثياباً قتالية. وضع المسدس في فم الرجل وقبل أن يضغط الزناد شعر أنه حيّ للمرة الأولى.

22
آل ثابت وشرارة 3 - الطابق الأول

خبّأت ليديا زوجها في البيت حتى نهاية حرب السنتين. طوال هذه الفترة لم يخرج الأستاذ سليمان شرارة مرة واحدة من البيت الموصد النوافذ بالشرفة الطويلة المعلقة فوق «نزلة المبرومة». كان قادراً على رؤية الخارج من خلال الفواصل بين خشبات الأباجور الأخضر. وهكذا قضى الشهور الطويلة مراقباً تحولات الحيّ وتكاثر البيوت والدكاكين في الجهة الأخرى من النزلة. شعر بالحزن والضياع متأملاً بسطات خضر وورشات بناء يأتي اليها ناس ويذهب آخرون بينما هو محجوز الى الأبد بين الحيطان في العتمة. أهل الحيّ لم يخطر في بالهم أبداً أنه لم يهرب الى الغربية وأنه ما زال هنا، في الطابق الأول في بناية أيوب، يسمعهم اذا تجادلوا وتعاركوا، ويراهم وهم يشترون الخضر والفواكه من دكان الأخوين جورج ومخايل. كانت الكهرباء تجيء حين ينتظم برنامج التقنين 8 ساعات من 24 ساعة، وكان يود استغلال هذا الوقت في أعمال مفيدة مثل تشغيل الغسالة وغسل الثياب والشراشف، لكن الأمر كان شديد الخطورة لأن الجيران قد يسمعون محرك الغسالة. والدة ليديا التي يناديها «إمرأة عمي» كانت تخبره أحياناً أشياء وتخفّف من وحدته، تماماً كما يخفّف هو من وحدتها، لكن في هذه الحال أيضاً تنبها الى ضرورة خفض الصوت الى درجة الهمس لئلا يتسرب كلامهما الى صحن الدرج. تعلّما كلما سمع أحدهما دعسة على الدرج أن ينبّه الآخر بالاشارات لئلا يتكلم. مع مرور الوقت صار الصوت الخافت جزءاً من شخصيته ومن شخصيتها، وفي أحيان كثيرة شعرت ليديا بالحاجة الى الصراخ لأنها لا تسمع ما يقوله زوجها أو لا تسمع ما تطلبه أمّها.

23
آل الخوري 3 - الطابق الثالث

«أرسلت لنا القيادة صحافياً أميركياً يريد تصويرنا في المتاريس. طلب منا أن نأخذه في جولة في منطقة الفنادق. أخبرناه أن هذا خطر جداً. قال صورت ما هو أفظع بكثير وعلى الأقل الطقس في لبنان ممتاز. لم نفهم ما علاقة المناخ بحديثنا وسألناه من أي مدينة في أميركا يجيء؟

«من سايغون.»

أخرج من جعبته صورة لمقاتلين فيتكونغ في فيتنام واقفين أمام قرية محروقة. وجوه يسيل عليها عرق وسخام يشبه وحلاً. أشجار كثيفة وغريبة لا تشبه أشجارنا. كان أحدهم يحمل طفلة على كتفه ولم يكن واضحاً هل هي حيّة أم ميتة. سألته وقال إنه لا يعرف، لم يسأل. جلسنا على صناديق الذخيرة نشرب شاياً وهو يحكي عن أسفاره. غطى حروباً أهلية في إفريقيا أيضاً لكنه لا يحمل الصور في جعبته. أخرج علبة جيتان وأراد أن يوزع علينا سجائر. أخرجنا علبنا الحمراء. ضحك وقال انه كان يدخن مارلبورو لكنها مقطوعة في سايغون ولهذا انتقل الى الدخان الفرنسي، وليس سيئاً. نوت باد. كان يدعى جيمي ولم أحفظ بقية اسمه. نحيل ملون العينين بلحية شقراء صغيرة. صار صديقي لأنني أعرف الانكليزية أكثر من الباقين. أخذناه الى أقرب نقطة من فندق فينيسيا، متراس في أحمد شوقي غير بعيد من مركزنا في ستاركو سنتر وشرحنا له سير المعارك. «فينيسيا كان لنا لكنهم أخذوه. انسحبنا الى الهوليداي إن وظلوا يهجمون علينا من ثلاث جهات حتى أخذوه أيضاً. انسحبنا الى هنا وانتشرنا بين فندقي هيلتون ونورماندي من جهة البحر وما زلنا نسيطر في هذا المثلث لكنهم يستخدمون الملالات والدبابات والوضع

حرج جداً. عندنا دبابات أخذنا بعضها من ألوية الجيش لكن معهم ذخيرة أكثر منا. وعندهم أفضلية النقط العالية المشرفة: تلة السراي وبرج المرّ وسطوح الفنادق، خصوصاً فينيسيا أمامك، والهوليداي إن فوقه، على التلة.» سألَنا أين فندق سان جورج اذاً؟ ضحكنا وقلنا هذا بلا قيمة، انظرْ هناك تحت فينيسيا، تلك البناية الحمراء على البحر، هذا سان جورج وهو غير مهم استراتيجياً. أخبرنا أن معظم أصحابه في وكالات الأنباء كانوا ينزلون هناك قبل نشوب الحرب، ولهذا يسأل ولأن مسبح وبار سان جورج مشهور وصوّروه في أفلام أميركية. كان ذلك مضحكاً ونحن ننحني ونركض هرباً من الرصاص. في الليل أبصرنا شعلة مدافع الدوشكا الرشاشة في الطبقات العليا من برج المرّ. سألنا هل يستطيع رؤية حيّ اليهود بالمنظار الحربي؟ كان ذلك أيضاً طريفاً لأننا كنا على بعد أمتار من الحيّ الذي يريده. بسبب ركام الأبنية المتساقطة على الطريق اضطررنا للدوران حول ستاركو ثم للركض والزحف في الخندق المتعرج بين باب ادريس ووادي أبو جميل. كنا نقول «الخندق» لكنه سوق محروق محاصر بالركام وفي أرضه جثث زرقاء تتعفن وتأكلها الكلاب ولا أحد يريدها. أراد جيمي أن نقرفص ونشعل قداحاتنا «الزيبو» كي يصور جثة تسبح في بركة أمطار. صوّر يداً منتفخة قطع أحمق اصبعها كي يسرق خاتم الزواج. كانت الرائحة فظيعة. حين فرقع الرصاص على سيارة محروقة أطفأنا القداحات. سعل جيمي كأنه أصيب بنوبة ربو وهو يتنقل بين مقاعد الكنيس. دخلنا من نافذة مخلوعة لأن الباب موصد بالسلاسل. سألناه هل هو يهودي؟ قال لا، أنا مثلكم، لكن جدتي يهودية وزوجتي أيضاً. «أنت ماروني؟ عندكم موارنة في أميركا؟» صوّرنا ضاحكين على درج الحارة القرميد ذات الطبقات الثلاث التي يملكها نديم سرور ثم تصورنا في البيت الفخم للتاجر جميل عطية الذي خطفوه وأطلقوه مقابل فدية. جيمي صوّر رفوف الكتب والتحف الثمينة على المناضد العاج وسألني كيف لم تنقطع الكهرباء هنا وكل البنايات المجاورة محطمة وعلى الأرض؟ قلت له اسألني أولاً كيف لم يسرق أحد

هذه الغرف بعد! ارجعْ غداً ولن تجد شيئاً! سمعنا طقطقة الرصاص مثل طقطقة أكواز الصنوبر حين ترمى في النار. أطفأنا اللمبة وجلسنا ندخن في الظلام. أحدهم عثر على قناني نبيذ لكننا لم نجد فتاحة. أخرج جيمي أداة متعددة الاستعمالات من جعبته وفتح القنينة تلو القنينة ساكتاً. كان هدوؤه جميلاً. شعرت بالراحة وأنا أشرب النبيذ ونسيت للحظات أنهم قتلوا أخي شارل بعد أن عذبوه.»

24
آل عازار- الطابق السابع

نزلوا في الشقة الصغيرة التي هجرها آل صالح الى الغربية هرباً من الخطف والقتل. وجدوا أثاثاً قديماً شبه مخلع. استخدموه لأنهم لا يملكون شيئاً ولأن القليل الذي كان لهم صار لآخرين نزلوا في البيت الذي هجروه في الحيّ القديم. لم يكن الصيدلي راجي عازار يعلم وهو يدخل بناية أيوب للمرة الأولى مع السمسار سليم الحلو الذي دبّر له الشقة، أنه سيموت فيها بعد سبع سنوات. كان يتحرك مثل الملطوم على رأسه لأن زوجته تزعق (وكذلك أولاده) كلما بدأ القصف من الكرنتينا أو على الكرنتينا. نقل بعض الأغراض وجلب العائلة وعندما عثر أخيراً على بيك آب صغير وذهب كي يجلب «العفش» وجد الباب مخلوعاً والكنبات محتلة: عدد لا يحصى من الأولاد الأكراد الصغار منعوه بالصراخ من سحب قطعة واحدة. لم يقاتلهم ورجع بعد شهور كي يرى ماذا حدث لبيته. لم يجد البناية: كان الشارع مدمراً. سأل في مركز «القوات» الجديد هل يحصل على تعويض. كانوا يحتفلون بالنصر على الفلسطينيين والأكراد والشيعة، ويأكلون فولاً مدمساً وفتة حمص باللبن. ضحكوا منه. خرج حائراً وسار بين تلال الزبالة حيث كانت

البناية ورأى حفرة نصف مطمورة تظهر منها أعضاء بشرية. من جهة الكرنتينا التي تُجرف بيوتها الباطون والصفيح، هجم دخان كثيف يعمي العيون. حين بلغ الشقة سألته زوجته أين كان طوال النهار؟ لم يقل شيئاً. سألته لماذا لا يفعل مثل الناس وينزل الى الحيّ القديم ويرى هل البيت بخير، ماذا ينتظر، أليس البيت بيتنا؟ لم يردّ وظلّ طوال المساء ساكتاً.

❊

لم يكن صيدلياً حقيقياً لكنه تمرن في صيدلية خاله على ساحة البرج (الشهداء) وظلّ يساعده حتى تولى أمرها. كان خاله بشارة يعطيه مرتباً شهرياً يكفيه كي يحيا حياة مستورة، وحين مات خاله حفظ ابن خاله العهد وزاد له المرتب الشهري قليلاً. ظنّ راجي عازار أن الحياة هكذا، معقولة ومقبولة وحسنة، ولن تتبدل. كان ذكياً الى حد، سهل المعشر طيب القلب، يجيد الاصغاء الى شكاوى العجائز ويصف لهم الدواء الأنفع والأرخص. أخذ عن خاله معرفته المبسطة بالعقاقير وتركيبها واستفاد من فهمه الفرنسية كي يقرأ التعليمات والمعلومات المرفقة. لم يدرس بعد شهادة السرتفيكا بسبب فقر أهله ولو قدّر له الربّ بيئة أفضل لدرس الطبّ ونفع الناس طبيباً. خاله انتبه الى مهارته في تشخيص الأمراض. كانت ذاكرته ممتازة ويعرف كيف يقارن الحالات ولا ينسى دواء وصفه مرة لمريض حتى لو مرّت سنة كاملة على الوصفة. وجد التعامل مع أهالي البرج والجميزة سهلاً، لأنه مثلهم نشأ في عهد الانتداب الفرنسي وأتقن باكراً فنون اللغة اللبنانية التي تمزج العربية بالفرنسية. فضّل خدمة الزبائن مباشرة وجهاً لوجه، لكنه لم يسدّ الأفق أمام الصيدلية عندما ركّبت جميع الصيدليات هواتف وصار زبائن كثر يتلفنون طالبين تسليم الدواء الى المنزل. شغّل الصبي الكبير (سعيد) معه لأنه لم ينفع في المدرسة. أراد أن يعلّمه لكن الصبي غريب الرأس ولا يتعلم. تكبّر على خيبته واشترى له دراجة مستعملة. درّبه على الاسلوب المحترم في الكلام مع ربّات البيوت ونبّه عليه ألا يطلب بخشيشاً أبداً. 1 - لأن التوصيل

خدمة مجانية من الصيدلية تؤمن لها عدداً أكبر من الطلبات. 2 - لأنه عامل توصيلات وليس شحاذاً.

«واذا أعطوني من دون أن أقول لهم؟»

«تأخذ وتشكر.»

القسم الاعظم من الطلبات على التلفون (أسبيرين وبنادول وفاليوم ومالوكس وحبوب فحم وكالينيك 22 لعسر الهضم وأقراص رني للحموضة) يأتي من موظفي الاستعلامات في البنسيونات والفنادق. استعمل دفتراً أجندة ضخماً لتسجيل الحسابات واكتشف أنه يبيع لهؤلاء المجهولين نزلاء الغرف المتطابقة أكثر مما يبيع لساكني المنازل. لم يتمكن من تحديد سبب الظاهرة لكنه شكر الربّ على ازدهار التجارة. في وقت قصير امتلأ الصبي المحبّ للمعجنات وسندويشات البطاطا المقلية شحماً. جلب له دراجة أمتن وأعلى. وأعطاه قبعة تقيه ضربة الشمس.

❋

بنسيونات: أغريبا (شارع أغريبا)، الأحرار (ساحة الدباس)، آنا (شارع اللنبي)، أريزونا (جادة الفرنسيس)، دنيا (شارع الرازي)، فمينا (شارع أحمد شوقي)، بيت المقدس (صيداني)، ليلي (مينا الحصن)، بابريكا (جورج بيكو)، رويال (جادة الفرنسيس)، سلوم (شارع رزق الله)، أم كلثوم (الجميزة).

فنادق: أميركا (ساحة الشهداء)، أستوريا (الشهداء)، بيروت بالاس (الشهداء)، بياريتس (فردان)، بوسفور (الشهداء)، سنترال (الشهداء)، كلاريدج (الفرنسيس)، أوروبا (المرفأ)، الأهرام (شارع فوش)، غراند أوتيل (شارع الأمير بشير)، المدينة (باب ادريس)، بسول (شارع شاتوبريان)، كابيتول (رياض الصلح)، ميتروبول (شاتوبريان)، لوكس (اللنبي)، ماجستيك (الأرز)، نيورويال (الفرنسيس)، نيو سافوي (الشهداء)، نورماندي

(الفرنسيس)، بالميرا (الشهداء)، رفائيل (شارع الحويك)، ريجنت (شارع ويغان)، سان جورج (شارع أحمد شوقي)، ويندسور بالاس (الأمير بشير).

25
آل حبيب 3 - الطابق الرابع

رنّ الهاتف. لم تسمعه الست غبريلا (غابي) حبيب بسبب حنفية الماء. كانت وحدها في البيت واقفة الى حوض المجلى تنظف سمكة تزن أكثر من كيلوغرامين. جسمها الغريب عنها اتبع حركات أوتوماتيكية حفظها من حياة سبقت نكبتها. يداها فركتا السمكة بالملح والماء ثم بالخل والماء متبعة تقليد غسل الفراريج وصواني أفخاذ الدجاج لا السمك الطازج المجلوب هذا الفجر من عرض البحر قبالة ساحل جبيل حيث يصيد أعضاء النادي أصدقاء زوجها. السيد ميشال حبيب في مكتبه في شركة الغاز على بعد عشرين دقيقة بالسيارة، ولو كان هنا نسمعه الآن يتكلم معها بصوت هادىء وهو يقفل الحنفية. لا يشرح لها مرة أخرى أن زيت السمك الثري الذي يعطي اللحم نكهته كامن في الجلدة (القشرة) وأنها الآن تزيله بالماء، لكنه يفك «وزرتها» ويجلسها الى طاولة المطبخ ويربط «الوزرة» على خصره ويتولى بنفسه اعداد السمكة للفرن. لعله يفعل ذلك وهو يلعن الخادمة التي هربت، لكنه طوال الوقت لا يضايق زوجته ويصرّ على ملاطفتها. أحياناً تودّ أن تطلب منه أن يكفّ عن ذلك وأن ينساها (أن ينسى أنها موجودة) اذا كان الأمر ممكناً. وهذا صحيح (هي غير موجودة) لكن ليس دائماً. المسكنات القوية والأدوية المضادة للانهيار العصبي خدّرتها في البدء ومحت قسماً من ذكرياتها. لكن الألم لم يتراجع. كان السيد ميشال يستيقظ أثناء الليل وحيداً في السرير ويتبع رائحة حزنها المالحة حتى يعثر عليها في إحدى الزوايا

المظلمة والبعيدة من غرفة البنات تحضن ألبوم الصور أو غرضاً من أغراض الصبي وتشهق بالبكاء. أفرطت قصداً في الجرعات والدكتور شكّ فيها كما يبدو وغيّر الدواء. عالجها بالليثيوم الذي يؤثر في الدماغ وقال لزوجها إن هذا ضروري فهي قد تنجح وتقتل نفسها اذا كررت المحاولة. فقدت ثلاثة وعشرين كيلوغراماً، لكن الدواء الجديد غشّ أهل البيت ولم ينتبهوا لأن جسمها تورّم بالماء. كانت عاجزة عن بلع الأكل، عاجزة حتى عن الجلوس الى المائدة في «أوضة السفرة». لم يقهرها الشرشف المطرز على الطاولة الثقيلة، لكن الكرسي الفارغ عند الطرف المواجه لكرسي زوجها فتك بها مثل شوكة ساخنة تمزق قلبها. كان عذاباً حارقاً غير قابل للوصف، لا تفيد معه التشابيه والاستعارات ولا يُعبَّر عنه بالكلمات لأنه يتجمع في داخلها حيث عاش إبنها تسعة شهور قبل أن يخرج الى نور العالم. كانت تنظر الى الوجوه الحزينة الساكتة من حولها ولا ترى الا الأسود، كأن العالم جرّة مملوءة بالحبر الأسود، بمادة كثيفة لزجة تمنع تسرب الضوء والهواء. لم تكن قادرة على الحركة في قعر تلك الجرّة لكنها مع ذلك جربت الدخول الى الحمام حين طلب جسمها، وجربت القعود على الكنبة قبالة التلفزيون عندما طلب الآخرون. حطمها الدواء وتضاعف ألمها حين اكتشفت الى أي حدّ يمحو العلاج ما تتذكره. شعرت أنها تنقسم الى أشخاص غرباء لا تعرفهم وأرادت أن تقفز عن الشرفة، لكن جسمها ظلّ راكداً متكتلاً في الكنبة العميقة جنب التلفون الأسود الضخم. رأت ذبابة خضراء تحطّ على قرص الأرقام الفضي وتتنقل من الصفر الى التسعة كأنها تلهو. رمشت بعينيها وسمعت طنيناً. التصقت الذبابة بالسلك ثم طارت وحطّت على يدها. رأت بقعة خضراء على جلد لم يعد جلدها. تقصّف شعرها وماتت جذوره كأنه صُبغ ألف مرة. كانت عائدة من الحمام تجرّ ساقها ورأت باب الخزانة يعترض دربها. لم تعرف من تكون العجوز التي تنظر اليها من المرآة. ردّت الباب الذي نسيه

زوجها وهو يلبس على عجل وعادت الى السرير. ضجة الصباح في الشارع وصلتها مثل طنين الذبان الذي يبقّع جلدها بالأخضر. لم يكن الصباح مختلفاً عن أي وقت آخر. لم يعد الوقت هو نفسه. كانت هنا لأن جسمها لا يأخذها الى درابزين الشرفة. عبرت الشهور عليها وكلّما رنّ الهاتف تنتفض وتهرع اليه. يسبقها زوجها أو تسبقها البنات. مرات تسبقهم. وفي جميع الأحوال لا يحدث أي شيء. انزلقت السمكة في حوض المجلى. العين الطرية حدّقت شبه حيّة اليها. تعاطفت مع السمكة المشقوقة البطن وأوشكت أن تحكي معها وأن تخبرها عن كارلوس (كارل) الذي تملأ صوره البيت لكننا لا نعرف أين هو لأنه لبس قميصه الأصفر يوم الجمعة وخرج ولم يرجع. أقفلت الحنفية. عندئذٍ فقط سمعت رنين التلفون. لم ينبئها قلب الأم بالآتي. مشت شبه نائمة. يدها رفعت السمّاعة بلا خوف. كان صوتاً لا تتذكر أنها تعرفه وسألها هل الأستاذ ميشال حبيب موجود. أجابت أنه في العمل الآن، وسألت من يطلبه.

«أنتِ زوجته؟»

«أنا زوجته، لكن من الذي يتكلم؟»

«شخص عنده معلومات عن إبنكم.»

26
آل الخوري 4 - الطابق الثالث

«في البناية المحروقة وراء بلدية بيروت حيث احتجزت الأخوين فقيه ثلاثة أسابيع وتكلمنا، كنت أسمّي نفسي بإسم أخي شارل الذي خطفوه وقتلوه وراء خط التماس وهو ذاهب الى صاحبته في طلعة غراهام في عين المريسة. سأخبركم، لكن ليس الآن. جيمي سألني ونحن نشرب النبيذ الذي لم يشربه جميل عطية، كيف بدأت أقاتل ولماذا بالضبط؟ لم أضحك

مع أن الباقين ضحكوا. لم يقل «متى»، قال «كيف». لم أخبره عن البداية لا لأنني نسيت بوسطة مصطفى رضا ولكن لأنني في تلك الليلة كنت مسروراً بالنبيذ والحكي بالأميركية. لم يسألني عن أخي مع أنني عرفت أن الآخرين أخبروه. من عينيه عرفت. لكنه لم يسألني وأنا فكرت أن هذا أيضاً ما فعله وهو يصور الفييتكونغ والطفلة التي لم يتأكد هل هي حيّة أم ميتة. سألني عن أهلي وحكيت له بعض الأشياء وأظن أنه كتبها في جريدته لكنني لم أتأكد لأننا في معارك الأسواق لم نكن نتابع الجرايد الأميركية. بينما أحكي بالانكليزية وأشرب وأدخن فكرت في أيام الجامعة وسهرات الوست هول ولم أفهم لماذا يبدو الزمن أطول بكثير مما هو مع أنني طوال الوقت أركض وأشعر به أسرع مني. أخبرني عن إبنته التي تعيش مع أمها في نيويورك وأنا فكرت أنه يكذب، أنه لا يمكن أن يحكي عن إبنته هنا. لكنني أصغيت اليه وشعرت أنني لست نفسي. ربما لأننا نتكلم بالإنكليزية. أو لأننا نقعد بلا لمبة. مع النبيذ خفتت الانفجارات وابتعدت. كانت ليلة هادئة نسبياً، بلا قصف ولا اشتباكات قريبة. كان يتكلم بطريقة لا تشبه طريقة الصحافيين. أراد أن يعرف هل عندي فتاة ولم أفهم قصده وأخبرته أنني لم أتزوج بعد. ضحك وقال إنه يقصد فتاة أي إمرأة لا إبنة. قلت عندي. سألني أين هي، في بيروت؟ قلت هنا، على بعد خمس دقائق، في الأشرفية. «وتسكن وحدها؟» أخبرته أنها مع أهلها. سألني هل أراها دائماً. قلت أراها في العطل حين أذهب الى البيت كي أتحمم. «تتحمم في بيتها؟ وأهلها هناك؟» شرحت له أنني أتحمم في بيتي لكن بيتها فوق بيتي، أنا في الطابق الثالث وهي في الرابع، نحن جيران. أعجبه ذلك وسألني هل أعرفها منذ زمن بعيد. قلت لا، تصادقنا حين جاءت مع أهلها الى البناية، في بداية الحرب. «قبل أن تصير أنت مقاتلاً؟» أخبرته أنني أقاتل منذ بدأت الحرب لكن في ذلك الوقت كنت ما زلت أنام في البيت. «وأهلها لم يضايقهم أنك تحمل السلاح؟» سمعت

موسيقى. أحدهم عثر على فونوغراف ببوق، ووجد الاسطوانات في ضوء القداحة. موسيقى لم أسمع مثلها من قبل. شعرت بالنعاس وتركت نفسي أنام بينما جيمي يحكي عن اليابانيات. لم أفهم ماذا يقول بالضبط لأنني لم أهتم. لكنني أحببت صوته مع الموسيقى في الظلام. لولا انقطاع الكهرباء لم نخرج من هناك تلك الليلة. بلغنا المركز الموقت وراء شارع فوش ونحن نترنح وجزماتنا مثقلة بالوحل تمنعنا من الطيران. رائحة لحم بعجين شهية وساخنة ملأت المكان كأنها تنتظرنا. أكلنا وشربنا شاياً ثم ودعنا جيمي كي يذهب الى فندقه. كانت الصواريخ البعيدة تشعل السماء مثل ألعاب نارية. سألته هل سيعود. قال بالتأكيد. اتفقت معه على النهار والساعة وقلت نلتقي هنا وأريد أن أريك شيئاً. «ماذا؟ مثل ماذا؟» ضحكت وقلت حين تأتي، وتذكر أن تجلب الكاميرا!»

27
آل زغلول 3 - الطابق الأرضي

قالت كوليت لا يا أمي، لا. جلست راغدة زغلول على الكرسي وهي تبكي. لم تكن ستضربها لكن البنت خافت منها لأنها رفعت صوتها ولأنها اقتربت منها ويدها مرفوعة. قالت لابنتها أنا لا أضربكِ، أنا لا أضربكِ. استغلت كوليت الفرصة وتابعت المحاولة. هذا سبب عراكهما في البيت الفارغ الا منهما في هذا الصباح المشمس: أرادت كوليت أن تذهب مع أمها الى مخفر الدرك أو الى الستّ أرزة في المستوصف التابع لحزب الكتائب للتبليغ عن أبيها. لم تقبل الأم.

«أنا أتحمل أن يضربني، وأنتِ أيضاً يا أمي، لكنه صار يمدّ يده الى زوزو!»

قالت الأم لا، قالت ضربه مضطراً كي لا يرانا في التخت، قالت أبوكِ

يحبّ يوسف، ويحبّكِ أنت، يحبّكم كلكم يا كوليت، أنتم أولاده وكل تعبه من أجلكم، هذا ليس أبوكِ الذي يتصرف هكذا، هذا بسبب العرق اللعين، ألا ترين كيف يكون حين لا يشرب؟

*

لم تكن تقنع إبنتها بأشياء غير صحيحة لأنها كانت تعني ما تقول وتؤمن به كما كانت خالتها التي ربّتها تؤمن بالكنيسة أو بربّنا يسوع المسيح الذي مات من أجلنا على الصليب. ناطورة «المبرومة» ليست متدينة مثل خالتها، لكنها تعرف زوجها معرفة خاصة قديمة وتودّ لو تستطيع أن تعود في الزمن الى الوراء وأن تشير الى الشاب الجميل الذي تعطر بالكولونيا العماطوري 14 من أجلها وان تقول لأولادها، هناك، هذا هو أبوكم، انظروا إليه! حتى اليوم، ورغم كل شيء، ما زالت فخورة به ولا تطيق ان يُذكر بسوء. كانت تودعه في الصباح الباكر وهو يلبس الأوفرأول النيلي ويحمل صندوق العدّة و» المطبات» الكاوتشوك ذات الأحجام المختلفة، مخنوقة الأنفاس، كأنها غير قادرة على العيش من دونه، مع أنها في مرات قليلة فكرت أنها لن تبكي عليه اذا غاب بلا عودة. لم تكن متعلمة ولم تعرف يوماً كيف بالضبط يعيش الآخرون وراء أبواب بيوتهم، لأن خالتها لم تخبرها ولأنها نشأت يتيمة ولولا الخالة كانت عاشت وماتت في دير اللعازارية مع «بناديق اللعازارية» الذين لا يرحمهم أحد.

*

هذا غريب وصعب أن نفهمه لكنه حقيقي: طوال هذه السنوات لم تحقد عليه ولم تتمنَ أن يختفي من الوجود وهي تبصق دماً في المغسلة وترى أن سنّها قد انكسر. لم تطلب أن يسقط في بئر فلا يخرج منها، حين جلدها بالحزام (بالبكلة الحديد) وسبّب لها جروحاً غائرة. لكنه حين بدأ يضرب البنات تمنت له الموت في الطريق. دافعت عنهن كأنها فقدت عقلها. لو لم

يبدل مسلكه ماذا كانت ستفعل؟ لكنه كفّ عن ضرب البنات وهي شعرت أنه فعل هذا من أجلها. ندمت لأنها طلبت موته. كان يعود في المساء محطم الجسم ويغتسل وهو يلهث كأن روائح النهار سمّمت صدره. في بعض الفترات توقف تماماً عن ضربها وتحوّل من جديد الى الرجل القديم الطيب الذي تزوجها. حين أنجبت الصبي بعد سلسلة البنات اشترى لها اسوارة ذهب لم تعرف كيف تمكن أن يجمع ثمنها. تساعد مع البنات وطوال أيام ظلّ يعود أبكر من وقته المعتاد كي يريحها من أشغال البناية أو كي يجلس على الكرسي في المدخل متكلماً مع العابرين وهو يحمل إبنه الذي سمّاه يوسف. صار حنوناً مع البنات أيضاً وحين طلبت منه داليا (الأشجع والأسرع في كل شيء) أن يأخذهم جميعاً الى ساحة البرج في العيد لم يقل لا، وأخذهم. كان نهاراً من العمر وأكلوا كنافة بقشطة من محل مشهور مزدحم يسمّى «الصمدي». يوسف الصغير دبّ على الرخام تحت تمثال الشهداء والفتيات ضحكن ضحكاً لم تسمعه من قبل وأبوهن داعبهن وأفرحهن واشترى لهن حلقاً «أنتيكة» قصديراً مزيناً بخرزات ملونة.

*

تألمت على الدرج الطويل. كان صدرها ضيقاً وتعبها شديداً لأن كوليت أنهكتها. في النهاية أرسلتها الى السوق كي تشتري عدساً مع أنها لا تنوي أن تطبخ عدساً، وطلبت منها أن تكنس وتمسح مدخل البناية حين تعود لأن الرمل دخل مع الهواء، مع أن هذا أيضاً بلا ضرورة. كانت تخترع لها شيئاً يشغلها عنها. في مثل هذه الصباحات، حين يوجعها جسمها كأن جنزير الدبابة مرّ عليه، حين تنكمش الروح في بطنها وتصير أصغر من نقطة، لا تريد راغدة زغلول الا أن تقف وحيدة على سطح البناية، حد خزان الماء، وسط تنكات السمن التي ملأتها بالحيلة تراباً وزرعتها سرّاً بالزهور.

28
آل زخور 3 - الطابق الأول

في بداية معركة الفنادق، قبل سقوط أوتيل فينيسيا في قبضة «القوات المشتركة للحركة الوطنية والثورة الفلسطينية» كما يسمّونهم في الغربية، التقى ريمون زخور صدفة ابن الجيران المقاتل في كوماندوس الكتائب طوني عزيز ثابت، الأخ الأصغر للشهيدين موسى وإيلي ثابت. لم يلتقه في الطابق 11 من فينيسيا حيث ركّز نفسه في زاوية كاشفة تشرف على نقطتين: 1 - منعطف الطريق البحري المسمّى كوع سان جورج. و2 - الطلعة القوية (طلعة فينيسيا) صوب برج المرّ. لم يلتقه أيضاً في «المبرومة» التي لم يعد يذهب اليها كثيراً لأنه صار يحصل على جوارب جديدة مغلفة بالنيلون كلّما احتاج الى تبديل الجوارب. وجد طوني ثابت قاعداً على درج فؤاد شهاب يأكل منقوشة زعتر ويبدو مخضوضاً أصفر الوجه كأنه تعرض للضرب قبل ساعة. كان جسر فؤاد شهاب يرتج والدرج المتصل به يتمايل في الفضاء، لا بسبب السيارات والشاحنات التي اختفت أو احترقت، بل بسبب مدافع الـ106. مواقع التباريس عند طرف الجسر من جهة الشرقية تبادلت قنابل مع مواقع سبيرز في الطرف الآخر للجسر الذي سُمّي معبر الرينغ لأنه حلقة رابطة بين شطري العاصمة. طوني ثابت أكل منقوشته ببطء شديد ناظراً الى الدخان. أصيبت بنايات تحتهم، على بعد 190 متراً باتجاه البحر، في ساحة البرج (الشهداء). لعلها بناية الشرطة. أو أوتيل أستوريا. بدا طوني أطرش لا يسمع الصواريخ الصافرة. هزّ رأسه حين ألقى عليه ريمون زخور التحية. كان رشاشه ملقى على الدرج جنبه ولم يبعده ولهذا اضطر ريمون للجلوس جانبياً على درجة في الأسفل. مدّ طوني المنقوشة صوبه ثم غيّر رأيه وقسمها

بنفسه وأعطاه الجزء الأكبر. قال ريمون: «لا، أكلت قبلك.» لكن طوني أصرّ وريمون مسح يده على البنطلون العسكري وأخذ القطعة منه. كانت محمصة، سماقها حامض قوي يطغى بطعمه على الزعتر والزيت. ملأ الريق فمه. بينما يقضم مرة أخرى اهتز الجسر بدرابزينه المخلع كأنه سيقع على رأسه. ظلّ طوني ساكتاً.

*

ريمون زخور يعرفهم منذ كان صغيراً. ملاك الموت مدّ يده وقطفهم واحداً تلو الآخر بترتيب الأعمار (موسى ثم إيلي ثم طوني) كأنه يتفقد تواريخ ميلادهم في بطاقات الهوية. كانت أجراس كنيسة الأرمن المجاورة تقرع لأنه يوم الأحد، مع أن عاقلاً لن يحضر القداس في هذه الساعة. في طرف موقف ساحة الدباس، حيث يتطاول ظلّ برج الكنيسة، بانت ثلاث سيارات تاكسي محروقة أُبعدت جانباً بجرافة خلّف جنزيرها أثراً في الزفت. سكن دوي المدافع خمس دقائق، وطوال هذه اللحظات المشمسة بدت الحرب بعيدة وقديمة وغير حقيقية. ثم هدر العالم من جديد.

*

لم يعرف أنه سيلحق بأخويه بعد أربعة أيام. لم يحضر جنازته لأنه لا يذهب الى الجنازات. لم يفكر فيه مع أنه وهو صغير تمنى لو يتصادقا. كانوا يسكنون الطابق ذاته، الباب يواجه الباب، وثلاثتهم كانوا أصدقاء نادين. وحتى أختهم التي تكبرهم جميعاً والتي تزوجت لاحقاً واحداً شيعياً من الجنوب وجلبته كي يسكن معها في بيت أهلها ثم طلّقته بسبب الحرب، حتى أختهم ليديا كانت تحبّ نادين وتناديها كي تلعب معها شطرنج أو داما. الأوسط إيلي كان مولعاً بأخته. نادين لعبت به وأكثر من مرة رآهما في الليل متعانقين على الدرج مع أنه يعرف أنها فعلت ذلك مع الأكبر أيضاً، موسى الذي جلب الى مدخل البناية دراجة نارية تقاتل الجميع كي يركبوها. في

الباص الذي يأخذهم الى المدرسة كانوا يتحلقون في الخلف ونادين معهم وهو يبقى في الأمام، أقرب الى مقعد السائق، ينظر عبر الزجاج الأمامي الى مرور المدينة ويشعر بألم دائم في زلعومه. طوني كان يتركهم ويأتي ويسأله شيئاً أحياناً او يخبره شيئاً. لهذا السبب بقي في رأسه. وهكذا شاركه قبل أربعة أيام من مقتله منقوشة على درج فؤاد شهاب. حين أرسل الجيش طوافات عسكرية لإخلاء الذين علقوا في فينيسيا، كان ريمون زخور يتمدد في موقع محصن في الطابق 25 من الهوليداي إن، يدخن سيكارة لفّها بنفسه وينظر الى صور نجوم أميركيين مبروزة ومعلقة على حيطان الصالة، تهتز وتوشك أن تقع بسبب هدير الطوافات. اعتاد أن يتنقل بين الفندقين عبر متاهة الكاراجات السفلية. أحد عمال فينيسيا أرشدهم الى دهليز مقفل لم يعرفوا به من قبل يمرّ تحت الطريق البحري ويفضي الى مرفأ اليخوت أسفل فندق سان جورج. كان ممراً اسطوانياً يشبه أنبوب المجارير لكنه عالي السقف ومضاء بالنيون، وعندما فرقعت خطوط الكهرباء نقلوا الى الدهليز شمعاً وقناديل، وحين اكتشفوا حاجتهم الدائمة اليه جلبوا لمبات بأسلاك موصولة الى بطاريات سيارة. هذا الخط التمويني السرّي أطال معركة الفنادق.

29
آل سمعان 2 - الطابق الثاني

لم ينزل الى المستودع الذي صار ملجأ. شعر بالبناية تتحرك من مكانها حين أصابت راجمة الصواريخ مربض مدفعية حد «ميني ماركت السيدة». في البدء ظنّ أنهم أصابوا البناية وانتظر أن يسقط السقف ويطمره حياً. حتى أنه صلّى بلا وعي صلاة أخيرة وطلب الرحمة، لا لنفسه ولكن لزوجته وأولاده في ليماسول- قبرص.

*

قفز الدرجات قفزاً الى أسفل. أفزعته الصرخات التي تقوى وخاف أن يجد مدخل البناية مهدماً. لكنه لم يرَ الا المكان الفسيح الفارغ وكيساً سقط من المتراس الرملي ورجلاً أشقر الشعر لا يعرفه يطلّ من وراء علبة المصعد، خارجاً من تحت الأرض. كان نحيلاً كالعود، أخضر العينين، يمدّ رقبته الى الأمام ويتلفت، وحين رأى المهندس مقبلاً في بيجامة النوم سأله هل أصابوا بيته. ألبر سمعان فتح فمه لكن الصوت لم يخرج من حلقه. كان رعبه بلا نهاية. لم ينتبه الا لاحقاً، حين توقف القصف وصعدوا الى بيوتهم من جديد، أنه ترك بابه مفتوحاً وهو يهرب من الموت.

«خذْ! اشربْ!»

في عتمة الملجأ المضاء بقنديل كاز رأى صناديق كرتون وأثاثاً مغطى بالنايلون الأبيض السميك ووجوهاً شبحية ممسوخة مشوهة. كانوا يتكومون فوق بعضهم ولم يعرف من الذي يعطيه قنينة الماء لكنه أخذها. رائحة العرق حادة فظيعة. لم يسمع البكاء لأنه أخذ يغيب عن الوعي بينما جسمه المخضوض بضغط الانفجار يرتعش ويعجز عن كبت ارتعاشته.

«ما به؟»

أحد الأولاد ظلّ يلمس ساقه. ورأى بنتاً لمحها مرة على الدرج، تميل وتدفع مخدة أو شيئاً مثل المخدة تحت رأسه، كي ينام.

30
آل موراني 2 - الطابق السابع

«أفلت السحاب من يدي وخفت أنه جرحني، لكنني فتحت الحقيبة. أخرجت المنشفة الزرقاء ونشفت شعري لأنني لا أريد أن أمرض. التفت وهو ينتهي من القلي ودلّني الى الحمام وقال شيئاً عن مناشف في الخزانة. كنت

أتجنب النظر الى وجهه لكنني انتبهت أنه أحمر. ربما بسبب النار والدخان. أردت أن أبدل بنطلوني أيضاً لكنني وجدت ذلك صعباً لأنني لم أدخل الى شقته من قبل. ولأنني لم أرَه مرة واحدة ولم أسمع صوته منذ تسع سنوات تقريباً.

*

أكلت غصباً عني. سألني مرة أخرى اذا كانت هذه ما زالت أكلتي المفضلة: اسكالوب الدجاج والبطاطا المقلية والكاتشاب مع سلطة ملفوف. كنت أهزّ رأسي وأصارع بالشوكة والسكين قطعة الاسكالوب السميكة أكثر من اللزوم. لم أقل له انها لم تنضج كفاية وغطيت بالكاتشاب لون الدجاج الذي ظلّ زهرياً في الوسط وأكلت الحواف المحمصة فقط. كذبت قائلة انني تناولت الكثير من الكرواسون في الصباح، وركزت على البطاطا المقلية لأن البطاطا طيبة دائماً اذا لم تحترق. قال لي إنني صرت طويلة وحين بقيت ساكتة (ماذا سأقول؟ بالتأكيد صرت أطول!) أشار الى الصورة الفوتوغرافية في الاطار الفضي على سطح البراد، صورة لي وأنا صغيرة في الرابعة من عمري ألبس كنزة فستقية بشعة وأبتسم كأنني مصابة بالبله. عرفت الصورة لا فقط لأنني رأيتها مضطرة وهو ينقل الأشياء من البراد الى الطاولة قبل أن أتشجع وأنهض لتنشيف شعري، ولكن أيضاً لأن أمي كانت تهددني دائماً بنشر هذه الصور القديمة لطفولتي في أرجاء البيت، على الرفوف والطاولات، فهي في الاعياد تحصل دائماً على هذه الهدايا السخيفة (براويز الصور)... كنت أهدّدها في المقابل باخفاء الألبومات على «التتخيتة» العالية للمطبخ حيث لا يمكنها الوصول لأنها تخاف الصعود على السلم. نظرت الى صحني وتابعت التقاط البطاطا المقلية بين حين وآخر. أنهى بسرعة قطعته مع أنها أقل نضجاً من قطعتي وحتى نثار الكعك الذي يغطيها كان رطباً أكثر منه مقلياً. حين تأكد أنني لن أسكب المزيد من السلطة سكب ما تبقى وأكله. أعدّ لقمات خبز كبيرة ومسح صحناً من اللبنة وأكل زيتوناً مع بندورة. كرّر أكثر من مرة أن

هذه البندورة طيبة جداً وطلب مني أن أذوقها. شعرت بالشفقة عليه وأنا أرى ارتباكه الفظيع وكيف يأكل بسرعة كأنه يهرب من المكان، وفكرت في أمي مرة أخرى وخفت أن أبدأ بالبكاء.

*

حين سألني وهو ينهض صوب البراد هل أحبّ الزبدة والمربى بعد الأكل، سارعت الى القول انني شبعت تماماً وقمت الى الحمام كي أغسل فمي. لم أتوقف عند حقيبتي كي أخرج فرشاتي ومعجون أسناني. كنت بحاجة الى باب مقفل يفصلني عنه، بسرعة. فتحت الحنفية ووضعت يديّ على المغسلة. سالت دموعي غزيرة وساكتة بينما أنظر الى المرآة.

*

فتحت الباب وخرجت لكنني لم أجده ولم أجد حقائبي. كانت الأطباق مكومة في المجلى وضوء الشمس يدخل من النوافذ كأنها لم تمطر وتبللني قبل أقل من ساعتين. سمعت صوته والتفتُ متعبة جداً ورأيته يحمل بعض الكتب القديمة التي نال منها العفن. كان قد أدخل أغراضي الى الغرفة التي انتقاها لي. احترت وأنا أسير خلفه ثلاث أو أربع خطوات: أين غرفته هو؟ ثم عرفت أن هذه غرفته، أن الشقة لا تحوي الا الصالون المفتوح على المطبخ، وهذه الغرفة حيث ينام منذ سنوات.

*

لم تكن أمي تقول عنه أشياء سيئة. بل العكس: حاولتْ كثيراً أن تخبرني عنه أموراً جيدة. لكنني أخبرتها انني لا أريد ولا أحبّ أن أتذكره أو أن أفكر فيه. كنت في السادسة حين افترقا. أكبر بسنتين من الصورة على سطح البراد. وظلّ عدداً من الشهور بعدها يأتي كي يراني ويتكلمان وأشعر أنه غاضب ويريد تكسير فناجين القهوة، وأسأله لماذا لا ينام في البيت وأين يذهب وأشياء أخرى مثل هذه، لأنني كنت صغيرة ولأنهما لم يشرحا لي ما يحدث

تماماً. كان يجلب لي جاتوه كلما أتى وتفتح أمي العلبة على الطاولة وتطلب مني ان أختار قطعة له. حفظت أنه يحبّ القطعة بالشوكولا والكريما مع حبّة الكرز وكنت أمدّ يدي بسرعة كي أعطيه القطعة لئلا ألتهمها من دون أن أنتبه. كانت أصابعي صغيرة والقطعة كبيرة وكنت أنتهي من الجاتوه ملطخة بالكريما وأمي تركض خلفي وأنا أوسخ الكنبات. تبدّل شيء ولم أفهم ماذا يكون لأن أمي توقفت في تلك الفترة عن ضربي على يدي. كنت حين أرسم بأقلام الحبر على الحيطان او أرمي ألعابي من النافذة لأنني أريد غيرها، أتوقع أن تعاقبني: تضربني بيدها الصغيرة على أصابعي. لم تكن الضربة تؤلمني كثيراً لكنني كنت أخدعها وأبكي بكاء لا يتوقف حتى تضمّني وتغمرني بالقبلات وتعدّ لي ليموناضة وأنا قاعدة على المجلى وتبلّ الكعك في الليموناضة وتطعمني بنفسها وهي تراضيني، وأنا أرضى، لكن على مهل. حين تركنا أبي لم تعد تضرب يدي مهما فعلتُ: كنت أشعر بالملل ذات مساء وهي تتحدث على الهاتف عن أشياء تتعلق بعملها، وقمت من مكاني وبدأت أرمي الأشياء على الأرض وكسرت مزهرية فخار قديمة تحبّها كثيراً. لم تضربني. أنهت المكالمة ووضعت السماعة وسألتني هل أريد أن أخرج معها كي نمشي في السوق. كانت الكسور على الأرض وحملتني بعيداً لئلا أجرح قدميّ.»

31
آل بدّور - الطابق السابع

حلّوا جنب «شقة الخادمات»، في بيت آل عسّاف، العائلة الأولى التي نزحت من «المبرومة» الى الجانب الآخر. ربّ العائلة أمين بدّور رجل ضخم اليدين امتلك سابقاً ملحمة (دكان جزارة) في كورنيش المزرعة في القسم الغربي من بيروت وتخّصص في اعداد المقانق المطيبة بالنبيذ. مع الاشتباكات الأولى عقب الهدنة التي سقطت، تعرضت ملحمته البعيدة

عن المحاور الى ضربة مجهولة المصدر: ألقوا عليها أثناء الليل قنابل يدوية حطمت بابها وعطبت ثلاجاتها الثلاث وماكينة فرم اللحم الجنرال الكتريك الجديدة. أمين بدّور التقط مكنسة وأخذ يكنس الزجاج كأن هذا عادي، لكن جيرانه في السوق عرفوا أنه مصدوم ولهذا يتصرف هكذا. كان يسكن في بناية مجاورة (شارع بربور) ووصل الخبر الى العائلة وجاؤوا اليه يتراكضون أمام أمهم. هذا المشهد- بكاء أولاده في الشارع- أقنعه بأن زوجته على حق وهو على خطأ. غادروا الغربية.

*

مفقودتان: دلا ودلال صطوف... في 6 حزيران اختفت دلا بهجت صطوف (20عاماً) وكانت تعمل خادمة في منازل عدة في بيروت. ولما علم أهلها في بستقين- قضاء صافيتا في سوريا باختفائها أرسلوا أختها دلال (18 عاماً) للبحث عنها لكنها اختفت هي الأخرى. الرجاء ممن يعرف عنهما شيئاً الاتصال بالرقم 451251 أو 360480.

32
آل رزق 3 - الطابق الرابع

«أوتيل فيكتوريا، 11 هاربور رود،
سيدني- نيو ساوث ويلز- أستراليا
بتاريخ 7-2-1976

أبي العزيز، أمي الحنونة، أخوتي الأحباء

عيد ميلادي بعد تسعة أيام واذا لم يصلني منكم مكتوب قبل ذلك سأرجع الى لبنان! تجدون في نهاية هذه الرسالة عنوان خالي البريدي في مصلحة السكك الحديد وأريد منكم أن ترسلوا المكاتيب اليه لا الى عنواني أنا ولا الى

عنوان خالي ابراهيم في برزبن، وتأكدوا من نسخ العنوان كما هو حرفاً حرفاً وسطراً سطراً لأنكم لا تتصورون كم أن بالي مشغول عليكم ومرات أعجز عن تأدية أبسط المهمات في عملي بسبب خوفي عليكم أن يكون حدث شيء لا سمح الله. اكتبوا لي وحاولوا أن تتصلوا على رقم الأوتيل الذي أعطاكم اياه خالي على التلفون منذ شهر... كل يوم أذهب الى السنتراليست مرتين، في الصباح وفي المساء، وأسألها هل اتصل بي أحد؟ هي طيبة القلب، تدخن وتحلّ شبكات الكلمات المتقاطعة طوال فترة دوامها، لكنني أعرف أنها قد تضربني بالمنفضة اذا تابعت معها على هذا المنوال. برج الدلو غير صبور لكن أنا صابر وأخاف أن أصاب بالقرحة مثل أبي اذا طال سكوتكم. يريدني راجح أن أذهب معه الى أصدقاء في مدينة غير بعيدة من هنا كي نقضي يومين. يقول نقدر أن نجد عملاً أفضل هناك ربما. وأنظر الى طبيعة البلاد لأنها لا تشبه أبداً بلادنا. لكنني لا أقدر أن أتحرك من مكاني قبل أن أعرف منكم شيئاً. خالي ابراهيم مثلي يجرب تلفونكم منذ أسابيع ولا يرد أحد. أرجوكم افعلوا كل ما تستطيعون كي أعرف عنكم وبأسرع وقت.

راجح كان مريضاً لكنه أحسن الآن ويسلّم عليكم ويقول اكتبوا لي واتصلوا بي أو يسافر هو أيضاً معي الى لبنان. صاحبته بنت حلال فعلاً وتجيء وتجلب لنا أحياناً طعاماً من بيت أهلها وأختها أيضاً (جاين، أخبرتكم عنها، هل تصلكم رسائلي؟) مهذبة جداً ولطيفة وذكية وصارت تساعدني في دروس الانكليزية التي أحاول إتقانها... تقول إنني أتعلم بسرعة. لكنني للأسف ما زلت أجهل تصريف الأفعال وأستعمل كثيراً كلمات فرنسية وأنا أحسبها انكليزية وهي ليست كذلك. التقيت قبل أيام رجلاً لبنانياً اسمه الياس اندراوس وهو من بكفيا ويعيش هنا منذ عشرين سنة تقريباً وعنده كاراج سيارات لكنه لا يشتغل بالميكانيك ولا بالكهرباء ولا حتى بتصليح الدواليب ولكن بالفرش. تبديل المقاعد وسندات الرأس والجلد والفراء ومسكات الأبواب والنوافذ وكوتشوك الدركسيون وشريط الفيتاس وعدادات التابلو

والمرايا والسجادات الكوتشوك تحت المقاعد وهذه الأشياء. يتولى غسل سيارات الاوتيل في كاراجه. تكلمنا وأخبرني أن أقاربه يتصلون به من لبنان بالتلكس اذا تعطل الهاتف لأن خطوط التلكس تتعطل أقل وأنا في الحقيقة لا افهم كثيراً في هذه الأشياء وكنت أظنها الخطوط ذاتها لكن في جميع الأحوال تجدون في آخر الرسالة رقم التلكس الخاص بالاوتيل ويكفيني أن ترسلوا سطرين أو ثلاثة كي أطمئن الى وضعكم.

خالي إبراهيم دعاني كي أزوره في نهاية الشهر الماضي لكنني لم أذهب مع أن راجح أرادنا أن نذهب واشترى صنانير لصيد السمك من أجل الرحلة. كيف أزورهم وآكل عندهم وأنام عندهم وابنة خالي تنظر إليّ كأنني طعنتها بالسكاكين! راجح يسخر مني كثيراً بسبب هذا ويقول إنني حسّاس أكثر من النساء، لكنه في الحقيقة نصف تمساح في هذه الأمور، ولو رأته سارة أو رولا قاعداً مع صاحبته وهي تكلمه وهو يلعب بساعته أو يفتح حديثاً مع غيرها، أقول لو فعل هذا أمام رولا كانت تضربه على رأسه. مع أنه عموماً ليس شخصاً سيئاً. وجاين تقول ان العلّة في اميلي لأن اميلي تسامحه كثيراً وترخي له الحبل. أخبركم هذا لأنه يفعل أشياء أتمنى لو أستطيع فعلها. ولأنه تعرّض في حياته لمواقف صعبة كثيرة لم أكن أعلم عنها شيئاً ولا أعرف الى أي درجة أقدر أن أكتب في هذه المسائل لأنها تتعلق بأمور لم نعرفها عن عائلة خالي ولا أعرف اذا كنت يا أبي أو أنتِ يا أمي تعرفان عنها شيئاً.

أود أن أكتب لكم أكثر عن جاين أيضاً وكيف تساعدني كثيراً في هذه المرحلة لكني أجد مثل هذا الحكي غير مناسب أبداً قبل أن أسمع من طرفكم كلمة. هذا القلم يجفّ وكما ترون كلماته تتقطع... يهجم البعوض على مهجعنا عند المساء وساقي الآن تتورم بعقصاته لأن المرفأ ملوث المياه وراجح يقول ان السبب سفن الأبقار التي تأتي من مرفأ بارا في البرازيل وتُترك بلا غسل طوال الرحلة وتتكدس فيها الأوساخ... اشتغل راجح في البحر سنة واحدة لكنه وجد حياة الباخرة شقية لا تطاق، ويقول دائماً ان الحسنة الوحيدة

في المحيط هي أنه بلا بعوض! أجد أنني تعبت وبدأت أهذي وأنام وأنا أكتب... غداً عملي يبدأ باكراً جداً لهذا سأترككم الآن وفي الأسفل العنوان البريدي الجديد ورقم التلفون ورقم التلكس في الاوتيل... وأرجوكم لا تتأخروا عليّ.

33
آل صعب 2 – الطابق الثاني

لم يكن ملحم صعب يعلم حين غادر بيته في ذلك الصباح كي يشتري فطوراً للعائلتين أنه سيتأخر. الحقيقة أنه خرج بحجة جلب الفطور لكن قصده الأساس كان الهرب من زوجته المنزعجة من وجود عائلة أخرى في البيت. رأى سيارة داتسون زرقاء اللون انحرفت واصطدمت بعمود كهرباء، وشاحنة بيجو بيضاء صغيرة متوقفة في عرض الطريق وقد تساقطت منها صناديق فواكه. أولاد كثر هجموا يتخاطفون التفاحات المتدحرجة. بعضهم يجمعها ويردها الى الصناديق الخشب لكن القسم الأكبر منهم يأكلها أو يخطفها ويهرب باتجاه حي السريان. كان ذلك مضحكاً ولولا الرجل الدامي الوجه الذي يُسحب من نافذة السيارة لشعر ملحم صعب بالسرور. سيارات أخرى توقفت أيضاً والسائقون مدوا رؤوساً فضولية. حادث السير يسبب للعابرين المشاهدين شعوراً حماسياً غريباً يتجنبون التصريح به عموماً، وملحم صعب ليس استثناء على هذه القاعدة التي جرب مراراً فهم أسبابها. ركن السيارة جنب الطريق وراقب الجريح الذي ظلّ ساكتاً ومصراً على رفع يده اليسرى عالياً كأن هذه الحركة غير المفهومة يمكن أن توقف نزيف جبهته. مدّدوه على ظهره على الزفت بعيداً من نثار الزجاج بانتظار وصول سيارة الاسعاف. سألوه هل هو قادر على الوقوف. اقترب ملحم صعب ورأى الرجل يحاول

أن يتكلم. عندئذٍ فقط تعرّف اليه. كان هذا جاره في سوق الجميّل في الوسط التجاري، أوهانس برجكليان. تراجع ملحم صعب تلقائياً وأخفى وجهه وراء الأكتاف لئلا يتعرف اليه الحلاق الأرمني. قبل احتراق السوق ربطتهما علاقة طيبة لكنه الآن لا يريد أن يتكلم معه. من سيارة بويك خضراء توقفت وهي تطلق بوقها، نزل ثلاثة رجال يرتدون- مثل الجريح الأرمني- بذلات رسمية سوداء وأحذية تلمع. ركضوا وأبعدوا الحشد وانحنوا على الرجل الذي يمت اليهم بصلة قربى. مسحوا الدم عن وجهه وتكلموا كأنهم مصابون بحمى. كانوا ذاهبين الى حفلة تنصيب صاحب الغبطة البطريرك همایاك بطرس السابع عشر كديكيان. تأخروا والحفلة خارج بيروت. واحد من الثلاثة ظلّ مع الجريح الذي تكلم وقال لهم بالأرمنية إنه بخير. سائق شاحنة الفواكه وقف جنبها يمسح العرق عن رقبته، يجيب على أسئلة الدرك ويعتذر ويقول شيئاً عن الشمس.

❋

انتبه ملحم صعب وهو يركب سيارته الىَ ألم في عموده الفقري. ابتعد عن مكان الحادث واستمر في رؤية الوجه المغطى بالدم، كأن الحلاق الأرمني ركب جنبه في السيارة.

34
آل عطية 2 - الطابق الثالث

بعد سنوات طويلة سألها صحافي وهو يبدّل بطاريات ريو- فاك (عرفتها من لونها الاصفر والعلامة النيلية- الزرقاء) في آلة تسجيل فضّية سحبها من جيب معطفه باسماً كساحر يخرج أرنباً من قبعة، سألها ما أكثر شيء تتذكره من طفولتها في وادي أبو جميل، ومن حياة اليهود القديمة هناك؟

«الجنادب»، قالت. كان جوابها سريعاً لم تفكر فيه. بعد الكلمة السحرية التي لفظتها رأت عالماً كاملاً يخرج من تحت الردم، كأنه لم يحترق يوماً. آلة التسجيل عجزت عن القبض على الصور الكثيرة الدافقة كالنهر في رأسها. الحارات والدروب والدكاكين. الجنادب الخضراء الممشوقة، كل جندب بطول الاصبع، يستطيع بقفزة واحدة أن يبلغ سطح الخزانة، جنادب بلون أخضر- فستقي تقتحم النوافذ في آذار (مارس) اذا نسوا الشبك مفتوحاً. «وفراشات المجلى.» سألها ماذا تكون هذه ولم يخطر في باله أنها تعني نوعاً من الفَرَاش. كانوا يعثرون عليها في المجلى في الليل اذا نسوا باب المطبخ مفتوحاً. تجيء من حقول التوت قبل أن يحين الوقت كي تضع سبحة بيضها. تحبّ الرطوبة العليلة وملمس الماء على الرخام، كل فراشة أكبر من الكف، رمادية مخملية بعيون مرسومة على الجناحين ولا تطير حتى بعد اشعال اللمبة. ترتعش وتلتصق بزاوية حوض المجلى كأنها تحاول ولوج الشق بين البلاطتين. أمها تجلب عصا خيزران طويلة مركونة وراء باب الصالون، عصا تقوّست ولم تعد تستخدم للفّ السجاد عند نهاية البرد، تمدّ طرفها وتنتظر حتى تلتصق به الفراشة المرتجفة. ثم تخرجها الى البستان. الضوء المطفأ في الخارج، فوق باب المطبخ، عاد اليها. استغربت كيف نسيت تلك اللمبة البيضاوية المتدلية بشريط طوال هذه السنوات. بينما تتكلم تذكرت فجأة أشياء أخرى: شجرة الأكيدنيا التي قصّوها عندما نمت أغصانها ودخلت في درابزين الشرفة وصاروا يتعثرون بها ولا يجدون مكاناً للمناضد الخشب ومقاعد القش. تذكرت المقاعد القش (مقاعد صغيرة واطئة بلا ظهر، طالما جلسوا عليها وأكلوا حمصاً أخضر مشوياً كما هو بشتلاته وورقه) وبدأت تبكي بلا سبب.



انتبهت هدى عطية وهي تسكب الماء في الكوب الى ارتجافة يدها. مال

الإبريق الزجاج وكادت أذنه أن تزلق من بين رؤوس أصابعها. بقيت العجوز مغمضة العينين. كانت عرقانة الرقبة أنفاسها صعبة وخصلة بيضاء تلتف مبلّلة على تجاعيد جبهتها الداكنة. حبّات الدواء الثلاث. وتطهير ميزان الحرارة بالقطنة والسبيرتو. بينما تدوي انفجارات غير بعيدة. لا تريد أن تبقى هنا لكن كيف تنزل الى الملجأ وتتركها وحدها. قالت لزوجها انزلوا، خذْ الأولاد واسبقوني الى الملجأ. قالت سأنزل بعد قليل. لكنها تعرف أنها لن تنزل الا دقائق قليلة كي تعطيهم السندويشات ومطرة الماء وتسألهم هل يريدون شيئاً آخر من البيت، ثم تصعد ركضاً. مع أنها أمه هو. ومع أنها عموماً لا تحبّها.

❋

سعلت وهي تأخذ الدواء. سألتها أين الأولاد. عرفت أنها لا تريد الرجوع الى النوم. كانت هذه طريقتها في الشكوى من السرير. جمعت المخدات وراء ظهرها ورفعتها من تحت ابطيها وهي تحبس نفسها وتشدّ عمود ظهرها لئلا يؤذيها الجهد العضلي.

«أين اسحاق؟»

«مع الأولاد.»

«أين الأولاد؟»

«نزلوا الى الملجأ.»

«لكن القصف بعيد اليوم.»

كانت النوافذ تهتز بعنف، ولم تعرف هدى عطية ماذا تقول.

«أين مسبحتي؟»

«معكِ.»

«أين؟ ليست معي.»

أبعدت الغطاء وقالت «تحتكِ» وساعدتها في تحريك ساقها. شعرت

بعظمة فخذها طويلة وقاسية وشبه عارية من اللحم. سحبت المسبحة بالشرابة التي تفوح برائحة البنّ المحمص وناولتها لها. حبّات عنبر ملساء شبه شفافة. ظلّت تنظر اليها حبّة تلحق الحبّة بين أصابع صارت أليفة أكثر من أصابعها، حتى شعرت بالجوع.

«أنا في المطبخ.»

«أين الأولاد؟»

«تحت في الملجأ مع اسحاق.»

«لماذا نزلوا الى الملجأ؟ القصف بعيد اليوم.»



لم تجد عدداً كافياً من الأرغفة في ربطة الخبز الباقية. بينما تخرج مرطبان الطحين من الدرفة الخشب فوق المجلى كي تعجن وتخبز في المقلاة، دوّى انفجار. لم يقع المرطبان من يدها لأنه لحسن الحظ ما زال على الرف. ظنّت أن الصاروخ أصاب البناية، ربما أصاب البيت. تحركت بسرعة عابرة الممر متلفتة تتفقد الغرف بينما الطنين يتعاظم في أذنيها. لم يبقَ الا غرفة واحدة... دخلت متوقعة دماراً ووجدتها شبه غافية وهي جالسة والمسبحة على الغطاء الأحمر في حضنها. ثم رأت أنها تحرك شفتيها وتنظر اليها وتقول لها شيئاً. لكن الطنين منعها من السماع. الضغط أفقدها سمعها ولم ترجع الأصوات الا بعد دقائق.



خرجت الى صحن الدرج. مالت في الفراغ حيث صندوق المصعد المعطل أبدياً وحدقت في ظلمة الظهيرة الى أسفل وسمعت دعسات وطرطقة. تبينت رجلاً يهبط الدرج لكنها لم تتأكد من يكون. ثم سمعتهم يتكلمون في مدخل البناية. «هذه قريبة. وراء ميني ماركت السيدة!» أرادت أن تنزل كي ترى الأولاد لكن جسمها بدا غير قادر على الحركة: أوصلها

الى صحن الدرج ثم مات، كأنه مات، وجدت نفسها قاعدة على البلاط تسند رأسها بيديها وتهزّ جمجمتها كي تخرج الماء الخيالي المتجمع في طبلة الأذن. حين عادت القوة الى ساقيها نزلت (وهي تتكىء بيدها الى الحائط) على درج غير ثابت لأنها هي غير ثابتة. عدد من الرجال تجمعوا في المدخل يتكلمون ويصلحون المتراس الذي وقعت أكياسه. في الملجأ وجدت الأولاد يلعبون الورق: باصرة أو 8 الخوتاء أو حرب أو سبعة ونصف، لا تُميز بينها.

*

كانوا في انتظارها، جائعين. سألوها أين السندويشات. أولاد يلعبون معهم ولم ترَهم من قبل في البناية (لعلهم أولاد الطابق السابع) نظروا اليها بالنظرة ذاتها كأنها مسؤولة عن إطعامهم هم أيضاً. راشيل ابنتها الكبيرة التصقت بها من خلف وطلبت ان تصعد معها الى البيت. عرفت من دون أن تسأل أنها تطلب الحمام لا البيت. اسحاق زوجها منذ 23 سنة انفصل عن رجال يجلس معهم على بطانية صوف مفروشة فوق كراتين في الجهة الأقرب الى «نزلة المبرومة»، وشرح لها وهو ينفخ الدخان الى أعلى أن تلك الجهة حيث يجلس معرضة للخطر في حالة واحدة فقط: اذا وقعت القنبلة عمودياً في النزلة، في البقعة الضيقة بين البنايات، وهذا ممكن بسبب مدافع الهاون ال155 وال121 وال120. لم تشعر بالخوف وهو يحصي عيارات المدفعية لأنها تعرف أنهم رصفوا عدداً كبيراً من أكياس الرمل في الخارج، على ذلك الحائط، ولأنها وهي تشتغل في المطبخ تسمع شتائم النازلين على «رصيف النزلة» أو «درج النزلة» الذي سدّته أكياس الرمل. وحين يقع المطر وتصير النزلة خطرة وزلقة كالصابون وتكسر سيقان العجائز في الحيّ التحتاني، تتضاعف الشتائم المرعبة الموجهة كالرصاص الى أهل البناية وتضطر هدى عطية الى اقفال النافذة.

*

«سأطلع معكِ.»

«لا، ابقَ هنا مع الأولاد. يخافون وحدهم.»

شدّت راشيل من يدها وخرجت وهي تحاذر لئلا تدوس على فرشات آل صعب وآل طانيوس. جارهم لويس الخوري الذي قتلوا ابنه الكبير شارل وهو عائد من بيت خطيبته في عين المريسة، هزّ رأسه في تحية صامتة لها وهو يلصق الراديو الترانزيستور الى أذنه الضخمة كأذن فيل. كانت تحترمه لأنه بعكس الباقين في هذا الحيّ لا يملك عيناً بيضاء فارغة تبلع أجسام البنات والنساء كأنها تأكل الأخضر واليابس. وكانت تحترمه لأنه قديم هنا وليس مثل المهجرين الجدد آل زيدان وآل عازار وآل بدور، ولأنه مستحيل (مهما جرى) أن ينزل الدرج في البيجامة والفانلة والمشاية. وكانت تحترمه بسبب وحدته، وبسبب إبنه الشهيد الذي أحرقوا جسمه بالسجائر، وبسبب عذابه مع إبنه الآخر الذي لا يشبهه ابداً والذي تخاف منه كلّما التقته لابساً نظارته الشمسية الرايبن (أم الرايبل؟) الخضراء، منتعلاً جزمته العسكرية الموحلة كي يوسخ البلاط الذي مسحته للتو، وهو يؤرجح سلاحه ويصعد الدرجات في ضجيج كأنه ملالة. مرة رأته يفتح الباب بلا نظارته وخافت من احمرار عينيه واصفرار أسنانه وكيف نظر اليها من دون أن يتكلم. حتى رائحته تخاف منها وتعرف من الأثر الذي تتركه على الدرج أنه رجع من الجبهة الى البيت. كيف ترضى عائلة محترمة نزول إبنتهم الى بيته؟ ألا يعرفون؟ وهي أجمل من القمر وبيضاء مثل شق اللفت! على الدرج سمعت صاروخاً يصفر. اهتز الحديد المطرّق القديم كأن المصعد يشتغل.

35
آل طانيوس 3 - الطابق الخامس

تجنّب مساعدتهم في ترميم المتراس لأنه يكره حمل الأكياس ويكره كل

ما يذكّره بفتوته في مرفأ طرابلس. قال لزوجته إنه سيصعد ويجلب شيئاً للأكل قبل ان يقوى القصف من جديد وقالت أصعد أنا وفي النهاية صعدا معاً. مدّ يده لاهثاً وشدّها اليه وهما في صحن الدرج ولم يبلغا بابهما بعد. ضحكت وهي تشعر به وقالت أنت لا تشبع، الناس تموت وأنت في هذا... لم يغضب لأنه يعرفها ولأنها أرادت منذ البداية أن تصعد معه.

*

ضاجعها على الكنبة في المدخل حيث لم يفعلا ذلك من قبل لأن الكنبة لم تنتقل الى هنا الا حديثاً. بينما يغوص في لحمها الكثير ظلّ يشعر بارتجاجات السماء ويشمّ في شعرها عطن المستودع. لم تنكسر رغبته فيها رغم السنوات والأولاد وبقيت عنده حلوة كبنات الهوى اللواتي ملأن حياته وهو يسوق المرسيدس ال 180 الأولى القديمة (موديل ال55) التي اشتراها له الوالد الله يرحمه بالتقسيط. كان يعرف منازلهن واحدة واحدة لأنه يوصلهن، ولا يفهم اعجاب الأجانب ببيت ماريكا في المتنبي، لأن بناتها أشنع عاهرات المدينة. فضّل راقصات الكباريهات وتنقل بينهن في أحمد شوقي وفي شاتوبريان وحتى في ساحة الشهداء. مال الى المحترمات أكثر من الرخيصات لأن الرخيصات ذكّرنه بزمن الحبس، أشنع زمن في حياته. سلمى في كباريه كولورادو (جادة الفرنسيس) وليلى في كباريه كوباكبانا ثم في كباريه دومينو (أحمد شوقي) ودنيا في الكيت-كات (جادة الفرنسيس) وليزا الأرمنية في كباريه مولان روج (شاتوبريان) الذي يوزع على الطاولات محارم بطبعة الطاحونة الحمراء. كارمين المصرية في كباريه الفيل الأسود (شارع بيبلوس) وهنادي في كباريه تابو (الفرنسيس) ودعد الحلبية في نيو-ستار ثم في باريزيانا ثم في كباريه داغ- أوت ثم في ليدو حيث صارت بنات الطبقة المخملية يرقصن لاحقاً الجيرك. كانت دعد أجمل وأبرع من تحية كاريوكا لكنها لم تمثل في الأفلام المصرية. جسمها مسكوب للهزّ، وعلى فخذها الحار زغب ناعم أشقر. ركبت مرة معه، ملفوفة بمعطف على المقعد

الخلفي، في آخر السهرة، وهو ظلّ يتذكرها طوال أيام تلبس الخرز وتعقد الشال المذهب على خصرها. نافست راقصات كثيرات وسرقت منهن زبائن وظلت تشتم الصغير والكبير حتى انتهت مقتولة في شقتها مذبوحة وشبه عارية في بذلة الرقص الشرقي. أصحابه شرطة الفرقة 16 أخبروه أن الرجل الذي قتلها طعناً بالسكين في أنحاء جسمها كتب بالدم على بطنها «لي ولن يتمتع بأنوثتها غيري». جرّوا الفرقة الموسيقية (الدف، الطبلة، العود، وحتى الأورغ الغربي) الى المخفر. أحصوا عشاقها وحققوا معهم، بلا نفع.

*

في البداية أهلكته. لعن أمه التي جلبتها له. كيف انتقت له من بين جميع الطرابلسيات اللطيفات هذه المرأة الشرسة؟ كانت أنطوانيت تقاتله حتى يتجمع الجيران على صوتها، ولا تتوقف عن الطلبات على الطالع والنازل كأنه صاحب قصر لا صاحب تاكسي. لم ينفعها الضرب لأنها ضربته بالمثل. كان هذا شيئاً لم يتوقعه خصوصاً وأنها تعلم أنه «خريج حبوس» وقادر بالتالي على ارتكاب جريمة. هدّدها أن يردّها الى أهلها. قالت «ردني!». خرج حانقاً وكاد يصطدم بسيارة وهو يقطع جورج بيكو مظلم العينين يودّ لو يحرق بيروت على من فيها. دار بالتاكسي في الشوارع والأسواق لا يتوقف لأحد ولا يهتم بالصرخات ولا يسمعها. «اركبوا مع غيري يا أولاد الشرموطة!». لم ينتبه أنه يهذي على صوت عال ويشتم الناس الا حين بلغ موقفه في ساحة الدباس ورأى الأكشاك تحت كنيسة الأرمن متساقطة ومخلعة ومبعثرة بسبب العاصفة التي هبّت ليلاً. المنظر أطفأ غيظه. أخذ فنجان قهوة من الصبي السوري الذي يطقطق بفناجينه. تنفس رائحة الهال. هدأت أعصابه. «بحمدون، عاليه، صوفر!» تشابكت النداءات العالية. «صيدا، صور، النبطية!» كان الموقف يعج بالناس الآتين من الشمال والجبل والجنوب في مطلع نهار جديد، سيارات وأوتوبيسات وعربات محملة بضائع، رجال ونساء وأولاد، أطعمة ساخنة

وحلويات، أبواق صادحة لا ترتاح، وركض حلو لا يتوقف. طالما أحبّ هذه الزحمة. لا يطيق أن يقعد لحظة وحده. ولهذا تزوج. لم يعرف كيف يتصرف وشعر فجأة أنه يختنق. ركب المرسيدس وانطلق الى طرابلس. وجد أمه تنشر ثياباً على السطح. قبل أن يفتح فمه عرفت أنه جاء بلا زوجته. ثبّتت القميص المغسول بملقطي خشب وقالت الحق عليك لكن أخبرني ماذا حدث. نزل معها الى البيت وأخبرها كل شيء من الألف الى الياء بينما تقلي له عجيناً على بابور الكاز وتمسحه بالطحينة وترشّه سكراً كي يتروّق. كان يحبّ هذه الأكلة التي يسمّيها «لزيقات». بينما يبلع الطعام أدرك أن أمه ليست غبية. رجع الى بيروت عند المساء ووجد زوجته في انتظاره وقد كنست ومسحت وكوت ثيابه وعلّقتها على باب الخزانة. أخبرها أنه كان في طرابلس. قالت إنها ظنّت هذا لأنها انتظرته على الغداء ولم يأتِ. قال أكلت. خرج ووقف في الشرفة الصغيرة جنب شتلة الغردينيا يدخن وينظر الى ستائر بنسيون بابريكا تطير من النوافذ المفتوحة، بيضاء وزرقاء. شعر بها تتحرك خلفه واستدار بسرعة خائفاً أن تدفعه. لم يصدق: كانت تبكي! لم يعرف قبل ذلك أنها قادرة على البكاء.

*

اكتشف رويداً رويداً أنها ليست شرسة كما تصوّرها. مع مرور الزمن خيّل اليه أنه الحاكم بأمره في البيت وأنها صارت خاتماً في أصبعه. كان على خطأ. ولأنها أذكى منه لم تدعه يعرف.

36
آل زخور 4 - الطابق الأول

عندما تحدث الأشياء تحدث الى الأبد. لا تستطيع بعد ذلك أن ترجع في الزمن الى الوراء وأن تبدل مكانك، أن تختار هذه النقطة بدل تلك النقطة، هذه

الحياة بدل تلك الحياة، هذا القدر بدلاً من ذلك القدر. تحدث الأشياء مرة واحدة والى الأبد. هذا مرعب، فظيع، قاتل، لكن ماذا نفعل؟

❋

أول مرة رآها ظنّها صبيّاً مقاتلاً. كانت تستلقي على بطنها في وضعية تسديد وشعرها ملموم داخل قبعة «كاسكيت» سوداء اللون مثل جاكيتتها الجلد. البنطلون العسكري الكاكي كان مبقّعاً ومحشوّاً داخل جزمة بساق طويلة الى الركبة. لم يعرف أنه ينظر الى إمرأة بسبب نحولها ومؤخرتها الصغيرة وجسمها العظمي. عرف البندقية لأنها مثل بندقيته مع أنها شبه مخبأة عن نظره. القبعة حجبت منظار الريمنغتون 700 المتكئة الى كوّة المتراس. محور الأوتوماتيك. الأسواق التجارية. اشتباكات تتنقل بين شارع المعرض وشارع المصارف الذي يتجنبون القتال فيه ما أمكن لأن البنوك «تدفع» للطرفين. من بناية الى بناية. يأتيهم الدعم من شارع الأمير بشير وساحة رياض الصلح. أصاب مركزهم في التياترو الكبير. ارتقى الدرج وأذناه تطنّان من قذائف «الأر بي جي». ألقى القاذفة الصاروخية فوق صناديق الذخيرة وأخرج ورقة كلينكس من جيب «الفيلد» وأدخلها في أذنه اليمنى ثم سحبها متمهلاً متوجعاً حمراء- سوداء مبلولة بالدم. لم يجد في جيوبه علكة وأخطأ وقصف ساعتين هكذا بالأر بي جي الشديد الضغط قافزاً بين قنطرة جامع النوفرة (الأمير منذر التنوخي) والباص المحروق أمام «بنك مصر لبنان». بلا تشيكلتس ينسى أحياناً أن يفتح فمه. ومع العلكة ينسى لأنها تقع، واذا لم تقع يبلعها. لا يحبّ الأر بي جي ولكنه يضطر أحياناً وهذه المرة وعد نفسه ألا يكرر ذلك. «باي باي أر بي جي!» أراد أن يبلّغ قراره الجديد الى الرفاق، الى أي مخلوق، أي رفيق. فكر في العودة الى جهاز الأمن. الرصاص ينطلق موقّعاً مثل موسيقى ثم يفسده انفجار غير بعيد ويرى الدخان يلتف على مئذنة الجامع ويسبح باتجاه البرلمان. مال برأسه وشعر أنه ينام. صراخ بلا معنى، ينادون بعضهم في ضجيج لا تصل معه الكلمات. انتبه الى الأشياء على الأرض. جهاز

لاسلكي (توكي ووكي) يخشخش. كروز علب وينستون، الصنف الأبيض الطويل. متى كانت آخر مرة دخن وينستون؟ مدّ يده وسحب علبة بلا إذن، لأن الضجيج لا يسمح ولأنه متعب. قنينة بيبسي شبه فارغة وكيس بطاطا «تشيبس» غير مفتوح. منفضة ضخمة كريستال اذا وقعت على رأس حصان لا يركض في سباق بعد ذلك. جبل من الرماد وأعقاب السجائر. بدت المنفضة العملاقة أليفة كأنه رآها من قبل. أين؟ في مطعم أميرال؟ في كوك دور؟ في مطعم 222 - شارع ابن سينا؟ لم يرَ مثلها هنا، في مقهى الأوتوماتيك. فكّ شريط الجزمة وانتزعها وهو يصارع ألماً لا يعرف سببه. اكتشف أن كاحله مجروح. قلب الجزمة فتساقطت منها كسور الزجاج. حاول أن يفهم كيف حدث هذا: أين وقع عليه زجاج؟ لم يقدر أن يتذكر. هاجمه صداع. لم يجد قداحته حيث تركها. فتش بنظرة غائمة عن علبة كبريت. ورقة النايلون التي نزعها عن علبة الوينستون تعرّقت في يده. «رأسي!» حاول أن يسند رأسه الثقيل. وقعت السيجارة الباردة من فمه. رشقات يراها من النافذة، انفجارات الدخان تفرقع في سماء زرقاء. لماذا يقوصون بالمضادات على الغيوم؟ مسح أذنه بكفه وحرّك قدمه السليمة. ركل الساق غير البعيدة. عندئذٍ فقط رأى الوجه الأشقر يلتفت وعرف أنها مقاتلة.



شعر بالأكف القوية تحمله كما يُحمل التابوت. لم يعرف لماذا. ثم تذكر أنه كان يصعد الدرج وأن يده امتلأت دماً من أذنه أو رأسه. نزلوا درجاً ولم يعرف هل هو الدرج ذاته وربما انتقل الى بناية أخرى وهو نائم، أي شيء يمكن أن يحدث. اليد التي تمنع رأسه من لطم الحائط بدت مختلفة. رأى الليل والنجوم واستغرب كيف مرّ النهار. أخذوه الى حيث تنتظر سيارات الاسعاف الخاصة بالكتائب تحت بلدية بيروت وقطعوا فوش الذي يتعرض للقصف واختفوا في أرض مجهولة. كانت العمارات المنهوبة تتلوى بالنار، يتخلع درابزين شرفاتها ويشتعل أباجورها ويتساقط. الوجه الأشقر بان من

وراء زجاج الليل السميك كأنه يسبح في الدخان. سمع قرقعة سلاح أو أدوات أخرى حديدية لكنه لم يتبين الكلمات بسبب الموج في دماغه. في الطوارىء في مستشفى أوتيل ديو أدخلوا إبرة معدنية في أذنه وسحبوا الدم. لم يبنّجوه قبل العملية. حاول أن يوقفهم لئلا يسحبوا كل الدم من رأسه. كان يكره أن يموت، خصوصاً هكذا على محفة في مستشفى. لمعت الشفرات والمقصات الرفيعة على صينية ألومنيوم. رأى طبيباً ملثماً بالقناع الطبي يتنفس بصعوبة وهو يرفع منشاراً أصغر من مسدس باريتا. شعّ ضوء باهر. غرزت يد لئيمة إبرة في عرق معصمه وصار العالم أصفر كالخردل. غطّته غيمة قاتمة تخفق كأنها معمولة من ريش الطيور ثم غاب عن الوعي.



«نادين!» سمع نفسه يلفظ الاسم وفتح عينيه من كابوس نشروا فيه رأسه ويده وكاحله الذي ينزف. وجد صعوبة في التنفس وهو يتلمس الشاش الكثير الذي يلف أذنيه. شعر بالضمادة تتضخم على أنفه ولم يعرف سببها ثم فقد الوعي من جديد.



علّقوا ساقه من قضيب فوق السرير مع أنها غير مكسورة. استخرجوا من كاحله قطعة زجاج مثلثة الشكل وقطبوا الجرح سبع قطب. «لن تعرج!» نظر الى الممرضة وحاول أن يتذكر لماذا تبدو أليفة بينما وجهها يتأمله في غرابة، كأنها لا تفهم كيف لم يعرفها. «ريمون، أنا ليديا!». قبل أن تلفظ اسمها عادت اليه ذاكرته (اسمي ريمون زخور) وأدرك أن العمليات الجراحية لم تخبله. استخرجوا زجاجاً من قبّة جمجمته. حين نظر الى القطع في طاسة معدنية (ظنّ أنهم جلبوها مملوءة بالماء الفاتر كي يحلق ذقنه) لم يستوعب كيف يخترق الزجاج عظم الجمجمة! الطبيب استخدم ملقطاً ورفع من الطاسة شظية حديدية نحاسية اللون تشبه مسماراً ملوياً. كان ضاحك الوجه سعيداً

وأسنانه تتراصف شديدة البياض كأنه الدكتور الأجنبي في دعاية «كولغايت»، معجون الأسنان الفعّال الذي انتشر في بيروت عشية الحرب الأهلية بسبب هذه الدعاية على القناة 7 - تلفزيون لبنان.

❊

جلبت له ممرضة خمسينية بدينة لا تتكلم، خضراً مسلوقة، وقطعة لحم «روستو» جنبها ملعقة بطاطا «بيريه». طلب سيجارة لأنه لم يدخن تلك السيجارة الوينستون وهو ينزف ولا يعلم شيئاً عن المسمار في جمجمته. تركته وخرجت كأنه لم يتكلم، مع أنها ليست طرشاء. في المساء مرّت ليديا ثابت تلبس كنزة كحلية فوق زيّ التمريض، وجرّت كرسياً وجلست عند رأسه وقشّرت له بالسكين برتقالة. رأى الأثر الذي خلّفه محبس الزواج. لم يتجرأ أن يعزّيها بأي من أخوتها الثلاثة، لكنه ودّ أن يخبرها عن لقائه بأخيها الأصغر طوني قبل استشهاده بأيام على درج فؤاد شهاب. التزم الصمت لأنه ما زال مرهقاً ويسمع دوياً واهناً في خلفية رأسه، كأنهم أفرغوا خطأ قسماً من مادة دماغه الرمادية، وذلك القسم امتلأ بالهواء وصار يصفر سرّاً مثل صدفة البحر.

❊

تحسّن بسرعة. كانت إصاباته (عدا تخيلاته وكوابيسه بسبب البنج) سطحية عموماً. لم ينشروا رأسه ولا بتروا قدمه. طلب من ليديا ألا تخبر أحداً بوجوده هنا لأنه لن يتحمل «أهل المبرومة» في غرفته. أثناء وقت الزيارات لم يقرع بابه مخلوق الا بالخطأ. أهله تلفنوا في الليل من باريس. أبوه كان هادئاً ويعرف تفاصيل ما جرى لأنه تكلم مع الدكتور. كلّمه في العموميات والطقس في أوروبا وسأله هل يحتاج مالاً واستفسر عن الأسباب التي تدفع «المرابطون» الى قصف الشيفروليه (المحور حيث معرض السيارات) بهذا العنف. أمه بدت خائفة عليه من القتال مع أنه عموماً لم يختبر هذه السمة فيها. طلبت منه أن يأتي الى فرنسا وشرحت له أن أخته تسجّلت بسهولة في

جامعة باريس الثانية كي تكمل دراستها القانونية. «اذا أردت نستأجر لك ستوديو أو شقة وحدك! هنا، في موفتار.» كان في مزاج طيب لأنهم سمحوا له أخيراً بسيجارة. أخبرها أن المطار مقفل وحتى لو فتحوه لن يتمكن من الوصول اليه بسبب الخطف على المعابر. في زجاج النافذة المظلمة رأى وجهه يبتسم وهو ينفخ الدخان صوب لمبات السقف الاسطوانية. عرف أنها بدأت تغضب حين رفعت صوتها وهي تتكلم عن الباخرة التي تبحر مرتين كل يوم من الأكوامارينا الى قبرص. «ومطار قبرص مفتوح!» ضحك حين قالت هذا لكن الضحكة لم تأخذه الى أي ذكرى دافئة في ذلك البيت البارد في بناية أيوب العبد.



خرج من مستشفى أوتيل ديو مباشرة الى حرب الفنادق. لم يمرّ على البيت لكنه مرّ على باتيسري نورا القديم أسفل شارع مونو واشترى علبة شوكولا سويسري أخذها معه الى موقعه الجديد في الهوليداي إن. كانت القطب لا تزال في لحم كاحله. تجنب أن يلقي كامل ثقله على القدم اليمنى وتسلّق الادراج الى الطابق العشرين وهو يضحك ويشتم ويلعن إسرائيل والثورة الفلسطينية وكمال جنبلاط وأحمد جبريل، لأن الكهرباء مقطوعة بسببهم والمصعد الفخم لم يشتغل. هواء البحر المثلج صفع رأسه الحليق تماماً منذ العملية. حصل على برنيطة صوف ولجأ الى زاوية لم يتحطم زجاج نوافذها بقدرة قادر. احتفلوا به ولفّوا سجائر «ملغومة». كانت تبرق وترعد بلا مطر. فتحوا قناني شمبانيا فرقعت سداداتها على السقف المزين بأوراق الجفصين. شغّلوا ستيريو ببطاريات. وزعوا حبوباً لا تقتل غنموها على جبهة الشياح. أسدلوا الستائر المخمل الثقيلة وأشعلوا ناراً وسبحوا في دخان الحشيشة الخفيف. كانت الجبهات مشتعلة، ورصاص المدافع الرشاشة تبصقه جميع الطبقات، لكنهم سهروا جهة البحر حيث لا تصل دوشكا برج المرّ لأن الرصاص يسلك الصراط المستقيم ولا ينحرف في الفضاء. «اذا سيطرنا على

برج المرّ نربح حرب بيروت!» لم تقوص عليهم شبابيك فينيسيا لأنهم أحرقوا هذه الجهة من أوتيل فينيسيا البعيد 20 متراً فقط، باصابات مباشرة سهلة بالاينرغا والأر بي جي. كانوا يخرجون من السهرة الى مواقعهم القتالية في الطبقات الأعلى ويحلّ آخرون مكانهم. يلتقطون السجائر القصيرة المشتعلة ويفتحون قناني جديدة. بدوا متعبين. وزع عليهم شوكولا وفقاً للتقليد. أكلوا وتفقدوا القطب في رأسه وساقه وسألوه من أين اشترى الشوكولا. قارنوا بين شوكولا غروبي في ساحة الدباس الذي شبّت النار في بنايته لتغطية عمليات نهب عادية قبل أسابيع، وشوكولا أرليكان الذي أصيب بالصواريخ ودُمر بالكامل أثناء مرور موكب الشيخ بشير. كان قائد القوات يتفقد الجبهة ولولا حماية سيدتنا العذراء قتلوه. الفقراء من المقاتلين في سهرة ريمون زخور، هؤلاء الذين لم يدخلوا الى باتيسري حلويات قبل اندلاع الحرب ولم يأكلوا في حياتهم السابقة (اذا أكلوا) غير شوكولا وبسكويت معمل غندور، أصغوا الى رنين الأسماء الأجنبية. «أطيب شوكولا في الماركيز!» رآها ريمون زخور تدخل بلا بندقيتها وتتجنب الكنبة الحمراء الطويلة وتجلس قبالته تماماً على السجاجيد. أحدهم نقل لوكس الكاز الى الجهة الأخرى وخيّل لريمون زخور أنه يسقط في الحبّ.

37
آل العبد 2 - الطابق السادس

الباب خشب ثمين نبيذي قاتم معتق. مقفل دوماً، والناطورة لم تُسلّم مفتاحه. الوكيل المحامي زخريا الزمار أضاف زيادة في الحرص سلسلة حديدية خدشت القبضات الذهب التي صقلتها الأيدي. القفل الإضافي غير قابل للخلع. الوكيل خبير في هذه الأشياء لأن عائلته تشتغل في نهب الأسواق التجارية. حين سمع من الإذاعة وهو يشرب فنجان قهوته الحلوة في الصباح

ان قذائف كاتيوشا وأر بي جي أحرقت محلات ساشا في بناية عكر (ساحة الشهداء) ابتسم وشرح لزوجته أن سلفها، أي أخيه الصغير، بات أغنى الآن مما كان عليه قبل النوم.

*

منذ زمن طويل لم يدخل أحد. الخشب النبيذي ذاته يبطّن جدران المدخل. صور فوتوغرافية في براويز ذهبية معلقة على طول الممر. السقف مرتفع والعتمة ترفعه أعلى. أباجور النوافذ مقفل والستائر أيضاً. ألواح الزجاج مفكوكة. استبدلوها بالنايلون السميك الذي لا يتحطم. أبواب الشرفات تسدّها أحجار باطون. على السجاد الشيرازي آثار التحصين الذي أشرف عليه الوكيل. طبعات من جزمات الشغيلة. رمل أصفر يطير اذا تسرب هواء من المدخنة. الموقدة القرميد تحفة بحد ذاتها. مساند الكنبات بلون الموقدة. الأحمر القاتم يغلب على الديكور كلّه. قطع الأثاث الأثمن يغطيها قماش كتان أثقلوا جنباته بمنافض رخام ومقاعد حجر للأباريق منحوتة في ايطاليا. على رفوف المكتبة غلايين للزينة ومجلدات ثقيلة من بداية القرن، لا يفتحها أحد. الصالون يزدحم بآلهة أزتيكية نجت من الغزو الأسباني. تماثيل من الخشب البرّاق منحوتة في قرى أميركا الجنوبية. اللوحات الزيتية قليلة. لكن الصور المكبرة لا تُعد وتكاد تحجب بعض الحيطان تماماً. يكفي أن نضيء المصابيح المكسيكية المشحونة بالبحر كي نرى تاريخ الحياة العجيبة للمهاجر الذي بنى المطاحن على النهر. صور فوتوغرافية بالأبيض والأسود. ثياب ذلك الزمن البائد. الايماءات الانسانية القديمة التي سبقت شيوع التلفزيون ومجلات المشاهير. إرتباك الوجوه أمام خرطوم العدسة، والقلق أمام الصندوق الغريب وأمام المصوّر الذي يخفي رأسه تحت غطاء الكاميرا المخملي القاتم لئلا تفسد فنه الشمس. عائلات على درج خشب عريض، والنساء متكئات الى الدرابزين الخشب وأثوابهن البيضاء الفضفاضة تتجمع حولهن في طبقات كثيرة. الرجال في بذلات سوداء، يحملون قبعاتهم، وبعضهم يستند الى عصا

أو الى شمسية. على صدر جاكيتة طويلة الذيل تلمع ساعة فضة مدوّرة بين أزرار فضّة مربعة. صور من العشرينات والثلاثينات، بعضها غير مؤرخ، في سانتو دومينغو (باناما) وماتشالا (الإكوادور) وماناغوا (نيكارغوا) ولا باز وسانتا كروز (بوليفيا) وبوينس أيرس (الأرجنتين) والأشرفية (المكسيك)، المزرعة الشاسعة التي يملكها أخوته في منطقة جبلية على مسافة ساعتين بالسيارة من العاصمة مكسيكو سيتي. صور في كولون حيث حقق انتصاراته الأولى في تنظيف أشغال قناة باناما التي بدأها الفرنسيون وأهملوا إكمالها ثم أنهاها الأميركيون. عدد من المهندسين والأطباء وهو يقف بينهم، في مركز الصورة، وخلفه مستشفى سانتا تيريزا القديم حيث قضى بالملاريا مئات العمال. صورة شبه ممحوة تمزقت وأُلصقت بعناد، مع صديقين سوريين شابين في 14 أيار (مايو) 1913 أو 1923 أمام الفيلا حيث أقام فرديناند دو ليسبس ثم إبنه وعائلته. صورة لجرافة بخارية طراز ماريون وهو يقعد على كرسي جنبها وأحد الهنود يفتح فوقه مظلة غريبة الشكل واضح أنها ثقيلة جداً. صورة آلة حفر عملاقة تغطيها الأعشاب الإستوائية التي تنمو أمام عينيك في ساعة واحدة بما يكفي كي تكره الساعة التي جئت فيها الى هذا المكان. صورة زوجته الأولى السبانيولية وفي يدها الرسن الجلد لكلبة بيضاء عالية القوائم تشبه الغزال. صورة له ولأخيه الكبير خليل (خورخيه) مع رئيس الجمهورية اللبنانية الأول بشارة الخوري على مائدة ممدودة في الهواء الطلق تحت سماء سانتا كاتارينا. كؤوس العرق اللبناني بيضاء على الطاولة. أطباق المازة التقليدية تتجمع أمام الرئيس. في الخلفية ثلاث نساء خائفات على أحصنة ضخمة الحجم، وصبي أشقر بدين يحمل دراجة هوائية. صورة له مع زوجة غير الأولى، في حفل عمادة أمام كنيسة بيضاء أو صفراء فاتحة، هندية- أسبانية العمارة، في سايولا. صورة وحيداً على ظهر باخرة عابرة للمحيط ترفع العلم البرتغالي (لا نرى اللونين- الأخضر والأحمر- لكن درع البرتغال ظاهر في المركز). يده اليسرى على الدرابزين واليمنى في جيب الجاكيتة. وسامته قديمة لوّحتها التجارب. وقفته فيها ملل جذّاب لا

يتناسب كثيراً، ربما، مع سيرة حياته. ظلّ يسافر الى المكسيك بالباخرة تاركاً المطاحن في عهدة مدير أمينٍ لا يسرق حتى لو جاعت بناته، ولم يتحمس لركوب الجو (الطائرة) الّا بعد غرق الباخرة الفرنسية شامبليون قبالة ساحل الأوزاعي جنوب بيروت سنة 1953.

38
آل ثابت وشرارة 4 – الطابق الأول

تزوجت برناديت شيحا نزولاً على السلم الاجتماعي. أبوها أراد أن يتبرأ منها. كان محامياً فرنكوفونياً معروفاً يدير مكتبه الخاص للإستشارات القانونية ويشغل كرسياً في مجلس إدارة «بنك فرعون وشيحا» وكرسياً آخر في «كبابة وسرسق وشيحا للشحن البحري» إضافة الى عضويته في أندية مهمة وجمعيات خيرية بينها «الجمعية المسيحية للمكفوفين» التي صمّم شعارها البنفسجي اللون بنفسه. كان شديد الافتخار بأولاده. استصعب الى حد الاختناق أن يعطي إبنته الكبرى برناديت على مذبح الكنيسة الى عسكري طري الشارب في الجيش اللبناني يمدّ يده للمصافحة وهو يقول:» أنا إسمي عزيز ثابت.» أراد أن يتبخر من أمامه هو وإسمه هذا الشاب الحنطي البشرة الأسود العينين الذي يتصنع التهذيب واللياقة ثم يجلس على الكنبة كأنه يملك المكان! لم يخطر في باله أبداً أن برناديت قادرة أن تكون صغيرة العقل هكذا، ولم يستوعب كيف تخون ثقته بعد كل الحرية التي منحها إياها. ودّ أن يأخذ حبّتي أسبيرين ويشرب كوب ماء وينام 12 ساعة دفعة واحدة ثم ينهض كامل القوّة ويحسم الأمر بكلمة مفردة:» نو!»، أي لا! كان يعشق فيكتور هوغو ويحفظ قصائده غيباً وكلما سافر الى باريس في العطلة يبدأ جولات المشي في عاصمة العالم بتفقد عصافير السين في باحة كاتدرائية نوتردام.

اعتاد بعد كأس النبيذ البوردو في المساء أن يتبارى مع بناته الثلاث وولديه في الإلقاء الشعري. كانت برناديت الأذكى والأقرب والأجمل صوتاً. ثم جاءت هذه الضربة على قلبه.

*

قضى بسكتة بعد سنوات وهو يسوق سيارته السيتروان التي ترتفع تلقائياً عن الأرض عند تشغيل المحرك. بكت برناديت شيحا ثابت في جنازته أكثر من الجميع، محاطة بعائلتها الصغيرة الجديدة، زوجها عزيز وإبنتها ليديا وإبنها موسى. أرادت لهما رؤية جدّهما مرة، ولو واحدة، ولو في التابوت، قبل أن يختفي أبدياً في بطن التراب. الجد الذي سمعت ليديا به كثيراً وعرفت دائماً بطريقة ما أنه المسؤول عن وجودها في هذا البيت الواسع في هذه البناية المستديرة البيضاء ذات الأباجور الأخضر. أخوها موسى لم يرَ الجد لأنهم أقفلوا التابوت حين اشتد بكاؤه فجأة. أما هي فرأته وكان الميت الأول الذي تراه. استغربت كثيراً كم يبدو شاباً وليس ميتاً وليس جداً ولا أباً لأمها التي صارت غريبة الوجه وهي تبكي هكذا، كأنها ليست إبنة الميت، كأنها أمه أو أخته أو زوجته. حتى أن ليديا الصغيرة خافت (وهذه الذكرى بقيت معها) أن يغضب أبوها ويترك أمها هناك، باكية بين الشواهد الرخام والملائكة المرمر، ويذهب من دونهم ويختفي. وهو ما حدث فعلاً، على نحو ما، بعد ثلاثة عقود تقريباً.

*

أوغيت والدة برناديت حاولت ما في وسعها أن تلعب دوراً توفيقياً بينهما (بين الأب وإبنته التي خرجت على طاعته). أعدّت، وهي تتصنع القراءة في الجورنال، أكثر من خطة. انتزعت منه المال بسهولة وذهبت شخصياً مع إبنتها وزوج إبنتها الى كاتب العدل لتوقيع العقد من أجل البيت في بناية أيوب. لم تفهم أن زوجها الذي يعشق هوغو لم يمنحها المال كي يصالح إبنته، بل العكس تماماً: اعتبر هذا إمتحاناً إضافياً أخيراً، وفور أن قبل المدعو عزيز

ثابت المنحة التي سمّاها- كي يقبلها- قرضاً، أيقن الرئيس الفخري ل« الجمعية المسيحية للمكفوفين» أنه لن يرضى أبداً أن يضع ذلك الجندي حذاءه في مكتبه (فوق سينما كابيتول - بناية العسيلي- ساحة رياض الصلح) أو في مكتبته (غرفته في البيت في شارع الجميزة، حيث الذكريات الأدفأ تحولت الى مرارة بلا نهاية.) المحزن في الأمر أن عزيز ثابت الشاب صاحب الكبرياء قبِل المال كأنه يجرع سمّاً، ولم يفعل ذلك إلا بعد نوبات بكاء متوالية استغرقت فيها زوجته الصغيرة. توهمت برناديت أن أباها الذي يحبّها يريد بهذه المنحة تمهيد الدرب الى المصالحة. خافت إذا قالت لا (وهي أيضاً شابة صاحبة كبرياء وتريد فعلاً أن تقول لا) أن تقضي على فرصتها الأخيرة في استرجاع الأب الحبيب الذي فقدته.

39
آل صعب 3 – الطابق الثاني

ملحم صعب انتقل الى بناية أيوب قبل شهور قليلة من لجوء أقاربه إليه. هو هرب بعائلته من حيّ القنطاري في الغربية، وأقاربه هربوا من مذبحة الدامور جنوب بيروت. لم يكن متجره في سوق الجميّل احترق بعد لأن المعارك الفعلية لم تنتقل الى الوسط التجاري الا أثناء خريف 1975. هرب من بيته في القنطاري عندما أوقفه حاجز طيّار في منطقة عين المريسة وأيقن أنه سيخطف ويقتل على الأرجح، إلا إذا كانوا يريدون مبادلته بمخطوف لهم. ضربوه ورموه في صندوق بيجو 504 زرقاء جرب أن يحفظ رقم نمرتها ولم يستطع. انطلقت السيارة بعنف وارتطم بمفك أو أكس حديد في الظلام وسال الدم من رأسه. وقت المساء وهو عائد من الدكان ويشعر بجوع. لكنه نسي جوعه وحاول أن يفكر في طريقة للنجاة.

*

أخرجوه من الصندوق معصوب العينين. شتموه وضربوه لأنه وسّخهم ووسّخ.الصندوق الورّاني. نزف من صدغه وتقيأ من فمه. لكنه لم يذرف دمعة. دفعته يد في صدره وخاف من الضرب والتعذيب قبل القتل ثم اكتشف أن الرجل المجهول المقنع (كانوا كلّهم مقنعين على الحاجز) يعطيه علبة كلينكس كي ينظف نفسه. في الصندوق بينما السيارة ترتج كان سيلان دمه غريباً. ليس غزيراً بل لزجاً بليداً كأن بزاقة تجرّ بطنها على خدّه. لم يعرف أين هو لكنه حدَسَ من الوقت ومن هدير البحر وصوت الأوتوستراد المسموع أنه في نقطة ما بين الروشة والرملة البيضاء. سألوه ماذا يشتغل. قال جوهرجي. سألوه شو يعني أي ماذا يعني. وأحدهم ضحك في الخلف وهو شعر بالخوف الشديد بسبب هذه الضحكة في هذا الوقت والمكان. لكنه تشجع ومسح فمه مرة أخرى وقال عندي دكان ذهب. قالوا اذا صرخت سنقتلك. أحدهم أعطاه علاقة مفاتيح. عرف من ثقلها أنها مفاتيحه واستنتج أنهم جاؤوا بسيارته أيضاً الى هنا. سألوه كم يعتقد أن حياته تساوي. قال هذه مفاتيح الدكان والخزنة فيها ذهب أكثر من ثلاثين ألف دولار.

«سوق الصاغة محروس وأنت تعرف يا كلب!»

«محلي في سوق الجميّل وليس في سوق الصاغة وأنا أذهب معكم الآن.»

سألوه عن الخزنة. قال هذا مفتاحها. وأعطاهم الرقم. شرح لهم أنها موديل عتيق بلجيكي وأولاً يفتحون القفل وفي داخل الباب الصغير علبة فيها القرص ويبرمون القرص على هذه الأرقام التسعة وعندئذٍ تتك والباب الكبير يفتح وحده. سألوه عن المفاتيح الأخرى. تحسّسها بأصابعه. سمحوا له أن ينظر من تحت العصبة في ضوء المصابيح الأمامية بينما صباطه يغوص في رمل. قال هذا مفتاح القفل لباب الدكان الحديد وهذا المفتاح لباب القزاز. «أنا أذهب معكم.» ضربوه على أذنيه وسألوه لماذا يفتح فمه. طلبوا منه أن يدلّهم أين الدكان. قال في نصف السوق جنب «محلات بيهم». سألوه هل للدكان لافتة. قال أرمة نيون، ومكتوب على علبة البريد إسمي: ملحم صعب. دفعوه

الى الصندوق وأقفلوا عليه. لكن السيارة لم تتحرك. سمع ركضاً ونداءات ثم محركات أكثر من سيارة واحدة. عجلات تعلق في الرمال. أحدهم يشتم وخبطات قوية جداً على الصندوق رجّت دماغه. قضى وقتاً أطول من الوقت. كانت هذه جهنم التي لم يخبره أحد أنها هكذا. البحروالظلام ورائحة الحديد والملح والكاوتشوك والعفن. وعدم معرفته ماذا يحدث أو ماذا سيحدث. وخوفه أن يذهبوا الى زوجته وأولاده. بعد ساعات سمع الأصوات تعود. تكلموا همساً ثم خبطوا الصندوق من جديد. سمع أحدهم يحوزق كثيراً كأنه سكران ثم سمع ضحكاً. حين تلاشت الأصوات تماماً ولم يبق غير البحر وأنفاسه وهدير الدم في أذنيه عرف أنهم ذهبوا. لكنه لم يتأكد. حاول أن يتحرك. أدرك أنه في صندوق سيارته، أنهم لم يردوه الى البيجو الزرقاء بل الى صندوق سيارته. كان اكتشافاً أشبه بالإلهام. اشترى روحه بالذهب. لم يقتلوه. ولم يسرقوا السيارة! تدفقت دموعه ساخنة وسال أنفه. لم يشكّ الا لاحقاً، بعد أن أوصله رجال الدرك الى الطوارىء في مستشفى الجامعة الأميركية ثم الى بيته المذعور السهران في حيّ القنطاري على وجه الفجر، أن الذين خطفوه كانوا يعرفون أنه جوهرجي. ويعرفون مكان دكانه أيضاً. خرج صاغاً سليماً بخمس قطب في جبهته وضلعين مكسورين لا أكثر. سرعان ما حزم أغراضه ورحل مع عائلته الى الشرقية، الى بيت حصل عليه بمساعدة أصدقاء في بناية أيوب في حيّ العبد في الأشرفية.

*

كان البيت فارغاً من الأثاث لكنهم وجدوا أشياء متروكة على التتخيتة (العلية) في المطبخ. كرتونة رطبة محزومة بحبل غسيل، مملوءة كرات زجاجية وزينة أعياد: لمبات ملونة بسلك أخضر و«إبريز» مكسور. صناديق كتب مدرسية مصفرة مجعدة بينها دفاتر فروض، قواعد وحساب وعلوم، تغطيها خربشات وخطوط طفولية. ألبوم صور فوتوغرافية نُسي في ساعة الخروج السريع. قصص بالانكليزية لرديارد كبلنغ وروبرت لويس ستيفنسون

وشارلز ديكنز، صادرة في طبعة شعبية مجلدة، غلافها بنّي - ذهبي اللون وفي كل مجلد شريطة حريرية حمراء تتركها القارئة (نجوى خير الدين) حيث وصلت في القراءة. وجدوا أيضاً خردة (دراجة بأربع عجلات خسرت عجلة منها، مدفأة غاز منزوعة الخرطوم نال الصدأ من «عيونها» الثلاث، سخّانة كهربائية موديل سوفياتي لا يتعطل لكنها مع هذا معطلة ولا تصلح إلا ثقالة للباب لأن وزنها بالنسبة الى حجمها مخيف). قوارير متسخة تتوزع المساحة الفسيحة نسبياً، وثلاث فخارات كبيرة الحجم لا يمكن تحريكها شعرة من مكانها. لم يعرفوا أنها خوابي زيت وزيتون إلا بعد أن فتحوا أغطيتها الفخارية. لم تكن فارغة. كان الزيتون نوعين. أسود في خابية. وأخضر مكبّس بالبلاطة، مجرّح، في أخرى. والثالثة ملأى بزيت زيتون فوّاح الرائحة شهيّ، موسم جديد.

*

آل خير الدين الذين نزحوا الى الغربية تركوا أيضاً هدية في الصالون للمجهولين القادمين بعدهم الى بيتهم في بناية أيوب: منضدة حجرية منقورة على شكل أسد يتوّجها تلفون ثمين ألماني الصنع يزن خمسة كيلوغرامات تقريباً. وعلى هذا التلفون اتصلوا بملحم صعب.

*

مثل آل عازار الذين حلّوا مكان آل صالح، أو آل بدور الذين حلّوا مكان آل عسّاف، أو آل حبيب الذين حلّوا مكان آل شقير، شعر آل صعب بأحاسيس متناقضة تجاه آل خير الدين الذين سكنوا هنا قبلهم واضطروا للرحيل (الخجل والعدائية، الذنب والكراهية، القُرب والبغض، الودّ والحقد... ومشاعر متفاوتة أخرى تتبدل بحسب اللحظة. وتتراجع قوّتها بمرور الوقت وابتعاد المسافة). هذه أمور لم يتعرض لها آل طانيوس مثلاً الذين حلّوا مكان آل كرم. آل كرم انتقلوا الى بيت أفخم في شارع عبد الوهاب الانكليزي لأن

السيدة أنجيل كرم المشهورة في الأشرفية بسبب مطعم زوجها (الشيف بيار)، لم تعد تتحمل رائحة المسمكة التنك التي فتحوها بلا رخصة من الدولة. ولا روائح بسطات الخضر الذابلة التي احتلت الرصيف حيث اعتادت في الماضي أن تركن سيارتها الكاديلاك الزهرية اللون، جديدة من الشركة، موديل ال74. كذلك آل رزق لم ينزعجوا، لأنهم سكنوا في بيت مزيّن بأيقونات يونانية بديعة اختار أهله (آل نصّار) بإرادتهم الحرّة السفر نهائياً الى أوروبا بعد أن أقاموا فترة انتقالية في إحدى فيلات جونيه شمال بيروت. ظنّوا أولاً أن الحوادث لن تطول. حين صارت الجرايد تكتب «الحرب» بدل «الحوادث» سافروا الى «بلاد بلا حوادث وبلا حرب ولا من يحزنون» (من رسالة بقلم سيسليا نصّار مؤرخة 29-12-1975 وصلت الى هدى عطية بالبريد قبل أن يتوقف.)

40
آل الحويك – الطابق السابع

بولس الحويك بسبع أرواح. ربّاه أخوه الذي يكبره بعشرين عاماً. أمهما تزوجت إبنة 13 وترملت إبنة 43 سنة. أنجبت تسعة على مرّ ثلاثة عقود. الأخ الأكبر الذي تحوّل ربّ عائلة قبل أن يتزوج يدعى ميشال الحويك. تولى العناية بالأراضي مع والدته مطرونة الحويك الخبيرة في إدارة العمال السوريين والفلسطينيين. كانت قوية الشخصية حازمة تحب إبنها ميشال أكثر من حياتها وتعامل بناتها من بعيد كأنهم جنس أدنى. صنع ميشال الحويك بمشورة من أمه امبراطوريته الزراعية الممتدة على طول الساحل اللبناني من نهر الدامور الى الناقورة. أحبّ الزراعة من أجل الزراعة. البساتين التي أصلحها وترّبها وشجرّها بعد أن كانت بوراً قفراً ملأت عينيه بالأخضر وأبهجت العابرين على طريق نهر الأولي. تخصّص في زراعة

الموز والحمضيات. تولّع بالموز وأنبت مشاتل واستورد للمرة الأولى في تاريخ المنطقة شتول موز هندي، وزرعها في بستان ضمنه جنوب صيدا من آل سلام. كانت هذه نقطة الضعف الوحيدة في امبراطوريته، «عقب أخيل» الذي سيفلسه لاحقاً: لم يكن قادراً على شراء هذه المساحات الشاسعة من الأراضي التي يريدها كلّها خضراء مثمرة. كان يضمنها، أي يستأجرها لعدد محدد من السنوات. أصحاب الأراضي تدافعوا الى بابه، لأنه يأخذها يابسة منهم ويردها منتجة حلوباً بعد سنوات. معظم العقود مدّتها عشرون سنة لأن الأشجار تحتاج الى وقت كي تنمو وترد له ثمن الجهد والتراب. لكنه أحياناً وقع في حبّ قطعة أرض جميلة الموقع، قاحلة، لا تصلح لبستان، ووجد التحدي جذّاباً كأنه يستجيب لنداء غامض في أعماقه، كأن هذه القطعة شبه الصخرية وضعت هنا من أجله كي يأخذها ويصنع منها جنة. اضطر أحياناً الى توقيع عقود وجيزة المدة (عشر سنوات، ومرات سبع سنوات) وهذا أشبه برمي الليرات في الطريق. في هذه الحال كان يشجّرها موزاً، شجرته المفضلة، لانها أسرع بكثير من البرتقال والليمون. «أنت أخوت يا ميشال!» حبّه للحمضيات جاء من حبّه لزهورها ورائحة زهورها، تماماً كما جاء من ثمرها الشهي ومردودها المادي. حين أشبع السوق المحلي صدّر نتاجه براً الى سورية والأردن والعراق والخليج، وبحراً الى مصر. عقد صداقات مع نافذين مثل سامي الصلح وعادل عسيران ويوسف العلي لأنه وجد نفسه يستقبلهم في حقلٍ اخضرّ فجأة على حافة الأوتوستراد الساحلي فأخرجهم بغتة من شرودهم في فورد سريعة. كان لمّاحاً ثاقب الذاكرة صاحب ذكاء نادر وحس دعابة مشهور. لكن دعابته ظلّت سوداء ولعل هذا ارتبط بكونه أميّاً لا يقرأ ولا يكتب. بقي طوال حياته شديد القسوة على نفسه في هذه النقطة. ثقّف نفسه بالسماع، من العارفين، ومن إذاعة لندن وراديو مونت كارلو. كان يحلم أن يقرأ ويكتب. أدخل أولاده جميعاً الى الجامعة. أحبّ السياسة اذا

كانت تخدم الناس. ملأ أكياس الجنفيص بالليرات وبدّد قسماً من ثروته في دعم الحملات الانتخابية للنواب أصحابه. صادق سياسيين يكره بعضهم بعضاً لكنه عاش في زمن أمكنت فيه هذه الصدف ألا تبلغ نهايات قاتلة. ثم بدأت الحرب. أخوه الصغير بولس المقيم في بناية أيوب في الأشرفية نزل الى الجنوب كي يزوره راكباً المرسيدس التي يملكها. كانت حمراء النمرة لأنه شوفير تاكسي ويحب الشوارع المزفتة ويفضل البنايات والقهاوي وزحمة الناس في ساحة البرج على الشجر والقرية وحراثة الصحراء.

مساء الجمعة5-12-1975. تعشى بولس في بيت أخيه في الجنوب ونام بينما زوجة أخيه تملأ سيارته بأشياء لا يسهل الحصول عليها في بيروت. صباح السبت شرب القهوة بينما أخوه ميشال يسمع الأخبار على الإذاعات جميعاً كي يتأكد من صمود وقف إطلاق النار. «سأمشي، لا أريد أن أتأخر ويضيع النهار.» كانت عادته أن يضع يده على صدره وهو يقف لأنه قبل سنوات وهو شاب صغير في العمر فتحوا قلبه. «لا، الوضع متوتر، لا تذهب الآن!» لم يقبل بولس لأنه أراد أن يكون في بيروت مع زوجته وأولاده. كان يخشى أن يقفلوا المعابر من جديد قبل أن يصل. دلّ أخاه الكبير الى الطريق التي سيسلكها عبر الغربية الى الشرقية، شكر زوجة أخيه على «المونة» التي أثقلت الصندوق والمقاعد، ثم انطلق. ارتطم أسفل السيارة بتلة في الدرب الترابية. لم يبتسم ميشال الحويك، أو يعبس ثم يبتسم كما يفعلعادة. كان باله مشغولاً بسبب الأخبار.

*

صباح الأحد7-12-1975. جريدة النهار. «لم يكد ليل الجمعة-السبت ينتصف حتى بدأ سكان العاصمة يشعرون ان في الجو «شيئاً ما»، خصوصاً بعدما بلغتهم انباء قذائف الكحالة والتراشق بين منطقة الكحالة ومنطقة بساتين عاليه ونزول الكثير من المسلحين الى طرق الجبل لقطعها

وعرقلة السير عليها. وما ان طلع الصباح حتى كانت الاشاعات تروج عن التصدي لموكب الشيخ بيار الجميل واطلاق النار على مرافقيه، ثم طغى خبر مقتل أربعة من الكتائبيين والعثورعلى جثثهم في منطقة الفنار. وكانت الساعة بلغت التاسعة صباحاً والأسواق تعج بالسيارات والناس، على رغم إقفال طريق عاليه- الكحالة- بيروت، عندما بدأ اطلاق النار في ساحة الشهداء أمام سينما ريفولي وسينما أمبير وبدأ الخطف، فخاف الناس وهربوا في اتجاهات مختلفة شرط ان يصبحوا بعيدين عن الرصاص والحواجز، الا أن الرصاص لحق بالكثيرين والحواجز واجهتهم في كل مكان. وبدأت المأساة.

حادث الفنار: حادث الفنار كشفه احد المارة بعدما شاهد سيارة الضحايا فسارع وأبلغ آمر فصيلة جديدة المتن الرائد منير معلولي. فتوجه الى حيث كانت السيارة فوجد في داخلها أربعة قتلى وجريحاً في حالة الغيبوبة فأمر جنوده بنقله الى مستشفى مار يوسف الدورة ثم تابع الكشف على الجثث فوجد في جيوب اصحابها بطاقاتهم وأموالهم وتبين له أنهم: رولان جوزف سعادة والياس قسطنطين بانو (وهو احد مرافقي الشيخ بيار الجميل) وجورج يوسف عبسي وادوار انطوان عكر. ثم اخذت صور للمكان والسيارة والجثث التي نقلت بعد ذلك الى المستشفى حيث كشف الطبيب الشرعي عليها وأعطى تقريراً عن سبب الوفاة. ولم يتمكن الرائد معلولي في الصباح من معرفة طريقة وقوع الحادث بسبب عدم تمكنه من استجواب الجريح دافيد عوكر، لكنه عندما استعاد وعيه قال انه ورفاقه كانوا في برمانا يشاهدون فيلماً وعادوا بعد انتهاء العرض الى بيروت عن طريق الفنار وبوصولهم الى حيث وجدوا تصدى لهم مسلحون كانوا في مكمن وأطلقوا عليهم النار بكثافة. وقال ان لهجتهم غير لبنانية... ثم لم يعد يعي ماذا حصل بعد ذلك. وقال مسؤول كتائبي في منطقة الفنار- عين سعادة ان الحادث وقع على طريق بيت مري القديمة في المكان المعروف بعين نجم ويبعد مسافة 400 متر عن مدرسة مون لاسال. وأنه عُثر في مكان الحادث على أذن مقطوعة وظهرت

آثار أقدام على الارض الموحلة مما يدل على ان الذين نصبوا المكمن جاؤوا سيراً على الاقدام.

المأساة في بيروت: ما ان تأكد الخبر في بيروت حتى بدأت الحواجز الطيارة تنبت هنا وهناك وهنالك، من المنطقة الشرقية نزولا الى جسر شارل حلو والصيفي وساحة الشهداء ومحلة المرفأ وساحة الدباس وأمام سينما أمبير وطريق النهر قرب مصلحة الكهرباء ومار مخايل. ثم أقيمت حواجز ثابتة في شارع الام جيلاس وساحة رياض الصلح وطريق الشام، قرب مستديرة السوديكو، وفي محلة القنطاري عند مفترق البلعة، ومستديرة الاونيسكو، والكرنتينا، وشارع جورج بيكو، وأمام فندق الهوليداي إن والنورماندي وفي ضبية والشياح وبرج البراجنة ومستديرة المطار والاوزاعي.

النار تندلع: وبدأ إطلاق النار في ساحة الشهداء في الساعة التاسعة والربع، ثم قابله رصاص من جهة رياض الصلح فدب الذعر في الناس وبدأوا يتراكضون في كل الاتجاهات. وسرت أخبار الخطف والقتل في المدينة فأقفرت الشوارع من المارة والسيارات. ودعت الاذاعات جميع المواطنين الى عدم الخروج من منازلهم وأماكنهم والبقاء حيث هم في انتظار تعليمات جديدة. وفي العاشرة والنصف أعلن ان الحواجز الثابتة والطيارة اوقفت عدداً لا يقل عن 150 شخصاً أعطيت أسماء أكثرهم إلى لجان الارتباط.

موجة جنون: وفي الحادية عشرة الا ربعاً، اتصل رئيس مجلس إدارة المرفأ بالمسؤولين وطلب اليهم حماية الموظفين والعمال، لأن عدداً من المسلحين دخلوا حرم المرفأ وخطفوا بعض الأشخاص وهددوا بتصفية عدد آخر. لكن تدخل فريق كبير من الموظفين والعمال ورئيس الشركة ومديرها مع المسلحين حال دون اتساع موجة الخطف. وفي الحادية عشرة دخلت مجموعة مسلحة مبنى مصلحة الكهرباء في طريق النهر وقصدها الخطف. وقال المدير العام المهندس فؤاد البزري ل النهار «ان موظفين من الكتائب وقفوا في وجه المسلحين ومنعوهم من تنفيذ غايتهم في خطف عدد من

الموظفين من طائفة معينة، ودار بينهم جدل اتصلتُ خلاله بكبار المسؤولين طالباً إرسال قوة من رجال الأمن لحماية الموظفين ومباني المصلحة، كما اتصل أحد الكتائبيين بمركز الحزب للغاية نفسها فجاء السيدان أنطوان شادر وغيث خوري مع عدد من المسلحين وأبعدوا المسلحين عن المكاتب، ثم أمّنا مواكبة مسلحة لخمسين موظفاً نقلوا في موكب واحد الى خارج المنطقة الشرقية.»

وابتداء من الاولى بعد الظهر بدأت قوات الامن جمع جثث القتلى في الشوارع فوجدت حتى الثانية 16 جثة في بورة كاراج بيجو في محلة النهر، وأربعاً امام محلة فياض في محلة المرفأ، وثلاثاً أمام فندق النورماندي، وثلاثاً في منطقة الشحروري (شارع عبد الوهاب الانكليزي)، واثنتين تحت جسر شارل حلو، وواحدة في أول طلعة ساسين، وثانية أمام مدخل أوتيل ديو، وثالثة في شارع جورج بيكو، ورابعة في محلة السيوفي، وخامسة في ساحة رياض الصلح.

وعرف من القتلى: ابراهيم محمد غندور وهادي عبد الاله النور وحسن عابدين وهاني علم الدين وعلي مصطفى الحاج ومحمد مرشد الحاج حسن وسعيد محمد سعيد وطاهر حمادة الجاسم ومحمد حسن الشاكوش ومحمد مروان الشاكوش وعبد الرحمن مروان الشاكوش وقاسم محمد ابو ضروب وأحمد محمد علو.

الى ضبيه: وامتدت عمليات الخطف الى ضبية فاحتجزت عناصر من مخيمها 16 شخصاً أفرج عنهم بعد خمس ساعات على اثر تدخل قائد سرية جونيه وآمر فصيلة الجديدة.

إصابة ديبلوماسي سوفياتي: وفي الأولى بعد الظهر أُصيب الديبلوماسي السوفياتي روبير مارديروسيان خلال مروره في سيارته قرب فندق سان جورج فنقل الى مستشفى الجامعة الاميركية حيث اجرى له الدكتور سامي نصار جراحة عاجلة. وتبين أنه أصيب بثلاث رصاصات في ظهره للجهة

اليمنى حطمت احداها ضلعاً، وأصابته رصاصة رابعة في عموده الفقري، وخامسة في خده حطمت الفك وخرجت من الجهة اليسرى.

وفي الثانية والنصف، وبعدما تبين أن عدد القتلى والمخطوفين قد تجاوز كل حد وأن المسلحين ملأوا الشوارع والساحات، أذاعت السلطات تحذيراً للمواطنين بعدم الانتقال من منطقة الى أخرى. ونصحت الناس بالتوجه الى مراكز قوى الأمن التي كلفت تأمين نقلهم في سياراتهم وفي حراسة الآليات الى مناطقهم. وأمنت فصيلة جيش وحدها نقل 200 مواطن في شاحنات عسكرية من رأس بيروت الى الدورة.

وفي هذا الوقت أيضاً خرج عمال المرفأ في موكب يتقدمه رئيس مجلس الادارة السيد هنري فرعون في اتجاه الزيتونة. وعندما انحرف فرعون بسيارته نحو شارع جورج بيكو طالباً من الاخرين متابعة طريقهم في محاذاة البحر، استوقف حاجز طيار آخر سيارة من الموكب، وكان فيها ستة أشخاص من عائلة جابر وخطفهم ثم سلمهم الى بيت الكتائب المركزي في الصيفي. وعندما وصل الخبر الى ذويهم في الأوزاعي قطعوا الطريق وخطفوا ستة أشخاص الا أن إعادة المخطوفين من آل جابر فوراً بواسطة لجنة الارتباط عجل في اطلاق المخطوفين في الاوزاعي فعادوا الى ذويهم.

ولم تتمكن لجان الارتباط من تحديد عدد المخطوفين والقتلى، الا ان لجنة التنسيق التي اجتمعت في المساء تبلغت أن عدد الجثث التي عثر عليها في بيروت وضواحيها بلغ 41، ثم ارتفع الرقم الى 56، كما تبلغت أن رقم المخطوفين لا يقل عن 300 أعيد نحو 120 منهم. وكانت المساعي تجري لاطلاق الباقين.

وعلى صعيد آخر حصل تراشق بالأسلحة الرشاشة بين ساحة رياض الصلح والأمبير وشارع الأم جيلاس وساحة الدباس. وعاد محور بشارة الخوري الى ما كان في أيام الحوادث. وفي الليل أطلقت زخات من رشاشات ثقيلة وسمعت أصوات قنابل هاون مجهولة المصدر والهدف.

وجرت اشتباكات في الدكوانة ووقع جرحى عرف منهم سمير محمد أبو الشباب. وفي جل الديب جرح طوني بطرس الحاج وشربل عازار مشعلاني من جراء تبادل الرصاص بين القوميين والأحرار تدخلت على أثره قوى الامن وأنهته.

وقال تقرير لقوى الامن الداخلي أنه عثر في وادي المعماري قرب الفنار على ثلاث جثث لقتلى مجهولي الهوية. كما عثر على جثة قتيل مجهول الهوية أيضاً في محلة الجمهور.

يوم حداد وطني: وأذاع أمين السر العام للوطنيين الأحرار السيد دوري شمعون البيان الآتي: ان حزب الوطنيين الاحرار اذ يأسف لكل ما حصل امس السبت الواقع فيه 6-12-1975 من حوادث واعمال أدت الى وقوع ضحايا بريئة من جميع الاطراف، يستنكر أعمال الخطف والقنص التي أدت في النتيجة الى إنفلات الامن وخرق واسع لوقف إطلاق النار بعدما كان جميع الفرقاء اتخذوا قراراً في هذا الشأن في لجنة التنسيق العليا، ونعلن الآتي:

أولاً: الطلب الى جميع الأطراف الالتزام بضبط النفس والهدوء والتريث والرجوع الى الشرعية التي لا بديل منها في كل ظرف ومكان.

ثانيا: إعلان اليوم الأحد 7-12-1975 يوم حداد وطني عام على جميع الأبرياء الذين سقطوا في الحوادث المؤلمة.»



قبل سنوات من الحرب الأهلية، في عهد الرئيس شارل حلو، انحرفت سيارة بولس الحويك (رينو 12 موديل ال 68) عن الدرب وتحطمت. كان وحده في طريق جبلية لا يسلكها كثر. أنقذه عبور سيّاح في المكان حملوه فوراً الى مستشفى. بعد الاسعافات الأولية وتضميد الجروح صوّروا قفصه الصدري بالأشعة. أحد الأطباء كان يصغي الى دقّات قلبه واكتشف أن

الشاب، بحادث أو بلا حادث، على حافة موت وشيك. شخّص بالحظ خللاً في صمامات القلب قديماً، منذ الولادة. ميشال الحويك سأل الدكتور ماذا يقصد؟ «أخوك لن يعيش أكثر من سنة أو سنتين.» سأله ميشال ألا توجد عمليات جراحية لهذه الحالة. «بلى، لكنها مكلفة كثيراً.» كانوا بحاجة الى كمية من وحدات الدم غير متوافرة في المستشفى. تلفن ميشال الحويك لصديقه المحامي سليمان سرحال الذي تلفن بدوره لأخته رئيسة الصليب الأحمر في لبنان ودبّروا الوحدات اللازمة. كانت المرة الأولى التي تجرى فيها العملية المذكورة في مستشفى الجامعة الأميركية في بيروت. تكلّلت بالنجاح.

❋

صباح السبت 6-12-1975. عجز ميشال الحويك عن الخروج الى البستان بسبب باله المشغول على أخيه. ظلّ حد الراديو يتنقل بين الاذاعات متوجساً. اتصل برقم بيت أخيه في الأشرفية بعد ساعة من إنطلاقه وسأل زوجته هل وصل بولس؟

«لا».

قال لها تلفنوا لي فور وصوله. انتظر عشر دقائق وهو يسمع نشرات الأخبار ويقبض بيده على عضلة فخذه. ثم اتصل وسألها هل وصل.

«لا». صوتها لا يزال هادئاً الى حد.

بعد خمس دقائق اتصل مرة ثالثة. سألها : هل وصل؟

«لا»، كان صوتها يرتجف.

«ماذا أفعل يا ميشال؟»

❋

تلفن لصديقه العزيز مصطفى سعد في مركز التنظيم الشعبي الناصري في صيدا ولم يجده. تلفن له على رقم المنزل ووجده. أخبره أن أخاه بولس كان عنده وأنه انطلق من بيته ذاهباً الى الأشرفية قبل ساعتين تقريباً ولم يصل

بعد. كان يعرف أي درب سلكها أخوه لأنه سأله ألف مرة قبل أن يمشي. لهذا حدس أين خطفوه ومن خطفه.

«المرابطون».

مصطفى سعد قال له سأتصل بك بعد ربع ساعة. في هذه الاثناء اتصل ميشال بمركز فتح وبمركز الجبهة الشعبية. اعتاد أن يتبرع للثورة الفلسطينية بالنقود والفواكه لأنه يحبّ الفلسطينيين. في مرات كثيرة أعارهم التراكتورات لحفر الخنادق. تكلم معه قيادي يعرفه وسجّل الإسم الثلاثي لأخيه وقال سأتصل بك بعد خمس دقائق. وضع السماعة. رنّ التلفون قبل أن يبعد يده. زوجة أخيه تبكي والخط يتقطع ويخشّ. قلب ميشال الحويك سقط بين قدميه. ظنّ أنهم قتلوا بولس. لم يقدر أن يتكلم. أخبرته عندئذٍ أن بولس لم يصل الى البيت بعد. أمرها ألا تتلفن لأنه يجري اتصالات وينتظر خبراً، وأقفل السماعة. رنّ الهاتف. دفتر التلفونات وقع من يده. أقسى لحظة في حياته.

«أنا مصطفى. المرابطون يقولون ليس عندهم إسم بولس الحويك بين المحتجزين»

«مع من حكيت؟»

«مع ابراهيم قليلات»

« أنا متأكد أنه عندهم»

«في هذا الجو، ماذا أستطيع أن أفعل يا ميشال؟»

كانت الدنيا مظلمة شديدة السواد لأنهم إذا قالوا ليس عندنا فهذا يعني أنهم قتلوه.

«مصطفى! هذا أخي!»

*

أنقذت بولس الحويك تلك الصرخة. وأنقذه أن ميشال بدأ يتصل (بكل من يقدر على مساعدته) منذ اللحظة الأولى. لم يترك شخصاً مهماً من معارفه إلا وتلفن له كي يتدخل. حجزوا بولس الحويك ستة أيام في مكان مظلم. كانوا يضربونه في الظلام ويصيح أرجوكم لا تضربوني على جرحي، ليس على الجرح. عملية قلبه أجريت قبل سنوات لكن ثلم الجرح البنيّ القاتم ما زال يقطع صدره من عظمة الكتف الأيسر الى البطن. وما زال يؤلمه كأنه مشقوق الى نصفين. سلّموه الى أخيه ميشال لابساً قميصاً غير الذي تمزق. لم يقتله السبت الأسود.

«ظلّوا يضربونني على الجرح.»

41
آل موراني 3 – الطابق السابع

«أغلقتُ باب الغرفة وجلستُ على حافة السرير. لم أفتح الحقائب. شعرت بالبرد. على السرير بطانية صفراء جديدة مطوية بترتيب. لم ألمسها. الخزانة ببابين متقشري الطلاء، مفتوحة وفارغة، ترك فيها شناكل خشبية معلقة بلا ثياب. نقل ملابسه إلى خزانة نايلون بسحّاب، في الغرفة الأساسية. أخبرني أن الصوفا تفتح وتتحول الى سرير وأنه معتاد على النوم فيها من دون أن يفتحها وهو يسمع الراديو أو يشاهد التلفزيون. النافذة بلا ستارة لكنه سيدق مسمارين ويجلب «عمود برداية» غداً إذا أردتُ. لا تطلّ على بنايات بل على فراغ فوق بيوت واطئة تتكوم في الأسفل منحدرة الى كعب النزلة. بيوت خشب وتنك وباطون على سطوحها دواليب كاوتشوك وخردة مرمية. شعرت بالخوف وأنا أنظر إليها. في البعيد حيث قطعة البحر لمحت تلالاً لطيفة خضراء اللون. أخبرني أنها مكبات زبالة وأنني أقدر بالمنظار رؤية الأولاد يلعبون عليها في الصيف ويطيّرون طائرات ورقية. خفت أن أبكي من جديد. دلّني الى رفّين

قديمين مثبتين أسفل الحائط، وقال هذه لكتبكِ لكن أستطيع أن أزيد رفّاً ثالثاً بسهولة. فتح جوارير الكومودينة كي أرى أنه أفرغها من أجلي ووضع أوراق جرايد في كعبها. قال إنه سيجلب كومودينة أكبر مع مرآة إذا كنت بحاجة إليها. لأنني أخجل حين يتكلم أحد معي باهتمام هكذا، وعلى مسافة قريبة، صرتُ أنظر الى السقف. ظنّ أنني مستاءة من البقعة المستديرة الخضراء (أنا حتى لم أكن أعلم أنها بسبب الرطوبة، ظنّنت أن السقف طُلِي بلونين!) وأخذ يشرح لي أن هذا كلّه موقت، وأنه يبحث عن شقة أكبر لكنه كان هنا وحده ولهذا لم... بينما يتلعثم فهمت سبب كلامه وتوقفت عن النظر الى السقف. أخذت أهزّ رأسي بأفضل طريقة أعرفها كي نتتهي بسرعة من هذا كلّه، وكي يخرج وأبقى وحدي. أغلقتُ الباب وانتبهت أنني أرجف برداً. حاولت البقاء بلا حركة أطول فترة ممكنة. حين سمعت أسناني تصطك فتحت الحقيبة التي طويت فيها معطفي الأخضر. لبسته وجلست على الكرسي بدلاً من السرير. النافذة واجهتني ولهذا نظرت اليها: انتبهت الى «معجونة» بلون مختلف عن بقية الحائط، تؤطرها. ولأنها نافذة حديد، ولأن زجاجها منقط بالدهان الأبيض، استنتجت أنها جديدة، ربما منذ سنة أو سنتين، وليست من البناء الأصلي. وقت طويل بقيت هكذا على الكرسي، أشدّ جسمي في معطفي الأخضر وأحاول أن أتنفس. سمعت أصوات أطفال تأتي عبر الحيطان. رأيت طيراً بحجم حمامة يعبر السماء. المعطف هدية من أمي في عيد رأس السنة. شعرت بألم شديد في كتفي ورقبتي وصدري، حيث تكون القصبة الهوائية. قررت فتح النافذة. صارعت مسكتها الحديد القاسية. كانت ملوثة بالصدأ وفكرت أن جرح يدي سيتسمم اذا جرحت يدي الآن. بينما أشدّها وأفتحها صارت الأصوات أقوى ورأيت بوالين ماء وصابون تتلوّن بالأحمر في ساعة الغروب وتسبح أمامي. من نوافذ أخرى عن جانبي «نافذتي»، ومن نوافذ تحتي، أطلّت رؤوس أطفال شقر ينفخون في مفاتيح أبواب قديمة، مفاتيح بحلقات، ومن الحلقة يخرج بالون الصابون، يحاولون القبض عليه ويضحكون. فتاة أكبر منهم، في

الحادية عشرة تقريباً، سمراء كالهنود الحمر، لوّحت لي. كانت على الطابق ذاته. أرجعت رأسي بسرعة وأغلقت النافذة.

❊

كنّا حين نسافر أترك لأمي أن تفرغ الحقائب. أخرجتُ أولاً آلة التسجيل، الراديو «السوني» والكاسيتات. لم أعرف أين أضع الفيشة الكهربائية. معي بطاريات ما زالت في غلافها. وضعت أربع بطاريات في المكان المخصص لها وأنا أجاهد كي أرى علامة الزائد وعلامة الناقص. مع الموسيقى بدأت أتنفس وأخذت غيمة الدموع تخرج من عينيّ. بقيت على السرير وقتاً طويلاً. اختفى نور الغروب خارج النافذة التي أضافوها إلى هذه الشقة منذ سنة أو سنتين.

❊

أخرجت من الحقائب الثياب التي ساعدتني زوجة خالي كي أطويها، ووزعتها على السرير. فكرت في أفضل طريقة لتعليقها. القسم الأكبر نقلته مطوياً كما هو الى الجوارير لأن هذا أسهل. تحاربت مع الشناكل وصرت ألهث من الانحناء المتكرر وأنا التقط القمصان التي تقع والجاكيتات التي تتساقط وحدها مع أنني علّقتها جيداً. فكرت أن المشكلة ليست في أسلوبي ولكن في هذه الشناكل. لأنها ناعمة زلقة. ثم تذكرت أنني دائماً هكذا، مع أي شناكل، خشبية أم معدنية، وشعرت بأمي وراء ظهري تبتسم. لكنني لم أسمع ضحكتها. وأنا كنت بحاجة الى رنين ضحكتها والى يدها التي تبعدني وتتولى هذه الأمور بدلاً مني: في لحظة تعلّق ثيابي كلّها في الخزانة كأنها قضت حياتها تشتغل في مصبغة. جلست على السرير ونظرت الى اللمبة والسلك القديم المغطى بالغبار. في الضوء الكهربائي الأصفر شعرت أنني لا أستطيع، لا أستطيع من دون أمي، لا أستطيع، وهذا كل شيء.

❊

قرع الباب بينما أنتهي من صفّ كتبي (التي لم يتسع لها الرفّان) في قعر

الخزانة وفوق الكومودينة. قسم منها بقي مرصوفاً على الكرسي. لهذا السبب شعرت بكتفي ينخلع على الدرج. كل كتاب أرفعه من الحقائب يذكرني بعشرة كتب أخرى اضطررت لتركها في بيتنا في المكحول في الغربية. عشتُ دائماً هناك، في منطقة الحمرا. البيت الأول كان قريباً من مخفر الدرك الأصفر الحيطان في طرف فردان. ثم انتقلنا وأنا في الصف الخامس الإبتدائي الى البيت الأصغر في شارع المكحول والذي أحببناه أكثر بسبب هدوء الشارع، ولأننا نظّفنا بلاط أرضيته من بقع الدهان معاً. وأحببناه بسبب جرس الكنيسة المجاورة، ولأن موقعه قريب من الجامعة الأميركية حيث درست أمي وحيث خطّطنا أن أدرس أنا أيضاً. كانت تملك بطاقة نادي المتخرجين (ألوميناي) التي تخوّلها دخول الحرم الجامعي في أي وقت. كنّا ننزل كثيراً الى الجامعة ونمشي بين الأشجار، نقعد فوق ملاعب التنس وننظر الى اللعبة أو الى البحر والكورنيش، ونتكلم. لم نكن نسكت لحظة، إلا حين أريد القراءة أو سماع كاسيت جديد لفرقة أحبّها، أو حين تكون مشغولة جداً وتضطر لجلب جزء من عملها الى المنزل وتقعد مع ركوة القهوة وآلتها الحاسبة البيضاء الضخمة الحجم. وحتى في هذه الحالة كنت قادرة على أن أحكي بلا توقف وهي تسمعني وتلعب بقلمها وتتصنع الغضب وأحياناً تغضب قليلاً أو تضحك وتقول أين كتبكِ الآن؟

«العشاء جاهز.»

صوته وراء الباب شبه مبحوح، كأنه قضى فترة بعد الظهر واقفاً على السطح يصيح ويتلقى الريح في فمه. مع أنني بقيت أسمع حركته معظم الوقت (لم أرفع الموسيقى كثيراً) وعرفت أنه يرتب الأشياء في غرفته الجديدة وفي المطبخ المتصل بها. ومنذ دقائق بدأت أشمّ رائحة البيض الذي يقليه بالسمن وبدأت أشعر بالجوع.

*

أدفأتني الحركة بينما أرتب أغراضي. خلعت معطفي وعلّقته في الخزانة وتراجعت. لم يقع! فكرت أنني أتحسن وأصير ماهرة، لكن قبل أن أستدير كي أبدل بنطلوني (الذي جفّ على جسمي منذ وقت)، انزلق المعطف وسقط على الكتب. العجائز الذين يؤمنون بالخرافات يقولون «فلانة تُصيب بالعين!» ويلبسون خرزة زرقاء ضد العين الشريرة. سائقو الشاحنات أيضاً يعلّقون هذه الخرزات على شاحناتهم (عين الحسود تبلى من الحسد). لا أمي ولا أنا نؤمن بهذه الأساطير، ومع هذا كانت أمي تزعل مني اذا قلت لها مازحة:» أنتِ تصيبين بالعين!». كانت صدفة تتكرر، ونحن في الشارع وهي تقول لي انظري هذه المرأة ما أطولها أو ما أجمل فستانها أو سكربينتها أو حقيبة يدها، أن تتعثر المرأة بحافة رصيف أو يقع منها كيس المشتريات وتتبعثر محتوياته على الأرض. أنا أضحك بصوتٍ عالٍ وأعجز عن كبت ضحكتي، وأمي تشدّني غاضبة من يدي، كي نبتعد. في أحيان كثيرة، بينما تخبرني شيئاً عن شخص ما لم ترَه منذ سنوات، نلتقي به فجأة في المقهى أو مدخل السينما أو المصعد أو حرم الجامعة. اعتدتُ أن أقول لها «العالم معكِ صغير يا أمي!». كانت تحبّ هذه الجملة كثيراً. ومرات يحدث شيء وأعرف أنها تنتظرني كي ألفظ هذه الكلمات فأتأخر قصداً وأبقى ساكتة كي أغيظها.

*

أحبّ هذا البنطلون مع أنه مخمل، لأنني أطولُ خمسة سنتمترات على الأقل متى لبسته. لكنه يزعجني وأنا أنزعه لأنه يعلق في حذائي. استندت الى السرير ولم أسقط على الأرض حين اشتبكت ساقي بيدي. اضطررت الى فكّ شريط الحذاء. بعد أن لبست بسرعة بنطلون الجينز الواسع نظرت الى المشاية التي وضعتها تحت السرير وحاولت أن أجبر نفسي على الشعور ببعض الراحة. فشلت لأنني لا أملك قوة الإرادة التي تملكها أمي. انتعلت حذائي من جديد ونظرت إلى النافذة التي تحولت الى مرآة صفراء بسبب الظلمة في الخارج. اللون الأحمر في عينيّ لا يذهب مع أنني، منذ يومين أو ثلاثة، أبكي

أقل. وجهي مصفرّ شبه مستطيل بسبب نحوله. أسناني تبدو متضخمة بارزة الى أمام كأسنان أرنب مع أن هذا غير صحيح. أريد أن أتحمم، أن أغسل شعري بالشامبو ثلاث مرات، وأن أقف طويلاً تحت الماء الساخن. لكنني لا أملك القوّة. ولستُ في بيتي.

*

حين خرجت أخيراً كان البيض قد برد في المقلاة. بينما نأكل وهو يسكب في فنجانه شاياً للمرة الرابعة أو الخامسة، انقطعت الكهرباء. «دورنا في التقنين.» كان يعني دور هذا الحيّ في التقنين، لكن الوبر وقف على قفا رقبتي، لأنها عبارة تستخدمها أمي، ولأن نون الجماعة (دورنا) بدت غريبة الآن، قاسية على سمعي، ولا أريدها. في الظلام هاجمني البرد مجدداً. استعمل قداحته وأشعل رأس البوتوغاز كي لا أظلّ في العتمة بينما يجلب الشمعدان الذي تركه في الحمام. بعد ذلك حقن لوكس الكاز ثم أضاءه ووضعه على سطح التلفزيون.

«الشقة ضيقة، أعرف، سأجد شقة أوسع.»

لم أفهم ماذا يغيّر ذلك. حبست صوتي ولم أصرخ «أريد أمي!»

*

أخبرني أن الجيران عندهم بنات في عمري، الجيران في هذا الطابق والجيران في الطابق الخامس. كان ينتظرني كي أقول شيئاً لأنني ساكتة كالسلحفاة طوال الوقت. شعرت أنه يعرق وهو يشرب أكواب الشاي ويُذوّب فيها عدداً لا نهائياً من ملاعق السكر. كأنه يشرب قطراً ثقيلاً أسود اللون. بحثت عن شيء أقوله وفي النهاية أخبرته أنني قرأت إسماً أجنبياً يشبه ماركة بيرة على الجرس في الطابق السادس. ضحك (لم أعرف لماذا يضحك) وأخبرني أن الطابق السادس غير مسكون وأنني قرأت اسم الدكتور هاينيكن وهو أستاذ في الجامعة الأميركية وعنده شقة هناك ولا يأتي الى هنا. «والبيت الآخر بيت

صاحب البناية لكنه في النمسا أو المكسيك أو الأورغواي، بناته هناك، سافر حين بدأت الحوادث.» فكرت أن ظفره سينكسر وهو يحفر الطاولة. كلماته عادية (بناته هناك) لكنها تضايقني مثل رمل يدخل تحت ثيابي وأنا على شاطىء البحر. أعرف أنه يبذل جهده كي يريحني ويساعدني ويجعل الأشياء أسهل عليّ. أقدر رؤية ذلك وأفهمه، لكن المعرفة لا تبدّل شيئاً. لوكس الكاز أرسل طنيناً أكثر مما أرسل نوراً: «شاشته» قديمة وتحتاج الى تبديل. بقينا صامتين حتى سنحت لي الفرصة- وهو يسكب مزيداً من الشاي البارد- فدفعت الكرسي الى خلف. من دون أن أسقط مضيت الى الحمام كي أغسل فمي، وأنهيت سهرتي الأولى في هذه الشقة. لم يبقَ إلا أن ألقي تحية المساء وأنا أقطع الخطوات الثلاث الطويلة من باب الحمام الى باب «غرفتي».

*

سرير غريب في غرفة غريبة. هذه ليست حياتي. لا أريد. أتلمس الكتاب السميك في الظلام الكامل. أحاول أن أشمّ فيه رائحة قديمة. أمي كانت تقول لي حين بدأت أنام في سرير منفصل في غرفة جنب غرفتها:» أنا وراء هذا الحائط. لا تخافي.» وكانت تقرع الحائط من جهتها وتنادي عليّ ضاحكة كي أتحمل البقاء وحدي في سريري الجديد. كنت أهرب الى المكان القديم في نصف الليل وهي تنتظر حتى أغفو ثم تحملني الى غرفتي، وحين أنهض في الصباح لا تخبرني أنها نقلتني وأنا نائمة كي أتوهم أنني صرت كبيرة وقوية وأنام طوال الليل وحدي في الظلام. صدقتها وصرت أنام وحدي عارفة أنها وراء الحائط. لكنها ليست وراء الحائط الآن.

*

حاولت أن أتنفس لكن نبضاتي تسارعت أكثر مما يتحمل قلبي. شهقتُ خوفاً من الاختناق. بلغت النافذة. فتحتها. على الحافة البعيدة للخليج الأسود رأيت أضواء بيوت وسيارات.

«أنتِ لورا؟»

لم أجفلْ من صوتها. كان لطيفاً هادئاً أقرب الى الهمس، كأنها قضت الليلة تقرأ وفي هذه اللحظة فقط فتحت النافذة كي تنظر الى الخارج قبل أن تنام.

42
آل عازار 2 – الطابق السابع

اكتشف سعيد عازار أنه حمار. شعر باستياء عميق حتى أوشك أن يمرض ويلزم الفراش. أمه خافت عليه أن يكون أكل كالعادة شيئاً من الزبالة وتسمّم، لأنه عبيط ولا يمكن أن يشبع، ويأكل حتى بعد الأكل. كانت تعتقد أن ربّنا ضربها ثلاث مرات. الأولى حين أخرج من بين فخذيها هذا الصبي البغل. الثانية حين منحها ثلاث بنات ذكيّات يستحيل عليها أن تتحكم بهن. والثالثة (الضربة الختامية القاضية) شربل آخر العنقود. سمّته على إسم مار شربل بنصيحة جارة في الحيّ القديم لأن القديس شربل يفكّ الكرب وينقذ الملهوف. وهي مكروبة ملهوفة ولم تبقَ جارة في الحيّ الا وسمعت، لا لأنها نقّاقة أكثر من ضفدع (وهذا صحيح)، بل لزعيقها الجبّار كل مساء حين يرجع زوجها الصيدلي جائعاً يطلب أن تعشّيه... هو الذي يقعد طوال النهار مثل الفرعون في صيدلية خاله على ساحة البرج، يلعب طاولة الزهر مع جيرانه الصيادلة ويقضم حبّات فستق. لم تفهم ماذا أصاب سعيد. تحسّست جبهته ولم تجد حرارة. هرب منها لأن يدها باردة كالجليد. كان مستديراً كالبرميل يزنّ تسعين كيلوغراماً على الأقل. تعرف أنه يسرق كي يملأ بطنه المثقوبة. وتتصرّف كأنها لا تعرف. منذ قصفوا ساحة البرج وسرقوها ثم أشعلوا النار في دكاكينها كي لا يعلم أحد أنهم سرقوها، وهي وحدها في الدنيا وعليها إطعام هذه الأفواه ولا يساعدها مخلوق. زوجها رجع الى سنّ الطفولة. كل

المهجرين يحصلون على مساعدة إلا هي. لأن زوجها لا يريد الذهاب الى مركز الحزب. يقول إنه ذهب. متى ذهب؟ حتى كرتونة الإعاشة لا يذهب كي يجلبها من مدرسة البنات الرسمية. أرسلت سعيد وأعطته تذكرة (هوية) أبيه لأنهم يطلبون الهويات على الباب واذا لم يكن إسمك مسجلاً في القوائم لا يحق لك بكرتونة الإعاشة. كل هذه الرسميات من أجل كيلو سكر وكيلو عدس مضروب بالسوس وظرف حليب وقنينة زيت نباتي مغشوش. يسرقون نصف الإعاشة التي ترسلها الأمم المتحدة ويبيعون النصف الثاني هنا في الطريق (على عينك يا تاجر) مع الملابس والغسّالات والتلفزيونات التي نهبوها من البرج والأسواق. كيف تقول لإبنها لا تمدّ يدك وهو يجوع وهم سرقوا «الحبّة والشعيرة»! التقت اليهودية على الدرج، المرأة التي تعيش في الشقة الكبيرة على الطابق الثالث، ورأتها تبكي وتتكلم مع جارة ليست يهودية على الطابق الخامس (هذه زوجة الشوفير نسيب طانيوس وسمعت أنها كانت تنام من وراء ظهره مع الدكتور الشيوعي الذي كان ساكناً في بيت زيدان الحلواني قبل أن يهرب الى باريس). ألقت التحية وتابعت النزول لكنها سمعت كل الحديث لأن الكلام يركب هوّة المصعد الفارغة ويصعد وينزل في الهواء الأسود، واذا أصغيت تسمع الناطورة في كعب البناية وأنت تشرب قهوة في الطابق الفوقاني. لماذا تبكي بنت الحاخام عطية؟ لأن الأكراد شغيلة جنينتها في وادي أبو جميل خلعوا أبواب الحارة القرميد وأخذوا ما فيها، الأكراد جراد، حتى الرخام قلعوه من الأرض، والزجاج الملوّن المحجّر، ودرابزين الشرفات، والأشياء التي خبّأتها على «التتخيتة».



عزّى سعيد نفسه بحقيقة أخرى بسيطة: «أبي حمار أكثر مني بدرجات، وأنا على الأقل صرتُ أعرف!» بعد شهور طويلة من الخوف في الملجأ وجد نفسه صدفة في الطريق بينما القنابل تنهمر فجأة على الأشرفية. أرسلته أمه الى

فرن الناصرة لأنها سمعت أن الفرن حصل على طحين من السوق السوداء وأنه فتح ورجع يخبز. كانت إشاعة لكنها صدّقتها. أخرجت القروش من المخبأ في صدرها وقالت «مثل الصاروخ!». أمال رقبته كأنه فهم كل شيء وطار خارج البناية وحلّق قاطعاً حيّ العبد وحين خرج من مرمى النظر حطّ وأبطأ سيره ولهث ناظراً الى السيقان العارية. قصفوا البارات وراء بناية البوليس قبل أن يدخلها. والآن كيف سيعرف هذا الشيء الذي يتكلمون عنه؟ كان يراهنّ أول الليل خارجات من الأبواب السميكة الحمراء في التنانير السوداء الضيقة القصيرة. تضحك الواحدة مسنودة الى الباب وتشير له أن يقترب. يشمّ رائحة اللحم الأسمر من بعيد ويرى الأفخاذ تتورد بالبرد. يخاف لأنه تأخر وأبوه ينتظر في الصيدلية. يخاف أيضاً لأنه اذا ترك الدراجة ودخل كي يرى أين يضعون التخت في البار العميق، قد لا يجدها عند خروجه. وعندئذ ماذا يفعل به أبوه؟ كانت مسألة التخت تحيّره كثيراً لأنه لا يظنّ أن هذه المساحة الضيقة تتسع لتخت! فكّر في الموضوع وهو يدوّس بين أكوام البحص أمام ورشة «سنتر صالحة وصمدي «وراء بسطات اللعازارية، وظلّ يفكر فيه وقد أصبح على دراجة أكبر لا يعلق جنزيرها بأسفل بنطلونه ولا يوسّخ بالشحم الأسود جواربه الناصعة (الجوارب البيضاء لزوم مهنة الصيدلة). نظر الى المبنى الكبير وقد اكتمل وارتفعت فوقه البيضة الباطون العملاقة التي أخبره صيدلي شارع الأمير بشير أنها المرصد الفلكي الجديد للمدينة وأن الأساتذة الرهبان في الجامعة اليسوعية سيركبون فيها التلسكوب لمعاينة الكواكب والنجوم وأدوات تقيس سرعة الريح ومعدل الأمطار ونسبة الرطوبة. صدّقه لا لأنه بسيط العقل كما يسمعهم يقولون عنه حتى قبل أن يركب الدرّاجة، ولكن لأن السيد بارودي خواجة محترم وعضو في نقابة الصيادلة ومحله أكبر من محلهم، وأحياناً يشتري له سندويشة باذنجان مقلي من عربة سلّوم. حين اكتشف أنهم فتحوا سينما في جوف البيضة في السنتر الجديد لم يزعل، بل العكس. الأفلام أجمل من التلسكوب. عيّن لنفسه نقطة يرصد منها البنات

الداخلات الى السينما ساعة المساء. كانت هذه سعادته الكبرى: مراقبة الإناث ممتطياً الدراجة بينما يقضم فطيرة بسبانخ أو بالسلق.

*

أفزعته الحرب أكثر من أبيه وأمه. ارتعش رعباً بينما القنابل تهزّ الحيطان. تضاعف خوفه في الملجأ بين النسوة الشاحبات والأناجيل المفتوحة والصلوات التي يستحيل أن يسمعها الربّ لأن المستودع تحت البناية. عضوه يقوم من دون انتباه ويلتصق بالجينز المبقّع ويضغط قاسياً على فخذه وهو قريب هكذا من الصبايا في البيجامات. ينام لابساً هذا البنطلون. ليس مثلهن. ولا يفهم لماذا لا ينظر جيداً الى سيقانهن الآن! في الملجأ المكبوس تحوّل الى إمرأة. انتقل خوفهن بالعدوى إليه. لم يكتشف ذلك إلا على الطريق عائداً فارغ اليدين من فرن الناصرة. صفرت الصواريخ وركض للإختباء. تمنى لو أن دراجته معه ولم تحترق في الصيدلية. سمع ضحكات. تعثر وارتطم بسيارة مركونة جنب الشارع، مضغوطة مثل لعبة وقعت من سطح عالٍ. كانت محروقة وملفوفة على نفسها. وسّخت ثيابه بالسخام. شخص لا يعرفه ساعده على الوقوف وهو ما زال يضحك. لم يسأله ماذا يضحكك، لأن الناس كثيراً ما يتصرفون هكذا عند رؤيته. لا يكره ذلك. اعتبره نوعاً من الحبّ. الشمس لمعت كالبرق على ثلاثة صلبان ذهبية كبيرة تتدلى من سلاسل حديد مربوطة على صدر الرجل. لم يخف سعيد عازار من الكلاشينكوف ولا من أحزمة الرصاص ولا من المسدس الضخم في الجراب الجلد الأصفر. لكنه خاف قليلاً من خنجر سحبه الرجل كي يقطع القميص العالق في حديد السيارة. الزجاج المسنّن لم يجرحه. والرجل ردّ السكين الى بيته.

«تخاف من القصف؟»

كانت أسنانه جميلة لكن رائحة فمه قوية. ربما بسبب الويسكي.

«تأخرت. كنت في الفرن. كي أشتري خبزاً.»

«تعال معي!»

مشى وراء الرجل. رأى عربة مدرّعة يتوّجها مدفع رشاش مخرم القسطل. الثلاثة فوق المدرّعة ضحكوا وهم يدخنون السيجار مثل خواجات مطعم كريستو، ناظرين الى السماء. لم يهتموا به. فتح الرجل باباً حديدياً في المؤخرة وأخرج «ربطة خبز» كاملة مربوطة بالشريطة الزرقاء المفتولة وأعطاها له. أخرج سعيد القروش من جيبه. قال الرجل:» عيب.» لم يأخذها. كانت المدرعة مملوءة بربطات الخبز! سأله هل يريد ربطة ثانية وقبل أن يردّ عليه (عجز عن بلع ريقه بسبب المفاجأة وبسبب الرائحة الحارة الشهية)، التقط الرجل ربطة أخرى من الكومة. سعيد أراد أن يدفع ثمن هذه على الأقل. «عيب»، قال الرجل.

*

أجلسه على صندوق ذخيرة في ظلّ الشجرة ودلّه الى شريط دخان في السماء. شرح له أن هذا الصاروخ يأتي من جسر البسطة أو من برج أبو حيدر أو من رمل الظريف، ولن ينزل هنا، لكنه قد يصيب ساحة ساسين أو حي السريان أو بنايات السيوفي. الثلاثة فوق المدرّعة توقفوا عن الضحك للإصغاء. اهتزّت أغصان الشجرة وتساقط الورق الأصفر. لم يكن الانفجار بعيداً.

«ساحة ساسين!»

«أو قبل!»

ضحكاتهم انتقلت إليه بالعدوى. الكيس النايلون المملوء بأرغفة الخبز الأبيض تعرّق بين يديه. ودّ أن يفتح الكيس ويأكل ربطة كاملة الآن تحت هذه الشجرة قرب دير الناصرة. سأله الرجل هل يدخن ثم ناوله سيجاراً. لم يلمس شيئاً مثل هذا من قبل لكنه دخّن سجائر بالسرّ في الأزقة على المرفأ.

«أنا جرجي.»

الثلاثة نادوا من فوق المدرّعة وطلبوا شيئاً لم يفهم ما هو بلغة لا يعرفها ثم ضحكوا. «أنا سعيد عازار.» ابتسم الرجل وأعطاه سيجاراً جديداً كاملاً قصّ

طرفه بالسكين وأشعله له. كانت رائحة التبغ قوية، طيبة. العينان الواسعتان ضحكتا له. لحية سوداء. برنيطة كاسكيت عسكرية مبرومة الى خلف. بكلتها في المقدمة، مقطوعة. ربما بسبب ضخامة رأسه. رأى خطّين عميقين في جبهته العريضة السمراء، وفكّر أنه في الأربعين أو في الخمسين، لكن ربما في الثلاثين أيضاً. استجمع شجاعته وسألهم هل هم كتائب أم أحرار.

«نحن مرابطون.»

«لا تصدقه. نحن شيوعيون.»

«نحن فتح. من تل الزعتر.»

لم يصدقهم بسبب الصلبان. انتظر جواب الرجل (جرجي).

«تعرف علم الكتائب؟»

«الأرزة الخضراء وحولها أبيض.»

كان سؤالاً سهلاً لأن العلم يرفرف قبالته على سطح المدرسة.

«مضبوط. نحن «حراس الأرز». الكتائب مثلنا. كلّنا تقاتل للدفاع عن المجتمع المسيحي ضد الفلسطينيين والمسلمين الذين يريدون سرقة لبنان.»

«أنا أعرف فلسطينيين. بيتنا القديم حد الكرنتينا. كنت ألعب معهم فوتبول.»

«وتحبّهم؟»

رائحة الخبز تشقّ صدره. والثلاثة على المدرعة سكتوا كي يسمعوا جوابه.

«لا. يغشّون كثيراً. ويأكلون من الزبالة. ويسرقون التنك.»

*

اهتزّت الأغصان. خاف قليلاً لأن ضغط الانفجارات شديد وكذلك الأصوات. لكنهم ضحكوا. وهو انتبه، حين قلّدهم وضحك مثلهم، أن الضحك يُزيل الخوف. أحدهم نزل عن ظهر المدرّعة. كان شديد النحول

ينتعل جزمة سوداء طويلة الساق ثقب مقدمة فردتها اليمنى: من الثقب خرجت الأصابع ملفوفة بالشاش الأبيض. اقترب وجلس جنبه وبدأ يعبث بالشاش. كان النسيج رطباً مصفرّاً بسبب السائل البنّي الذي ينضح من الحرق.

«أين بيتكم الآن؟»

«في حيّ العبد.»

«لو لم تتوقف هنا كان الصاروخ قتلك على ساسين.»

أصابع مزينة بالخواتم انتزعت قطعة شاش متسخة، شبه حمراء.

«لا تهرب حين يبدأ القصف. الحمير فقط يركضون. الناس الذين يموتون في الملاجىء عددهم أكثر بكثير من الشهداء على الجبهات. تريد أن تعيش؟ اسكنْ هنا، على خط التماس!»

43
آل هاينيكن 2 – الطابق السادس

في البداية بقي البرّاد القديم موصولاً بالكهرباء، يهدر فجأة بعد منتصف الليل فتقفز الست سيسليا زوجة الحلواني غسان زيدان من السرير مذعورة. البرّاد في المطبخ، والمطبخ ليس فوق غرفة نومها تماماً، لكنها منذ رأت تلك الأشياء في الدامور لم تعد نفسها.

*

الغبار يغطي كتباً لم ينقلها البروفسور بالبيك آب الى الجامعة لأن البيت هناك أصغر. على الحائط في المدخل لوحة يابانية قش مؤطرة بالخشب الأبيض. كان الأساتذة الزملاء يتحيّرون أمام اللوحة بينما يخلعون معاطف ويعلقون قبعات، لأنها ليست رسماً تماماً بل كلمات يابانية تشبه أثراً تتركه قوائم الطيور مطبوعاً في باحة موحلة. شرح لهم وهو ينزع النظارة عن عينين

زرقاوين أنها أبيات شعرية يسمّيها اليابانيون «هايكو» وتتكوّن من ثلاثة مقاطع. ترجم لهم معناها الى الإنكليزية (بطيئاً بطيئاً/ تتسلق البزّاقة/ جبل فوجي). لم يكن يتقن اليابانية لكنه تعلّم بعض العبارات وحاول أن يطوّر لغته بإقتناء قاموس المارينز العسكري الإنكليزي- الياباني، وبالمثابرة على قراءة طبعة مزدوجة اللغة من «تعاليم بوذا» وهو مجلد أسود صغير الحجم توزّعه «جمعية الدعوة البوذية» مجاناً في اليابان ويمكن السواح العثور عليه في جوارير غرفهم في فنادق طوكيو. اللوحة المقابلة ليست هايكو بل رسم صيني بالحبر لجبل فوجي المذكور في اللوحة الأولى. من السقف تتدلى كلوبات يابانية حمراء مصنوعة من الورق المقوى. الكلوبات أيضاً تزيّنها رسوم مصغرة لمثلث جبل فوجي. ثمة عمود فضي يحمل مصباحاً. القطعة غربية الطراز، حصلت عليها زوجته في سوق تحف في ستوكهولم. اذا جاءت الكهرباء يقع ضوء المصباح على الرف العالي الذي يحمل مجموعة من أعداد مجلة نيويوركر الأميركية. معظمها من أربعينات القرن العشرين وهذا يعني أنه شحنها الى هنا حين غادر نيويورك. عدد يحوي قصة قصيرة لسالنجر. عدد خاص نادر يضم تحقيق جون هيرسي المشهور من هيروشيما (1946). وعدد يحوي صوراً فوتوغرافية من بيروت ودمشق والإسكندرية بعدسة ألبرت كارتر (1947). زاوية مطوية لصفحة صفراء تحتلها صورة بالأبيض والأسود (مع أن العدد ملوّن) لبهو أوتيل نورماندي (بيروت) المطلّ على البحر. الصفحة المقابلة مقسمة الى أربعة أجزاء لكنها ممزقة ولم يبقَ الا أقسام من ثلاث صور بينها صورة مبنى مجهول وصورة أوتيل سان جورج غير البعيد من النورماندي (بين الفندقين خليج مائي يمكن أن تقطعه سباحة في دقيقة.) الستائر البيضاء تتطاير من نوافذ النورماندي الى داخل البهو، فوق درج رخامي عريض يلتف درابزينه قليلاً وهو يرتفع. المكان فسيح شاهق أبيض النور بسبب البحر والقناطر. كولونيالي الطراز. صامت وساكن. في الأسفل ملاحظة بالإنكليزية تخبرنا أنه بُني سنة 1940 على أنقاض فندق

كونتيننتال الذي اشتهر في العشرينات والثلاثينات بسبب الجناح الملوكي على الطابق الثالث حيث اعتاد جنرالات فرنسا لعب الدومينو مع الضيوف. وراء هذه الأعداد التي امتدت اليها أيدي الزملاء وقرض العث أغلفتها وبدأ التعفن الورقي يحتلها، علبة خشب مكعبة، مخبّأة جيداً، ولعلها منسيّة. الغطاء يُسحب سحباً. تحت قطعة مخمل خضراء ينام ورق كوتشينة ثمين مزيّن برسوم إباحية هندية مبهرجة، هدية من الفيزيائي المشهور آمال كومار ريشودهوري (معادلة ريشودهوري- النظرية النسبية العامة) الذي التقاه قبل عقدين في «مؤتمر كالكوتا».

44
آل ثابت وشرارة 5 - الطابق الأول

«تدعو هيئة الأشرفية الشعبية بالتنسيق مع حزب الكتائب جميع المواطنين المقيمين في الأشرفية الى التقدم الساعة الرابعة بعد الظهر غداً الإثنين الى المركز الرئيسي للهيئة وذلك من أجل تصنيف فئة الدم العائدة الى كل منكم تمهيداً لدعوتكم الى التبرع بالدم عند الضرورة ولاعطاء الدم لمن يحتاج اليه منكم عندما تدعو الحاجة.» (نداء أُذيع بمكبرات الصوت).



أيقظها أزيز الأبواب. جسمها بلا قوّة. مقطوع عنها. لكنها تشعر بثقله. أصغت كي تعرف إسم الميت. ظنّت أنهم كالعادة يذيعون نعياً. بيك اب المكبرات توقف في «نزلة المبرومة». تسرّب نور الغروب الأحمر من شقوق الأباجور.

«ليديا تأخرت.»

كلّمت أشباحاً في رأسها. برناديت شيحا ثابت. أرملة عزيز ثابت. والدة

الشهداء الثلاثة، موسى وإيلي وطوني. على الكنبة القريبة مجلة فرنسية (باري ماتش)، وصينية عليها صحن تفاح وسكين. سمعت حركة سليمان في المطبخ. يدها لمست دولاب الكرسي.

*

أسفل المرآة المبروزة بالخشب المجدول، تصطف أربع صور فوتوغرافية في إطارات سوداء متشابهة. الكومودينة التي تحملها منجّرة بخشب الجوز الداكن الثقيل. جواريرها عريضة عميقة تتسع لثياب لا تسعها خزانة. المرآة مستطيلة شاهقة العلو تكاد أن تبلغ السقف. قديمة وتشوّهها خدوش في النصف التحتاني. وهو صغير ولا يقف جيداً بعد، ابتكر طوني طريقة لفتح الجوارير بحيث تصير درجاً يتسلقه الى سطح الكومودينة. كان يحبّ المرآة. أكثر من مرة أصاب أمّه فزع لأنه يغافلها ويفعل ذلك بلمح البصر. لا موسى ولا إيلي عذباها الى هذا الحد في طفولتهما. أثقلت الجوارير كي يعجز عن فتحها. صار يسحب الجارور السفلي ويفرغه من الأغراض وينام فيه.

*

حواف المرآة متحف صور قديمة وجديدة، قسم منها ملوّن. ليديا شعرت بالحاجة أكثر من مرة الى انتزاع الصور من مكانها وإخفائها وراء صناديق الأحذية في قعر الخزانة أو في علبة تنك على التتخيتة. لم تفعل ذلك، لا بسبب أمّها فقط ولكن لأن جزءاً منها لا يقبل هذا المحو الكامل لأبيها وأخوتها من الوجود. على سطح الكومودينة علبة مغلقة جميلة الخشب أمحت كلماتها الأجنبية (كونياك). العلبة مملوءة حجارة شطرنج لكن الغبار يغطيها مثل غلاف سميك.

*

في الأعلى صورة لموسى تقوّست ولوّنها الوقت بالأصفر. مع أنها ليست قديمة جداً. غير مؤرخة لكن العائلة تعرف تاريخها (السنة الدراسية

1969 - 1970) بسبب «الجبيرة» الجفصين البيضاء: موسى يمدّ القدم المجبّرة أمام جسمه، واقفاً عند مدخل «منشرة صليبا» في شارع الأرجنتين وراء بناية الريفولي. ألواح الخشب تنبت خلفه من طبقة النشارة المتكومة. المكان يغرق في ظل بارد، لكنه يبتسم سعيداً، ونرى بقعة من النور على حافة الرصيف أمام الواجهة الزجاج ل» نوفوتيه حليم». على الزجاج ينعكس «فلاش» الكاميرا ووجوه غائمة الملامح إضافة الى شاحنة تقطع الطريق. موسى يستند الى شخص خارج «الكادر» لا يبين منه الا كتفه: هذا إيلي وكان يدرس لإمتحانات البكالوريا حين تعرّضا معاً لحادث على الموتوسيكل. لم يتأذَ إيلي (خدوش في يديه). لكن ثقل الدراجة كسر ساق موسى عند الكاحل وفوقه وتحته (ثلاثة كسور شُفي منها وخلّفت عنده- بسبب توصية الطبيب بخصوص مادة الكالسيوم- إدماناً على السردين ومشتقات الحليب). من التقط الصورة؟ الأصغر طوني. لعله تقصّد أن يخفي أخاه إيلي.

*

اشترى عزيز ثابت رقعة الشطرنج (المختفية) وأحجارها (الباقية) عقب حوادث 1958 التي سمّاها كمال جنبلاط «الثورة البيضاء» في مقالاته المنشورة في تلك الفترة. «الثورة» المذكورة منعت رئيس الجمهورية كميل شمعون من التجديد لنفسه فترة رئاسية ثانية، وأوصلت قائد الجيش اللواء فؤاد شهاب الى سدّة الحكم. لم يكن عزيز ثابت الجندي الوحيد الذي اشترى لأولاده الشطرنج آنذاك متأثراً بأسطورة (لا تمت الى الحقيقة بصلة) شاعت في الثكنات مفادها أن اللواء شهاب بارع في هذه اللعبة. ليديا وموسى استخدماها للعب الداما، والأب قبِل هذا لأنه هو أيضاً لم يكن يعرف قوانين الشطرنج. لاحقاً تعلمت ليديا القَواعد بمساعدة من أمّها فامتلأ الصف الخلفي للرقعة بالملك والملكة يحرسهما حصانان وفيلان وقلعتان. اعتاد موسى أن يتمرد على أخته دافعاً بيادقه خانتين الى أمام حتى بعد أن حرّك البيدق حركة أولى. إيلي أضاف قاعدة تسمح للبيدق أن «يأكل»

أحجار العدو بالقفز فوقها في خط مستقيم كما في الداما. طوني أصبح (حين أتى دوره) تلميذها المفضّل لأنه لا يبدّل القواعد ويحبّ أن يتعلم الخطط (الافتتاحيات) التي تأخذها ليديا من كتاب صغير بالفرنسية يحمل غلافه صورة بطل العالم الأميركي - الأيسلندي بوبي فيشر. علّمت أخاها الأصغر (وهو يمصّ أصبعه) كيف يقرأ النقلات في الكتاب ويطبّقها بنفسه: رسمت حروفاً وأرقاماً منمنمة عند حواف الرقعة كي يسهل عليه الأمر. موسى غضب لأنها توسّخ الرقعة بالحبر. إيلي لم يهتم لأنه بدأ في ذلك الوقت المبكر يقع في غرام إبنة الجيران. نسي الداما والشطرنج والمونوبولي. سبق موسى إلى البلوغ لكن نصره دام شهرين على الأكثر. لعل «المرض» انتقل بالعدوى الى الأخ الأكبر: انتبه الى إيلي يرصد من بين ستائر الصالون ظهور نادين زخور على شرفتها: كانت تدهن جسمها بزيت جونسون وتتشمس منبطحة على الأرجوحة، بشورت أحمر قصير وفانلة أقصر.

45
آل حبيب 4 – الطابق الرابع

دفعت حلا حبيب الكتاب تحت المخدة وذهبت الى المطبخ ووضعت إبريق الشاي على النار. من النافذة رأت سرب حمام يحلق في قوس واسع فوق المحطة والسوق، أبعد من قوسه المألوف، ربما أجفلته الضجة المنبعثة من الورشة الجديدة. كانت جبّالة الباطون متوقفة جنب الطريق تسدّ قسماً منها، وازدحم السير. بدا العالم لها غريباً غير مفهوم لأنها منذ الصباح غارقة في روايتها.

*

تأخر رضا حيدر كثيراً قبل أن يأخذها الى الشقة. كان خائفاً لا من رفاقه

الذين زعم أنهم يفضلون البقاء في بيروت أثناء العطلة، بل من المالكة السليطة اللسان الجاحظة العينين التي لا يمكن أن تقبل دخول أنثى الى المسكن. بابها قبالة بابهم وتستبد بهم تماماً من هذه الناحية. لم يفصح عن سرّه لأنه يعرف حلا (صار يعرفها) ويعرف أنها ستدبّر طريقة للدخول والأفضل له أن يتحجّج بوجود رفاقه. كان يحبّها ويريد أن يكون معها، مثلها تماماً، لكن شجاعتها لم تمدّه إلا بالخوف. فضّل أن يؤخر الساعة الحاسمة مع أنه أوشك أن يبكي من شدّة الرغبة وهو يعصرها في الصف الخلفي في ظلام سينما أمبير. كانت حارة لينة بين يديه تحرق رقبته بأنفاسها. خاف أن يسمع الباقون لهاثها. مرة واحدة اختارا مثل الأغبياء سينما بيغال في ساحة الدباس وكاد الأمر أن ينتهي بكارثة. الصالة صغيرة: امتلأت سريعاً بالهنود والباكستانيين الذين ينظرون اليك شذراً اذا كانت صاحبتك تلبس تنورة قصيرة. نهضا قبل نهاية الفيلم الذي لا ينتهي («جنون حبيبي» لسانجيف كومار). مدّ بنغلادشي ساقه قصداً، وأوقع رضا في الظلام. تمسّك بالأيدي والركب التي تدفعه بعيداً. احتقن وجهه بالدم بينما الصرخات تطالبه بالابتعاد من درب الشاشة، كأن شيئاً يمكن أن يحدث في هذا الفيلم! حين خرجا الى الشارع أرادت أن تضحك. لكنه ظلّ غاضباً. لم تفهم لماذا يزعل منها. لم تبكِ، حتى رأته يسير مبتعداً. أسرعت على رصيف يتلوّن بانعكاسات النيون وعانقته من الخلف. تضاعف غضبه بلا سبب وأمرَها أن تتركه وحده. لم تتركه. استدار حانقاً وقال «ليس هنا!». كانت السيارات بليدة والأبواق حادة، لكنها تمسكت به في نهر الكهرباء. لم يرَ دموعها، لأنها مثل أبيها تعرف كيف تبكي بلا دموع. عبرا أمام دكاكين مضاءة وأخرى تقفل أبوابها. جاوزا صف التاكسيات المشرعة الأبواب في شارع الأم جيلاس. من داخل اللعازارية خرج أصحاب البسطات يحملون حزماً. شوفيرية التاكسي تحلقوا مع شرطة بقبعات عليها الأرزة المعدن، يدخنون كالمشاحر ويلعبون طاولة زهر. تركها تمشي وحدها بين الأراجيل المقرقرة والعيون التي لا تشبع. من شرفة واطئة تدلّت شراشف

تنقط ماء. وقفا في ظلمة زقاق يتعرج مخترقاً حيّ الغلغول ويفضي الى ساحة رياض الصلح. كانت أرضه محفّرة لتركيب أعمدة، ولا سير فيه. من البيوت تسرب صوت تلفزيونات. وقرقعة صحون في مجلى.

«لماذا لا تحكي؟»

أعطاها كتفه ثم ظهره وصار ينظر الى أعلى كأنه يعد النجمات غير المرئية فوق التياترو الكبير المشعشع بالأضواء.

«أنت لا تحبّني.»

استدار ورأى وجهاً غامضاً غارقاً في الظلّ وقادراً على الاختفاء.

«انظري الى يدي!»

بدا ولداً وهو يمدّ يداً جرحها حين وقع في السينما. مع أنه سنة أولى هندسة. وأطول من أخيها كارلوس.

«أنت تحبّني؟»

«كيف لا أحبّك؟ ألا تعرفين؟»

«قلْ! قلْ لي!»

كان عليه أن يقول لها ذلك في أذنها البيضاء الجميلة مراراً وتكراراً في عتمة سينمات الوسط التجاري، الكبيرة والصغيرة، بينما غيرهم يشاهد الأفلام، أجنبية أو عربية، وبينما ذاكرته تسجّل - في لحظات الهدنة بين اشتباكين للجسمين الساخنين- تفاصيل مهمة كالمساحة وعدد المقاعد وإسلوب توزيعها وسماكة الأعمدة والمواقع المحجوبة ونوعية الناس في المكان وجو الصالة. قارن بين التفاصيل كي يختار السينما الأنسب لهما... للّقاء الآتي. كانت تدفع ثمن التذكرتين ويقبل على مضض، للضرورة. لكنه في ليلة عيدها (الليلة التي سبقت عيدها) أخذها على حسابه الى سينما ستاركو وأمسك بيدها في الظلام مسكة قوية معناها هذه ليلة خاصة وعلينا التصرف بهذه الطريقة. بعد الفيلم تناولا العشاء في مطعم مجاور اختاره سلفاً، لا لأن

نوافذه مطلّة على البحر، ولكن لأنها أرادت أكثر من مرة الجلوس فيه وهو يعارض: الطبق الواحد هنا يكلّفه مصروفه الشهري! ضايقها أنه «محافظ وتقليدي» ولا يرضى أن تدفع في المطعم. لم تكن تتوقف عن إصرارها إلا حين يحمرّ وجهه. أحبّت هذا فيه. أحبّته كلّه. احتفظت بتذاكر (باتت نادرة لاحقاً لأن المعارك أحرقت صالات الوسط) من سينما ريفولي وسينما دنيا وسينما ميامي وسينما روكسي. كانا مستعدين لمشاهدة أي شيء في راديو سيتي أو سينما ديانا أو غومون بالاس لأن الفيلم، في النهاية، غير مهم. لم يشاهدا الأخوين سعادة (الجائزة الكبرى) لكنهما شاهدا فريد الأطرش (نغم في حياتي) وميرفت أمين (الأنثى والذئاب) وحتى جورجينا رزق (الملكة وأنا). فضّلا الأفلام الأميركية عموماً لأن جمهورها أنسب لهما. أخذها أخيراً الى الشقة. كان متوتراً. لكنه حاول أن يتصرف بشجاعة. كانت المرة الأولى، له هو أيضاً. نزعتْ ثيابها. قبل أن يضمّهما الفراش استولت رجفة على جسمه. عانقته عارية تماماً، أجمل من أي خيال، حارة ومشدودة كوتر.

46
آل زخور 5 – الطابق الأول

في الهوليداي إن توثقت العلاقة بينهما تدريجياً. مع أنها لا تحبّ الرجال عموماً وتفضّل النساء. شرحت له كاترين (يناديها الآخرون أولغا، ولا يفعل مثلهم إلا على اللاسلكي) أنها تختار الرجال في حالة واحدة فقط: اذا مرّوا في «ناظورها». اكتشف أنها لا تمزح وتتمسك بمبدأ يتيم في القنص: لا تقتل إلا الرجال. أكثر من مرة رآها تتردد وتبع خط بندقيتها ورصد وجود إمرأة أو أولاد في سيارة تعبر خطفاً. كأن السرعة تفيد! سألها لماذا توفر أحداً ما دامت تقتل أي رجل مدنياً كان أو عسكرياً. قالت لا أحبّهم. سألها عن العجائز. قالت الرجل رجل حتى لو كبر في السنّ. سألها لماذا تكره الرجال؟

«لا أكرههم، أنا فقط لا أحبّهم.» سألها عن أهلها، أين هم؟ «هنا، حد ساحة الشهداء، في شارع الجميزة. بيتنا قبالة صالون ساسي. ماريا أمي كوافيرة فيه. أبي اشتغل 11 سنة في معمل مرطبات جلول يثبت السدادات على القناني، ثم تقاعد بسبب الماء الزرقاء. لا يرى الآن فرشاة أسنانه!» سألها هل تكرهه؟ ضحكت وقالت أنت مجنون، لماذا أكرهه، أبي مسكين.

*

سهرا على السطح حتى الفجر يدخنان ويتكلمان. أخبرها أن أمه كانت مرّات تقصّ شعرها في صالون أمّها. ابتسمت: «ليس صالون ماريا. صالون الست إيفون ساسي. ماريا كوافيرة درجة ثانية أو ثالثة. تغسل الشعر وتطلي الأظافر.» لم يكن يهتم بهذه الأمور. لا تعني له شيئاً: لا يعرف مثلاً أن الست ساسي خريجة معهد فوج الفرنسي لتصفيف الشعر، دفعة 1949، وأنها تحمل دبلوماً مع درجة امتياز من معهد الشانزليزيه وشهاداتها معلقة فوق مرايا الصالون جنباً الى جنب صورها مع المشاهير. ازدهر الصالون في الخمسينات بعد دعاية في جريدة «لسان الحال»: «الست زلفا تقصّ في صالون ساسي». نُشر الإعلان يوماً واحداً فقط ثم سُحب بطلب مباشر من المكتب الرئاسي. الست زلفا عقيلة رئيس الجمهورية لم تجد الاعتراض ضرورياً، ولعلها أحبّت الإعلان، لكن الحاشية وجدته غير لائق.



«ماريا برازيلية لكن أصولها لبنانية. أبي جلبها من هناك. سمراء جداً وشكلها برازيلي تماماً.» أضاء انفجار قوي أشباح الهيلتون والنورماندي والرويال. أنارت ألسنة النار حطاماً يسدّ طريق البحر. ألقت كاترين نظرة وهي تمدّ رقبتها فوق متاريس المطعم الدوّار أعلى الهوليداي إن. ثم تراجعت (مملوءة بصورة البحر الساكن الأسود عند حافة الحرائق) واستقرت جنبه. رأت أنه بدأ ينام. «أضجرتك وأنا أحكي!» قال بالعكس، أخبريني بعد، أنا

أنعس بسبب الدواء. سكتت قليلاً. مسحت بيدها على البندقية. ثم تابعت الحكي. اكتشف أن والدها اشتغل في مصر زمناً عند أقارب لبنانيين متمصرين يملكون فبركة حلّ قطن في الإسكندرية. حين صدرت قوانين التأميم بعد ثورة 1952 هربوا بمدخراتهم الى البرازيل وأبوها هرب معهم. هناك التقى ماريا صرّاف، شابة شبه خلاسية من عائلة بيروتية الأصل تعمل بتجارة الجلود في ساو باولو. لكن والد كاترين نمر لم يتأقلم مع طقس البرازيل. لم يفهم كيف تتحرك الفصول كأن الشتاء والصيف موجودان في اليوم نفسه: كل يوم تزهر الأشجار الاستوائية الضخمة كأنه فصل الربيع ثم تتكهرب السماء بلا انذار وتهب الريح وتتساقط الأمطار ويصير الجو كأنك في عزّ الشتاء لكن بلا البرد! ماريا تزوجته وتوقفت عن كنس الأزهار من الباحة وجاءت معه الى لبنان. سألها لماذا تناديها ماريا ولا تقول أمي؟ ضحكت وقالت أنا أقول لها أمي دائماً لكنني لا أحكي معها الآن بل معك، وماريا إسم حلو، لا؟ هزّ القداحة الزيبو شبه الفارغة وأشعل سيكارة لها وأخرى له. غنى الدوشكا وفرقع زجاج في الأسفل. سألته أين أهله؟ «في باريس.» أخبرته أن أختها في بلجيكا مع زوجها. وتتلفن لها أحياناً. «تكرهين زوجها؟» سبح في خدر لذيذ. خرجت كلماته مترنحة بطيئة كأنها تجاهد عبر مادة كثيفة كي تبلغ سمعها. ابتسمت وقالت أنت مخلوق غريب. «أنا؟» سألته وهي تسند رأسها الى كتفه لماذا لم يذهب الى فرنسا؟ «هنا أجمل.» سألته هل يكره أهله؟ ضحك وهو يحاول أن يفتح عينيه كي يرى أين وقعت القذيفة التي هزّت السطح. «لا أكرههم. أنا فقط لا أحبّهم. هم حتى لا يعرفون أنني موجود.»



لم يكن ريمون زخور على حق. تعذبت أمه في باريس وهي تتابع أخبار حرب الفنادق ولا توفر وسيلة (الهاتف، الجرايد التي تصل متأخرة، المقهى في سان ميشال حيث تجتمع الجالية اللبنانية لتبادل آخر الأنباء بينما يشربون قهوة بالحليب ويأكلون كرواسون)، كي تعرف أين هو بالضبط الآن، في الهوليداي إن المحاصر أم في الشرقية، وماذا يمكن أن يحدث، ومن يقدر

أن يجبر كل هؤلاء المجانين على وقف القصف؟ زوجها لم ينتبه الى عذابها لأنه لا يراها كثيراً فهي تعمل موقتاً في قسم المعارض في «مركز غولبنكيان للفنون» وهو عاد الى هوايته المحببة (البورصة) كي يشغل فكره عن الكارثة في لبنان. كانت معروفة بين لبنانيات باريس وعند ظهورها في «كافيه مايو» تسألها الصديقات على الفور هل اتصل ريمون، هل هو بخير؟ للمرة الأولى في حياتها شعرت أنها فخورة به. وهذا الشعور الغريب (اضافة الى كلام صديقاتها) زاد قلقها عليه.

*

حاول عيسى زخور أن يخفّف خسائر الشفروليه قدر الممكن. لم يراهن على أي تعويضات من شركة التأمين لأن الشركة أفلست وهي تعوّض على غيره قبل أن يتحول معرضه الجميل محوراً. دبّر من مكتبه في باريس عملية نقل صعبة ومعقدة للقسم الأكبر من السيارات الجديدة (موديلات ال75 كانت تزحم الكاراج: كمارو- فيفا- نوفا- كابريس- مونت كارلو- امبالا- شيفيل- مونزا- كورفيت) من مركز بيروت الرئيسي الى فرع المعماري (تلفون 367380) على أوتوستراد أنطلياس حيث القصف أقل. دفع بحوالات رشاوى ضرورية لأكثر من طرف، كي تنجو قافلة شاحناته المحمّلة من حرائق (وحواجز) الطريق الطويلة الى شمال بيروت. أشعره هذا النجاح بالاعتزاز والحماسة الى أن انهمرت القذائف على أنطلياس. أحزنه كثيراً احتراق تحفة نادرة (شيفروليه بنفسجية كلاسيك موديل 1959 سُحبت من الأسواق ولم يُصنّع مثل طرازها بعد ذلك، لا لعلة في الهيكل أو الميكانيك بل بسبب دعوى قضائية رفعتها شركة منافسة أمام محكمة شيكاغو). حين أُخبر عيسى زخور أن إبنه ريمون في مستشفى أوتيل ديو وأنه مصاب في الرأس، أوشك أن يبكي. لم يفهم كيف يحدث هذا له لأنه اعتبر نفسه محظوظاً دائماً. تلفن لصديق قديم انتقل بسبب أوضاع لبنان الى مدريد وتكلم معه نصف ساعة. الإثنان تعرضا لخسائر متشابهة في بورصة بيروت. كانا يملكان

أسهماً في الكازينو والترابة البيضاء والمالية العامة والاترنيت وقاديشا. في الشهر الذي سبق اندلاع الحوادث اشتريا أسهماً في فندق هيلتون لأن أسهمه تحركت صعوداً عقب تحديد موعد افتتاحه في 15 أيار (مايو) 1975. عيسى زخور تسربت اليه المعلومة مسبقاً عبر أقارب زوجته. اشترى الأسهم قبل أن يتعدى سعر السهم الواحد عتبة الخمسين ليرة. كان يمني نفسه بأرباح سريعة مع ارتفاع الفوائد حين قوّصوا على بوسطة عين الرمانة في 13 نيسان وتساقطت الأسهم كلّها دفعة واحدة. في البدء ظلّت خسائره محمولة. رغم انتشار المحاور وبدء الفرز السكاني. ظنّ أن الوضع سيتحسن بتدخل الدول الكبرى والوساطات العربية. لكن ها هو في باريس! الفرنك الفرنسي كان 52 قرشاً لبنانياً والآن جاوز الستين. أمواله حوّل بعضها قبل الخروج الى دولار أميركي (224 قرشاً) وفلوران هولندي (92 قرشاً) وكرون دنماركي (40 قرشاً) وشلن نمسوي (14 قرشاً) وحتى بيزو أرجنتيني جديد (8 قروش). لكنه يخسر في أسهم البنّ ويخسر في الذهب (كان الكيلو ب5935 دولاراً وما ان اشترى حتى انخفض). زوجته أموالها بالفرنك السويسري وهو أخبرها (قبل أن يخسر في البنّ والذهب) أن هذه الحرب أيضاً قد تكون لمصلحتهما. لأنه عموماً محظوظ. أين ذهبت نجمة حظه؟



اكتشف أنه محظوظ وهو شاب في جامعة القديس يوسف. وجد دراسة الحقوق صعبة (مستحيلة) وانتقل الى إدراة الأعمال. أهله حاربوه بسبب ذلك. أبوه كاهن وأراد الصبي محامياً أو قاضياً. لكن عيسى زخور غيّر اختصاصه. كان أفضل قرار اتخذه في حياته: لم يفلح كثيراً في قسم إدارة الأعمال، لكنه التقى في صف «مبادىء الإقتصاد» فيرا سرسق.



رأى ساحرة تشبه الممثلات (مزيج بيروتي غامض من بريجيت باردو

وفاتن حمامة) وتتكلم مثلهن. بشرة حنطية. عينان عسليتان. شعر بنيّ يضرب الى شقرة، تصفيفة «كاريه» الى فوق الكتف. قدّ صغير وقامة متوسطة. كانت في تنورة صفراء فاتحة اللون قصيرة. كنزة بيضاء ناعمة مفتوحة الأزرار تكشف جسماً ملفوفاً في قميص من الحرير الأصفر. كولون قطن شفّاف، موضة الحقبة الذهبية، وسكربينة عالية الكعب، برّاقة، تدق درج الجامعة مثل ملكة في بلاطها. لم يتخيّل أنها ستمنحه فرصة. حتى ذلك اليوم وجد نفسه عادياً. كانت تؤمن بالفلك وأخبرته بعد أن تصاحبا أنها قرأت برجها في ذلك الأسبوع وعلمت أن شخصاً مهماً سيظهر فجأة (اليوم) في حياتها! شرحت له أن الأبراج مثل نشرات الطقس تخطىء أحياناً بيوم أو يومين لكنها تصيب في النهاية. ظنّ أنها تداعبه. كان السائق الخصوصي يوصلها بالبويك الداكنة الزجاج الى باب الجامعة ويفتح الباب الخلفي لها بعد الشمسية لئلا تتبلل. كانت من صنف أرستقراطي نادر لا يفهم سبب وجود الترامواي ولا يستوعب كيف تتحمل الكائنات التدافع في عربة مزدحمة مهتزة. استغرب أنها تريده في سريرها.

*

أهلها استقبلوه في القصر الأبيض الفخم في حيّ السراسقة. تكلم أبوها همساً. جاهد عيسى كي يسمعه. أمّها أيضاً همست. خاف أن يكون أصيب بالطرش من دون أن يعلم. سحبته فيرا من يده وهي تضحك. قادته الى غرفة عالية بشرفة تطلّ على البحر. رأى سوطاً عاجي القبضة على منضدة. سألها ما هذا. أخبرته عن «فلوبير»، حصانها. شعر بالعجز. لكنها لم تنتبه.

*

وحده السائق الخصوصي لم يكلّمه همساً. كان فرنسياً من منطقة الألزاس لا يتقن كلمة عربية. وفي طباعه تحفظ جبلي ريفي (مسافة من ناس المدن) يعرفه عيسى زخور حدساً. اعتاد أن يكلّم السائق وهو يقلّهما الى السينما أو

الى الكيت كات أو الى بار النورماندي. فيرا وجدت هذا غريباً مستهجناً ثم طريفاً لطيفاً بتطور الأحاديث. لم تتخيل أن السائق عاش حياة شيقة في شبابه. وحارب الحرس البروسي على الجبهة الغربية. ولم تقتله معركة إيبريه التي درست عنها في كتاب التاريخ أيام المدرسة. أدهشها عيسى وهو يستخرج منه هذه الذكريات. السائق استأذن ورصف البويك جنب الطريق ثم استدار قليلاً في مقعده ونظر الى السيد والآنسة. فكّ زرّاً ورفع كمّ الجاكيتة ثم طوى طرف القميص الأبيض: شاهدا معصمه منقوراً متجعد الجلد شبه أسود.

❊

حتى المربية الفرنسية كلّمته همساً في البداية. رمقت عيسى بعين خبيثة كاشفة: شعر (بلا سبب حقيقي) بالحقارة. لكن فيرا مسحت كل شيء برؤوس أناملها. اصطحبته الى «نادي الرميل للقراءة» وعرّفته الى صاحباتها. كانت أصغرهنّ سنّاً. شرب شاياً انكليزياً. أكل حلوى تسمّى «تيراميسو». فتاة حمراء الشعر اسمها مونيك بسترس أخجلته من شدّة تحديقها به. أصغى إليهن يتكلمن عن إمرأة متزوجة تدعى أنّا كارينينا وعن عشيقها الذي يدعى فرونسكي. اكتشف أن فيرا تحبّ فرونسكي لسبب واحد فقط هو الأحصنة. لكنّها لا تحب أنّا كثيراً ولم تفهم لماذا انتحرت تحت عجلات القطار وتفضّل عليها فتاة مولعة بالرقص عجز عن تذكر اسمها لكنه أدرك أنها ستتزوج، في نهاية المجلد الأخير، بطل الرواية. قلّب المجلد الأول (طبعة فرنسية) بين يديه وسأل نفسه كيف يقدر أحد أن يقرأ كل هذه الصفحات الكثيرة! تزوجا بعد شهر من حفل التخرج. أخوتها جاؤوا من الخارج لحضور العرس. كانوا على عكسها ناصعي البياض زرق العيون. وقفوا من أجل الصورة على درج كنيسة مار متر في الأشرفية، وأخبروه أشياء عن باريس وبطرسبورغ وموسكو، كأنهم خرجوا للتو من مجلدات لم يقرأها!

❊

فيرا سرسق زخور لم تتخل عن «فلوبير» بعد زواجها. بعد سنوات، حين انتخبت نائبة لرئيس اتحاد الفروسية اللبناني، أخذت ولديها التوأمين الى المدينة الرياضية لحضور السباقات. تضمّن البرنامج الذي شاركت في تنظيمه مسابقات لمختلف الفئات: مطاردة، ترويض، حواجز بتوقيت، حواجز من دون توقيت، مسابقة بطولة لبنان الرسمية، مباراة للصغار حتى 14 سنة، مباراة للمبتدئين، ومباراة تمايز. أحبّت نادين كل شيء لكن ريمون طلب الرجوع الى البيت لأنه جائع. أرسلت فيرا شخصاً اشترى للولدين مرطبات وعلب بسكويت. كانت مشغولة جداً في الاستقبالات تتحرك على منصة الشرف بين زوجات الوزراء والنواب كأنها ترقص على الجليد. مع هذا كرّست وقتاً للولدين. سألها ريمون لماذا يضربون الأحصنة وكيف تسمح لهم. كانت عضوة في الهيئة الإدارية للجمعية اللبنانية للرفق بالحيوان التي تجتمع كل ثلاثاء (الساعة السادسة مساء) في قاعة معهد غوته. شرحت له وهي تمسح الشوكولا عن خدّه أن هذه الضربات الخفيفة لا تؤذي الفرس.

*

على سطح الهوليداي إن مال على كاترين نمر فجأة وقبّلها. أبعدته منزعجة من رائحة الويسكي الحادة. لم يخبرها أن كبده ضعيف ولا يتحمل الكحول لأنه لم يعرف أنها تصدّه بسبب الرائحة. ابتلع حبّة أخرى. تدحرجت العلبة من يده. «اتركيها!» أمسك بيدها وهي تنهض وأخبرها أنه أحياناً يفكر أن يقفز من هنا. «تريد أن تموت؟» هزّ رأسه وهو يرى شعلات تنبثق من الظلام ثم تسبح مبتعدة:» لا، ليس هذا!» بدا جميلاً كفتاة في ضوء الفجر الأخضر. انحنت على فمّه، وانتظرت حتى قبّلها من جديد. هذه المرة لم تعترض.

*

نظّمت فيرا سرسق زخور حياتها في باريس بتقسيمها الى مقاطع. حاولت أن تسترجع تركيزها باستعادة النظام اليومي. لم يكن الروتين عندها دواماً

وظيفياً بل قدرة مستمرة على الابتكار وعقد صلات الوصل بين مشاريع مختلفة. كانت وسيطاً بارعاً، إلا في بيتها. واظبت على السباحة ساعة يومياً في نادي سان جرمان. عقدت صداقات جديدة وأعادت اكتشاف صداقات قديمة. اقترحت معرضاً للمجوهرات الروسية في مركز غولبنكيان وحصلت على موافقة. التقت مفوض الفنون الكوميسير جان جاك بيتيت في المصعد وسألها باسماً عن أشياء بلا قيمة، وهي تعرف وهو يعرف. أبدت له الودّ لكنها خرجت من اللقاء الخاطف بشعور مزعج. حدّدت مواعيد واتفقت هاتفياً (بين اجتماعي عمل) على تناول العشاء مع نادين التي فصلت نفسها عن البيت. لم تفهم لماذا تبتعد بهذا الإسلوب. كانت تقضي نهاراتها في مكتبة كوجاس حيث تتوافر المراجع القانونية اللازمة لإنجاز أطروحتها، لكنها نادراً ما تعود الى غرفتها ليلاً. حاول عيسى أن يلعب دور الأب التقليدي معها مرة أو إثنتين لكنها صدّته بشراسة. تراجع لئلا يخسر علاقته بها، كونه حدس دائماً بقدرة إبنته على رميه خارج حياتها إذا شاءت. لم تيأس فيرا. تجنبت التصادم مع نادين بانتظار وقت مناسب للتدخل. أملت رسالة بالفرنسية على مساعدتها وطلبت منها نسخة مترجمة الى الروسية. شعرت وهي تنظر الى الشارع بالتعب. كان الزجاج رطباً لأنها أمطرت قبل قليل. تغيّرت إشارة السير إلى أخضر. أخرجت دفتر التلفونات الصغير من حقيبتها وبحثت عن رقم ليديا ثابت.



جرايد الخميس 22-1-1976 وصلت الى باريس متأخرة أربعة أيام: «لم يتمكن السفير الأردني في بيروت من اللحاق بالملك حسين في دمشق بعد تدهور الوضع الأمني في سهل البقاع وانقطاع الطرق. ولم يتمكن من استعمال الهليكوبتر بسبب الضباب الكثيف في ظهر البيدر... وطوال أمس الأربعاء جرت في وسط بيروت معارك عنيفة استخدمت فيها مختلف الأسلحة الثقيلة والخفيفة، وقد اشتد القتال مع حلول المساء بين هوليداي

إن وبرج المر وستاركو وفينيسيا وهيلتون. وذكر تقرير لقوى الأمن انه في التاسعة والنصف صباح أمس استولى الكتائبيون أمام فندق هيلتون على ملالة لقوى الأمن كانت متوجهة من ساحة النجمة (البرلمان) الى نادي الضباط وتوجهوا بها الى فندق رزيدانس في محلة ستاركو حيث استولوا على ملالة أخرى. وقد استخدموا الملالتين ضد «القوات المشتركة» في منطقة ستاركو. والى التاسعة ليلاً لم يعرف شيء دقيق عن وضع المتقاتلين في جبهة الفنادق. وقد ذكر مصدر كتائبي ان «القوات المشتركة» حاولت التسلل ليلاً الى محور فندق هيلتون من وادي أبو جميل وقد طوق الكتائبيون المتسللين في شكل كماشة وأوقعوا في صفوفهم 18 قتيلاً وأسروا خمسة وصادروا 22 رشاشاً خفيفاً ومدفع هاون عيار 20 ملم.» لكن مصدراً في «القوات المشتركة» نفى هذا الأمر وقال ان «قواتنا تطوق الآن مركز الكتائب في شارع جورج بيكو ونتوقع سقوطه الليلة (أمس)». وحميت الاشتباكات طوال أمس في المحاور الممتدة من ساحتي الشهداء والدباس وشارع بشارة الخوري الى طريق الشام حتى المقر العام للأمن العام. وشهدت هذه المحاور تراشقاً غزيراً متبدلاً بقذائف الهاون والقذائف الصاروخية والرشاشات الثقيلة. وسقط 6 قتلى و12 جريحاً وعثر على سبع جثث لقتلى مجهولي الهوية موزعة كالآتي: واحدة قرب فندق ريجنت في ساحة الشهداء وخمس وراء تمثال بشارة الخوري وواحدة أمام محل «فلافل صهيون» على طريق الشام. ونقل من طريق الشام كذلك كالوس سيروب جمبليان إثر إصابته بشظية في خاصرته لكنه ما لبث أن فارق الحياة. وسقطت سبع قذائف هاون قرب السراي وواحدة داخلها ألحقت بها أضراراً مادية جسيمة. كما سقطت 11 قذيفة في ساحتي النجمة ورياض الصلح وشارع المصارف. وعلى جسر نهر بيروت الجديد قتل 3 مسلحين بعدما اشتبكوا بالرشاشات مع مسلحين آخرين تمركزوا قرب المطاحن... اضافة الى حرب الجبهات والمحاور تبادلت المنطقتان الشرقية والغربية التراشق المتقطع بالهواوين والقذائف التي لم يغب دوي انفجاراتها

الا أوقات قصيرة. وأمس كذلك نشطت عمليات الخطف في شوارع عدة من العاصمة كانت بعيدة من مرمى الرصاص والتراشق. وسطا مجهولون على محل «أدامس» للألبسة الرجالية الذي يملكه حوري وتنير في محلة باب إدريس وسطا آخرون على مخزن لهما في بناية البنك البريطاني وقدرت قيمة المسروقات بنحو 550 ألف ليرة.»

*

«تأخرت أمس الأربعاء رحلة الميدل ايست الرقم 211 المقرر إقلاعها في الساعة الأولى والدقيقة الخامسة بعد الظهر من باريس الى بيروت وهي من نوع بوينغ 720 وعلى متنها 60 راكباً، بعد مخابرة الى مكاتب الشركة في المطار أفادت أن قنبلة موقوتة ستنفجر بعد إقلاع الطائرة. وقد أنزلت القوى الأمنية الركاب من الطائرة وأخرجت أمتعتهم وأخضعتها لتفتيش دقيق ولم تعثر على قنبلة.»

*

جريدة الخميس 25-3-1976: «شبّ أمس حريق جديد في المرفأ وتعذر تأمين رجال إطفاء لإخماده بعد سقوط ضحيتين بين الذين حاولوا إخماد الحريق يوم الثلاثاء وهما الرقيب شكري اسبيريدون والإطفائي سيمون أبو مراد. وقد غطت سماء بيروت سحابة سوداء من الدخان شوهدت من الجبال المشرفة على العاصمة. والحريق أمس استهدف العنبر المكشوف الرقم 7 وسقطت فيه قذيفتان أشعلتا محتوياته من دواليب كاوتشوك وخشب وأجهزة ميكانيكية وغيرها. وقال السيد فيليب طويلة مدير شركة إدارة واستثمار مرفأ بيروت ان «الوضع في المرفأ لا يمكن ان يبقى فالتاً كما هو الآن». وأضاف:» منذ سقوط أول قذيفة يوم الإثنين ونحن نتصل بمختلف الهيئات والأحزاب لوقف القذائف على المرفأ بلا فائدة. وأنا أود أن أسأل هل المرفأ يميني ام يساري حتى يلقى كل هذا الغضب من المتقاتلين؟ وأشار

الى ان القذائف ليست وحدها المسؤولة عن ضرب المرفأ وانما السرقات المنظمة أيضاً التي زادت خلال اليومين الاخيرين والتي قام بها مسلحون بالعشرات واستعملوا الشاحنات وسيارات البيك آب. وأوضح ان الحرائق لا تزال بعيدة عن أهراءات القمح... ودعا جميع خفراء الشركة وعناصر الوقاية والإطفاء الى الحضور فوراً الى مراكز عملهم تحت طائلة المسؤولية وعند التعذر طلَبَ الإتصال به على الرقم 326649. وأعلن وزير الاقتصاد والتجارة الرئيس عادل عسيران ان الحريق الجديد في المرفأ يهدد اهراءات القمح والطحين وعنابر المواد الغذائية والتموينية والبضائع المستوردة. ويخشى من كارثة على الصعيد التمويني اذا التهمت النيران هذه العنابر. وقال انه اتصل بالسيد محمود الأيوبي رئيس الحكومة السورية وناشده ايفاد فرق إطفاء سورية على جناح السرعة للمساهمة في اخماد حريق المرفأ... ولليوم الرابع على التوالي لم تتوقف الاشتباكات في جبهة الفنادق. وقال مراسلون أجانب غطوا أخبار حروب أهلية كثيرة في العالم:» لم تشهد حرب أهلية في العالم أياماً مجنونة مثل التي تشهدها جبهة الفنادق.» ولئن خفّ جنون المدافع الثقيلة فان رقعة الاشتباكات اتسعت وزحفت المعارك من ستاركو وهيلتون على طول خط باب ادريس- ساحة الشهداء صعوداً نحو طريق الشام ومروراً بالتباريس- زقاق البلاط وسوديكو- الناصرة- رأس النبع- المتحف. ورافقها قصف عشوائي مدفعي بين المنطقتين الشرقية والغربية ذهب ضحيته قتلى وجرحى وسبب دماراً في الأبنية والممتلكات وروّع المواطنين. وشهد محور هيلتون- نورماندي- ستاركو بعد الظهر معارك لم يتعدَ فيها عرض خط النار الفاصل بين المقاتلين سوى أمتار قليلة واستخدم فيها الطرفان الرشاشات الخفيفة والمتوسطة والقنابل الهجومية وقذائف ال» اينرغا» وال» أر. بي. جي» على نحو كثيف. كذلك تبادلت الخطوط الخلفية للطرفين قصفاً عنيفاً بالرشاشات الثقيلة ومدفعية الهاون ودخلت الدبابات والملالات طرفاً فيه مما حوّل المعركة الى جحيم حقيقي.

واتسعت أمس خطوط المجابهة هناك اذ حاول كل فريق، وبهدف تخفيف الضغط عن صفوفه، الى الالتفاف حول صفوف الفريق المضاد وبعثرة حشوده فامتدت الاشتباكات على طول خط باب ادريس فساحتي الشهداء والنجمة. وكانت الساعات الأولى من فجر أمس شهدت معارك عنيفة على طول خط النار الممتد من ساحة الدباس وبشارة الخوري وطريق الشام الى الناصرة- رأس النبع- البرجاوي- المقر العام للأمن العام، استخدمت فيها مختلف أنواع الأسلحة الثقيلة والخفيفة، وتميزت هذه المعارك بعمليات هجوم متكررة قام بها الكتائبيون وحلفاؤهم ردت عليها القوات المشتركة بهجمات مضادة. وخلال النهار خفّت حدة الاشتباكات على هذه المحاور فيما استمرت عمليات القنص. وفي المساء وزع المرابطون بياناً جاء فيه ان» المرابطون بالاشتراك مع قوات الحركة الوطنية والتقدمية تمكنت من تطهير مبنى ستاركو وسيطرت عليه سيطرة تامة وتمركزت فيه.» وقال:» ان قواتنا لا تزال تضيق الحصار على فندق هيلتون وما زالت الاشتباكات مستمرة في محور ميناء الخشب وشارع البطريرك الحويك ومطعم البحري.» وبالنسبة الى المنطقة التجارية ذكر البيان ان «المرابطون يضربون تجمعات القوات الانعزالية في شارع فوش وساحة الشهداء.» ونفى البيان ان يكون الكتائبيون وحلفاؤهم احتلوا السرايا وأكد ان «القوات الشتركة للحركة الوطنية موجودة ومتمركزة في السرايا ومعهد الفنون.» وأدلى ناطق عسكري من «فرقة النصر» التابعة للتنظيم الناصري- اتحاد قوى الشعب العامل ان «قوات من الفرقة صدت هجوم الانعزاليين الذين تمركزوا في ستاد دي شيلا ومحور السوديكو وان قوات أخرى تشارك في معارك الفنادق وساحة الشهداء.»

الكتائب: قالت معلومات وزعتها الكتائب ان عناصر مسلحة حاولت التسلل ليل الثلاثاء- الاربعاء الى مركز ستاركو حيث تتمركز قوة كتائبية فجرى صدها.» وان» القوى اللبنانية وجهت إصابات مباشرة الى مراكز المسلحين اليساريين وتجمعاتهم. ففي منطقة الفنادق قصفت دبابة ملأى

بالذخيرة فانفجرت واحترق من فيها. كما أصيبت ناقلة جند بين السان جورج والحمام العسكري فدمرت وسقط أفرادها. ودارت معارك حامية على جبهات الفنادق وأصبح برج المرّ والهوليداي إن نتيجة القصف المركّز لا فائدة منهما بعدما تصدع البناءان من بعض الجهات وتناثرت الجدران ولا تزال القوات الكتائبية والحليفة في الصف الأمامي.»

الضحايا: وبالنسبة الى الضحايا لم تتوافر أرقام واضحة نهائية لكن مصادر مطلعة قدرت ما سقط في جبهة الفنادق مساء أمس بنحو 17 قتيلاً وأكثر من 35 جريحاً. وقتل في رأس النبع مروان شنكر وجرح أربعة. وفي الناصرة قرب منزل الدكتور عبد القادر الشعار سقط قتيل لم تعرف هويته. وعثر قرب مستشفى سعادة خوري على جثتين وقرب محطة خير الله على واحدة. وسقط قتيلان في أوّل شارع عبد الوهاب الانكليزي وستة آخرون في ساحة الدباس قرب كاراج المتن. وعثر تحت جسر فؤاد شهاب على ثلاث جثث. وفي محطة كورنيش النهر عثر على أربع جثث ملقاة قرب مستديرة العدلية- وزارة الزراعة. وقتلت طفلة في شارع الحمرا اثر انفجار قذيفة قرب مطعم الكونغرس حطمت ست سيارات وأشعلت النار في ثلاث منها وأصيبت أبنية مجاورة وتحطم زجاج شرفاتها. وذكرت مصادر قوى الأمن أن قرابة تسعين قتيلاً لا تزال جثثهم في مناطق الاشتباكات اذ لم يتمكن رجال الاسعاف من نقلها.»



الجمعة 26-3-1976: اشتباكات الفنادق مستمرة والنار في السوق التجارية: شهدت بيروت أمس يوماً آخر من الاشتباكات والتدمير العشوائي ففي منطقة الفنادق وعلى طول خط النار الممتد من فندقي هيلتون ونورماندي وباب ادريس الى ساحتي الشهداء والنجمة دار قتال عنيف من زاوية الى زاوية ومن مبنى الى مبنى ومن طبقة الى طبقة ومن شارع الى شارع. وعرفت هذه الجبهة حشداً من المقاتلين. وزاد حدة القتال اشتراك دبابات الطرفين. واشعلت القذائف الحارقة عشرات المحلات والمباني في منطقة باب

ادريس وشارع البطريرك الحويك. وشب أمس حريق جديد في سوق الفرنج كان يلتهم كل شيء في طريقه ولم يستطع رجال الاطفاء الوصول الى أمكنة الحرائق لكثافة التراشق والقصف العشوائي. وكما في جبهة الفنادق كذلك على محاور ساحة الدباس- رياض الصلح- بشارة الخوري- طريق الشام- سوديكو- الناصرة- رأس النبع- البرجاوي حيث استمرت الاشتباكات بالرشاشات الثقيلة ومدافع الهاون. وحالت عمليات القنص دون مرور أي سيارة امام مبنى المقر العام للامن العام في اتجاه الأشرفية أو فرن الشباك وبالعكس، وهكذا قطعت أي وسيلة بين المنطقتين الشرقية والغربية، فضلاً عن أن التراشق المدفعي بينهما لم يتوقف اطلاقاً. وذكر ناطق مسؤول في حركة الناصريين المستقلين ان المرابطون وقوات الحركة الوطنية احتلوا ظهر امس بناية سلامة الذي تقع فيه مكاتب الزميلة «لسان الحال» وسيطروا على محور العجمي- الحاج داود- شارع البطريرك الحويك سيطرة تامة. وأضاف ان «المرابطون يحاصرون فندق هيلتون محاصرة كلية وقطعوا عنه الامدادات وقد وجهوا بواسطة مكبرات الصوت نداءات الى الكتائبيين في داخله للاستسلام.» وقال الناطق ان «قوات الحركة الوطنية قصفت أوتيل رويال وأشعلت فيه النار وأسكتت مراكز الرماية المتقطعة من داخله.»

قصف خافرة بحرية: واشار الناطق الى ان «المرابطون قصفوا خافرة بحرية حاولت التقدم في اتجاه الشاطىء من منطقة الفنادق وأصابوها اصابة مباشرة وأجبروها على التراجع.»

الوسط التجاري: وذكر الناطق انه بالنسبة الى معارك الوسط التجاري أحرزت قوات الحركة الوطنية تقدماً على محوري فوش واللنبي». وقال بيان أصدرته «قوات ناصر» ان فصائلها المحمولة «تخوض معارك تطهير في فندقي نورماندي وهيلتون وتقصف المواقع الانعزالية على امتداد الشريط الساحلي الممتد الى الصيفي.»

الكتائب: باقون في مواقعنا: وقال ناطق عسكري كتائبي ان «معارك عنيفة بكل أنواع الأسلحة خصوصاً مدفعية 120 ملم تدور في منطقة الفنادق وأكد

ان الكتائب لا تزال في مواقعها صامدة ولا تزال تسيطر على فندق نورماندي.»

النمور: وذكر بيان للنمور الاحرار ان «قواتهم مشطت بقصف مدفعي مركز شارعي محمد الحوت وبشارة الخوري منعاً لأي تجمع او تسلل، كما أسكتت مصادر قناصين إثنين متمركزين في بشارة الخوري بقذائف مدفعية أصابت مركزهما اصابة مباشرة. وقال البيان ان «هناك جثة قتيل للطرف الآخر ملقاة في الشارع الموازي لأحد مراكز الأحرار على طريق الشام.»

الضحايا والمصابون: وكانت نتيجة معارك أمس عشرات القتلى والمصابين وتعذر نقل عدد كبير منهم من أرض المعارك وعشرات الجرحى الذين ضاقت بهم المستشفيات وقدر عددهم بنحو 150 جريحاً. وفي اشتباكات ساحة الشهداء- طريق الشام- بشارة الخوري قتل أكثر من 12 شخصاً. وفي محور الناصرة- سوديكو قتل 6 وجرح أكثر من 17. وعثر تحت جسر فؤاد شهاب على سبع جثث لقتلى مجهولي الهوية.

47
آل بدّور 2 – الطابق السابع

عمل بنصيحتها. بحث عن عمل موقت لأنه لا يستطيع في هذه الظروف أن يستأجر محلاً ويفتح ملحمة. وجد وظيفة في سوبرماركت السيوفي (قسم اللحوم). كان هذا فظيعاً بالنسبة إليه ويشبه نهاية العالم: العمل تحت أمرة آخرين. لكنه قرّر أن يتحمل. الحد الأدنى للأجور. زائد «بونيس» غير محدد كل ستة شهور قال المدير إنه «هدية» من أصحاب السوبرماركت وترتفع قيمته أو تنخفض بحسب الأرباح. حاول أمين بدّور أن يشرح شيئاً، لكن المدير ردّ بايجاز: «الشرقية ملآنة الآن باللحّامين المهجّرين من الغربية... مثلك كثر!» لم يكن لئيماً، لكنها الحقيقة والحقيقة تجرح.

*

اليوم الأول كان الأصعب. استيقظ باكراً وحلق ذقنه في ضوء الشمعة بينما جورجيت تغلي القهوة. شرباها على شرفة ضيقة لا تتجاوز مساحتها مترين مربعين. حاولا أن يتكلما همساً لئلا يوقظا الأولاد. كان حزيناً مقهوراً يستصعب بلع ريقه. حين وضعت الحذاء على البلاط أمام قدميه أوشك أن يبكي. طلت الحذاء الأسود من أجله بالصباغ ولمّعته كأنه المدير أو صاحب السوبرماركت! «هذا موقت وأنت تعرف.» صوتها الهادىء ساعده قليلاً. طالما أدهشته بصبرها وذكائها وقدرتها على تدبير الأمور. حاول دائماً نسيان الأمر (انها الأقدر بينهما) لكنه في الساعة الصعبة تذكّر، وشكر الربّ لأنها جنبه.



وقفت في الباب تنظر الى كتفيه وهو يهبط الدرج. لم تبكِ وهي تستدير وتغلق الباب لكن قلبها انكسر عليه. أيقظت البنات برفق على غير عادة. ووضعت يدها على رأس الصغير وانتظرته حتى فتح عينيه السوداوين الواسعتين. أصدر همهمته التي تريح قلبها. أخرج يديه من تحت الغطاء وأخبرها بإشارات البكم أنه رأى بيتهم الحقيقي في المنام. بيت الغربية.



وزعت أشغال النهار على البنات بينما يتناولن الفطور البسيط. نبّهت الكبرى (رفقة) مرة أخرى بشأن النافذة (قريبة من الأرض) والشرفة (تخاف على بولس لأنه يحبّ أن ينظر) ثم أخذت جزدانها ونزلت الى السوق كي تشتري الأغراض. عند رجوعها بدت متعبة لا تشبه نفسها. كانت تلهث حمراء الوجه، والعرق يسيل على أنفها. ألقت الأكياس على الأرض داخل الباب. جلست على الكنبة التي غارت تحتها. طلبت ماء. ظلّت تلهث. الصغرى (جولي التي ينادونها جوجو) ضحكت مع الوسطى (صوفي) وهي تلعب بقلم رصاص معلوك الممحاة، وتملأ بأجوبة عجيبة استمارة في مجلة

مصفرّة وجدتها مرمية على الدرج قبل يومين.

*

مسابقة سيدة البيت المثالية.

يحق الإشتراك لكل لبنانية أو أجنبية مقيمة في لبنان.

الجوائز: تذكرة سفر بيروت- باريس - بيروت. أدوات تابروير تيفال. أدوات تجميل ليدي استر. شراشف فيلدان. صناديق مياه معدنية نعص بكفيا. صناديق بيرة ألمازة وأمستل. هدايا نستله وماجي. علب أرز أنكل بنز. معجون أسنان فليوكاريل.

الأسئلة

1 - ما هي المأكولات التي يوضع فيها مطيب الطعام ماجي؟

2 - مِمَّ تتألف مجموعة تيفال المستخدمة في المطبخ وما هي الميزة الأولى لتيفال؟

3 - ما هي طريقة معالجة المياه المستعملة لصناعة بيرة ألمازة وأمستل ولماذا؟

4 - طفل عمره أربعة أشهر يبكي- لماذا يبكي؟ وماذا تفعلين ليتوقف عن البكاء؟

5 - كيف تطهين 650 غراماً من الأرز الأميركي الأنكل بنز؟

6 - مثّلت فاتن حمامة فيلماً مصرياً سنة -1947 ما عنوان هذا الفيلم؟

7 - كم رف يوجد في براد ليونارد موديل ر ف 12؟

8 - أدواتك الفضية تمشّحت واسودّ لونها، كيف تنظفينها من دون استعمال مواد كيماوية تجارية؟

9 - ما هي المادة العجيبة لدى ليدي استر لعلاج الأظافر؟

10 - بيجامة زوجك جديدة ولكن ياقتها تآكلت واهترأت وليس لديك

قطعة قماش منها، ماذا تفعلين لإصلاحها؟

11 - ما هي ميزات مكنسة هوفر رانجر كلينر الكهربائية؟

12 - ما هي، حسب ترتيب أقدمية وجودها، مراكز التزلج في لبنان؟

13 - آلة الخياطة هوسكفارنا 200 لا تحتاج للتزييت، لماذا؟ وكيف تباع؟

14 - ما هو الفارق بين الصلصة البيضاء وصلصة البشاميل؟

15 - ما الفارق بين ضغط مكواة «النابرس» ومكواة عادية؟

16 - أحرقتِ يدكِ قليلاً بصينية الفرن، ماذا تضعين عليها لمداواتها؟

*

«ما بكِ يا أمي؟ تعبتِ على الدرج؟»

«اعطيني ماء بعد!»

«تعبتِ من حمل الأكياس؟»

«لا. هناك مسلحون في كعب البناية. ومعهم نجّار يخلع الأقفال. ورأيت إمرأة على الدرج، هذه أول مرة أراها، كانت تبكي وسألتها ما بها ولم ترد عليّ.»

بينما تناول إبنتها الكوب الفارغ اهتز الباب بقرع عنيف. نظرت حولها كأنها تستنجد بأشخاص خفيين ثم حملت جسمها الثقيل ومشت حتى الباب. امتدت يدها اليمنى الى المسكة. كانت الأخرى تتحرك الى خلف وتأمر بناتها بالتراجع صوب الزاوية حيث جلس بولس على طراحته يلعب بشاحنة حديدية وهو لا يسمع شيئاً ولا يهتم. كان مفتوناً منذ أيام باللعبة الحمراء ذات الصندوق الأصفر القلاب ويحاول أن يفكّها. لم تفتح الباب إلا حين سمعت جاراتها. كميلة الحويك زوجة شوفير التاكسي تجادلت مع رجل غريب الصوت. ناجية عازار التي لا يشتغل زوجها لأن صيدليته في ساحة الشهداء وأحرقتها القذائف، صاحت وهي توجّه تعليمات غير مفهومة الى بناتها أو بنات غيرها

في البناية. ماذا يحدث؟ لم يقرعوا الباب مرة أخرى لكنها لم تتحمل التوتر ويدها تحركت بلا ارادتها وبرمت المسكة. رأت مشهداً غريباً: نساء البناية كلهن تقريباً تجمعن مع بناتهن في صحن الدرج يحاولن منع رجال غرباء من كسر القفل على باب الشقة جنبها. شقة لا يسكنها أحد، أخبرتها كميلة الحويك (أم يونس) أن عدداً من خادمات البناية القديمات كنّ يقطنّ فيها. لم ترَ من قبل السيدة صعب أو السيدة رزق أو السيدة عطية على الطابق السابع. انتبهت الى مدام عطية ملتفة بروب مخمل زيتي اللون تتلفت كأنها استغلت الفرصة كي تحصي الأبواب الضيقة في هذا الطابق الفقير الذي يشبه السطح. سألت نفسها أين الناطورة لأنها رأتها قبل دقائق تتجادل مع هؤلاء الرجال في مدخل البناية وتقول لهم إنها تلفنت للمحامي وإنه سيجلب المفتاح وانه على الطريق. «بلا المحامي بلا بلوط! زيحي!» كان يبعدها بقفا يده واليد الأخرى على رشاش معلق بحزام من كتفه. أم يوسف (راغدة زغلول زوجة السمكري المكروه في البناية) ظلّت تتحرك الى خلف خطوة ثم تسدّ عليه الطريق من جديد. تعجّبت من عنادها وخافت عليها ولهذا تسلقت الدرج بسرعة. أرادت أن تبتعد، كي لا ترى أم يوسف تتعرض للضرب.



على الدرج بين الطابقين الرابع والخامس كادت أن تتعثر بإمرأة لا تعرفها لكنها شكّت أنها مدام زيدان التي سمعت أنها مريضة وتأخذ أدوية أعصاب لأنها جربت أن تشرب قنينة ديمول ومنعوها. كانت في قميص النوم قاعدة على الدرج تبكي، وشعرها مبلول بالماء وعليه آثار شامبو. سألتها ماذا حدث وأرادت أن تساعدها. لكن المرأة خافت منها وانكمشت كالقنفذ والتصقت بالحائط. شعرت جورجيت بدّور بثقل الأكياس فجأة. احتدّت الأصوات في الأسفل. تركت المسكينة وتسلقت الدرج لا تريد إلا بلوغ البيت.



النجّار الأرمني حاول أن يشرح للنساء شيئاً بلغة برج حمود المكسّرة التي

تقلب الإناث ذكوراً والذكور إناثاً. كان صندوق العدّة مفتوحاً على الأرض وهو يجثو جنبه، لكن أيدي النساء- والبنات- ظلّت تمتد وتجرب إغلاقه أو تعبث بالأدوات فيه. مدام طانيوس ضحكت متوترة وسط أصوات زعيق وبكاء تصدر عن أولاد أخافهم أحد المسلحين: لم يخافوا من الرشاش لكنهم خافوا من صوته. كان صياحه يخرج من ثقب في رقبته. حرّك يديه بعصبية كأنه يقول إنه تحمل الرصاص في جسمه لكنه عاجز عن تحمل هذا. الرجل الذي رأته يدفع الناطورة في المدخل ظهر فجأة لاهثاً محتقن الوجه. التقط رشاشه بين يديه. قام بحركة أصدرت قرقعة مخيفة أسكتت النساء. «تخرطش علينا؟» وقفت أم سعيد (ناجية عازار) في مواجهته. «أخرطش كي تسكتوا»، أجابها الرجل وهو يحاول التقاط أنفاسه. من خلفه ظهرت الناطورة وهي تمدّ يدها وتمسك بمفتاح. ثم بان المحامي وكيل البناية زخريا الزمّار.

*

انكسر المفتاح في القفل. غضب المسلّح المثقوب الرقبة وصار يركل الباب بجزمته. النجّار فتح صندوق العدة من جديد وهذه المرة لم تعترض النساء. حين حضر الوكيل تراجعن سنتمترات قليلة للمراقبة والتدخل عند اللزوم. ظهر السيد لويس الخوري وهو يحمل عصا فضّية القبضة يستخدمها أحياناً. كان حليق الذقن تفوح منه رائحة كولونيا «أولد سبايس». بذلة كحلية مقلمة وقميص أبيض وربطة عنق كحلية. سأل ماذا يحدث؟ الناطورة أخبرته إنهم يريدون تفتيش الغرف. «أي غرف؟»، سألها السيد لويس.

48
آل زيدان 2 - الطابق الخامس

صار يأخذ الأولاد ويتركهم عند عمتهم سميحة في طرف حي السريان حيث أعطوها بيتاً صغيراً بلا إيجار هرب صاحبه المسلم الى الغربية. الطبيب قال له إن وضع زوجته سيتحسن لكنها بحاجة الى الهدوء في البيت. وهو

يعرف أولاده. لا يكفّون عن الركض والصراخ لحظة لأنهم أولاد. التقى الممرضة ثابت في باب البناية وأخبرها ان زوجته تبكي طوال الليل وان الدواء كما يبدو لم ينفع. سألته أي دواء. أخبرها عن الطبيب والعيادة ووصف لها شكل علبة الدواء ولونها لأنه نسي إسم الدواء فجأة. مع أنه يعرف الإسم وعلى رأس لسانه. أرادها أن تزورهم وتتكلم مع زوجته لكنها تحجّجت بضيق وقتها وهربت منه. وحين رآها بعد ذلك وإسم الدواء كامل في رأسه تردّد قبل أن يفتح فمه وهي استغلت الفرصة وتجاوزته بتحية سريعة واختفت على الدرج. سامحها لأنها شديدة الجمال ولأنهم أخبروه عن أخوتها الشهداء وزوجها الذي طلّقته لأنه شيعي ووالدتها المشلولة.

❊

بينما يعدّ صينية كنافة بجبن عند الفجر في المحل الذي استأجره قريباً من ساحة ساسين، فكر فيها ولم يفهم كيف صارت هكذا. هذه زوجته؟ المخلوقة ذاتها؟ كانت تضحك طوال الوقت. كانت مشهورة بضحكتها ويقولون عنها في الدامور سيسليا زيدان تضحك وهي تولّد أطفالها! يعرف أن ما حدث رهيب ومرعب. لو أنها لم تكن هناك! أصرّت أن تجمع بقية الأغراض في الكراتين! حظّها النحس! حظّه! لكنها نجت وبقيت حيّة، والمفروض أن تتحسن. لكنها لا تتحسن. بالعكس: صارت خرساء!

❊

«كنّا أول الداخلين إلى الدامور في الصباح. الجثث في الطريق. أولاد قتلى على الزفت. عجوز ميتة ممددة على درج. دخان ومسلحون. بيوت ما زالت تشتعل. دخلنا الى بيت فرانسوا عقل. كان مثقوب السقف، اخترقته قذيفة تركت دائرة في زاوية السطح وانفجرت في قلب البيت. كل ما فيه مكسّر ومبعثر. في إحدى الغرف وجدت ثلاث لوحات زيتية للرسام سعيد عقل، إبن عمه. كانت واقعة على الأرض. رفعتها كما هي إلى صندوق

السيارة. حين رجعنا الى الجريدة («النهار») في بيروت قلت لفرانسوا: بيتك تخرّب كلّه لكنني جلبت لك مفاجأة. «ماذا؟ ماذا جلبت؟»، سألني. أخرجت اللوحات كما هي، سليمة، فقط تكسّر زجاجها. أخذها وقال: «سيفرح سعيد كثيراً لأن لوحاته لم تحترق!» (ذكريات جورج هيكل).

49
آل الخوري 5 – الطابق الثالث

«في معركة النورماندي كدتُ أن أموت. «أوفر دوز» هيروين. لماذا يسمّونها جرعة زائدة؟ أخذت أقل من العادة. أقل من ربع ملعقة. لا أتذكر تلك الليلة جيداً لكنني أقدر أن أصفها. لأنها تشبه غيرها. رائحة بنزين. والمادة البيضاء تذوب في ماء الملعقة. ثم أردّ القداحة إلى جيبي لئلا يسرقها أحد. القدّاحة هدية من أخي. أستعمل أي إبرة موجودة. قبل أن يبرد السائل أسحبه من الملعقة. أشعر بالهواء على رقبتي وأنا أزرع سنّ الإبرة في عرقي وأسحب قليلاً من الدم. الهواء غير حقيقي لأنني في مكان مقفل. مستودع ذخيرة أسفل بناية قريبة من ميناء الخشب. كنت بعيداً من أوتيل النورماندي مئة متر تقريباً والقصف يبلغني واضحاً كأن دبّابات جبريل في البناية ذاتها. لمبة الغاز قوّتها 200 شمعة وتهدرّ كالبحر. أكبس على مهل بينما غيمة الدم تمتزج بالهيروين الذائب. حقنة بلاستيك شفّافة عادية. شارل كان يستعمل حقنة من المعدن والزجاج حين يعطي أمي الإنسولين من أجل السكري. وكل مرة يطهرّها بالسبيرتو والنار. قبل أن يقتلوه لم أضرب إبراً كثيراً. دخل الى سهرة وشاهدني مع رفاق أذيب الكوكايين في ملعقة خل. نظر إليّ نظرة تحذير يتيمة. «ليس لي!»، قلت له. جهزت الإبرة بسرعة لأن الكوكايين المخلوط يذوب بلا تسخين وأعطيتها للقاعد جنبي مع أنني كنت أعدّها

لنفسي. كل واحد يجهز إبرته بنفسه. طوال الوقت أقاتل ولا أجد وقتاً كافياً للنوم. أردت طاقة، «إينرجي»، لا أكثر. بدأت أشمّ كوكايين قبل موته. حاولت أن أخفي الأمر. لم أكن مثله. شارل كانت تكفيه أربع ساعات نوم وأحياناً ينام نصف ساعة في «الدشمة» وينهض منتعشاً كأنه نام ليلة كاملة. الهواء أشعر به على رقبتي وهو يتأهب ويتجمع في مكان بعيد. الإبرة سريعة، في لحظة يبلغ السائل مركز الدماغ. قبل أن أفكّ الربطة أشعر بالريح ترفعني عن الأرض. أجمل شعور في العالم. اذا لم يجربه الواحد لا يقدر أن يتخيله. كنت أحقن نفسي أمام الأخوين اللذين خطفتهما وحبستهما وراء البلدية. كنت أطعمهما خبزاً وسرديناً وهما مربوطان بالحبال، البطن على البطن. مرة واحدة اشتريت لهما مناقيش من «ملك اللحم بعجين» في بناية الريفولي. اختفى أصحاب الفرن الأصليون لكن واحداً مهجرّاً من أهالي الشياح مهنته الأفران خلع الباب وصار يخبز للمقاتلين 24 ساعة. كان ينام في السينما المهجورة هو وزوجته وأولاده. سحب تختاً من مكان ما ووضعه أسفل الشاشة الكبيرة. دخلت مسكنه لأنه ترك الفرن مفتوحاً والنار مشتعلة على أخفّ درجة. كانت رائحة المناقيش المحروقة تفوح من بيت النار. استعملت لوح الخشب الذي يستعمله وبدأت أخرج المناقيش كما يفعل، وأنا جائع. تحمّصت كلّها حتى تفحّمت. تركتها وأقفلت قنينة الغاز. ثم ذهبت الى السينما حيث يعيش. كان الباب الحديد للبناية مقفلاً بسلاسل ركبناها منعاً للسرقات، وكنا ندخل ونخرج من باب في الخلف يفضي الى درج يهبط الى مستودع، والى درج آخر يصعد الى مكتب سفريات، والى ممر في نهايته باب خشب أحمر، ضيق مثل باب الحمام في الطائرة. قرعته ثم دفعته. رأيته يركب زوجته على التخت وهي ترتعش وأطفالها الثلاثة أو الأربعة ينامون ملفوفين على مقاعد الصف الأمامي. كانت تنتظر حتى يناموا جميعاً كما يبدو، ثم تنادي عليه. حين انتبها إليّ أعلمته أن المناقيش احترقت. لم يكن فرّاناً عظيماً لكنني لاحظت كم

أن زوجته متعلقة به. لحقت بنا الى الفرن وهي تربط شعرها. ساعدته على تقريص العجين دوائر وعلى مسحها بمزيج الزيت والكشك المخلوط بتلوين أحمر. كان وجهها يلمع مشرقاً كأنها دهنته بكريما غير مرئية. قفزتْ خفيفة الخطوة حول زوجها ومازحتني ونظرت إليّ نظرة لم أفهمها. كأنها مستعدة لأن تحبّني أنا أيضاً ذات يوم! كنت أراها دائماً هناك، حتى في وقت القصف، تساعده أو تكنس المحل أو ترضع صغارها أو تشاهد الصورة المهتزة في صندوق التلفزيون الصغير الموصول ببطارية سيارة. كانت تغلي لنا شاياً ونسهر على الرصيف حيث المتاريس، قريباً من سوق الحسبة الذي احترق ولم يعد أحد يأتي إليه لشراء الخضر والفواكه بالجملة. شارل كان يقول عن بناية الريفولي إنها أشنع بناية في بيروت، مكعّب باطون يسدّ منظر البحر، لكنها صارت جميلة بسبب الحرب والفرن، في الليل، ونحن ندخن بين معركتين ونشرب الشاي في أقداح زجاجية مذهبّة يشبه شكلها ساعات الرمل. كان شارل يدخن ثلاث علب مارلبورو في النهار ولا يسعل أبداً. مع أنه يبلع الدخان كلّه. الأباء يقولون عن الأبناء إنهم يظلّون أطفالهم حتى لو كبروا وتزوجوا. هذا كذب. الأمهات، «أوكي»، يمكن أن تفهم، لكن الأباء لم يحبلوا. شارل كان بمنزلة الأب لي. أبي كان مثل جدي. كأنه ولّد شارل ثم كلّفه أن يولّدني. كان لطيفاً دائماً ومن الطراز القديم ومرات أقوم في الليل وأجده وحده في زاوية الصالون جنب صندوق الراديو الألماني المطفأ يشرب ويسكي بائساً يائساً بسبب أمي. لم أرَ شارل باكياً في حياتي. حين سلّمونا جثته المشوّهة (عملية تبادل بمساعدة الصليب الأحمر) سألت نفسي هل أبكوه قبل أن يقتلوه. كنت أقدر أن أراه يصرخ. وأستصعب أن أتخيله يبكي. استعملت خشبة منزوعة من كرسي وضربت الأخ الأصغر على ظهره. تلوى وتمايل مع أخيه. كانا متحدين مثل دودة كبيرة عالقة في شق في الأرض. أنينهما لم يزعجني. قلت لحمزة أريد أن أحكي معك، لا تصرخ.

ثم أخرجت الجريدة من فمه. كانت متكتلة ومبلولة بلعابه ودمه. وسّختني حبراً. كزّ أسنانه لأنه يعرف كم سأضرب أخاه إذا صرخ أو شتم. فركت ذراعي بسبب الحكاك. سألته هل يعرف لماذا لم أقتلهما بعد. هربت نظرته. استدرت كي أعرف أين أنا. كانت الفرشة في مكانها وجنبها علبة الكرتون والبوتوغاز الصغير الأزرق وركوة القهوة وأكياس الورق. خزائن الحديد في الزاوية فقدت بعض جواريرها. على طاولة المكتب سلاحي وأشياء أخرى أحتاج إليها. ضوء النهار يدخل من شقوق. على حائط تتعلق روزنامة، مائلة كأن البناية مائلة. شعرت أنني أدوخ لكن بدل السقوط الى تحت صعدت الى فوق. كنت أدوخ وأرتفع الى أعلى نقطة في الكون. ولم أقع.

50
آل طانيوس 4 – الطابق الخامس

من دخان المرفأ ارتفع نجم نسيب طانيوس. أجّر النمرة العمومية لواحد من سكان الحيّ، وركّز نشاطه في الشاحنة (وزنها فارغة 6900 - وزنها الإجمالي 19000 - الحمولة الصافية 12100). حصل عليها بالشراكة مع الدركي الذكي مخايل شليطا. ظلّ مخايل شليطا دركياً يلبس الزيّ والجزمة والقبعة ويقبض الراتب المخصوص من مخفر فرن الشباك في نهاية الشهر، لكنه رقّى نفسه درجتين ولم يعد يداوم ولا يحرر مخالفات سير لجيرانه في حيّ الناصرة كي يفهموا أنه يقدر أن يؤذي من يشاء. قال لرئيس المخفر إنه لا يستطيع أن يحضر إحصاء الصباح بسبب القنص والأوضاع، كأن الأوضاع تجري عليه ولا تجري على غيره، كما قال رفاقه في السلك، وهم الأضيق حيلة والأقل طموحاً. زوجته (داليا إبنة السمكري عبدو زغلول) ظهرت في الطريق بأساور ذهب تخشخش في معصميها. كان ذهباً قانونياً غير مسروق

اشترته من صاحب دكان الذهب على تقاطع الناصرة- السوديكو أثناء الهدنة التي أقرّها الطرفان لتصريف حاجات الناس اليومية وتزويد الأفران بالوقود والطحين، لكن أيضاً (وهذا الأهم) لنقل الغنائم والمسروقات الى الخطوط الخلفية. نسيب طانيوس تعلّم أن يدفع سبعة آلاف دولار رسم دخول في باب المرفأ، وثلاثة آلاف دولار أخرى رسم حماية على رصيف العنابر. هكذا بات يقصد مرفأ بيروت بشاحنة فارغة يقرقع صندوقها كأنه يتضور جوعاً، ثم يخرج بها بعد ساعات ملآنة مثقلة بطيئة بصندوق متخم لا يصدر صوتاً. على الباب مطبوع: «بجانب السائق- 2». لكن نسيب طانيوس لا يبالي بالقانون ويحشو أربعة أو خمسة حمّالين جنبه ويأمرهم أن يزيحوا بعيداً عنه وعن الفيتاس.

*

طلب المستودع من الوكيل زخريا الزمّار. في البناية مستودعان: الأول تحت الأرض وحوّله القصف ملجأ كما نعلم. والآخر يحتل معظم مساحة الطابق الأرضي من جهة المسمكة لا من جهة «نزلة المبرومة» حيث مسكن آل زغلول. لم يكن مستودعاً في الأصل بل متجر سجاد لصاحبه الحاج عبد الكريم أحمد شقير. قضى الحاج شقير بالسكتة القلبية أواخر الستينات وهو نازل في المصعد من الطابق الرابع كعادته كل غروب بعد وجبة الغداء. كثيراً ما نبّهه جاره الدكتور أديب نصّار الى ضرورة استخدام الدرج ضد الكوليسترول وعلى سبيل الرياضة. لكن الحاج تحجّج بداء المفاصل وعتمة الدرج وألم ركبتيه زاعماً ان الروماتيزم وراثي في عائلته مع أنه يعلم أن الكوليسترول هو المرض اللعين الذي أفنى نصف الأقارب. كان يفضل نصائح الدكتور شحروري (مع أنه الأصغر في السنّ) ويعتبره أعلى رتبة من الدكتور نصّار لا لأنه يسكن فوقه مباشرة بل لأنه درس في أميركا وأميركا أشطر من أوروبا بالطب. فضّل الدكتور شحروري أيضاً لأنه يدخن ولأنه مع اليسار لا اليمين ويحبّ عرفات والإمام الصدر واذا نزل الى البلد يقعد في

«قهوة فلسطين» حد التياترو الكبير ولا ينسى في خروجه أن يجلب له علبة تنباك معسل من الدكان جنبها لأنه أفضل تنباك عثملي في بيروت. كان الحاج يكثر من ذكر إسم الجلالة (الحمد لله- لا إله إلا الله- سبحان الله) ويقضي النهار على رصيف المبرومة يدخن أرجيلة طويلة النربيج ويضيّف قهوة وشاياً ويلعب طاولة مع أصحابه. كان محبوباً لأنه كريم مثل إسمه. بموته أقفل المتجر ولم يعد حجر الزهر يطقطق متدحرجاً على الخشب ولا الكلمات التركية (شيش باش- ديشاش- جهار وسو) تنطلق كالرصاص وتفزع آل خير الدين (الطابق الثاني) من نومهم ساعة القيلولة. زوجة الحاج وأولاده ظلّوا يدفعون إيجار المتجر المقفل لصاحب البناية العجوز أيوب العبد ثم لوكيله الزمّار حتى تركوا البناية. غادروا والمتجر لم يفرغ من السجاد تماماً بعد. باعوا الثمين وتركوا سجاجيد قليلة مستعملة جُلبت للتصليح وتُركت ملفوفة محزومة ثم أتى العثّ وأكلها لأن أصحابها لم يرجعوا كي يطالبوا بها، لسبب أو لآخر. تاجر السجاد الذي اشترى الدفعة الأخيرة لم يقبل أن يأخذها من الزاوية لئلا ينتقل العثّ الى مخازنه. كانت سجاجيد جيدة تمنع البرد في الشتاء ولو أن خيط أطرافها تقطّع والعفن بدأ يضربها. الوكيل الزمّار باعها لسكان الحيّ الجدد بأسعار متهاودة حين قرّر تنظيف المكان وتحويله الى مستودع. أخوه اقترح الأمر وهو جهز المكان لكن الأخ وجد مخزناً آخر عملياً أكثر. علّق المحامي لافتة مكتوبة بخط يده على الباب الحديد الجرّار: «مستودع للإيجار.» بعد أقل من عشرة أيام جاء نسيب طانيوس إليه يلعب بعلاقة مفاتيحه. لم يوقعا عقد إيجار. شربا فنجان قهوة. اتفقا على التفاصيل شفهياً. ثم تصافحا باليد. كان هذا كافياً. تناول زخريا الزمّار مقدماً إيجار ثلاثة شهور، وأخذ نسيب طانيوس المفتاح. شبكه في الحلقة الفضّية محاذراً ألا يكسر ظفره. وصار صاحب مستودع.



لم يكن مشروعه التجاري الأول. قبل سنوات اشترى باصاً بالشراكة مع

شوفير تاكسي من أصدقائه. أصلحا مقاعده وفرشه حتى يليق بتوصيل طلاب المدارس. أثناء العطلة الصيفية شغّلا الباص على خط بيروت- طرابلس. لم يتوقفا عن شغل التاكسي في وسط بيروت. تناوبا على قيادة الباص وجرت الأمور على ما يرام زمناً. في تلك الفترة مات أبوه وأورثه قطعة أرض. باع البستان بنصيحة من زوجته كي يبدّل مسكنه لأن العائلة كبرت. السمسار سليم الحلو دلّه الى حيّ العبد وإلى «بناية أيوب» التي فرغ في طابقها الخامس بيت فخم: ثلاث غرف نوم وصالونان وأوضة سفرة. زوجته أنطوانيت تجولت بين الغرف الفارغة الواسعة وحبست الشهقات (معظم الشهقات) في صدرها. رآها تضع يدها مفتوحة الأصابع على بلوزتها الحمراء كأن قلبها سيتوقف. سمعها تتأوه وهي تتجمد في الحمام البديع البلاط متأملة الحنفيات النحاس اللمّاعة. كان البيت جديداً نظيفاً أبيض كأنه لم يسكن من قبل. على حيطان الصالون بانت مستطيلات غامضة. شرح لهما السمسار أن اللوحات كانت معلقة هنا. وجدا البيت شاسعاً ومطلاً بشرفة المطبخ ونوافذ غرف النوم على البحر والكرنتينا. أخبره السمسار أنه بيت بيار كرم الشيف الخواجة صاحب المطعم المشهور. قبضت زوجته على كوعه كأنها لن ترجع الى البيت في بيكو إلا كي تجلب الفرش الى هنا. دفع للسمسار عربوناً. أخبر شريكه أنه سينتقل الى بيت أوسع في الأشرفية لأن شقته ضيقة جداً. بارك له الشريك وجاء وزاره في بيته الجديد مع الزوجة حاملاً مزهرية هدية. عند الوداع أمام باب المصعد المعشّق الخشب قال الشريك:» هذا بيت لرئيس الجمهورية.» بعد فترة غير طويلة ساء الوضع بينهما وتبادلا اتهامات بالسرقة. أحدهما لفظ كلاماً نابياً بلهجة لا يقبلها حتى شوفيرية التاكسي بينما يقفان جنب الباص المفتوح النوافذ على رصيف «عصير زين» في ساحة الشهداء. الآخر لم يحمله عقله وبادر الى مد يده. كان مساء ساخن الهواء، شديد الرطوبة، يعجز فيه الإنسان عن تحمل العرق والغبار على جلده. تصارعا وتمزقت الثياب وجاءت الشرطة. رأى نساء على شرفات أوتيل أستوريا يتفرجن عليه. ضربوا شريكه ودفعوه أمامهم الى بناية البوليس البعيدة فشختين (خطوتين). انتهت

الشراكة. دفعا غرامة. باعا الباص وتقاسما ثمنه. طوال أسابيع ظلّ أحدهما يرمق الآخر شذراً ويضيّق عليه الطريق في مدخل الكاراج. ثم تدخّل أهل الخير وانعقد الصلح. لكن نسيب طانيوس ظلّ لا يتحمل منظر الرجل. كان يكره السرقة ولا يطيق اللصوص.

*

قبل أن يتعودوا على مواقع الأبواب في البيت الجديد أصيب البيت القديم بقذيفة. لاحقاً ستهدم المعارك شارع جورج بيكو بأكمله لكن قبل ذلك مرّ نسيب طانيوس على البناية كي يتفقد الشقة المقصوفة التي تركها وسكنتها عائلة سيئة الحظ، عائلة يعرفها جيداً لأنها كانت تسكن في عمارة غير بعيدة، قديمة وشبه مصدعة منذ زلزال 1956. رجع الى «المبرومة» عرقان الثياب مخضوض الملامح. رمى المفاتيح على الطاولة وأخبرهم. لينا، الكبرى بين أولاده الثلاثة والمفضلة عنده سرّاً (كونه يعتبر نفسه ماهراً محنكاً في إخفاء المشاعر)، أوشكت على البكاء وهو يقول إن القذيفة أصابت الزاوية حيث كانت تنام بالضبط. أختها نورا سخرت منها حين لمحت دموعها. وهو أمرَ نورا أن تتبخر من أمامه.

51
آل حبيب 5 – الطابق الرابع

«آلو، أستاذ ميشال حبيب؟ مرحبا. أنت لا تعرفنا، لكننا نعرفك من إبنك. كارلوس عندنا. منذ فترة نحاول أن نتصل بك. صحته جيدة لكن جرحه التهب. لم نضربه. أصابته شظية من قذيفة وقعت على بيتنا. لا أقدر أن أحكي كثيراً ولن نتلفن مرة أخرى. إبنك ضيفنا منذ شهور. إطعامه كلّفنا مالاً وكل ما نريده منك كيس سانيتا فيه عشرة آلاف دولار، لا أكثر ولا أقل. وسنرد لك إبنك. معك قلم وورقة؟ أرجوك لا تقاطعني وإلا ستندم. بناية غومون

بالاس، تعرفها؟ جسر فؤاد شهاب. حيث تُرمى الجثث. باب حديد أحمر، تربط الكيس وتذهب. لا تلعبْ معنا. سنراقبك. اتركْ سيارتك على كعب شارع مونو، تحت فرن مخايل. امشِ حاملاً الكيس كأنك ترمي الزبالة. اتركه على البوابة الحمراء. ارجعْ إلى سيارتك واذهبْ إلى بيتك. لا تتلفت. لا تنتظر. غداً، الساعة 6 مساء. سجلت كل شيء؟ لا تسأل شيئاً. إبنك سيعود إليك سليماً حيّاً خلال يومين شرط أن تنفذ التعليمات بالحرف. نعرف كم تعذبتم. لم نتمكن من إعطاء زوجتك التعليمات لأنها لم تتوقف عن البكاء كي تسمعنا. لسنا وحوشاً. فقدنا أعزاء، مثلنا مثلكم. لكننا سنرد لكم ولدكم. شبعنا من الدم. لا تلعب معنا أستاذ ميشال. نحن لا نمزح وهذه حياة إبنك. لا تخبرْ أحداً. تعالَ وحدك. غداً، 6 مساء، غومون بالاس. عشرة آلاف دولار فقط. ويرجع إبنك الى البيت.»

52
آل الحويك 2 – الطابق السابع

«المجد لله في العلى وعلى الأرض السلام.» أطفأت أم يونس الراديو الترانزيستور لئلا تفرغ البطارية. أنهت فرم البصل وبدأت تقليه. استعملت ناراً قوية كي تنتهي بسرعة وتنزل لشرب القهوة عند أم جان. العدس الذي يفور وهو يُسلق أوشك أن يوسّخ الغاز. زوجها لا يقبل أن يكون مثل نسيب طانيوس وهي لا تريد شيئاً إلا أن يبقى في صحته. حين خطفوه وردّوه تبدّلت إلى الأبد. أم جان لا تعرف ما المهم. كل يوم تنادي عليها كي تنزل وتشرب قهوة لا حبّاً بها (مع أنها تحبّها وتقول ذلك للجارات) ولكن كي تستعرض أمامها المشتريات الجديدة. كان بيتهم شبه فارغ، تتكلم وتسمع الصدى في الغرف. الآن إمتلأ. كنبات ستيل مذهبّة ومناضد زجاج وخزائن خشب

مطعّمة بالصدف. برّاد كبير أميركاني. وغسّالة بجرنين تغسل وتُنشّف. وآلة تجلي الصحون! كلّه سرقة. ومال حرام. «أبو جان حرامي لص بلا أخلاق!» زوجها بولس يقطع الرؤوس بلسانه. تخاف كثيراً أن يُغضب أحداً وتقع مصيبة عليها وعلى الأولاد. حين خطفوه بكت حتى طقّ قلبها. لم تصدق أنه سيرجع. لكنهم أفلتوه. ضربوه وتركوه في قبو بلا أكل لكنه لم يمت. أم جان لا تعرف ما المهم. هي كميلة الحويك صارت تعرف. طبخت له وجلست أمامه والأولاد يتلمسون بيجامته الجديدة كي يتأكدوا أنه في البيت. كانت الكهرباء مقطوعة وأكلوا على الطراحة في ضوء القنديل. رأت دموعه تسيل وهو يبلع لقمة اللبنة، مع أن الجميع يعلم أن قلب بولس الحويك أقسى من الحجر. مسح عينيه بكمّه وقال ان كاز القنديل مغشوش ولهذا يُخرج دخاناً. كأنه يبكي من دخان القنديل! لم تتعلم الكتابة ولا القراءة وهو مثلها لكن الأولاد في المدرسة والكبرى سابين الأولى في صفّها. مرات تقرأ لها أشياء من الكتب أو من الجريدة. أبوها يجلب لها الجريدة كي تقرأ له العناوين وأهم الأخبار. لا يشتريها إلا نادراً. لكن الناس كثيراً ما يتركون الجريدة له في التاكسي حين ينتهون منها. سابين صوتها حلو وحين تقرأ لها الأبراج أو صفحة الطرائف تبدو مذيعة، كأنها في الراديو. يونس لا يحب المدرسة والوحيد الذي يفرح بسبب القنص والقصف لأنه يبقى في البيت ويلعب في الملجأ وعلى الدرج. ما أن تهدأ الحال حتى يختفي النهار كلّه في الطريق. لا تخاف عليه كثيراً لأنه قرد أرض ويُطلّع الشعرة من العجينة. ولا يرحم أحداً من شرّه. 11 سنة ويسوق سيارة! تعلّم وحده من مراقبة أبيه وهو يبرم الدركسيون ويدعس الدوبرياج كي يغيّر الفيتاس. في الضيعة غافل الجميع وهم على طاولة الأكل وصعد الى البيك أب وساقه بين براميل ماء يسقون منها الدجاج والشجر. المكان ضيق بين البراميل ومرّ من دون أن يضربها! لكنه كبس الزمور والدجاج أصابه الجنون في الهنغار. عمه ناداه وهو لم يقترب لأنه خاف من أبيه. بولس يده سريعة. لكن عمه قال له لا تخف، تعال، هل أنت شاطر في التاريخ والحساب مثل السواقة؟ أعطاه نصف ليرة

بدل أن يعاقبه! يونس قال إنه يكره معلمة الحساب وان أستاذ التاريخ أعرج وأصلع وينام في الصف ولا يتعلمون شيئاً. عمّه سأله ماذا يريد ان يصير حين يكبر، هل يحبّ أن يصير طبيباً؟ يونس قال إنه يريد أن يفتح كاراجاً لتصليح السيارات خصوصاً الألماني. عمّه ضحك وسأله لماذا الألماني؟ «سيارات المرسيدس تتعطل كثيراً لأنها عتيقة.» عمه ضحك وقال له إن هذا صحيح في حيّ العبد خصوصاً. ونصحه أن يدرس كثيراً وهكذا يتخصص في هندسة الميكانيك ولا يصلّح سيارات فقط بل طيّارات في المطار أيضاً.

*

«سابين تساعدني في البيت ولا تغضب اذا رأت بقع شحم على ثياب يونس وهي تغسلها. مع أن الشحم لا يزول عن القماش. أبوه رآه يساعد في كاراج نازو الأرمني وتركه. قلت له هذا الأرمني ليس آدمياً. نهرني وقال إن الصبي يتعلم مصلحة من دون أن يدفع قرشاً. الشارع من هنا الى دكان البوظة كلّه كاراجات. طلبت منه أن يبتعد عن أدوات التلحيم بالأوكسيجين لأنها تحرق ولأن شرارتها القوية تمنع النوم. ضحك مني. لماذا لا يساعد في دكاكين الخضار والسمانة، أو في محل تصليح الراديو إذا كان يحبّ الماكينات؟ أخاف أن أنظر الى داخل الكاراجات بسبب ضجة مطارق التصليح والعيون البذيئة التي تخرج فجأة من العتمة. حين خطفوا بولس صرت أمشي في الطريق بين أصوات الناس والبياعين ولا أسمعهم. وأقف عند محل الفليبر وأنظر الى الشباب ولا أعرف من هم مع أنهم يسلّمون عليّ بالإسم! الناس فوق بعضهم في البنايات عن الجهتين. وأكثر من النمل على الرصيف الضيق. السيارات متلاصقة في الشارع كأن السيارة تركب على السيارة. تلاميذ يخرجون إلى المدارس. شبابيك ملوّنة أحمر وأخضر. حيطان مطروشة أصفر. لكنها كلّها غريبة وسوداء والناس بلا وجوه. لو لم يرجع بولس كيف كنت سأربي الأولاد وكيف سأعيش؟ أم جان لا تعرف ما المهم. مع أن بيتها فوق بيت الست غابرييلا حبيب. كان كارل إبنها يلقي

التحية بتهذيب. ثيابه مرتبة وكتبه سميكة. أخواته جميلات لكنهن لسن مثله. في اليوم الأخير، حين ذهب ولم يرجع، لمحته لحظة وأنا عائدة من السوق. كان يخرج من بين البراميل وأكياس الرمل في مدخل البناية ويده ترتب شعره. قطع الطريق واختفى عن نظري. بينما أدخل إلى البناية ملأت أنفي رائحة كولونيا طيبة باقية في الجو.»

*

هذه الشقة الأوسع في الطابق السابع، لكنها ضيقة جداً إذا قارنتها ببيوت الطوابق الأخرى في البناية. شقة آل حلاوي المجاورة كانت مثلها في المساحة حتى قطعوها بجدار باطون قسمين وأضافوا حمّاماً ومجلى، وسكن محمود صالح وعائلته في قسم، وأخوه الأعزب عادل صالح في القسم الأصغر حيث حلّ لاحقاً الأستاذ أندريه موراني. الأخوان صالح كانا يعملان في المطاحن ولا يدفعان الإيجار لأن السيد أيوب العبد يحسم إيجارهما من الراتب الشهري. محمود صالح كان مراقب العمال ويلبس ثياباً أرتب وأنظف من ثياب أخيه ويأمره كأنه خادم عنده. مرات كثيرة رأته أم يونس يتأخر في مدخل البناية ولا يصعد منتظراً الكهرباء.



سابين تنام في غرفة واحدة مع أخوتها الأربعة. تملك صندوقين لها وحدها لأنها تحتاج صندوقاً مستقلاً لكتبها. أختاها (دعد وجولييت) تتقاسمان صندوقاً مشتركاً للثياب وهذا مصدر لمشاكل كثيرة تصدع رأس أمّها. يونس وجوزف مثل ورقتي الجوكر ولا علاقة لهما بهذه الخلافات الحدودية لأن الملابس لا تهمّهما ولأن الأم خصّصت لهما جاروراً في خزانة غرفة النوم حيث السرير الأعرض والباب الذي يُقفل من الداخل عند الضرورة.



في صندوق سابين كتب مدرسية وأخرى اشترتها لها خالتها من بسطات

اللعازارية التي تبيع كتباً مستعملة. إضافة الى كتب في علم الطب حصلت عليها بلا ثمن من أم يوسف. طبيب القلب والشرايين الدكتور شفيق شحروري وضع وهو خارج إلى فرنسا كرتونة مملوءة كتباً في مدخل البناية وأوصى الناطورة بتوزيعها هدايا على من يطلبها.

*

ختم الدكتور مطبوع على بعضها مع رقم تلفون عيادته في شارع عبد العزيز الذي تعرف سابين أنه موجود في المنطقة الغربية. كتب عربية لا تعرف لماذا اقتناها وهو درس في أوروبا وأميركا. لعله أراد أن يتعلم أسماء الأعضاء ووظائفها بالعربية كي يشرح الأمراض أحسن حين يسأله المرضى شيئاً. بينها كتاب يحمل إسمه الثلاثي (شفيق بيار شحروري) بخط يده. وتحت الإسم تاريخ: 5-6-1967. في هوامش الكتب ملاحظات بقلم رصاص (مفردات إنكليزية) وملاحظات بحبر أزرق. خطّان مختلفان. لعل الدكتور شحروري حصل عليها مستعملة.

«الفسيولوجي» للدكتور عبد الرحمن أحمد الرحيم، بغداد- 1968.

«قاموس حتي الطبّي».

«الإنسان: تركيب ووظائف أجزاء الجسم المختلفة» للدكتور عبد العزيز محمود، القاهرة- 1962.

«الموجز في التشريح العملي» لرومان، ترجمة محمد حسن عبد الحميد.

*

النافذة فوق السرير منزوعة الزجاج، يغطيها نايلون سميك يخفق عند هبوب الهواء. ألصقوا على النايلون جريدة (الخميس25-9-1975) لتخفيف حدّة الشمس. الحائط يتقوس هنا في نصف دائرة. أشعة الصباح تملأ المكان حتى الظهر وتستنبت شتلات حبق ومردكوش في تنكات سمن فيجتالين مملوءة تراباً. لهذا يُقال عن مدام الحويك في البناية ان يدها خضراء.

الجريدة اصفرّت وبدأ حبرها يتحلّل بسرعة قياسية. جنبها ملصق ملوّن لفرقة البيتلز البريطانية (جون لينون، بول مكارتني، جورج هاريسون، رينغو ستار) وُزع مطوياً مع ألبوم «يلو سابمارين» أو «الغواصة الصفراء» (1969) وحصلت عليه جولييت هدية من إحدى صديقاتها قبل أن تتعطل المدرسة. يمكنك إذا نزعت حذاءك أن تتسلق التخت لقراءة الإعلانات:

مطعم الدوار يقدم لكم
مع تشكيلة مازاته الشهية
المطرب عبدو ياغي والراقصة جيجي أحمد
مع نخبة من الفنانين
الأماكن متوفرة بلا حجز مسبق والأسعار مدروسة.

انتبهْ جيداً
كل يوم ثلاثاء رحلة الى قبرص على متن
اليخت السياحي «المتوكل على الله»
الأماكن محدودة
للحجز: شركة عز الدين الزعزع للسفريات.
المكتب: ميناء صيدا 720843 - مكتب بيروت: 316210.
المنزل: صيدا 720680
رحلات منتظمة ودائمة الى قبرص مرتين اسبوعياً.

الاشتباكات المتقطعة والتراشق المتفرق والقنص المستمر كانت أمس القاسم المشترك في جبهات بيروت الثلاث: السوق التجارية، الكرنتينا- المسلخ- الرميل، الناصرة- البرجاوي. فالسوق التجارية استمرت خالية إلا من متاريس المسلحين، وذلك نتيجة التراشق الذي حدث ليلاً بين محوري

اللعازارية والأمبير واستمر متقطعاً حتى الصباح. وساهم في خلو العاصمة من الحركة استمرار التوتر على مداخلها وزيادة أعمال القنص وحواجز الخطف على أساس الهوية. وعلى رغم الحذر شهدت بعض شوارع العاصمة بعض التجول خصوصاً من أولئك الذين نزلوا يتمونون واستفادوا من فتح المحلات في المناطق الغربية ورأس بيروت. وانتشر القناصة على سطوح بعض الأبنية وراحوا يطلقون منها النار في اتجاه الشوارع لشل حركة السير. وتعرضت سيارات قليلة حاولت المرور في منطقة رياض الصلح لجهة باب ادريس لنار فوقع فيها بعض الاصابات.

احراق نفايات: وكثرت النفايات في الشوارع نظراً الى تعذر نقلها في سيارات البلدية وأقدم عدد من سكان العاصمة على احراق هذه النفايات في الشوارع.

الخراب في السوق: وتفقد عدد من التجار المحلات التي نسفت ليلاً في سوق الطويلة وأماكن أخرى في العاصمة واستهولوا الخراب الذي شاهدوه. ومن المحلات التي نسفت مكتبة خاصة أرتور زامنيان في الطبقة الأرضية من بناية إيمّا صهيون في شارع ابن سينا. وتعرضت شركة سام للتجارة في شارع النهر والمعدة لبيع قطع السيارات للنسف والنهب من قبل مسلحين وكذلك شركة نقليات التعاون للتجارة والترانزيت في المرفأ ومطعم ابو خليل في شارع أوستراليا ومحلات نخلة ومحلات مساميري في سوق الطويلة ومحلات صلاح الدين عيتاني في شارع مار مخايل في النهر ومطعم أبو حبيب على طريق النهر وكاراج بويك ساكو في محلة النهر. وكان المسلحون نسفوا بناية قرب التعاونية الاستهلاكية في الخندق الغميق. وتوفي امس اميل خوري متأثراً بجروحه وهو الذي كان أصيب بالرصاص أثناء مروره قرب اللعازارية. وقتل مساء أمس حسن مهدي حلاوي (23 عاماً) على اثر إصابته برصاص في المحلات العمومية. وعثر في محلة السيوفي على ثلاث جثث

لمجهولين. ونقل الى مستشفى المقاصد من شارع فؤاد شهاب شخص يدعى خالد مجهول كامل الهوية وهو مصاب بطلقات نارية عدة وحاله خطرة. وأعيد أمس الشرطي طانيوس حداد الذي كان خطف في 22 أيلول عندما حاول شراء أطعمة في شارع محمد الحوت وهو مكلف حراسة منزل سفير فرنسا. وسمعت في أنحاء المدينة ليل أمس طلقات متفرقة مصدرها رشاشات ثقيلة وقذائف حارقة.

الناصرة- البرجاوي: جبهة الناصرة- البرجاوي أمضت ليلاً قاسياً لم تتوقف خلاله القذائف التي تساقطت في المنطقتين موقعة المزيد من الاضرار. وفي زقاق البلاط ادعى نوبار مامزيان ان مجهولاً ألقى متفجرة على محله المعد لتزيين السيدات في شارع الجزائر. وألقى مجهول آخر متفجرة على معمل ملبوسات في شارع الاوزاعي خاص بأرتين يغاستريان أحدثت أضراراً مادية. وفي المنطقة ذاتها ألقيت متفجرة على محل عادل نهرا لبيع الأسلحة. أما في المدور - الكرنتينا- المسلخ- الجعيتاوي فلم تهدأ الحال وظل التراشق طوال الليل لكنه ازداد بعد الظهر. وسقطت في الاولى والنصف بعد الظهر قذائف قرب كنيسة مار انطونيوس المارونية في الرميل. وفي الثالثة والنصف تعرضت الرميل لقصف مركز استعملت فيه الأسلحة الرشاشة وقذائف الآر بي جي. وأصيب المستشفى اللبناني في الجعيتاوي ببعض القذائف من دون أضرار. وسقطت قذيفة قرب مستشفى الروم وتوفي شاهين عفيف غريب متأثراً بجروحه وهو كان أصيب برصاصة قرب شركة الكهرباء منذ يومين. وسقطت في المسلخ قذيفتا هاون قتلتا امرأة وجرحتا فتاة، ونزلت قذائف قرب حديقة البلدية ووسط المسلخ أوقعت أضراراً.

معركة صغيرة: أطلقت نحو السادسة والنصف مساء قذائف صاروخية عدة في محلتي النبعة والاشرفية فسقطت قذيفة من نوع ار بي جي على معهد قوى الأمن المجاور لمستشفى الجعيتاوي وانفجرت وأصابت ثلاثة عناصر في قوى الأمن هم: الرقباء الأول جورج نجيم وزكريا كنعان ويوسف علاء

الدين وسبعة من رجال اطفائية بيروت هم: الرقيب ميشال قاعي والرقيب ايليا جبور والعريف جورج موصللي وايلي نكريس (حاله خطرة) وكمال نصار وشفيق الحايك وحنا سعادة وكانت جروحهم طفيفة ونقلوا الى المستشفى. وانفجرت خمسة صواريخ أخرى قرب مستشفى الروم وجنينة السيوفي بينها ثلاثة سقطت قرب مصلحة كهرباء لبنان في محلة مار مخايل من دون ان تلحق أضراراً تذكر. وأطلق مسلحون من تحت جسر بيروت الجديد النار على السيارات التي تقطع الجسر القديم في برج حمود ثم سقطت صواريخ في الرميل ومار مخايل، كما انهمر رصاص غزير من اللعازارية على ساحة الشهداء الساعة الخامسة والنصف.

وذكر مصدر في «فرقة النصر» في التنظيم الناصري- اتحاد قوى الشعب العامل ان مسلحين من الكتائب اعتدوا على منطقة المسلخ وقصفوا منازل هناك وان عناصر النصر ردوا على النار بالمثل وأسفر الاشتباك عن مقتل والدة نمر رابح وجرح عدد من أخوته. ونتيجة استمرار القصف على الاشرفية ردت المواقع الكتائبية في السابعة مساء الا انه في السابعة والنصف وبعد اتصالات اتفق على وقف النار وتم ذلك في الثامنة الا ربعاً. وفي الثامنة والنصف سقط رصاص على الرميل من جهة النبعة. وألقى مجهول متفجرة على محل فليبرز في المصيطبة يملكه جوزف طربيه أحدثت فيه أضراراً مادية.

النبعة- سن الفيل: لم يتوقف القنص أمس في مناطق النبعة وسن الفيل وبرج حمود وكمب طراد. وعاشت هذه المناطق جواً من القلق أبقى طرقها خالية وشوارعها مقفرة وسكانها في منازلهم. فليل الثلاثاء- الاربعاء استمر التراشق متقطعاً حتى الصباح وكان الرصاص ينهمر على المنازل ويصيب بعض سكانها. وزاد الوضع سوءاً انقطاع التيار الكهربائي عن تلك المناطق لفترات مختلفة خصوصاً في الشوارع الضيقة وزادت الحواجز المسلحة التي احتجزت مواطنين من الفريقين.

القناصة يبدلون أماكنهم: لم تتوقف أعمال القنص لليوم الثالث وتوزع القناصة في أماكن متغيرة هذه المرة بعدما تمكنت أجهزة الأمن بالتعاون مع الاهالي من تحديد مراكز بعض القناصة. لكن الدرك فوجئوا بتغيير مواقع القناصة وانتقالهم من سطوح رصدت الى سطوح أخرى صعب رصدها.

وخلال النهار سجلت في منطقة المكلس عمليات قنص متفرقة وتدهورت من جراء ذلك سيارة كوبر رقمها 32032 استقرت في بركة ماء قرب جسر الباشا وقتل فيها شخصان هما ماجد ميشال قطان وهوغيت استاز وقد نقلت جثتاهما بواسطة الملالات.

مخطوفون: على صعيد المخطوفين تمت أمس مبادلة عدد من هؤلاء كانوا عند الكتائب بآخرين احتجزهم القوميون الاجتماعيون في محلة ظهر الجمل في سن الفيل. وظلّ التجول حذراً وفي المساء حصل تبادل قصف بين النبعة والاشرفية وتوقف نحو الثامنة الا ربعاً.

جبهة الشياح- عين الرمانة: ليلة الثلاثاء- الاربعاء كانت هادئة على جبهة الشياح- عين الرمانة. ابتداء من مساء الثلاثاء وحتى منتصف الليل كان كل شيء يوحي بالتفاؤل. اطلاق الرصاص كان نادراً جداً فاستبشر الناس خيراً وخف القلق والتوتر والذين لازموا منازلهم طوال ايام المحنة ولياليها استراحوا وناموا ولو على خطوط النار. بعد منتصف الليل اطلقت قذائف معدودة من كلا الطرفين في عين الرمانة والشياح وكذلك في الليلكي وبرج البراجنة وحي السلم والحدث ورافقت القذائف رشقات من رشاشات 500 ورشاشات خفيفة. ومنذ صباح امس نشط القناصة كالمعتاد ونشطت الحواجز النقالة او الطيارة. القناصة كان صيدهم خفيفاً لان الناس كانوا امس أذكى وأحرص في تحركاتهم في كلا المنطقتين وفشّلوا خطط القناصة. وأمس اكتشف المزيد من الجثث في اماكن مختلفة. على مقطع السكة في فرن الشباك عثر على جثة رجل مجهول الهوية في العقد السادس من عمره.

من جهة أخرى نشط رجال الامن في مطاردة الحواجز النقالة والمفاجئة خصوصاً الحاجز الذي أقيم قبالة سبورت كولا. وحاصر هؤلاء عدداً من القناصة في فرن الشباك وقبضوا على عدد منهم.

جبهة الدامور- الناعمة: جبهة الدامور- الناعمة- حارة الناعمة سادها أمس هدوء نسبي رافقه بعض التراشق الخفيف من دون ان تقع اصابات. وقد عولجت بعض الاشكالات الا ان طريق بيروت- صيدا ظلت مقطوعة في الدامور. فترة بعد الظهر كانت هادئة وكان خلالها آمر فصيلة الدامور الملازم اول ايلي هاشم يجري لتصالاته بمختلف الطراف للحؤول دون وقوع اضطرابات وظلت قوات الدرك تؤازرها قوى من الجيش متمركزة في الأماكن الحساسة لمنع حدوث أي احتكاك بين الطرفين. وفي الثامنة مساء حصل تراشق بين الدامور وحارة الناعمة نتج عنه اصابة سيدة نقلت الى مستشفى المقاصد. لكن الجو ما لبث ان هدأ من دون مضاعفات.

الشرطي خوري: اما بالنسبة الى الشرطي ايلي خوري الذي غادر منزله في الدامور منذ يوم الخميس الماضي فقد ظل مصيره مجهولاً الا ان معلومات رسمية وردت الى اجهزة الامن تفيد ان الشرطي موجود في برج البراجنة وانه نقل الى صبرا. وأجرى آمر فصيلة الدامور اتصالات مع مركز الارتباط لتأمين اعادته سالماً. وما زال ذووه قلقين عليه وطلبوا من الذين يعرفون عن مصيره شيئاً الاتصال بالرقم 320698.

وعثر أمس على جثة رجل في العقد الرابع مكبل اليدين طافية على شاطىء السعديات وتعذر انتشالها كونها مهترئة.

تأجيل بدء الدراسة في الجامعة الأميركية: أعلن رئيس الجامعة الأميركية صموئيل كيركوود ان الصفوف للسنة الدراسية الجديدة في الجامعة لن تفتح الا بعد نهاية عطلة عيد الفطر وان التسجيل سيجري قبل ذلك اذا سمحت الظروف. وستعلن المواعيد المحددة للتسجيل وبدء الدراسة في اقرب وقت

ممكن. وينصح الطلاب بعدم الحضور الى الجامعة قبل اعلان المواعيد المذكورة.

53
آل عازار 3 – الطابق السابع

صار سعيد يخرج منذ الفجر ولا يرجع الى آخر الليل. والدته (ناجية عازار) حاولت أن تعرف أين يذهب. لكنه هرب منها. ليس الأول. أبوه راجي يهرب الى الحلاق: صادقه كي يقعد عنده طوال النهار يلعب طاولة. يثرثر مع زبائن يقصّون شعرهم. يقرأ جرايد ومجلات من دون أن يدفع قرشاً. حاولت أن تدبّر له عملاً. جالت بثياب مرتبة على صيدليات الأشرفية من بيرتي إلى كرم الزيتون الى السيدة الى السيوفي تقول زوجي كذا كذا وصيدليته على ساحة البرج. لكن الفشل لحق بها مثل ظلّها. سدّت عليه باب الحمام وهو يحلق ذقنه وقالت أنا زوجتك، الحلاق ليس زوجتك، لماذا لا تقعد لحظة في البيت؟ لكنه ناور وهرب. إبنته كلوديا من قبله: تهرب منها وهي قاعدة أمامها، تفرّ داخل رأسها. منذ زمن طويل وكلوديا هكذا. من قبل أن يتهجروا من جوار الكرنتينا. حين جاء أبو سعيد معفَّر الثياب لاهثاً من تسلق الدرج الى السابع، وقال أخيراً ان البيت اختفى والشارع القديم كلّه اختفى وجميع بيوت الخشب والصفيح حد معمل السليب كومفورت جرفوها وحتى أشجار الصفصاف والحور قلعوها مع أنها أقدم من المخيم وحتى البنايات المجاورة زنروها بالديناميت ونسفوها، حين دفق منه الحكي في النهاية لم تبكِ إبنتها الكبرى. ظنّت أم سعيد أن كلوديا صارت أقوى منها! حتى هي، المشهورة برباطة الجأش عموماً، بكت. قبل أن يتكلم خافت أن يكون حدث شيء لإبن خاله، فهو أحبّ خاله دوماً أكثر من المقبول. جلس بلا كلمة ساعات

وساعات وهي تطارده بالأسئلة وهو كأنه أبو الهول لا ينطق.

*

أخفت كلوديا عازار سرّها طويلاً. المرة الأولى كانت إغتصاباً. قاومته لا لأنها عذراء فقط، ولكن أيضاً لأنها كانت مريضة وفي دورتها. قال وليد أشياء فظيعة لا تريد أن تتذكرها ولم تتخيل يوماً أنه يمكن أن يلفظها. تقاربا بعد وقوع صاحبها أيمن عن سطح البناية في حيّ الكرنتينا وهو يبرم «الأنتين» (الهوائي). ساعدها وليد على تحمل الحزن. كان بيته في الزقاق ذاته في الحيّ القديم وحين بدأت الحوادث أخبرها أنهم سينتقلون إلى منطقة الحمرا. أهله يساريون. أخوه الكبير جورج أصابته إسرائيل في فخذه على حدود الجنوب. أرسله أبو موسى للعلاج على نفقة الثورة في بلغاريا. عاد من هناك قافزاً على ساق واحدة. كانت تراه حين تزور وليد كي يدرسا معاً للبكالوريا، وهو قاعد على الشرفة رافعاً قدمه الباقية على كرسي قش صغير بلا ظهر (كرسي شامي) يلف تبغاً في وريقات بيضاء خفيفة ويمسحها بطرف لسانه كي تختم جيداً على الحشوة. ثم يشعلها بعود كبريت. يده تحتضن الشعلة وتحميها من الهواء. وجهه يميل. كان شديد اللطف ودائماً يتكلم معها بصوت هادىء ويقول إنه لا يشعر بساقه المبتورة ولا تضايقه مع ان الدكاترة في صوفيا أخبروه أنه سيظل يشعر بها طوال سنوات. كان أخضر العينين مثل وليد لكنه أجمل منه وشعره غزير قوّي السواد يلمع كأنه مدهون زيتاً. تمنّت أن تبقى على الشرفة وأن تنظر إليه وهو يسمع أم كلثوم في إذاعة القاهرة ويدخن كأنه يصلّي في كنيسة. لم تنزعج حين قال وليد ان البنات أكثر من الذبان حول أخيه لأنها لم تفكر في جورج بتلك الطريقة: أحبّت فقط صوته وإيماءاته وكيف لم يتحطم مع أنهم بتروا ساقه من فوق الركبة. كانت تخشى أن يسقط عن الكرسي وهو ثابت هكذا وشبه متأرجح ولا تعرف كيف يتصرف وحده في الحمام. حين رأته في الطريق يقفز معتمداً على عكازين خشب تجنّبت أن يلمحها. كان يحكي مع مارة رافعاً صوته أكثر من الضرورة وهو يبادلهم المزاح. وقف ينظر الى أطفال

شبه عراة يلعبون فوتبول في الزقاق مستخدمين طابة مثقوبة ثقيلة لا تتدحرج. علقت الطابة في بركة مياه متسخة. خاضوا في المستنقع. سقط أحدهم وهشّم ركبته. كلّمه جورج حين رآه يبكي. الأولاد ضحكوا وتحلقوا للنظر الى الفخذ المبتورة. اضطربتْ وابتعدت لئلا يراها آخرون وهي تراقبه. كانت ساق البنطلون مقصوصة وطرف القماش مطوياً ومقفلاً بالدبابيس. عرفت أنه يفكّ الدبابيس. قلبُها ظلّ يخفق وهي تتخيل الوجوه الصغيرة المتجمدة في دائرة. أكثر من مرة أرادت أن تترك الدرس وتخرج للجلوس معه. كانت تعرف أنه موجود من صوت الراديو. ودّت أن تخبره أشياء وأن تسأله ماذا يعتقد. شعرت بحاجة عميقة الى هذا. لم ترَ أيمن ميتاً. وليد أخبرها. وصفه ممدّداً على ظهره في التابوت في بذلة أوسع من قياسه وجروح وجهه ظاهرة. طوال شهور بقيت تبكي كلما التفتت الى مكانه الفارغ في الصف. وضعوا على الكرسي كتباً ودفاتر كانت له، وعلى الطاولة مزهرية ظلّوا يبدّلون فيها الورود، وصورة بالأبيض والأسود حصل عليها وليد بعد المأتم. لم تذهب إلى دفنه مع أن أمّها قالت لها اذهبي، روحي مع رفيقاتك، أحسن لكِ! كان يمت إليهم بصلة قربى بعيدة وأمّها تحبّه وأحياناً تقول لها قولي له أن يخطبكِ. دفنوه وهي في البيت تنظر إلى رسائل كتبها لها. كانت تعطيه دفترها أثناء حصة الفيزياء لأنها تكره تدوين المعادلات وفي آخر الحصة يردّه لها وقد كتب فيه بدلاً من ملاحظات الأستاذ قبلان رسالة غرامية أو قصائد هجاء مكسّرة الأوزان في أستاذ الفيزياء ذاته. كانا متحابين وحين اختفى أعانها وليد. لم تنتبه أنه يتغيّر. ظلّت تعامله معاملة شبه أخوية. ناداها وهي مسرعة في الطريق وصعدت لحظة كي تأخذ كتاباً. كان وحده في البيت. أصرّ عليها أن تبقى وتشرب معه قنينة بيرة. قالت لا أقدر الآن. كانت متعبة وتشعر ببرد وصداع وفي حاجة الى كوب من اليانسون الساخن والى التمدد في فراشها مع مجلة أو قصة. لكنه بدأ يرتجف كأنه سيبكي. وسدّ عليها الباب.

*

لم تفهم من أين جلب القوّة. ولا كيف استولى عليها الضعف إلى هذه الدرجة. صدمها. غرقت في المستنقع حيث يدحرج الأولاد طابة ويتمدد أيمن برقبة مكسورة. حاولت أن تبعده بركبتها. بينما يقتحمها أظلمت عيناها. حين انتهى منها وقام عنها شمّت رائحة غريبة. لم تعرف أنها رائحة البحر إلا حين تناثرت عليها حبّات الرمل. ناولها منشفة صفراء ضخمة رأتها من قبل منشورة على سلك الحديد على الشرفة. لم تعرف ماذا تفعل وهي تنظر إلى الدم. هل يريدها أن تمسح آثار الجريمة؟ أمسك بيدها. صارعته من جديد وجربت أن تؤذيه بضربات على الوجه لكن جسمها لم يطاوعها. كانت محطمة مبعثرة بلا طاقة. ظنّت أنها ستموت. أن النزف لن يتوقف هذه المرة. لم تشعر بالنار إلا في اللحظة الأولى. كأنها تحترق في مركز وجودها، كأنه غمّسها في الأسيد. ثم تلاشى الألم في بركة من الخزي اللانهائي كأنها هي من اغتصب كلوديا عازار إبنة الصيدلي.

*

الكتب المفتوحة على الطاولة. الأوراق التي تغطيها معادلات الجبر ورسوم التريغونمتري. المثلث القائم الزاوية. قاموس «المورد». كرة الأرض الزرقاء والخضراء مائلة على محور رفيع معدن. لمع ضوء على منفضة. عند طرف بصرها تحرك شبح قاتم. خشخشة علبة كلينكس. ثم النايلون يتمزق. ومن الخارج – وراء شقوق الأباجور – زمامير السيارات في الطريق. وضجيج الكرنتينا. كأن العالم لم يتغيّر.

*

لم يدعها تخرج. قادها إلى الحمام وملأ سطلاً بالمياه. ماذا يريد؟ أخذ منها كل شيء. وتركته يأخذه. ماذا يريد بعد؟ ألن يتركها تذهب؟ لم تنتبه أنها ما زالت تبكي حتى أنهت إغتسالها. الألم عاد فجأة حارقاً مسنوناً كأنه نسي شفرة فيها. تحركت صوب الباب والشفرة استدارت بين فخذيها، في

الداخل، ومزقت قطعة من مصرانها. سالت على البلاط وشدّت على نقطة الألم وبقيت مكومة هكذا على البلاط على جنبها.

*

صوته وراء الباب، مبحوح، شبه هامس. يسألها هل انتهت. لم تفهم كيف صار هكذا. لم تفهم كيف يتحمل. يتحمل ماذا؟ بحثت في البركة القاتمة عن خشبة تتمسك بها كي ترتفع وتعوم من هنا إلى فراشها. إلى غرفة صارت أبعد من نهاية العالم، مع أنها هنا، في طرف الطريق. لم تجد إلا الرطوبة والنار التي تحرق الرطوبة ويدها التي تنزلق كالسمكة على البلاط والألم الذي يكبّل رأسها. لم تصرخ لأنها ظلّت عاجزة بلا قوّة. استعانت بحافة المغطس ووقفت. الستارة بيضاء مبقّعة بدوائر برتقالية، رأتها من قبل، لكنها الآن غريبة. لم تنظر إلى المرآة فوق المغسلة.

54
آل سمعان 3 – الطابق الثاني

ألبر سمعان عرف أنها من سكان الطابق الفوقاني. قبل أن يتعطل المصعد رآها مرة محملة بالأكياس تحاول أن ترفع يداً كي تكبس الزرّ. «أي طابق؟» سألها. قالت «السابع»، وهو كبس الزرّ 2 عميقاً وانتظره كي يعلق لأنه يُفلت أحياناً، ثم كبس الزرّ 7. لم ينظر إليها ولم يحفظ ملامحها، لكنه تذكرها لاحقاً حين هزّت كتفه كي يستيقظ لأن القصف توقف والجميع يغادرون الملجأ. في مرة أخرى، قبل شهور قليلة، قبل أن تأخذ زوجته الأولاد وتسافر الى ليماسول، التقاها على الدرج وهو صاعد أول المساء وهي نازلة. كان مبلولاً بالمطر لأن الريح كسرت الشمسية. ردّ تحيتها. لمح وجهها. مرّت كالنسيم. رائحتها صابون بلدي. نسيها قبل أن يدق جرس بيته.

*

لم يتعود على البيت فارغاً بعد. ولا يريد أن يتعود. تكلّم مع ريما على التلفون وقالت ان ليماسول ملآنة لبنانيين وانها التقت أستاذه صدفة في السوبرماركت.

«أي أستاذ؟»

«نسيت إسمه. أستاذك من المدرسة. الذي جاء إلى إكليل زواجنا.»

«كلّهم جاؤوا.»

«جاكوب يسأل عنك كل ليلة قبل أن ينام. يقول أبي لا يحبّنا. لماذا لا تأتي؟»

*

الغرفة المضيئة التي جعلها مكتباً. على الطاولة نصف المستديرة لصق الحائط المقوّس تستقر منفضة حجرية بين خرائط هندسية مفروشة ولفّة ورق «كربون» يترك أثراً على الأصابع. مساطر كثيرة مختلفة الأشكال وبيكار عملاق وآلة حاسبة ترافقه منذ سنوات مع أنه لم يشترها: عثر عليها في كافيتريا البوليتكنيك وجلبها معه من زيوريخ. كوب عليه طبعة برج إيفل يحمل أقلام الفحم والرصاص والبيك والستيلو. مبراة سوداء ألمانية مثبتة بالبراغي إلى حافة المكتب. مصباح ينزلق على سكة. ممحاة على شكل هرم. خريطة أثرية مبروزة حد الباب لبيروت ما قبل تشييد جسر فؤاد شهاب، مؤرخة في الأسفل (1954). على الحائط المقابل روزنامة ملوّنة (12 صورة) نادرة لأنها طُبعت عشية الحرب ولم توزع. أصدرتها نقابة المهندسين متأخرة أربعة شهور بسبب خلافات مضنية، متوقعة و»مفهومة» (كما قال صديقه جوزف) لكنها غير ضرورية، لو أن المهندسين يعرفون المستقبل: ترمد القسم الأكبر من نسخ الروزنامة (مع عدد جديد من «مغامرات لولو وطبوش المصوّرة») مرصوفاً جنب الحائط في حريق مطبعة عين الرمانة.

كانون الثاني (يناير) 1975: صورة بناية بركات (1924) على تقاطع

السوديكو- الناصرة. هندسة يوسف أفتيموس (1866 - 1952). أنجز أيضاً مبنى بلدية بيروت (1933).

شباط (فبراير) 1975: صورة مبنى البرلمان (1931) في ساحة النجمة- وسط بيروت. هندسة مارديروس ألتونيان (1889 - 1958). أنجز أيضاً مصح العزّونية (1937).

أذار (مارس) 1975: صورة قصر اليونيسكو (1947) في منطقة اليونيسكو- الكولا. هندسة فريد طراد (1901 - 1969). أنجز أيضاً فيلا كتّانة (1949).

نيسان (إبريل) 1975: صورة مركز اللعازارية التجاري (1953) في شارع الأمير بشير. هندسة الفرنسي أندريه ليكونت (1894). أنجز أيضاً مطار بيروت الدولي (1954) في خلدة غرب بيروت ومستشفى رزق (1957) في الأشرفية.

أيار (مايو) 1975: صورة دار الصيّاد (1954) في الحازمية. هندسة البولندي كارل شاير (1900 - 1971) الذي لجأ إلى لبنان بعد الحرب العالمية الثانية. أنجز أيضاً مبنى الألوميناي (1952) في رأس بيروت لخريجي الجامعة الأميركية.

حزيران (يونيو) 1975: صورة الكوليج بروتستانت (1955) في شارع مدام كوري. هندسة الفرنسي ميشال ايكوشار (1905) صاحب مخطط بيروت العام (1943).

تموز (يوليو) 1975: صورة الهوليداي إن (1974) في منطقة الفنادق. هندسة الفرنسي أندريه وجنسكي (1916) مساعد الشهير لوكوربسيه. أنجز أيضاً بالإشتراك مع موريس هندية مبنى وزارة الدفاع (1968) في ضاحية اليرزة شرق بيروت.

آب (أغسطس) 1975: صورة سينما روكسي (1932) في ساحة البرج.

هندسة الياس مر (1884). أنجز أيضاً فيلا بسّول (1935) في الرميل.

أيلول (سبتمبر) 1975: صورة سنتر صالحة وصمدي (1969) في وسط بيروت. هندسة جوزف فيليب كرم (1923). أنجز أيضاً مجمع أكوامارينا (1971) شمال بيروت.

تشرين الأول (أكتوبر) 1975: صورة ستاركو سنتر (1957) في وسط بيروت. هندسة السويسري جورج آدور (1920). أنجز أيضاً القصر الرئاسي (1965) في بعبدا.

تشرين الثاني (نوفمبر) 1975: صورة معمل بيرة ألماسة (1933) في البوشرية شرق بيروت. هندسة أنطوان تابت (1907 - 1964). أنجز أيضاً بالتعاون مع الفرنسيين الثلاثة جاك بواريه وجورج بورديه وأندريه لوت أوتيل سان جورج (1932).

كانون الأول (ديسمبر) 1975: صورة بنسيون بياتريس (1937) في ساحة الشهداء. هندسة اليوناني نيكوس غريغوريوس (1882 - 1938). أنجز أيضاً أوتيل لوكس (1934) في شارع اللنبي.

*

التقاها بعد أيام على الدرج. هذه المرة تكلّم معها. عرّفها بنفسه. أخبرته أنها تعرف المدام زوجته وتعرف من يكون. «أنا كلوديا عازار، بيتنا على السابع.» سألها ماذا تدرس. نظرت الى الكتب التي تحملها ثم أخبرته أنها سنة أولى حقوق في الجامعة اللبنانية. قبل أن يقول شيئاً سألته عن المدام والصغار، هل هم بخير في قبرص؟

55
آل عازار 4 – الطابق السابع

اختفى سعيد عازار. ظنّت أمه أنه سيرجع كالعادة في آخر الليل، لكنه هذه المرة لم يرجع. لم تدع أحداً ينام، لا زوجها ولا أولادها. أيقظت بناتها الثلاث واحدة واحدة وأخبرتهم أن أخاهم الكبير لم يرجع بعد. انتقلت الى فرشة شربل (هو طلب النوم على الأرض مع أن سعيد أراد أن يعطيه السرير الحديد الذي يطويه حين يقوم في الصباح) وهزّته بألطف طريقة تتخيلها. استيقظ مذعوراً لأنها تتحرك مثل الإعصار. سألها هل بدأ القصف؟ «لا، أخوك.» سألها ما به سعيد؟ لم تقل. أبوه كان واقفاً في الباب يحمل شمعة. عرف من وجهه المصفرّ أن شيئاً سيئاً قد يكون وقع. لكن أخته كلوديا قالت: «سعيد تأخر وبالنا مشغول عليه... هل أخبرك أين يذهب؟» نظر اليها وهو يفرك النعاس عن رموشه. كان في الثامنة (اذا سألوه في الطريق يقول «عمري تسعة» أو «عمري عشرة») وكان المفضل عند أخيه ويخبره كل شيء. شعر أنهم يريدون منه أن يخون سعيد. كان الجواب كلمة واحدة («الأسواق») لكنه قال لا أعرف. صمد ليلة كاملة. في الصباح، وأمه تبكي والجارات أيضاً بدأن البكاء متجمعات أمام الباب المفتوح على صحن الدرج، أخذت قوّته تخونه. لأنهم منعوه من النوم! كانت أخته هناء تحوم حوله وتحاول أن تكشفه بنظرتها التي تكشف مخابىء أصابع «الكندر» حتى لو أخفاها في أصعب محل. هذه أطيب شوكولا عنده محشوة كريما وأخوه يجلبها له بالسرّ. لا يأكلها كلّها دفعة واحدة لأنه في إحدى المرات أكل كثيراً وصارت بطنه تؤلمه. ظنّ أبوه أنها الزائدة التهبت وتريد أن تنفجر. أخذه الى العيادة. لم يكن قبل ذلك يظن أن الأكل يمكن أن يسبب المرض لأنه اعتبر دائماً أن الجوع هو سبب المرض. والبرد. وماء الكرنتينا الذي يربى فيه الدود. الطبيب أخبره

أن هذا غير صحيح، اذا أكل أكثر من قدرته بالتأكيد سيمرض. كان هذا جديداً بالنسبة إليه (الأكل الكثير) ولم يتحقق بانتظام تقريباً إلا مع غزوات سعيد الأخيرة. أمه لم تكن تسمح له أن يأكل هكذا. مع أن علبة البسكويت «غندور» ملآنة! وعلبة راحة الحلقوم نصف ملآنة! كانت تخفيها عنه أو ترفعها فوق البراد أو فوق «النملية». وحين صار قادراً على بلوغها بتسلق الكرسي ثم بتسلق السلم نقلتها الى مخابىء أخرى. الطبيب أوجعه وهو يفحصه. لم يفهم كيف يمرض من الأكل لأن سعيد يأكل أكثر من مئة رجل ولا يمرض أبداً. لم يخف وهو ينظر الى الوجوه الباكية. يعرف أن سعيد سيرجع حتى لو تأخر. جاءت إحدى الجارات وأعطته كوب حليب. شربه ونام على الكنبة. فتح عينيه ورأى أخواته مجتمعات عند النافذة الجديدة وهناء تهمس شيئاً في أذن كلوديا، ودارين تراقبه كأنها تنظر الى قلبه. الأصوات تمنعه من النوم ويخاف أن يقول شيئاً وهو نائم. مرات يتكلم في نومه. سعيد كان هكذا وهو أصغر وأمّه اكتشفت أين خبأ أدوية سرقها من الصيدلية. «تسرق من أبيك؟» قال لها الصيدلية ليست لأبي. ضربته على أذنه وشدّت شعره حتى بكى وبعد ذلك لم يسرق من الصيدلية. لكنه ظل يسرق من المحلات ويجلب له علب الخردق و»الكبسون» الأحمر مع أنه لا يملك المسدس اللعبة الصغير ولا بارودة خردقة. كان يخطف أي شيء تطاله يده لكن شربل طلب منه أن يسرق فقط ما ينفع لأن المخاطرة هكذا لن تنفعهما أبداً. رأى كلوديا تدنو وشعر أنه ضعيف ولا يقدر أن يصمد طويلاً اذا بدأت. نادراً ما تتدخل معه. تدافع عنه وتبعد هناء اذا أرادت ضربه. دارين لا تؤذيه إلا بالكلمات. ترفع وجهها عن كتابها وتقول جملة واحدة يندم بعدها أياماً طويلة. لكن هناء لئيمة ويدها عظم واذا وقعت من النافذة الجديدة وكسرت رأسها على سطوح التنك في الأسفل لن يبكي كثيراً. سينام بعد ذلك على سريرها. لكنها لن تقع لأن أباه تساعد مع سعيد ومع السمكري زغلول وركبوا ثلاثة قضبان على النافذة التي فتحوها في الحائط كي يدخل هواء البحر. أمه شهقت حين ثقبوا الحائط

لأنها رأت الجبل الذي تعرفه، جبل الزبالة حد الكرنتينا: «لكن أين البيوت؟» أبوه ردّ:» جرفوها. قلت لكِ. لم يبقَ كوخ واحد!» شعر شربل عازار بألم في صدره بينما أخته الكبيرة تجلس جنبه على الكنبة. عرف أنها ستبدأ. قبل أن تفتح فمّها أقرّ بالحقيقة.

*

ذهب راجي عازار الى بيت الكتائب وسأل عن إبنه سعيد. أخبروه أن إسمه غير مسجّل. أعطاهم الأسماء والمعلومات التي باح بها شربل. دلّوه الى مركز حراس الأرز. كان يبعد زقاقاً واحداً. في الباب سأل فتى في سنّ إبنته الصغيرة هل يعرف سعيد عازار؟ كان قاعداً على صندوق خشب، ينظف قطعة كلاشينكوف برقعة مزيّتة وهو يدخن سيكارة. مع أنه أصغر من هناء. وذقنه لم تنبت بعد. نفخ الدخان في وجهه.

«من؟ طوطو؟ ليس هنا. نزلوا الى البلد.»

«طوطو؟ لا، أنا أسأل عن إبني. إبني سعيد، سعيد عازار، أعرف أنه يأتي الى هنا.»

«طوطو عازار إبن الصيدلي. ماذا تريد منه؟ سأخبره أنك سألت عنه.»

56
آل رزق 4 – الطابق الرابع

«أوتيل فيكتوريا، 11 هاربور رود،

سيدني- نيو ساوث ويلز- أستراليا

بتاريخ25-2-1976

أبي العزيز، أمي الحنونة، أخوتي الأحباء

تلفونكم كان أجمل هدية في عيدي. لن تصدقوا كم فرحت بسماع

أصواتكم جميعاً. قلبي قال لي ستتصلون ولم نخرج بسبب ذلك. حزنت لأن أمي بكت لكنه قلب الأم وأعرف. أنا يا أبي دائماً أفكر في نصائحك. أدرك تماماً أنك لا تفكر إلا في مصلحتي. لم يزعجني ما قلته أبداً. بل العكس: جعلني أفكر أكثر. وأيضاً سمعت ما قالته سارة على أنه نصيحة أخت تحبّ أخاها وتحمل همّه. لا أريد أن أكتب كثيراً عن هذا لأنني سأتلفن لكم قريباً كي نتناقش. أسهل عليّ الحكي من الكتابة في هذه الأمور. أضحكتني يا رامي بقصة الموز حتى دمعت عيناي وصار راجح ابن خالك يريد مقاطعة التلفون كي يعرف ماذا تخبرني وماذا يضحكني الى هذا الحد. أرجوكم لا تنسوا إرسال صور، خصوصاً صورة رامي. أنا غبي وكان يجب أن أجلب الصور معي. أعرف، لكن كل شيء حدث بسرعة وحتى الآن أشعر بالغرابة في الليل وأنا أضع رأسي على المخدة كي أنام هنا بعيداً عنكم آلاف الكيلومترات. مرات أشعر بحرقة لأنني أريد في اللحظة ذاتها أن أنتقل الى بيروت وأن أطلع الدرج الذي أحبّه وأقرع عليكم الباب وأقول حين تسأل رولا «من؟»، «أنا كريم يا أختي، افتحي!». لكنني بدأت أتأقلم. أعمل بنصيحتكم وأحاول ألا أسمع أخبار لبنان في الراديو والتلفزيون. لكن أحياناً لا أقدر. عملي جيد يا أبي. ليس صعباً كثيراً ونحصل على عطل. ذهبت أنا وراجح وخالي في رحلة بالقطار الى مدينة ملبورن. سيدني في نيو ساوث ويلز لكن ملبورن في فيكتوريا. خالي أكمل من هناك طريقه على السكة لكنني أنا وراجح بقينا يومين في ملبورن عند أصحابه. عليكِ يا رولا أن تأتي الى هنا لرسم اللوحات! كل الوقت وأنا أنظر من نوافذ القطار الى المناظر الطبيعية كنت أفكر فيك وأتخيلك مع قماقم التلوين وفنجان الريش و«السيبة» التي تعلقين عليها القماشة. رأيت شلالاً. ورأيت جبلاً من الصخر الأحمر. أحمر مثل الدواء الأحمر الذي نضعه على الجروح. طلبت من راجح أن يأخذني الى متحف ملبورن وضحك مني. أخبرته عن اللوحات التي رسمتها أنتِ من

شرفتنا لجلّ المشمش الأخير الباقي في حيّ العبد وهو ملآن بالزهور في فصل الربيع. ضحك أكثر، لكنه أبله، وأنتِ تعرفينه. بلى، أنا كنت مثله، لكنني هنا وأنا أحاول أن أتذكر وجوهكم كي أتقوى أتذكركِ قاعدة على البرندا في الشمس وقنينة التربنتين (التي يقاتل رامي كي يشمّها) على البلاط جنبك مسدودة بالفلين والقماش. وسارة تنده لكِ من المطبخ كي تقشري البطاطا لصينية الدجاج. وأمي تضحك وهي تخيّط (لابسة النظارات) وتقول» اتركي أختكِ ترسم لنا الزهرات يا سارة!». في ملبورن أخذني راجح الى حديقة قريبة من النهر تنبت فيها أشجار عجيبة لا أعرف كيف أصفها لكم، وكلّها أشواك وزهور مكبّسة بلون الشمّام وعلى جذعها دوائر غريبة كأن أحدهم ختم عليها هذه الدوائر. وفي فصل الشتاء (حين يقوى البرد والمطر وهنا الطقس أبرد من سيدني) لا تقع زهورها لكنها تتخشب ويصير لونها مثل الحبر الأزرق الغامق. راجح أخبرني أن خالي إبراهيم حين مرض في صدره سقوه دواء يصنع من لحاء أو قشرة هذا الشجر وهكذا شفي من جديد. اشتريت كتالوج الحديقة وسأرسله لكم. انظري يا رولا الى العلامة التي وضعتها على الصورتين في صفحة 6 و11. هذه الشجرة ذاتها في فترتين من السنة. هناك رجل يسمّونه «بوتانيست» يختص في الجامعة بهذا العلم (بوتاني) ولا يفعل في حياته شيئاً غير دراسة النبات والاعتناء بهذه الأشجار التي لا وجود لها إلا في أستراليا. رأيناه في الحديقة يتجول مع تلاميذه ويسألهم عن أسماء الأشجار باللغة اللاتينية. كان أحدهم يغش وينظر الى القطع الفضة المطروقة في الجذوع وعليها الأسماء. هذا مثلك يا رامي! راجح أيضاً ينام اذا فتح مجلة أو كتاباً. أعطونا في الأوتيل دفاتر جديدة فيها ارشادات وتعليمات وينتظرني الآن كي أقرأها وأشرحها له باختصار مع أنه هو الذي يحكي مثل البلبل بالأسترالي! لكن لا تظنوا ملبورن جنينة! ليست أكبر من سيدني لكنها مثلها ولا يمكن أن تعدوا عربات الترامواي فيها ولا الناس ولا الكنائس. القطار تحت الأرض

وفوقها والمحطات ملآنة مطاعم وسينما ودكاكين بأدراج مثل ستاركو سنتر عندنا لكن أكبر بكثير. زرنا يا أمي سانت بول الأنكليكان وزرنا سانت باتريك كنيسة الروم الكاثوليك وكان المفروض أن نذهب من محطة سبنسر ستريت الى كنيستنا (مار مارون) في ضاحية كانتربري لكن راجح ضيّع في الطرقات ثم تحجّج بضيق الوقت وقال مار مارون بعيدة وأفضل أن نقصدها خصيصاً في رحلة أخرى وتكون معنا الكاميرا (سيستعير كاميرا) وهكذا نرسل لكم الصور. ونحن في ملبورن عند أصحابه تلفنت إميلي من سيدني وعرفنا ان جاين مريضة وأدخلوها المستشفى وتحسنت. جاين عندها حالة طبية نسيت أن أخبركم عنها: مرات يخفق قلبها بسرعة شديدة جداً، خصوصاً اذا لم تأخذ حبّة الدواء التي تنظم دقّات القلب. المهم هذا كان الشيء الوحيد غير الحلو في رحلتنا. كما ترين يا أمي أنا بخير وأعتني بنفسي ولا أقضي الوقت باكياً كالبنات كما يقول أبي (أنا أمزح يا أبي ولا أقصد أن أسخر واذا كنت أسخر قليلاً فمن نفسي أولاً لأنني أنا من شغل بالكم بتلك الرسالة). بالنسبة الى رفاقي الذين يتصلون بكم ويسألون عن عنواني ورقم تلفوني يهمّني ثلاثة فقط: نعيم راسي ونقولا حداد ومخايل باسيلي. الباقون لا تهتموا بهم. بدأت فعلاً أتأقلم على جو أستراليا والآن عليّ أن أترككم لأن الوقت تأخر وراجح تضايقه اللمبة.

ملاحظة أخيرة تهمّ سارة: أكلنا في ملبورن سندويشات سمك شهية. ودعانا ماركو صديق راجح الى مطعم إيطالي صغير في سفينة قديمة راسية في طرف المرفأ وأكلنا سباغيتي نابوليتانا بصلصة حمراء، بندورة وثوم ولحمة وطعم آخر غريب قليلاً لم أحزر ما هو، تشبه المعكرونة التي تعدينها أنتِ بالفرن لكن بلا الكعك المطحون والجبنة. لن أخبركِ أيها الأطيب! راجح طلب معكرونة بالقريدس ولم يحبّها!

57
آل ثابت وشرارة 6 – الطابق الأول

خرج موسى ثابت من المدرسة والبيت معاً قبل أن يأخذ الشهادة الثانوية. كان شبيهاً بأبيه العسكري، شكلاً وطبعاً، ودائم العراك معه. لكن المعركة الأخيرة الحامية التي أخرجته من البيت في ذلك الصيف لم تقع مع أبيه بل مع أمه وأخته. اعتبر أنهما اتحدتا ضدّه لا حبّاً به بل كرهاً بالمصلحة التي وجدها (النجارة) وكرهاً بالمعلم مرقس صليبا الذي أخذه تحت جناحه. الأب رفع يديه من المسألة لأنه ملّ العراك مع بكره التيس الذي لا ينفع معه العلم ولا يقبل نصيحة. اجتمعوا على المائدة في غرفة السفرة يشربون عرقاً مبرداً بالثلج ويأكلون تبولة بورق عنب. كان الورق لمّاع الخضرة صغير الحجم طرياً وحامضاً قليلاً لأنه نبت جديد. إيلي قضى منفرداً على نصف «جاط» الكبّة النيئة. تركته أمه يفعل ذلك لأنها خبّأت صحناً آخر في المطبخ لأبيه. أربعة كؤوس عرق على الطاولة: الأب والأم وليديا وموسى. إيلي ما زال يشرب البيرة. وطوني لا يشرب غير الكولا. برناديت شيحا ثابت لم تفهم ماذا حدث لإبنها الكبير في رأسه كي يتعلق هكذا بفأرة النجارة والمنشار المسنن و«متر» القياس. صار يضع قلم الرصاص القصير وراء أذنه! وقبل أن يدخل تسبقه رائحة الصمغ! تحملت ذلك في عطلة الصيف لأنها عطلة ولا دروس عنده. ثم أسقط على رؤوسهم هذه القنبلة: لن يكمل البكالوريا وسيعمل في «منشرة صليبا».

*

سكن غرفة في مؤخرة المنشرة. كان المكان رطباً عليل الهواء طيب

الرائحة. علّمه النجّار مرقس صليبا أن يفهم الخشب. وجد هذا العلم سهلاً مع أنه صعب. أحبّ كيف تتكوّم النشارة تدريجياً تحت الطاولة. حين تعلق بأسفل بنطلونه المطوي لا ينفضها غاضباً كما يفعل الزبائن. يده اكتشفت بيسرٍ سرّ المهنة: أن تساير الخشب. لم يكسر لوحاً مرة واحدة. أول كرسي صنعَه تحمّل ثقله حتى قبل أن يطرق المسامير فيه. كانت القطعة الذكر تلتحم بالقطعة الأنثى إلتحاماً كاملاً لا يبين معه فاصل أو خيط ضوء حتى لو حملت الكرسي الى الشارع وقطعت الى الجانب البحري المضيء حيث لا يصل الظلّ القاتم لبناية الريفولي. تحت المصابيح الوهّاجة في قبو العقد الأخضر الأبواب شعر موسى ثابت أنه سيد حياته. حين أتى أبوه في زيّ الجيش ووقف بجزمته على طبقة النشارة ينظر إليه ممدداً على جنبه ساعة القيلولة، أحسّ موسى بخوفٍ غير محدد الشكل لكنه حقيقي جداً ويمكن أن يقودك إلى جريمة. خفق الدم في رقبته التي سخّنها النوم. لكن عزيز ثابت تكلم بصوت محب خالٍ من أي ذرة غضب. للمرة الأولى لعب دور الوسيط والرسول. قال أُمك حزينة لا تأكل لقمة، ارجعْ الى البيت، لماذا تنام في المنشرة؟

«شغلي هنا.»

ناس يعبرون خارج الأبواب الخضراء المشرعة نظروا اليهما ثم أكملوا الدرب.

«شغلك هنا، قبلنا هذا. لكن بيتك ليس هنا. لا تعذبني معك يا إبني.»

أقنعته نبرة الرجاء المستترة. وأقنعه أمر آخر: لا يريد أن يعيش مفصولاً عن أهله وهو بعيد عنهم عشر دقائق بالسيارة! اشتاق الى البيت.

*

طوني استقبله بالعناق والاحتفالات كأنه عائد من الصين. ملأت صيحاته «المبرومة». شقاوة طفولته التي لا تحد تحولت بنمو جسمه الى عاطفة واسعة شديدة. كان الأصغر في البيت والمفروض أن يغمره الجميع بالحبّ

لكنهم اكتشفوا أن قلبه بحر وأنه يحبّ بلا مقابل ويخدم بلا حساب، القريب والبعيد، إلا اذا كان الشخص إيلي. بدأ هذا الحكي من باب الدعابة لكنه تحوّل - على عادة الدعابات العائلية - الى واقع مكرس. تحرك تيار من المياه الباردة بين الأخوين. كان تحت الأرض لكنه موجود. ما جمعهما دائماً ظلّ الإحترام اللانهائي للأب وللأخ الأكبر (موسى). ولعل هذا - التنافس الدائم على موسى - فرّقهما أيضاً.



ليديا لم تكن انتقلت بعد من مستشفى رزق الى مستشفى أوتيل ديو. كان دوامها هناك مرهقاً طويلاً وتقضي أحياناً ثلاثة أو أربعة أيام من دون أن تنام في البيت. تجيء في النهار وطوني في المدرسة وعند عودته يعرف أنها مرّت في غيابه: يفتح البراد ويجد على الرف علبة الكستر بالشوكولا التي يأكل مثلها حين تقبل أمه وتأخذه كي يرى ليديا في المستشفى. كان يهوى كثيراً تلك الجلسات القصيرة في الكافيتريا لا حبّاً بالكستر أو المهلبية أو المغلي كما تقول ليديا، ولكن لأن المكان يغدو شبيهاً بالجنّة وهما تتكلمان والأطباء يعبرون صامتين والممرضات يتجمعن مثرثرات في الزاوية. كان شديد التعلق بأمه وأخته وينزعج كلما طرأ شيء يعكر علاقتهما. حين بدأت ليديا تخرج مع سليمان شرارة لم يفهم طوني الداعي لإعتراض أمّه. كان يقرأ النظرات ويعرف أن أمّه لا تريد هذا. برناديت شيحا ثابت سيدة دافئة اللسان ونادراً ما رفعت صوتها في المنزل. قادت سفينة العائلة بالتفهم لا بالأوامر. ساعدها حزم زوجها الكافي لفرض الهيبة والنظام بلا حاجة لمناوشات. كان عزيز ثابت كثير الغياب عن البيت لأن الجندي حياته في الثكنات. لكن حضوره استمر محسوساً حتى في غيابه. الكنبة التي يجلس عليها قبالة باب الشرفة. الجزمة الاحتياطية المنتصبة في المدخل وجنبها مشايته «أم أصبع». البورت شابو حيث يعلق روبه الصوف الرمادي الخشن. الرف الخشب العالي حيث مقصاته وعلبة العطوس. الصورة الفوتوغرافية الكبيرة بالأبيض والأسود في

صدر الصالون، صورة المرحوم والده إميل ثابت («بو عزيز») الذي يشبهه بالوجه والأنف والنظرة كأنه نسخة طبق الأصل عنه، ولو أنه يلبس الزيّ اللبناني الجبلي القديم وشواربه أطول ومعقوفة قليلاً. ظلّ طوني يظنّ حتى الصفّ الثاني الإبتدائي أن هذه صورة أبيه لا جده الذي مات قبل دهر. في غياب أبيه اعتاد أن يتفقد أثاره في أنحاء المنزل. موس الحلاقة الممنوع لمسه (ولا حتى المسكة العظم!) في خزانة الحمام. طاولة الزهر المطعّمة بالصدف تحت السرير. الحزام الجلد الطلياني بالبكلة النحاس المربعة ملتفاً كثعبان في جارور الكومودينة. رائحة التبغ والعطوس العالقة في الخزائن. والتلفون الخشبي الصندوق الذي يرنّ مساء السبت ويسمعون صوت أبيهم آتياً من ثكنة نائية في الشمال أو في الجنوب، يسألهم عن دروسهم وفروضهم، يوصيهم أن يسمعوا كلام أمهم وأختهم، يخبرهم عن البرد والثلوج حيث هو، وطوني يتعجب متشبثاً بالتلفون لأنها لا تثلج أبداً في حيّ العبد.

58
آل زغلول 4 – الطابق الأرضي

تعبت راغدة زغلول مع نسوان الطابق السابع. علّمتها المرحومة خالتها منذ نعومة أظافرها ألا تفرق بين غني وفقير. وجدت هذه التعاليم صدى في قرارة نفسها. سلكت هذه الطريق طوال حياتها. خدمت البناية بإخلاص ولم تميّز يوماً بين طابق وآخر. منذ كان الفوقاني كلّه خادمات وشغيلة مطاحن، حتى قبل قدوم عائلة الحويك الى البناية، تعاملت مع سكان السابع تعاملها ذاته مع الخواجات والدكاترة والمهندسين في بقية الطوابق. لم تقل لا لأي طلب. ليس تذللاً بل رغبة في الخدمة. أحسّت دوماً أن الربّ أنعم عليها (وفضّلها على بقية الأيتام) بخالة محبّة رعتها رعاية مسيحية وربّتها تربية مستقيمة. ثم خصّها (حين حان الوقت) بزوجٍ سمكري كادحٍ منحها أربع بنات

وصبياً تحبّه حتى العبادة. السيد أيوب عاملها كأنها إبنة له. الربّ دلّ خطواتها الى «المبرومة». كانت تشطف الدرج كل ثلاثاء مقابل أجرة أسبوعية تجمعها من الشقق شقة شقة، بتدبير من الستّ نصّار. ناداها السيد أيوب وسألها أين تشطف أيضاً في الأشرفية؟ وهل هي متزوجة؟ رجل كريم خلوق محترم، صارم لكنه طيب الجوهر. أعطاهم هذا البيت الصغير كي يسكنوا فيه ولم يأخذ منهم قرشاً. هكذا صارت الناطورة. لم تنسَ جميل الستّ نصّار يوماً. حين هجرت البناية مع زوجها وأولادها أول الحوادث بكت راغدة زغلول على السطح.



لم تتذمر من أعقاب السيدرز (تبغ وطني أرخص من المستورد) المرمية على الدرج. هذه لا يدخنها إلا نسوان السابع! كنستها ساكتة. حين أمرتها الستّ أم بولس بدّور أن تزيد كمية الخلّ وبرش الصابون في سطل المسح لأن عتبة بابها مبقّعة بالأسود، لم تشرح لها أن هذا الأسود عرق في جوف البلاط ولا يمكن أن يزول إلا اذا ذاب الحجر. أنزلت أكياس الزبالة من مطبخ أم سعيد عازار صاغرة. بعد توقف المصعد حملت البصل والبطاطا للستّ الحويك من مدخل البناية الى باب برادها. توقفت في صحن الدرج على السادس لئلا تصل الى فوق لاهثة متعرقة، والستّ أم يونس سألتها لماذا تأخرتِ هكذا؟ لم تفتح فمها بكلمة اعتراض حين زادت أم سعيد مهامها وكلّفتها مساعدتها يوم الأحد في «التعزيل» وغسل حيطان المطبخ بلا مقابل. شمّست السجاد لأم بولس زوجة اللحّام ونفضته بالخيزرانة حتى انفك كتفها ولم تشرب فنجان قهوة. وصلت نهارها بليلها وهي تخدم، كأنها الناطورة والخادمات الهاربات مجتمعات في مخلوق واحد. شعرت أنها مقسّمة على شرفات وحمامات وطوابق. فركت الزنجار عن المغطس القديم في بيت الأستاذ موراني قبل قدوم ابنته. خيوط «السيف» نقرت يديها كالعادة لكنها لم تهتم لأن أصابعها

مجرحة دائماً ولأن الأستاذ موراني نادراً ما يطلب خدمة. نسوان الطابق السابع في المقابل أهلكن جسمها وروحها بالطلبات. صمدت وقبلت القدر ونفذت ما يردن. ثم جاءت القشّة التي تقسم ظهر البعير: طلبت الستّ ناجية عازار مفتاح السطح كي تنشر الغسيل. مع أنها عندها شرفة صغيرة! أخبرتها الناطورة أن صاحب البناية لا يسمح لها أن تعطي مفتاح باب السطح لأحد بسبب أغراضه المخزّنة فوق. ضحكت أم سعيد كأنها سمعت مزحة، وقالت «هاتي المفتاح!» كانت رائحة أنفاسها قوية. مدّت يدها وعبست كي ترعبها.

«اعطيني المفتاح!»

تراجعت راغدة زغلول الى خلف. وللمرة الأولى في حياتها قالت «لا!»

59
آل زخور 6 – الطابق الأول

أربكته كاترين نمر. تغلب على الإرتباك هائماً في ضباب الويسكي. لم يجد وقتاً للتردد وهو يقفز الى متراس آخر في الطابق ذاته (الطابق 25) ويأخذ مكان رفيقه مارك الذي أصيب في كتفه. اهتزّ مع الرشاش العنيف. الأدرينالين الذي يفور في عروقه حوّله إلى شخص آخر. لم يعد ريمون زخور القديم. يستطيع أن يقفز عن هذه الحافة محلقاً فوق الغربية حاملاً هذا المدفع الرشاش، ولن يطاله مضاد ولن يلحقه أذى. مع أنه يعرف قانون نيوتن للجاذبية الأرضية («جي» تساوي 9.81) ويعلم أن الطيران هكذا مستحيل. فكّ خيط القطب بالمقص وملقط الشعرة قاعداً على السرير يأكل كيس تشيبس مع كاترين. نقطت قطرات دم من كاحله. مسحتها بأصبعها وهي تخبره عن كلب قنصته مرة في بناية الأوتوماتيك حيث التقيا للمرة الأولى. كانت شبه نائمة وأيقظها نباح في الشارع ثم رأت كلباً أبيض مبقعاً بالرمادي يتلكأ عند

عمود كهرباء. في المنظار رصدت قائمتيه الخلفيتين ترتجفان قبل أن يقضي حاجته. لا تقنص الحيوانات أبداً لكنها بلا انتباه كبست الزناد ورأت الرأس المتطاول ينفجر. سمع كلماتها متقطعة بين الرشقات. نادى عليهما أحد الرفاق من جناح نزل فيه المغني اليوناني ديميس روسوس حين زار لبنان أول الحوادث وأقام حفلة في جبيل. طلب ذخيرة وقنينة ماء وشيئاً يأكله. قفزت كاترين وركلت الباب بقدمها فاختفى صوته. لبس ريمون فردة الكلسات. رأى بقعة تتسع ثم توقف الدم. شعر بحبٍ حقيقي لكاترين وهي تخرج من ثيابها. أفلتت شعرها. بينما يتضاجعان، وهي تتعرق فوقه كأنها تذوب، رأى فراشة صفراء ضخمة الجناحين تنفصل عن السقف المبطن بالخشب. تذكر أنه رآها من قبل. لكنها تغيرت وكبرت في هذه الأثناء. مدّ يده كي يقبض عليها. كاترين تأوهت وطلبت شيئاً لم يسمعه.

*

تلك الليلة تشوّش اللاسلكي ثم انقطع. جربوا الموجات كلّها بلا جدوى. في الإتصال الأخير سمعوا القذائف تنفجر قرب المركز في شارع فوش. عجزوا عن منع الجرافات من قطع الطريق البحري بالعوائق وكتل الباطون والحديد المرفوعة من ركام أحمد شوقي ووادي أبو جميل. العدو انتشر على طول الخط وطوّق الهوليداي إن. لم يعد ممكناً التسلل تحت جنح الظلام الى أوتيل نورماندي. ولا تلقي الدعم. النفق تحت الطريق ظلّ شغالاً حتى اكتُشف المركب (ظنّوها عملية إنزال) وقُصف من سطح السان جورج بقذيفة بي 7 أغرقته وأنارت الظلام باللهب. مارك مغبغب المصاب في كتفه نزف طوال الليل في غرفة بلا رقم على الطابق العشرين. أيقن أنه سيموت. من الراديو المثبت في مسند التخت تسرّب صوت فيروز(هل جلست العصر مثلي بين جفنات العنب/ والعناقيد تدلت كثريات الذهب). حاولوا إيقاف النزيف بالبن والشاش لكنهم فشلوا. على سرير قريب تلوى رجا أشقر سابحاً

في بركة دم. خردقوه في جنبه وبطنه وهو يقطع أمام نافذة. حين خلع كنزته وقعت منها رصاصة. بكى وهو يخبر مارك مغبغب شيئاً عن جدته لأمه التي تزرع الفجل والخس في قرية قب الياس في سهل البقاع. تقطّع صوته. لهث متعرقاً كأنه يركض. زعق بلا توقف لأن الألم لا يحتمل. مارك شعر أنه سيموت مثله الآن، في اللحظة ذاتها ربما. مع هذا لم يمت وسيظلّ حياً حتى اقتحام الهوليداي إن: ضربوه وجرجروه على زجاج الباحة ثم ربطوه الى مؤخرة لاندروفر بلا أبواب وسحلوه عبر شوارع الغربية. بينما يقطعون شارع الحمرا شهقت نساء في مقهى الويمبي. كان الكتائبي كتلة بيضاء من اللحم والدم والثياب الممزقة. خرجت عظامه حمراء عند المفاصل وقرقعت على الزفت وهو يتقلب كأنه حيّ.



17 مقاتلاً صمدوا حتى النهاية في الهوليداي إن. أسماؤهم منقورة على نصب تذكاري في مقبرة مار متر (الأشرفية). الباقون الذين خرجوا قبل الهجوم الأخير لم يتسللوا سكارى للمشاركة في نهب المرفأ كما كتب مراسلون أجانب (جوناثان راندل- واشنطن بوست). كان انسحابهم جزءاً من خطة تكتيكية تهدف الى تركيز القوات الدفاعية في مثلث هيلتون- نورماندي- ستاركو سنتر، لأن الهوليداي إن متقدم كثيراً في منطقة العدو وبحكم الساقط عسكرياً مع قطع خطوط الدعم والتموين. المهاجمون باغتوا المدافعين بقصف مركّز ملأ المكان دخاناً وشظايا. من كوّة المطعم الدوّار على السطح الشاهق العلو رآهم ريمون زخور يقفزون وراء الملالات. قنص ثلاثة. أصاب إثنين في الرأس. والثالث (كان يرفع وجهه) في رقبته. كاترين نادته من الزاوية الأخرى. نيران المرفأ أضاءت سماء الشرقية. تلوّت أعمدة الدخان في هواء أذار. سبحت كالتنين فوق مدرسة الفرير- الجميزة. ارتفع زعيق. وصراخ هجومي. كانت ليلة رطبة. انتبه الى نار تبرق في الطبقة الثلاثين من

برج المرّ. النافذة الثالثة. من اليمين. انبطح في متراسه الضيق. سمع صواعق تتفجر على علب الأناناس. كانوا يلعبون هكذا أحياناً، يضعون العلبة التنك على رأس عصا ويمرّرونها لحظة فوق المتراس كي ينقفها القنّاص العدو برصاصة. أحدهم في برج المرّ كان بسرعة أولغا، طالما أدهشهم. بقي على بطنه. سألته كاترين شيئاً ونادى أنه غير مصاب لكنه محجوز. لم يعرف هل يبلغها صوته. دوّى انفجار مرعب. خاف أن يدفن حياً. شعر برأسه يختض. كأن مطرقة خفية لطمته. ظنّ أنه أصيب. مدّ رقبته وزحف خارجاً من تحت الرمل المتساقط. كتلة متجمدة طرقت أذنه. داخ ولم يتمكن من الوقوف. أين ذهبت قوّته؟ ترنح متمسكاً بدرابزين لم يعد ثابتاً. على بعد مترين لمح جون عبود محني الرقبة ممزق القميص، بلا رشاشه. كانت جمجمته مقصوصة من أعلاها كأنهم نشروها بمنشار العظم. لحق به كي يساعده. ناداه بإسمه الحقيقي: «جون!» ثم بإسمه الحركي: «باولو!» بينما رفيقه يهبط الدرج تاركاً السطح. في نور اللهب تبين مادة زرقاء- حمراء- خضراء تبقبق خارجة من قبّة الجمجمة. بدا باولو هادئاً أطرش وهو يهبط الدرج. كأنه لا يعرف أنه مفتوح الدماغ! نظر إليه ريمون من فوق حتى أخفته الظلمة. استدار وشاهد كاترين مندفعة صوبه كأن الريح تدفعها. ارتطمت به. لم يعرف هل هي مصابة أم لا لأن اللهب انطفأ وهي لم تتكلم. تلمّس جسمها في العتمة.

60
آل سمعان -4 الطابق الثاني

أحياناً نقول شيئاً لا نقصده، لإضافة تشويق إلى حديث، أو لإشعار الآخر في لحظة يأس مشترك أننا نملك مخرجاً، ثم تتحرك الأشياء وحدها وما لفظناه عرضاً يتحول إلى خطة كاملة ثم إلى حقيقة. شيء مثل هذا

حدث تقريباً لريما صوايا سمعان، والطريف أنها لم تكن تتكلم مع زوجها حين قررت مغادرة البلد بل مع الكوافيرة! صباح الأحد 29-6-1975. تركت الصغار مع أبيهم في البيت لأنها لم تعد تتحمّل شعرها. كانت مرهقة عصبياً. قصفوا الأشرفية قنابل قليلة متفرقة أثناء الليل، وليزي (أليزابيث إبنة العامين) خافت كثيراً. هنري (ستة أعوام) وجاكوب (خمسة أعوام) تمكنا من النوم. ألبرت (ألبر) زوجها طمأنها أن القصف بعيد مع أن القذيفة الثالثة هزّت اللوحات. كانت مرهقة أيضاً لأنها فزعت أمس وهي تأخذ أولادها في الصباح الباكر الى بيت خالتهم. شغلها في سوق سرسق - وسط بيروت، في مبنى «بي آي سي» («الشركة البريطانية للتأمين» أو «بريتش إنشورانس كومباني» أو «بيك» اختصاراً، تكتب مثل ماركة أقلام الحبر الناشف وتثير أسئلة وتعليقات وتخدم مدخلاً الى أحاديث مكرورة). أرادت أن تمرّ على المكتب كي تنهي جردة نهاية الشهر. فاجأتها سيارات تسرع باتجاهها عكس السير. نسيت للحظة أنها أنزلت الأولاد ونادت عليهم في المقعد الخلفي كي يتمسكوا لأنها ستدوس الفرامل. السيارات أسرعت صوبها ولم تنحرف. كان هذا جنوناً عادياً. لم تفهم حتى رأت مسلحين يخرجون من كل مكان كأنهم يطلعون من تحت الأرض. زمامير قوية خلفها وحولها. تحركت من جديد وانحرفت باتجاه الرصيف. كانت يدها اليمنى ترتجف على المقود واليسرى تقبض على مسكة الباب كأنها تحاول كسرها. أحدهم ضرب الصندوق الورّاني بعقب الرشاش. لم تعرف ماذا تفعل. أرادت أن ترجع الى أولادها لكن سيارة أخرى تستدير في عرض الشارع سدّت السير.

*

وجدت الصالون خالياً. وقت القداس. سكبت الكوافيرة فنجان قهوة وسألتها عن أولادها. الفتاة التي تكون هنا عادة لم تظهر. على الطاولة حيث تتجمع جرايد ومجلات رأت طربوشاً أحمر. وجدت ذلك مضحكاً وأرادت أن تسأل عنه لكن الكوافيرة شغلتها بالحكي وهي تقص شعرها.

«أنتِ نصف إنكليزية، أمكِ انكليزية وشركتك إنكليزية، ومع هذا تبقين هنا!

هذا بلدنا، لا؟ أين يريدون منا أن نذهب؟ كل حياتنا ونحن هنا. بيوتنا هنا، أشغالنا هنا، أهلنا هنا، كيف نجد ما نفعله إذا سافرنا؟ كيف نعيش؟ ماذا نشتغل؟»

«أقدر أن أشتغل في قبرص. مع شركتي ذاتها.»

«عندكم فرع للشركة هناك؟»

توقف المقص عن الحركة. أجراس الكنائس هزّت الهواء.

*

ألبر سألها كيف ولماذا. خرجت كي تقص شعرها وعادت تتكلم عن الهجرة! قال الوضع يتحسن، لا تخافي. سألته كيف يعرف. قال بالتأكيد لن يستمر هذا، مسألة أيام ويتوصلون الى حل، لا مصلحة لأحد في هذه الحوادث، ماذا ستنفعهم؟ قالت لا أعرف، أنا خائفة جداً يا ألبر، لو كنت وحدي معك أنا وأنت لا أخاف، لكن الأولاد! قال أعرف، وأنا مثلك، أنتِ تعرفين، لكن الحال لن تظل هكذا، أنتِ تضايقتِ بسبب البارحة على الطريق، علينا فقط أن ننتبه أكثر في حركتنا. قالت لا، ليس بسبب البارحة. غضبت فجأة وكلّمته بالانكليزية وقالت (مرة أخرى بلا تفكير فعلي) انها قررت قراراً نهائياً، لا يمكن أن تبقى هنا، علينا أن نسافر قبل أن يحدث شيء، جوازات السفر معنا وسأتصل وأحجز على الميدل ايست. سألها إلى أين وهو لا يعرف لماذا يسألها. قالت الى لندن أو الى قبرص، الى أي مكان، غيرنا لا يقدر لكن نحن نقدر، لماذا أعرّض ليزي الى هذا، لماذا أعرّض هنري وجاكوب، لن أسامح نفسي اذا... قال لها انها تتصرف بطريقة هيستيرية الآن. رمقته بنظرة فظيعة. تراجع الى وراء.

*

تزوجا في بيروت (لم يكن أبوه تقاعد بعد منتقلاً الى حارة القرميد في ساقية المسك- بكفيا). الأحد الأخير من نيسان (ابريل) 1968. كان يوماً حاراً (شلهوبة) فاجأها وجعلها تتعرق في فستان العرس. شهر العسل الباريسي لم تفسده «الثورة الطلابية»: صارت ذكرى السهرة الصاخبة في مسرح أوديون إحدى قصصها المفضلة. لم يكملا الشهر في الشوارع التي

تغلي لأن ريما خطر لها أن تريه لندن. لم تنشأ في إنكلترا لكنها قضت هناك أربع سنوات وتملك ذكريات وأرادت أن يتشاركا المغامرة. هو في المقابل استصعب دوماً القرارات المفاجئة. لم يكن قادراً على الاعتراض لئلا تشعر بالخيبة في شهر عسلها. سافرا الى لندن وأصيب بإسهال حاد لكنه شفي منه. وجد لندن كئيبة متحجرة لكنه أحبّها مع ذلك لأن ريما تحبّها ولأنها أشبعته حبّاً. تجولا كثيراً وزارا الكاتدرائيات والتقط صوراً. تحرّك حسّه الهندسي وسرعان ما اكتشف أنها مدينة جميلة. تلفن من فندق القديس جيمس (سانت جيمس أوتيل) الى صديقه سافار كونجا الذي ظلّ في سويسرا بعد التخرج، وأخبره أنه في دولته الأم. «أنت في الهند؟» ضحك وقال لا، أنا وزوجتي في لندن، فكرت فيك ونحن ننظر الى قصر باكنغهام. سأله صديقه عن شهر العسل وتبادلا الضحك بينما ريما تخرج من الحمام ملتفة بالروب القطني الأبيض. كان شعرها الأسود المبلول يناديه، وكذلك رقبتها العاجية. أنهى المكالمة.



جريدة الاحد 29 حزيران (يونيو) 1975: ثقل الحوادث وإقفال الطرق واثارة الذعر انتقل صباح أمس من الضواحي الى قلب بيروت، ففي حين نام الناس على أمل انفراج حقيقي يعقب اللقاءات التي تمت بين مختلف الزعماء اللبنانيين والفلسطينيين واعتصام السيد موسى الصدر، كان هناك من يلقي المتفجرات في اكثر المناطق هدوءاً في بيروت. وفي حين كان الوسط التجاري يستعد ليوم هادىء بدأت جماعات مسلحة تطلق النار في الصباح في أماكن مختلفة أخصها منطقة المرفأ وشارع جورج بيكو والمناطق المجاورة لساحة الشهداء وسوق الخضر. ففي السادسة والنصف وصل عدد من المسلحين الى ساحة الدباس وأول طريق النهر قرب سينما أمبير وباشروا اطلاق النار من رشاشات حربية إرهاباً فحضر على الفور آمر فصيلة النهر وحصلت مشادة بينه وبينهم. وطلب آمر القوة مساندة من أجل ابعاد

المسلحين عن ساحة الشهداء، وقد تراجع هؤلاء الى المفرق الكائن قرب مصلحة كهرباء لبنان والى الشوارع المحيطة بمحلتي الصيفي والرميل.

جو ارهاب: في هذه الاثناء كان مسلحون آخرون يتجمعون في شارع القبيات المجاور لمعهد الدرك. وفي التاسعة وصلت اعداد كبيرة من المسلحين الى ساحة الشهداء وانطلقت منها الى شارع المعرض ومتفرعاته ووصل بعضهم الى مركز البريد، فيما نزلت مجموعات اخرى نحو شوارع ويغان وفوش والأورغواي وهي تطلق النار بغزارة مما أرهب الذين كانوا في تلك الأماكن فغادروها ركضاً وبالسيارات. وسمع الناس بعد ذلك زمامير سيارات الاسعاف وهي تتجه نحو الوسط التجاري الذي أقفر في تلك اللحظة ممن كان فيه باستثناء المسلحين. وبعد نصف ساعة طلب آمر سرية المساندة من قيادة شرطة بيروت تعزيز القوات التي هي في امرته، حتى يتمكن من تمشيط الوسط التجاري من المسلحين. وبالفعل أرسلت «قوة قتالية» من أكثر من 200 عنصر فمشطوا المنطقة. وقال بلاغ صادر عن المديرية العامة لقوى الامن انه قُبض على عدد من المسلحين عُرف منهم حسب المعلومات التي وردت في تقارير قوى الامن حرفياً:» الياس نجيب ابو مصلح من البوار ولد 1948. وجوزف مارون مسعود صليبا من البوار ولد 1945. وجوزف وجدية. ينتمون كلهم الى حزب الكتائب. وصودرت منهم الاسلحة الآتية: من الاول رشيشة كلاشينكوف واربعة مماشط و84 طلقة ومسدس حربي 7 ملم وممشط عائد اليه و7 قذائف وقنبلتان (كرز). ومن الثاني رشيشة كلاشينكوف و7 مماشط و180 طلقة ومسدس حربي 7 ملم وثلاثة مماشط و24 طلقة وقنبلتان (كرز). وصودرت من الثالث كمية من الديناميت معدة للتفجير، وذلك بعد تبادل الرماية بالرصاص بين قوات الامن والعناصر المسلحة. وبقيت القوة في الوسط التجاري تحسباً لكل طارىء.»

وبعد ذلك أعلن ان المرور في المنطقة المحيطة بالمرفأ وساحة الشهداء أصبح «غير آمن» ثم أعلن ان مداخل بيروت واقعة تحت وطأة اطلاق

الرصاص وان كل الطرق المؤدية الى العاصمة «غير آمنة» باستثناء طريق صيدا لجهة الاوزاعي.

وعلم ان سبب نزول المسلحين الى ساحة الشهداء ومتفرعاتها كان سقوط صاروخ على بعد 20 متراً من بيت الكتائب في الصيفي.

جبهة الشياح- عين الرمانة: على جبهة الشياح- عين الرمانة تركز التراشق ليل الجمعة- السبت في الأماكن الآتية: مفترق معمل غندور، سينما دنيا، مفترق البريد في محلة المراية. وقد بدأ التراشق عنيفاً في الثانية والنصف فجراً وتبعه قصف مدفعي خفيف. وعند الصباح كان التراشق خفيفاً ولوحظ تركيز في عمليات القصف. ونزلت ملالات لقوى الامن من نوع «أ. م. أكس» الى شارع بدارو وطلبت من المسلحين قرب «مركز منهاتن» الانسحاب، في مقابل انسحاب الفريق الآخر المتمركز في الجهة الاخرى وذلك بمسعى من حركة فتح. وسمعت بعد ذلك زخات متقطعة قرب مكتب الكاتب العدل السيد فخري علامة وقيل ان متراساً أزيل بالقوة من هناك. واستمر اطلاق النار في جوار مستديرة الطيونة بصورة متقطعة ثم امتد الى اماكن لم تشهد في الايام السابقة أي تحرك، ومنها المنطقة الواقعة عند مقطع السكة الحديد على طريق الحازمية. وفي السابعة مساء سقطت قذيفة هاون في الغبيري على سيارة داتسون رقمها 309960 لصاحبها ابراهيم عبد الحسين سويدان فأصيب بجروح ونقل الى المستشفى. وفي المساء بدأت قذائف الهاون والأر بي جي تتساقط على مراكز قوى الأمن المتمركزة في عين الرمانة وخصوصاً المخفر المتقدم في اتجاه شارع أسعد الأسعد. وأدى القصف الى نسف محل «فروج شتورا» قرب الليسيه الفرنسية اللبنانية في عين الرمانة. أما في منطقة سن الفيل فبدأ اطلاق النار مع الفجر وانهمر الرصاص من ظهر الجمل قرب معمل كارون في النبعة باتجاه الأشرفية. وحصل إثر ذلك تبادل رصاص استمر متقطعاً حتى المساء.

القتلى والجرحى: ونشطت عمليات القنص فصار السير على طريق

سن الفيل- الجسر الواطي- كورنيش النهر خطراً. وكانت النار تطلق على الشاحنات وسيارات الجيب خصوصاً. وقد أطلق الرصاص خطأ على سيارة للجنة الارتباط ظناً أنها تنقل مسلحين أو إمدادات للمسلحين. ونتج عن أعمال القنص في تلك المنطقة مقتل بهاء صالح (12 عاماً) عند مقطع السكة الحديد وجرح 4 أشخاص أحدهم يدعى أحمد مجهول باقي الهوية في حي كركبا في سن الفيل. وفي برج حمود كان السوري قرة بت سركيس قيومجيان (27 عاماً) وكريكور سركيس طوماسيان (40 عاماً) يجلسان على بورة للنفايات قرب البلدية مع زهراب بلتزار دمرجيان (26 عاماً) وواكيم بصمجيان (48 عاماً) ومحمد نديم النجار (48 عاماً) ويوركي طوني يوركي (41 عاماً) فانهمر عليهم الرصاص من مجهولين يعتقد أنهم أتوا في سيارة. فقتل قرة بت وكريكور وأصيب الآخرون بجروح بالغة. وتولى التحقيق في الأمر آمر فصيلة جسر بيروت. وقيل ان في الشوارع قتلى كثيرين لم يجرؤ أحد على سحبهم خشية الوقوع في متناول القناصة. ولكن في الخامسة مساء تمكنت احدى سيارات الاسعاف التابعة لفرقة حوادث الطرق من نقل جريح من قرب معمل غندور ونقلت سيارة أخرى من الفرقة ذاتها جثة قتيل مجهول الهوية قرب معمل الخشب لجهة عين الرمانة. وقتلت في الصباح فايزة سلامة ماجد زوجة ابراهيم ماجد فيما كانت تحاول الخروج من منزلها لشراء مؤونة لأطفالها الذين نقلتهم الى ملجأ البناية التي تقيم فيها. ونقلت جثتها الى بلدة خربة سلم في الجنوب. وسقطت قذيفة أر بي جي في عين الرمانة فقتلت شخصين. كذلك قتل محسن نصار (41 عاماً) بعد اصابته في رأسه أثناء مروره في شارع بشارة الخوري قرب مبنى غومون بالاس لجهة جسر فؤاد شهاب. وعثر في بورة التيان على طريق النهر على جثة رجل مجهول الهوية مصاب برصاصة في صدغه وبطعنة سكين في يده. وعثر أيضاً على جثة رجل مجهول الهوية في محلة التحويطة في فرن الشباك. وفي العاشرة ليلاً عثر

على سمير بستاني ووالدته سعاد مقتولين في منزلهما في بناية طنوس غانم في الشياح. وكانت سيارة تويوتا مارة على اوتوستراد انطلياس فأطلق عليها الرصاص فأصيب وليد خير الله وجوزف خليل كدورة ونقلا الى مستشفى أبو جودة. ونقل الى أوتيل ديو الجرحى عزيز شكيب أيوب وبشارة خليل ياغي وشوقي شفيق عطا الله لاصابتهم بالرصاص في محلة كورنيش النهر. والى مستشفى الروم نقل الجرحى جورج عوض خيرو والياس عوض خيرو وسميرة محمد علي قمري وعايدة الياس معلوف والياس دياب قرطاس وجهاد توفيق الجردي ومحسن فهمي نصار وندى حنا أبو عساف وانيس طانيوس طيار وزهران دمرجيان وطوني حنا أبو عساف وجورج أبو صادر وميشال أبو سمرة. والى مستشفى البربير نقل عاطف حمادة وياسين عرنوس.

61
آل زيدان 3 – الطابق الخامس

مرّ في المساء على حيّ السريان كي يأخذ الأولاد. كبس الزمور. أطلّت أخته من النافذة. أصرّت عليه أن يصعد ويتعشى. قال إنه لا يقدر أن يتأخر بسبب سيسليا. نزلت أخته قبل الأولاد وتكلمت معه. قالت أنا أحب أولادك مثل أولادي ومستعدة أن أطعمهم وأغسل ثيابهم حتى يكبروا لكن هذا غير جيد لا لهم ولا لأمهم، يريدون أمهم، طوال النهار أراهم على الصوفا مثل اليتامى، وأمهم حيّة ترزق، وحدها محبوسة في البيت، هذا غير معقول يا أخي، غداً اجلبْ سيسليا معهم، نحن كلّنا نحبّها ولن تنزعج عندي وسأعتني بها، أحسن لها أن تقعد بين أهلها من أن تقعد في البيت الفارغ طوال اليوم، اقبلْ مني!

«الدكتور يا أختي هو الذي قال. اذا ارتاحت أعصابها في مكان هادىء تتحسن...»

خبطت سميحة الباب ولعنت الدكاترة: «الدكتور قاعد في عيادته ويكتب لك الوصفة ويأخذ الليرات، هل تظنه يهتم؟ أنا أعرف زوجتك. هل تحسنت وهي تبلع هذه الحبوب؟ قلْ لي، هل رأيتها تتحسن؟»

«لم تعد تبكي كثيراً. وصارت تنام الليل.»

«وتنام النهار أيضاً. روري أخبرتني. تنام عشرين ساعة من ال24 وتقوم من أجل الحبّة وقطعة جبنة بيكون تجبرها أنت عليها. هذه حياة يا غسان؟ حرام عليك!»

❊

سألها تلك الليلة وهو يعطيها الدواء لماذا لا تذهب معه الى المحل؟ نظرت إليه زوجته من عالم بعيد لا يعرف شيئاً عن قوانينه. حين ظلّت ساكتة بلا أي ردّ فعل تابع المحاولة.

«أنا وحدي في المحل وبحاجة إلى مساعدة.»

هزّت رأسها وقالت «طيب.» لم يتوقع أن تقبل هكذا! بهذه السهولة! أخبرها أنه سيوقظها باكراً واذا تعبت في المحل يقدر أن يقفل ربع ساعة ويردّها الى البيت أو يأخذها الى بيت سميحة لأنها تسأل عنها طوال الوقت. وضعت كوب الماء من يدها وقالت له إنها تقدر أن تشتغل معه وتساعده في المحل ولن تتعب. كان صوتها خافتاً بطيئاً لكنه يشبه صوتاً قديماً يعرفه. انتبه فجأة كم اشتاق إلى صوتها! خاف أن تدمع عيناه أمامها. رتب الغطاء وفرك ساقه كأن برغشة عقصته. قبل أن يطفىء الضوء نظر إليها على ظهرها تراقبه هو أو السقف. خيّل إليه أنها تبتسم.

❊

كان بحاجة الى غضب سميحة كي يتأكد: من قبل أن تكلّمه هكذا وهو يفكر في المسألة. لم يكن مقتنعاً بالأطباء مع أنه يعرف أن الأدوية نفعتها. لم يعرف ماذا بالضبط حدث لها هناك. لا هي أخبرته كل شيء ولا هو طلب أن يعرف. كأنها ملأت صندوقاً وأقفلته بالمفتاح ودفنت الصندوق والمفتاح

في جوفها. لكنه سمع من آخرين. ويعرف تقريباً. في المستشفى قالت أشياء للدرك. كانت تتكلم مع الممرضات ومع إمرأة جريحة (ناجية من الدامور أيضاً). ثم توقفت. الأدوية ربطت لسانها. قال الدكتور هذا ضروري. الإنهيار العصبي لا يمكن علاجه إلا هكذا. أفلتت إبرة المصل من ذراعها. رأى نقطة دم تقطر على بلاط مشمّع. شعر أنه عاجز عن الحركة.

❋

حين جلبها من المستشفى الى البيت الذي استأجره في بناية أيوب- حيّ العبد، قرأ جميع الأوراق المطوية في علب الأدوية. القسم الأكبر منها مكتوب بلغات أجنبية، لكن روري ساعدته. جلبت قاموسها (فرنسي- عربي) وجلست جنبه الى طاولة المطبخ. لم يظهر فزعه أمام ابنته بينما تكشف له معاني الكلمات. في الليل وهو وحده مع ورقة أخرى (هذه بالعربية) شعر بثقل رهيب في مؤخرة رأسه. أسند صدغه بيده. حدّق إلى حروف صغيرة. كانت البناية نائمة. والبراد يئن. من مكان بعيد تناهى صوت رصاص.

❋

«التأثيرات غير المستحبة الأكثر وقوعاً مع العلاج ببرومازيبام: تسكين، دوار، وسن، انخفاض الضغط، ضعف التركيز، ابطاء رد الفعل. ورد أن المرضى المتقدمين في العمر قد يتعرضون أكثر للسقوط وللكسور بعد تناولهم البنزوديازيبينات.

اضطرابات عقلية- نفسية: خدر، نقص التيقظ، اختلاط ذهني. تحدث أساساً عند بداية العلاج وتختفي عموماً مع المتابعة. يمكن أن يظهر على المريض مرض الإكتئاب الكامن الموجود من قبل وتظر عادة تفاعلات مناقضة للمألوف مثل عدم الاستقرار، الاستثارة، الهيوجية (القابلية للتهيج)، العدوانية، الهذيان، نوبات غضب، كوابيس، أهلاس، ذهان، سلوك غير ملائم، وآثار غير مستحبة أخرى مرتبطة بالسلوك (راجع «تحذيرات واحتياطات»).

اضطرابات الجهاز العصبي: كثيراً: تعب، وسن، صداع (ألم الرأس)، دوار (دوخة)، ابطاء رد الفعل. نادراً: رنح (فقدان التساند العضلي)، نسيان.

اضطرابات العيون: شفع (ازدواج الرؤية). في بداية العلاج عموماً.

اضطرابات قلبية: قصور وظيفة القلب، بما فيها توقف القلب.

اضطرابات تنفسية: انهيار التنفس.

قابلية الدواء لإحداث السرطان: ان الدراسات التي أجريت على الجرذ لم تكشف أي علامة دالة على قابلية برومازيبام لإحداث السرطان.

الإضرار بالنسل: أعطي الجرذ جرعات يومية من برومازيبام فلم يكن له أي تأثير في الخصوبة وفي القدرة على الإنجاب عامة.

قابلية الدواء لإحداث تشوه الخلقة: أُعطي برومازيبام لإناث الجرذ خلال الحمل فلوحظت زيادة في نسبة وفاة المضغة وفي عدد السقط (موت عند الولادة) وانخفاض في نسبة البقاء على قيد الحياة في ما يتعلق بالذرية... أُعطيت إناث الأرانب الحوامل 50 مليغراماً عبر الفم فلوحظ ضعف زيادة وزن الجسم لدى الأمهات ونقص وزن الجنين وضموره ووقوعه.»



البقلاوة الأصابع والبرما الاسطوانية المحشوة بالفستق الحلبي أو بالصنوبر. البلّوريّة البيضاء المقطعة مربعات، تبرق شعيراتها قطراً، محشوة فستقاً معجوناً بماء الورد. القطايف بالجوز أو بالقشطة (القشدة). العوامات المقلية والصفوف بالعقدة الصفراء والنمّورة. الحلاوة بالرزّ والحلاوة بالجبن (العجينة المفروكة بالجبن محشوة قشطة ومسقاة قطراً). زنود الستّ والعثملية والكنافة (بالجبنة أو بالقشدة). المعكرون والمشبّك. الممدودة الشهيّة ورقاقات زيدان التي لا يصنعها حلواني غيره. معمول العيد الذي يُذوّب طحينه بماء الزهر فقط ويعجنه بيده. يعمله نوعين، لأن الناس أذواق،

واحداً بالسمنة الحموية وآخر بالزبدة الأوروبية المستوردة. الحشوة فستق أو جوز أو تمر. بينما يسحب الصواني من الفرن معتمداً على أنفه لتحديد درجة نضجها يشعر بأبيه واقفاً جنبه كأنه لم يمت قبل 14 سنة. ورث عدداً من إيماءاته. يقلب صينية الكنافة بالطريقة ذاتها. ويعقد الشريطة الملونة على العلبة الملفوفة بالطريقة ذاتها. كأنه هو! عمه الذي قتلوه بالبلطة في مذبحة الدامور في كانون الثاني (يناير) كان فرّاناً يخبز الخبز لا الحلويات، وكان يتحرك الحركات ذاتها بالوراثة. فتح عمّه «أفران زيدان» على طريق الدامور-بيروت في سنة الزلزال. الزلزال وقع في أذار 1956، في فصل الربيع، وعمّه فتح الفرن قبل نهاية الصيف: استخدم ترابة الدولة ومالاً حصل عليه من «مصلحة التعمير» التي أنشأتها الحكومة لمعونة المتضررين من الهزّة. اشتهر خبزه حتى نافس «أفران قلقاس»، وظلّ من 1956 حتى مقتله بعد عشرين سنة يقول لكل من يسأله عن سرّه إنه يخمّر كل عجنة جديدة بكيلة باقية من العجنة التي سبقتها وهذا معناه أن العجنة الأولى التي خبزها في ال56 ما زالت ذراتها موجودة في ربطة الخبز التي تخرج من فرنه اليوم، بعد 20 سنة!

*

سأله جاره نسيب طانيوس - يخرج باكراً مثله- هل يحتاج الى براد جديد في المحل؟

«بحسب سعره.»

ضحك الشوفير الذي صار تاجراً:

«المعرض في كعب البناية. انزلْ الليلة وتفرجْ. خذْ ما يعجبك ولا تدفع. الجار للجار. لن نختلف على السعر. ان شاء الله صحة المدام أحسن؟»

62
آل الخوري 6 – الطابق الثالث

«وجدت علي نائماً. وحمزة مفتوح العينين، يتنفس بصعوبة مثل مرضى الربو. كانت رائحة المكان فظيعة. لا بسبب فضلاتهما فقط، لكن أيضاً بسبب الجثة الثالثة التي دوّدت وغطاها الذبّان. عذبت نفسي طويلاً هناك. أردت أن أعرف شعور أخي قبل أن يقتلوه. أخبرني حمزة في أحاديثي معه أشياء عن حياته. الثالث الذي مات في الطريق كان إبن عمته. إسمه حسن نصر. يعمل في محطة بنزين في الأوزاعي. حمزة اشتغل في زراعة التبغ في الجنوب مع أهله ثم نزل الى بيروت لأن الجميع ينزلون الى بيروت. لم يبقَ في قريته إلا العجائز والبنات. علي لحقه الى العاصمة. سكن معه قرب الكولا. سجل اسمه في المدرسة المهنية العاملية. لم يكمل حمزة الدراسة بعد السرتفيكا. عمل في أفران ومطاعم فلافل وشاورما. عند بدء الحوادث كان شغيلاً في شركة شحن مركزها قريب من المرفأ. سألته عن أخوته. أخبرني أن أمه ميتة وأخته الكبرى ربّت العائلة وعنده خمس أخوات غيرها. «أنا أيضاً أمي ماتت»، قلت له. طلب مني أن أفلت أخاه لأنه صغير ولا يؤذي أحداً. أبعدت ذبابة زرقاء طنّانة. رأيتها تستقر على الروزنامة. كانت ثقيلة ضخمة الحجم. نظرت إلى حمزة. شاحب مصفرّ. لحيته تأكل وجهه. فكرت أنه لن يعيش وقتاً طويلاً. صار صوته ضعيفاً مبحوحاً أجاهد كي أسمعه. بسبب الجوع وقلة الحركة والهواء المحبوس، أظنّ. أو ربما من الخوف والعطش وهو مربوط ومتروك هكذا، شبه وحيد، لأن علي لم يعد ينطق. بحثت في كراتين قديمة مبلولة. عثرت على علبتي مرتديلا. زوان ومالينغ. فتحتهما. جرحت أصبعي بالتنك. التهمت المالينغ وأطعمته من الزوان بطرف السكين. أكلت غصباً

عني. من أجل أن أفهم شعوره. لم أقل له انني لو تعرفت إليه قبل الحرب وقبل مقتل شارل كنت أصادقه بسهولة. كانت طريقة حكيه قريبة مني، ونظرته تترك في النفس إحساساً جيداً، رغم الظروف. أعجبني أيضاً دفاعه المتواصل عن أخيه. بينما يأكل استيقظ علي. القذائف لا توقظه لكن رائحة المرتديلا تفعل! لم أمدّ السكين إليه. أطعمه حمزة من فمه كما تطعم الدجاجة صوصاً. ابتعدت كي لا أنظر. سمعت التململ خلفي. دودة عملاقة متشنجة. قلعوا أسنان شارل أثناء تعذيبه. أردت أن أفكهما وأذهب. لكنني فكرت أنهما سيعجزان عن النهوض. وحتى لو تمكنا من الخروج، أين يذهبان؟ الطريق من بلدية بيروت الى أوتيل فينيسيا تقطعها مشياً في عشر دقائق، لكن ليس في هذا الوضع. لن يبلغا ستاركو. الأسواق جبال حجارة. خشب متفحم وقضبان حديد ملوية. مستنقعات وزبالة وجثث. وحيث يمكنك المرور وسط ركام باب إدريس يطالك الرصاص. أفضل لهما أن يصعدا الى البرلمان. مسافة أقرب. وربما يخاطر مرابط وينزل من متاريس شارع المعرض ويسحبهما الى التياترو. فكرت أن أفكهما وأجلب سيارة وأنقلهما بنفسي الى نقطة آمنة. إلى معبر السوديكو أو معبر المتحف. لا أقول هذا لأي سبب إلا الحقيقة. هذه الأفكار مرّت في رأسي حين حوّلهما الضعف الى هيكلي عظم متلاصقين. كنت أشدّ الحبل الذي يرتخي في كل مرة أرجع كي أتفقدهما. وأشدّ السلسلة على الكواحل الزرقاء. الذبّان أهلكهما. ندمت لأنني فعلت بهما هذا. علي احمرّت عيناه. بدا أعمى. نتأت عظمة من ظهره. رأيت أذنه ترجف وأنا أدور في الغرفة. أشفقت عليهما من هذا المصير. كرهت حياتي. أخبرني حمزة قبل أن يختفي صوته أن والده مريض كوليسترول لكنه مع ذلك يحرث الأرض ويزرع ويعمل من الشروق الى الغروب بلا تعب. قلت له أنت كذّاب، الكوليسترول لا يصيب الفلاحين. سألته لماذا يحكي لي عن أبيه. «أنت طلبت مني أن أخبرك حياتي!»، قال لي. قلت له: «أخبرني عنك أنت فقط،

ماذا تفكر، ماذا تحب، ماذا تكره، هل عندك بنت تنتظرك الآن، حبيبة تريد عودتك؟» نظر إليّ بكراهية. لم أنزعج. بالعكس: أردته أن يكرهني. اعتقدا في البدء أنني لم أقتلهما لأنني أريد أن أبادلهما بمخطوفين لي. سألني حمزة هل خطفوا أبي؟ هل خطفوا أخوتي؟ هل خطفوا رفاقاً لي؟ سألته هل يعرف كيف يستخدم السلاح؟ قال انه لم يقاتل ولن يقاتل لأنه ضد هذه الحرب. سألته عن السبب. لم يفهم. سألته هل سيقاتل ضدنا الآن إذا تركته يخرج من هنا؟ «ستتركني أنا وأخي؟». قلت له إذا تركتكما تذهبان، هل تقاتلان ضدنا؟ أجاب لا. قلت له إذا تركتك أنت فقط، هل تقاتل ضدنا؟ أجاب أنه لن يذهب بلا علي. قلت له «أعرف». مع مرور الأيام صارت أحاديثنا قصيرة بلا قيمة. في المرة ما قبل الأخيرة رأيته يبكي بينما أخوه ينام وهو يمضغ الطعام. هل توجد جهنم بعد هذه الحياة؟ لم أسأل شارل عن هذا وهو حيّ. قوّصت علي في رأسه. تركته مربوطاً إلى أخيه وخرجت.»

63
آل حبيب 6 – الطابق الرابع

استعار رضا سيارة وقضت معه نهاراً كاملاً يتنزهان في الجبل. أواخر أذار (مارس) 1975. الثلوج تكللّ جبل الباروك. أكلا في مقهى على ضفة النهر. الطقس بارد هنا لكن الحبّ دفّأهما، وكذلك كنزات الصوف. لم يتعاركا مرة واحدة في ذلك اليوم. كان عراكهما كثيراً. ولعل سببه شدّة العاطفة بينهما. أحبّته بعنف وبادلها الحبّ. على حجارة جنب النهر بانت سحلاة (شموسة، كما يسمّيها) زرقاء الرأس رمادية الجسم تمدّ رقبتها. أضاءت الشمس صخرة كلسية تتوسط أرض رطبة سوداء التربة. ركنا السيارة وسارا في طريق قدم ضيقة تتعرج بين الوزال. سنابل خضر قاسية زهورها صفر فوّاحة العطر.

السماء غامقة الزرقة. فوق الجبل غيمة شاسعة بطبقات قطن تتكوم على طبقات قطن. ظلّت الغيمة ثابتة طوال الظهيرة تغمر قسماً من الثلوج بظلّها. ثم هبّ هواء خفيف مزّقها برفق الى كتلٍ ناصعة البياض. سبحت ظلالها متباعدة فوق السلسلة البيضاء. جبال ساكنة كأنها لوحات. وعصافير يجهلان أسماءها. قبل أن يبلغا أشجار الأرز الأولى انحرفا في درب معشوشبة تتوغل بين جذوع الصنوبر. استلقيا في بقعة محجوبة وتعانقا لاهثين. كان المكان رطباً بارداً مغطى بطبقة سميكة من أوراق الصنوبر الأبرية شبه المتحللة وأكواز الصنوبر اليابسة. استخدما ثيابهما فرشة. ارتعشا وسمعا صيحات الطيور بينما يتحدان تحت قبب عالية خضراء.



في البقع الظليلة برق الثلج. كان قاسياً متجلداً. بين شجرتي صنوبر ازدهرت مستعمرة من الفطر الأصفر- البرتقالي. سألته هل يؤكل؟ قال إنه سام. سألته هل هو متأكد؟ ضحك وهو يقطف زهرة دويك الجبل مائلة العنق بنفسجية الزهرة. في السيارة تشبثت به طويلاً وهي ترتجف. سنمرض، قال لها. ابتسمت وهي تتسلقه وهو يقول ليس على الطريق، ليس هنا. ظلّ يحاول ابعادها وهي تقول هذه ليست بيروت، لن يمرّ أحد، وتضحك.



دخلا متجر حلويات في بلدة عين زحلتا وطلبا جاتوه وإبريق شاي. شربا الكوب تلو الكوب بينما صاحبة المتجر ترمقهما بنظرة حزينة. في بحمدون توقفا جنب الطريق كي ينظرا الى غروب الشمس. تلاصقا بينما بخار أنفاسهما يرطّب الزجاج الأمامي. كانت العاصمة في الأسفل، كثيرة البيوت منتشرة بلا صوت على حافة البحر، وقرص الشمس أحمر يهبط رويداً رويداً في المياه الساكنة.

64
آل الحويك 3 – الطابق السابع

جلبت كميلة الحويك أمّها المريضة كي تسكن معها. أخوها بشارة وعدها أنه تدبير موقت. فترة شهر أو شهرين. قال ان زوجته لم تعد قادرة وحدها على الإعتناء بها طوال الوقت. خصوصاً وأنه في شغله في الغربية. ومرات تمضي أسابيع من دون أن يرجع الى البيت. سكن في أوتيل كافاليه جنب الجريدة في الحمرا. سيجد خادمة تساعد زوجته وهو يفتش الآن. لكن في هذه الأثناء يحتاج أن تأخذ عنه الحمل فترة قصيرة. «هذه أمّنا يا أختي ولا أقدر أن أرميها في مأوى!» كان ذكياً ماهراً في انتقاء كلماته. غصّت أم يونس بدموعها خوفاً من زوجها: كانت واثقة أنه لن يقبل مجيء أمّها. بينما تخبره حدّقت الى أثر عملية القلب الظاهر من أعلى الفانلة. فاجأها أبو يونس بردّة فعله: «اذا كان بشارة يقول هذا موقت، طيب، سأجلب فرشة لها.»

*

صاروا فوق بعضهم في البيت. لكن أمّها لم تفسد حياتها. كانت ساكتة مثل خرساء ولا تزعج أحداً لولا حاجتها الى المساعدة في الحمام. تأخذ أدويتها في المواعيد المحددة ولا تتذمر. وفي كل فرصة تشكر ابنتها وزوج ابنتها. كميلة الحويك لم تصدق أن هذه أمّها! في بيت أخيها كانت دائمة الشكوى. طالما كرهت الذهاب الى هناك كي تراها. كانت تحسب لتلك الزيارة ألف حساب. وحين ترجع الى البيت تعامل الأولاد بقسوة غير مألوفة. وفي الليل تحبس نفسها في الحمام وتبكي كأنها أكلت سمّاً.

*

صادقت سابين جدّتها. كانت تقعد قبالتها وتقرأ في كتاب بينما الجدّة

تنقي باقة بقدونس أو تنقر حبّة قرع. سمحت لها جدّتها أن تنظر الى الصور في الألبومات والمغلفات التي جلبتها معها في الحقيبة. ظنّت أن سابين مهتمة بالصور القديمة المصفرّة في ألبومات العائلة. لم تعرف أن حفيدتها تنظر الى الصور الجديدة في المغلفات الورقية التي طلب منها بشارة أن تحفظها له. لا تهتم الجدّة بصور إبنها لأنه مراسل في جريدة ولا يصوّر أشياء تحبّها. كانت قادرة على حفظ الأسرار: لم تخبر كميلة أن بشارة سيترك زوجته.

*

صبايا بقمصان بلا أكمام وبناطيل جينز لصق الجسم. مركز الصورة تحتله فتاة جميلة الوجه. حزام جلد أسود ببكلة فضة. خاتم في يدها اليمنى. وساعة سايكو بربطة جلد بيضاء. شعرها أسود كث. أمشاط الرصاص ملفوفة بشريط لاصق. على كتفها رضة شبه حمراء من ارتدادة البارودة.

شاب أسود الثياب. كلاشينكوف بحزام قماش. شريط الرصاص يلف رقبته. على صدره يتدلى صليب فضي بسلسلة ثخينة. في يده قنينة حليب.

كتائبية بشعر أسود طويل مجموع بربطة بيضاء يسقط كذيل حصان على كتفها.

فتيان يلبسون الكاكي والجزم «الرانجر» يدخنون ضاحكين ويشربون الشاي وراء أكياس الرمل والترابة في ساحة الشهداء.

مسلحات صغيرات السنّ (من عمرها تقريباً أو أصغر) يقعدن على صناديق خشبية مقلوبة ويشربن قناني 7 أب.

فتاة ترش شعارات بالسبراي على قاعدة التمثال.

صورة مار شربل ملصقة على قبضة أم 16.

كلمة الله مطلية بالأبيض على قاذفة صواريخ.

لافتة مثبتة على باص دولة محروق ومفكوك الدواليب مائل على جهة واحدة: «انتبه قناص!»

أول جسر فؤاد شهاب من جهة التباريس. في العمق: الهيكل العاري الباطون لبرج المرّ. نوافذ الطبقات العليا مسدودة بأكياس الرمل.

إمرأة جالسة وسط الشارع تبكي. جنبها رجل مقتول. يدها على رأسه.

مسلحان يأكلان سندويشات ويعزفان على بيانو. قاعة أوتيل بطاولات مستديرة ومقاعد مخططة القماش. من السقف تتدلى ثريا كريستال ضخمة. زجاج منثور على السجاد والمقاعد والطاولات. مرايا محطمة. درج كهربائي محروق.

كتيبة «المدمرون» (الكتائب). في مقدمة الملالة تمثال يسوع المصلوب.

ملالة «المرابطون» (صورة جمال عبد الناصر بالبرواز الخشب على جنبها).

علامة النازية (صليب معقوف) على قشاط بارودة مسنودة الى جيب عسكري.

مسلح ملطخ بالدم يركع على ركبة واحدة سانداً رأسه الى عمود كأنه يصلي. يبدو متعباً مرهقاً. شديد السمرة. على كتفه حزام من الرصاص الضخم الحجم.

مقهى حمدان. مرطبات. تنباك. تلفون 244625.

مسلحات شيوعيات. على قبعة إحداهن مكتوب: الرفيقة لينين.

أرزة الكتائب. الله الوطن العائلة. صور للمسيح وأيقونات مأخوذة من الكنائس تزين جنبات المتراس. على برميل مكتوب بالطلاء: الربّ نوري وخلاصي (مزمور).

بائع خضر جوّال يدفع عربة محملة بالفواكه (شمّام وبطيخ) وعلى ظهره رشاش.

باصات الدولة المحطمة تتراصف حاجزاً طويلاً عند خط التماس.

صورة للريفولي وملصق الفيلم الأخير: «المطلقات. بطولة نجوى فؤاد وشكري سرحان.»

النافورة العثمانية مدمرة في سوق الفرنج.

رجل مقتول مع حماره على طريق جبلية تطلّ على أودية وقرى قرميدية السطوح.

الوفد السوري على مائدة بيار الجميل في بكفيا. بيار الجميّل بشعره المصفف الى خلف وبذلته السوداء والمنديل الأبيض المطوي البارز من الجيب العلوي. باب الصالون خشب قديم. التبولة على الطاولة. أمين الجميّل في الخلف متكئاً الى منضدة يبتسم في بذلة وربطة عنق. سلك اللمبة ممدود فوق النافذة والباب.

جثتان: إمرأة تشدّ كنزة الأخرى على وجهها.

عملية إعدام: رجل مقنّع يحمل مسدساً وناس يركعون عند جدار.

شاب يقف بالشورت عند رأس جثة وفي يده حبل أبيض مربوط حول رقبتها. البيت متهدم حوله. الأثاث مخلّع مبعثر. يبتسم للكاميرا ويبدو لطيفاً.

الكرنتينا. 19-1-1976. طريق واسعة بين أكواخ تنكية مكسرة، تتوزعها برك ماء وجثث أولاد. فتى في السادسة عشرة أو أقل يلبس البونشو المكسيكي المقلم بالعرض. يقف ضاحكاً مباعداً بين قدميه، مكتف الذراعين وسط رفاقه المسلحين برشاشات وغيتارات. أمامه تراب محروق وكومة أحذية ومشايات. خلفه درج قديم حجري أو ترابي يقفز عنه أحد رفاقه ويبدو معلقاً في الجو.

قبعة قماش بصليب مطرز على قبتها.

جثة رجل قلعوا عينيه.

فلسطينيون يلفّون أعناقهم بالكوفيات يحملون قذائف ويتسلقون منحدراً.

بشير الجميّل بكنزة صوف مفتوحة الأزرار وتحتها القميص الأبيض. في الخلف: البحر.

أسرى مقيدون ومصفوفون الى الحائط. قسم يركع على الزفت معصوب العينين. قسم يتمدد على بطنه، ولا تعرف مهما نظرت هل هم موتى أم أحياء.

نساء حافيات متورمات الأقدام.

رجل بلا ثياب مطروح على سكة الحديد.

إمرأة مع أولادها، يحملون مطرات ماء وينتظرون في الصف.

عجوز تجرّ كيساً ثقيلاً في شارع تهدمت أبنيته.

مقاتل ببرنيطة صوف تغطي أذنيه ورقبته. عيناه ظاهرتان، واسعتان، وأنفه صغير.

صناديق مشروبات محطمة ودخان يرتفع من كومة. في الخلف: بناية

محروقة تشبه بنايات الوسط التجاري، لا تعرف أي بناية، في شارع المعرض أو فوش أو ويغان.

بسطة أسلحة وقائمة أسعار (كلاشينكوف أوكراني: 600 ليرة- أم 16: 900 ليرة- سيمينوف: 200 ليرة.).

نساء وفتيات على صوفا طويلة في صالون مضاء بلوكسات غاز. تنانير قصيرة وسجائر. منفضة على الصوفا. في الباب إمرأة قاعدة على كرسي تضع ساقاً على ساق. تنورتها فاتحة اللون. قميصها مزهرة. رقبتها نحيلة. تكاد فردة سكربينتها أن تفلت من قدمها. تتكلم مع شخص غير ظاهر في الصورة.

مربض مدفعية. شباب يجلسون على صناديق ذخيرة. صينية وفناجين. أحدهم يسكب قهوة من ركوة. بخار. سيجارة مشتعلة على حافة قذيفة فارغة تحولت منفضة. في الزاوية: كنبة ينطرح عليها شاب (فانلة بيضاء، سالفان عريضان) وهو يتصفح مجلة. من الأعلى تتدلى رؤوس أغصان.

65
آل رزق 5 – الطابق الرابع

«أوتيل فيكتوريا، 11 هاربور رود،

سيدني- نيو ساوث ويلز- أستراليا

بتاريخ9-3-1976

أبي العزيز، أمي الحنونة، أخوتي الأحباء

قرأت رسالتكم على الأقل عشرين مرة. راجح يسخر مني كل ليلة قبل النوم حين أخرجها من الجارور. أقرأ في ضوء المصباح الذي اشتراه لي. «هدية مصلحة». أضايقه بلمبة السقف حين أسهر للدرس. لا تخافي عليّ

يا أمي. أنتبه لصحتي وللأكل وضرورة النوم وحين أشعر بالحرارة في عينيّ أغسلهما بالشاي البارد. هنا المناخ يناسبني ولم أمرض بالرشح. لا أسهر إلا للدرس الآن. هذا ضروري لأنه الطريقة الوحيدة لتحسين عملي. لا يمكن أن أظلّ هكذا أشتغل شغل الهنود والعبيد ما دام بقائي في أستراليا يمكن أن يطول أكثر مما كنا نعتقد. لا تظنوا أن شغل الأوتيل يرهقني أو أنني منزعج منه، لا، لكن اللبناني كما يقول خالي ابراهيم لا يسافر الى آخر الدنيا كي يكنس ويمسح ويغسل الأغطية. يريدني أن أنتقل الى برزبن حيث يقدر أن يدبر لي وظيفة (محاسب) في متجر. ما رأيكم؟ خالي جاكوب يعتقد أن عليّ البقاء في سيدني الآن، مع أنه عموماً لا يتدخل وينصح. يقول إنه سيسعى من أجلي أنا وراجح للحصول على عمل في سكة الحديد. في جميع الأحوال أحتاج الى تحسين انكليزيتي، وهذا ما أفعله الآن بمساعدة جاين. عندي قاموس جيب انكليزي- عربي جلبته معي من بيروت. لكن جاين تقول انني سأتعلم أحسن باستخدام قاموس انكيزي- انكليزي. معها حق. أقرأ كل ليلة في كتب صغيرة مبسطة من سلسلة «لادر» أو «السلّم» وهي سلسلة أميركية للتعلم بالقراءة. يكفي أن تعرف 3000 مفردة كي تتمكن من الفهم. أنهيت «أوليفر تويست» لشارلز ديكنز (70 صفحة) وأنا الآن في بداية «حياة مارك تواين» التي كتبها مارك تواين. يستهلك التفتيش في القاموس وقتاً طويلاً. الكتاب يذكّرني برامي بسبب السلّم الصغير المرسوم على غلافه (مع من تلعب لعبة «السلّم والحيّة» في البناية هذه الأيام؟). جاين تقول إنني أتعلم بسرعة. راجح واجهته مشكلة مع أحد المسؤولين في الأوتيل. حاولت أن أتدخل لتلطيف الجو. شعرت أنني أحسن بقليل في الحكي والإقناع وهذا أفرحني. جاين تعلّم الكيمياء في مدرسة غير بعيدة من بيتها، هنا في سيدني. لكنها تقدم طلبات الى مدارس في مدينة داروين، وهذه بعيدة في الشمال. ترغب في السكن بعيداً من أهلها. والسبب أنهم يعتنون بها أكثر مما تتحمل. إميلي تقول إنها تفهم شعور جاين. راجح طلب مني أن أقرأ له جزءاً من رسالتكم. هكذا

صار يعرف آخر مغامرات رامي (أنا مثله حاولت ركوب البسكلات نزولاً على الدرج... لكن في بيتنا القديم لا في المبرومة.). كما صار يعرف أن سارة ليست طبّاخة فقط لكنها بصّارة أيضاً. كل صباح تتجادل العاملات هنا بسبب برنامج الأبراج. قاعة الغسيل فيها راديو واحد لكن الأبراج تُبث على إذاعتين في الوقت ذاته، والعاملات منقسمات بعضهن يفضل الإذاعة التي تقول أشياء جيدة والبعض الآخر يطلب إذاعة يسمّيها راجح إذاعة البوم لأنها تتنبأ له (برج الثور) بالكوارث.

بالنسبة الى أسئلتكم: لا يا أبي. لا أحتاج الى مال.

أمي: الوصفات واضحة وأول مرة أطبخ منها سأخبركم عن النتيجة. لا ترسلوا لي شيئاً، لا الزعتر ولا الكشك، الزعتر موجود هنا على فكرة. لا تحملي همّاً بشأن الثياب. في الشارع جنب الأوتيل عشرات المحلات تبيع الملابس بما في ذلك الملابس الداخلية بأسعار مقبولة. وكلّه «قطن قطن» وليس «القطن النايلون».

سارة: أشتاق لكِ وللحكي معكِ. هنا صرت أشتاق لرولا أيضاً. لم أعد أجدها متكبرة أو مغرورة أو مزعجة. السفر مفيد. لا تكتبي لي وصفات محاشي بالرزّ لأنها صعبة عليّ. لكن اكتبي لي وصفة القرنبيط بالطحينة (راجح يعرف دكاناً عنده طحينة ماركة اليمن- صيدا). أو وصفة القلقاس بالطحينة اذا كانت سهلة. جاين وإميلي طلبتا مني أن أعد لهما طعاماً لبنانياً.

رولا: سأسأل لكِ عن أسماء رسّامين أستراليين. الطيران حلو، خصوصاً في الدقيقة الأولى، حين رأيت بيروت تحتي وشاطىء الأوزاعي والبحر والجبال. لا، بنات سيدني لسن أجمل من بنات بيروت. لكنهن مختلفات. الأجنبيات بعدد الأستراليات. المهاجرون الى هنا أكثر من سكان أستراليا! عرّفني راجح على صديق له أصله من حيفا. أهله أتوا الى سيدني سنة 1948 وفتحوا مشغلاً يصنعون فيه مطرزات. تجنّسوا ومعهم جوازات أسترالية.

كلّ أخوته تزوجوا. واحد تزوج عراقية. واحد تزوج نيوزيلندية. واحد تزوج تركية. وواحد تزوج أرجنتينية. أخت تزوجت فلسطينياً يمت لهم بصلة قربى. وأخت تزوجت حلبياً سورياً عنده مزرعة خراف في شرق أستراليا. لا أظن أنني أقدر أن أعيش هنا كل حياتي. سأسأل بالنسبة الى المعاهد والجامعات ومسألة المنح والمساعدات التي يقدمونها وأتلفن لكِ.

رامي: لا، لا أولاد من عمرك يشتغلون في الأوتيل. بلى، يلعبون هنا أيضاً بالكلل و»الطحبلوش« والدراجات والسهم والفوتبول. لكن اللعبة التي يفضلّها الكبار تدعى كريكيت. يضربون طابة بلوح خشب. تشبه «القعقور» عندنا لكن بلا حجارة. وعندهم لعبة مثل الفوتبول لكنها متوحشة. اسمها ريغبي. فيها مصارعة قليلاً وأظن أنك ستحبّها. يوجد حمام في الطائرة، لكنه صغير.

راجح يسلّم عليكم كثيراً وخالي يسأل عن أحوالكم في هذه الأوضاع. أرجو أن تنتبهوا في تنقلاتكم خصوصاً أنت يا أبي. أحاول ألا أسمع الأخبار كما وعدتكم لكن الواحد لا يقدر أحياناً. راجح وإميلي وجاين يسمعون الأخبار وأعرف منهم. تأخر الوقت. لا صوت الآن إلا صوت الموج على الحواجز الباطون وصرير أسلاك الحديد ورافعات المرفأ. راجح يترك النافذة مفتوحة لأنه يعاني ضيقاً في مجاري أنفه. أصلي أن تكونوا سالمين. تصبحون على خير.

66
آل عازار 5 – الطابق السابع

لم يرجع سعيد. داوم أبوه على زيارة مركز حراس الأرز أربعة أيام من دون أن يعرف عنه شيئاً. في صباح اليوم الخامس خرج من «المبرومة» مضطرب الخطوة خافق القلب غير متوازن بسبب النوم القليل. قصفوا الأشرفية طوال الليل. معظم سكان البناية ناموا في الملجأ. لكنه نام فوق، في السابع! شعر الصيدلي راجي عازار منذ اختفى بكره أنه ليس هو، أن حياته بلا قيمة من دون

الصبي. لم يعرف ماذا سيفعل اذا لم يتمكن من العثور عليه. قبل الحوادث كان يتأخر أحياناً عن الصيدلية: يرسله ظهراً لتوصيل أدوية الى الرميل أو الى عبد الوهاب الإنكليزي ولا يرجع حتى غروب الشمس مع أن الرحلة ذهاباً إياباً لا تستغرق ثلث ساعة. طالما وبّخه على هذا التصرف وأعدّ في رأسه كلاماً يوقفه به عند حدّه. لكن سعيد هكذا: تدخل الكلمات من أذنه اليسرى كي تخرج من اليمنى. لا يعلق الحكي في رأسه الفارغ. لهث راجي عازار وهو يتسلق الطلعة المفضية الى مركز حراس الأرز. رأى رجلاً يكنس زجاجاً عن الرصيف، لابساً البيجامة والمشاية. لم ينتبه أن الرجل يبكي الا بعد أن ألقى عليه تحية الصباح. ارتفع أمامه وجه منكوب وسمع دمدمة غامضة تخرج بين شهقات. استغرب راجي عازار رؤية رجال يبكون في الشارع. لم يتعود على هذا مع أنه صار طبيعياً منذ 13 نيسان. جاوز الرجل الذي أفلتت فردة المشاية من قدمه فوقعت عن حافة الرصيف. شعر به متجمداً خلفه والمكنسة ترتجف في يديه. ماذا حدث له هذه الليلة؟ كان يفهم أن يحزن الواحد في الطريق، لكن اذا أراد أن يبكي عليه الذهاب الى بيته وإقفال باب على نفسه: لا يجوز أن تبكي هكذا أمام عيون العابرين! انعطف الى الشارع حيث «المركز» الذي صار أليفاً بمرور الأيام الأربعة الماضية. لم يجده في مكانه. أحسّ بدوخة وهو ينظر الى «جيب» عسكري مركون أمام الحيطان المتهدمة. رأى فتية وشباباً ينقلون أشياء من الركام الى بيك أب مخلّع. سمع صراخاً بينما يتقدم. لمعت الشمس على رشاشات تتحرك. سأل عن إبنه وقالوا له أن يسأل في المركز. حاول أن يتسلق تلّة الباطون والتراب الى النقطة حيث كان الباب من قبل. أحدهم لقطه من كنزته وشدّه الى خلف.

«أين تذهب؟»

«الى المركز.»

«ليس هنا يا عمي.»

دلّه وجه لطيف الملامح الى مركز آخر في السيوفي. رأى ضباباً أصفر يزحف على الطرقات. مرّت سيارات مسرعة عالية الأبواق. سمع رصاصاً. انحنى وركض. برقت الشمس على مرايا شاحنة. توقف دقيقتين في مدخل بناية قريبة من ساحة ساسين. كانت القذائف تصفر في الجو. أحدهم ركن سيارته في عرض الطريق وخرج منها راكضاً ولجأ الى مدخل البناية المقابلة. بقي باب السيارة مفتوحاً ومحركها شغالاً. حين توقف القصف تابع راجي عازار طريقه. المحلات أنزلت الأبواب الحديد الجرارة من دون أن تقفلها. تركوها مفتوحة نصف فتحة. لعل القصف يتوقف. هذا ليس وقت القصف. ما زال النهار في أوله. والخبز لم يوزع بعد. انحدر في درب السيوفي. عثر على مركز حراس الأرز من دون أن يسأل. جاوز عربات عسكرية وتسلق الدرجات الى حيث يجلسون ويشربون الشاي ويأكلون مناقيش الزعتر. كانوا سبعة أو ثمانية وسألوه ماذا يريد.

«إبني، إبني سعيد عازار معكم.»

«من؟»

«أنتم تسمّونه طوطو، طوطو عازار.»

خرجت الكلمات غريبة من فمه. كأنه يلفظ نوى خوخ مدببة الحواف، جارحة.

«اسألْ في الداخل.»

أبعد أحد المسلحين ساقه من أمام الباب. دخل راجي عازار وهو يمسح العرق عن وجهه.

❊

وجد فتاة في سنّ إبنته كلوديا قاعدة وحدها وراء مكتب في غرفة فارغة الا من بعض الكراسي وصناديق الذخيرة. كانت غارقة في غيمة دخان. تركت سيجارتها على حافة المكتب وانحنت وأخرجت دفتراً من جارور لا

يراه. بحثت عن الإسم وقالت لا، ليس هنا، لا سعيد ولا طوطو، لا أقدر أن أساعدك. انتبهت أنه دامع العينين وأن رقبته ترتعش وهو يحاول ألا يبكي أمامها. أين ينظر؟ دارت برأسها وتأملت مستغربة صورة السيدة العذراء المعلقة وراء ظهرها. لم تنتبه لها الا الآن. الوجه الأصفر المتورد والثوب الأزرق. السيدة تجمع يديها وتصلي. سمعت إنفجاراً غير بعيد. سكبت ماء في فنجان وأعطته للرجل كي يشرب. لم يكن عندها أشياء تفعلها وقالت له اقعدْ. جلس على الكرسي. شرب نقطة من الفنجان وبدأ يشرح لها.



أفرغت مشط رصاص على المكتب وأحصت الرصاصات الثلاثين وهي تصغي اليه. ثم عبأت المشط من جديد. نظر الى أصابعها والى ذراعها عارية حتى الكوع لأنها تطوي كمّ الجاكيتة العسكرية. تماسك لسبب بسيط: كانت تشبه بناته. بعد ذلك، وهو يغادر المكان، تحول تماسكه الى فزع شديد. وللسبب نفسه. حتى أنه نسي لحظة أن سعيد اختفى.



طلعات ونزلات. طرق متعرجة. ناس يركضون. عمود دخان وراء الحديقة. إمرأة عجوز تبحث عن قطة بين كراتين زبالة. انزلق على قشور وتوازن قبل سقوطه. استخدم منديله ومسح عينيه وأنفه. حين وصل الى حيّ العبد توقف القصف تماماً. كان الشارع هادئاً. في سوق الخضر لم يرَ أحداً. قبل أن يبلغ «المبرومة» بنوافذها الخضراء لمح أحد باعة السمك يخرج صندوقاً من سيارة رينو. تعرف الى وجهه ومشى اليه وألقى التحية. سأله البائع هل رجع سعيد. كانت الرائحة مقبولة والسمك شبه طازج. قال الصيدلي راجي عازار للبائع الواقف على رصيف المسمكة شيئاً غير مفهوم (كأنه تعلّم لغة جديدة) ثم أعطاه ظهره ودخل بين البراميل وأكياس الرمل واختفى في البناية حيث يسكن.

❉

بيت عازار صار كثير البكاء. فسدت الحياة الجماعية شبه القروية للطابق السابع. لم تعد أبواب الشقق مشرعة معظم الأوقات على صحن الدرج الفسيح. توقفت الجارات عن التشاور بشأن طبخة اليوم. تعطلت صبحيات القهوة وقعدات تنقية العدس ونقر الباذنجان. اختفت الكراسي التي كانت تترك سابقاً خارج الأبواب. تكررت بفارق شهور قصة آل حبيب على الطابق الرابع. طبعوا صورة الصبي وعلقوها في مدخل البناية (حيث تعلق عادة ورقة النعي) وفي أزقة حيّ العبد وعلى الباب الزجاجي للحلاق وفي شوارع الأشرفية. كانت صورة صغيرة بين صور كثيرة أكبر حجماً لشهداء أو مفقودين أو زعماء. ناجية عازار (أم سعيد) ذهبت الى مكتب المحامي وكيل البناية وطلبت منه المساعدة. أعانها على وضع إعلان في الجريدة لأنه شعر أنها لن تخرج من مكتبه بسهولة.

❊

مفقود: سعيد عازار. خرج سعيد راجي عازار (24 عاماً) من منزله في حيّ العبد في الأشرفية ولم يعد. يرجى ممن يعرف عنه شيئاً الاتصال بالسيد زخريا الزمار على الرقم 302402.

مفقود: شبيب قدورة. خرج شبيب عباس قدورة (28 عاماً) من منزله في تل الزعتر ولم يعد. يرجى ممن يعرف عنه شيئاً الاتصال بالرقم 217224.

موجود: جاءنا من السيد خير القارح أنه نقل ظهر الاربعاء ثلاث فتيات من محلة الروشة الى كورنيش المزرعة، وان احداهن نسيت في سيارته الخصوصية قميصاً أصفر وأسود. يرجو صاحبته الاتصال ب 217900 أو 432133

❊

حين فقدوا الأمل ظهر سعيد عازار في البناية مدججاً بالسلاح يحمل

على ظهره كيساً ثقيلاً. ضحكته القوية هزّت الدرج. أمه سمعته قبل أن تقرع الجارات بابها. طارت ومرّت بين الأجسام وانحدرت وبلغته وهو ما زال على الطابق السادس. كان محاطاً بأولاد البناية يوزع عليهم الشوكولا وسط جلبة لا تصدق. لم يصعد منفرداً. رأت سكان الطبقات التحتانية يطلّون برؤوس متعجبة. لم تهتم بهم ولا سمعت الأصوات التي تهنئها برجوعه سالماً. لم تستغربه في زيّه القتالي مع أنها لا تحب السلاح عموماً. لكنها استغربت لحيته المشعثة. عانقها ورفعها سنتمترات عن الأرض. ألقى الكيس الذي يقرقع على البلاط. حمل أخاه على كتفه. أخواته تعلقن به باكيات وهو ظلّ يضحك. هذه المرة لم يصرخ أبوه في وجهه لأنه تأخر. عانقه أبيض الشعر ناحل الوجه مرتعش الأصابع. صار الصيدلي راجي عازار في 27 يوماً من انتظار المجهول، عجوزاً. بكى أمام ناس تجمعوا في صحن الطابق السابع.

«إبني! إبني!»

تمسّك به ولم يفلته.

67
آل زغلول 5 – الطابق الأرضي

أشفقت راغدة زغلول على الست عازار في فترة اختفاء إبنها. ظنّت أنه خُطف أو قتل كما يحدث كثيراً، وجثته رميت في البحر أو في المكب أو في الأسواق. فعلت شيئاً ستندم عليه لاحقاً: فتحت لأم سعيد باب السطح.

❊

«اتركي المفتاح معنا كي نعمل نسخة منه.»

«هذا قفل قديم ولا ينسخون عن المفتاح.»

«في هذه الحال لا تقفلي الباب.»

«والأغراض؟»

«الأغراض في الغرفة. وعليها قفل. لا نملك ماعزاً. لن نأكل شتلاتك.»

الست عازار والست بدّور وحتى الست الحويك. كان حصاراً كاملاً.

«والأولاد؟ واذا وقع ولد عن السطح؟ من يتحمل المسؤولية؟»

«لن يلعبوا فوق. ممنوع. السطح للغسيل. وزريعتك نزيحها الى الزاوية ونسقيها لكِ.»

❋

سرعان ما تكسّرت شتلاتها. اغرورقت عيناها بالدموع. لم تحزن على الزهور مقدار ما حزنت على ضياع الحديقة السرّية التي كانت لها وحدها. كنست التراب وحطام الفخار. أعادت ترتيب صف التنكات وراء الخزان الكبير (خزان البناية). زرعتها من جديد. قبلت أغراس حبق من الست الحويك التي حلفت لها أن يونس وجوزف لا يلعبان أبداً على السطح. الست بدّور وعدتها أن تسأل البنات كي تعرف من أوقع التنكات لأن بولس كما تعرف لا يلعب خارج البيت. راغدة زغلول رأت شربل عازار يهرب ويختفي. أم سعيد واجهتها كأن شيئاً لم يحدث، كأنها لم ترَ الشتلات واقعة على الأرض وهي تجمع غسيلها الأبيض!

❋

انتظرت حتى خلا السطح من الغسيل تماماً ثم أقفلت الباب بالمفتاح. كانت خائفة وهي تفعل ذلك لأن الست عازار تخيف بلسانها وحركاتها، وصارت تخيف أكثر منذ رجع إبنها ملتحياً مسلحاً يحمل شمعدانات ذهبية في كيس جنفيص. تصرفت أم سعيد مرة أخرى كأنها لا تعرف. كأن الباب ما زال مفتوحاً. التقتها في مدخل البناية وهي تمسح. تكلمت معها عن أشياء مختلفة (الوضع، الأسعار، الكهرباء، القنص، الطقس) وتابعت طريقها خارجة الى السوق. راغدة زغلول مسحت عرقها وصلّت أن تكون ربحت

حرب السطح. لم يدم انتصارها طويلاً. جاءت كوليت من الدكان بلا لون في وجهها، مصدومة. سألتها هل تحرش بها صاحب الدكان أو أحد المسلحين. قالت لا. سألتها ما بها اذاً؟ أخبرتها أن مدام عازار قالت لها بالصوت العالي وهي تقلّب الخسّات في الدكان ان ابنها الصغير شربل أصابه اسهال لأنه يلبس ثيابه رطبة. «... كي تتشمس حضرة جناب أملِك على السطح!»

❋

بعد ذلك تصرفت الست عازار مرة أخرى كأنها لم تقل شيئاً. راغدة زغلول احتارت وارتبكت طوال أيام. كلما التقتها تحكيها عن أشياء كثيرة ولا تذكر باب السطح. انتبهت أنها نسيت الشتلات بلا سقاية. انتبهت أنها تتجنب ما أمكنها الطلوع الى السابع. بدأت تفكر في حل لهذه الورطة وجاء الحل بطرقات على الباب ذات صباح. لم تنزل الست عازار من أجل المفتاح لكنها أرسلت صغرى بناتها هناء.

«أمي تقول الغسلة كبيرة اليوم. اطلعي وافتحي لها باب السطح.»

❋

دارت تسقي الشتلات العطشى بالكيلة بينما الست عازار تنشر الغسيل.

«اغسلي يديك وتعالي ساعديني يا أم يوسف.»

طقطقت الملاقط في السلّ. نشرت معها. الشرشف الأزرق خفق غائماً أمام عينيها.

«أنا يا أم يوسف لا أحبّ أن أؤذي. سعيد إبني أراد أن يخلع باب السطح. قلت له لا.»



علامات السطح البارزة:

1 - الغرفة المقفلة. مفتاحها مع صاحب البناية. لا تحوي نافذة.

2 - خزان الماء. عملاق بيضاوي الشكل. يسع 180 برميلاً. بُني بالباطون

على الطريقة الفرنسية المتبعة في باناما. تصل اليه مياه الدولة (مياه نهر الكلب شمال بيروت). ثم تتوزع بأنابيب قصدير الى شقق البناية.

3 - مدخنتان مزودتان بسقفين مائلين يمنعان المطر ودخول الرياح. المدخنة الشرقية تجمع دخان بيوت آل زخور وآل خير الدين (آل صعب الآن) وآل الخوري وآل شقير (آل حبيب الآن) وآل كرم (آل طانيوس الآن) وآل العبد، إضافة الى دخان قازان الحطب في الحمام المشترك (أزيل لاحقاً) على الطابق الفوقاني حيث شقق الخادمات. المدخنة الغربية تجمع (بالترتيب العمودي من أسفل الى أعلى) دخان بيوت آل موسى (سيد موسى الحتّوني الناطور القديم أو «أبو مسعود» كما عرف في الحيّ مع أنه لم يتزوج ولم ينجب) وآل ثابت (ثابت وشرارة) وآل المر (آل القوتلي لاحقاً وآل سمعان الآن) وآل عطية، وآل نصّار (آل رزق الآن) وآل بسّول (آل شحروري لاحقاً ثم آل زيدان) وآل هاينيكن. الدخان مصدره قازانات الحطب المستعملة لتسخين الماء في البناية منذ الأربعينات وحتى أواخر الخمسينات حين غيّر البعض الى القازانات الغاز لأن الغاز أسهل من الحطب. آل شقير ركبوا قازاناً بلجيكياً على المازوت وهذا أخرج دخاناً فظيع الرائحة أسود كدخان المطاط في غابات غواتيمالا. انتقدهم السيد أيوب العبد وغيّروه الى قازان غاز. لكن هذا لم يصمد طويلاً لأن قازانات الكهرباء (السخّان السلك أو القضيب أو القازان الترموستات كما سمّوه) التي تشبه براميل معلّقة على الحائط بالبراغي، غزت بيروت أثناء الستينات بالتزامن مع الميني جوب (تنانير قصيرة) والنظارات الشمسية على شكل فراشة. كفّ الدخان عن الخروج من المدخنتين بعد ذلك إلا خلال الشتاء: ظلّ السيد أيوب العبد يشعل الموقدة الحطب. لم يُدخل مدفأة الغاز الى بيته. غيّر القازان الى واحد على الكهرباء لكنه لم يهجر نار المدفأة القرميد في صالون القعود. أثار هذا تعليقات ساخرة في البناية، لكن بعيداً من سمعه. السكان ظلّوا يرون آثار نقلات الحطب على سجادة المصعد. فككوا الرفوف المشبّكة بالحديد الرفيع والمخصصة

لتخزين الحطب المقطع، وباعوا القازانات العتيقة الى تجار الخردة. اتسعت بعد ذلك شرفاتهم وركّبوا مراجيح. مناخ بيروت لا يتحمل مواقد الحطب التي تصلح لأوروبا. المهندس اليوناني الذي وضع تصميم المبرومة ورسم خريطتها أضاف المواقد على مضض لأن السيد العبد طلبها. لم يفهم المهندس أناستاسيوس كريستيديس ضرورتها فهو يسكن مع زوجته البيروتية في رأس بيروت منذ سنوات طويلة ويعرف جيداً طقس هذه البلاد. كان من أتباع المدرسة العملية الأميركية التي تحتقر الزينة. لعله اعتبر الكاتدرائيات جرائم هندسية: يستغرق بناؤها قروناً ويهلك بسببها عمال كثر وفي النهاية تضاء بالشمعات ولا يرى أحد تخاريم تيجانها. زوجته أقنعته أن ينفذ رغبات السيد أيوب لأنه هو من سيسكن في البناية. صمّم الموقدة المبلطة بالقرميد على طراز الموقدة الانكليزية في «ماركواند هاوس» في الجامعة الأميركية حيث يُدرّس. قال للسيد أيوب العبد أن صديقه رئيس الجامعة لا يشعل موقدته أبداً لكنه يخزن فيها كتباً قديمة. السيد العبد شرح له أن الطقس هنا، في الأشرفية، أبرد من طقس رأس بيروت. لم يقتنع المهندس لأنه يؤمن بميزان الحرارة. السيد العبد الذي لوّعه صقيع جبل لبنان في سنوات الطفولة حتى أرسله الى خط الإستواء، لم يشرح أسبابه أكثر.

4 – أجران حجرية مقلوبة ومصفوفة كالمقاعد. مخضرّة بخزّ (طحلب) يصفرّ صيفاً وتحرقه الشمس. نُقرت الأجران بإزميل ومطرقة في قرى عكار شمال لبنان كي تستخدم لدقّ اللحم للكبّة. اقتناها السيد العبد – كما اقتنى الدغارات الفخار التي تزين جنبات بيته- لأنه يهوى جمع الأثريات.

5 – خيمة (عريشة عنب) بقيت منها السقالة الخشب: أربعة أعمدة صقيلة تسقفها جسور متقاطعة. الكرمة يبست وبادت. ضرب الرمد أوراقها وحفر الدود جفنتها (جذعها). لم يتأثر خشب الخيمة بالمطر والشمس ولم تنل منه السوسة ولا دودة العنب. لكنه فقد لمعته (لمعة «الفرنيش» الذي يحفظه) وتغطى بطبقة من السخام والغبار. هنا ستعلّق الست عازار، ثم بقية ستّات السابع، الحبال وأسلاك المعدن من أجل نشر الغسيل. هنا كان السيد أيوب

العبد يسهر قبل سنوات طويلة مع ذكرياته ويدخن أرجيلته سامعاً بناته تحته (نوافذ الصالون مشرعة) يعزفن البيانو.

6 – تنكات الناطورة وشتلاتها. تمسح أوراقها ورقة ورقة. تبدّل مواقعها بحسب حاجتها الى الشمس أو الظلّ. وتمنع عنها أذى الريح بأكثر من وسيلة. حين اكتأبت إبنتها الكبرى كوليت بعد زواج أختها الأصغر منها داليا قالت لها تعالي معي وأدخلتها المصعد وكبست الزرّ 7. لم تعرف كوليت ماذا تريد أمها. ظنّت أنها بحاجة الى مساعدتها في شيء ما على الطابق الفوقاني. شعرت أنها غير قادرة على التنفس في علبة المصعد الرجراجة. أوشكت أن تتهجم على أمها بالحكي لأن أمها لا تفهم كم هي متضايقة. لكن أمها سحبتها من يدها وقادتها على الدرجات الى «فوق». فتحت باب السطح بالمفتاح المعلق من رقبتها. كانت ساكتة ثم ابتسمت. أشارت لكوليت أن تتقدمها. لم تفهم كوليت لماذا تجلبها أمها الى هنا. كان السطح دائماً مكاناً مقفلاً، محرّماً وخارج الحدود. لم تفهم لماذا تعتني أمها بتنظيفه ما دام السيد العبد لم يعد يطلع كي يسهر فوق. أغاظتها ابتسامة أمها لكنها رفعت قدمها مع ذلك وتجاوزت العتبة. وجدت الهواء نقياً يبرق كالفضّة، والشمس محجوبة بغيمة قطنية تتوسط سماء زرقاء. رأت زهوراً ملونة وورقاً أخضر. شاهدت حساسين وعصافير دوري تطير مزقزقة عن حافة السطح. صعقها الفراغ الشاسع. داخت من سكون الأعالي. شهقت وهي تخطو الى أمام: انكشف لها البحر. بانت بواخر راسية في خليج. استدارت ورأت سلسلة جبال مخضرة ووجه أمها يستدير مشرقاً كأيقونة.

68
آل الخوري 7 – الطابق الثالث

ثلاث مرات أثرى السيد لويس في أفريقيا. ثلاث مرات أفلس. كان شاباً مغامراً. لم يزرع بنّاً (قهوة) ولا كاكاواً. تاجر بالعاج ثم بالألماس. تنقّل بين سييراليون وبوستوانا وناميبيا. هرّب بالبواخر حجارة بيضاء شفّافة مخبّأة في أكياس شاي كيني مجفّف، الى لشبونة ولندن. كان حلمه أن يقع مرة واحدة في حياته على جوهرة مثل «ألماسة دادلي» المشهورة.

❋

عثر عليها فتى أفريقي في 1869 بينما يسقي أغنامه. كانت تنتظره بين حجرين في جدول ماء. باعها لجارٍ ألماني مزارع يدعى شالك فان نيكرك مقابل خمسين خروفاً وعشرة ثيرانٍ وحصان. الألماني باعها في انكلترا للأخوة ليلنفيلد وقبض11 ألف جنيه استرليني. هؤلاء باعوها للكونتيسة دادلي ب 25 ألف جنيه استرليني. وزنها 47.69 قيراطاً، أي 9.59 غرامات. القيراط (200 ميليغرام) وحدة وزن في الماس، لكنه مقياس نقاء في الذهب: «ذهب عيار 24 قيراطاً» معناه ذهب نقي لم يمزج بعد برصاص أو فضة لصناعة المجوهرات. لويس الخوري تعلّم على يد خاله الصائغ روبير حلبي الذي قضى حياته متنقلاً بين متجرٍ في كينشاسا- الكونغو (أو زائير) وبيتٍ في بيروت. الألماس تقاس قيمته بحسب أربع مزايا: الصفاء، اللون، الوزن، والقطع (قبل تشذيب حجر دادلي كان يزن 16 غراماً). على عكس خاله لم يزهد لويس الخوري في العبدات الزنجيات وجمع العمل الى المتعة: تزوج إمرأة من ناميبيا لا تُرى في الليلِ لولا بياض أسنانها. أسكنها مزرعة شاي جعلها محطة للراحة. أنجب عدداً غير محدد من أطفال سود وسمر بعثرتهم الأعوام الى أربع جهات بينما أبوهم يكتشف طريقاً الى مقبرة فيلةٍ. لم يعثر

على الجوهرة التي حلم بها في ليالي بيروت وهو يصغي الى قصص خاله. وتجارة العاج حفرت في ظهره جروحاً. لكنه ظلّ ينهض بعد كل ضربة. في عقب الإفلاس الثالث، سلك درباً آمنة: اشتغل مع «شركة بترا دياموندز ليميتيد» مستشاراً براتب شهري وسمساراً يجمع حصى الماس من منقبين مغامرين في ضواحي فريتاون، مقابل عمولة، تماماً كما جمع جده شرانق القزّ من بيوت جبل لبنان للفرنسيين أصحاب كرخانات حلّ الحرير، في بتاتر (معمل بروسبير بورتاليس)، وفي القريّة (معامل أرملة غيران وأولادها).

*

أصعب من الإفلاس كانت خسارته لصديق شاركه أسفاره (سليم البستاني من دير القمر- جبل لبنان). قضى في تشرين الأول (أكتوبر)1949 بالملاريا. لم تحمه حبوب الكينا ولا الحرز القماش المعلق مع الصليب الخشب حول رقبته. دفنه وهو يترنح حزناً محاطاً بعبيد نسي أسماءهم، وسهر الليل يشرب الويسكي المعتق 12 سنة وينظر الى المطر الأفريقي الغزير منهمراً على أشجار الموز النائمة. طنّ البعوض في أذنه. قرر أن يرجع. وجد مفاجأة تنتظره في بيت خاله (معلمه) في بيروت: الطفلة الذكية التي طالما لاعبها عند المساء كبرت وصارت في سنّ الزواج. كانت هي جوهرته. لن يكتشف ذلك الا بعد ولدين (شارل ثم جرجي) وبعد مرض فظيع (سكري) أودى بحياتها. هكذا أوصلته الأيام الى وحدته في «بناية أيوب» في الأشرفية.

69
آل العبد 3 – الطابق السادس

طبقة غبار تغطي المكتب. ذبابة ميتة تتحلل. إطارات ذهبية لصور فوتوغرافية تغرق في عتمة راكدة: بنات السيد أيوب العبد يجتمعن في عرس الكبرى (تزوجت مهاجراً لبنانياً التقته في حفلة تعارف أقامها «النادي

السوري الإجتماعي» في مكسيكو سيتي). مصباح المكتب تطوقه غزلان خزف صيني. أقلام ستيلو مبعثرة. خراطيش حبر. دفتر حسابات مختوم في الوسط بشعار المطاحن المستدير. روزنامة بالإسبانيولي تزينها لوحات مائية تصور 12 مرفأ في أميركا الجنوبية، أولها مرفأ مونتيفيديو (الأورغواي) وآخرها مرفأ سان أنطونيو (تشيلي). عدد من «أوراق لبنانية» (مجلة شهرية تعنى بتاريخ لبنان- يصدرها يوسف ابراهيم يزبك- الادارة: حدت بيروت، تلفون 18 - الاشتراك عن سنة: ست ليرات لبنانية) صادر في كانون الأول 1955 ومفتوح على صفحة مغبّرة تحمل عنواناً: «مخطوطة لبنانية- المير بشير يفقد أبناءه في المنفى».

«... نفذ لنا خبر موت الأمير خليل في صمايطا. وكان أخوه الأمير أمين مريضاً في دار ملاصقة لدار والده فلم يخبروا الأمير بشير(وكان مفلوجاً) بموت ولده الأمير خليل. ولما اشتد الحال على الأمير أمين أمرني الأمير بشير أن لا أفارقه. وكان السيد أحمد دركزلي عنده حين مرض. فأرسل الأمير بشير الخوري أسطفان الى إبنه يقول له: «اعتقْ جاريتك وعبدك وعبدتك، لعل الله ينظر إليك.» فطلب الأمير أمين السيد مصطفى والامام وشيخ البلد. واجتمعوا ولم يكن بينهم غيري سوى السيد أحمد دركزلي. فقال الأمير أمين: «اكتبوا وصيتي كما تسمعون مني وأنا في صحة العقل التي يعتبرها الشرع الشريف: قد عتقت جاريتي ملكدار لوجه الله الكريم ولها في ذمتي 25 ألف قرش مع أثاث هذه الدار وما بيدها من مصاغ وملبوس. وعتقت عبدتي زعفران لوجه الله ولها في ذمتي 6 آلاف قرش. وعتقت عبدي ريحان وله في ذمتي 6 آلاف قرش. وفي ذمتي أيضاً لخادمي خليل بو شاكر وخادمي أنطون عازار 6 آلاف قرش لكلٍ منهما. وقد أقمت وصياً على ثلث مالي السيد مصطفى وآمره ان يدفع ما فيّ ذمتي لجواري وخدمي في أول فرصة. وان يدفع نفقتي (مصروف المأتم) من مالي.» فقبل السيد مصطفى بفرح. وأوصى الأمير أمين بتوزيع بقية ماله على فقراء الإسلام وانصرف الجميع الا أحمد دركزلي. وبعد

يومين، الساعة الثالثة من الليل، وبينما أنا خلف ظهر الأمير أمين وهو يجود بنفسه، وقعت من حائط الأوضة قطعة من الكلس وفارقت النفس الجسد. وظهرت رائحة مثل جية القبور. ولما لم يكن غيري في الأوضة طلعت الى دار الحريم بالخبر. فوجدت السيد أحمد دركزلي يراود الجارية ملكدار عن نفسها! فتركتهما على تلك الحالة وذهبت الى خليل بو شاكر وأنطون عازار وأيقظتهما. فأتيا في ثياب النوم لنقلع عن الميت ثيابه.» (مذكرات رستم باز خادم الأمير بشير شهاب الذي رافقه من لبنان الى المنفى ووصف مأتمه في اسطنبول في 1 كانون الأول 1851).

*

على حافة المكتب إبريق فخار غُطيت فوهته و»زلومته« بقطعتين مخرمتين شغل صنارة، تتصلان بخيط حرير كورسيكي أصفر اللون. الإبريق ينشّ ماء من مسامه. ترطب الزجاج تحت قعدته الخشبية. المقعد نُحت من خشب الجوز على شكل راحة اليد. اذا مسحت زجاج المكتب ترى طوابع بريد وبطاقات معايدة.

70
آل طانيوس 5 – الطابق الخامس

ارتأت أن تشارك زوجها أعماله. أخذت تنزل الى المستودع أثناء غيابه وتوزع الأوامر على الشغيلة. أزاحت الشاب الذي وظفه كي يبيع من وراء الطاولة. جلست مكانه. فرشت غطاء على الفورمايكا. اغتاظ نسيب طانيوس. الليرات التي تتجمع في جيوبه فعلت فعلها وقسّت قلبه. بطش بأم جان ومنعها من النزول الى المستودع. تحايلت عليه حتى قال انزلي لكن لا تتدخلي بالشغل. رجع ذات مساء من المرفأ وتفاجأ بلافتة عريضة مخططة

بالأحمر تتعلق من درابزين شرفة بيت زخور، تماماً فوق بوابة المستودع: «معرض أبو جان للأدوات الكهربائية». ترجل مفتوح الفم مدهوشاً وخبط الباب خلفه. وقف في نصف الطريق يتأمل اللافتة القماش والخط الجميل وإمضاء الخطّاط بركات في الأسفل. لم يفهم. خرجت زوجته من داخل المستودع ووقفت في ضوء مصباح البلدية ساكتة. حين اقترب منها عرقان القميص عاجلته بجملة أطفأت غضبه: «اذا كانت لا تعجبك نطلب غيرها.» سرعان ما اكتشف أنها تاجرة بالفطرة. كانت أمهر منه ومن الموظف الشاب في البيع والمساومة والحكي مع الزبائن، وأبرع في توجيه العمال، وأذكى بدرجات في تنظيم المحل بحيث يتسع لبضائع زيادة. أعطاها الحرية في التصرف بشرط أن ترجع اليه في القرارات المهمة.

«بالتأكيد»، قالت.

*

لم تشكّ في عودته الى أحضان الأرتيستات لأن المعرض شغل تفكيرها. كان يذهب ولا يرجع ولا تسأله أين كان لأن ابتعاده عن الحيّ أحسن لها. لكنها عرفت أن شيئاً يحدث من وراء ظهرها حين بدأ يفرط في استخدام الكولونيا. أجّلت المواجهة الى وقت أنسب. ركّبت تلفوناً للمعرض ونشرت إعلاناً مع رقم الهاتف الجديد على حيطان الأشرفية. شغّلت مهجّرين عاطلين عن العمل يفهمون بتصليح البرادات وتركيب الغسالات وجمع الأجهزة التي تجيء منفصلة القطع. أمّنت صيانة مجانية فترة سنة لكل من يشتري. باعت بحسومات هوائيات جديدة تلتقط بث تلفزيون قبرص. طبعت في مطبعة السيوفي بوالص تأمين وكفالات مكوّنة من سطور عربية قليلة لكنها أكثر فائدة من كتالوجات أجنبية سميكة لا يقرأها أحد. خاف زوجها حين صنعت ختماً للمعرض واشترت علبة حبر وبدأت توقع الكفالات.

«اذا رجعت الدولة سننتهي في الحبس!»

أخبرته أنها استشارت المحامي الزمّار وأن عليه الآن تدبير رخصة للمحل.

«رخصة؟»

قالت له إنها ستتكفل بالأمر اذا سمح لها. مبدياً عدم الاهتمام، أومأ لها نسيب طانيوس بالموافقة.

❋

حاربت على أكثر من جبهة. الشريك الدركي مخايل شليطا صار كثير الدعسة في المعرض. ظنّت أنه يراقب المبيعات حتى لمحته يبصبص على نورا. أرسلت إبنتها الى البيت كي تدرس مع أختها وأجلست مخايل كي يشرب فنجان قهوة. سألته عن حرمه المصون، ألم تحبل بعد؟ ضحك ضحكة حصان وقال بالعكس، داليا حبلى! عرفت من نظرته ماذا تستطيع وماذا لا تستطيع. شعرت بنار في بطنها. كانت مخاطرة. لكنها قررت أن تلعب به أولاً.

71
آل زغلول 6 – الطابق الأرضي

من آمن بي وإن مات فسيحيا

زوج الفقيدة: بيار خليل كرم

أولادها: فؤاد وزوجته ماريان ايوزو وعائلتهما

نادية زوجة فادي الترك وعائلتهما

ريشار وزوجته كارمن عقل وأولادها

شقيقاتها: مودي أرملة الدكتور سيمون نجار وأولادها

جميلة خوري

نهى زوجة ميشال بخعازي

وعموم عائلات: خوري، كرم، ايوزو، عقل، الترك، نجار، بخعازي، طيار، سلوم، حداد، ميلاد، عاصي وأنسباؤهم في الوطن والمهجر ينعون اليكم بمزيد الحزن والأسى فقيدتهم الغالية المرحومة

أنجيل ريشار خوري

زوجة بيار خليل كرم

المنتقلة الى رحمته تعالى يوم الأحد الواقع فيه 28 أذار 1976. يحتفل بالصلاة لراحة نفسها الساعة الثالثة بعد ظهر يوم الثلاثاء 30 الجاري في كنيسة سيدة البشارة للسريان الكاثوليك- الأشرفية ثم توارى الثرى في مدافن العائلة.

لكم من بعدها طول البقاء.

تقبل التعازي قبل الدفن في صالون الكنيسة ابتداءً من الساعة الحادية عشرة صباحاً وفي يومي الاربعاء والخميس في صالون كنيسة سيدة البشارة للسريان الكاثوليك- الأشرفية ابتداء من الساعة الحادية عشرة قبل الظهر ولغاية السادسة مساء.

الرجاء ابدال الأكاليل بالتبرع للكنيسة واعتبار هذه النشرة اشعاراً خاصاً.

*

فتى يحمل رزمة وفرشاة، قفز عن دراجته ودخل البناية. علق ورقة النعي وخرج وهي ما زالت تشتري بطاطا من البيك اب الذي يتوقف على زاوية محطة البنزين. راغدة زغلول أميّة لا تفك الحرف. طلبت من إحدى بناتها أن تقرأ لها الإسم.

«أنجيل ريشار خوري.»

«من؟»

«زوجة بيار خليل كرم.»

«مدام كرم؟ الست أنجيل؟»

وقفت مصدومة لا تصدق.

*

ارتدت فستانها الأسود والكولون الأسود السميك وكنزتها السوداء. انتعلت سكربينة بكعب عالٍ طلتها بالدهان الأسود طويلاً كي تملأ التشققات. مشت من حيّ العبد الى كنيسة السريان وهي تتمتم صلوات وتحصي حسنات مدام كرم. كانت تحبّها وتذكر دوماً كيف تناديها كي تصعد وتُنزل أكياس الملابس التي تتبرع بها أول الشتاء لجمعية الشابات المسيحيات. حين تركت البناية اشتاقت لها. سألت زوجها هل يذهب معها الى المأتم. سألها هل هي خوتاء. طلبت من كوليت أن ترافقها. قالت «عندي فروض» وهربت طالعة على الدرج. المدارس مقفلة بسبب الأوضاع لكن الدرجات ما بين السابع والسطح تحولت الى ثانوية بنات. لا ينقص الا اللوح والطبشورة. نصف صبايا البناية في البكالوريا. سابين الحويك بنت الست أم يونس مدرستها قريبة من ساحة ساسين ولا قنص على طريقها. تذهب وتجلب منها الفروض كي تدرس في البيت. الصفوف فارغة. المدير لم يتمكن من جمع الطلاب ولا الأساتذة. أخبرتها كوليت ان الأساتذة يرسلون الفروض مع شوفير وأحياناً يملونها بالتلفون على سكرتيرة المدير. قالوا ستفتح المدارس في كانون الأول لكن بدأ الخطف من جديد فأجّلوها. قالوا ستفتح في كانون الثاني لكنهم اقتحموا الكرنتينا والدامور فأجّلوا بدء الدروس مرة أخرى. قالوا ستفتح في شباط ورجع القصف وأجّلوها الى موعد يحدد لاحقاً. الشمس قوية تقدح الرأس. انتبهت راغدة زغلول أن العرق جعّد فستانها. أسرعت في خطواتها. تريد بلوغ الكنيسة قبل أن تزدحم. لن تقدر أن تلقي على الست أنجيل نظرة وداعية اذا كان المكان مملوءاً. تستحي بين الخواجات والستات ولا تقدر. أوقفها مسلحون على مفرق عبد الوهاب الانكليزي. كانوا غرباء عن الأشرفية. لم ترَ وجوههم من قبل. خافت. أمروها أن تقف جانباً بانتظار مرور الموكب.

تنفست من جديد بينما تسمع حديث نساء تجمعن تحت ظلة دكان. عرفت أنه موكب القائد العسكري في الكتائب: وليام حاوي يقصد كنيسة السريان للتعزية بإمرأة قتلوها. لم تعرف راغدة زغلول هل تكمل طريقها. استولى عليها الفزع لأن الست كرم لم تمت ميتة ربّها بل ماتت مقتولة.

❋

قتلوا الست كرم في المغطس وهي تتحمم. الخادمة الحبشية التي تفرك الطناجر بقشر الحامض وتلمعها في الجانب الآخر من البيت، لم تسمع شيئاً. نافذة الحمام عرضها 40 سنتمتراً وارتفاعها أقل من 30. تطلّ على فراغ. وفي البعيد، بين غيوم، تلوح الغربية. رصاصة القنّاص ثقبت الزجاج من دون أن تكسره. خلّفت دائرة أصغر من فرنك (خمسة قروش) حيث مرّت.

❋

بدأ القصف وتبعثرت الجنازة. لم ترَ الست في التابوت ولا عزّت زوجها. انفجارات وزمامير وناس يركضون. لمحت السيد لويس الخوري. لم يأتِ أحد غيره من المبرومة. استقل التاكسي التي تنتظره واختفى. بقيت مختبئة في كاراج بناية عند مفرق شارع مونو حتى توقف القصف. كلبة سوداء بيضاء العينين راقبتها طوال الوقت وهي تئن كأنها حبلى هاجعة لصق الحائط في النزلة المعتمة.

72
آل عازار 6 – الطابق السابع

دارين عازار حاولت أن تصادق إبنة الأستاذ أندريه موراني. كانت مثلها تحبّ القراءة. اللقاءات الأولى شجعتها على الاستمرار في المحاولة. لكن الصلة لم تتطور الى صداقة. اكتشفت وجود مسافة بينهما: مسافة لا تقاس

بسماكة الحائط الفاصل بين الشقتين. أربكها صمت الفتاة التي فقدت أمها. في بعض اللحظات شعرت بها قريبة، لكنها سرعان ما كانت تتقوقع على نفسها من جديد وتبتعد الى عالمها المقفل. بدت محاطة بدرع وكلما جربت اختراق الدرع أشعرها فشلها بالوهن والغيظ. أعارتها لورا كتباً حين طلبت منها. لكنها لم تدخلها الى غرفتها! كانت تتركها واقفة جنب التلفزيون المطفأ وتدخل وتجلب الكتب. تضعها على الطاولة وهي تزيح صحن الملح جانباً وتترك لها أن تنتقي منها. كانت نحيلة وكئيبة وقادرة على البقاء وحدها طوال النهار وهي تسير في غرفتها ذهاباً إياباً مصغية الى أغنيات غريبة. دارين لم تهتم قبل اليوم بالموسيقى الأجنبية. سألتها ماذا تسمع، من الذي يغني؟ أرتها كاسيتات عليها عناوين بخط أزرق منمنم. عدّت أسماء: شارل أزنافور وألفيس بريسلي وسيلفي فارتون. جوني هوليداي وديميس روسوس وداليدا. جو داسان وميراي ماتيو وميشال ساردو. ترجمت لها أغنية انكليزية لم تفهمها. صوتها ابتهج فجأة وهي تتكلم عن الموسيقى. ودّت دارين أن تكون صديقة هذه الفتاة اليتيمة الأم إلى الأبد. كانت طبيعتها هكذا: في ساعات محددة تستولي عليها أحاسيس نبيلة عارمة القوّة حتى توشك أن تبكي أو تختنق.



أخوها يظهر في البيت بين حين وآخر. يأتي بلا إنذار محاطاً بجلبة أولاد. يفرغ على الصوفا أو الأرض كيس جنفيص ملأه مسروقات تسمّيها أمّها غنائم حرب. يأكل صحن طبيخ مع رزّ من دون أن يغتسل. ثم يلتقط رشاشه عن الكرسي ويختفي من جديد وهو يضحك. لم تفهم كيف صار هكذا. أبوها في المقابل انقلب ظلاً مريضاً شبه أخرس. كأن سعيد سرق منه طاقته كلّها. كان والدها من قبل- قبل أن يتهجروا- يخبرهم قصصاً وهم يجلسون للعشاء. انتهى كل ذلك. اذا تهجمت عليه أمها يخرج ولا يرجع حتى يقفل الحلاق

دكانه. رأته يرتاح على الدرج مرة. اكتشفت أنه صار عجوزاً.

*

أرسلتها أمها كي تشتري بصلاً وهي غارقة في القراءة. فجأة حاصرها عالم أفظع من كابوس. سمعتهم في سوق الخضر يقولون ان حركة فتح نقلت قواتها من الجنوب الى جبهة الفنادق وان الفدائيين الفلسطينيين الذين اقتحموا الدامور يخططون لاقتحام الأشرفية.

«الله يسترنا الليلة!».

أخافتها الدعوة المنطوقة بصوتٍ حار. فزعت بينما عجوز بشعة الوجه تصلّب على صدرها. الذعر شوّه ملامح النّاس في الطريق. رجعت مرتجفة الى البيت.

73
آل زيدان 4 – الطابق الخامس

أيقظته بعد منتصف الليل. «غسان، غسان! أسمع حركة.» شمّ رائحة العرق الذي يفرزه جسمها كلّما باغتها التذكر. مدّ يده الى الكومودينة وكبس زرّ المصباح. لا كهرباء. أشعل قداحته وعثر على الشمعة. في العتمة يصعب عليه أن يطرد أشباحها. أعطاها كوب ماء. شرح لها أنها أصوات الجيران الجدد، فوق.

«من؟»

«الدكتور ادغار معلوف وعائلته. أخبرتكِ ونحن في المحل. استأجروا شقة السادس مفروشة من البروفسور هاينيكن لأنه سكن في الغربية.»

«متى؟ لم تخبرني!»

«هذا بسبب الدواء. ألم يقل لنا الطبيب؟ جزء الدماغ المخصص للحفظ

يتأثر بدواء الأعصاب. أخبرتكِ عن بيت معلوف لكنكِ نسيت. الدواء ينسيكِ.»

«لكنني لا أنسى!»

تهدّج صوتها. ساعدها على الخروج من السرير وقادها الى الحمام. وقف حاملاً المنشفة بينما تغسل وجهها وتمسح رقبتها. كان متعباً ويريد أن ينام. رقصت الظلال على المغطس الأزرق. أخذها قبل يومين الى طبيب دلّوه إليه في مستشفى مار جرجس (الدكتور سيزار صرّوف- جائزة شرف ووسام جامعة باريس). ألقى الدكتور نظرة على علب الأدوية الفارغة ثم ابتسم لهما. كان هذا غريباً: أن يبتسم! بحثتْ عن المنشفة في مكانها ولم تجدها ثم رأتها بين يديه. بدا نائماً وهو يقف مغمض العينين. وضعت يدها على كتفه ورجعت معه الى السرير. بينما يطفىء الشمعة هدر البراد. جاءت الكهرباء.

❋

جريدة الخميس 22 كانون الثاني (يناير) 1976: الأحرار يعلنون سقوط الدامور والكتائب يجمعون المقاتلين. النازحون يتحدثون عما تعرض له الأطفال والبنات والنساء. إمرأة تضع مولوداً في ملجأ قصر السعديات. المعلومات التي توافرت أمس عن الحال الأمنية في الدامور أشارت الى ان الرصاص ظل يسمع حتى المساء في الأطراف الجنوبية للبلدة. وقالت معلومات حزب الوطنيين الأحرار أن 80 في المئة من البلدة أصبحت محتلة. وفي الجيّة لا يزال الدخان يتصاعد من المنازل المحترقة وقد نزح أهلها الى قصر السعديات. وكان عدد من سائقي السيارات العمومية نقل بعض الركاب الى البلدة. واستمر التوتر في الدامور خلال النهار وافادت المعلومات الرسمية ان اشتباكات متقطعة حصلت في الطرف الجنوبي من البلدة من مسافات قصيرة بين «القوات المشتركة» والعناصر التي لا تزال تدافع هناك. وقال شاهد عيان انه رأى الدخان يتصاعد من المنازل التي أحرقها

المهاجمون أثناء تقدمهم. وعلى صعيد السعديات علم ان القذائف المدفعية من عيار 155 ملم تساقطت قرب القصر. وقد تعرضت الطريق الممتدة من الدامور الى القصر للقصف.

أهوال الدامور: ووسط هذا الجو استمرت عملية نزوح الاهالي بواسطة الخافرات العسكرية والبواخر المدنية وطائرات الهليكوبتر. وتعرضت هذه خلال النهار لرصاص المسلحين في البحر والبر مما جعل عملية الهبوط والرسو صعبة. وقد وصلت الى مرفأ جونيه دفعة جديدة من النازحين من أهالي الدامور والجية بلغ عددهم 2000 نسمة أُنزلوا في القاعدة العسكرية في الكسليك من باخرتين كبيرتين و4 لنشات عسكرية ومراكب صيد. وفور وصولهم أحيلوا على مراكز الاستقبال لتسجيل أسمائهم ثم قدمت اليهم الاسعافات وسُلموا ألبسة تمهيداً لتوزيعهم على الأديرة والمؤسسات التربوية. وروى النازحون الأهوال التي رأوها في الدامور والجية وتحدثوا عن الضحايا التي سقطت إما قتلاً وإما ذبحاً وقالوا إن عدد المقاتلين الذين قضوا بلغ عشرة في حين ان ثمة نسوة وبنات واطفالاً ذبحوا وآخرين تعرضوا لاعتداءات شتى. وذكر النازحون ان من بقي في المنطقة توزع على دور السعديات والغفري ومكاوي وغندور. واشاروا الى ان الرصاص اطلق على الزوارق في اثناء انطلاقها من السعديات وقد جرح من جراء ذلك حنا الصوري والبحري حنا جوني وسوسن انطون قهوجي ويوسف عبد الله معوض بشظايا الصواريخ.

وضعت طفلاً في الملجأ: وانقلب أحد الزوارق التي نقلت النازحين في البحر بسبب الأنواء ونجا ركابه بأعجوبة وأنقذهم الغطاسون الذين رافقوا العائلات. ومن المآسي التي أفرزتها حركة النزوح ان عايدة القزي التي كانت في عداد الواصلين أمس الى جونيه، وضعت طفلاً قبل يومين في ملجأ قصر السعديات. وكان الرئيس كميل شمعون أشرف امس على عملية توزيع العائلات وسيعود اليوم الى الكسليك لمتابعة العملية. وقد أصدرت «الحركة

الوطنية في كسروان» بياناً دعت فيه «الى المساهمة في تقديم الالبسة والغذاء الى النازحين.»

الأحرار: سقطت عسكرياً: وأصدر أمس «نمور» الأحرار بياناً عن الوضع العسكري وقالوا فيه انه نتيجة التعزيزات التي وصلت من طريق عرمون «الى الفريق الثاني يوم الثلاثاء من مقاتلين ومصفحات ومدافع ثقيلة اضطر النمور الى التراجع امام المسلحين الذين كانوا يحرقون البيوت في تقدمهم ويدفعون الاهالي الى النزوح بنسبة 95 في المئة من الدامور والجية الى قصر السعديات الذي لا يزال يتعرض للقصف بمدافع عيار 155 ملم وقذائف الكاتيوشا ويقدر عدد القتلى المدنيين في القصر وضواحيه من جراء القصف ب20 قتيلاً.» وأضاف:» على رغم اننا نعتبر ان الدامور سقطت عسكرياً لان المسلحين احتلوا نحو 80 في المئة الا ان «النمور» لا يزالون يحتفظون بمواقع أمامية في الدامور والجية لحماية قصر السعديات من جهتي اليمين والشمال.» وخلص الى القول:» وتواجه النمور الأحرار اضافة الى صعوبات الصمود مشاكل الأغذية والالبسة والعناية الطبية لنحو 10 آلاف نازح من الدامور والجية الى قصر السعديات، ونقل نحو ألف منهم الى جونيه بحراً. لكن نقل النازحين يصطدم بهياج البحر وبتعرض الزوارق لنار المسلحين.»

جنبلاط تأخر كثيراً: ونقلت احدى الوكالات المحلية تصريحاً للسيد كمال جنبلاط دعا فيه أهالي الدامور الى البقاء في منازلهم ومنطقتهم كما دعا النازحين منها الى العودة اليها. وقال:» لا يجوز تهجير اخواننا في الدامور الذين هم أعزاء علينا. ويجب سحب المسلحين من الدامور ليبقى أهاليها في بيوتهم.» وقال انه في صدد تشكيل بعض الوفود الى الدامور من أجل حث الأهالي على البقاء، وبالتالي تأمين ما يلزمهم لسير حياتهم العادية.» ودعا كل الفرقاء الى الكف عن الفوضى، وبالتالي الى عدم التعرض للدرك، «لأننا في حاجة الى قوى الأمن لحفظ النظام في المناطق.»

وبحث السيد جوزف الهاشم رئيس اقليم الكتائب في الشوف مع الأباتي

شربل قسيس في تأمين ايواء أهالي الدامور والجية المهجرين كما عرض مع البطريرك خريش هذا الموضوع ثم التقى الشيخ بيار الجميل وأذاع الأمر الكتائبي الآتي:» على جميع المقاتلين من الدامور والجية القادرين على حمل السلاح تسجيل اسمائهم من اجل تنظيمهم تمهيداً للرجوع الى منطقة الدامور- الجية والدفاع عن الكرامة وتنظيف الأرض من وطأة الأقدام الهمجية والموجات التترية والغريبة.»

طريق الجنوب- بيروت: وعلى صعيد آخر وزعت وكالة الأنباء الفلسطينية» وفا» تصريحاً أدلى به المقدم أبو موسى قائد لواء القسطل وقائد قوات العاصفة في الجنوب وجاء فيه «ان سبب معركة الدامور هو اقفال الطريق الدولي الذي يربط بيروت بالجنوب.» وأصدر التنظيم الناصري- اتحاد قوى الشعب العامل (قيادة فرقة «النصر») سلسلة بيانات عن الوضع قال فيها ان قواته قامت «بعمليات ردع قوية شملت اقليم الخروب لصد محاولات التسلل»، في حين ذكر بيان آخر ان مدفعية التنظيم وقوات منظمة حزب البعث العربي الاشتراكي في الشوف قصفت «مراكز تجمعات الانعزاليين في السعديات حيث كبدتها خسائر في الآليات والافراد.» واضاف البيان:» وفي الوقت نفسه قصفت مدفعيتنا الصاروخية مواقعهم الخلفية منعاً للمساعدة التي يتلقونها عن طريق الدامور فألحقت بقواتهم المساندة أعظم الخسائر.»

موقف الجبهة الشعبية: وظهر أمس عقدت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين مؤتمراً صحافياً في مكتبها في مخيم عين الحلوة وأوضح فيه السيد أبو نزار موقف الجبهة من أحداث لبنان وأكد ارتباط ما يجري فيه «بالمخطط الامبريالي الصهيوني لترتيب أوضاع المنطقة وفق الارادة الامبريالية وفرض تسوية حياتية على الشعب الفلسطيني.» وعن دور مقاتلي الجبهة في منطقة الدامور قال:» إن المقاتلين يرفضون أي عملية قتل أعمى أو قتل على الهوية

أو تهجير الأهالي وانهم يوالون الاتصال بالذين هجروا بيوتهم للعودة الى البلدة حيث تؤمن لهم كل المتطلبات.» وأضاف: «ان الجبهة تقاوم عمليات النهب والسرقة وتواصل توعية الجماهير في القرى التي تم السيطرة عليها لافشال مخطط التقسيم وابعاد هذه الجماهير عن القوى الانعزالية.»

*

رابطة رأس بيروت تجمع المساعدات لأهالي المسلخ- الكرنتينا: جاءنا من رابطة شباب رأس بيروت الإجتماعية: «نظراً الى الفاجعة الأليمة التي أصابت أهالي منطقة المسلخ - الكرنتينا، قامت لجان الرابطة في كل أحياء المنطقة بحملة جمع تبرعات ومواد غذائية وكسائية. تشكر الأمانة العامة للرابطة الذين ساهموا في هذه الحملة وهي تأمل من ذوي القلوب الرحيمة مد يد المساعدة الى هؤلاء المنكوبين عن طريق الاتصال بمركز الرابطة في شارع ليون الهاتف الرقم 350554».

التجمع الوطني لدعم بيروت يهتم بالمهجرين من المسلخ والكرنتينا: جاءنا: «عقد «التجمع الوطني لدعم صمود بيروت» امس اجتماعاً قرر فيه الآتي:

1 - اسكان المهجرين من المسلخ والكرنتينا في شاليهات الجناح موقتاً ريثما تؤمن اعادتهم الى بيوتهم ودعوة كل التنظيمات التي ساعدتهم الى المساهمة في نقل من تبقى منهم الى الجناح.

2 - دعوة المواطنين على اختلاف فئاتهم وطوائفهم الى مساعدة المهجرين بالتبرع بعلب الحليب والبطانيات والمواد الغذائية المعلبة وايصالها الى مراكز التجمع الآتية: نادي متخرجي المقاصد في البسطة، نادي الرواد في رأس النبع، المركز الصحي الاجتماعي للرابطة الاجتماعية في الطريق الجديدة- مفترق صبرا، خلية شهاب في رأس بيروت، هيئة الخدمات الاجتماعية في الظريف- الزيدانية.

3 - الطلب الى الصليب الاحمر اللبناني تقديم المساعدة العاجلة للمهجرين المذكورين ليبقى عمله انسانياً وغير فئوي او طائفي.

4 - دعوة الهيئات والجمعيات في الدول العربية الى ارسال المساعدات خصوصاً الغذائية، مع اشادة التجمع بقرار مجلس الأمة الكويتي في هذا المجال واستعداده لقبول المساعدات الكويتية.

5 - دعوة المهجرين الى انتخاب لجنة منهم للمراجعة في القضايا المذكورة والتنسيق مع التجمع.

6 - تكليف رؤساء لجان الأختصاص المركزية في التجمع وهي الاسكان والتموين والاجتماع والصحة متابعة تنفيذ التوصيات عملياً وتفويضها اتخاذ مختلف الاجراءات اللازمة لانجاح المهمة.»

*

«كشفت الكرنتينا أن المسيحيين مستعدون للتوحش. بعد أقل من 48 ساعة اكتشفتُ في الدامور ان الفلسطينيين أيضاً مستعدون أن يتوحشوا.» (ذكريات بول رزق).

74
آل هاينيكن 3 - الطابق السادس

عانى الدكتور إدغار معلوف الأمرّين قبل أن يعثر على سكن في الشرقية. هجر البيت الذي يستأجره منذ تسع سنوات في منطقة الكولا - الجامعة العربية، بعد أن تعرض للإهانة والضرب على يد مسلحين لا يعرفهم. كان محترماً في الحيّ. لا أحد يسيء اليه. وتحميه الصداقة التي تربطه بالسفير الفلسطيني (سفير سابق في ليبيا) المقيم في البناية نفسها. طالما ركن سيارته قبالة مركز فتح وتبادل التحية مع الحراس. لكن ما وقع كان خارج الحسبان: حادث سير عادي (بويك ارتطمت به من الخلف وكسرت النمرة) تطور الى عراك.

الدكتور معلوف شخص مهذب. ضعيف البنية ضئيل الحجم. لم يطلب حتى تعويضاً. كان مستعداً أن يصلح سيارته على نفقته. لكن الرجل الذي نزل من البويك الزيتية اللون حزر من اللهجة انه مسيحي. خرطش عليه السلاح ودفعه الى خلف وأمره أن يدفع خمسين ليرة لأن ضوء البويك العريض انكسر. أراد أن يتكلم معه لكن الرجل نادى صوتين أو ثلاثة والدكتور معلوف وجد نفسه محاطاً بفرقة كاملة من الغرباء. كان بعيداً شارعين عن منزله وعن مركز فتح حيث يعرفه المقاتلون. حاول أن يشرح. ضربوه وأخذوا ما يحمله (220 ليرة تقريباً). لطموه على وجهه وركلوه على جسمه وذهبوا. حين ساعده مارة على النهوض اكتشف أن زجاج سيارته تحطم.

❊

السنة السابعة يأخذها عطلة من الجامعة (ساباتيكال) ويخصصها لأبحاثه. زوجته أرادت أن تهاجر وقالت انها خائفة على الأولاد ولا تتحمل أن يربوا في هذا الجو. مانع طويلاً لأنه لا يقدر أن يترك كل شيء بهذه البساطة. ليس مثلها. حين اعتدوا عليه وافق أن ينتقل من الغربية الى الشرقية. لكنه لم يقبل السفر الى خارج البلاد. كلّف سماسرة وفتش في الاعلانات المبوبة. زار شققاً ضيقة لا تتسع لعائلته (أربعة أولاد) وأخرى واقعة في أماكن يبغضها. أحد الأصدقاء (أستاذ في كلية الزراعة في الجامعة الأميركية) هبّ لمساعدته وأخبره عن هذا البيت. تناولا الغداء (كبّة أرنبية) مع دكتور الفيزياء الكوانتية فردريك هاينيكن في مطعم فيصل في شارع بلس. وقع عقداً قانونياً كامل البنود محرراً من الكاتب العدل بينما يرشف فنجان قهوة مع قطعة بسكويت. وحصل على مفاتيح البيت المفروش في «بناية أيوب»- الأشرفية.

❊

يعجز عن النوم. يقف قبالة المرآة. يتفحص بقعة سوداء. الجرح في جبهته لم يختم تماماً بعد. مرات ينقط منه دم على أوراقه. كل صباح يبدل

اللاصق ويتأمل المادة البنّية التي امتصتها القطنة. اذا جاءت الكهرباء ليلاً يتفقد المجلدات في المكتبة. معظمها باللغة الانكليزية لكن بينها كتباً ألمانية وأخرى هولندية. لم يعثر على كتب فرنسية لكنه عثر على كتب صينية أو يابانية! اضطر أن يمسكها بالعرض لا بالطول وتفحص سطورها العمودية مدهوشاً. شعر أنه يتعدى على خصوصيات البروفسور وهو يقرأ اسمه الثلاثي مكتوباً بخط اليد على الصفحة الأولى. ردّ الكتاب الغريب الى مكانه على الرف. جلس من جديد الى المكتب الذي صار مكتبه كي يقرأ (أو كي يحاول أن يقرأ) بحثاً تاريخياً- إقتصادياً أرسله له من أميركا صديقه الدكتور شارل عيساوي (جامعة برينستون- نيوجرسي)، طالباً ملاحظاته.

❊

«تكاليف المعيشة في لبنان بين 1820 و 1860 نقلاً عن مصدرين: أ- مقدمة بطرس البستاني المخطوطة غير المنشورة ل» روبنسون كروزو» (دانيال ديفو- الطبعة الانكليزية: 1719) في ترجمة بطرس البستاني العربية الصادرة عن مطبعة الأميركان- بيروت (طبعة أولى 1861، طبعة ثالثة 1902). ضمّ الكتاب عند نشره مقدمة مختصرة عن الأصل، مع اشارة بطرس البستاني الى انصرافه لانجاز هذه الترجمة أثناء فترة حوادث 1860 في جبل لبنان ودمشق (فصل الربيع) والى امتلاء مدينته بيروت بالمهجرين النصارى بينما هو منكب على انهاء عمله. ب – «مفكرة الشيخ طنوس الشدياق» وهي مخطوط محفوظ في مكتبة نعمة يافث في الجامعة الأميركية في بيروت تحت رقم (647.1 – الرف 55). وفيها الحسابات الشخصية التي سجلها المؤرخ طنوس الشدياق (1794 – 1861) شقيق أحمد فارس الشدياق الأوسع منه شهرة. وهي وثيقة مهمة لأنه سجل كل بنود مصروفاته بين 1820 و1840. كما سجل دخله خلال الشهور وكان يتكون من عطايا نقدية وعينية يتلقاها من أمراء وأعيان يتصل بهم. وتشير المصروفات الى اتجاه تصاعدي سببه ارتفاع مستوى

معيشة الشدياق نفسه، ولكن يحتمل تفسير ذلك أيضاً بارتفاع الأسعار الذي عرفته سوريا مع غيرها من بلدان الدولة العثمانية في تلك الفترة. مثلاً: زاد أجر الحلاقة من بارة واحدة عام 1821 الى بارتين عام 1836. وعاش الشدياق في بحبوحة في بيروت فكان يشتري مختلف انواع الفاكهة والخضر بما فيها التين والعنب والمشمش والبطيخ والليمون الحلو والليمون والقرع والخيار والبصل والباذنجان وأحياناً الطماطم (البندورة)، ومشترياته الأساسية الأخرى تشمل الأرز، الحليب، اللبن (الزبادي)، البيض، الجبن، الزيتون، زيت الزيتون. وشمل غذاؤه الدجاج والضأن واللحم البقري. وعلى سبيل المثال اشترى عام 1827 اللحم 36 مرة. واشترى الجوز، والحلاوة (الطحينية)، والكعك، والسكر، والثلج، والتبغ، والفلفل، والبن - وليس الشاي- وكان يشرب النبيذ والعرق، ودخن كمية لا بأس بها من التنباك مستخدماً النرجيلة. وكان يتناول طعام الغداء او العشاء خارج البيت من حين الى آخر، كما كان يحلق شعره. واشترى الصابون، والورق أحياناً، ويلعب الورق مرة على الأقل، وكان يرسل ملابسه للغسيل والكي، وقد دفع عام 1820 مبلغ 25 قرشاً لعباءة وفي عام 1821 دفع 33 قرشاً و183 قرشاً وهي مبالغ كبيرة. وكانت لديه ساعة قام بتصليحها. وكان يتصدق من حين الى آخر بمبالغ بسيطة. ففي عام 1821 تصدّق 22 مرة ب 33 بارة، وكان سعر الخبز في تلك السنة بارتين. ومع ارتفاع الأسعار زادت المبالغ المعطاة كصدقات. وهناك مقياس آخر للقوة الشرائية يتمثل في ثمن المنديل الذي بلغ 3 بارات في 1821. وفي تموز/ يوليو 1840 دفع ايجاراً شهرياً للبيت بلغ 29 قرشاً...»

75
آل زخور 7 – الطابق الأول

ثلاثة أنقذهم البحر ليلة سقوط الهوليداي إن: جان قسطنطين افرام، ريمون زخور، وكاترين نمر. سحبوهم من مياه النورماندي مبلولين بالدماء شبه متفحمين. سيارة الإسعاف طارت بين القذائف. هذه المرة لم يرَ ريمون زخور وجهاً أشقر يلوح من وراء زجاج قاتم ولا بنايات تشتعل في ساحة الشهداء. كانت الظلمة دامسة والزعقات تفلت وحدها من جوفه وتضاعف آلامه. انكبست عيناه الى الداخل. في طوارىء أوتيل ديو كشطوا السخام عن صدره وذراعيه بالقطن والسبيرتو. تمزق جلد التصق بثيابه. بكلة حزامه الذائبة انتزعت قطعة من لحمه، أسفل البطن. خرج النفس من فمه الأسود. لم يصدقوا أنه حيّ مع أنهم رأوا أشياء غريبة في هذه الحرب. كان وجهه كتلة شمعية مشوهة. لكنهم نظفوه وغرزوا أنبوب أوكسيجين في ثقب فتحوه في رقبته. ضمّدوا لسانه الذي تجرّح بالعضّ. اكتشفوا كسرين في عظم الفك. كانت الأولوية إيقاف النزيف الداخلي وتخفيف ألم الحروق لئلا يتوقف قلبه. حقنوه بالمورفين. رأى بينما يغيب في جهنم حمراء تقع تحت جهنم السخام مباشرة، وجهاً من عالم لم يعد موجوداً. ليديا ثابت قصت بالمقص ثياب كاترين نمر. ألقت على ريمون نظرة. لم تعرف من يكون.



جان قسطنطين افرام زعق كأن أسنانه تُقلع. كان سائقاً ماهراً واذا ألقى قدمه على دعسة البنزين وهو خارج من كاراج الهوليداي إن تحت رشقات الرصاص، لا يرفعها حتى يبلغ المرفأ. مرة قوّص عليه رفاقه من حاجز

الرويال لأنهم لم يعرفوا السيارة الجديدة. انتقى جان قسطنطين سياراته السريعة من كاراج فينيسيا ثم من كاراج الهوليداي إن، وعاش كي يرى حروقه تشفى وجسمه يكتسي بجلد جديد. بعد سنوات طويلة، وهو ربّ أسرة كبيرة ويوشك أن يصير جدّاً، أحرق يده بركوة القهوة. زوجته دهنت حرقه البسيط بقليل من معجون الأسنان «كرست». استغربت اصفرار وجهه. لم تعرف أنه يتذكر رفيقة قديمة أفلتت معه من خروم الموت ثم جلس جنب سريرها وهو لا يدري كيف سيتكلم معها، لا لأن الضمادات تغطي فمه فقط، ولكن أيضاً لأنهم بتروا ساقيها الإثنتين من فوق الفخذ.

*

عندما تحدث الأشياء تحدث الى الأبد. لا تقدر بعد ذلك أن ترجع في الزمن الى الوراء وأن تبدل مكانك، أن تختار هذه النقطة بدل تلك النقطة، هذه الحياة بدل تلك الحياة، هذا القدر بدلاً من ذلك القدر. تحدث الأشياء مرة واحدة والى الأبد. هذا مرعب، فظيع، وقاتل، لكن ماذا تفعل؟

76
آل حبيب 7 – الطابق الرابع

اختفى رضا اسبوعين حين بدأت الحوادث. خرجت من البيت أثناء هدنة قصيرة بين جولتي قصف على جبهة الشياح- عين الرمانة. خاطرت مثل مجنونة. بلغت شقته. لم تجد أحداً. تكلمت مع رجل خمسيني طيب الملامح. كان قاعداً يسمع الراديو ويدخن في دكان السمانة على باب البناية. أخبرها أن معظم سكان الحيّ ذهبوا الى الجنوب والجبل بانتظار توقف الاشتباكات. سألته هل يعرف رضا، رضا حيدر.

«الأشقر الطويل الذي يدرس في الجامعة؟»

سألته هل يستطيع أن يخدمها خدمة، ويخبره اذا رآه أنها جاءت تسأل عنه.

«من أقول له يا إبنتي؟»

«أنا حلا. هو سيعرف من.»

«اذهبي الى أهلك يا حلا. سأخبره. اذهبي بسرعة، ولا تتكلمي مع أحد غيري. انتبهي من الحواجز، الله يوفقك.»

شعرت بالخوف وهي ترجع في طرقات فارغة الا من مسلحين.

*

تلفن لها صباح يوم من أيار (مايو) بينما البيت مقلوب رأساً على عقب: كانوا يحزمون أغراضهم للإنتقال من عين الرمانة الى بناية أيوب في الأشرفية. أختها آنا سبقتها الى التلفون ثم ناولتها السماعة. أخوها كارلوس كان واقفاً بين صناديق كرتون يحمل الشريط اللاصق ويبحث بنظرة حائرة عن المقص. أمها التي تلفّ الأطباق الزجاج بالجرايد نادت تطلب شيئاً. سمعت صوت رضا خافتاً مبحوحاً كأن سوءاً أصابه. قلبها نبض في زلعومها.

«رضا، أين أنت؟»

«هنا، في بيروت.»

«في الشقة؟»

«لا، أختي في المستشفى وجئنا معها.»

«أريد أن أراك.»

«أنا في البربير. لكن أقدر أن ألتقيكِ. أين يناسبك؟ في جنينة السيوفي؟»

«لا، لا، أنت أخوت؟»

«أنا الأخوت؟ أنا الذي أتكلم مع أصحاب الدكاكين وأسأل عن رضا حيدر؟»

«أختك في المستشفى؟»

«ولّدت في الليل. أين نلتقي؟»

«مقهى الأوتوماتيك.»

«أي ساعة؟»

*

التقت أختها هالة على الدرج. كانت تحمل رزمة أكياس. سألتها أين هي ذاهبة الآن؟ أزاحتها حلا من دربها، من دون أن تنتبه. كأنها تزيح كرتونة مملوءة ثياباً. لم ترد عليها. كان العالم موجوداً لسبب واحد فقط: كي تقطعه الى حيث ينتظرها رضا.

*

أقلتها التاكسي في 15 دقيقة. كانت أطول من 15 ساعة. عبرت طرقات مهجورة وأخرى قليلة الحركة شبه خالية. حين أطلّت على ساحة الدباس اختلف المشهد. وجدت أسواق الوسط التجاري مزدحمة، تعج بالمارة والتجار والعربات كأن شيئاً لم يحدث! لا رصاص يسمع في هذه الجلبة. شعرت أنها جاوزت للتو حدّاً لا يُرى بين دولتين، الأولى في حالة حرب، والأخرى (دولة الأسواق التجارية) لم تعرف الحرب يوماً ولن تعرفها. رأت الشرطي بالزيّ الإيطالي والحزام الأبيض العريض والقبعة الكحلية واقفاً ينظم السير بصفارته الفضة على تقاطع ويغان- ساحة الشهداء. تدافعت السيارات البيجو والمرسيدس والفيات والرينو شبه متلاصقة. مرّت الدراجات عند حافة الرصيف. باعة السمسمية وغزل البنات مشوا في الشمس ينادون على بضاعتهم. في مقهى الأوتوماتيك طلبت فنجان قهوة بلا سكر وعلبة «كنت» وكبريتة. نظرت الى ساعتها ثم الى الساعة السايكو المعلقة ثم الى ساعتها من جديد. أشعلت سيكارة. قبل أن تنفخ الدخان رأت رضا داخلاً مع شخص لا تعرفه. صافحت الإثنين. «أخي، توفيق.» استغربت كيف لا يشبهه أخوه أبداً. كان موظفاً في مصلحة الضمان الإجتماعي ويكبر رضا بتسعة أعوام.

لم يخبرها رضا أشياء كثيرة عنه لكنها عرفت نتفاً: متزوج وعنده صبي وبنت. ماركسي منتسب الى الحزب الشيوعي اللبناني وهو الذي دبّر المنحة لرافع (الأخ الثالث) كي يدرس الطبّ في جامعة برلين (ألمانيا الشرقية). ستتذكر دائماً أنها حين نامت مع رضا للمرة الثانية في شقته علّقت قميصه في الخزانة على شنكل لمّاع الخشب نُقر عليه بحرف انكليزي أسود أنه صُنع في جمهورية ألمانيا الديموقراطية.

❋

استأذن توفيق. «نصف ساعة وأعود. لا نقدر أن نتأخر.» خرج وتركهما. التصقت برضا وسألته هل اشتاق لها. أخبرها أنه صار خالاً هذه الليلة.

«أعرف، قلت لي على التلفون!»

سألها كيف تفعل ذلك، كيف تذهب تحت القصف الى الشقة؟ ضحكت من رعشة صوته. رواد المقهى نظروا اليها متسعي العيون وهي تعبث بشعره.

❋

ماذا كانت تلبس؟ فستان قصير كحلي بلا كمّ، مورّق بالأبيض، ينسدل بلا زنار على خصرها. كولون قطن أبيض. سكربينة بيضاء وجزدان أبيض. وهو؟ بنطلون أزرق ضيق على الفخذ يتسع تحت الركبة. قميص فستقي عريض الياقة. وصباط بلونين، أبيض وبنّي. سالفاه كثيفان وشعره يبرق في الضوء المنحدر من الزجاج. «كستك» ساعته ظلّ يطرق صحن القهوة. كان متحفزاً وأخفى السبب. انتظر فنجانه حتى برد ثم شربه في رشفتين. قبل أن يرجع أخوه حضنها وباسها في شعرها ورقبتها. هذا غير مألوف منه لأنهما في مكان عام. شعرت به ملتصقاً بوركها كأنه قطعة من جسمها. كتب لها على ورقة رقم تلفون بيت أخته في صور، وتلفون أخيه توفيق في برج البراجنة. على هذا الرقم ستتلفن لاحقاً لطلب المساعدة.

❋

لم يخبرها رضا عن الحواجز الطيّارة التي تنبت فجأة على الطريق الساحلي، بين الدامور وصيدا. لم يقل لها انهم اشتبكوا بالرشاشات في قريته قبل يومين. عانقها مرة أخيرة على الرصيف. تماسكت لئلا تبكي.

*

حين بلغت البيت وجدتهم حيث تركتهم، موزعين بين صناديق تتكاثر ولا تمتلىء. أغلق كارلوس عدداً منها. كان في الفانلة البيضاء يتصبّب عرقاً. تجادلوا أين يضعون الصناديق الموضبة، في الممر أم في الصالون؟ سمعت أباها في الصالون الآخر يطرطق بالتلفون ويجرب مرة تلو أخرى العثور على شاحنة أو بيك اب، ويعجز. كان الطلب عليها كثيراً بسبب موجة النزوح. تأخروا يومين. في هذه الأثناء اشتد القصف المسائي. بيتهم على الطابق السادس ومكشوف بالكامل لمدافع الشياح. بينما يتكومون في السينما التي صارت ملجأ الحيّ احترقت البناية بالقذائف. أنقذوا ما أمكن من أغراض. بكت آنا أمام سريرها المحروق. البراد وقع على طاولة المطبخ. هذه المرة عثر ميشال حبيب على بيك اب صغير. خرجوا من عين الرمانة ولم يرجعوا.

77
آل زغلول 7 – الطابق الأرضي

كوليت زغلول ليست قديسة. باكراً فقدت إيمانها بالربّ يسوع المسيح. قبل سنوات، وهي في التاسعة أو العاشرة، ركعت مخلعة المفاصل أمام تمثال والدة الإله في كنيسة السيدة. صلّت أن يموت أبوها. تلمّست طرف الثوب الحجري الأزرق. ناشفة العينين كررّت صلاتها تحت الصليب. لم يستجب الربّ. ظلّ عبدو السمكري حيّاً يرزق، يأكل ويشرب ويضرب، يشتم أمّها وأهل أمّها (مع أن أمّها يتيمة)، ويفعل الأشياء الفظيعة التي يفعلها. في

البدء كرهته وحده. لاحقاً كرهت أمها أيضاً لأنها تتحمل. غالبت هذا الشعور الأخير: عذبها مثل شوكة في اللحم. ساعدتها المدرسة وكذلك الجهد الذي أخذت تبذله للعناية بأخوتها. كانت تحميهم بجسمها من نوبات الغضب كما رأت أمها تفعل. داليا الأقرب اليها سنّاً غدرت بها وهربت. كافحت كوليت زغلول لئلا تكره أختها. ذهبت مع أمها وأبيها كي تزورها في بيت زوجها بين البرجاوي والناصرة. أخذوا معهم علبة بقلاوة. جلسوا على شرفة مشمسة تطلّ على الشارع وعلى بورة غطاها عشب أخضر نظيف وزهور صفر تتمايل في النور الباهر. زوج داليا الدركي جلس معهم لابساً زيّ الدولة. أبوها تكلم معه بلطف كأنه شخص آخر. أختها بدت فجأة غريبة بعيدة وأكبر منها سنّاً! لم تفهم كيف حدث هذا لكن الكراهية تبدّدت وهي تتناول قطعة كعك عن الصينية. أصغت الى أختها تحكي عن جارات كثيرات وعن صاحب ميني ماركت الناصرة وعن الحمائم التي توسخ تمثال بشارة الخوري وعن بائعة الدخان أم محمود التي تقرأ الكفّ وتتنبأ المستقبل. انتبهت كوليت كم اشتاقت الى صوت أختها. ودّت لو تبقى معها هنا ولا ترجع الى حيّ العبد أبداً.

*

شمّت رائحة كولونيا طيبة حين انفرد بها إبن الجيران أول مرة في المصعد. كانت نازلة وحدها الساعة العاشرة ليلاً من بيت سابين الحويك. فترة الاستعداد لامتحانات البريفيه. ثلاث سنوات قبل بدء الحوادث. سألها شارل أشياء لم تعد تتذكرها. لكنها لم تنسَ صوته الحلو. حين خطفوه وقتلوه حبست نفسها في الحمام. بكت مع أنه كذب عليها دائماً. عرفت حتى قبل أن يخطب الدرزية أنه لا يريدها لأنها بنت السمكري والناطورة. لم تتذكر أكاذيبه لكنها تذكرت جسمه وهو يضغطها على أزرار المصعد. الدفاتر أفلتت من يدها. خافت أن يراها أحد. دخلت البيت ساخنة الأذنين لاهثة. شكرت ربّها لأنهم ناموا. جلست على الكرسي حد الباب وانتظرت. أنفاسها المتسارعة لم تهدأ. صدرها تورم في كنزتها. كانت سعيدة ولا تصدق كيف

عانقها وأشبعها قبلاً. بقي صوته فيها طوال الليل ورأته في المنام يسألها هل تحبّ الورد الأحمر.

❋

شارل لم يكن الوحيد. لكنها لم تحبّ غيره. إيلي ثابت ظلّ يلاطفها على الدرج وفي باحة الكنيسة ووراء كافيتريا المدرسة الى ان انفرد بها في أحد الفصح وهي وحدها في البيت. كانت أجراس الكنائس تقرع والكعك القليل الذي خبزته أمها يرتاح على سطح البراد حيث لا تصل يد يوسف. في مدخل البناية ماءت قطة حائرة لا تفهم لماذا المكان ساكن. كوليت زغلول لم تعرف لماذا تركت باب البيت موارباً. دفعه إيلي ثابت بيده. قرعه قرعاً لا يُسمع. كان يرتدي بيجامة الرياضة وحذاء الفوتبول المزود ب «كلل» عظم في أسفله. سألها هل ذهبوا جميعاً الى القداس؟ دخل وردّ الباب ثم أقفله. تركته ينزع كنزتها لكنها منعته من نزع بنطلونها. قالت لا. قالت أبي يقتلني. في رأسها لم تقل أبي، بل «عبدو السمكري». قالت لإيلي «أبي» كي يتوقف. ذُعرت وهو يلعق بطنها كأنه كلب. كفّ عن الحكي. عصر لحمها في قبضته. سمعت صرير أسنانه. أبعدته وطلبت منه أن يخرج. وقف بين الغاز والمجلى. لبست بسرعة وهو يقوّس ظهره ناظراً الى داخل الطنجرة كأنه يحصي البيضات الملونة. لم يفتح فمه. لم يقل شيئاً. غادر متعثراً بشريط حذائه المفكوك.

78
آل زخور 8 – الطابق الأول

هذه المرة لن يخرج من المستشفى الى باتيسري نورا (شارع مونو) كي يشتري علبة شوكولا ويسهر في الهوليداي إن. ترنح ريمون عيسى زخور 72 ساعة على حافة الموت في غرفة العناية الفائقة. كانت الحياة رخيصة في الأسبوع الأخير من أذار 1976، لكن أطباء أوتيل ديو أبقوه على قيد الحياة

لهذا السبب بالذات: بدت الحياة لهم ثمينة بينما جبهة الفنادق تتهاوى فندقاً وراء فندق (الهوليداي إن ثم الهيلتون والرويال والنورماندي) والعدو يتقدم نحو المرفأ مهدداً الشرقية. كانت الشرقية تحاصر النبعة وجسر الباشا وتل الزعتر؛ زحفت «فتح» وحاصرت الشرقية! دبّ الذعر في الملاجىء. انتقلت الشائعة من فم الى فم مثل جرذ مصاب بالطاعون: الفلسطينيون والمرابطون والشيوعيون يحشدون مدرعاتهم على المحاور لاقتحام الشرقية.

*

ثقبوا صدره تحت الحلمة. أدخلوا أنبوباً واستعملوا منفخاً لنفخ رئته المنطبقة. تنشق دخاناً سمّمه وهو يهبط طبقات الجحيم من سطح الهوليداي إن. الرئة اليسرى تعطلت. تنفس جسمه برئة واحدة. الممرضات اعتدن على سحب مادة سوداء تفرزها قصبته الهوائية وتتجمع في فمه. ظلت رائحته شواء. حتى بعد طلي حروقه بالزيت والمراهم. استأصلوا الطحال وقسماً من الكبد. وشظية نحاسية بحجم ضرس العقل بلغت الأمعاء الغليظ. كانت عملية جراحية صعبة حتى في ختامها: فتّت خيط القطب لحماً محروقاً. عُلقت الأمصال المضادة للإلتهاب والتسمم. لم يُنزع أنبوب الأوكسيجين إلا بعد تسعة أيام. قال الطبيب مزرّراً عينيه: «لن يعيش».

*

ليديا ثابت لم تعلم أن ريمون زخور موجود في غرفة العناية المكثفة إلا بعد أن تلفنوا لها من فرنسا. فيرا سرسق زخور عرفت بإصابة إبنها وهي في مكتبها في مركز غولبنكيان، قبل أن تعرف ليديا ثابت وهي في المستشفى نفسه. تلفنوا لأهل ريمون زخور من «بيت الكتائب». الخط الدولي لم يتعطل. أبلغوهم ان ولدهم أصيب في حرب الفنادق ونُقل في حالة الخطر الى أوتيل ديو.

*

لم تكن المرة الأولى التي تتصل بها فيرا زخور. كثيراً ما تلفنت الى هنا والى البناية. لم تسألها لماذا لا ترد أمّها برناديت على التلفون. بالعكس: اعتذرت لأنها تلفنت على رقم المنزل. صارت تتصل بها على أرقام أوتيل ديو. وكل مرة تكرر السؤال ذاته: هل ترى إبنها؟ هل يمرّ ريمون على البيت؟ حين بدأت الخطوط تتقطع لم تشعر ليديا بالارتياح. اعتادت تلفونات المرأة الساكنة في باريس! بات السؤال عن ريمون مدخلاً الى أحاديث عادية. اكتشفت ليديا أنها ترتاح وتنعس في سكون المستشفى بينما فيرا تحكي في باريس.

*

امتلأ قسم الطوارىء بالجرحى ليلة 30 أذار. لم يبقَ في البراد مكان للجثث. جمعوها في كاراج تحت الأرض بانتظار نقلها. تأكدوا بلا راديو ان جميع الفنادق سقطت وان المعارك صارت الآن على باب ادريس وعند المرفأ وفي جوار ساحة الشهداء. لم يكن القصف عنيفاً على الأشرفية. اشتغلت مولدات الكهرباء في المستشفى. ارتفع الصراخ فظيعاً لأن الجرحى ولو كانوا مقاتلين لا يتحملون الألم. ساعدتْ في تضميد جراح ثلاث نسوة طاعنات في السنّ. جلبتهن الاسعاف من مأوى عجزة أصابته قذائف هاون أطلقت من أماكن بعيدة. أحد الجرحى ظلّ يصيح ويضرب العمود بينما عجلات سريره تنزلق على الدم. عند الفجر خرجت كي تدخن سيكارة. التعب شقّ صدرها نصفين. لم ترَ نجوم السماء ولا زهور الشجرة. ارتقت الدرج الى الغرفة حيث وضعوا ريمون زخور. لم تنظر الى وجهه المغطى باللفائف كأنه مومياء في توابيت الفراعنة. لم تفكر في أخوتها. تأملت كاحله والندبة البنّية التي سمحت لها قبل أيام أن تتأكد من هويته. دوّى انفجار قريب. ظلّ نائماً بسبب الأدوية. فكرت أن هذه القذيفة جاءت من النبعة لا من الغربية لأنها لم تسمع صفرتها.

*

في الغرفة حيث تسرق الممرضات ساعة نوم، وجدت الراديو شغّالاً.

نظرت اليه معلقاً من مسكته الجلد الحمراء الى مسمار في الحائط. تقدمت خطوة من سرير فارغ ينتظرها. كانت شبه دائخة بسبب الإرهاق والنوم القليل. لكنها استدارت وخرجت.

*

«حذر كمال جنبلاط من ضغوط شديدة تمارس على الحركة الوطنية والمقاومة الفلسطينية. وكرر رفضه وقف اطلاق النار قبل استقالة رئيس الجمهورية. وانتقد جنبلاط بعد اجتماعه بياسر عرفات أي دخول سوري الى لبنان. وقال رداً على سؤال: «هناك حشد من 17 ألف جندي سوري على حدود لبنان.» وأكّد أن «الحركة الوطنية تريد تبديل النظام السياسي العنصري الطائفي القائم ليحل محله نظام ديموقراطي حقيقي يلغي التصنيف السياسي للمواطنين على أساس الأديان والمذاهب.»

هذا وصرح رئيس حزب الكتائب بيار الجميل عقب خروجه من اجتماع «القمة المارونية» أنه «متأكد ان تسعين في المئة من اللبنانيين يريدون وقف اطلاق النار وتبقى العشرة في المئة التي لا تريد لأن البلاد لم تهدم كلها بعد ولأنهم يريدون فرض شروطهم وكل شيء على الأرض.» وقال إنه «يرى الآن بكل سرور ان الأمم المتحدة تحركت لتتدخل في القضية وسوريا اقترحت ذلك وهي بلد شقيق.»

وأعلن ناطق باسم «القوات المشتركة» أن ساعة الحسم العسكري دقّت باكتساح الفنادق وأن الحركة الوطنية اللبنانية صارت على قاب قوسين أو أدنى من تحقيق النصر الشامل.

ووصف الرئيس المصري أنور السادات ما يجري بأنه محزن للغاية وقال في حديث الى وكالة أنسا الايطالية ان المسؤولين الرئيسيين عن الوضع في لبنان هم الزعماء اللبنانيون على كل المستويات. وأشار السادات الى ان هناك ثمة تدخلاً أجنبياً وعربياً في لبنان وان التدخل الأجنبي يأتي عبر ارسال الأسراب

الى أطراف النزاع عبر سورية أما التدخل العربي فيتم أيضاً بواسطة سورية لتحقيق أهداف دمشق. وقال السادات ان الدولة الفلسطينية يجب ان تشمل الضفة الغربية للأردن وقطاع غزة عبر ممر يربطهما.»

هذا ونفى وزير خارجية العراق في تصريح من بغداد لوكالة الصحافة الفرنسية ما أذاعه راديو حزب الكتائب «صوت لبنان» عن تهديد العراق بالتدخل العسكري في حال قيام سورية بتدخل عسكري في لبنان. وأكد ان «الحكومة العراقية تعارض أي تدخل خارجي في شؤون لبنان الداخلية.»

وصرحت مصادر وزارة الخارجية الأميركية «أن الولايات المتحدة لن ترسل قوات الى لبنان في حال حدوث تدخل عسكري سوري هناك.»

هذا وأعلن وزير الإعلام السوري أحمد اسكندر أحمد ان بياناً حكومياً سيصدر خلال الساعات القليلة المقبلة حول الوضع في لبنان.» (راديو مونت كارلو)

79
آل رزق 6 – الطابق الرابع

«29 باتريك ستريت

سيدني- أستراليا

1976-4-2

آسف لقُصر الرسالة. منذ تلفونكم الأخير وأنا منزعج ولا أنام. قد أقبل أن تتهجموا عليّ، لكن كيف أرضى بتهجمكم على جاين وأنتم لا تعرفونها؟ أحاول أن أجد لكم الأعذار لأنكم في ظروف ضاغطة وغير عادية. أخبرتكم جاين خطيبتي، لكن الأفضل منذ الآن أن تفكروا أنها زوجتي. لا أجد بعد سبباً يدفعني الى التروي أو التردد. سنتزوج هنا قبل السفر الى طوكيو.

موقفكم ظالم. غير مفهوم وغير مبرر. مهما قلتم. أرجو أن تبدلوا رأيكم. لأنكم أعزاء عليّ أكثر مما تتصورون.

إبنكم وأخوكم كريم رزق.»

80
آل عطية 3 – الطابق الثالث

«سألتُها أين الأولاد؟ قالت ذهبوا الى المطعم. سألتُها أين إسحاق؟ قالت أخذهم الى المطعم. سألتُها لماذا المطعم، ألا يوجد أكل في البراد؟ صحن اللبنة ببودرة النيدو في المطعم أطيب من لبنة البقر في البيت؟ أم أن إسحاق يجد المصاري على الطريق كي ندفع خمس ليرات ثمن عروس لبنة؟ قالت لن يأكلوا لبنة. كانت واقفة الى النافذة تنظر الى أشياء لا أراها. سألتها أين ذهبوا؟ قالت أخبرتكِ أن راشيل عيدها اليوم وإسحاق أحبّ مفاجأة الأولاد لأنهم يفرحون بالجلوس في المطعم. سألتها لماذا بقيتْ هنا اذاً ولم تذهب معهم؟ قالت لا نريد أن نتركك وحدكِ. سألتها هل أحتاج اليها أنا كي أقوم الى الحمام؟ قالت إنها بقيت لأنها بقيت وليس من أجل ادخالي الى التواليت. قلت اذهبي معهم يا هدى، أنا لستُ طفلة. قالت راحوا منذ ساعتين، وبعد قليل يرجعون، لكن أنتِ نامي نصف ساعة الآن كي يرتاح صدركِ. كان أصبعها مرفوعاً يلمس خيوط المطر التي تسيل على الزجاج. أغمضت عينيّ كي أحررّها وتخرج ويرتاح صدرها. ماذا أقدر أن أصنع لها وأنا في هذا التخت؟ إسحاق أرقّ منها. يبسط الأسطوانات على الشرشف أمامي ويقول «أي واحدة؟». أربط يدي بيدي لئلا تمتد الى أسطوانة مكتوب عليها بالعربي «بيضافون». إبني لا يحبّ الطرب. أنتقي أسطوانة أجنبية لأنه يهوى الموسيقى الكلاسيك. كنت أحفظ الأسماء. موزار وباخ. مالر. بتهوفن. هواء هذه البناية فيه أسيد. مثل الحامض على البلاط. يبري رأسي. يملأني ثقوباً. تتسرب

من جسمي الذكريات. إسحاق يبتسم إبتسامة أبيه. من البوق النحاس في الصالون يخرج الصوت نقياً مهما رفعه. يفك إبرة الماكينة حين تعتق. يُنظف صحنها بالسبيرتو والقطنة. يمسح بمنديله غبار الأسطوانة. هدى تخدشها. ظفرها طويل. يدها خشنة. لا تعرف كيف تسحبها برفق من الأغلفة الكرتون. حين تقلبني في الفراش أحبس أنيني لئلا أضايقها. لو تُشغِّل الفونوغراف! الموسيقى مثل حفيف أشجار المشمش. كأنني أقعد ساعة المساء على شرفتنا العتيقة في الحارة القرميد. من الكوى أسفل السرايا تخرج وطاويط. وأنا صغيرة كنت أخاف منها. أمي قالت هذه لا تؤذينا، هذه فئران تطير كي تأكل البرغش. لماذا أخرجوني من وادي أبو جميل؟ لا أريد أن أموت في كندا في آخر الأرض.»

يا قلب اصبر/ غناء السيدة منيرة المهدية / شركة بيضافون لتسجيل الأسطوانات.

عودة الحُجاج / أحمد عبد القادر / أسطوانات أوديون.

قصيدة غيري على السلوان قادر / الست سكينة حسن / أسطوانات أوديون.

ليالي الجزائر (قطعة موسيقية) / أوركسترا الأستاذ محمد عبد الوهاب / شركة كايروفون.

نشيد ميلاد فاروق الأول / أحمد رامي ورياض السنباطي / أسطوانات أوديون.

امتى الهوى يجي سوى / الآنسة أم كلثوم / أسطوانات أوديون.

ليه الدلال وانت حبيبي / محمد عبد الكريم / أوديون.

ضيعت مستقبل حياتي / سيد درويش / بيضافون.

*

جنب السرير صندوق عتيق. موزاييك خشب يغلب عليه لونان (بنّي وأحمر) مع تدرجات برتقالية. السطح (الغطاء) مقسم الى أربع لوحات متساوية المساحة. لوحتان أمحتا بسبب الشمعدانات النحاس التي تترك هنا. الباقيتان تقلدان زيتيتين لرمبرانت.

1 - «خطف أوروبا» (1632): فتاة على ظهر ثور يخوض في المياه. رفيقاتها خائفات على الضفة. لا نتبين الأشجار بسبب الطبقة الشمعية المتجمدة.

2 - «عاصفة على بحر الجليل» (1633): مركب شراعي ترفعه موجة باتجاه النافذة حيث تقف هدى عطية وتدخن ناظرة الى المطر. بحّارة المركب المخلّع ابيضّت وجوهم بالشمع.

*

وفي بطن الصندوق؟ أشياء قديمة لا يستعملها أحد، متروكة هنا لا لقيمتها (لا أحد يفتح هذا الصندوق أصلاً) ولكن لأنها كانت في الصندوق حين نقلوه مع أغراض الجدّة من الحارة القرميد أول الصيف. صنانير للحياكة. خيطان صوف. حلقة خشبية يُشدّ عليها الحرير عند التطريز. صابونة لتعليم القماش قبل القصّ ماركة «كانتربري». جواز سفر عثمللي أحمر باقي من أيام السلطان عبد الحميد. مفكرة مجلدة بجلد غزال دوّن عليها الحاخام عطية مصاريف الكنيس الخارجية أثناء سنة 1929 إضافة الى خواطر وتأملات بالعربية والعبرية. قارورة زجاج محجّر خالية من العسل. أوراق متفرقة متآكلة أفلتت من مغلف أسمر كان يضمّها: يوميات متقطعة ما بين 1931 و1938 كتبها شقيق الحاخام (يوسف عطية) قبل أن يتوفى بالسلّ. بطاقات بريدية تحمل مناظر أوروبية وأميركية وعبارات لطيفة بالفرنسية والإنكليزية والعربية («تذكرناكم في ساينت جوزف - ميسوري كثيراً وتمنينا لو جئتم معنا». أو: «الأولاد لعبوا بالباخرة... ابراهيم وأنا أهلكنا دوار البحر.»). رسائل قديمة

في ظروف متهرئة. بطاقة خاصة برقباء «الريجي» (إدارة حصر التبغ والتنباك) صفراء اللون تشبه دفتر السواقة. ألبوم صور تلاصقت صفحاته. طوابع أفلتت وانتشرت كالفراشات في القعر. قلادة فضة نالَ منها الزنجار. نيشان مجيدي من المرتبة الرابعة. عدد من مجلة «اللوتس» وآخر من مجلة «أوتوموبيل». ورقة مطوية (صغيرة كتذكرة) لم تصفرّ تماماً بعد:

الجمهورية اللبنانية

وزارة التربية الوطنية

دائرة الامتحانات

رقم 983

الشهادة الابتدائية العالية

الدورة الأولى

وثيقة تثبت قيد اسم المرشح سارة عادل عطية

في امتحانات شهادة الدروس الابتدائية العالية اللبنانية التي

ستجري في الساعة السابعة صباح يوم 19 حزيران 1963

في مدرسة... المدرسة الانطونية بعبدا

امضاء رئيس دائرة الامتحانات...

مناديل تحمل زواياها حروفاً مطرزة بالعبراني. علبة جلد بنّية مخرّمة لراديو قديم. كتالوج معرض فنانة الفوتوغراف كاميليا دافيد ديشي سنة 1933 في التياترو الكبير في بيروت برعاية المفوّض السامي داميان دو مارتيل (ممزق الصور، بالي الصفحات). شهادة الدكتور المرحوم توفيق ايزاك عطية (اختصاصي الأمراض الزهرية والجلدية والجهاز البولي) من جامعة مونبلييه. بطاقة عضوية في نادي السبورتنغ للتنس في الخرطوم

(السودان). دعوة لحضور حفل زفاف أدمون ابراهيم بيضا (بطل العالم بالبليياردو) تمزقت واختفى منها اسم العروس. ساعة معطلة بسلسلة فضة تقطعت حلقاتها. أزرار خشب وعاج. مرآة مستديرة في بيت مخمل. عدد من مجلة «السلوى» (صاحبها: نسيب البشعلاني. تاريخ التأسيس: 1925). دعوة الى حفل زواج الآنسة دعد ديشي والأستاذ نعوم عطية في 3-7-1938 (شاركونا فرحنا). البطاقة مستطيلة مذهبة الحواف تحمل على القفا ختم والد العروس يوسف ديشي عضو مجلس الملة للطائفة اليهودية في بيروت ووكيل محلات بلاتشي وصاحب «ديشي للصيرفة والذهب» ورئيس المحاسبة سابقاً في مصلحة سكك حديد النيل والبحر الأحمر في السودان. أساور وعقود خرز في علبة خشب مطعمة بحبّات زجاج ملوّن. وأخيراً: مغلف من الجلد الأحمر الثمين بكبسة فضة فقدت لمعتها، يحوي نسخة (ظلّت جديدة ورائحتها خزامى) من:

كتالوج معرض فنانة الفوتوغراف كاميليا دافيد ديشي سنة 1933 في التياترو الكبير.

(16 صورة فوتوغرافية مع ملاحظات مفصلة بالعربية والفرنسية.)

الرئيس شارل دباس في مقهى «لاروز» (بولفار سان جرمان- باريس) يضع ساقاً على ساق. بين شفتيه مبسم عاج بطول الأصبع. خيط الدخان يتلوى صاعداً من سيكارته. على الطاولة جريدة مطوية وثلاثة فناجين وابريقا خزف مزينان برسوم صينية.

تاجر الجلود صاحب معامل الصابون ماركة «وردة الشرق «المهاجر يعقوب عطية على شرفة بيته الفخم في الطابق الثالث من «داكوتا بلدنغ» (نيويورك). يجلس على كرسي بظهر خيزران ويدخن نرجيلة. في الخلفية: أشجار السنترال بارك.

حبيب باشا السكاكيني على سرير المرض في سرايا السكاكيني (القاهرة) قبل أيام من موته (1 كانون الثاني 1923). شعر أبيض ووجه يغرق في السواد. على منضدة أسطمبولية جنبه كوب فضي نُقر عليه الهلال العثماني والنجمة، وكتاب صغير أسود الغلاف، وسبحة بشرابة، وصورة زوجته مارييت كساب (توفيت ليلة رأس السنة 1901–1902) واضحة الملامح جميلة الوجه في إطار فضي بيضاوي.

«ملكة البيانو» ايفلين أورفلي تعزف «فالس فيينا» (فردريك شوبان) في حفل أقامه الخديوي عباس حلمي الثاني في «قصر المنشيّة» (الاسكندرية) على شرف ضيفته أميرة نابولي الحسناء فيولا دي كارميل.

ألفرد شمّاس تاجر الصوف والقطن والكتان مؤسس «البنك الزراعي لتسليف الفلاحين» عضو مجلس الشيوخ المصري، واقفاً في حديقة بيته الصيفي في صوفر (جبل لبنان) بين صديقيه غاستون صوصا مغني الأوبرا وخليل صوصا صاحب مصانع الدخان. وسط نساء ضاحكات في الخلف يظهر تمثال رخام للزعيم سعد زغلول شغل النحات الطلياني ملتيادي.

الجنرال ادموند هنري هينمان اللنبي وخليلته البيروتية الفاتنة بثوبها الأبيض إيفا فيّاض، يقفان عابسين أمام فورد «أم دعسة». سيارة سوداء مغبرّة ساقها الجنرال الانكليزي بنفسه من يافا الى بيروت مدشّناً الطريق الساحلي ومنهياً حقبة الحكم العثماني لبلاد الشام. في خلفية الصورة: مئذنة الجامع العمري الكبير وركام البيوت التي هدمت أثناء الحرب الكبرى لتوسيع طرقات المدينة القديمة.

الموسيقار محمد عبد الوهاب يقشّر برتقالة في منزله في القاهرة.

اسكندر ديمتريوس العجوز مدير منارات دمياط وحامل نيشان النيل من الدرجة الثانية قاعداً على بساط ممدود تحت أشجار قديمة في بقعة معشوشبة.

على غطاء أبيض تتوزع أرغفة خبز ومكعبات جبن ضخمة وسلال فاكهة وزهور. الى يمينه يتربع الكومندور يوسف زنانيري (نائب قنصل ايطاليا) حافي القدمين. الى يساره فتى يحمل كمنجة وآخر يعزف الأكورديون. في الخلفية: نساء بأثواب فضفاضة يحملن أشياء لا نتبينها لكنها تبدو خفيفة.

الطبيب باسيليوس سوسو (حكيمباشي جيش السودان) يطلّ برأسه من نافذة قطار.

أحمد طرابلسي وشريكه ألفريد صباغ مبتسمان تحت لافتة «معمل الثلج والجليد» في حفل الافتتاح الذي حضره وجهاء سورية المقيمون في افريقيا (4 تموز 1919). في الخلفية: الفيسكونت نقولا بتراكي وكيل بواخر لنز الألمانية يكلم ثلاث فتيات ضجرات.

مارغريت فيتاليس وإبنتها كلاريت تأكلان كاتوه «اكلير» في حديقة مونمارتر.

بشارة شديد مترجم «الكونت دي مونت كريستو» واقفاً أمام «منحوتة السيدتين» (مسلمة ومسيحية تندبان على قبر) في ساحة الشهداء (بيروت). يحتمي بشمسية. نظارة بعدسة واحدة تتدلى على صدره. بذلة بيضاء وحذاء أسود. يده منبسطة الأصابع على التمثال. في الخلفية: شرطيان إيطاليان مرهقان يرشفان عصيراً.

الأخوات الثلاث لوريس وهنرييت ولودي صبّاغ يطعمن حمائم السوربون (صيف 1927).

جبرائيل سرور وطنوس طاسو صاحبا معمل المعكرونة في دمشق يلعبان داما على ضفة نهر البردوني (زحلة).

باعة دجاج يعلّقون أقفاص الطيور على حائط دير راهبات المحبة

(اللعازارية) قبالة كاتدرائية مار جرجس للموارنة (شارع الأمير بشير- بيروت). في الخلفية: ولد يبتعد على حمار. التاريخ: صيف 1926، أثناء اكتمال عمارة «التياترو الكبير» المجاورة.

الأب بطرس طرزي بثوبه الكهنوتي الطويل يرتقي درج جامعة القديس يوسف.

81
آل صعب 4 – الطابق الثاني

قبل أن يفرشوا الأثاث الذي نقلوه معهم كما هو من بيت القنطاري، رنّ الهاتف الغريب على المنضدة الأثرية. تردد السيد ملحم صعب واقفاً في باب الصالون. كان يحمل الى صدره صندوقاً خشبياً متيناً أثقلته أدوات صياغة ملفوفة بمخمل وميزان ذهب ورثه عن أبيه. على هذه العدة القديمة تعلّم المصلحة وهو فتى. حفظها في مشغله البيتي. واقتنى (توصية من الخارج) عدة أخرى لمشغل المتجر في سوق الجميّل. أكثر من مرة أراد الإنتقال الى سوق الصاغة. لكنه وجد صعوبة في التخلي عن متجر المرحوم. لا يشبه حليم صعب الرجل الساكن فوقه في بناية «المبرومة». لم يحلم يوماً بجوهرة دادلي ولا سمع بها على الأرجح. لعله أقرب في طبيعته النفسية الى الدكتور ادغار معلوف الذي سيستأجر بعد شهور بيت الدكتور هاينيكن. كان طموحه محدداً بخط مستقيم يربط منزله بمكان عمله، لا أكثر ولا أقل. حين خطفوه في الغربية كسروا هذا الروتين. أولاده أحاطوا بالهاتف الذي يرنّ. لم يلمسوه. مدلان زوجته رفعت السماعة ومدّتها له: «ردا».

*

بعد أسابيع تذكر ملحم صعب ذلك اليوم الأول. هذه المرة لم يخرج

صوت وكيل البناية زخريا الزمّار قوياً من التلفون يسألهم هل وصلوا الى البيت. سمع صوتاً لا يعرفه. لم يتوقع ملحم صعب أن يتصل به السيد خير الدين كي يبارك له بالنقلة! أصغى متفاجئاً الى نبرة هادئة لا تشي بنوايا سيئة. ردّ بتهذيب وسأل السيد خير الدين عن صحته وصحة العائلة. كانت الثامنة صباحاً وهو ينتهي من قهوته. مدلان كانت في المطبخ. خاف أن يقول له السيد خير الدين أشياء مزعجة. أن يطلب البيت مثلاً! لكن الرجل سأله ببساطة هل الإيجار الذي طلبه الوكيل زخريا مرتفع؟

«لا، مقبول.»

أخبره السيد خير الدين عندئذٍ أنه مثله وجد بيتاً بإيجار معقول في عين المريسة.

«أين في عين المريسة؟ قريب من القنطاري؟»

❋

«لم تسألني كيف عرفت رقم تلفونك؟»

ضحك معه، لكنه شعر بضيق. كانت يده تتعرق.

«تركنا على التتخيتة دغارات زيت وزيتون.»

قال ملحم صعب انه رآها وتركها كما هي ثم سأله هل يقدر أن يرسل أحداً كي يأخذها.

«لا، لا، هذه هدية لكم. والشجرات على البرندا، اسقوها، هذه غردينيا.»

❋

كانت هذه بداية علاقة غريبة بين العائلتين. صارت زوجته مدلان تردّ على التلفون وتتكلم مع سميحة (أم أمين) زوجة السيد خير الدين. إبنته الكبرى زينة تبادلت الحكي أكثر من مرة مع نجوى إبنة السيد خير الدين التي تدرس الكيمياء في الجامعة الأميركية. إبنه الصغير خليل صادق على الهاتف الصبي

زاهر خير الدين الذي يكبره بعامين: بدأ ينتظر وقف إطلاق النار كي يذهب ويسبح معه في مسبح السان سيمون.

*

وجد عرفان محمود خير الدين نفسه محاطاً بالعدوانية في وقتٍ مبكرٍ. أبوه صاحب الأراضي في سهل البقاع أرسله الى بيروت بعد السرتفيكا (الشهادة الإبتدائية) كي يتعلم في مدرسة داخلية. لم يكره الأساتذة ولا مدير المهجع لكن رفاقه أزعجوه. سخروا من لهجته الريفية. سخروا من ألوان ملابسه. سخروا من وجهه المستطيل. كافح سنوات في الرطوبة والبرد. مع أن طقس بيروت أدفأ بكثير من طقس البقاع. أفلح في دروسه لا حبّاً بالرياضيات والجغرافيا لكن من أجل أن يغادر المدرسة. لم يتقوقع على نفسه كما يمكن أن نتخيل. ساعدته قوّته البدنية على البقاء شجاعاً. احتمى من الأذى الذي يأتي في أي ساعة، وبلا سبب، لأن العالم هكذا. تسلّح بالدراسة (القانون) وبالمطالعة (الأدب والتاريخ والعلوم) وبعقد ما أمكنه من صداقات. قطع سنوات الجامعة بسهولة، نسبياً. كان شديد التحسس ويكتئب اذا رأى عراكاً. لم يمشِ مرة في تظاهرة. مقت السياسة عموماً. لكنه تآلف مع خطب الرئيس جمال عبد الناصر من كثرة ما اعتاد سماعها مسجلة على كاسيتات في بيوت أصحابه. كانت أشبه بالطرب. عندما تزوج سميحة صيداني واستأجر البيت الواسع في بناية أيوب العبد في الخمسينات جاء أبوه وزاره محملاً بالخضر والفاكهة والألبان والديكة المذبوحة، منتوفة الريش ومُنظّفة. جلسوا على الشرفة لأن الوالد يحب المدى ولا يتحمل السقوف. الحاج شقير جلجلت ضحكاته في الأسفل وهو يلعب طاولة الزهر مع صاحب البناية. سأله الوالد عن الشغل في مكتب المحاماة، هل يتولون قضايا كبيرة هذه الأيام؟ حين بدأ يخبره عن قضية عقارية مهمة، رأى أنه لا يسمع. كان الوالد الذي جعدت الشمس وجهه، يتلفت حواليه كأنه أضاع شيئاً. بعد ثلاثة أسابيع زاره زيارة ثانية

آتياً بالبيك اب هذه المرة جالباً شتلات وأشجاراً ملأت الشرفة وزوايا البيت.

*

لم تشكّ زوجته أنه مريض. كان في أحيان كثيرة يكفّ عن الخروج الى المكتب في ساحة البرج ثلاثة أو أربعة أيام متوالية، ويعتصم بمكتبه المنزلي الذي يسمّيه «غرفة المكتبة». استقل بمكتب محاماة خاص بدءاً من صيف1961 وصار سيد وقته. كان يتلفن من البيت الى السكريترة ويتحدث مع المحامين الشبان الذين يتدرجون عنده. يوزع عليهم المهام ويتأكد من حسن سير القضايا ويملي عليهم ملاحظات. في «يوم المحكمة» يخرج مضطراً من كآبته ويرتدي البذلة ويترك أم أمين تعقد له الكرافات الحرير. كان صديقاً لمعظم القضاة. يتبادل معهم مجلدات اذا كانوا من هواة القراءة. ويسألهم عنها، هل أعجبتهم، في نهاية العطلة القضائية. صادق قاضي محكمة الإستئناف نظمي شمس الدين المشهور بالنزاهة: قيل عنه انه لم يلغِ مخالفة سير في حياته (مع ان القاضي تُلغى مخالفاته، هو وأصحابه). ولَم يحكم مرة إلا بالعدل. كان مثله يحفظ قصائد كاملة من ديوان المتنبي. ومثل معظم العاملين في السلك القانوني اللبناني يستشهد أحياناً أثناء أحاديث تشبه المرافعات بأبياتٍ للأخطل الصغير وأخرى لأمير الشعراء أحمد شوقي (الليث ملك القفار/ وما تضم الصحاري. أو: ألا حبذا صحبة المكتب/ وأحبب بأيامه أحبب. أو: إثنان حدث بالحلاوة عنهما/ ثغر الحبيب وطعم حلو البحصلي.) لكن لا أحد من زملاء عرفان خير الدين أدمن مثله «سلسلة الألف كتاب»: كانت الأعداد تصله تباعاً بالبريد الجوي من القاهرة. وفي نهاية كل سنة يجدد اشتراكه ويرسل الحوالة المصرفية. حين يتأخر عدد عن موعده، يكتب لهم رسالة استفهامية بخطه الجميل. ويرسلون الكتاب. في إحدى المرات تلفن الى مصر وتكلم مع موظف نصف نائم ظنّ أنه يمزح حين أخبره أنه المحامي عرفان خير الدين ومشترك عندكم في السلسلة وأنا أتلفن لحضرتكم الآن من ساحة البرج في بيروت. بقيت مجموعته ناقصة خمسة

أعداد مع أنه فتش طويلاً كي يكملها. في منتصف 1973 عثر على كتاب منها على بسطات اللعازارية التي تبيع كتباً جديدة ومستعملة: «الرومانتيكية في الأدب الإنجليزي» (1965). في ثماني سنوات تمزقت أوراق من الكتاب المصفر لكنه ظلّ يحمل عنوانه. اشتراه بربع ليرة. قلّبه بين يديه سعيداً. ظلّ ليلتين يتصفحه من دون أن يقرأه وهو يشرب كأس الويسكي المسائي. كان يفضل قراءة كتب أخرى. اعتاد توصية الأصدقاء كلّما سافروا على عناوين محددة يدوّنها على بطاقة أنيقة. هكذا جُلب له في يوم من أيام رمضان 1974 المبارك، العدد 62 من السلسلة. وصل لا من مصر بل من المغرب: «تاراس بولبا» لغوغول. كان في حالة حسنة مع أنه مطبوع على ورق رخيص سنة 1956. صاحبه العائد من رحلة استجمام في جبال الأطلس ضحك وهو يناوله الكتاب الصغير. كان الضوء يشع من وجه عرفان محمود خير الدين كأنه طفل لا رجل! ظلّت ثلاثة أعداد محتجبة عنه: العدد 41 المطبوع سنة 1955 في مطابع الشعب بالقاهرة (لاحقاً غيّروا المطبعة)، والعدد 45 («القوة والمجد» رواية غراهام غرين)، والعدد 307 («إعداد الممثل» لستانسلافسكي، 1960). إبنته استعارت له حين كبرت عدد «النحل الراقص» لكارل فون فريش من مكتبة الجامعة الأميركية. وجده مجلداً بغلاف سميك قاسٍ لا يشبه غلاف النسخة في مكتبته. لم تعثر نجوى على الكتب الثلاثة التي يريدُ رؤيتها ويحلم أن يقتنيها. حين هجروا «بناية أيوب» بسبب الحرب شعر بقهرٍ قاتل. لم يتوازن الا وهو يستخرج كتبه من الصناديق كي يرتبها على رفوف لن تَظل غريبة في بيت قديم مرتفع القناطر استأجره من الحاج فرحات عبد الحميد فرحات في طلعة غراهام في عين المريسة.

82

آل الخوري 8 – الطابق الثالث

رجع السيد لويس الى «المبرومة» مضطرباً. وجد سكان البناية متجمعين في المدخل. رآهم يهبطون الدرج الى الملجأ محملين أغطية وماء وأكلاً وقناديل كاز. لم ينزل معهم. الوقت لم يبلغ الظهر بعد. صعد الى بيته. ضايقه اسلوب الشوفير في مخاطبته، أكثر من الانفجارات التي قطعت تأبين المدام أنجيل كرم. دواليب التاكسي زعقت على الزفت من عبد الوهاب الانكليزي الى حيّ العبد. بدا السائق فاقداً عقله، مذعوراً كالبنات. قال انه لن ينام في بيروت الليلة، سيذهب الى بيت عمه في جبيل. «اذا دخلوا الشرقية سيذبحون الصغير والكبير كما ذبحناهم في المسلخ والكرنتينا.»

❋

سكب كأس ويسكي وشرب واقفاً. بلا ثلج. الصالون ساكن. كنبات خضراء مخملية. ستائر ثقيلة صفراء. أنياب عاج تتوزع عتمة راكدة. منحوتات أبنوس مغلفة بقشرة غبار. «درسوار» طويل صقيل. مرآة مذهبة البرواز تعكس ثلاثة أقنعة افريقية معلقة في الممر. لا شارل هنا ولا جرجي. سرق مرض السكري سامية من بين يديه. ترك له صورتها على الكومودينة وآثارها الموزعة في جنبات البيت. ملأ السيد لويس كأسه. جلس حد الراديو. لم ينزع حتى جاكيتته. فقط أرخى عقدة الكرافات.

❋

حين ولد إبنه الثاني (جرجي) ترك زوجته ترتاح في المستشفى مع أمها وذهب كي يقص شعره. هي طلبت منه. كان نهار أحد. على الرصيف أمام سينما الريفولي رأى بيضاً صغيراً مكسّراً. الأولاد تحلقوا ضاحكين يراقبون

عاملاً هندياً معلقاً بالحبل من شرفة «سفريات الأحدب»: كان يتأرجح في الهواء حاملاً عصا ممسحة يسددها كالرمح مرة تلو أخرى الى أعشاش الطيور. اهتزت لوحة الإعلان. فوق الباصات وتمثال الشهداء حام سرب حمام ثم حطّ على السطوح. على برندات بناية البوليس خفق علم لبنان. أمام دكاكين البوظة والعصير تهادت فتيات جذلات في ثياب الأحد. مشى الى الصالون الذي يقصده منذ سنوات في سوق النورية. حلاقان أخوان يعشقان المراهنة على أحصنة السباق. جلس قبالة مرآة تعكس صورة رئيس الجمهورية كميل شمعون مبروزة ومزججة. موسم المدارس على الباب. الصغار ضجوا على كنبة خلفه وتعاقبوا بالدور على كرسي جنبه. بلّ الحلاق ذقنه برغوة فاترة. سأله كالعادة عن افريقيا. أغمض عينيه لكنه لم يرَ السهول الزرق ولا قطيع الفيلة المشتت أبعد من السراب. نجاة علي غنّت من الراديو. ذهب الى المقهى عند مدخل شارع الأمير بشير وطلب كوباً من الشاي. هواء بارد على رقبته. سيارات تعبر وتراموای يقرقع. مرّت حبشية مجدولة الشعر ممشوقة القوام تتلفع بزيها التقليدي البهيج الألوان. ردّته رمشة عين الى ناميبيا ومزرعة الشاي. كان حرّاً، شاباً، غير مربوط بقيد، ينام حيث يريد وينهض حيث ينام. رفع يده وطلب الفاتورة. ناول الجرسون بخشيشاً أكبر من الحساب. انطلق ضاحك الأسارير واشترى ثلاث علب شوكولا للضيافة من باتيسري أرليكان ثم استقل التاكسي الى المستشفى.

*

جرجي الخوري لم تقتله معركة النورماندي. عثر عليه روبير رفّول منطرحاً بين صناديق الذخيرة في المخزن، ولوكس الغاز (200 شمعة) ينفث آخر ما فيه ويوشك ان ينطفيء. ظنّه للوهلة الأولى نائماً. ثم انتبه الى الرغوة البيضاء التي تخرج من فمه. لم يجد الحقنة. لكنه رأى ذراعه عارية والزند ما زال مربوطاً والجلد مغطى بالثقوب. حمله على كتفه وخرج تحت القصف. الليل ينتصف مضاءً بالحرائق. طرحه على المقعد الخلفي للمرسيدس. حين

بلغ الطوارىء انتبه روبير رفّول أنه ينزف قليلاً من جنبه. تركهم يأخذون جرجي الخوري: غطت الرغوة وجهه بينما يسحبونه. جلس روبير رفّول على الحافة الباطون خارج باب الطوارىء وأشعل سيكارة. سحب ثلاث مجّات عميقة. استجمع نفسه ثم دخل:» أنا مجروح.» أنزل رشاشه عن كتفه. وضعه على سرير نقّال. خلع «الفيلد» العسكري. وقع مشط رصاص على البلاط. ترك أحدهم يلمّه. فكّ حزام البنطلون. ثم استخدم يداً واحدة: رفع قميصه متمهلاً. كانت الفانلة مبلولة بالدم.

*

رأى جرجي الخوري نفسه في كاراج تحت بناية. على الأرض تحلق رجال (بدوا نحيلين كأنهم مرضى) يتناولون العشاء. فزِع ولم ينظر الى صحونهم. كان الضوء يأتي من نقطة غير محددة في الظلام. سمع صوت أخيه شارل. فتح عينيه. لم يرَ أحداً. وحده في غرفة بيضاء، والسرير الآخر فارغ جنبه. ستارة زرقاء يتجمع طرفها السفلي على منضدة بلا تلفون. أدرك أنه في مستشفى لكنه لم يعرف أين. المكان ساكن كأنه مهجور. حاول أن يتذكر. كان في المخزن في ميناء الخشب. يكبس الإبرة وينتظر الهواء كي يجيء ويرفعه. لم يفهم ماذا حدث. لم يقدر أن يتذكر. لكن الهواء لم يأتِ. هذا كل ما تذكره.



انتبه الى الزرّ. لكنه لم يضغطه. الباب مفتوح. لا أحد يمرّ. الوقت متأخر. حرّك جسمه على مهل، بلا عجلة. الأنبوب طويل، سمح له بالجلوس. أنزل قدميه وتلمّس البلاط. عثر على مشاية قماش. خلّص حلقة كيس المصل من العمود وغادر السرير. ثوب قطن بأزرار. نظيف. خطا خطوات قصيرة. ممر أبيض ساكن يطنّ فيه النيون مثل أي ممر في أي مستشفى، آخر الليل. أبواب مواربة. شخير. سال الدم في الأنبوب. رفع الكيس عالياً فوق رأسه.

تألم بدنه. رأى السائل الأحمر يرجع إليه. قبل أن يبلغ منضدة الممرضات لمح عبر نافذة مشرعة مبنى كهرباء لبنان. استنتج أنه في مستشفى الروم (مار جرجس- الاشرفية).

*

ممرضة بحجم جاموس أخذت منه كيس المصل وعلّقته على عمود مزود بعجلتين. رافقته الى غرفته وساعدته على الإستلقاء من جديد. حاول أن يسألها عدداً من الأسئلة لكن لسانه الثقيل لم يساعده. كان منهكاً مفكك الأوصال كأن شاحنة مرّت عليه. سمع انفجارات بعيدة.

«عطشان.»

سكبت له ماء في كوب كرتون. شربه ولم يشعر أنه شرب شيئاً.

«بعد؟ سأجلب لك عصيراً.»

«عندكم ويسكي؟»

*

دخلت ممرضة أخرى، ضخمة الجسم أيضاً. شمّ رائحة مقانق وسجق بينما تحمل كرسياً وتدنو من سريره. تكلمتا بصوت مرتفع.

«عندنا ويسكي يا كارلا؟»

«الكافيتريا مقفلة.»

ضحكتا وهما تنظران إليه كأنه جاء من السيرك كي يسليهما.

«ماذا يقولون عن الفنادق على الأخبار؟»

83
آل موراني 4 – الطابق السابع

سكان السابع أخلوه آخر أذار (مارس). لم يبقَ هنا الا كميلة الحويك ووالدتها المريضة التي تعجز عن هبوط الدرج الى الملجأ. بيت آل موراني فارغ تقطر فيه حنفية ماء. على نافذة ترتعش جريدة قديمة مصفرّة («النهار» عدد 20-1-1976). اذا شرعت النافذة المزودة بالنايلون ترى بيوتاً واطئة مكومة في الأسفل كعلب سردين، وفي البعيد خليج الكرنتينا وتلال الزبالة عند الشاطىء. البلاط ينقّطه دهان أبيض. المغسلة مشققة. سقف الحمام ملطخ ببقع قاتمة: أثر معارك ليلية خاضها عادل صالح ضد البرغش وحشرات «السكيت». عامل المطاحن الأعزب الذي عاش هنا قبل الأستاذ أندريه موراني كان يقفز في الحمام الضيق معذباً بالرغبة، ويلطم ما يعجز عن الوصول اليه. حطمه الحبّ. أول مرة أغوته رباب (إمرأة أخيه محمود) وهو وحده معها في بيت النبعة، خشي أن تقتله السكتة القلبية. في المرة الثانية رقصت له على الأنغام المصرية وتعرّت من أجله تحت السقف التنك. كأنها ناهد يسري («سيدة الأقمار السوداء») أو سامية جمال.

*

جريدة الثلاثاء 20 كانون الثاني (يناير) 1976: موجة نزوح من الكرنتينا والمسلخ تلي انتهاء المعارك في محاور المنطقة. مصدر كتائبي: لم يكن لدينا حل آخر. حواجز خطف في المنطقة الغربية رداً على عملية التهجير. أمس شهدت بيروت اشتباكات عنيفة تركزت على محورين رئيسين وهما: الكرنتينا- المسلخ، والمنطقة التجارية. في محور الكرنتينا- المسلخ أعلنت «القوات المتحالفة» (الكتائب والاحرار وحلفاؤهما) انها سيطرت على

المنطقة في حين لم يصدر أي نفي أو تأكيد من جانب «القوات المشتركة». وتميزت هذه العملية بنزوح قسري لعدد من العائلات المقيمة هناك. وقد شوهدت النساء يولولن ويحملن رايات بيضاء مع أطفالهن. وقد سلم هؤلاء الى قوات الدرك التي أمنت لهم الانتقال في أوتوبيسات النقل المشترك الى اماكن خارج المنطقة. وكانت ردود الفعل في المنطقة الغربية من بيروت اقامة عدد من اقرباء النازحين في الزيدانية والرمل الظريف وغيرها حواجز أوقفوا فيها اكثر من 30 شخصاً عرف منهم الدكتور ألبر بويز شقيق النائب نهاد بويز.

أما محور المنطقة التجارية فعنفت فيه الاشتباكات ليلاً خصوصاً على مفترق شارع ويغان وكنيسة الكبوشية ومعهد الفنون حيث حصلت هجمات وهجمات مضادة.

معركة الكرنتينا- المسلخ احتدمت في الصباح بتقدم عشر جرافات راحت تزيل العوائق والمتاريس وبيوت التنك من أمام «القوات المتحالفة» بعدما مهد لها بقصف مركز للأبنية والمتاريس. وقد انتقل مسلحو «القوات المشتركة» الى مبنى معمل النفايات الحديث. وبدأ الهجوم المتجدد على الكرنتينا من محورين: الأول من جهة سكة الحديد- المدور تقدم منه مقاتلو الكتائب، والثاني من الدورة وبرج حمود تقدم منه النمور الاحرار. وقد حصلت اشتباكات عنيفة بين قوات الفريقين قرب بنايات خلف وفي مستشفى الكرنتينا ومعمل باشا. وقد دافع مقاتلو «القوات المشتركة» عن مواقعهم بقوة على رغم اضطرارهم الى الانسحاب استراتيجياً من قلب المنطقة عبر جيبين هما جيب ابو حشيش وجيب منطقة الفبركة. وقد بادرتهم «القوات المتحالفة» بالدعوة الى الاستسلام فلم يفعلوا.

وبعد هدنة قصيرة تابع عدد من رجال «القوات المشتركة» القتال بينما توجه آخرون الى البحر وانتقلوا بالزوارق الى مواقع أخرى في جبهة بيروت.

سقوط المنطقة: ولدى هبوط الليل أعلن مصدر رسمي أن قيادة المقاومة

تلقت برقية من الجبهة الشرقية تفيد «ان المسلخ والكرنتينا أصبحتا تحت سيطرة الانعزاليين وان ثمة من استسلم وان الباقين قاوموا حتى الموت.»

وقدرت مصادر قوى الأمن عدد القتلى في اشتباكات الكرنتينا والمسلخ بنحو 70 عدا الذين قضوا تحت الأنقاض او احترقوا في أكواخهم التي أتت عليها النار.

وكان رئيس مخفر سجن الكرنتينا اتصل في الصباح بآمر السجون المركزية وأبلغه انه لجأ الى احد المنازل مع عريفين ودركيين بعدما هوجم المخفر من 500 مسلح استولوا على المخفر وأسلحته وأبعدوه هو مع عناصر المخفر الآخرين الذين لم يعد يعرف شيئاً عن مصيرهم.

وقد سمحت «القوات المتحالفة» للصحافيين والمراسلين الأجانب بزيارة بعض انحاء المنطقة فشاهدوا نساء واطفالاً وشيوخاً ينقلون بالمئات في أوتوبيسات النقل المشترك الى مناطق أخرى. وقال مسؤول كتائبي للمراسلين الأجانب: «اننا نأسف لأن نصل الى ما وصلنا اليه ولكن لم يكن هناك حل آخر. منذ عشرة أشهر ونحن نهدد بالتدخل اذا استمروا في ضرب محاور اتصالاتنا بالرشاشات لكنهم لم يصغوا الى تهديداتنا.»

بلاغ القائد الكتائبي: وقد اصدر القائد العام الكتائبي بلاغاً جاء فيه: «تابعت قواتنا في الصباح، بعدما كانت توقفت في الليل، تقدمها على كل الجبهات في الكرنتينا وحققت اتصالاً في ما بينها ثم قامت بهجوم في اتجاه بيروت. واحتلت بناية باكاليان وبعض الأماكن المجاورة لها. في هذه الأثناء كانت قوة كتائبية تتجه من جادة شارل حلو وتدخل كمب شرشبوك وكان تقدمها من دون أي مقاومة تذكر.» واضاف البلاغ:» استسلمت اعداد كبيرة من المسلحين ووصل مراسلون اجانب الى المنطقة بعدما كانوا اطلعوا من القائد العام الكتائبي على سير المعركة وشاهدوا العملية حتى نهايتها.» وجاء في بيان القيادة المركزية لنمور الاحرار عن الكرنتينا والمسلخ:» انتهت، وبقي

جيب ابو حشيش وقد استسلم وسلموا الى الجيش.» واضاف البيان:» وقعت معارك ضارية بين النمور الاحرار والفلسطينيين في برج حمود- حارة صادر عندما حاولوا الالتفاف وراء الاحرار في المنطقة لكن المحاولة باءت بالفشل لوجود عناصر النمور الذين يضربون الطوق المحكم.»

وكانت وكالة الانباء الفلسطينية «وفا» وزعت امس معلومات حول الوضع في المسلخ والكرنتينا، قبل انتهاء المعارك، وهذا نصها:» تقوم القوى الانعزالية معززة ببعض قوات الجيش المتمردة منذ فجر اليوم (امس) بشن هجوم كثيف على منطقتي المسلخ والكرنتينا في محاولة لاحتلالهما. وتصب هذه القوى مجتمعة حقدها على هاتين المنطقتين اللتين يسكنهما المواطنون اللبنانيون الكادحون والمسحوقون من مناطق بعلبك والهرمل والبقاع خصوصاً بعدما فشلت الهجمات التي شنتها هذه القوى خلال اليومين الماضيين، وكان آخرها امس وحشدت لها القوات الانعزالية ثلاثة آلاف مسلح تساندها سرية من القوات المتمردة في ملالات الجيش. وقد صد المواطنون هناك الهجمة التي استمرت حتى الليل وتكبدت القوى الانعزالية والقوات المتمردة في الجيش عشرات القتلى وخسائر كبيرة في المعدات الأمر الذي أدى الى تقهقرها وتراجعها امام ضغط المقاومة الباسلة التي تصدى بها المواطنون في المسلخ والكرنتينا للهجمة. ومما يذكر ان هذه المحاولة الجديدة التي تقوم بها القوى الانعزالية وبعض قوات الجيش المتمردة هي خطوة على طريق تنفيذ المخطط الذي اتبعته منذ زمن والذي يرتكز على العمل على قضم المناطق المعزولة منطقة تلو الأخرى، كما حدث في الغوارنة وسبنيه وضبية خدمة لمخطط التقسيم. ولا يزال القتال حتى هذه الساعة (الرابعة من بعد ظهر هذا اليوم) يجري ضارياً في كل من منطقتي المسلخ والكرنتينا بين القوات الفاشية والمواطنين اللبنانيين الكادحين.»

بيان الجبهة الشعبية: ووزعت لجنة الاعلام المركزي في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بياناً اتهمت فيه السلطة اللبنانية «بالتآمر على لبنان والثورة

الفلسطينية». وقال البيان:» منذ بداية الأزمة تشن القوى الفاشية هجمة تستهدف استنزاف المقاومة الفلسطينية تنفيذاً لمخطط الامبريالية الذي يلتقي مع مصالح الاقطاعيين في لبنان. وقد شاركت السلطة في شكل غير معلن في البداية فقامت بتدريب العناصر الفاشية ومدها بالسلاح والذخيرة وتأمين خطوط مواصلتها وتموينها، الا ان صمود الجماهير اللبنانية والفلسطينية جعل القوى الانعزالية عاجزة عن تحقيق أي انتصار مما دفع السلطة الى المشاركة مباشرة في المخطط التآمري.»

تصريح شاتيلا: وقد اذاع الامين العام للتنظيم الناصري- اتحاد قوى الشعب العامل السيد كمال شاتيلا تصريحاً عاهد فيه الذين سقطوا في المسلخ والكرنتينا بالانتقام وقال:» لن نذرف دمعة واحدة على العشرات من شهدائنا فهؤلاء قاموا بواجبهم وكانت الشهادة احد الخيارين الشهادة او النصر. اما الذين لم ينالوا نعمة الاستشهاد بعد والذين ما زالوا يقاتلون حسب تعليمات قيادتهم حتى آخر رصاصة يملكونها فالقيادة تجدد تعليماتها اليهم: الاستشهاد او النصر.» واضاف ان «حتى يوم الهجوم كانت قوات «النصر» تتبع اعلى درجات الانضباط وتكتفي بالرد والردع ادراكاً منها لأبعاد مؤامرة التقسيم والاساليب الطائفية الفاشية التي يقومون بها كجزء من تنفيذ هذه المؤامرة وبعدما اصبحت المؤامرة اكبر من انضباطنا واوسع من حدود صبرنا لا أعتقد ان انساناً واحداً في هذا العالم يلومنا على طريقة الانتقام.»

وأشار الى ان «أكثر من 50 عائلة تضم أطفالاً ونساء وشيوخاً عاجزين تمكنت من الوصول الى مكاتب التنظيم الناصري- اتحاد قوى الشعب العامل وسنعقد مؤتمراً صحافياً ليرى رجال الاعلام اللبناني والأجنبي الفظائع والأعمال البربرية التي مارسها الكتائب وحلفاؤهم من رجال السلطة في حق الأبرياء والأطفال والنساء.»

قوات ناصر: ووعد الناطق العسكري لقوات ناصر الذين سقطوا في الكرنتينا والمسلخ بالانتقام وأكد التزام «قوات ناصر» بالدفاع عن وحدة

الساحة العربية- اللبنانية وعن المقاومة الفلسطينية مهما كلفها ذلك من تضحيات.» وأضاف «ان التنظيم الناصري- قوات ناصر يستضيف في مكاتبه ومنازل قياداته وبعض أعضائه عشرات العائلات التي نزحت تحت وابل القصف المدفعي الذي صبته مدافع القوى الانعزالية والسلطة... وتستمر «قوات ناصر» في قصف المواقع العسكرية الانعزالية متجنبة قصف مواقع المدنيين لإيمانها بلا طائفية المعركة.»

وكانت دارت ظهراً معركة عنيفة عند جسر الدخولية بعدما تعرض مخفر الدرك لرصاص محاولة التفاف من جهة النبعة لمساعدة مقاتلي الكرنتينا. وقد انتهت المعركة مساء وتمركزت هناك مصفحات للدرك.

وشبت حرائق كبيرة في خزانات شركة «شل». واندلعت النار في خزانات الغاز في محلة الدورة على اثر تعرضها لقذائف صاروخية محرقة وقد هددت النار منطقة الدورة وخشي من امتدادها الى بقية الخزانات في تلك المحلة.

الوضع في العاصمة: على صعيد العاصمة ظهرت حشود من المسلحين في انحاء عدة منها خصوصاً في المنطقة الغربية وراحت تتنقل مع أسلحتها الثقيلة على مختلف المحاور مما أدى الى ازدياد التوتر في العاصمة. واستمرت اعمال السطو والنهب التي تتعرض لها المؤسسات التجارية والمنازل، واخرجت بعض الشركات ملفات من مكاتبها خصوصاً في شارع الحمراء وحول بناية جيفينور بعد الحريق الذي شبّ في مكتبة انطوان في الحمرا وبعد اطلاق الرصاص ثلاث مرات في الشارع امس، واصيب من جرائها شخص برصاصة في رجله قرب سينما سارولا ونقل الى المستشفى.

ولم تتوقف الاشتباكات في منطقة الفنادق. وسقط قتيل قرب مستشفى حداد في حاووز الساعاتية. وبعد الظهر تراشق المسلحون بالقذائف بين فندقي هيلتون وفينيسيا وبالعكس. وامتدت الاشتباكات الى شارع جورج بيكو باب ادريس والنجمة والاوتوماتيك وفندق الريجنت والريفولي بالرشاشات

الثقيلة والدوشكا. وعثر وسط ساحة الشهداء لجهة النصب على جثة قتيل مجهول الهوية. وعلى طول طريق الشام وفي الدباس وبشارة الخوري ورأس النبع والناصرة ومحمد الحوت حصلت اشتباكات عنيفة بالهواوين وقذائف ار بي جي والصواريخ التي راحت تتساقط بين المنطقتين الشرقية والغربية. واصابت قذيفة مبنى المديرية العامة لقوى الامن الداخلي وانفجرت فاصيب الرقيب جورج مطر احد عناصر توزيع المخابرات الهاتفية في المديرية بشظية في وجهه فنقل الى المستشفى العسكري. وتحطم زجاج نوافذ المبنى للجهة الشرقية الشمالية.

وسقطت 11 قذيفة هاون في ستاد دي شايلا وقتل شخص.

وعثر على جثة قتيل في زاروب بين دي شايلا وكلية الطب الفرنسي بقي مجهول الهوية. كما سقطت 17 قذيفة هاون قرب حي السريان واوتيل ديو وفندق الكسندر والسيوفي في الاشرفية اصابت خمسة اشخاص بجروح خطرة والحقت الاضرار الجسيمة بالمباني والممتلكات. وسقطت قذائف هاون في المنطقة الغربية في البربير وصبرا والطريق الجديدة والبسطة والخندق الغميق نتج عنها جرح عدد من الاشخاص وقتل شخص قرب كلية المقاصد بقي مجهول الهوية. وفي شارع فردان سطا مسلحون نهاراً على محلات سبينس ونهبوا محتوياتها بواسطة شاحنات.

وفي شارع الحمراء تبودلت النار بين صاحب فرن ومسلّح أراد ان يتجاوز دوره.

وقرب سينما كوليزه في الحمراء حصل ازدحام في السير. فخرج مسلح من احدى السيارات المستعجلة وأطلق رشقات من الرشاش لفتح الطريق وعندما تم له ذلك بهرب الناس أكمل سيره.

وبعد ظهر امس أطلق مسلح رشقات من الرصاص على خط مستقيم في اتجاه شارع مصرف لبنان ولم يصب أحد بأذى.

جنبلاط يطالب الجيش بنقل الجرحى والنساء والأطفال: أجرى امس السيد كمال جنبلاط اتصالاً هاتفياً بقائد الجيش العماد حنا سعيد طالباً ارسال طائرات هليكوبتر لاجلاء النساء والاطفال والجرحى من منطقة الكرنتينا كما يحصل في الجية والدامور، ودعاه الى ارسال الجيش لفك الحصار عن تل الزعتر بالقوة.

مفروشات للبيع: بداعي الهجرة مفروشات شقة ستيل 288828.

وظائف: مطلوب رسام، ميكانيكي، وكهربائي للعمل في أبو ظبي 346078.

مهاجمة منزل الدكتور مخلوف: جاء في وكالة الانباء الفلسطينية «وفا» ان القوات الانعزالية هاجمت اول من امس منزل الدكتور اللبناني يوجين مخلوف المسؤول عن العلاقات مع الصليب الاحمر الدولي في جمعية الهلال الاحمر الفلسطيني. ويقع المنزل في بناية الكولونيل سيف الدين العرب «التي يسكنها عدد من ضباط الجيش اللبناني في الحازمية قبالة مستشفى قلب يسوع.» وذكرت الوكالة ان «الهجوم على منزل الدكتور مخلوف وقع على مسمع قوات السلطة وتحت بصرها، وهي ترابط امام البناية. واحضرت القوات الانعزالية عدداً من الشاحنات لنقل محتويات المنزل، واستولت على كل اوراق الدكتور ومصاغ زوجته (...) ومن بين الاوراق مذكرات والده المخطوطة بيده عن ثورة فلسطين في العام 1936 واوراق ملكيتهم واراضيهم في مدينة حيفا.» واتهمت الوكالة هذه القوات بانها «هددت زوجة الدكتور مخلوف بالقتل ان هي اجرت أي اتصال بزوجها او أي جهة، وطلبت اليها مغادرة المنطقة... لكن الزوجة رفضت.» وتجدر الاشارة الى ان الدكتور مخلوف كان عضو الوفد الفلسطيني في مؤتمر الكنائس العالمي الذي عقد في نيروبي مؤخراً.»

الجبهة الشرقية: النبعة حاولت مساندة المسلخ: كانت الجبهة الشرقية

مضطربة أمس بسبب الاشتباكات في منطقة الكرنتينا والمسلخ، ونشطت اعمال القنص والقصف في مناطق حرج ثابت وكورنيش الجديدة وقرب مستشفى عزوز. وشهدت المنطقة خلال الليل اشتباكات متقطعة بين النبعة وسن الفيل، خصوصاً بين شارعي مار الياس والغزال ومحور البلازا. وفي الصباح حصل تراشق قوي بين حرج ثابت وتل الزعتر كذلك بين البراد اليوناني ومنطقة حارة صادر وكمب طراد. وتعرض مركز البحوث في الدكوانة لقصف بالمدفعية المضادة للطائرات.

على صعيد آخر استمر حريق معمل كلينكس وامتدت السنة النار الى طبقاته فصدعتها. وأفادت المعلومات الرسمية ان النار هددت المبنى بالانهيار. وتعذر امس ايضاً على سيارات الاطفاء الوصول الى المنطقة لمكافحة النار في المعمل بسبب اطلاق الرصاص عليها. وأدى القنص الذي حصل بعد الظهر على محور النبعة- مفترق عزوز الى اصابة فتاة أرمنية بجروح فنقلت الى المستشفى.»

فالدهايم: مأساة لبنان قد تؤدي الى كارثة في المنطقة كلها: الأمم المتحدة- رويترز: دعا الدكتور كورت فالدهايم الأمين العام للأمم المتحدة شعب لبنان وقادته الى انهاء الصراع الدائر.

خادم مار لويس يناشد المسلحين اخلاء كنيسة الكبوشية: ناشد الأب ريمي خادم كاتدرائية مار لويس للآباء الكبوشيين في باب ادريس المسلحين اخلاء الكاتدرائية «لأنها بيت الله، كذلك الدير». وقال ان «معركة جرت في الكنيسة استمرت 90 دقيقة تبعها خزن عتاد حربي فيها.» وجاءت هذه المناشدة في أعقاب ما قرأه الأب ريمي امس في «النهار» من كلام قاله السيد ابراهيم قليلات للسيد كمال جنبلاط وهو «ان مقاتليه (قليلات) يحافظون على الكنيسة ولا يمكنهم الانسحاب من حواليها لأن الكتائب ستأخذ مكانهم.» وأوضح الأب ريمي: «نحن طلبنا الى السيد قليلات اخلاء الكنيسة والدير من المسلحين، لان هذا الانسحاب لا يضر بموقعهم وهم متمركزون

في مدرسة الفنون أي فوق الكنيسة وفي بناية عبد الرزاق تحت الكنيسة وفي وادي ابو جميل في محاذاة الكنيسة. مع العلم ان المسلحين عندما دخلوا الكنيسة لم يجدوا فيها أي كتائبي.»

القذائف تتساقط على الجية والدامور والسعديات، والمطر يخفف نسبياً من حدة المعارك.

الجبهة الجنوبية: لا يزال القتال يتصاعد على جبهة الحدث- الليلكي، وجبهة الشياح- عين الرمانة. ووقعت اشتباكات عنيفة في جبهة الحدث- الليلكي- كفرشيما- حي السلم استخدمت فيها مدفعية الهاون وقذائف ار بي جي والرشاشات الثقيلة من عيار 500 ملم. وسقطت قذيفة هاون في منزل فؤاد عباس زين الدين (37 عاماً) فهدمته وقتلت فؤاد ووالدته صفا محمد زين الدين (65 عاماً). وأدى انفجار قذيفة هاون شرق مبنى كلية العلوم التابعة للجامعة اللبنانية على طريق الحدث الى مقتل اربعة مسلحين.

الحازمية- جسر الباشا: وشهدت جبهة الحازمية وفرن الشباك والتحويطة- جسر الباشا وتل الزعتر هدوءاً نسبياً تخلله تراشق بالاسلحة الخفيفة فتبادل الطرفان القصف المدفعي المتقطع من هواوين وقذائف صاروخية. ونشط القنص بين الطرفين وجرح برصاصه ثلاثة مواطنين وسقط قتيل في جسر الباشا اثر انفجار قذيفة هاون بالقرب منه، وعثر في بستان على طريق الحازمية على جثة قتيل مجهول الهوية. وهدمت قذيفة صاروخية منزلاً مهجوراً في جسر الباشا.

84
آل بدّور 3 – الطابق السابع

أنزلت معها فرشة من أجل بولس. صغيرها ينزعج في الملجأ. لا يقدر أن

يتحمل الزحمة. ودّت لو بقي أمين هنا اليوم ولم يذهب الى شغله. لم تفهم لماذا يفتحون السوبرماركت والناس كلّهم في الملاجىء. نصبت ستارة في الزاوية. أشعلت القنديل كي تطرز. نظرت الى بولس يلهو بألعابه غارقاً في عالمه المقفل. بناتها جلسن قانطات. كان المكان ساكناً والجميع يصغي الى الترانزيستور الذي وضعه اسحاق عطية على حافة النافذة المسدودة بأكياس الرمل. كرجت سيارة في نزلة المبرومة. خشخش الراديو. دائماً هكذا! يتشوش حين يصل الحكي الى الأشرفية! الأولاد لا يلهون كعادتهم اليوم. لا داما ولا ورق ولا مونوبولي. الست عازار ضربت ابنها شربل لأنه ضرب جوزف الحويك الذي يصغره بأربعة أعوام. أبو يونس نادى ولده الصغير وأجلسه جنبه. يونس لم يتدخل كي يدافع عن أخيه. ظلّ في الجهة البعيدة يتفحص التلفزيون المفكك الذي جرب السيد طانيوس قبل شهر أن يصلحه ثم تخلى عنه. لم يعد يأتي ويتخبأ معهم. لكنه أيضاً لا يقعد في المحل. سمعت أشياء عنه. عنده صاحبات في المحلات العمومية. الناس في الحيّ ينادونه «أبو جان» ويتوددون اليه. يبيع برادات وغسالات بالتقسيط المريح. يعطي حسماً للمهجرين. دوّت أربعة انفجارات متعاقبة من الجهة التحتانية. لم يتأكدوا حتى جاء الأخوان جورج ومخايل صاحبا دكان الخضر.

«قصفوا المطاحن!»

جورج الخضرجي تكلّم لاهثاً وهو يخرج تفاحاً من كيس ورقي. نادى أحد الصغار كي يأخذ ويوزع على الجميع. توقفت جورجيت بدّور عن التطريز حين دنا الولد من مكانهم وهو يمد الكيس أمامه. «أنت ابن من؟» سمرته شديدة. عيناه تبرقان. شعره غزير أسود. لم يكن من أولاد البناية. الجيران الذين لا يملكون ملجأ يختبئون هنا أحياناً. صغيرها بولس ابتعد الى خلف ولم ينظر الى الولد الذي يعطيه تفاحة. فرغ الكيس قبل أن يصل الى الجهة الأخرى، حيث تتجمع عائلات رزق وصعب وزيدان وطانيوس، وراء الصناديق التي غطيت بالنايلون الأصفر السميك. طرّزت جورجيت بدّور

على قميص أبيض ثلاث زهرات بالخيط الأحمر وهي تصلّي من أجل بناتها الثلاث. جوجو (جولي) قضمت تفاحة وجربت احصاء الرؤوس ابتداء من القاعدين على الباب والدرج (لكن بعضهم يظل يخرج ثم يرجع، وبعضهم لا تراه من هنا). صوفي راقبت صبايا عائلة حبيب الشقراوات في ثيابهن الجميلة (هناء عازار أخبرتها عن أخيهم المخطوف). رفقة حاولت أن تنام متكئة الى كرتونة كبيرة تفصل زاويتهم عن زاوية عائلة الدكتور معلوف. مرضت أمس. طوال الليل أرّقها وجع بطنها.

85
آل موراني 5 – الطابق السابع

«تغديت عند بيت خالي. زوجته أصرت عليّ: «أولاد خالك اشتاقوا لكِ كثيراً ولن يسافروا من دون رؤيتكِ.» أتت بالسيارة وأخذتني. تكلمتْ كالعادة بلا توقف. العطر ذاته. شانيل. كنت أهزّ رأسي وأقول شيئاً بين حين وآخر. شغّلتْ الراديو من دون أن تسكت وسمعنا في موجز الأخبار أن كمال جنبلاط أعلن هدنة وأعطى رئيس الجمهورية مهلة عشرة أيام كي يستقيل. على طريق جونيه رأيت سهلاً مغطى بأشجار مزهرة. أنزلت النافذة لحظة. سمعت زقزقة عصافير. بعثر الهواء شعري. أمي كانت تسوق السيارة في عطلة الربيع ونذهب ونزور صديقتها في الكورة. على هذه الطريق ذاتها. حبست نفسي لئلا أبكي. أخذت أحدق الى أمام فقط، الى الزفت والشاحنات. تجنبت النظر الى السهول أو الى البحر أو الى زهور الربيع جنب الأوتوستراد. وجدت أولاد خالي بانتظاري يلوحون بأيديهم الصغيرة من بين قضبان الدرابزين ويصرخون إسمي. لم أرَ الأرجوحة ذات الخيمة الزرقاء في مكانها على الشرفة. كانت أمي تحبها. تعلقوا بي في الباب. أوجعتني رقبتي. علق شعري بزرّ وتأوهت ألماً. فيفيان أرادت أن تأخذني مباشرة الى غرفتها كي أرى كرتونة رتبت فيها

الدمى والألعاب التي ستأخذها معها الى فرنسا. وجدت المكان غريباً واسعاً بارداً. الصالون فارغ وكذلك غرفة السفرة. الحيطان عارية. أخبرني خالي أنهم خزنوا معظم الأثاث في مستودع. شربنا الكاكاو على الشرفة. جلبت مونيك فساتين كي أراها. استعرضتها في ضوء الشمس كي أميّز بين ألوانها. أزحت الكرسي وأنا أدنو منها. لم أعرف ماذا حدث لكنني ارتطمت بالدرابزين. الكرسي وقع تحتي. ضحكنا وأنا أسمع خالي يقول شيئاً عن العوامل الوراثية. شعرت بشيء يحرق صدري. دخلت الى الحمام وغسلت يديّ. في الأسابيع الماضية، وأنا وحدي مع الكتب والموسيقى في غرفة صارت غرفتي، بدأت أسيطر على مشاعري. لكنني هنا، بينهم، أجد صعوبة في تنظيم أنفاسي. مسحت جبهتي بالماء. مسحت رقبتي. النافذة محجّرة الزجاج. فتحتها. فاجأني الثلج على جبل صنين، أبيض كالحليب. الهواء أخضر طيب الرائحة. أمي كانت تحبّ شهر نيسان (ابريل). تنشقت وأجريت تمرين التنفس كي أبطىء نبض قلبي. جلست لحظة على حافة المغطس. نظرت الى مناشف صفراء مرتبة وقناني شامبو ومكعبات صابون. فيفيان قرعت الباب وسألتني لماذا لا أخرج. حين فتحت الباب رأيتها تلبس جاكيتة طويلة ليست لها. سحبتني من يدي وهي تقفز ضاحكة. حملتها لئلا تتعثر. لم أسقط في الممر وبلغنا غرفتها. خلّصت نفسها من الجاكيتة. تركتها على الأرض كأنها قشرة موز. كان ذلك طريفاً وصرت أضحك معها. أخرجتْ كل ما رتبته من الكرتونة وبعثرته في أنحاء الغرفة كي أراه. عانقتني وغمرتني قبلاً وهي تقول انها تحبني وأشياء أخرى لا يقولها إلا الصغار. طلبت مني أن أقعد معها في خزانة الثياب. كانت سعيدة جداً وهي تشدّني كي أدخل وأجلس جنبها تحت «الشناكل» المتروكة. جاء مارك راكضاً. شدّني من يدي الأخرى. سحبني وأنا أجرّ فيفيان معي وهي تتركني أجرّها على طول الممر الرخام باسمة الوجه ساكتة تكبس شفتيها كأنها سمكة. أخرج خالي طاولة من المطبخ وفتحها على الشرفة. كان الطقس مشمساً دافئاً. وزعنا الكراسي. لم يقبلوا أن أساعد

في حمل الصحون. سألتني زوجة خالي هل أريد قنينة بيرة. الأولاد نظروا اليّ ينتظرون جوابي كأنه أهم مسألة في الكون. خالي وضع يده على رأس مارك وأخبرني انه مرات يسمح له بشربة عرق صغيرة من كأسه. تورد خدا مارك وهو ينظر اليّ. كانت أمي تحمله عالياً كي يلمس بلورات الثريا الكريستال. ويطلب مني أنا أيضاً أن أحمله. وتموت أمي ضحكاً وهي تمنعني من ذلك. كانت قوية اليدين. بينما نأكل سألني خالي هل أحببت الفاصوليا. شكرت زوجة خالي وأنا أقول انها فاصوليا طيبة. ابتسم خالي وقال إنها من المطعم تحت البيت. اختفت مونيك ثم عادت تحمل جوازات سفر. أنّبتها أمها. قالت مونيك:» انظري الى صورتي! أنا لا أحبّها!»

86
آل زخور 9 – الطابق الأول

أثاث الصالون مغطى بالشراشف الكتان. الزاوية يحتلها بيانو «بوزندورفر». لامع الخشب رغم الغبار. صُنع في فيينا (النمسا). الغطاء مرفوع. نملة شقراء تزحف على 88 أصبعاً. المقعد يمكن فتحه: في الصندوق دفاتر نوتة موسيقية، بينها أغنيات انكليزية (جنغل بلز جنغل بلز) وفرنسية (طريق بيكاردي) وإيطالية (ليالي تورينو). هنا تمرّن التوأمان قبل سنوات طويلة على عزف «سوناتا ضوء القمر» (بتهوفن) و»قطرات المطر» (شوبان).

*

خفّف الأطباء نسبة المخدر في المصل. بدأ ريمون زخور يئن. استطاع تحريك يده بصعوبة. كبس زرّاً ممدوداً بسلك. سمع الطنين بعيداً شبه مطمور. الشاش ضغط رأسه. شعر بحكاك فظيع في خاصرته. دخلت ممرضة طويلة مقوسة الظهر. سألته كيف يشعر. تحرّك فمه. بذل جهداً خارقاً استهلك كل طاقته. سأل عن رفيقيه. أخبرته ان رفيقه جان قسطنطين افرام بخير، حروقه

غير عميقة، وخرج من المستشفى. انتظر الممرضة كي تخبره عن كاترين.

*

الحكاك المتواصل المثير للجنون. والألم الذي لا يتحمله مخلوق. كان يئن بلا توقف. حين رأى ليديا ثابت شهق بالبكاء. مع أنه جبّار، بحسب الدكتور توكجيان. كان الدكتور مدهوشاً به، لأن قلبه تحمل الصدمة ولم يتوقف. ليديا ثابت حاولت أن تبتسم لريمون زخور. انحنت كي تسمع ماذا يقول. طلب منها بين أنفاس تتقطع أن يزيدوا البنج. خرج صوته رفيعاً مبحوحاً لا يشبه الصوت الذي تعرفه. لم تستغرب. لأنها ممرضة.

*

«ابنكم مقاتل حقيقي. لا يقبل أن يموت.» قال الدكتور توكجيان على التلفون. «هناك تشوهات بالغة. بالتأكيد. حروق درجة ثالثة بلغت العظم. ويحتاج الى عمليات زراعة جلد. الشيء الجيد انه قطع مرحلة الخطر.»

تكلموا بالفرنسية. أفلتت كلمات انكليزية من الطبيب الأرمني خريج جامعة كليفلاند الأميركية. أرادت نادين أن تسافر معهما الى بيروت. من أجل أخيها. تفاجأ أبوها: لا، لا تقطعي دراستكِ، سأذهب أنا وفيرا ونجلبه للعلاج هنا. قرر في البدء أن يسافر وحده. لكن فيرا لم تقبل. تلفن الى مكتب الميدل ايست. سأل هل مطار بيروت مفتوح. قالت الموظفة نعم. سألها هل يوجد أمكنة على الطائرة من باريس الى بيروت. قالت بالتأكيد، دائماً، الطائرة تذهب فارغة، الصعوبة هي في حجز العودة. كانت لطيفة ولهجتها تدلّ أنها من الشرقية. حجز تذكرتين ذهاباً وثلاث تذاكر إياباً. سألته كيف يتهجأ حروف الإسم ريمون. شعر بألم في زلعومه. فيرا كانت جالسة قبالته. عادة هي تتصل وتحجز. للمرة الأولى في حياته يرى عيسى زخور زوجته شبه منهارة. تجمدت ملامح وجهها وهي تحمل سماعة التلفون في ذلك الصباح الأسود. عرف أنه تلفون من لبنان. خاف أن يكونوا قتلوا إبنه. أعطته السماعة

مخطوفة اللون. أصغى الى المسؤول يكلّمه بصوت هادىء من بيت الكتائب. امتدّت يده وأمسكت ذراعها. طوال أيام رآها ترتطم بالأبواب. تبدّد صوتها. الضوء خفت في عينيها. ساعدها بالمهدئات. يصعب الحصول في باريس على أدوية بلا وصفة طبية، لكن أصحابه اللبنانيين الفرنسيين كثر، وبينهم عدد من الدكاترة. حين بلغا بيروت تغيّرت فيرا فجأة. لا يعرف كيف استردّت قوّتها. رآها تساعد الصبي الملفوف بالشاش على النهوض من السرير. هو في المقابل، عيسى زخور وكيل الشيفروليه إبن الكاهن زخور زخور، فقد شجاعته حين شمّ الرائحة.

87
آل الخوري 9 – الطابق الثالث

«بقيتُ ليلة واحدة. خرجتُ صباحاً. كارلا عبد المسيح أعطتني رقم تلفونها. رسمت لي على قفا كرتونة «روثمان» خريطة لا يفهمها أحد لبيتها القريب من رأس النبع. «أنتِ على الحدود. انقلي!» في مركز فوش سألوني أين كنت. قلت ليس المهم أين كنت أنا، المهم أين صاروا هم؟ ذهبت مع كلود هندية في جولة. أخبرني ونحن نعرج في حماية المتاريس مثقلين بالذخائر أن روبير رفّول هو الذي نقلني الى الطوارىء. سألته من هو روبير رفّول؟ «أنت تعرفه، صديق المرحوم شارل، نسيت روبير؟» وضعت الأثقال على الأرض وجلست كي أرتاح. كنت ألهث بلا سبب: «روبيرتو. أين هو؟» أخبرني انه أخذ إجازة وذهب الى بيت أهله. «في هذا الوقت يأخذ إجازة؟» فرقع الرصاص من جهة باب ادريس. أردت التقدم لكنه أمسك بحزامي: «لا، كل تلك المنطقة صارت معهم.» قلت له افلتْ يدك، أريد فقط أن أنظر. صار يضحك وأخبرني أنني لن أقدر. «لماذا؟» أخبرني اننا زرعنا ألغاماً عند «بان-ام» والخريطة ليست معه وعلينا العودة للمركز كي نجلبها. «ألغام هنا؟ أنت

تمزح!» دلّني الى متراس عالٍ في بناية الأوتوماتيك. قال ان نجيب نحاس سقط من فوق وكسر رقبته. «من هو نجيب نحاس؟»، سألته. أخبرني أنهم أصابوه في رقبته، قوصوا عليه من الكبوشية ووقع مثل العصفور. أخذني في طريق شبه مطمورة بين أكوام الأسواق. تحركنا بحذر لأن الحدائد النابتة من كتل الاسمنت يمكن أن تقدح عينك. كانت الشمس تغرب. والروائح فظيعة. دخلنا متراساً على شكل حرف «ل». نصفه تحت الأرض. الشباب كانوا يدخنون ويلعبون بالورق «ليخة». الراديو على موجة أف أم. «أولديز.» أغاني روك من الستينات. أحدهم فتح علبة مرتديلا على رغيف لم يفصل طبقتيه. شعرت بالجوع وهو يفرغ نصف قنينة كاتشاب دوليز فوق كومة اللحم. ظلّ العرق يتصبب من جسمي مع ان الطقس ليس حاراً. تمددت على فرشة. وضعت رأسي على مخدة ونمت دقيقة أو دقيقتين. سمعت قرقرة بطني. تذكرت أنني جائع. تركنا لهم الذخيرة وخرجنا. كان كلود يطوي صفحة انتزعها من مجلة، ويحشوها في جيبه. سألته ما هذه. ضحك وسألني أين سأسهر الليلة؟ وصلنا الى مستنقع وكان علينا ان ندور حوله. لكنني تقدمت في خط مستقيم. ضاع عن نظري. دغشة المساء. انحدرت باتجاه البناية القديمة وراء البلدية. رأيت أحدهم يرمي كيس زبالة أزرق من أعلى متراس في «أوتيل لوكس». انفجر مثل قذيفة على الزفت. بينما أصعد الدرج شعرت بنوبة تعرق أخرى. الدم نبض كالبركان في رقبتي. جلست حيث رمينا جثة الثالث قبل شهور. التنظيفات أو الدفاع المدني جاؤوا وأخذوها. لا تتبدد الجثث وحدها في الهواء. تُرمى في البئر أسفل شارع اللنبي. لم أكمل صعودي الى فوق. أشعلت القداحة الزيبو التي لم أفقدها (ردّوها لي في مستشفى الروم). ولّعت سيجارة ودخنتها وأنا أغادر البناية. في مركز فوش أخذت عرايس لبنة وبيض وكبيس وصلت للتو من «تموين الصيفي». كنّ يكتبنّ على الكرتونة عدد السندويشات بقلم «الماركر». لا أعرف كم سندويشة التهمت. جاء كلود وسألني أين اختفيت. ظلّت جزمته نظيفة بعكس جزمتي التي غطت الدرج بالوحل. قلت له انني

جعت. جلب تنكات بيرة باردة ولف لي سيجارة حشيشة. جلسنا على السطح مع رجا مشعلاني ابن دكتور الأشعة في أوتيل ديو. كان صديقاً لأخي، يدقّ على «الدربكة» وأعرفه منذ أيام فريق الفوليبول. سألني هل أنا مريض. «رشح»، قلت له. الراديو مفتوح يذيع مقابلة مع عالم تونسي متخصص بالحيوانات. نسيت اسمه. تكلم عن عالم نمسوي أو ألماني اسمه كونراد لورنز. كان يشرح العادات الجنسية عند طيور الوزّ البري. ليلة هادئة. وظلّت هكذا حتى ساعة تقريباً قبل الفجر. كنت أنعس وشبه نائم حين بدأ الاشتباك. فتحت عينيّ ورأيت كلود يشخر بلا جزمته. وحدنا، أنا وهو على السطح. ركلته حتى أيقظته. لكنه لم ينهض. تركته ونزلت الدرج. رأيتهم يخرجون مثقلين بأحزمة الرصاص. «أين؟» قالوا ساحة الشهداء. «أين بالضبط؟» قالوا أوتيل ريجنت. أخذت سلاحي وذهبت في طريق غير طريقهم لكنها توصل الى المكان نفسه. كنت أشعر بالضعف والقوة في اللحظة ذاتها. وصلت الى الفندق بعدهم. لم يكن الرصاص غزيراً في البداية. الى جهة مقهى لاروندا اشتعل حريق كبير ملأ الساحة بالظلال. قوصنا بلا توقف باتجاه اللعازارية. كانت البنايات كثيرة بيننا والنوافذ لا تعد والرصاص متوفر. غيّرت موقعي وحاولت العثور على زاوية مناسبة. انفجرت قذيفة ار بي جي في بناية البوليس وتساقط شلال حجارة. أعطاني أحدهم قنينة ماء. شربتها كلها بلا انتباه. «اتركْ لي نقطة!» صار قسطل الدوشكا يحرق. أصيب أحدنا. نزف عليّ حين ساعدته كي يقوم. جفّ دمه على شعري ورقبتي. أخذوه للاسعافات الأولية ورأيته بعد نصف ساعة يضحك مضمداً وهو يدخن. تركت الموقع وذهبت كي أبوّل في مكان لا يتمترس فيه أحد. التقيت وأنا عائد شاباً أبرص أخبرني أن الصحافي الأميركي سأل عني وترك لي رقم تلفون. «أين الرقم؟» قال انه عند السنترال في المركز. كنت جائعاً من جديد. بينما أخرج سألني صوت الى أين. كان يضحك في الظلام ولم أتأكد من يكون. «ذخيرة.» أمام مركز فوش رأيتهم يحملون جرحى على نقالات. سيارة الإسعاف انطلقت

بلا صفارة وبلا ضوء. طاردها رصاص القنص. انفجرت قذيفة الى يمينها. ارتجت واندفعت الى اليسار وتابعت سيرها. لم يلمع الضوء الورّاني مرة واحدة. وقعت شظية أمام جزمتي. في السنترال وجدت شخصاً جديداً لا أعرفه. سألته هل ترك لي واحد أميركاني اسمه جيمي رقم تلفونه. نظر اليّ وهو لا يفهم. على اللوح الخشبي وجدت ورقة أكبر من رأسه مكبوسة بـ«البينيز» وعليها اسمي. أبعدته وأخذتها. بدا منزعجاً لكنه ظلّ ساكتاً. ثلاثة أرقام. جرب الرقم الأول ولم يردّ أحد. جرب الثاني وردّ أوتيل ألكسندر وقالوا ان جيمي ترك الفندق منذ أيام. جرب الثالث ووجده مقطوعاً. قلت جربْ مرة بعد. قال هذا رقم أوتيل الكومودور، أنا أعرفه غيباً، كل الخطوط مع المنطقة الغربية مقطوعة. لم أفهم لماذا أغاظني. كان يلعب بقلم «بيك» وينتزع سدّته الصغيرة الزرقاء بأسنانه. أغاظني. شكله أو صوته. أخبركم عن هذا لأنه يعني شيئاً. لم يكن عدواً لي ولا للمنطقة الشرقية. لم أفكر في أخي الذي قلعوا أضراسه وأظافر قدميه ثم ردّوه لنا مع الصليب الأحمر. لم أفكر في المجتمع المسيحي ولا في كيان لبنان الواحد المستقل. لم أفكر بشيء ولا بأحد. كنت جائعاً وأشعر بالعرق يبلّ ظهري ويسيل تحت ابطيّ. رفعت المسدس الحربي وسددّت الفوهة الى جبهة عامل السنترال. رأيته يرجف كفتاة. عجز عن الحكي. شعره طويل الى تحت الكتفين، أشقر ومربوط مثل ذيل الحصان. تركته يرتجف في الكرسي الجلد وخرجت. مشيت من فوش الى ساحة الشهداء. الذبان طنّ في الظلام. خشّ جهاز اللاسلكي. وجدت الفرن عند زاوية الريفولي مقفلاً. تابعت طريقي الى أفران الجميزة. كانت رائحتي تقتل وثيابي وسخة ورجلي اليمين ترتعش. نار المرفأ لم يتوقف دخانها. بدت العنابر مثل بواخر مقصوفة. شاحنات داخلة خارجة. رأيت واحداً أسرناه يتلقى الرصاص في صدره ووجهه ويقع بين براميل زبالة. إعدام بلا تعذيب. الليل في آخره لكن الشمس لم تطلع بعد. اشتريت منقوشة وأكلتها. النار ترقص والمناقيش تتحمص والراديو يذيع نشرة أخبار معادة. لم

أكمل المنقوشة الثانية. أوقفت سيارة أوصلتني قبل ساحة ساسين وتعطلت. نزل الرجل وهو يشتم. فتح غطاء المحرك. كان يزن مئة كيلوغرام على الأقل. تركته يبرّدها بمطرة ماء وقطعت جسراً قصيراً لا أقطعه مرة من دون أن أفكر في أخي. كان شارل يتعلق من الدرابزين الأزرق ونحن صغار ويتدلى كأنه سيقفز على السيارات المنحدرة باتجاه مدرسة اللاساجيس. توقف جيب للنمور ونادوني وعرفتهم. «أين نوصلك؟» أخبرتهم أنني أتمشى. حين بلغت المبرومة كنت ألهث. عادة أقطع مسافات طويلة ولا أتعب. لكنني تلك الليلة تعبت. لم أقرع الباب. عثرت على المفتاح. دخلت بلا ضجة لئلا يستيقظ أبي اذا كان نائماً. تخلصت من الجزمة. مشيت كاللص في الممر الطويل. كان باب غرفته موارباً وسمعت شخير الويسكي الذي أعرفه. ذهبت الى غرفتي وخلعت ثيابي. كومة على البلاط. الضوء تسرّب من الكوّة العالية. لمحت صورة شارل بطرف عيني تراقبني من فوق الكومودينة. أخذت منشفة ودخلت الحمام. كانت المياه فاترة. اغتسلت طويلاً تحت الدوش. ظلّت ساقي اليمنى ترجف. فركت الوسخ عن ذراعيّ وفخذيّ. حمّمت رأسي ثلاثة أدوار بالشامبو. استعملت ليفة استعملها شارل قبلي وظلّت هنا، تتدلى من المسمار حيث علّقها. كان صدره مشطّباً بالسكاكين. وعلى ظهره، تحت رفش الكتف، حرق أحدثته مكواة. ثقبوا يده. وكسروا عظم ساقه. إحدى الجارات قالت لأبي في العزاء انها تشكر ربّها لأن أم شارل ماتت قبل شارل. قالت لأبي: «هذه رحمة الست العذراء». أنا سمعتها ولم أفكر أنها مجنونة. لكن لولا التابوت بيني وبينها كنت أقبض على رقبتها أو أناولها كفاً. فركت جسمي بالليفة والصابون حتى احمرّ جلدي. نشفت نفسي وخرجت. لم تتوقف رجفة رجلي. وجدت أبي واقفاً ينتظر أمام باب المطبخ. اقترب مني وعانقني وأنا ألف خصري بالمنشفة. قال انه أعدّ ركوة القهوة. كان يلبس كنزة صوف فوق بيجامته. انتبهت أنها كنزة شارل.»

88
آل عطية 4 – الطابق الثالث

«جليد. سمعت حبّات البرد تطقطق على النوافذ. بلد الصقيع. رأيت اسحاق يتكلم مع هدى وشخصين لا أعرفهما. بقيت ساكتة حتى ذهبوا وظلّ إبني فقط. كان يحمل أسطوانة في يده. لونها نيلي غامق. قال هذه أوبرا «دون كارلوس» لفيردي، تتذكرين كم كان عمي يحبّها؟ حين لم أتكلم انتبه أنني أبكي. سألني ما بي، ماذا يؤلمني؟ هل يؤلمني جنبي؟ سألته كيف يفعل هذا بي؟

«أنا؟ ماذا فعلت أنا يا أمي؟»

«جلبتني الى هنا. الى كندا في آخر الأرض! ألم أقل لك أريد أن أموت في بيروت؟»

«لكننا في بيروت يا أمي! أنتِ في بيتنا في الأشرفية! لسنا في كندا!»

«حرام عليك يا ابني. تريد أيضاً أن تضحك عليّ! تظنني مصابة بالخرف ولا أعرف أين أنا لأنني مريضة ونائمة في التخت!»

*

«أسمعهم وأنا أغمض عينيّ وأتصنّع النوم. لا أفهم لماذا يفعلون معي هكذا. أحاول ألا أبكي. بدأ بصري يذهب. أرى الأبيض وفي الأبيض يتحركون مثل الأشباح. لكن أحياناً يتحسن نظري. أولاد لا أعرفهم. بنت كبيرة تنحني وتقول أنا راشيل. أسألها من هي. تقول أنتِ جدتي، إبنكِ أبي. شعرها مفروق ومربوط في جديلتين معقودتين بشرايط مزينة خرزاً. بلوزتها ناصعة البياض مطرزة بالأخضر عند الياقة. أعرف أنهم يضحكون عليّ. لا أسمع رصاصاً ولا انفجارات. هذه ليست بيروت. في الليل يقبض الجليد

جسمي. لماذا أخرجوني من بيتي؟ كان أحسن لي أن أموت هناك. أين زوجي يرنم المزامير؟ أحفظها واذا فتحت فمي أسمعها تخرج وحدها مني. لو تركوني في الوادي! لا أنام الليل بسبب البرد على الشبابيك، قلت لاسحاق. قال أنت تتخيلين يا أمي، نحن في الربيع، منذ أسابيع لم تمطر. قالت هدى هذه سقوف التنك تطقطق حين يهبّ هواء البحر. قالت هذه أكواخ المهجرين في النزلة تحت البناية. تركتها تحكي. لكن من أين يأتي المهجرون ونحن في مونتريال! يضحكون عليّ لأنني مريضة ولا أقدر على القيام من التخت. كيف صاروا هكذا؟ متى قسّوا قلوبهم؟ الألم في ظهري يمنعني من النوم. كأنني نائمة على عظم وبيض وحجارة. قلت لاسحاق جسمي كلّه حجارة. جلب رجلاً وتساعدا وقلباني على هذه الجهة ثم تلك. ماذا يفعلون؟ خفت أن أتهدم كما تتهدم حيطان الجلول في الوادي حين يقوى المطر. أصلي أن يأخذني الربّ. لم أعد أتذكر المحلات أمام بيتنا. لكنني أتذكر أشياء أقدم، حين كان شجر التوت يتحلق مثل الأسوارة حول الحارة. أتذكر موسى عطية ابن عمتي الموظف في «الريجي». كان يرجع من مهماته في الجنوب وهو يحمل هدايا يوزعها على الأقارب: أكياس ورق ملآنة تبغاً مفروماً قوي الرائحة. أتذكر سالم سرور الذي يعتني بمقبرة الطائفة، ينظف الشواهد ويسقي بالدلو شجيرات الغار على الحد مع مقبرة البروتستانت. كان يركض وينهر الحمير اذا اقتربت من سبيل الماء الذي بني على نفقة الست سارة. ولا يخاف من الخيالة الدرك. أتذكر ابراهيم ديوان ناظر الأليانس بشاربه الأشقر وعينيه الزرقاوين ووجهه المنقط، يرفع الجرس الثقيل بيد واحدة ويهزّه فتنتهي الفرصة ونتراصف. أتذكر أمي وهي ما زالت نحيلة وصغيرة وشعرها أسود كلّه تنفض المنديل عنه وتنتبه الى وجوهنا المدهوشة. زوجي يجيء وأنا نائمة ويسألني ماذا طبخت. أفتح عينيّ ناسية أنني صرت في كندا وهو ما زال في بيروت. أقول له انني لم أطبخ اليوم لأن أكلاً كثيراً بقي في البراد منذ البارحة.»

89
آل حبيب 8 – الطابق الرابع

على عكس أخواته المتحررات نشأ كارلوس ميشال حبيب محافظاً. هذا غريب بعض الشيء كونه تعلم في المدرسة الفرنسية الحديثة (الليسيه) ذاتها. لم يدرس في «الفرير» ومدارس الرهبان الأحادية الجنس كما وقع لعدد من أصحابه. هؤلاء التقى معظمهم في السكن الجامعي وضيّقوا صدره ليلة بعد أخرى وهم يشكون القهر والحرمان الطويل (الابتدائي ثم المتوسط ثم الثانوي: 12 سنة!) في مدارس تخلو من البنات. لعل عدم اهتمامه مبكراً بمطاردة التنانير مرده الى هذه المفارقة: أحاطته الفتيات في الصف وفي البيت. كان جميلاً حلو الكلام أنيق اللباس يحمر وجهه في الصف اذا خاض نقاشاً طويلاً وتحمّس. أحبّ حصّة الفلسفة بسبب الأستاذ الغريب الذي زار الهند وتعلم فن التأمل. قرأ «نقد العقل المحض» في البكالوريا. لم يفهم منه شيئاً. أعاره أستاذه كتاباً لهيوم وشرح له ان كانط لا يُقرأ في المدرسة ولا يُقرأ في الجامعة. «حتى دكاترة الفلسفة لا يفهمون عليه!» عثر في مكتبة البيت على كتب فرويد وقرأها. بعد ذلك جرب «الجريمة والعقاب» ثم «الأخوة كرامازوف». ملّ بسرعة. لم يعجبه دوستويفسكي. وجد كتباً أخرى روسية تنشرها دار التقدم (موسكو) باللغة العربية وتعيرها له بنت تجلس جنبه في الصفّ وتنزل في المظاهرات. لم يوافقها الرأي ان ماركس خاتم الفلاسفة لكنه قبل معها ان «رودين» رواية رائعة. حين دخل الجامعة وقرأ بالصدفة تورجينيف من جديد لم يحبّه. لاحظ ان الأذكى في مبنى الطلاب لا يعتبرون الأدب أو الفلسفة أو علم الإجتماع دراسة حقيقية. كان الذكر الوحيد في الصف وزميلاته الصبايا في معظمهن مهتمات بالحمرة والكحل أكثر من «الملك لير» وألكسندر بوب. قبل نهاية السنة الأولى بدأ يفكر أنه ارتكب خطأ.

ذهب الى مكتب العميد وسأل عن الاسلوب المتبع لتبديل الاختصاص. في هذه الفترة أتى خاله الدكتور من أميركا لقضاء عطلة. كان شخصاً جذاباً مفعماً بالحيوية يعجز عن القعود لحظة. تبادلا حديثاً عفوياً في المطبخ ذات صباح. والحديث عدّل مسار أفكار كارلوس من جديد. كان فضولياً محباً للمعرفة يهوى أشياء متفرقة، ويدخل أحياناً في «فترات علمية» لا يطالع خلالها الا كتب الكيمياء والرياضيات. ربطته صداقة متينة بأخته آنا. وحافظ على علاقة مقبولة دائماً بأختيه هالة وحلا لأنه لم يتعامل معهما يوماً بصفته أخاً ذكراً. كره في أبيه هذا الميل البطريركي. على المائدة مثلاً وهم يشربون نخبه في عيد ميلاده: «كأس ولي العهد!» استهوته سيمون دو بوفوار مدة قصيرة ثم وجدها تكرر الأشياء ذاتها. ملّ منها كما من سارتر. فاجأته رواية كامو «الغريب» وقرأها ثلاث مرات. سألته أمه كيف يقدر أن يقرأ الكتاب ذاته مرتين وهو يعرف ماذا سيحدث في القصة. خاله الدكتور اصطحب زوجته الأميركية شارلوت في الصيف كي تتعرف الى لبنان والعائلة. بدت أشبه بالقرويات اللبنانيات في ضيع الجبل منها بأميركية موظفة في مصنع معلبات في سان دييغو- كاليفورنيا (قسم المحاسبة). كانت تلبس ثياباً داكنة الألوان، فساتين طويلة الى الكاحل وقمصاناً بأكمام تغطي المعصم! حين ربطت شعرها فوق رأسها مرة يتيمة رأوا رقبتها من الخلف بيضاء مثل قلب اللفتة كأنها لم تسبح أو تتشمس في حياتها. كان صيفاً شديد الحرارة لكنها لم تذهب معهم الى البحر. سألوها هل تكره السباحة؟ شرح لهم خاله أنها ماهرة في الغطس وتملك العدة الكاملة وتصيد الاسفنج. ظنوا انه يمزح لكنها بدأت تخبرهم عن أماكن غطست فيها لا عند ساحل الباسيفيك فقط لكن أيضاً في جزر اعتادت السياحة فيها. فتحت كفها وشاهدوا ندبة. أخبرتهم ان هذه سمكة في خلجان بورا بورا، تفرز مادة كيماوية تحرق الجلد. كانت هذه القصة الوحيدة التي غيّرت قليلاً في أذهانهم صورة الفلاحة اللبنانية التي عثر عليها خالهم الدكتور في قارة أميركا. على طاولة الأكل شاهدوها تطعم زوجها وترتب

الأشياء في صحنه قبل أن تبلع لقمة واحدة! حين يحكي تصغي الى حديثه كأنه يسوع المسيح! وكان يشبهه بسبب اللحية وقميصه الأبيض والوجه المستدير والقامة الفارعة. في ذلك الصباح الباكر وجد كارلوس حبيب خاله واقفاً أمام البراد في العتمة الخفيفة يأكل بالملعقة من علبة لبنة. ألقى عليه تحية الصباح. استدار الدكتور خليل سماحة بالفانلة التي تكشف جسماً مشعراً عند الصدر فقط، وفي مساحة محدودة. كان وجهه طفولياً باسماً لأنه يأكل من العلبة مباشرة. سأل إبن أخته كيف نام، هل رأى أحلاماً وهو نائم؟ جلسا الى الطاولة بينما ركوة القهوة تسخن على النار. لم يتوقف عن أكل اللبنة حتى فرغت العلبة. بعد ذلك مسح ما بقي بأصبعه. قال كارلوس شيئاً عن امتحانات الدخول الى كلية الطب في الجامعة الأميركية. «لكنك تدرس الأدب الانكليزي، لا؟» أخبره كارلوس انه يتخصص في الأدب والفلسفة معاً، يختار المواد من الحقلين، وخطته كانت الحصول على بكالوريوس أدب ثم يكمل ماجيستير فلسفة. «لماذا اختصاصان؟» شرح له أنه يحبّ أكثر من شيء واحد. «أوكي، لكن لماذا تقول انك تفكر في التغيير الى الطب؟» أخبره كارلوس انه يقرأ كثيراً كتب بيولوجي وهو لم يكن يهتم بها في المدرسة لكنه مؤخراً اكتشف أنها تناسبه. «ما الذي يناسبك؟ الجهاز الهضمي؟ تركيب الدماغ؟ الدورة الدموية الصغرى؟» تكلم خاله باسماً ثم صار يضحك وهو يخبره كم كان يكره أساتذته في المدرسة، خصوصاً أستاذ البيولوجي. «كان مصاباً بالربو وطوال الوقت يصفر وهو يكتب بالطبشورة على اللوح ولا نسمع من شرحه شيئاً.» قال كارلوس انه في الجامعة اكتشف من أصحابه الذين يدرسون المواد المقررة لدخول كلية الطب شيئاً مهماً.

«ماذا اكتشفت؟»

«لم أكتشف منهم هم تماماً. أنا أصلاً أفكر في هذا من قبل. عليّ أن أتخصص اختصاصاً علمياً. بيولوجي أو كيمياء.»

«لماذا اذاً تدرس الأدب الانكليزي؟»

«أحبّ الانكليزي. منذ البريفيه أجمل مادة عندي الأدب الانكليزي. وحتى من قبل البريفيه. لهذا أصلاً دخلت الجامعة الأميركية وليس اليسوعية.»

«ماذا تحبّ في الأدب الانكليزي؟»

«في المدرسة كنت أحبّ سونيتات شكسبير والمسرحيات. وقصائد بايرون وكولريدج. ووردسوورث. وكيتس. وبلايك. وروايات شارلز ديكنز. وقصص كبلنغ. لكن ليس هذا فقط. أحبّ سماع اللغة الانكليزية.»

«أنت محظوظ. مهم أن يحب الواحد اختصاصه. ألن يكون هذا عمله طوال حياته؟»

90
آل ثابت وشرارة 7 – الطابق الأول

من الأقدم الباقي بين سكان بناية أيوب؟ برناديت ثابت. ولويس الخوري. آل نصّار وآل الحويك أتوا بعد آل ثابت وآل الخوري، أثناء الخمسينات. آل شقير جاؤوا في الشهر ذاته مع السيد لويس، لكن أين هم الآن؟ حين سكنت برناديت وزوجها المرحوم الرقيب عزيز ثابت في الطابق الأول كانت الشقة المقابلة ما زالت خالية تنتظر من يسكنها. آل زخور فكروا أولاً في أخذ الشقة على الطابق الخامس، حيث نزل لاحقاً آل بسّول: هؤلاء ظلوا هنا سبع سنوات ثم حلّ مكانهم الدكتور شحروري وزوجته الصغيرة السمراء. اختار عيسى زخور وزوجته فيرا الشقة على الأول بدلاً من الشقة على الخامس، لأنها تقع الى جهة صنين وفيرا تهوى الشمس في الصباح. بمرور السنوات سيحجب العمار النوافذ ولن يتاح لفيرا سرسق زخور التنعم بالأشعة الباهرة مع فنجان القهوة. حين انفجرت الحرب ودّ سكان الخامس ومعظم الطوابق الأخرى لو كانوا في بيت آل زخور على الأول، لأنه ملجأ طبيعي (فوقه كذا سقف) ولأنه قريب من الأرض ولا نهلك على الأدراج قبل بلوغه. كانت هذه أفضلية

عظمى بعد تعطل المصعد. آل خير الدين (حيث آل صعب الآن) سبقوا آل زخور الى «المبرومة»، لكنهم لم يسبقوا آل كرم. «فلافي» الأبيض البودل نبح في بناية أيوب نباحه الحاد العجيب قبل أن تظهر الشجيرات على شرفة الطابق الثاني وقبل أن يعلق المحامي جامع الكتب أقفاص بلابله المجلوبة من بعلبك. كان نباح الكلب يفزع البلابل ويسبب لها إسهالاً، لكن الست أنجيل كرم لم تهتم. أحبّت «فلافي» مثل إبنها وحين ضاع طبعت صورته ووزعت ملصقات على حيطان الأشرفية مع كلمة «مفقود» ووعد بمكافأة مالية سخية لمن يجده ورقم تلفونها. لم تعرف كيف اختفى: ترجلت دقيقة من الكاديلاك الى الصيدلية وعند رجوعها لم تجده. هل قفز من النافذة نصف المرفوعة؟ هل فتح أحدهم له الباب كي يخرج؟ سرقوه؟ لن تعرف جواباً. في ذلك الزمن كانت الكلاب الفرنجية الصغيرة نادرة في منازل بيروت. كان يزن أربعة كيلوغرامات إلا أوقية واحدة. جلبته معها من برلين. تهتف له فيقفز في مكانه كأن قوائمه مزودة بنوابض. حين بدأت الحوادث وأخذت صور المفقودين تظهر في الجرايد فكرت فيه وتذكرت التلفونات الهازئة. كانوا يتصلون بها في نصف الليل، سكارى. يتكلمون عن كلاب «جعارية» شاردة تأكل الزبالة، ويطلبون مكافأة. بشر بلا رحمة. راغدة زغلول شغّلها السيد أيوب العبد في تلك الفترة لأن ناطور البناية العجوز الأعزب أبو مسعود الحتّوني مات أثناء الليل في فراشه ولم يخرج صباحاً كي يكنس المدخل على عادته منذ وُجدت البناية. قرع السيد أيوب الباب وقتاً طويلاً بلا جدوى. في النهاية استعمل مفتاحاً في حلقة مفاتيحه. لم يكن وحده. ثلاثة دخلوا معه: شوفير التاكسي بولس الحويك الذي كان لا يزال شاباً آنذاك ووافر الصحة وشعره غزير شديد السواد يفرقه على الجنب؛ الدكتور نصّار الذي يخرج باكراً كل يوم ثلاثاء وخميس وجمعة لكنه يتأخر الإثنين والأربعاء؛ والحاج شقير وهو أول من استغرب خلاء مدخل البناية من «مقعد بو مسعود» ومكنسته، حين نزل كي يفتح متجره في الساعة السادسة والنصف. للوهلة الأولى لم يخطر في باله

ان الأسوأ قد وقع. لم يتخيل أنه لن يبادل الناطور الطيب القلب، الصادق البسمة، تحية الصباح أو تحية المساء مرة أخرى. كان يكنّ له مودة خالصة ويعتبره صديقه ويلعب معه «طاولة». صار بعد موته يتأخر في الصباح ولا يفتح متجر السجاد قبل الثامنة.

❋

عزيز ثابت لم يحضر دفن الناطور. كان في الخدمة. عند رجوعه من ثكنة طرابلس عرف الخبر من زوجته. تضايق وجلس حزيناً في كنبته ينظر عبر الزجاج الى أشجار الجانب الآخر من «النزلة». لم يغيّر ثيابه. تسلقت ليديا ساقه وجلست في حضنه. برناديت أخبرته عن الدفن وقالت ان السيد أيوب العبد تلقى التعازي بالناطور دامع العينين. عزيز هزّ رأسه وقال الله يرحمه. تابع النظر الى الأشجار في الخارج، والطفلة في حضنه تزحف أصابعها المدوّرة وتقبض على أذنه. هذه الصورة باقية في ذهنها. كان لا يزال شاباً.



في البيت المعتم اكتشفت برناديت ثابت عزاء: ذكرياتها. لم يتراجع ألمها لكنها صارت تعيش معه كشيء منها. فقدت القدرة على تحريك النصف السفلي من جسمها. لكن ذكرياتها بقيت سليمة، محفوظة كالجواهر في أماكن مخصوصة. كانت مرات تصرخ وهي تلمس ذكرى منها. كأنها احترقت بكبريتة. شعرت أحياناً أنها ستشهق وتموت وهي جالسة هكذا، تنظر الى سليمان واقفاً كالشبح أمام المكتبة أو قريباً من الدرسوار أو عند الأباجور الخشب لباب الشرفة. كان الألم ينفجر فجأة في مركز دماغها، كثيفاً مسنّناً أسود كالفحم، يعمي عينيها حتى تعجز عن الرؤية. صلّت شهراً بعد شهر أن تموت. لكن الربّ منع عنها الخلاص لحكمة لن تفهمها. أخذ زوجها وأبناءها الثلاثة لكنه تركها! حين حلّ فصل الربيع وجلبت إبنتها الى البيت لوزاً أخضر طرياً لم تأكل حبّة واحدة. اكتفت بالنظر الى اللوزات مغسولة في الصحن على

الطاولة. أخذتها الرائحة الى مكان بعيد بينما سليمان يقضم حبّة.

*

أصاب «البو كعيب» طوني وهو في الثامنة. تورم خداه واحمرّت رقبته. هذى بسبب الحرارة. وصف الطبيب دواء شفاه بسرعة لكنه ترك أثراً بنّياً خالداً على أسنانه. لم ينزعج طوني ولم يهتم. لكن أمه لامت الطبيب. لن تسامحه ولن تقصد عيادته مرة أخرى. في المدرسة حظي طوني بشعبية لم يعرفها أي من أخويه. كان محبوباً من الجميع، طلاباً ومعلمين، ونجماً في منتخب الفوتبول. يستيقظ قبل طلوع الضوء ويخرج الى الركض والتمرين مع أخيه إيلي. أخرجوا طوني من منتخب الأشبال وضمّوه الى منتخب الفتيان قبل أن يصير في الصف الثاني المتوسط. كان سريعاً حاذقاً في المراوغة والتسديد، ذكياً في تمريراته الى رفاقه، ويقود الهجمات أفضل من أي لاعب آخر. لاحقاً ترك إيلي الفريق وصار طوني الكابتن.

*

«لم أكن أريد هذا. ذهبت مع موسى الى المعسكر لئلا يزعل. قال لا تقاتل اذا كنت تكره ذلك، لكن على الأقل تتعلم كيف تقوّص بالكلاشينكوف. قال ايلي: «اتركه يا موسى! طوني ليس مثلنا!» كنا في شقة إيلي في شارع ويغان. قال كميل صليبا: «عيب يا طوني! عيب عليك!» قمت حين قال ذلك وذهبت معهم. ليس من أجله ولا من أجل إيلي. عيب؟ ما العيب؟ عيب أنني لا أقبل أن أقتل وأقوّص على الناس؟ حتى لو كانوا يقوّصون ويقتلون. عيب أن أدرس وأنهي جامعتي وأتزوج ندى وأفعل الأشياء التي أحبّ أن أفعلها؟ قالت ندى: «معه حق أخوك موسى يا طوني. لا أحد يقول اذهب الى المتاريس. لكن ماذا تخسر اذا تمرنت في الجبل؟ أنت تحبّ الكشّافة والتخييم أصلاً. وكلّهم الذين يتدربون أصحابك من الملعب.» شعرت بنظرتها تحرق خدي. وضعت الملعقة على حافة الصحن ولم أكمل طعامي. درّبنا موسى على فكّ المدافع

الرشاشة وتركيبها. كنّا في أحراج قريبة من أرز الربّ في بشري. تدربنا على سلاح قديم مستعمل. لكن قبل التخرج من الدورة العسكرية جلبوا لنا دوشكا جديدة بشحمها، ملفوفة قطعاً في الصناديق. كنت أصيب أكثر مما أخطىء. أحببت كل شيء في الدورة. حتى «الكبسات» ليلاً (طابور الإزعاج) والزحف بلا ثياب على الصخر. حتى الطعام والفول المضروب بالسوس. الطبخ الذي كرهه الباقون لم يزعجني. كنت ألتقط اللحم المدهن الكاوتشوك من أطباق الآخرين المعدنية وأضحك. إيلي أصابه إمساك بسبب الكافور الذي يستخدم في مطبخ الجيش للجم الشهية الجنسية. أكثر من ليلة سمعته يئن. كان الطقس جليداً. المخيم يرتفع عن سطح البحر 1500 متر. في الفجر حين أذهب كي أبوّل وراء الصنوبرات يغلفني الضباب والبخار وأتخيل أنني سأختفي. أثناء التمارين على اقتحام البيوت ارتدّ صاعق رصاصة عليّ وجرحني في فخذي الأيمن. كنّا نستعمل بيوتاً مهجورة زرب فيها رهبان قاديشا من قبل أغنامهم. أناموني على التبن بانتظار الإسعاف. نزفت من دون أن أبكي. أسناني حفرت اللحم في بطن فمي. فعلت ذلك من أجل من؟ موسى أخي أم ندى خطيبتي؟ لم أرد يوماً أن أؤذي أحداً. جبان؟ قالت أمي: «وأنت صغير أهلكتني. عذبتني كثيراً. مئة مرة لحقتك في آخر لحظة قبل أن تقع عن الدرابزين. لم أصدق أنك هدأت قليلاً حين كبرت. لماذا تذهب الآن مع موسى وإيلي الى بيت الكتائب؟ ماذا تفكر؟» حين جاءت الى المستشفى باكية، نهرها موسى أمام الجميع: «هذا خدش!». جلست جنبي على السرير وسألتني هل توجعني القطب. موسى خرج لأنه يتضايق حين يرفع صوته هكذا. إيلي وقف عند النافذة يدخن. سمعت ليديا في الممر تتكلم مع زوجها وتسأله شيئاً عن البرازيل. ثم دخلا وهما يبتسمان لي. سليمان سألني هل أنوي أن أعاديه بعد هذه الرصاصة؟ ضحكنا بينما الممرضة تطلّ مع عربة الأكل. ندى راقبتنا من الزاوية.» (سيرة طوني ثابت).

91
آل حبيب 9 - الطابق الرابع

غرفة كارلوس. الباب مغلق. المسكة والقفل قطعة واحدة ثمينة من النحاس الموشى. السيد أيوب العبد لم يبخل بالمواد ولا بالتجهيزات على بنايته. خشب الباب متين. البويا عاجية اللون. المفتاح فضي متروك في القفل. يمكنك الدخول. منذ فُقد كارلوس (نهار عمّ فيه الخطف وسجلت أثناءه قوى الأمن اختفاء 289 شخصاً في المنطقتين الغربية والشرقية) يتجنبون الدخول الى هنا. إلا أخته آنا. وأمّه. في أحيان نادرة يوارب الأب هذا الباب: ينظر الى الداخل من دون أن يخطو. على السرير المرتب قميص متروك مع شنكله. حرير أزرق مقلّم عمودياً بخطوط بيضاء رفيعة. الكمّ الأيسر يقع عن الحافة ويتدلى باتجاه السجادة. ضيق عند الزند لكنه يتسع قبل الرسغ حيث يتبدل القماش الى أخضر حشيشي. الزرّ عظم فيه غشاوة صفراء. السجادة تركية نبيذية اللون تؤطرها شرّابات بلون الكريم. تتباعد على الحيطان خمس لوحات منسوخة (بروغيل وفان غوغ و3 بيكاسو)، معلقة على ارتفاعات مختلفة، مزججة ومؤطرة بخشب أبيض. المكتبة (برفوفها المرفوعة على مساند معدنية) تعلو السرير وتمتد أعلى بنصف متر من المكتب. المكتب ثقيل ضخم الجوارير أزيح من مكانه سنتمترات قليلة وظلّ أثر تحريكه مطبوعاً على السجادة. النافذة بلا زجاج منذ حطمتها شظية أول نزولهم في «بناية أيوب» (كانوا خارج البيت). النايلون سميك مزدوج الطبقة، أخضر اللون، جعّدته بعض الشيء شمس الصباحات الساكنة. أُلصقت أسفله بطاقات بريدية لم تبهت ألوانها بعد: معظمها من أميركا (جبال كولورادو «الروكي». الواجهة البحرية لنيويورك. الغراند كانيون عند الغروب محمر الصخور. شلالات نياغرا عند الحدود الأميركية- الكندية. سهول بنسلفانيا تتوزعها حزم المحاصيل صفراء

اسطوانية شبيهة بعجلات عملاقة. زاوية شارع في مانهاتن تقلّد زيتية لادوارد هوبر). بعض البطاقات من بريطانيا: غابة ويندسور (بنفيلد- بنكشاير) مورقة الأشجار تظلّل خرافاً ترعى في جوارها. مبنى البرلمان وبرج بيغ بن تحت سماء زرقاء (إيطالية أكثر منها انكليزية) يوشحها غيم رقيق أبيض. باصات لندن العمومية (حمراء برّاقة، كذا طبقة، أشبه بألعاب الأطفال) تتوالى في شارع عريض بين عمارات عتيقة فخمة تعكس نوافذها طيران حمائم.

*

في الزاوية بين الخزانة والجدار: صندوق كرتوني تأخر كارلوس كي يفرغه من أغراض وضبها بنفسه قبل حريق بناية عين الرمانة. ظلّت أمه تلاحقه بهذا الطلب لكن أشياء كثيرة شغلته، خصوصاً وأن القسم الأكبر من وقته كان يضيع وهو في الجامعة في الغربية. أصرّت عليه لأن المرأة التي تأتي من أسفل «نزلة المبرومة» كي تكنس وتمسح، وتغسل وتكوي، مرة في الإسبوع، تعجز عن تحريك الصندوق والتنظيف تحته. فتحه ذات مساء وأخرج منه بعض الكتب والدفاتر. ثم تركه هكذا، منتفخاً ورطباً قليلاً عند القاعدة، بانتظار لحظة فراغ لم تأتِ لأنه خرج يوم الجمعة لابساً القميص الأصفر ولم يرجع.

*

الغرفة عالقة أبدياً في ذلك النهار. مع أن آنا تجلس هنا أحياناً على الكرسي الانكليزي بالمسند المبطن. تفتح المجلد (حياة جون درايدن وأشعاره) المتروك على المكتب، لكنها لا تقطع صفحاته. الغلاف زيتي اللون والكلمة الذهبية (لايف) منقورة بحرف أصغر من بقية العنوان. تتوسط الكتب والقواميس على الرفّ التحتاني ثلاث صور فوتوغرافية في براويز مذهبة. كارلوس (19 سنة) في برشلونة يرفع قبعة بيضاء أمام عمارة غاودي المشهورة «كازا ميلا». كارلوس (20 سنة) مع آنا يضحكان عند واجهة مطعم (أطباق ملونة معروضة بأطعمة يمكن تمييزها) في الحيّ اللاتيني- باريس. كارلوس

(16 سنة) يضع نظارتين ويركب جملاً محاطاً بالرمال عند أهرام الجيزة.

*

اذا فتحت الخزانة تعثر على رائحته. أحياناً تقعد على حافة السرير وتنظر باتجاه النافذة. اذا كانت وحدها في البيت تتمدد هنا من دون أن تزعج قميصه. على السقف ترقص ظلال. خارج النافذة شجرة مغبرة لا تعرف صنفها لكنها رأت مثلها في اليسوعية. بدأت تزهر زهراً بنفسجياً بهياً. الشتاء ينتهي والبرد يتراجع. من داخلِ غرفة كارلوس تبدو زهورها سوداء (النايلون الأخضر سميك). تأتي أحياناً قبل الغروب. تجد الغرفة معتمة. النصف السفلي للنافذة مسدود بحجارة باطون. حين يحلّ الليل تعبر سيارات قليلة. يدخل نور مصابيحها الأمامية اذا انعطفت صعوداً عند مفرق المسمكة. على المكتب مصباح لا تضيئه. «الكلوب» أصفر القماشة. مرات تقضي وقتاً طويلاً وهي تحدق الى القماشة بلا هدف. لم تعد تجلب الجريدة كي تقرأها قاعدة على السجادة وظهرها يستند الى تخته. كانت تستخدم مقصه «السنجر» المخصص لتشذيب سالفيه: تقطع أخباراً معينة تحفظها في علبة خشب. رأت هالة القصاصات وصارت تبكي، فكفّت آنا عن جمعها.

*

عُثر على مقطع السكة الحديد في الحازمية على ست جثث.

سقط نتيجة اشتباكات امس 32 قتيلاً و51 جريحاً. وعثر على 14 جثة موزعة كالآتي: ثلاث على الرصيف المحاذي لمركز سفريات الأحدب في ساحة الشهداء وأربع قرب مبنى الأوبرا وثلاث على مدخل سوق ابو النصر وواحدة على مدخل مقهى الباريزيانا وواحدة قرب مقبرة الباشورة وواحدة أول شارع عبد الوهاب الانكليزي وواحدة على معبر السوديكو... ونتيجة أعمال القنص قتل أمس شخص في زقاق البلاط بينما كان يقطع الطريق بالقرب من الجامع. وقتل من جراء التراشق المدفعي بين المنطقتين الشرقية

والغربية ثلاثة مواطنين وجرح أربعة... كما عثر على تسع جثث في بستان شرق شركة شفروليه.

الحاخام سكابا وأفراد عائلته أحياء في الطريق الجديدة. قليلات: «المرابطون» لا يتصرفون طائفياً. (الحاخام جاك سكابا وأفراد عائلته خلال المؤتمر الصحافي- صورة): تحدث الحاخام جاك سكابا وافراد عائلته ظهر أمس الى الصحافيين مؤكداً عدم صحة ما أذيع من ان «المرابطون» أقدموا على ذبحه وعائلته وابنته (رومانو)». وقال «ان دليل كذب هذه الادعاءات هو وجود العائلة بأكملها في الطريق الجديدة لدى أصدقاء لها.» وقالت ابنة الحاخام جوسلين انها تسكن مع أولادها في شارع أغريبا وان زوجها مسافر في ايطاليا وانها لجأت الى «المرابطون» في المنطقة بعدما بدأ الكتائبيون بقصفها.» وأضافت ان «المرابطون» أمنوا نقلها مع الأمتعة في سياراتهم تحت القصف الى منطقة عين المريسة ومن ثم الى كورنيش المزرعة حيث تشعر كأنها مع أهلها.» وتحدث السيد نخلة المغربي مدير مدرسة الأليانس فقال ان الخبر الذي أذيع لم يكن بحاجة الى تكذيب». وأضاف: «نزلنا في السابق مع «المرابطون» الى الكنيس لمساعدة الأهالي غذائياً وطبياً. فالمقاتل الذي يسعف المريض ويطعم الجائع لا يذبح.» وكان المسؤول الاعلامي لـ«حركة الناصريين المستقلين» تحدث عن «الأكاذيب التي يلجأ اليها الانعزاليون كلما تحطمت اعصابهم وانهارت قواهم فحركة الناصريين المستقلين لا تؤمن بالذبح على الهوية.» وختم الامين العام للحركة السيد ابراهيم قليلات مؤكداً ان «المرابطون» لا يمكن ان يتصرفوا على اساس الدين او الهوية، كما ان الاحداث أكدت هذا الأمر.» وأعلن أفراد العائلة اليهودية استعداد الحركة لمساعدتهم وتأمين كل متطلباتهم.

موجات خطف احتجز فيها عشرات (تتمة المنشور في الصفحة 1): وجرت عملية مماثلة في المنصورية فقد كان بشير زيدان وفرح زيدان ونصر

زيدان وجورج بشير زيدان ونمر ديب الحاج يستقلون سيارة متجهة الى المنصورية وفي الطريق اوقفهم حاجز يضم نحو 30 مسلحاً ولدى تفتيش السيارة وُجد رشاش مع جورج زيدان الذي أفهم المسلحين ان السلاح هو للحماية في أثناء قطف الليمون. فلم يقتنعوا ونقلوا الخمسة الى احد المنازل حيث احتجزوهم مدة نصف ساعة. ثم أخذوهم الى تل الزعتر. وقد رد أقرباء المخطوفين باحتجاز20 شخصاً أطلقوا 15 منهم واحتفظوا بخير الدين عدرة الذي يعمل في المنصورية وبعزيز بشير وانتصار سليمان واثنين آخرين. وأجريت اتصالات مع المسؤولين الفلسطينيين في تل الزعتر لتأمين مبادلة بين المحتجزين. وقال رئيس قسم الكتائب في المنصورية السيد جريس الحاج ان احد المسؤولين الفلسطينيين طالب باعادة مخطوفين غير موجودين لدى اهالي المنصورية ومنهم فاطمة كوكب التي تعمل في مستشفى المنصورية. واوضح ان الخمسة هم لدى اهالي المنصورية ولن يتعرضوا للسوء. واضاف انه يرفض التصعيد ويأمل الا يضطر الى اللجوء الى السلبية «وهذا اذا حصل يكلف غالياً». وكانت عناصر مسلحة خطفت امس السيدة ماري روز بولس على الطريق بين بيت مري وبرمانا وهي مدير مركز القديس لوقا للمتخلفين في بيت مري.

سجل حادث خطف في صحراء الشويفات لموسى السيار وزوجته اللذين كانا في سيارة عمومية.

ماذا حصل حتى انتشرت حواجز الرعب من جديد؟ الشرارة الأولى انطلقت مساء الجمعة عندما خطفت عناصر مسلحة من امام مقر الأمن العام جان صقر (32 عاماً). وفجر أمس أنذر أقرباؤه خاطفيه باللجوء الى السلبية اذا لم يعد. وفي الثامنة صباحاً بدأت الحواجز تظهر في منطقة أوتيل ديو وعلى طريق حي السريان وقرب المتحف وخلف الاوتوبيس على بولفار قصر العدل. وانتشرت حولها العناصر المسلحة التي راحت توقف السيارات

وتطلق النار ارهاباً من حين الى آخر. وقد تمكنت هذه العناصر من احتجاز عدد من الاشخاص راوح بين 15 و20 شخصاً عرف منهم نسيمة ستيتية ومحمود المسار وطانيوس جاموش وزكية مزاحم الذين كانوا قادمين من النبعة. وبدأ أقرباء المخطوفين وعدد من السياسيين اتصالات بالخاطفين. وكان ذوو جان صقر يؤكدون لمراجعيهم انهم لن يتعرضوا لاي من المحتجزين في انتظار عودة قريبهم. وحتى ساعة متقدمة من الليل لم يكن حدث جديد لدى الطرفين. وقد أصدرت «القيادة المركزية للنمور الاحرار» بياناً تحدثت فيه عن ظروف خطف جان صقر الملقب جان السرياني. وقال البيان ان «حزب الوطنيين الاحرار» قد «اصدر تعليمات مشددة وصارمة الى المحازبين بألا يقدموا على خطف احد إلا ان الذي حصل هو ان أقرباء جان صقر أقاموا حواجز وخطفوا عدداً من الأشخاص يؤكد الحزب ان صحتهم جيدة ولم يتعرض لهم أحد حتى بالضرب. ولقد حافظت قواتنا على حياة المحتجزين لمنع التعرض لهم وضغطنا بقوة على أقرباء جان صقر لمعالجة الموضوع بعيداً من العنف.» واضاف البيان ان اتصالات جرت مع الفريق الآخر لاعادة جان صقر تفادياً لأي ردة فعل مؤكداً «ان لا علاقة للحزب بالحادث.»

والحادث الثاني جرى في منطقة النبعة وامتد الى الزلقا. وتفاصيله ان جورج سلوم وهو من «المواطنين الأحرار» كان فقد مع آخرين في النبعة وتبين انهم عند آل الدروبي الذين احتجزوهم رداً على اختفاء رشيد احمد الدروبي وحسن احمد سليمي اللذين فقدا منذ السبت وكانا في سيارة بيجو حمراء رقمها 3873. فرد اقرباء جورج سلوم بدورهم فخطفوا عدداً من الاشخاص عرف منهم احمد خليل قطايا وعلي حسين مطر المستخدمان في مغازل جبل لبنان في الزلقا وحسين علي امهز كذلك، وقد حضرت عناصر مسلحة الى المعمل وخطفتهما. وأكد «حزب الوطنيين الأحرار» عدم علاقة الحزب بهذا الحادث. (التتمة في الصفحة 6).

عُثر على جثة رجل مجهول الهوية في العقد الثاني ملقاة في مجرى مياه في محلة حارة المجادلي في فرن الشباك ومصابة بطلقات نارية.

ثلاث جثث في سيارة محترقة: صباح أمس وجدت سيارة مرسيدس عمومية رقمها 85803 في شارع أحمد الداعوق (منطقة باب ادريس) وفي داخلها ثلاث جثث محترقة وقد حضر الخبير العسكري وكشف على السيارة. وقالت اوساط الشرطة ان هناك احتمالاً بان شخصاً او أشخاصاً أقدموا على قتل ركاب السيارة اذ ليس عليها أي أثار لرصاص او انفجار كما ان الجثث وجدت في المقعد الخلفي. ولاحظ الخبير ان اطارات السيارة بقيت سليمة وكان مفترضاً ان تنفجر لو ان السيارة أصيبت بصاروخ او كانت فيها متفجرات. ولم تتمكن دوائر الشرطة من معرفة صاحبها بسبب اقفال دوائر مصلحة السيارات في الدكوانة.

دعارة وسحاق (الثلاثاء 2-9-1975): دهم رجال مكتب الآداب شقة فخمة في حي السراسقة في الأشرفية وقبضوا على حليم ب.ل. بجرم تسهيل الدعارة السرية لفتيات أجنبيات بالاشتراك مع الموقوف الآخر روبير ر. أ. واعترفت كل من الموقوفات ماري س. (21 عاماً، ايطالية) وهيلين ر.ت. (23 عاماً، بريطانية)، ومي ا.ر. (17 عاماً، سورية)، وسوزان ك.م. (20 عاماً، ايرلندية) ان حليم كان يسهل الدعارة السرية لهن في شقته في مقابل مبالغ كبيرة وكان يقاسمهن الأرباح، ويدعوهن الى تعاطي السحاق أمام مجموعة من الرجال. وتسلم قاضي التحقيق المستنطق في بيروت السيد زهير عز الدين القضية وأصدر مذكرات بتوقيف الجميع.

على القصاصة المطوية ذاتها (2-9-1975) ثلاث صور شمسية لثلاثة مفقودين.

الحاج أحمد جواد: غادر الحاج احمد محمد جواد منزله في عاليه منذ يومين ولم يعد. الرجاء ممن يعرف عنه شيئاً الاتصال بالرقم 273285.

مفضي أبو ساري: غادر قبل 10 أيام مفضي رضا أبو ساري منزله في الضهيرة قضاء صور ولم يعد. زوجته وأولاده يناشدون من يعرف عنه شيئاً الاتصال بمخفر صور.

محمد جلهوم: غادر محمد عبد المنعم سيد جلال جلهوم محل اقامته في ساحة البرج منذ 3 أشهر ولم يعد. الرجاء ممن يعرف عنه شيئاً الاتصال بالرقم 223827.

خطف 4 بينهم 2 على طريق المطار: خطف امس على طريق المطار ماجد شلهوب وسامي فرح في اثناء عودتهما من المطار. وخطف شخص ثالث مجهول الهوية على طريق الاوزاعي في ظروف غامضة. وأُبلغ عن فقدان محمد عبد الله ادريس الذي اختفى بعد خروجه من مركز عمله في احد مسابح الرملة البيضاء. وعُثر قبل ظهر أمس في تلة الخياط على جثة انطوان جريج الموظف في شركة سوجكس وهو كان خطف صباح الجمعة من امام مركز عمله، وتبين من الكشف الطبي انه قضى خنقاً.

الجبهة الشعبية: تأكدنا من مقتل ثلاثة مقاتلين. أعلنت أمس الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين تأكدها من سقوط أعضائها نايف محمد احمد عبد الجواد وخليل علي ومحمد احمد عبد الجواد «الذين اختطفوا في تاريخ 28/ 1/ 1976 بينما كانوا ينتقلون الى موقع تل الزعتر.»

قُتل أمس جاك سلامة برصاص قناص قرب سينما أمبير في الجميزة، ونقل فور اصابته الى مستشفى الروم لكنه ما لبث ان فارق الحياة متأثراً بجروحه. وتبين انه أصيب برصاصة في كبده. وأصيب شخص مجهول الهوية برصاص قناص في ساحة الشهداء وفارق الحياة بعد نقله الى مستشفى الروم. وفي الناصرة قتل شخص مجهول الهوية برصاص قناص كما أصيب 12 شخصاً برصاص القنص في اماكن مختلفة على طريق الشام وبشارة الخوري ومنطقة الفنادق والزيتونة واوتوستراد فؤاد شهاب وامام المحكمة

العسكرية والمتحف. وقد نقل الجرحى الى المستشفيات وحال بعضهم لا تخلو من الخطر.

وُجد الجندي عبد الرحمن نشار مقتولاً في ظروف غامضة في الشياح.

عُثر على الجندي محمد المصري والرتيب في الجيش احمد يزبك مقتولين بالرصاص في حارة المجادلة- طريق الحدث قرب مفرزة سير بعبدا. كذلك عثر في المحلة نفسها على جثتي هنديين وخمس جثث مدنية أخرى مجهولة الهوية.

في الشياح عثر على طوني حباقي مقتولاً برصاصة في بطنه. وتولى الطبيب الشرعي الدكتور الياس الصايغ معاينة الجثة بناء على تكليف المدعي العام العسكري والمدعي العام في جبل لبنان.

عثر في ذوق مصبح على جثة امرأة مجهولة الهوية في العقد الثالث وهي عارية ومصابة بست رصاصات.

وُجد الكاهن انطوان نكد (81 عاماً) مقتولاً في سريره داخل مستشفى بحنس طعناً بالسكاكين.

كلمة شكر: والدة محمد معقصة وشقيقاه جميل ووليد يشكرون جميع من لازمهم وسعى يوم الاربعاء الماضي لعودة ولدها وشقيقهما المخطوف.

صدّق الاذاعة فقتلت طفلته: الثانية بعد ظهر أمس توفيت نوال اسماعيل (9 أعوام) متأثرة بجروحها اثر اصابتها بطلق ناري في منزل ذويها في سن الفيل. واصيبت شقيقتاها هيام (23 عاماً) وفاطمة (12 عاماً) وضمدت جروحهما في مستشفى مرجعيون الحكومي. وقال الوالد انه سمع من الاذاعة ان وقف النار نُفذ ففتح نوافذ منزله في الطبقة الثالثة وشاهد احد المسلحين المعروف منه شخصياً في البناية المقابلة وهو يطلق النار عليه من مسدس حربي ثم

أطلق قذيفة نجت منها العائلة بأعجوبة.

قتل أمس في منزلهما في سن الفيل الأخوان سركيس (66 عاماً) وانترانيك مهران حديديان (64 عاماً) وهما من كبار تجار الذهب والمجوهرات. فقرابة الخامسة صباح أمس اقتحم عشرة مسلحين منزل المغدورين في الطبقة الثانية من بنايتهما المجاورة للقصر الجمهوري السابق في سن الفيل وهددوا سركيس وانترانيك وافراد عائلتيهما بالسلاح وطلبوا اليهم اعطاءهم ما يملكون من اموال ومجوهرات فخافوا وكانوا لا يزالون في أسرتهم. ونهض ابن سركيس وأعطاهم كل ما طلبوا وهو يقول لهم «أنا بأمركم.» لكنهم بعدما أخذوا المجوهرات والاموال المقدرة قيمتها بمبلغ 250 ألف ليرة أطلق أحدهم النار من رشاشه على الاخوين سركيس وانترانيك فقتلهما على الفور وهرب مع رفاقه. وتولى التحقيق في الحادث المدعي العام في جبل لبنان صباح حيدر والرائد منير معلولي آمر فصيلة جديدة المتن. وعاين الجثتين الطبيب الشرعي الدكتور الياس الصايغ وأفاد ان سركيس أصيب بثلاث طلقات في رأسه وصدره وانترانيك بطلقين في عنقه وصدره. وعلم ان التحقيق توصل الى معرفة هوية القاتل.

92
آل زخور 10 – الطابق الأول

عيسى زخور استقل التاكسي من أوتيل ديو الى «المبرومة». ارتجف قلبه لرؤية الدمار في الأبنية. الزبالة تكومت خارج البراميل. بدت الأشرفية غريبة، مظلمة، باردة، مسكونة بالأشباح. أول شارع السيوفي رأى مصابيح البلدية مضاءة وعدداً من المسلحين يجلسون على كنبات على الرصيف ويشاهدون التلفزيون. على الحاجز لم يطلبوا أوراقه. ساعده الشوفير على انزال الحقائب. حيّ العبد يغرق في الظلام. بانت شموع في نوافذ واطئة.

الكهرباء مقطوعة هنا. خرجت الناطورة وهي تأكل سندويشة. ابتلعت اللقمة الأخيرة وهي توشك أن تختنق. مسحت ربّ البندورة عن أصابعها. حملت حقيبتين. سمعها تهذي كالعادة وترحب به وتسأله عن صحة الست زوجته وعن إبنه وإبنته. استغرب أنها لا تعرف أن ريمون في المستشفى.

*

ظلّت فيرا جنب إبنها. ليلة بعد ليلة عجزت عن ترك المستشفى. أخبرها زوجها في الصباح الأول وهما يتناولان الفطور في الكافيتريا ان البيت بحاجة الى حملة تنظيف وان أم يوسف تشتغل فيه الآن.

«من أم يوسف؟»

«الناطورة زوجة السمكري.»

سألته عن الماء والكهرباء وهل أصيبت البناية بالقصف.

«رصاص على الحائط جهة النبعة. شبابيك المطبخ تكسّرت كلّها.»

«والجيران؟»

«وقعت قنابل على السوبرماركت. قتل صاحبه وواحد من المهجرين.»

استأجرت غرفة في الفندق الذي يجاور المستشفى. كان مزوداً بالكهرباء 24 ساعة. أخّرت نزولها الى البيت. صارت تذهب الى غرفتها كي تتحمم وتنام نصف ساعة ثم ترجع الى أوتيل ديو. اشتغلت خطوط التلفون أثناء هدنة الأيام العشرة وباتت تتكلم كل مساء مع نادين. مثل عيسى تفاجأت فيرا بموقف إبنتها: لم تفهم السرّ. طالما بدا لها التوأمان متباعدين كأن بحراً يفصل بينهما. الدكتور أخبرها عن وضع كاترين نمر الطبّي حين سألته. ليديا ثابت كانت تقف جنبها. لم تعرف فيرا ماذا تقول لإبنها: ظلّ يبكي بلا توقف. أزالت ورقة فضيّة لمّاعة عن حبّة شوكولا ثم غلّفتها من جديد. حين انتهت مواعيد الزيارات وخلدت المستشفى الى الهدوء طلب منها أن تساعده. دفعته على الكرسي المتحركِ من غرفته الى المصعد. كان يتنفس بصعوبة. كبست الزرّ

وانتظرت. كانت ترتجف. خافت أن تبكي هي أيضاً بينما تأخذ ريمون كي يرى كاترين نمر، رفيقته التي بتروا ساقيها الإثنتين فصار وزنها 26 كيلوغراماً.

*

الشيخ بشير الجميّل تفقد الجرحى الكتائبيين. صافحهم واحداً واحداً وتصوّر معهم صورة جماعية نشرتها مجلات الشرقية. كان صغير السنّ محبوباً في أوساط المقاتلين أكثر من أخيه الكبير (الشيخ أمين) وأكثر من أبيه (الشيخ بيار). تجمعوا في الصالة القريبة من المصعد على الطابق الثالث. ممرضات أوتيل ديو وقفن صفاً في الخلف. أُبعدت ستائر النوافذ فتدفق نور الرابع من نيسان (ابريل) وغمر المكان. الصورة مشعة ويزيد بياضها الشاش النظيف الذي يلفّ ثلاثة مقاتلين في المقدمة، على ثلاثة كراسٍ بعجلات. وجوه تضحك للكاميرا. كأنها نزهة في الحقول. البلاط يلمع بالضوء وكذلك العكازات المعدنية.

*

لن تخبر نادين أمّها أنها كانت ترقص في ملهى ليلي حين سقط الهوليداي إن. ترنحت مخمورة في ساعة الفجر مع ثلاثة أصدقاء. صاحبها الفرنسي كان غائباً في ميونيخ. صدّت الأسباني الذي تغزّل بها أربع ساعات من دون أن يتعب. لكنها في باب الشقة الصغيرة في دنفير- روشيرو استسلمت له. كانت شبه ميتة. لا بسبب الكوكتيلات فقط، فهي تتحمل الكحول، ولكن أيضاً بسبب تقلبات مزاجها وسقوط معنوياتها في الفترة الأخيرة. الدراسة أنهكتها. واجهت صعوبة في الدكتوراه وأستاذها ضاعف احباطها حين اختفى شهرين في الموزمبيق. بعد أسابيع من المحاولات العقيمة لبلوغه على أربعة أرقام تلفون اكتشفت أنه ترك لها ملحوظة في قسم التسجيل في الجامعة. جهز ما تحتاج اليه مسبقاً لأنه عرف أنه قد يتأخر في رحلته. لم تفهم لماذا شعرت بالرغبة في تكسير الأشياء في ذلك المكتب الأزرق

حيث الموظفات يتقدمن في السنّ من دون أن تتقن واحدة منهن فن الابتسام. كنّ لئيمات دميمات. علّمت نفسها أن تتحمل. لكنها في تلك الفترة، بينما أشجار حديقة مونتسوري تمتلىء بزهور بيضاء وأرجوانية وصفراء، فقدت سيطرتها على نفسها. كفّت عن الاتصال بصاحبها المهندس الذي يتمرن في معامل شركة ألمانية تصنع مكيفات هواء. في ثياب تعوزها الأناقة صارت تتأخر في كافيتريا المدينة الجامعية وهي تتناول مثل سلحفاة طعاماً فاقد المذاق. فضّلت الابتعاد عن البيت ما أمكنها. نقلت أغراضاً تحتاجها الى شقة رفيقتها. أدمنت السجائر، هي التي طالما كرهت رائحة الدخان. أهملت الدوام الذي فرضته على نفسها في مكتبة كوجاس. صارت تمشي كثيراً بلا هدف في الأسواق. وحين يدعوها أحد الأصدقاء ليلاً للخروج تصل قبله الى المطعم أو المقهى أو البار. كانت تتسلى معهم. وتحاول نسيان الفصل الثاني الذي يبدو بلا نهاية. أنجزت الفصل الأول من أطروحتها بسهولة نسبية. لكن المعضلات التي واجهتها في منتصف الفصل الثاني أحبطتها. اكتشفت نادين زخور فجأة أنها لا تريد هذا: لا الدكتوراه ولا صاحبها الفرنسي ولا باريس. مع أنها تحب باريس ولا تريد الرجوع الى لبنان. لكنها لا تحبّ باريس مع الدكتوراه! الأسباني ألصقها بالباب ثم ابتعد كي تتمكن من فتح القفل. كان شديد الوسامة ورائحته جميلة. شعرت بألم في رأس معدتها. كأنها حموضة. لكن الحريق انتشر في جسمها كالنار. لم يبقَ في بطنها. أدخلت بابلو وطلبت منه أن ينتظر لأنها بحاجة الى لحظة. في التواليت غسلت وجهها. تجنّبت المرآة. كانت تسمع هديراً بعيداً. التقطت منشفة تركتها رفيقتها على الأرض. جففت يديها. جلست على البلاط. لم يذهب الوجع الغريب. حين دقّ الباب وسألها هل هي بخير نهضت ثقيلة كأن وزنها تضاعف وهي قاعدة. في الفراش شبكت ساقيها على ظهره. رأت أضواء تبرق على الستارة. عارية تحته، استلذّت إيقاع جسمه ولمسات يديه. مال وجهها على المخدة. انتبهت أنها حزينة. لم تعرف لماذا تشعر هكذا.

93
آل حبيب 10 – الطابق الرابع

حين فُقد كارلوس طلبت حلا المساعدة. رضا وأخوه توفيق حاولا ما في وسعهما. مثل عدد كبير من رفاقه الشيوعيين انخرط توفيق حيدر في الحرب الأهلية لأنها ضرورية لتغيير النظام الفاسد. ومثلهم أيضاً وقف ضد المذابح والخطف على الهوية لأن هذا يخدم أعداء القضية ويتعارض مع أبسط المبادىء. جاهد من أجل كارلوس ميشال حبيب. استعان بكل معارفه الحزبيين وغير الحزبيين. كانت أياماً من الجنون. فشل مسعاه في زحمة الحوادث المتسارعة: لم يقع للشاب ابن ال22 سنة الطالب في الجامعة الأميركية على أثر.

*

انقبض قلبه بينما حلا حبيب صاحبة أخيه رضا تحكي معه على التلفون، يوماً تلو يوم. تمنى انقطاع الخطوط. في بيته الصغير في برج البراجنة شعر توفيق حيدر بالحاجة الى الصراخ وهو يصغي الى بكاء بيت منكوب في الأشرفية. الأب (ميشال حبيب) تكلم معه على الهاتف. بدا صوته للوهلة الأولى متماسكاً. لكنه حين بدأ يرجوه أن يفعل كل ما يقدر عليه لإطلاق كارلوس، فقد عزمه وتهدّج. أخبره توفيق أنهم يتصلون بجميع الأحزاب والقوى كي يعرفوا مكان احتجازه وأنه الآن ذاهب الى المركز.

*

أكثر من مرة فكر توفيق حيدر أن يتوقف عن القتال. حين حمل أخوه رضا السلاح شعر بحزن شديد. حذّره. طلب منه مراراً أن ينتبه. رضا لاعب أطفال أخيه وحملهم ضاحكاً. كان مثله: يفضّل ألا يحارب، لكنه مستعد لذلك

عند الضرورة. قاتل في الأسواق التجارية. قوّص على مسلحين في الجانب الآخر. من متاريس الغلغول والأم جيلاس سدّد ليلة تلو الليلة النار باتجاه ساحة الدبّاس. حين قُصف المركز في التياترو الكبير كان نائماً. أيقظته الجلبة وانتقل مع رفاقه الى متاريس شارع المعرض. انفجرت القذائف على حيطان اللعازارية المحروقة منذ أيلول (سبتمبر). صدّوا محاولة تسلل من اللنبي. عند الجامع العمري أبصر أشباحاً تنبثق من القناطر ثم تختفي. انتشروا في الظلام المضاء بالحرائق. ألسنة النار قفزت من شبابيك البلدية. وجد نفسه على بعد أمتار من مقهى الأوتوماتيك حيث التقى حلا قبل خطف أخيها. فاجأه المكان مدمراً محروقاً. شرقط الرصاص وتراجع الى خلف. أحد رفاقه شدّه من كنزته. «فوق!» رأى الطلقات تلمع. احتموا بأوتوبيس مشتعل. اللهب أحرقه من دون أن يلمسه. كانوا أربعة أو خمسة أضاعوا طريقهم في المتاهة. زهير رحّال قائد الفصيل جُرح في ساقه. خاف رضا حيدر أن يُقتل. اعتادوا سحب الجثث في الصباح. رأى نفسه مسحوباً من قدميه. الانفجارات أفزعته. غاص في مجرور ناشف جنب الطريق. نزف أنفه. المفروض أنه تعوّد على الاشتباكات. لكنه في تلك الليلة أصيب بالرعب. كان عدوه قريباً منه، لا يبعد سوى أمتار قليلة. أفرز جسمه كميات مخيفة من العرق. بعد فترة وجيزة، أثناء استراحة بين جولتي معارك، أعلم حلا أنه يرتب أوراق السفر.

*

توفيق حيدر اشترك في معركة الدامور. بعد اقتحام البلدة وقف على حاجز يبعد عشرين متراً من بيوت تحترق. سيارة يسوقها داموري هارب توقفت على الحاجز. نظر توفيق الى رجل خمسيني يرتجف ممسكاً بالمقود. كان رمادي الشعر عسلي العينين عريض الجبهة. على الدعسة أمام المقعد حيث يترك الواحد عادة المسدس الحربي لحالات الطوارىء، لم يرَ توفيق مسدساً لكنه رأى رزماً من الليرات. دلّ الرجل الى الحاجز الذي يبعد أربعين متراً تقريباً، في مدخل الدامور: «لن يقبلوا يا عمي. اذا رأوا هذه المصاري معك

لن يتركوك تمرّ.» الرجل الخمسيني نظر اليه ولفظ عبارة عجيبة سيتذكرها توفيق حيدر طوال حياته: «لن يروها.» دعس البنزين وأكمل سيره. أوقفوه على الحاجز الأخير. ارتفعت أصوات. كانوا يتجادلون. توفيق ارتجف في مكانه حين دوّى رشّاش. رآهم يسحبون السائق مضرجاً بالدم. ألقوه ميتاً على الزفت. أحدهم ركب السيارة. كان هواء البحر يلعب بالدخان. وضع توفيق حيدر سلاحه على الأرض وخرج من الدامور. لم يقاتل بعد ذلك.

94
آل زغلول 8 – الطابق الأرضي

جرّت راغدة زغلول نفسها الى مدخل البناية. في أيام كثيرة تعجز عن الحركة وتودّ لو تضمحل بلا أثر في الهواء. شكرت الربّ لأن زوجها خرج فجراً ولن يرجع قبل المساء. شعرت بجسمها مكسّراً. روحها المصدعة ارتقت الدرج طبقة تلو طبقة الى السطح. كانت روائح التقلية تملأ المبرومة. هذه بيوت السابع الذي يبكّر في الاستيقاظ. بصل يحترق. تسلّقت السلم الحديد الى سطح الخزان. رفعت الغطاء الثقيل. فاجأتها البرودة وأنعشتها. المياه المعتمة بلغت ارتفاعاً مقبولاً. أثناء الأيام الماضية بدأ حيّ العبد يشكو من انقطاع الماء. قبل زمن طويل، أول مجيئها للعمل ناطورة، أفرغ السيد أيوب العبد الخزان من الماء وتساعدت هي وواحد من شغيلة المطاحن على تنظيفه. كان مساء صيفياً. السماء تعجّ بالنجوم. مدّوا لمبة بسلك كهرباء الى بطن الخزان. احتفظ سقفه بسخونة الشمس وكذلك جنباته. لكن القعر كان بارداً. الشغيل فرك الحيطان الباطون من الداخل بورقة قزاز كأنه يقشر طلاء قديماً. وهي استعملت المكنسة كي تجمع ما ترسب. منذ تلك الليلة البعيدة لم ينظفوا الخزان مرة أخرى. قرّبت وجهها من الماء. مدّت يداً وغرفت بحفنتها. كانت الرائحة طيبة. الهواء داعب رقبتها. أغمضت عينيها وبكت بلا انتباه.

95
آل عازار 7 – الطابق السابع

أيقظها أبوها كي تشرب معه القهوة. صارت كلوديا عازار تستيقظ أبكر من أختيها منذ بدأت تعمل سكريترة عند المحامي زخريا الزمّار. طوال الأسبوع الماضي جاهدت لئلا تبدو متعبة عند رجوعها في المساء. اذا لاحظت أمها عليها أي ضعف (أي تشقق في الدرع) ستبدأ بالتدخل. غسلت وجهها ودخلت المطبخ. وجدت أمها تقشّر ثوماً. أبوها سكب قهوة من الركوة في ثلاثة فناجين شفّة. الضوء الداخل من فوق أكياس الرمل تبعثر على الشرفة الصغيرة حيث تكوّمت أغراض المطبخ. على الأخبار قالوا ان هذه الهدنة يمكن ان تتحول الى نهاية للحرب. «من نيسان الى نيسان»، قالت المذيعة التي تعلّق بصوت لطيف بين أغنيات فيروز الصباحية. اذا حدث ذلك سيتخلصون من هذه الأكياس البشعة ويستردون الشرفة. المكان ضيق عليهم. مع أن سعيد ترك البيت تقريباً. يجيء الآن مرة كل أربعة أيام أو خمسة. قصّ شعره وعلّق صليباً من رقبته. تعوّدت أمّها على غيابه. لكن أباها لا يتعوّد. انكسر شيء فيه. وقع برغي. منذ تهجّروا صار شخصاً آخر. كأن هواء الأشرفية يمحوه من الوجود. تحزن وهو يحاول أن يتقرّب منها ومن دارين. لا تعرف كيف تتعامل معه. ابيضّت ذقنه. حين أحرقوا صيدليات ساحة البرج أحرقوا في يومين سنوات من عمره. صار كأنه جدها! ودّت لو ينشغل عنها بشربل أو بهناء لكن هذا سابع المستحيلات. كان يخرج الى دكان صديقه الحلاق ويغيّر جواً، لكنه في الفترة الأخيرة كفّ عن ذلك. لم تتأكد لماذا. أمّها قالت انه تجادل مع شخص هناك وهما يلعبان «محبوسة». كلوديا لم تقدر أن تتخيّل والدها يجادل أحداً بسبب طاولة الزهر. القهوة ساخنة تحرق اللسان. استغلت الوقت وحضّرت ثيابها. التنورة الكحلية الجديدة. بلوزة خضراء وكنزة بيضاء خفيفة. عليها شراء كولونات بنّية. وسكربينة أخرى أيضاً. ناداها أبوها. عادت الى المطبخ

وشربت قهوتها في بلعتين كبيرتين. أبوها سألها كيف العمل الجديد؟ هل يتعامل المحامي بطريقة جيدة مع الموظفين في المكتب؟ بدا لها السؤال مضحكاً لأنها الموظفة الوحيدة. قالت وهي تنظر الى قعر فنجانها إن السيد زخريا مهذب وشغله كثير وانه لا يعترض اذا رأى كتب الجامعة معها. قالت إنه يسمح لها أن تدرس حين تنتهي من طباعة الأوراق التي يطلبها. كانت أمّها تستخرج بصلاً من الصندوق جنب البراد لكنها التفتت برقبتها عندئذٍ وحذّرتها كأنها تقرأ الغيب: «انتبهي!»

❋

على الدرج التقت الناطورة نازلة من السطح. بادلتها تحية الصباح. تجنّبت النظر الى وجه محطم تحاول المسكينة أن تستر بقعه السوداء. تركتها تجمع ورقاً أصفر تساقط من نباتات الزينة في صحن الطابق السادس. لم تفهم لماذا تسقي أم يوسف الشجرة الضئيلة أمام باب صاحب البناية المقفل منذ الأزل. قبل فترة سمعت أمّها تضطهد الناطورة بالكلام. انتظرت حتى انفردت بها وطلبت منها أن ترحمها:» اتركيها يا أمي، الله يساعدها!»



بينما تخرج من المبرومة أوشكت أن ترتطم بليديا ثابت الممرضة في مستشفى أوتيل ديو. كانت إمرأة غريبة، فاتنة الجمال، لكنها باردة كالجليد. طلّقت زوجها وطردته من البيت لأنه شيعي! ألقت كلوديا عليها التحية. ردّتها لها بايماءة من الرأس وهمسة لا تكاد تسمع. انتبهت أن رائحة الموت تعبق حولها، رائحة المستشفيات. أبوها وأخوتها الثلاثة استشهدوا. أمّها مشلولة حبيسة البيت طوال الوقت، لا يراها أحد ولا تفتح الباب اذا قرعوا. خطيبة أخيها الذي استشهد على جبهة الشياح- عين الرمانة بقذيفة (جمعوا أشلاءه بعد ذلك بالكيس من أجل دفنه في تابوت دفناً يليق بواحد من مغاوير الكتائب) تزور البناية بين فترة وأخرى وتقرع الباب الصامت على الطابق الأول. تنادي أم موسى كي تفتح لها. مرة بكت وهي تلطم الباب. لكن الباب

لم ينفتح. كلوديا تعرف لأن أمّها أخبرتها. وأمّها تعرف لأن الست أم جان مثل وكالات الأنباء العالمية تلتقط الأخبار من الأثير وتوزع الشاردة والواردة. منذ تولّت شؤون معرض الأدوات الكهربائية صارت مدام طانيوس «مختارة حيّ العبد»، ولا ينقصها (كما تقول أمّها) غير الختم وورق البول (الطوابع) كي تطبع إخراجات القيد وشهادات حسن السلوك للأهالي.

96
آل سمعان 5 - الطابق الثاني

على التلفون طلبت منه ريما أن يقرر.

«لا أقدر الآن أن أعرف. بيت زخور رجعوا من فرنسا. وغيرهم رجعوا.»

«تريدني أن أحمل الأولاد وأرجع الى بيروت؟»

«لا. أكيد لا. أريدك أن تمهليني بعض الوقت كي نعرف ماذا سيحدث.»

«ماذا ستعرف؟»

«اذا استقال الرئيس فرنجية قبل 10 الشهر واتفقوا على رئيس غيره سيتوقفون عن القتال.»

«أنا أهلك هنا وحدي يا ألبر. الأولاد يحتاجون الى وجودك. لا أقدر أن أكون وحدي الأم والأب. وفوق ذلك عندي شغلي. الحياة في قبرص ليست جنّة، لكنها معقولة: لماذا لا تجيء؟ لماذا تبقى في لبنان؟ جاكوب يقول أبي لم يعد يريدنا! هل هذا صحيح؟ لا يمكن أن نواصل هكذا. كل واحد في محل. أريد أن أعرف. لا تكذب عليّ. لم تعد تحبّني؟»

97
آل الخوري 10 – الطابق الثالث

«كارلا سألتني ماذا سأفعل اذا انتهت الحرب، هل سأعود الى الجامعة وأكمل علمي؟ كنا ندخن في التخت ونسمع رشقات متقطعة. بيتها كان مكشوفاً على الغربية ونصفه أقفلته بالباطون وأكياس الترابة ولا تقدر أن تستعمل الا غرفتين فيه. المطبخ تدخله وهي تقرفص قرفصة. أخبرتها قصة اميل غبغوب الذي أصابه شلل هستيري بعد معركته الأولى. سلّموه محتجزين كي يحرسهم مع تعليمات بقتلهم اذا حاولوا الهرب. كان وحده. وهم 20 أو 21 وبينهم نسوان وأولاد. فتحوا الباب وهربوا. حاول أن يقوّص عليهم. لم يستطع. نقلوه بسيارة الاسعاف الى المستشفى لأنه كان يرجف على الأرض. فحصوه. لم يجدوا رصاصاً في جسمه ولا نزيفاً. نقلوه بالاسعاف الى بيت أهله. شارل ظلّ يذهب ويزوره. أخذني مرة معه. اشترينا لهم فراريج محمرة من الطريق كي يأكلوا. بيتهم في برج حمود. ويجلبون الماء بالسطل لعدم وجود حنفيات. أبوه أستاذ ابتدائي وأمه تغسل وتكوي. عنده أربع أخوات وأخته المتزوجة تشتغل في مكتب الست أرزة مسؤولة في التموين. كلّهم يحبّون الكتائب وهو يعبد التراب الذي يمشي عليه الشيخ بيار. كان شارل يحاول ضمّ إميل الى خليته لأنه يحبّ إحدى أخواته. كان يقول إنه يحبّ اميل غبغوب لأن تفكيره أقرب الى تفكيرنا من الآخرين، لكنني أعرف شارل. حين ارتبط بصاحبته الدرزية نسي مسألة إميل. لكن حين أصيب إميل بالشلل الهستيري تذكره. لأنه على مدى أسبوعين أو ثلاثة في ذلك الوقت بالذات كان مختلفاً مع خطيبته ولا يذهب الى عين المريسة. في بيت غبغوب رأينا مرطبان زجاج تسبح فيه سمكات ملونة. مكان فقير وناس جياع في حيّ نصفه

في النبعة تقريباً، وعندهم سمك ملوّن! لم أفهم ماذا يريد شارل من صاحبه. صار أخرس أبله لا يترك فراشه وأخواته يتبرمن من وجوده لأنه بحاجة الى من يخدمه ويطعمه وينظف من بعده. ضرب شارل موعداً للأخت التي تمكن من مغازلتها وذهبنا. هذه هي القصة التي حكيتها لكارلا في التخت. سألتني هل أنا جائع؟ لبستُ الروب بلا شيء تحته ونزلتُ الدرج الى كعب بنايتها. اشترت أشياء وصعدت. كنت أشعر بالراحة وأنا أحكي معها. قبل أن أتعرف عليها لم أكن أتكلم عن أخي عموماً. سألتني لماذا لا أفتح متجراً؟ ضحكتُ وهي تخرج المعلبات من الكيس كأنها تستعد لإطعام قطط جائعة. أخبرتها قصة الياس بابوكيان الذي خطف إمرأة على طريق طرابلس وخبّأها مربوطة في قبو في بيت جده في خراج بعبدا. أبقاها حيّة خمسة شهور. حين حبلت منه تحيّر ماذا يفعل. كانت تطلب الخروج لأنها تسمع صوت الماعز والأبقار التي ترعى وراء الحائط. كارلا اصفرّ وجهها وأنا أحكي. سألتني ماذا حدث للمرأة؟ كان صوتها ضعيفاً وشفتها ترتجف. انتبهت انني تكلمت أكثر من اللزوم. لم أتردّد. كذبت عليها وقلت ان هذه القصة قد لا تكون صحيحة لأن الياس بابوكيان أشهر من الدكتور داهش بأكاذيبه. سألتني هل هو صديقي، هذا الشخص؟ أخبرتها انهم قتلوه في الأسواق، كان عند تمثال الشهداء وأصابت قذيفة قاعدة النصب. قصّت الشظايا رقبته. سألتني هل يمكن أن أقتل إمرأة أو ولداً هكذا بلا سبب؟ قلت لا. ظلّت تنظر إليّ وهي تخرج أرغفة الخبز وتفتحها. أشعلتُ لها سيجارة.»

98
آل ثابت وشرارة 8 – الطابق الأول

نصف نائمٍ في المتراس، منهكاً من قتال لا ينتهي، أصغى طوني ثابت

الى خشخشة التوكي ووكي منتظراً نبرة موسى الضاحكة أو إسم إيلي الحركي. انطوى على نفسه وتذّكر صباحات قديمة. صعوبة الاستيقاظ عند الفجر. يلبس الشورت والنصف كم. يلتقط حذاء الفوتبول وينزل على الدرج بالكلسات السميك القطن. يقفز قفزاً لأن مدام عطية بدأت تهسّ في الظلام: «هسس، هسسسس!» رفاقه تزاحموا في نزلة المبرومة تحت نافذته يتضاحكون. إحدى الجارات أمرتهم بالسكوت، هذه عجوز وتستيقظ قبل الآخرين. دفعهم أمامه غاضباً لأنهم أيقظوا الحيّ كالعادة. كانت لعبة مفضلة: الدوران على أعضاء الفريق عند الفجر. جوزف اسبيريدون أعزّ رفاقه، جناح أيمن وأحياناً يلعب «سنتر» (وسط الملعب)، بيته في الرميل: يوقظون القصور بصياحهم وهم ينادون عليه. الخدم الهنود والسنغاليون يطلّون بأسنان بيضاء من الشبابيك. العصافير تطير من الجميزات. كلاب الحراسة تنبح كأنها مصابة بمس. يتذكر البرد على ساقيه عند الفجر. ينتعل الحذاء على الطريق ويربط الشريط عقدتين ويقفز كي يلحق بالبقية. ذلك الإحساس الذي يملأ صدرك. جسمك الذي يتأهب للركض. النوم الذي يغادر رأسك. ولذّة الضحك مع رفاقك.

*

كانا يشربان بيرة ويأكلان بزورات حين أخبر جوزف أنه سيصعد الى الجبل هذا السبت ويبقى فوق ثلاثة أسابيع. لن ينسى نظرة الاستنكار والتعجب. سيظلّ يتذكر شعوراً جارحاً عميقاً بوحدةٍ لا تحتمل. أكثر من عشر دقائق ظلّ صديقه صامتاً. كانت الشمس تغرب والطيور ترجع الى الجميزات من دوران النهار. بدا جوزف مصدوماً. كأنهم أخبروه للتو بوفاة أحد أقاربه في المهجر.

«أنت يا طوني؟ ما علاقتك أنت؟ موسى يحضر اجتماعات حزبية من قبل أن يشتغل في المنشرة. دماغه مغسول. إيلي الله يساعدكم عليه، نصف أخوت. لكن أنت؟»

قال طوني انه فقط سيتدرب.

«وأبوك ماذا يقول؟»

«أمي زعلانة وليديا مثلها. أستحي من سليمان. لكن أبي جيش، لا يتدخل.»

«أنا لا أصدق أنك ستفعل هذا.»

تركه جوزف على الشرفة يدخن وحده ودخل واختفى. الشمس ملأت شبابيك الرميل بالبرتقالي والأحمر. مرّ بائع الكعك ينادي: «كعك عصرونية، كعك عصرونية!»

*

شغل المنشرة أخرج موسى عزيز ثابت تدريجياً من حياة البيت. قبل سنتين من اندلاع الحوادث استأجر شقة في الجميزة وبدأ ينجّر تختاً وفرشاً ويستعد للزواج. إيلي سكن معه فترة قصيرة (من نافذة الحمام تُرى المحلات العمومية و» الأرمة» النيون الحمراء لليونانية بيانكا)، ثم انتقل الى شقة أصدقاء في شارع ويغان. طوني لم يترك البيت. ظلّ في «بناية أيوب» في الأشرفية: حين جلبت ليديا زوجها كي يسكن عندهم تصادق مع سليمان شرارة وتأثر بأفكاره وشخصيته. حتى أنه فكّر أن يدرس الرياضيات كي يصير أستاذاً مثله! لكن بدلاً من التعليم في المدارس سيعلم في الجامعة. «رواتب أساتذة الجامعات أعلى.» كان شاباً صغيراً ولا يعلم أنه سيستشهد قبل عيده العشرين.

*

لم يأتِ جوزف الى جنازة موسى. ولا الى جنازة إيلي. لكنه التقاه صدفة أمام «أمباسي» بعد ثلاثة أو أربعة أيام. ترجل جوزف ببنطلون جينز وقميص أزرق من سيارته التي ركنها جنب الرصيف. قطع الشارع بخطواته الطويلة وحضنه بين ذراعيه. كان في اللباس الكاكي، متعرقاً ومتسخاً ومثقلاً

بالذخيرة، لا يعرف هل هو ذاهب الى الجبهة أم عائد من هناك.

99
آل الحويك 4 – الطابق السابع

لم يرجع بشارة ويأخذ أمه. تلفن حين توقف إطلاق النار بين جولتين واشتغلت خطوط الهاتف. قال لأخته كميلة إنه لا يقدر الآن أن يقطع الى الشرقية: اسمه صار على الحواجز ويخشى أن يؤذوه. سألته من أين يحكي الآن. قال من الأوتيل. سألته أي أوتيل.

«الكافالييه في الحمرا. قلت لكِ من قبل. نصف الجريدة تسكن هنا الآن.»

طلبت منه أن ينتبه لنفسه وأعطت أمّها السمّاعة لأنها تريد أن تتكلم معه.

*

عثر بالصدفة على صورة غريبة (فتاة في السادسة عشرة مفقودة) وهو يفتش في الأرشيف عن صورٍ لبرج المرّ أثناء بنائه. كانت تحمل تاريخاً قديماً: 1950. في ال75 وال76 كانت جرايد كل صباح ملآنة بصور المفقودين، لكن هذه صورة من 25 سنة قبل اندلاع الحوادث! نسخ الخبر على مغلف يحمله. في المساء، وهو يأكل سندويشة جبنة وخردل في غرفة الأوتيل، نقل الخبر المكون من سطرين الى دفتر يسجل فيه يوميات وملاحظات. كان يدرك أن كل شيء يضيع اذا لم يسجل على الورق. ذاكرة الإنسان لا تتسع للتفاصيل التي تتكاثر بمرور الأيام بلا توقف. قبل أن يطفىء المصباح استعاد مرة أخرى شكل الفتاة في الصورة القديمة. أثناء نومه رأى خيالاً أبيض يتحرك في الظلام ثم يختفي.

*

لسبب لا يفهمه وجد نفسه منجذباً الى الخبر الغامض. قضى في

الميكروفيلم أياماً يبحث في جرايد 1950 و1951 و1952 عن الفتاة المفقودة. لم يجد شيئاً غير ذلك الإعلان اليتيم. سأل المحررين القدامى في الجريدة، لكن أحداً منهم لم يتذكر الفتاة المفقودة في شباط (فبراير) 1950. استغربوا القصة وسألوه هل هو متأكد من التاريخ؟ ذهب الى الميكروفيلم وصوّر الخبر بالكاميرا لأن ماكينة النسخ عن جهاز الميكروفيلم معطلة. كبّر الصورة الغائمة، وظهّر منها نسختين مقبولتين في «ستوديو نابوليون»: نسخة علّقها في غرفته في الكافالييه على مسند السرير. ونسخة أبقاها في جارور مكتبه في الصحيفة. لم يكن يملك الا إسم الفتاة الثلاثي: آردا نقولا اكمكجي. ورقم تلفون عتيق لا ينفع: 4803.

❋

مرّ على مكتب ميشال أبو جودة. كان مزدحماً كالعادة عابقاً بالدخان. سعل وهو يلج الغيمة ويتبادل تحيات مع وجوه مألوفة وأخرى غريبة، وسعل وهو ينحني على مكتب رئيس التحرير ويضع الصورة المكبرة بين الأوراق. حملها صديقه مبتسماً ابتسامته المحبّبة. استجمع ذاكرته وهو يزرّر عينيه، عثر على شيء في الظلمة، ثم طلب السنترال. لم يتذكر ماذا جرى للفتاة، وجدوها أم لم يجدوها، لكنه تذكر صحافياً يغطي أخبار الرياضة وسباق الخيل في «لسان الحال» يدعى اسطفان عبد الأحد وكان على صلة بالأب: نقولا اكمكجي. هكذا عثر في ساعة ظنّها محظوظة على رقم هاتف صالح للاستعمال.

❋

ردّ عليه صوت مبحوح. «آلو!» طلب التكلم مع الأستاذ أسطفان عبد الأحد.

«من يريده؟»

«أنا اسمي بشارة كيروز وزميل له في المهنة وأتصل من قبل ميشال أبو جودة.»

«أنا أقرأ عمود الخواجة ميشال كل صباح. تشرفنا بمعرفتك.»

«الأستاذ أسطفان موجود؟»

«عمي تقاعد منذ سنوات.»

«أعرف، أعرف، لكنني أريد أن أتكلم معه في موضوع مهم.»

«عمي مريض يا أستاذ بشارة. وأطرش تقريباً. لا يقدر أن يحكي على التلفون. اذا كان الموضوع مهماً كما تقول حضرتك شرّفنا بزيارة. في أي وقت قبل الليل. نحن هنا جنبكم، أول شارع السادات. بناية قطب. الطابق الثاني.»

*

شرّفهم بزيارة ووجد ثلاثة عجائز ورجلين يتكلمان مثل العجائز وإمرأة واحدة قصيرة شبه قزمة تخدم الخمسة ولا تبدو زوجة ولا إبنة لأي منهم. اعتقد للوهلة الأولى أن صديقه المحب للدعابة أعدّ له مقلباً: أعطاه الرقم لا كي يعثر على فتاة مفقودة بل كي يضعه في هذه الورطة بين عجائز مصابين بالطرش والخرف والوساوس. غطاه رذاذ أفواههم. شرب قهوة باردة سميكة كلّها تفل راكد. قضم غصباً عنه كعكة كادت تكسر سنّه الأمامي. عرف أن نقولا اكمكجي سرياني وهو ما يعرفه أصلاً من اسم العائلة. تأكد أن الرجل كان موجوداً وأن إبنته ضاعت في بيروت في ذلك الزمن البعيد. لكن الختيار أسطفان عبد الأحد لم يتذكر أي شيء آخر. كان ناحلاً مجعد الرقبة ينظر بطريقة مستريبة الى هذا الرجل الصغير العينين الذي جاء من أول الحمرا كي يسأل، أثناء حرب يقضي فيها البيروتيون بالعشرات كل ليلة، عن فتاة سريانية لا أحد يتذكر اسمها ويقول انها ضاعت قبل 25 سنة ويقول انه لا يعرفها شخصياً ولا يعرف أهلها ولا يعرف في الحقيقة أي شيء عنها لكنه رأى الخبر بالصدفة وهو يفتش في الأرشيف واستوقفته القصة!

*

تلك الليلة طلب بشارة بالخطأ وهو يتلفن لصديقة في الغربية رقم بيته في الشرقية. شكر ربّه لأن زوجته لم تردّ. وضع السمّاعة وانتعل صباطه الذي

خلعه قبل دقيقة ونزل الى البهو. وجد زميلة عاشرها فترة من الوقت قبل سنة تقريباً. أخبرته أنها عائدة للتو من أثينا.

«شغل؟»

«سياحة.»

«اليونان حلوة. سبحتِ؟»

ضحكت معه وهي تراه ملتذاً بسمرتها اللمّاعة ورائحتها. لكنها لم تمنحه المجال الكافي كي يسحبها الى سريره. وعدته أن تتصل ثم اختفت في ليل المدينة.

*

أكل سندويشته المسائية وهو ينقب في دليل هاتف وجده في الجارور. كان طبعة 1971. وجد 11 شخصاً مدرجاً عائلتهم اكمكجي: يرفانت اكمكجي وهارو اكمكجي ودانيال اكمكجي وراز اكمكجي وويلما اكمكجي وارسنيان اكمكجي وكرما اكمكجي وورويدس اكمكجي وجان اكمكجي وبطرس اكمكجي وهارو اكمكجي (المهندس). لكنه لم يجد نقولا. اتصل بالاستعلامات وسأل هل يوجد عندهم دليل تلفونات قديم. سمع ضحكاً لأن الموظف ظنّه يشكو من الدليل القديم في جارور الغرفة أو يداعبه بالحكي. اضطر الى النزول بنفسه. كان الوقت تجاوز الواحدة بعد منتصف الليل لكن البهو ما زال يعج بالساهرين. فرقعت ضحكات مخمورة. عثر على دليل ممزق قليلاً مطبوع سنة 1962 (أرقامه سداسية أليفة) وآخر غير ممزق مطبوع سنة 1954 أو 1955. كان ضئيل الحجم مضحك الإعلانات فظيع الرائحة. أرقامه خماسية لا سداسية كما صارت الأرقام لاحقاً، وبعضها رباعي أو ثلاثي وعدد قليل يتكون من رقمين فقط. وجد دعاية صغيرة المساحة ل» مصنع اكمكجي للصيانة والتجهيز»

(الحدث- جبل لبنان)، اضافة الى خمسة أسماء مدرجة من العائلة المذكورة، بينها اسمان قرأهما من قبل. لكنه لم يجد نقولا اكمكجي. شرب

كأسي ويسكي ودخن سيجارتين مع صديقه جورج وسأله عن الوضع وماذا يتوقع. كانت هذه بمثابة نكتة سرّية بينهما تنتهي بضحك هادىء يخفف من التوتر قبل النوم. ومرات لا يخفّف. ودّعه وصعد الدرج الى غرفته متجنباً أشخاصاً ينتظرون المصعد.

❊

استيقظ مصدع الرأس ناشف الفم كأنه أكل دولاب كاوتشوك في نومه. الجريدة تحت الباب. ألقى نظرة سريعة على صورة التقطها قبل نهارين وتأخر نشرها. تحمّم بماء لاسع الحرارة وطلب قهوة وحليباً وكرواسون «سادة» ثم جلس على حافة التخت عارياً يتأمل الصورة المكبّرة. آردا اكمكجي الضائعة منذ 25 سنة حدّقت اليه كأنها في الغرفة. عينان مشروحتان جميلتان. ظلال على الخد الأيسر. حاصره ضيق مباغت. لبس ثياباً خفيفة وهو ينظر من بين الستائر الى سيارات تعبر شارع الحمرا بين حين وآخر. كان الدوي متقطعاً ومعظمه من باب ادريس. انتظر حتى شرب نصف فنجان قهوة ثم أمسك بالتلفون وبدأ يطلب الأرقام التي نسخها على ورقة. أول إسم: أرسنيان اكمكجي. اشتغل الخط. ردّت عليه إمرأة جذّابة الصوت، بدت له في الثلاثين أو الأربعين.

❊

جريدة الخميس 1-4-1976: استقرار نسبي في جبهات العاصمة. 400 رجل أمن لحماية مستودعات المرفأ. سقوط 15 قتيلاً واصابة 19 واكتشاف 13 جثة. هل استقرت الحرب؟ سيطر أمس هدوء نسبي على مختلف جبهات العاصمة ومحاورها. غير ان هذا الهدوء النسبي المشوب بالحذر والتوتر لم يمنع بعض المتاريس والمراكز خصوصاً في محاور البورصة- الحويك- باب ادريس- سوق الارجنتين- فندق ريجنت- اللنبي- فوش- الصيفي- المرفأ... لم يمنعها من تبادل رمايات متقطعة بالرشاشات الثقيلة والخفيفة،

في حين نشط القنص الذي رافقته رمايات محدودة على المحاور الممتدة من ساحة الشهداء والنجمة ورياض الصلح والدباس الى المتحف مروراً بطريق الشام- بشارة الخوري- سوديكو- الناصرة- رأس النبع- محمد الحوت. وخفّ أمس كذلك التراشق المدفعي المتبادل بين المنطقتين الشرقية والغربية... وساهم هدوء الجبهات وتوقف القصف العشوائي في تحريك الحياة في الأحياء والشوارع البعيدة من المناطق الحامية، فقد شوهد المواطنون يتجولون في الشوارع وأمام الأفران والمحلات التجارية انما في خوف وحذر.

من جهة أخرى أعلن السيد هشام الشعار المدير العام لقوى الامن الداخلي ان المديرية خصصت 400 عنصر من قواتها لحماية مرفأ بيروت. ويستهدف هذا الاجراء حماية المرفأ من أي عمليات حرق او نهب او اتلاف للبضائع والمواد التموينية والغذائية الموجودة في عنابرها التي لم يصلها الحريق او النهب بعد.

وكانت نتيجة اشتباكات امس سقوط 11 قتيلاً وعثر على 13 جثة موزعة (في ساحة الشهداء وجوارها) وقتل شخص بالقنص كما قتل ثلاثة مواطنين من جراء التراشق المدفعي بين المنطقتين الغربية والشرقية وجرح أربعة.

وبالنسبة الى معلومات المتقاتلين ذكرت مصادر الكتائب امس ان اشتباكات متقطعة وقعت على محاور الزيتونة والاسواق التجارية وساحة النجمة وطريق الشام. واضافت:» داهمت قواتنا تجمعات مسلحة في شارع محمد الحوت واوقعت فيها خسائر في الارواح.»

حرائق: على صعيد آخر شبّ حريق في الطبقتين العاشرة والحادية عشرة في بناية العسيلي في ساحة رياض الصلح اثر سقوط قذيفة اشعلت فيهما النار.

كذلك احترق نادي السان جورج على الزيتونة وملهى الكونكورد المجاور له بعد سقوط قذائف، واندلعت النار في البارات المحيطة بملهى

«نكيت كات».

قنص وتراشق متقطع في الضاحيتين: 33 قتيلاً و15 جثة في الجنوبية. 17 قتيلاً و10 جثث في الشرقية. التراشق المتقطع واعمال القنص طبعت الوضع الامني في الضواحي الجنوبية والشرقية. وقد تميزت المحاور بهدوء نسبي عكرته قذائف الهاون التي كانت تتساقط بين حين وآخر. ففي جبهة الشياح- عين الرمانة دارت اشتباكات متفرقة خصوصاً خلال الليل وفي ساعات الصباح الاولى استعملت فيها قذائف الهاون والار بي جي. وجرى في الصباح تراشق بالرشاشات الثقيلة بين كنيسة مار مخايل وغاليري سمعان والداتسون وبولفار الحدث حتى مستديرة الحازمية. ورافق ذلك سقوط بعض قذائف الهاون التي ادت الى مقتل ثلاثة اشخاص. وشهدت محاور عبد الكريم الخليل ومحمصة صنين ومعملي الريحة وغندور اعمال قنص كثيفة جعلت الشارع الفاصل بين عين الرمانة والشياح مقفراً الا من بعض المسلحين الذين كانوا يسرعون في المرور خوفاً من الرصاص.

ووقعت اشتباكات متقطعة على خطي المازدا والداتسون ومحطة صفير.

وتعرضت منطقة الحازمية وغاليري سمعان وبئر العبد ومنطقة المعلم لقصف متبادل بين القوات المشتركة من جهة والقوات اللبنانية المتحالفة. ونشطت عمليات القنص. وأفادت معلومات شبه رسمية أنه نتيجة اعمال القنص سقط 12 شخصاً. كما عثر على 11 جثة، تسع جثث قرب الشفروليه وجثتان قرب مقطع السكة الحديد. وعلى خط الحدث- الليلكي- كفرشيما- حي السلم تبودلت قذائف الهاون والصواريخ وشوهدت تحركات كبيرة لمسلحين في الصحراء وحول مطار بيروت.

وذكرت معلومات فلسطينية ان القوات المشتركة الموجودة في حارة حريك ومحطة صفير تقصف مواقع الانعزاليين الموجودة في الحدث وعلى محور بولفار كميل شمعون منزلة في صفوفهم خسائر مادية وبشرية.

وقال مصدر كتائبي ان القصف يحصل رداً على قصف الاماكن الآهلة في عين الرمانة وفرن الشباك والحدث وشبت امس حرائق عدة في منطقة الفياضية والطريق المؤدية الى قصر بعبدا بعد سقوط قذائف «شردت» من المعارك في خط الحدث- الليلكي. وافادت المعلومات شبه الرسمية ان التراشق بالرشاشات والقذائف أدى الى سقوط 18 شخصاً والعثور على أربع جثث قرب مبنى كلية العلوم.

في الضاحية الشرقية استمر التراشق متقطعاً وخصوصاً على محوري سن الفيل- النبعة وتل الزعتر- الدكوانة. ففي النبعة- سن الفيل حاولت عناصر مسلحة التسلل الى شارع الغزال في سن الفيل مستعملة اسلحة رشاشة ثقيلة وهواوين من عيار 60 و82 ملم اضافة الى قذائف ار بي جي فدارت معركة قوية استمرت حتى ساعات الصباح الأولى وسقط عدد من القتلى.

وفي شارع مار الياس سقطت قذيفة هاون من عيار 60 ملم احدثت بعض الاضرار المادية.

وتخلل النهار قنص في النبعة وسن الفيل وكذلك على خط الصالومي ومستديرة الجديدة وقرب الكلينكس. وعلى خط حرج ثابت جرى تراشق بين اشجار الصنوبر وتل الزعتر استعملت فيه الرشاشات الثقيلة.

وبين جسر الباشا والحازمية تبودلت النار مما أدى الى مقتل ثلاثة اشخاص كما عثر على جثة محروقة. وافادت المعلومات شبه الرسمية انه سقط نتيجة القنص والتراشق 14 قتيلاً و31 جريحاً. وعثر على ثلاث جثث في ضواحي النبعة وعلى اربعة في سن الفيل وعلى جثتين في...

على الصفحة 2 صورة بعدسة جورج سمرجيان: السيد كمال جنبلاط خارجاً من اجتماعه بالسيد ياسر عرفات (يشكو من ضغط سوريا ودخول قواتها).

صورة بعدسة هاروت جيرجيان: السيد موسى الصدر في زيارة العميد ريمون اده (اتفقا على ضرورة استقالة رئيس الجمهورية الفورية).

على الصفحة 3 صورة بعدسة سام مرفانيان: حريق شبّ أمس في مينا الحصن (دخان وأبنية ولافتة توتال العمودية).

صورة بعدسة سعيد معلاوي: المتين خلال القصف وخلفها المروج وبولونيا.

جنبلاط يشكو من ضغط سوريا (تتمة المنشور في الصفحة 2): الأنظمة العربية تخاف... قال: «أنا بقيت ثماني ساعات مع السوريين وحاولت إقناعهم ولم أتمكن من ذلك. وسوريا تهدد المقاومة بقطع الذخيرة عنها، ونأمل في أن تعيد النظر في موقفها، لأننا ننتظر من أخواننا السوريين أن يدعمونا وان يقفوا في وجه موجة المرتزقة الذين يحاربون في صفوف الكتائب. اننا نطالب بان نصبح مثل أميركا وأوروبا الغربية دولة علمانية ليس فيها تمييز، ولكن يبدو ان الأنظمة العربية تخاف قيام دولة ديموقراطية علمانية في الشرق. لأنه ليس هناك نظام سياسي عربي باستثناء تونس تبنى مبدأ العلمانية...

يفضل الفلسفة الهندية: وكرر دعوته الى استقالة رئيس الجمهورية قبل وقف اطلاق النار. وأعلن انه غير مرشح ولا يطمح ان يكون مرشحاً لرئاسة الجمهورية «لأنني أفضل عليها الفلسفة الهندية».

تأمين الغاز وتسعيره في المنطقة الغربية: أعلنت «الحركة الانمائية» الى المواطنين في بيروت انه تم الاتفاق مع الموزع الرئيسي للغاز و»جيش لبنان العربي» في الجنوب و»حركة الناصريين المستقلين» (المرابطون) بالنسبة الى موضوع الغاز ويقضي الاتفاق بالآتي:

1 - على جميع متعهدي الغاز في المنطقة الغربية الحضور الى مكتب الحركة في الرواس، الطريق الجديدة، لتسلم بونات الغاز.

2 - بالنسبة الى سعر المبيع: القارورة التي تحوي 12.5 كلغ تباع للمستهلك ب 7.50 ليرات فقط ويسلمها الموزع الرئيسي للبائع ب6.75 ليرات بعد ان يحصل على القسيمة من مكتب الحركة.

3 - سيجري توزيع عادل لكل مناطق بيروت الغربية.

4 - هناك فرقة مكافحة للتلاعب بالاسعار وحماية المستهلك مؤلفة من 40 عضواً للتحقق من الشكاوى واتخاذ الاجراءات المناسبة في المخالف.

5 - يعمل بهذا التدبير ابتداء من 1-4-1976.

ان هذه الاسعار قابلة للتعديل حسب مقتضيات الوضع التمويني وسيعلم المواطنون بكل تغيير او تعديل لها. للاتصال بالمكافحة: الحركة الانمائية 307722.

أسرار: عمّم رئيس حزب يميني على جميع العناصر الحزبية المسلحة والأنصار طلباً بعدم تبادل الكلام البذيء بواسطة اللاسلكي مع مسلحين آخرين.

قال رجل أعمال تعرض مسلحون لمكاتب في مبنى يخصه، ان الشيء الوحيد الذي لا يتم على الهوية هو السرقة والنهب.

تأمين الاتصالات الخارجية: استؤنفت أمس الاتصالات السلكية واللاسلكية مع الخارج بعدما كاد لبنان ان يفقد آخر صلة له بالعالم بعد تقلص حركة الملاحة الجوية الى حدودها الدنيا. والفضل في ذلك يعود الى العضو المنتدب في مجلس ادارة «اوجيرو» السيد يوسف سالم الذي تجرأ على الرصاص ونزل أمس الى مركز البريد والبرق في رياض الصلح وأشرف على اصلاح العطل الذي كان تسبب في توقف التخابر مع الخارج وأمضى وقتاً غير قصير مع الموظفين «الفدائيين» الذين يعملون منذ مدة تحت الرصاص الذي لا يرحم. وكان المراسلون الأجانب تهيأوا للانتقال الى قبرص لموافاة وكالات الاخبار والصحف بأخبار الأزمة اللبنانية بعد تعذر الاتصال بها من بيروت.

100
آل هاينيكن 4 - الطابق السادس

امتنع عنه النوم. فتح الدكتور إدغار معلوف صندوقاً، وبدأ (في ضوء القنديل) يخرج المجلدات ال11 من «دائرة المعارف». حين اكتشف أنها عشرة فقط وأنه نسي أحد المجلدات (المجلد التاسع) في الكولا شعر بغيظ وأوشك أن يقضم لسانه. كان هذا- اضافة الى التدريس الجامعي- عمله الأهم في السنوات الأخيرة. انضم الى «قلم التحرير» قبل ظهور المجلد الثامن (1969؛ من أخيلية الى أرتمين). كُلّف عشية اندلاع الحوادث تنظيم ندوة أكاديمية موسعة ترافق ظهور المجلد الثاني عشر (من استشراق الى اسطرلاب). حدّدوا موعداً مبدئياً: تشرين الثاني (نوفمبر) 1975. تولى الاتصال بباحثين أسهموا في كتابة مواد المجلد الأول (صدر سنة 1956؛ شارك فيه 58 كاتباً اختصاصياً وضمّ 2171 مبحثاً و369 رسماً وصورة وخريطة). اكتشف أن عدداً منهم لن يتمكنوا من الحضور (وهذا سيوفر في الميزانية). لا لأن بلدانهم بعيدة (خوليو مارتينيث أستاذ اللغة الأسبانية في جامعة بورتوريكو، وفالديمير مينورفسكي أستاذ العلوم الشرقية في جامعة لندن، أكّدا مثلاً سرورهما بزيارة لبنان والمشاركة في أعمال الندوة). بعضهم لن يلبي الدعوة لأنهم انتقلوا الى رحمته تعالى وهو لا يعلم. كان هذا مربكاً بالنسبة إليه: أن يتصل بمنزل بروفسور اللغات الساميّة في جامعة السوربون، فتردّ عليه سيدة فرنسية لهجتها لهجة الألزاس واللورين وتعلمه بنبرة أقرب الى اللؤم منها الى الأسى أن زوجها لن يقدر أن يسافر الى بيروت لأنه مات قبل ثلاث سنوات.

*

كانت ليلة أخرى صعبة. إبنه الكبير ادوار متفوق وطالب سنة ثانية في أم أي تي (معهد ماساشستوس للتكنولوجيا). المفروض ألا يشغل باله كثيراً لأن أميركا ليست بيروت. لكنه في الحقيقة يخاف عليه أكثر مما يخاف على أخوته الثلاثة الذين لم ينهوا مدارسهم بعد. أول وصوله الى جامعته بدأ ينزل في التظاهرات ضد حرب فييتنام. أخبرهم بنفسه على التلفون. كان يضحك كأن المسألة لعبة. نبّهه الى خطورة ما يفعله. لم يكن خائفاً عليه من بوليس الشغب وحسب (رأى صورهم في المجلات بقمصانهم الزرق وخوذهم المعدن الزرق ينهالون بهراوات على طلاب في واشنطن). ولكن أيضاً من إدارة الجامعة: ماذا إذا تعرض إبنه للإنذار والتأنيب والفصل؟ طمأنه ادوار ان الدستور الأميركي يضمن له حرية التظاهر. «أعرف يا ابني، لكن أنت لبناني ولست أميركياً!»

*

في الترانزيستور الذي شغلّه على صوت هامس قالوا ان الوضع يتجه الى تجميد القتال غداً وان الرئيس سليمان فرنجية قد يستقيل خلال أيام. شرب الدكتور معلوف فنجاناً بارداً من القهوة بينما يفتح مجلداً على مكتب الدكتور هاينيكن. كان جرحه ينقز. مثل نبضة فوق عينه. غمّس قطنة بالأوكسيجين ونظّف جبهته. البرودة خفّفت الحكاك. سمع أحد الأولاد ينهض الى الحمام في الظلام ويبقى ربع دقيقة ثم يرجع الى سريره. لم يسمع دفقة الماء في السيفون. تكهن أن هذا مروان. غير هذا لم يسمع شيئاً. كانت «بناية أيوب» غارقة في النوم. رشقات الرصاص بعيدة. والعتمة تغمر حيّ العبد.

*

دائرة المعارف

المجلد الأول (من الهمزة الى آيين نامه)

بيروت 1956

بدأ الموسوعة ونشر 6 مجلدات من 1876 الى 1883 المعلم بطرس

البستاني (1819 - 1883).

تابع العمل ونشر المجلدين السابع والثامن (1884) إبنه سليم البستاني (1847 - 1884).

استأنف العمل ونشر المجلد التاسع (1887)، والعاشر (1898)، والحادي عشر (1900)، منتهياً بلفظة «عثمانية»، إبنا المعلم بطرس (نسيب ونجيب) بالاشتراك مع سليمان البستاني.

جدّد المشروع وحدّثه وأعدّ لإتمام العمل حتى النهاية بمؤازرة لجنة إختصاصيين من أنحاء العالم: فؤاد أفرام البستاني رئيس الجامعة اللبنانية.

وذلك برعاية صاحب الفخامة الأستاذ كميل نمر شمعون رئيس الجمهورية.



قبيل الفجر وهو ينعس على المكتب بدأت الطرطقة فوقه. حظه سيئ. بيت البروفسور هاينيكن على السادس. ليس على الخامس أو الرابع أو أي طابق آخر. في الأيام الأولى اعتقد ان هناك ورشة تصليحات في الطابق السابع. ضجة لا تحتمل. حركة متواصلة على الدرج. طلوعاً نزولاً. حتى الآن لم يدعس فوق. لكن زوجته تتكلم مع الناطورة وأخبرته عن زحمة الطابق الفوقاني: تراءى له مثل الغرف أعلى السطوح في الأفلام المصرية وكتب نجيب محفوظ. لم يقرأ الكثير منها لكنه يعرفها. أحبّ كيف يبدأ محفوظ قصصه (أول مقطع من «زقاق المدق») لكنه ملّ بعد الصفحة الأولى. أحصت زوجته أربع أو خمس عائلات على السابع، وسمّتهم. سألها هل يربون دجاجاً وحماماً وأرانب. قالت إنها لا تفهم عليه وتجدّه عنيداً. رأيها ثابت لم يتغير: الهجرة.

❋

أوشك أن يستسلم لرغبة زوجته بينما يشطب من دفتر تلفوناته الأحمر

الصغير أسماء أصدقاء لن يسمع أصواتهم بعد اليوم ولن يحضروا ندوة المجلد 12. إذا صدر يوماً هذا المجلد. اندلعت الحرب الأهلية بعد صدور المجلد 11 (من أريحا الى استسقاء؛ 1974). في المرة السابقة (في القرن التاسع عشر) توقفت الموسوعة عند المجلد 11 أيضاً! لم يكن متطيّراً. لكنه رأى زملاء يتساقطون قتلى. أثناء الشتاء خسروا الأب ميشال آلار اليسوعي مدير معهد الآداب الشرقية في جامعة القديس يوسف (قُتل عن 52 عاماً بصاروخ أصاب غرفته ليلاً في دير الآباء اليسوعيين- بيروت، في 16 كانون الثاني 1976، وهو ينهي كتابة «الاستشراق الفرنسي في القرن العشرين» للمجلد 12). وخسروا ألكسي بوغوليوبسكي صاحب الأبحاث في الشؤون الروسية (قُتل عن 87 عاماً برصاصة قنّاص في شارع الحمرا، صباح 25 شباط 1976). لم تكن الحرب عدوهم الوحيد. تحملوا في «قلم التحرير» أذى أكاديميين على خلاف معهم. عالم الجامعات مملوء بالعداوات والنوايا السيئة. طالما تعرضوا للسخرية لأنهم ما زالوا (بعد 11 مجلداً) في حرف الألف ولم يبلغوا حرف الباء. أشاعوا أثناء الستينات أن رئيس الجامعة ينتفع مادياً على ظهر الموسوعة وتمويلها ويؤخر الوصول الى حرف الباء قصداً. أشاعوا أنه يستعمل الميزانية المرصودة للباحثين كي يكبل أساتذة الجامعة اللبنانية بمصالح ضيقة: اكتبوا لي وسأحسن أوضاعكم. الدكتور ادغار ضايقه ذلك. ارتفع ضغطه. طلب منه شقيقه طبيب القلب والشرايين التوقف عن أكل المقالي والتريض ساعة كل صباح. شرح له أسبابه النفسية باقتضاب. «فهمت لكن البطاطا المقلية تسدّ شرايينك. وقل لأم ادوار ان تقلل الملح في الطبخ.» كان يكره أي كلام متحامل على الدكتور البستاني لأنه يعرف خامته. طالما جالسه واستفاد من مكتبته القيّمة. صوّر نسخاً من مخطوطات لا تقدر بثمن لكن العامة قد تستعملها للفّ الكفتة (كيلو أو نصف كيلو) من عند اللحّام أو لمسح الزجاج. أخبره صديقه أنه عثر مرة صدفة على ورقة سدّ بها أقارب جبليون فجوة في حائط بيتهم. استخرجها وفضّها لأنه أيقن من

لون الورق البنّي وحبر الكوبيا البنفسجي أنها عتيقة. اكتشف أنها رسالة لا يعرف الى من أرسلت ولا من كتبها لأن القسم الاعظم منها تمزق وضاع. لكن السطور القليلة الباقية أخبرته أنها ترقى الى أواخر القرن التاسع عشر. سجّل فيها لبناني مهاجر الى البرازيل مصاعب يلقاها في تجارته بالنهر (قاربه مثل دكان القرية يحوي كل شيء من الدبوس والخيط الى كيس السكر) وهو يتنقل مستوحداً بلا رفيق بين قرى الأمازون.

❋

قائمة بنسخ مصوّرة لمخطوطات شبه مجهولة أرسلها الدكتور ادغار معلوف هدايا أعياد، بالبريد الجوّي المسجل، الى أصدقاء في المهجر:

1 - مخطوط بتوقيع كرنيليوس فانديك (مترجم الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد الى العربية): صفحة واحدة مسطرة أفقياً بقلم الفحم كتب عليها المرسل الأميركاني الطبيب بحبر أسود، مقطعاً باليونانية من إنجيل لوقا (4: 16) مرفقاً بترجمته العربية، أثناء سفره بالباخرة من بيروت الى إزمير (8 أيلول 1863).

2 - مخطوط بقلم بطرس البستاني عُثر عليه خلال صيف 1957 في بيت قديم في قرية الدبّية (جبل لبنان) أثناء عملية هدم وتعمير بعد الهزّة الأرضية: ثلاث صفحات مطوية معاً تحوي تصحيحات غير منشورة لعدد من المفردات العامية في قاموسه «محيط المحيط»، أشهر المعاجم العربية الحديثة التبويب. (بندوق: النغل أي ابن الزانية. والأنثى بندوقة. عامية للشتم والقدح. وفي بيروت: بناديق اللعازارية أي الأيتام في دير اللعازارية./ اشتلق: لحظ بعين فكره. / شلق: شلق الحائط: سقط بعضه أو انشقّ. / تطّمش: تغطّى الى فوق الرأس. / تقمقم: تقمقماً منه: تذمّر. / الخوات: الجنون.)

3 - الصفحات الخمس الأولى من «إلياذة» هوميروس، 112 بيتاً شعرياً،

تعريب سليمان البستاني وبخط يده (محفوظة ضمن مجموعة خاصة في دير القمر- جبل لبنان).

4 - «رحلة أول شرقي الى أميركا» للقس أنطون عمون الكلداني (مجموعة الأخ ماريو كورداي المريمي، رئيس مدرسة شانفيل، ديك المحدي).

5 - مخطوط مجهول المؤلف والتاريخ يتكون من 11 صفحة تزينها رسوم: يحوي وصفاً دقيقاً لنباتات تنمو في بلاد عكار (شمال لبنان) بإسلوب يقلّد العشّاب المالقي ابن البيطار في وصفه أعشاب الأندلس وزهورها (محفوظ في مكتبة الأب ورطان المخيطاري أشقريان مدير مدرسة المخيطاريست، الحازمية).

101
آل الحويك 5 - الطابق السابع

لم تغضب على أخيها. حدست كميلة الحويك أنه يعاني صعوبات في زواجه. لم تقتنع أنه خائف من التنقل بين المنطقتين الشرقية والغربية. كانت تعرف شجاعته القريبة من التهور. منذ طفولته وبشارة هكذا. تتذكره ابن عشر سنوات أو 11 سنة ينزل بنطلونه حتى كاحليه في الملعب ويقضي حاجته على الرمل، لأن حمام المدرسة لا يتسع: صف التلامذة أمام بابه أطول من صفوف هذه الأيام على باب الفرن. كانوا دائماً يحضرون الى المبنى حيث تدرس التدبير المنزلي (حين تزوجت انتهى ذلك) ويقولون لها تعالي تفرجي على أخيكِ الصغير ماذا يفعل! مرة كسر لوح زجاج بيده وهو يحاول الدخول الى غرفة ملأى بالبنات أثناء «الفرصة»: كنّ رفيقاته لكنهن أغلقن الباب في وجهه لعباً. نزفت أصابعه وإحدى البنات غابت عن الوعي. لم تتحمل منظر الدم. كميلة الحويك تعرف أخاها. تركته يفلت. لم تحاسبه على التلفون.

شعرت خلال الفترة الماضية أنها استعادت علاقة قديمة بأمها، صلة حلوة افتقدتها زمناً من دون أن تعلم. زوجها أيضاً فاجأها: أبدى لطفاً غير متوقع. تقبّل وجود أم بشارة في منزله. صحيح أنه نادر الحضور في البيت لكن هذا لا يبدل كرمه.

❋

قال بشارة للمرأة السريانية التي كلّمته بالفرنسية والعربية معاً انهم يعدّون في الجريدة ملفاً كبيراً عن المخطوفين والمفقودين خلال الحرب وقبلها ويحتاجون الى معلومات عن...

«هذا ليس بيت دوللي إكمكجي. أعطوك الرقم الغلط.»

شرح لها انه يتصل بشأن آردا نقولا اكمكجي.

«لكن الرقم غلط. أنا لا أعرف هذه أيضاً.»

سألها هل السيد أرسنيان موجود.

«أبي؟»

ضحكتها الغريبة أخبرته أنه على خطأ وأن هذه المرأة ذات الصوت الفتّي جاوزت الستين.

«أنا لا أعرف والدك وهذا الرقم حصلت عليه من الدليل. آردا اكمكجي فُقدت سنة 1950. هل تعرفين أي شيء عنها؟ أو عن والدها نقولا اكمكجي؟»

«1950؟ أنت جاد مسيو بشارة؟»

«بالتأكيد. نحن نجمع معلومات عامة ووجدنا في الأرشيف صورة للآنسة آردا وأردنا أن نكتب شيئاً عنها في الملف.»

«آردا؟ هذا اسم شائع في طائفتنا. إبنة أخي تدعى آردا.»

«هل تعرفين أي شخص في عائلتكم يدعى نقولا؟»

«لا. لا أظن. ما تقوله غير صحيح مسيو بشارة. لم أسمع أبداً عن هذا. هل

هي لبنانية؟ هناك اكمكجي في غير لبنان. أين فُقدت؟»

«في بيروت. وهناك رقم تلفون لكنه قديم ولم يعد مستعملاً.»

«آردا نقولا اكمكجي؟»

أدرك أنها لن تفيده. رمى حجراً أخيراً.

«هل أستطيع أن أحصل على رقم أخيك؟»

«بهنام مهندس بترول ويعمل في الخليج. لن يخبرك شيئاً لأنه لا يعرف. لماذا لا تتلفن الى الكنيسة؟ عندهم سجلات العمادة والزواج والوفاة، اسألهم!»

❋

دبيب الحماسة ملأ بدنه. نسخ الرقم وشكرها. أقفل الخط بأصبعين من دون أن يضع السمّاعة ثم أدار القرص ست مرات. قضم قطعة الكرواسون بينما ينتظر. رشف قهوة. لكن الخط انقطع. جرب كذا مرة بلا نفع. تحيّر دقيقة ثم تلفن الى الجريدة. السنتراليست التي تعرف أنه منفصل عن زوجته منذ أسابيع (لا شيء يتخبأ في بيروت) ضحكت حين سألها عن أرقام كنيسة السريان.

«مطران السريان لن يطلقّكما. أنت كاثوليك وكارمن كاثوليك.»

ضحك معها رغم أنه عموماً لا يستسيغها.

«هذا شغل.»

أعطته ثلاثة أرقام لكنيسة السريان في المتحف ورقمين للكنيسة في الأشرفية. قبل أن يقفل الخط أخبرته ان زوجته اتصلت أمس ليلاً عند الساعة التاسعة، ثم عند التاسعة والنصف. تخيّلها في علبة السنترال الضيقة أمام «لوحة التحويلات» تراقب المنفضة أو الأوراق الزرق التي يترك عليها محمود سنتراليست الليل رسائل قصيرة غير مفهومة. كان بين الإثنين عداء

مشهور في الجريدة، محمود يحكي عليها في الليل وهي تحكي عليه في النهار، يتبادلان اتهامات بتوسيخ السنترال وعدم الردّ على التلفون والتنصت على المحادثات وأشياء أخرى.

«عندي خط خارجي ويجب أن أردّ. أنا قلت لك أصلاً لا تتزوج صحافية! كارمن تعرف لون فستان التي تغديت معها في الويمبي وهي جالسة تحلّ كلمات متقاطعة في دار الصياد! كيف لا تطلّقك؟»

*

السنترال قسم المخابرات. أطفأت حماسه بثرثرتها. مع ذلك تلفن للكنيسة. لم يردّ أحد. خطوط صالحة وأخرى مقطوعة. طنين الفشل. رجع الى قائمته وطلب رقم هارو إكمكجي. اشتغل الخط. بلا جدوى. لا أحد يردّ. وضع السمّاعة. نظر الى الأرقام الباقية. رنّ التلفون. السنتراليست. حوّلته الى مكتب جورج.

«اقفزْ الى السوديكو!»

«ماذا هناك؟»

«ثلاث جثث. إمرأة ورجلان.»

التقط الكاميرا وذخيرة الأفلام. أمام مدخل الكافالييه أومأ لسيارة من «تاكسيات لبنان» المتعاقدة مع الجريدة على نقل الموظفين. كان الرصاص مسموعاً والهواء بارداً بعض الشيء. على الطريق الى خط التماس سأل الشوفير هل سمع يوماً بفتاة تدعى آردا نقولا اكمكجي اختفت في بيروت قبل الحرب.

«أكيد سمعت»، قال الشوفير.

102
آل حبيب 11 – الطابق الرابع

«... وهذا الصباح رأيتُ الثلج يتساقط على نيويورك. استيقظتُ بسبب البرد لأن التدفئة لا تعمل وأخذت اللحاف معي الى النافذة. هذه أول مرة أرى الثلوج وهي تتساقط. أجمل منظر. السيارات الصفراء التاكسي تغطت سطوحها. في البداية – لا تضحكي عليّ- لم أعرف ماذا تكون هذه القطع البيضاء الرقيقة كالقطن التي تقع عن السطوح...

في المطعم في بروكلين يتصرفون بطريقة مختلفة عن طريقة تصرفهم حين كانوا يأتون لزيارة الضيعة أثناء الصيف. أنا كنت دليلهم دائماً حين نذهب الى صور التي تبعد دقائق بالسيارة. كنت أفضل صور على الضيعة لأنني تربيت في صور. والدي لم يبنِ البيت في الضيعة الا بعد أن نزلت أنا الى بيروت. كل هذا يبدو لي الآن بعيداً لكن في الوقت نفسه كيف أتصرف اذا لم أذكّر نفسي في كل لحظة أنني من مكان ما؟

أقاربي لطفاء وساعدوني على ترجمة الأوراق الضرورية المطلوبة للجامعة هنا. لن أتمكن من معادلة المواد التي درستها في الجامعة في بيروت. لكن هذا لا يهمّني. أحاول أن أفعل مثلكِ كما ترين. أن أفكر في الايجابيات لا السلبيات. بينما نعمل في المطبخ تتغطى النوافذ بالبخار. أفكر فيكِ كل ساعة. أخذوني الى السنترال بارك. حديقة مثل الغابة وفيها بحيرة تتجمد ويتزلجون عليها. ومن حول الحديقة الملونة تتراصف ناطحات السحاب. المكان جميل جداً خصوصاً الشوارع والناس والأبنية الزجاج والمتاجر. عربات الهوت دوغز البيضاء على كل زاوية. وعربات الكستناء. ليتكِ هنا معي. أراكِ في مناماتي. تلفنت لخالكِ. كان لطيفاً أكثر مما توقعت. طلب مني

أن أتصل به في أي وقت اذا احتجت أي شيء. أخبرني أنه قد يحضر مؤتمراً لشركات أدوية في نيويورك قريباً وفي هذه الحال سيراني ونتعرف على بعضنا وجهاً لوجه. سألني عن عملي والجامعة وهل تسجّلت في صفوفي أم بعد. سألني عنكم وعن الوضع. أشعر عند المساء أنني أريد أن أركب الطائرة وأرجع فوراً الى لبنان. أخي رافع تلفن لي من ألمانيا. قال انه سعيد لأنني في أميركا وأنه يحلم بهكذا فرصة منذ سنوات وان عليّ أن أبذل أقصى جهودي كي أنجح لا من أجلي فقط ولكن من أجله هو أيضاً. أخبرني ان توفيق بعث له بعض الأغراض (لبنة شنكليش وأشياء من الضيعة) مع رفيق له من تعنايل أرسله الحزب بمنحة الى ألمانيا، وانه وضع بين الأغراض ورقة صغيرة عليها أرقام تلفونات لعددٍ من الرفاق وبينها رقمي في نيويورك! رافع لم يكن يعرف قبل ذلك أنني صرت في أميركا.»

103
آل الحويك 6 – الطابق السابع

أضحكه شوفير التاكسي. للوهلة الأولى ظنّه فعلاً سمع عن آردا نقولا اكمكجي. لو قال له هل سمعت ان ستالين سكن فترة في عين المريسة كان يردّ: «أكيد سمعت». انتبه الى عبثية بحثه. سلكا طريق البسطة. حركة السير خفيفة في الشوارع لكنها معقولة. بالنسبة الى الوضع. قبل أن يبلغا تمثال بشارة الخوري أوقفهما حاجز «المرابطون.» المسلحون تفحصوا بطاقته الصحافية ثم ردّوها له. كانت نظراتهم لئيمة قليلاً لكنها مقبولة. بالنسبة الى الوضع. بعد الحاجز طلب من السائق أن يتوقف. بانت عربات الدفاع المدني الحمراء مركونة على بعد عشرين متراً. ترجل من التاكسي.

«سأكمل مشياً.»

«سأنتظرك يا أستاذ.»

«لا. ارجعْ الى الحمرا.»

«أنا أخاف أن أتركك هنا وحدك يا أستاذ.»

انحنى على النافذة باسماً لأن الشوفير خفض صوته.

«تريد أن تأتي معي يا أحمد؟ أمي تعمل ليموناضة طيبة.»

ارتبك الشوفير لحظة ثم ضحك.

«الله معك أستاذ. انتبهْ من القنص!»

*

صافح متطوعاً في الدفاع المدني. تبادل الحكي مع مسعفة في الهلال الأحمر شرب معها البيرة من قبل. لم تذهب معه الى آخر الطريق. أبدت تمنعاً في تلك الجلسة. لم يصرّ. على عكس القسم الأعظم من أصدقائه كان بشارة يحترم رغبات النساء. اذا فضّل الأجنبيات أحياناً على اللبنانيات والفلسطينيات فلسبب بسيط: وجد حرية الأوروبيات والأميركيات حقيقية أكثر، واسعة وعميقة لا يقيّدها أب أو أخ أو عائلة أو تقاليد.

«وحدك؟»

استدار ورأى زميلاً كان في «لسان الحال» ثم انتقل الى «السفير». صافحه ومشى معه بمحاذاة خط التماس الى حيث تنتظرهم الجثث.

*

سأله هل يعرف صحافياً كان في «لسان الحال» مثله واسمه أسطفان عبد الأحد.

«قُتل؟»

«لا. زرته في بيته في السادات. ختيار. كنت بحاجة الى رقم تلفون منه لكنه مصاب بالخرف وحتى دفتر تلفوناته ضاع.»

«تلفون من؟»

«واحد اسمه نقولا اكمكجي.»

«من يكون؟»

❋

التقط الصور المطلوبة. كان متعوداً على تصوير القتلى. المرأة عارية الجذع. في ظهرها ثلاثة ثقوب تشابكت بينها ثعابين الدم الأسود. لفّوها ببطانية. صوّر وجهها فقط. الرجل الأصغر سناً يقبض يده اليمنى. فتحوا الأصابع المتخشبة ووجدوا حلقة مفاتيح. أعدم برصاصة في الجبين. الرجل الآخر أصلع. سبعيني. شاربه أبيض. طلقة في الرقبة وثلاث طلقات في البطن. طنّ الذبان مهاجماً العيون.

❋

كلّف زميله العائد الى الحمرا توصيل الفيلم الى «ستوديو نابوليون» للتظهير. استقل سيارة أجرة الى المتحف. السائق كان يحمل جهازاً لاسلكياً ويتبادل الحديث مع آخرين بشأن أحوال الطرقات. سأله أين يذهب.

«كنيسة السريان.»

أوصله الى أمام الباب. في الجهة الأخرى من الشارع ارتفع الدخان من كومة نفايات. قرع وقرع لكن خورياً أو خادماً لم يفتح له. أزّ الرصاص غير بعيد. انعكست الشمس على شبابيك «قصر العدل» المكسّرة. أحدهم نادى من أمام دكان محصن بأكياس رمل. انطلقت سيارة الأجرة بسرعة صاروخ واختفت. بان العالم مهجوراً. قطع بشارة الطريق ركضاً.

❋

وجد الدكان معتماً راكد الهواء مثل قبو، فارغ الرفوف تقريباً. لكن البرّاد شغّال وفيه قناني كولا وقالب جبنة حلوم. سأل البائع هل يلفّ سندويشات.

«لماذا لا ألفّ؟»

فتح الرجل جارورا. سحب كيس خبز. التهم بشارة سندويشته مع قنينة بيبسي باردة. أشعل البائع سيكارة ودعاه كي يجلس ويرتاح. سأله هل يأتي

أحد كي يشتري من الدكان.

«حتى لو لم يأتِ أحد. ماذا سأفعل طوال النهار في البيت؟»

كان في الستين أو الخامسة والستين. الزرّ العلوي لقميصه مبكّل. سأله هل سمع يوماً ببنت اختفت في بيروت سنة 1950 اسمها آردا نقولا اكمكجي؟

*

الكنيسة مقفلة لكن باب المقبرة مفتوح. دفعه ودخل. لم يضطر حتى لتسلق السياج الحديد. أخبره صاحب الدكان ان المقبرة الأساسية في رأس النبع حد السوديكو، لكنهم يدفنون هنا أيضاً. عثر على اسم أليف منقور في شاهد رخام لم تسوّده الأعوام بعد:

يرفانت توما اكمكجي

1924 - 1975

كان يحمل في جيبه ورقة سجّل عليها بين أرقام أخرى تلفون يرفانت اكمكجي. لعله الشخص نفسه. على قبر آخر رأى صورة فوتوغرافية لإمرأة تدعى مارتا ساويرس اكمكجي مواليد 1903 وتوفيت في 1975. كانت أنيقة الثوب مستديرة الوجه سوداء الشعر عريضة الجبهة. صوّر شواهد عربشت عليها نباتات بريّة. مسح زجاج صورة مارتا اكمكجي المؤطرة ببرواز بنّي مبروم. بدّل الفيلم في الكاميرا. استخدم «الفلاش» لأن غيوم الظهيرة تلبّدت في السماء. لم يجد أي شاهد آخر لعائلة اكمكجي. لكنه وجد عند زاوية المقبرة شبه المثلثة: «آردا يونان ديباسو». قبر غارق في الأرض. خفق قلبه وهو يمسح الأتربة عن تاريخ الميلاد والوفاة. وُلدت في 1907. توفيت في 1944. ليست هي. هبّ هواء. صهل حصان شارد في الطريق. التقط صورته قبل أن يختفي. جلس على حجر صقيل كمقعد تظلّله سروة يتيمة. فكر في أبيه. فكر في جده الذي يحمل اسمه. فكر في زوجته. طابور نمل تسلق صباطه. أسهل طريقة أن يزور حي السريان ويسأل هناك. المختار سيعرف شيئاً على الأرجح. نهض شاعراً بثقل جسمه. لم يكن يكذب عندما

قال لأحمد الشوفير انه سيذهب كي يرى أمّه. لكنه لم يذهب.

*

مشى حتى وجد سيارة. كان القصف يشتد وأخبره السائق ان هذه مدافع الدكوانة وتل الزعتر. في الشوارع المهجورة شعر بالتعب. حين بلغ الكافالييه قصد البار مباشرة. طلب كأس «جوني ووكر» مع ثلجة واحدة. شربه وطلب الثاني ودخل الى الحمام. غسل وجهه. رجع كي يجد كأسه في انتظاره وعلى المقعد العالي المجاور صديقه اميل مسؤول المحليات العائد من إجازة طالت أربعة أيام. سأله كيف قضى إجازته؟

«يانسون وأسبرو، أسبرو ويانسون.»

عطس في منديله تأكيداً لمرضه. سأله كيف كانت الطريق وهل وصل الى السوديكو قبل أن يأخذوا الجثث. كان يداعبه لأنه يعرف أنه يبيع هذه الصور الى وكالات الأنباء الأجنبية. نظر بشارة في الكأس الأصفر. لمس الحافة برأس اصبعه.

«كنت أبحث في الأرشيف قبل أيام. وجدت صورة لبنت اسمها آردا نقولا اكمكجي اختفت في بيروت سنة 1950. هل تعرف عنها شيئاً؟»

«هذا أي كأس؟»

ضحك بشارة. أخذ سيكارة من العلبة على البار. لم يشعلها.

«اسألْ ميشال.»

«سألته ودلّني الى مأوى عجزة. أسطفان عبد الأحد كان في جريدة «لسان الحال» ويعرف والد البنت وكان معه رقم تلفونه. لكنه نسيه. نشاف في الدماغ.»

«فتشت في السنترال؟»

*

كان ذلك مضحكاً لكنه فعله. لم تجد السنتراليست رقم نقولا اكمكجي لكنها وجدت تلفون شخص من العائلة المذكورة. نسخ الرقم وهو ينهي

الكأس الثالث. طلب من البارمان سندويشة تون. ناداه أحدهم. استدار على الكرسي ورأى صحافياً أميركياً من سكان أوتيل الكومودور داخلاً مع صاحبته السويدية. تنورة جلد وبلوزة حمراء. اميل سحب سمّاعة التلفون من يده.

«أنت لا تصلح تحرّياً.»

رآه يستخرج من جيب الجاكيتة الداخلي دفتره الرفيع. بدأ ينقب فيه. الأرقام منمنمة لا تعد، والأسماء «مشفرة» لا يعرف أحد غير إميل كيف يقرأها.

*

أكل بشارة سندويشة التون وهو جالس في الزاوية المعتمة مع الأميركي والسويدية. ناداه اميل. رجع الى البار. أعلمه أنه اتصل بمخفر فرن الشباك ووجد شيئاً. صاحبه الرائد فلان يتذكر القضية وأخبره أنها مسجلة في مخفر حبيش في رأس بيروت لأن عائلة البنت مقيمة أو كانت مقيمة هناك.

«عظيم. سأسأل في حبيش.»

ابتسم اميل وهو ينزع نظارته ويمسحها.

«سألت لك. نقولا اكمكجي بيته في شارع رستم باشا في عين المريسة. وهذا رقم تلفونه. لا أعرف ولا في مخفر حبيش يعرفون هل رجعت إبنته أم لا. تلفنْ واسأله بنفسك.»

*

لم يتلفن. كان متعباً. قرر تأجيل الأمر الى المساء. امتلأ المطعم. قرقعت الشوك على الصحون. مغربية. رائحة كمون. في المصعد التقى صديقه موريس. محرر في قسم الاقتصاد. جاره هنا. الغرفة 426. سأله عن كارمن. قال بشارة انها على الأرجح بخير.

«أنت مريض؟»

«لا.»

«تبدو مريضاً.»

«هذا بسبب صاحبك اميل. وقلّة النوم. هل تعرف أنك الوحيد في الجريدة الذي لم يكلمني بالسوء عن كارمن منذ انفصلنا!»

ضحك موريس. مسح بقعة عن كمّ الجاكيتة. تأنى منتفخ الكرش.

«أنا مخضرم وأحفظ خط الرجعة يا بشارة. هذه أزمة الأربعين. ثم تمرّ. اسألني أنا. أولاً حلقت شاربيك. ثانياً صرت تسبح كل يوم وتطلب اليخنة بلا رز. الآن تنفصل عن زوجتك وتبلع قنينة ويسكي قبل غياب الشمس! سبقتك بعشرين سنة وأعرف.»

104
آل زخور 11 – الطابق الأول

وجداها نائمة. في الباب الموارب تجمدت فيرا سرسق زخور وهي تميل قليلاً الى أمام فوق رأس إبنها. توقفت أنفاسه في الكرسي المتحرك. الأم (الكوافيرة) نهضت محمرة العينين من الكنبة البرتقالية حد السرير. ممشوقة. خلاسية. رفعت اصبعاً الى فمها. خافت أن يوقظا إبنتها من النوم. ما بقي من جسم كاترين حجبته الأغطية. في النور الخفيف الأزرق بدا وجهها بعيداً ناحلاً حزيناً تؤطره خصل شقراء تناثرت على وجه المخدة. فوق الكومودينة مالت زنابق بيضاء كالثلج، طويلة السيقان، في مزهرية من الزجاج المحجّر.

*

عجز عن توديعها.

«لا تقبل أن تتكلم مع أحد. وحين تبكي تغيب عن الوعي.»

أمّها أخبرت أمّه، وهما تقفان في الممر الساكن. كانت تشبه كاترين قليلاً.

لكنها سوداء الشعر. ولهجتها مختلفة.

*

بعد نوم ريمون (حقنوا دواء في كيس المصل) مشت فيرا من غرفته الى باب المصعد نصف نائمة. إحدى الممرضات تتمدد على مقاعد صالة الإنتظار. الترانزيستور على الأرض تنقّل وحده بين موجتين: أغنية لفيروز (شو بيبقى من الشوارع/ شو بيبقى من السهر/ شو بيبقى من الليل/ من الحب من الحكي/ من الضحك من البكي/ شو بيبقى...شو بيبقى يا حبيبي/ بيبقى قصص صغيرة عم بتشردها الريح)؛ ونشرة أخبار (تدور اشتباكات في محاور السوق التجارية في العجمي وخط النورماندي- الهيلتون- باب ادريس- شارع الحويك- محور النجمة- المعرض- الاوتوماتيك، مع تراشق على خط الأمبير- بيغال- التياترو الكبير. وأبلغنا عن حريق من جراء القذائف يشبّ في المستودعات خلف بناية فتّال على المرفأ وهي تضم مواد ملتهبة. كما اندلعت النار وراء بنك طراد في شارع اللنبي. وصرح في المساء ناطق باسم «القوات المشتركة» ان المجموعات المتمركزة في الفنادق والزيتونة تقدمت في اتجاه المرفأ ولم يبق سوى أعداد قليلة في منطقة ميناء الخشب وبناية فتّال تمارس هوايتها في قنص الأبرياء.) في المصعد الهابط التقت عجوزاً مضمدة الرأس يخفي الشاش نصف وجهها. تبادلا تحية صامتة. تلكأت لحظة في المدخل. الهواء بارد. التدفئة قوية في المستشفى. لا يمكنها أن تمرض الآن. تثاءبت أمام لوح يضيئه أنبوب نيون. اعلانات تأجيل زواج (بسبب الظروف الراهنة يلغى الاحتفال باكليل انطوان قازان وجيزيل الهبر الذي كان مقرراً في تاريخ 27/ 9/ 1975 في كنيسة سيدة البشارة للروم الارثوذكس... يعلن المهندس سميح زيدان والآنسة مرسيل حب الله عن تأجيل زواجهما المقرر في 4/ 3/ 1976 الى موعد آخر يحدد في حينه). بطاقات ملصقة فوق أخرى. بعضها اتسخ. وبعضها سقط على الأرض (عاجل: مطلوب دم فئة او نيغاتيف). رفعت يداً كليلة فاقتربت التاكسي وانفتح الباب. المكان قريب،

أقل من دقيقة مشي، لكن هذا مستحيل في ليل بيروت. لا تقدر أن تخاطر بحياتها الآن. في السيارة سمعت رصاصاً بعيداً. بينما تدخل الى الفندق لحق بها الشوفير وهو يجرّ ساقه.

«لا يا مدام، هذا كثير كل مرة.»

كانت تناوله أضعاف أجرته بلا انتباه. أشاحت بيدها. تراجع وهو يطأطىء رأسه احتراماً.

*

ملأت المغطس. تمددت في مياه ساخنة تفور بالصابون والأملاح. لم تتوقف عن البكاء وهي تلتف بالروب وتستلقي على جنبها في السرير.

*

أدركت أنها على شفير الإنهيار. طلبت مساعدة زوجها وأنجزا بسرعة المعاملات اللازمة. آل زخور لم يرجعوا الى البلد كما قال المهندس ألبر سمعان لزوجته التي تتعذب وحدها مع الأولاد في قبرص. جاءا كي يأخذا الصبي. قبل أن تنتهي هدنة الأيام العشرة ويعود القصف بين الشرقية والغربية نقلتهما سيارة الصليب الأحمر مع ولدهما ريمون الى مطار بيروت. فيرا سرسق زخور أتت الى لبنان ورجعت الى باريس من دون أن تدعس دعسة واحدة في البيت الذي جرى تنظيفه في بناية أيوب العبد.

*

جريدة الأحد 11 نيسان 1976: «... وفي اليوم ما قبل الأخير من هدنة الأيام العشرة هبّت موجات خطف مفاجئة احتجز فيها عشرات الأشخاص. لكن هذا لم يمنع انعقاد الجلسة النيابية. 90 نائباً حضروا رغم الخطر وعدّلوا المادة 73 من الدستور بالإجماع. أقصر جلسة في تاريخ البرلمان اللبناني: 11 دقيقة! انتهت معركة التعديل وبدأت معركة البديل. التوقيع الإثنين وجلسة الانتخاب بين الخميس قبل الفصح والثلاثاء بعده.

شمعون يدخل السباق وجنبلاط يرفض الانتخاب بوجود القوات

السورية:... وتعدل الدستور. ومرّ السبت الطويل بسلام ولم يكن أسود هذه المرة ولا حتى طويلاً. ذلك ان الجلسة التي عقدها مجلس النواب أمس في «قصر منصور» -العسيلي سابقاً- كانت أقصر جلسة في تاريخه، كذلك كلمة الرئيس كامل الأسعد، ومثلها كلمة الرئيس رشيد كرامي التي اعتبرت أقصر «خطاب» في تاريخه السياسي. الحضور فقط، كذلك الإجماع، كانا طويلين. فقد ارتفع عدد النواب الى التسعين، صوتوا جميعهم بالموافقة على تعديل المادة 73 التي تجيز انتخاب رئيس جديد للجمهورية قبل ستة أشهر من انتهاء ولاية الرئيس الحالي.

فورد: أستبعد أن تحاول سوريا السيطرة على لبنان وأميركا تبذل جهودها لمنع ذلك. دالاس (ولاية تكساس)- و ص ف، ي ب - استبعد الرئيس الاميركي فورد ان تحاول سورية السيطرة على لبنان بمساعدة روسيا وقال: «لا أظن ان ذلك سيحدث ولا أظن انه جرى حتى الآن أي عمل متهور.» لكنه زاد:» ان الولايات المتحدة تبذل أقصى جهودها الديبلوماسية لمنع حدوث ذلك.»

وكان الرئيس الأميركي يتحدث في مؤتمر صحافي عقده في دالاس امس في اليوم الثاني من حملته الانتخابية في تكساس ضد منافسه الجمهوري رونالد ريغان.

حديث الدخول السوري والضغوط: الجديد في معركة الرئاسة انها أخذت امس حجماً تعدى النطاق اللبناني المحض اذ ان السيد كمال جنبلاط أكد في معرض حديثه عن دخول قوات سورية الى لبنان ان من الضروري انتخاب رئيس جديد «بعيداً من أي ضغط خارجي.» وكانت قد تكاثرت أمس أنباء متضاربة عن دخول قوات سورية اضافية الى البقاع... وبرز موقف «الاحزاب والقوى الوطنية التقدمية» نتيجة التطورات العسكرية في منطقة الحدود وصرح السيد جنبلاط بعد اجتماع عام للأحزاب والقوى دام حتى

الثامنة مساء:» سنصدر بعد اجتماع الأحزاب غداً الأحد بياناً شاملاً وقد تأكد لنا دخول لواء سوري مدرع بيادر العدس ودخول كتيبتين سوريتين عنجر. وقد جردت هذه القوى المواطنين هناك من اسلحتهم.» وكان جنبلاط أدلى قبل ذلك بتصريح قال فيه: «دخل اللواء 91 المدرع من سوريا منطقة بيادر العدس، ودخل قسم منه منطقة راشيا، بناء على طلب من دخل؟ لا أعرف. ليس هناك أحد طلب من الجيش السوري أن يدخل، لأن الأزمة اللبنانية بدأت تتجه الى الحل، ولان المفروض ان يساعدنا الأخوان السوريون على تصعيد الانفراج بسحب قوى الجيش السوري التي دخلت تحت ستار الصاعقة والتي بلغت حتى الآن ما لا يقل عن 5 الى 6 آلاف جندي، علماً ان جيش التحرير الفلسطيني موجود على الأرض اللبنانية ويكفي لحفظ الامن في اكثر من منطقة.»

اعلان من بنكو دي روما: يأسف بنكو دي روما ان يعلن لزبائنه ان مركز ادارته في بيروت الكائن في ساحة النجمة (البرلمان) قد تعرض للسلب والنهب خلال الاشتباكات المسلحة التي حصلت في محلة مركزه كما أشارت الى ذلك الصحف المحلية في تاريخ 6 نيسان 1976. واستناداً الى الاستقصاءات والكشوفات الأولية التي أجراها مستخدمو المصرف في ظروف صعبة وخطرة تبين ان أرض الطبقة السفلية قد فجرت بالديناميت مما أحدث فيها فجوة تسلل منها النهابون الى الطبقة تحت السفلية حيث تقوم الغرفة المحصنة التي تحتوي على الصناديق الحديد العائدة الى المصرف والمؤجرة للزبائن. ان كل الصناديق الحديد قد فجرت بالديناميت او خلعت، وأفرغت من محتوياتها كاملة. الا ان النهابين تركوا قسماً كبيراً من الأسهم والأموال المنقولة لم يتمكن المصرف من احصائها بعد لكنه نقلها الى مكان آخر. لذلك يعلم بنكو دي روما زبائنه الذين أصابتهم أعمال النهب ولا سيما منهم مستأجري الصناديق الحديد بأن عليهم اتخاذ الاجراءات التي يرونها ضرورية من أجل حماية مصالحهم.

مؤسسة التحقق من الانتشار: طُبع من عدد «النهار» الذي صدر يوم 10 نيسان 1976: 64560 نسخة.

أوتيل فيدرال الروشة- تأمين كل الاتصالات الخارجية فوراً- التلفون 315077- التلكس 21432.

للبيع بداعي الهجرة: مفروشات ستيل حفر وتحف نادرة. ثريات فخمة وسجاد عجمي والماني ولوحات فنية موقعة لعمر الأنسي ومصطفى فروخ. وغرفة نوم وسفرة وصالون غاية في الجمال- برفان وبار وباهي ستيل وأدوات مائدة.

تفخر ادارة كازينو الليالي
ان تقدم لكم كل مساء بالاضافة الى مازاتها الشهية
المطرب المحبوب راغب والراقصة اللولبية دانا
مع نخبة من أروع الفنانين
بالاشتراك مع عائلة مشعلاني الفكاهية
نورا حلواني والياس زغيب ونزيه مغربي
وفرقة الليالي الموسيقية بقيادة حلمي عبد العال
أسعار عادية- للحجز تلفون 477103

105
آل الحويك 7 – الطابق السابع

لم يتلفن. انشغل في الجريدة مساء. ثم مرّ على بارات الحمرا بالترتيب. جولة روتينية منذ خفّ الرصاص. سلّمه الويسكي الى سريره قرابة الرابعة فجراً. نام كالدبّ. أيقظه رنين الهاتف. التاسعة وخمس دقائق صباحاً. مدّ يداً

ثقيلة الى السمّاعة.

«بعدك نائم. أنا تحت. البسْ وانزلْ.»

تحمّم ولبس ثيابه. راقبته آردا بعينيها الحزينتين. جلس دقيقة على حافة السرير. عقد شريط الحذاء. وقعت نظرته على الورقة حد التلفون. «نقولا اكمكجي. بناية عطا الله. شارع رستم باشا. تلفون 350171.» مدّ يده الى السمّاعة. لكنه تردّد وغادر الغرفة.

*

اصطحبه جورج الى الفوّال وراء مسرح البيكاديللي. تروقا فولاً مدمساً لا يوجد أطيب منه في بيروت كلّها، الغربية والشرقية. كان المكان الضيق محتشداً والزبائن يتراصفون على الرصيف. حبّات الليمون الحامض الصفراء اللون والبو صفير البرتقالية تراصفت جنب أوعية تحوي خضراً ومخللات مقطعة. البخار المتصاعد من القدور المعدن التي تغلي فيها الحبوب دفّأ المحل. كان الفوّال يغرف الحمص مقطّب الحاجبين كأنه فقد أحداً.

*

دخن وشرب القهوة واقفاً على رصيف شارع الحمرا. البائع الذي يطقطق بفناجين الشفّة سأله ماذا يعتقد، هل ستهدأ الأحوال؟ كان يراه خارجاً داخلاً الى الجريدة ويرى الكاميرا تتعلق بحزام من كتفه. ظنّ أنه يعرف شيئاً.

*

انفصلا عند العاشرة والنصف قريباً من الكافالييه. تمشى بشارة نزولاً باتجاه عين المريسة. صوّر صبياً يبيع أكياس غزل البنات عند مفرق الجيفينور. صوّر بائع الليموناضة والكعك تحت الجميزة الضخمة أمام البيت القديم الأخضر. صافحه لأنه يعرفه. تبادلا الحكي دقائق. نصحه هامساً ألا يتجوّل وحده: «أولاد الحرام أكثر من الشعر بالرأس يا أستاذ.» في النزلة القوية شمّ رائحة البحر. كان الهواء لطيفاً. تسرب الثقل من جسمه. تراجع أثر الكحول.

أول شارع رستم باشا رأى حاجزاً يرفع صور ابراهيم قليلات وجمال عبد الناصر. تجنب المرور أمام المسلحين. تكلم مع دكنجي يرتب صناديق البضاعة على الرصيف. سأله أين بناية عطا الله؟

«أين قالوا لك؟»

كانت القاف في «قالوا» قوية، جبلية.

«هنا.»

*

«يبدأ شارع رستم باشا من نزلة محطة الديك حيث مدرسة ابتدائية ملحقة بجامع عين المريسة تطلّ مباشرة على البحر، ومن هناك تمتد الطريق الى نادي الميديترانيه في أول الكورنيش القديم. لم تكن البيوت متلاصقة، فاذا تجولت في الحدائق ومطلات البحر ترى رسامين ينفذون لوحات في الهواء الطلق، معظمهم من الروس البيض. لكن رسامين اثنين كانا الأكثر شهرة هما الفرنسي جورج سير ولاحقاً اللبناني محمد قدورة، «جمّدا» صورة عين المريسة في لوحات تضاف الى صور سبق أن التقطها الأخوان بونفيس. وينتهي شارع رستم باشا بشارع فينيقيا حيث أسس آل البحيري مطبعة الأحد، ومن بعدهم يوسف الخال مجلة «شعر» ودار نشر باسم المجلة ومطبعة باسم آل الخال، وفي المبنى يسكن الطبيب ايلي حلاق صهر المخرجة السينمائية اليسارية هيني سرور، الذي ما لبث أن خطف لاحقاً وربما قتل مع يهود لبنانيين آخرين في ليلة واحدة خلال حرب لبنان الدموية. المبنى الذي يملكه مع مبان أخرى آل صعب، كان مقراً للسفارة البريطانية في عهد الجنرال سبيرز، حتى أشكل على الناس فسموه «بناية سبيرز». في أحد طوابقه كان الجنرال الانكليزي يواجه الفرنسيين سياسياً، ومن المواجهة يحقق اللبنانيون استقلال بلدهم في 22 تشرين الثاني (نوفمبر) 1943. بين نزلة محطة الديك وشارع فينيقيا يمتد شارع رستم باشا، وفي أحد بيوت الشارع كانت تسكن

بعد الحرب العالمية الأولى السلطانة خديجة، شقيقة السلطان العثماني مراد، بيت قرميدي السطح عابق بزهر الياسمين، تصفه بالتفصيل كنيزة مراد في كتابها بالفرنسية «من طرف الأميرة الميتة». في خمسينات القرن العشرين كان سكان شارع رستم باشا: أم حمدي الحبوشي تزرع الزهور ويتزود منها غبريال طراد وصائب سلام وهنري فرعون بالقرنفل لتزيين عروة السترة، وتفتخر بشجرة المانوليا العالية في حديقتها تعطي زهرها النادر. ومن بعد، دكان اللبان الذي كان يوزع الحليب طارقاً البيوت كل صباح، ثم العجوز حنوف تبصّر للنساء، ومن بعدها عائلة يهودية تمتهن الخياطة، وبيت الشاعر علي الحاج بعلبكي والد الكاتبة ليلى بعلبكي الذي كان يعمل في المفوضية السامية الفرنسية، ثم انتقل الى العمل مع اميل البستاني صاحب شركة كات الشهيرة، والى جانب عمله كان بعلبكي ينظم الشعر العامي ويعقد صداقات مع مثقفين وزعماء ووجهاء، يلي ذلك بيت آل الجشّي ثم آل فاخوري فآل شاكر وآل فرشوخ، وفي مفترق صغير بيت القس عبدالله الصايغ وأبنائه: الراحلان فايز الصايغ وتوفيق الصايغ (الشاعر ومنشئ مجلة «حوار» بدعم المنظمة العالمية لحرية الثقافة - اختار مكاتب «حوار» أوائل الستينات في الشارع نفسه) وأنيس الصايغ (منشئ مركز الأبحاث الفلسطيني)، وتجاور بيت الصايغ عائلة يهودية تعمل في الصيرفة، ثم بيت انجلو الايطالي، اول من صنع البيتزا وباعها في لبنان، وكان محظوظاً في شيخوخته لأنه ربح جائزة اليانصيب الوطني اللبناني مرتين، فكان ابنه فلافيو يفاخر بأنه ابن الذي فتح مغارة علي بابا، ونصل الى بيت سعادة وسيدة من البيت قابلة قانونية ولد على يديها ابناء عائلات بيروت الكبرى، وقرب بيت سعادة مشغل الميكانيكي جورج ربيز الخبير في سيارات فورد وبويك وناش وشيفروليه وكاديلاك. وفي الجهة الثانية من شارع رستم باشا، بيت فانوس حيث يسكن أرمن ويهود، وعند بابهم العجوز عطارد تبيع الحمص الأخضر والفريكة، ويجاور البيت حديقة وبيت صغير لآل الريشاني حيث يسكن سوريون من آل البيطار،

وتعلو في الحديقة نخلة وحيدة وقربها كوخ للحصان الذي يجر خزاناً لبيع الكاز، ونصل الى بيت المختار عبد الرحيم شقير ثم بيت آل الخانجي تجار الأقمشة، فبيت الصحافي ناصيف مجدلاني الذي أصدر «الحياة الرياضية» وزامل كامل مروة في إصدار جريدة «الحياة» عام 1946، ونكمل الى بيت سعد الذين يصنعون الشوكولا الفاخرة ويبيعونها في محلهم في شارع فوش. وفي شارع فرعي كان يسكن لفترة الشاعر محمد سليمان الأحمد (بدوي الجبل) والسياسي السوري غسان جديد الذي اغتالته لاحقاً الاستخبارات السورية في شارع بلس، وهناك بيت آل الشيخ ونسيبهم الطبيب حسن ادريس وعائلة هراري اليهودية التي انتقلت الى كندا بعد حرب 1967. في آخر هذا الجانب من شارع رستم باشا يقع نادي الدلافين لكرة السلة (ب د د) يديره يهودي فرنسي، ولاعبوه أبناء جاليات أجنبية ولبنانيون من طوائف متنوعة، فيما كان «النادي الرياضي» للمسلمين ونادي «أبناء نبتون» للمسيحيين.» (شارع رستم باشا أثناء نشأة الكاتبة ليلى بعلبكي فيه خلال الخمسينات بحسب محمد فرحات في تحقيق منشور في صحيفة «الحياة»).

❋

سمع خرطشة سلاح وراء ظهره. صاحب الدكان تراجع تلقائياً الى داخل المحل. الأخيلة خفقت على الزجاج. استدار بشارة ساقط القلب. انتبه أنهم لا يهدّدونه هو. على الحاجز توقفت رينو 12 بنيّة اللون، مشرعة الأبواب، على سطحها «عفش» محزوم بالحبال. كان محركها دائراً وصندوقها الورّاني مفتوحاً. السائق (بنطلون أسود وكنزة بترولية) تجادل مع المسلحين. خبّأ بشارة الكاميرا تحت الجاكيتة. وضع وجهه في الأرض. تحرك مبتعداً. نسي «بناية عطا الله» وآردا نقولا اكمكجي. انعطف في زواريب أبعدته عن الصراخ. الرصاص لعلع ثاقباً الفضاء. في طلعة غراهام مسح عرقه. قلبه لطم صدره. على الدرج الطويل الذي يربط الجزء التحتاني من عين المريسة بالجزء الفوقاني لمح دجاجاً أبيض ينقر الحبّ، وخروفاً رُبط الى عمود

كهرباء. سكت الرصاص. بانت عجوز من ظلمة بيت عتيق. تلفتت برأسها الى هذه الجهة وتلك. بيضاء المنديل. محنية الظهر. تنورتها كحلية تصل الى قدميها. سمع أصواتاً عادية تخرج من منازل مشرعة الشبابيك. تراجعت الغيمة الحمراء التي غزت عينيه. أطلّت «المديكال غايت» (البوابة الطبّية). والشجرة الأليفة الضخمة أمام الأي يو بي. أبرز بطاقة تخوّله الدخول. ارتمى على أقرب مقعد. عصافير تزقزق. قطط نائمة حيث بقعة الشمس، وعلى ممر حجري مُدت تحته أنابيب المياه الساخنة. بخار يتصاعد من بين الأحجار القديمة. في ظلال الشربين والصنوبر، محمياً بسور الحرم الجامعي، استرد بشارة أنفاسه.

106
آل سمعان 6 - الطابق الثاني

صعد ذات سبت الى الضيعة وزار أمه وأخواته. مرّ على الكنيسة وناول الخوري مالاً من أجل القداس والجناز. قال لأمه حين سألت انه يتصل بريما والأولاد كل يومين أو ثلاثة. عند رجوعه الى حيّ العبد شعر بانزعاج غامض. أخرج من الكيس أشياء أصرّت أمّه أن يأخذها. نقّل بين يديه مسبحة للمرحوم. فقس بيضتين بلديتين على سمن يذوب في مقلى الفخار. رشّ سماقاً. مات أبوه (الحاج بطرس) قبل أن يرى الحيّ ينحدر الى أسفل. كان يحبّ بيروت. عندما تقاعد وعاد الى الضيعة لم يقطع صلته بالمدينة. ناس ساقية المسك تعلقوا بمجلسه. كان راوياً بارعاً، حافظاً للأناجيل وصاحب دعابة. طالما جوّعهم كي يقرأ لهم على المائدة مقاطع من «سفر التكوين». لسبب غير محدد لم يكن ألبر قريباً منه يوماً. لكنه بعد موته بدأ يتذكر خصالاً فيه واسلوباً في الحكي يخصّه. لو حلّ في «المبرومة» الآن ماذا كان يقول عن الأكواخ التي تتحلق أسفلها كالفطر على جذع زيتونة؟ في الليل تمنعه ضجتهم من النوم. ودّ

لو كان على الطابق الخامس أو السادس. بيوت بلا رخصة عمار. مهجرون لا أحد يعلم من أي أرض هجّوا. النزلة أكلوا جلولها. اختفى بستان المشمش. احتطبوا التوتات. باطون وأكياس ترابة. جرّافات تقلع الزيتون. حيطان بلا أساسات. لا هندسة ولا خريطة. ولا حتى استشارة. سقوف توتيا وتنك يشترونها مستعملة ويقضون أياماً في تطريقها كي تستقيم. قرقعة لا تحتمل. اذا اهتزّت الأرض كما حدث قبل عشرين سنة يُطمرون تحت بيوتهم. واطئة. معتمة. زلقة الأدراج. قبور مزودة تلفزيونات وبرادات. مسروقة مثل البلاط والأبواب وألواح القزاز. أبو جان وأم جان. بالتقسيط المريح. لا يجرؤ على هبوط النزلة الى كعبها. أراجيل وحشيشة. اذا سكت القصف ساعة يسهرون في الطريق. راديوهات تزأر على أعلى صوت. مازة ممدودة. أشنع الأغاني مفضّلة هنا. حيّ العبد انقلب «معرسة». لا يدري كيف يتزوجون كل ليلة وهم مهجّرون. أرانب. كل ليلة يصرخ طفل جديد. حيّ الزعيق والصياح. «جسي! جسيكا!» نساء شرسات لم يسمع مثل أصواتهن من قبل. في حياته كلّها. رأى واحدة تضرب ولداً بخشبة فيها مسامير. وهو يهرب. وهي تلحقه. سقط في النزلة التي تكسر الكواحل. انحنت عليه. ظنّ أنها ستحمله. كان طفلها. لكنها واصلت ضربه! الكرنتينا أحرقوها بالكبريت. وهذه كرنتينا جديدة. هل تحرقنا مدافع النبعة؟ عشرون رجلاً بارّاً في حيّ العبد. جهنم فقراء يوفرون فرنكات النهار كي يسكروا ليلاً على بطحة عرق. قبل ليلتين كان يمدّ جذعه ويجذب الأباجور كي يغلقه. رأى نافذة مضاءة في الأسفل وإمرأة تخرج من حمام بسقف تنك، ملتفة بمنشفة. بيضاء. حافية. شعرها أسود مبلول يسيل على كتفها. ضحكت لرجل (من يكون؟ أخوها؟ زوجها؟ صاحبها؟) قاعد على كنبة يشاهد التلفزيون ويلعق البوظة عن عود خشب. بوظة رخيصة. صفراء (حامض)، حمراء (فريز)، أو بنّية (شوكولا). لا يأكلون غيرها. أغلق الأباجور وظلّ ينظر من الفواصل. طوال هنيهات عاد الى سنوات المراهقة المفضية الى البوليتكنيك. كأنه لم يتزوج ولم يرزق ثلاثة! حنّ الى الفردوس

المفقود. عهد زيوريخ والدراسة. كان يقصد بيتاً بطبقتين في جوار «المنطقة الحمراء» على ضفاف البحيرة. الستائر نبيذية مخمل. مسدلة طوال الوقت. سلّة الشماسي في المدخل خيزران، ممشوقة، تقعد في طنجرة بثلاثة قوائم تزينّها مسكتان (حلقتان). كان يرى برغشة تحوم هناك، على الماء المتجمع في قعر الطنجرة، وهو يخلع الحذاء. القسم الفوقاني يخصّها وحدها. كانت إيطالية الأصول فرنسية الطباع، حارة في السرير، وتقرأ مسرحيات بريخت. لاحظ أنها تشبه زميلة في البوليتكنيك لكنه لم يخبرها. الأرضية خشب يغطيها سجاد. وثير، ينبت منه وبر الصوف. بنّي غامق (عسلي) في الممر القصير. ثم يفتح لونه ويصير خردلياً حين يبلغ الغرفة. على رف في الممر، قبالة «شوفاج» قديم الطراز يحرق يدك اذا لمسته خطأ، انتبه بمرور الليالي الى ساعة نحاسية معطلة البندول يتوجّها ملاك غريب الملامح، ويتراصف جنبها بابلو نيرودا («عشرون قصيدة حب») وجاك بريفير («كلمات») ووالت ويتمان («أوراق العشب»). لم يكن متابعاً للأدب وطالما تعجّب من شريكه في السكن الذي يستعير قصصاً من المكتبة ويحفظ طاغور. من دون أن يقصد تعلّق بها. في فترة باتت الآن مبهمة وغائمة وغير قابلة للتذكر، خطّط جاداً أن يبني حياة معها في سويسرا أو فرنسا. كانت طالبة في جامعة زيوريخ ولا تزور أهلها في الريف الا مرتين في السنة: عيد الميلاد، والأول من آب (أغسطس). العطل الأخرى تقضيها معه. في بداية علاقته بها كان يشعر باضطراب لا يصدق حين يخرج مغادراً آخر الليل فتصفعه البرودة. لا كنزات الصوف ولا المعاطف حمته من صعقة الجليد. ثلوج الألب السويسري برقت في الظلام وراء البحيرة المكسوة بالأبيض. زعقت طيور الليل وفرّت من أمامه. انزلق ذات ليلة وظلّ على الرصيف دقائق يقاوم رغبة في البكاء.

*

عند رجوعه الى لبنان، خدمه صديق أبيه القاضي جورجي ساروفيم (حائز وسام جوقة الشرف الفرنسي) ودبّر له شغلاً مع «الإستشارية للهندسة». عن

طريق القاضي أيضاً عثر والده قبل ذلك على البيت في بناية أيوب العبد. جاره في الطابق الثاني المحامي خير الدين زاره قبل أن ينتقل الى الغربية حاملاً نبتة غردينيا. جلسا وشربا قهوة وتكلما عن أشياء بلا قيمة. لكن المحامي بدا متأثراً وهو يودّعه في الباب. يعرفه منذ سنوات. شخص هادىء. حلو التحية. وعده أن يعتني بالشتلة. اشتاق له لاحقاً. لا حبّاً به بالضبط، ولكن انزعاجاً من آل صعب جيرانه الجدد: كره كيف يتركون كيس الزبالة على باب المصعد! يتسرب سائل ويبقّع الرخامَ.

*

والده عثر على البيت بعد أيام فقط من رحيل آل القوتلي عنه. سمع أخباراً متفرقة عن السيد محي الدين. كان طويلاً كالباب متين الجسم (أثر قوّته باقٍ في مسكات النوافذ المزعزعة) مشهوراً بحظه الذي يفلق الصخر. اذا هزّ الَزهر في قبضته طالباً «دِباش» (خمسة وخمسة) ارتفعت صيحات الاستحسان على طول الرصيف أمام متجر السجاد. كان شريكاً في «القوتلي للشحن البرّي» التي تنقل بالشاحنات بضائع ومحاصيل من لبنان وتستقدم أخرى من سورية ومعظم بلدان الخليج. في الخمسينات، قبل أن يترك البناية منتقلاً الى بيت اشتراه في رأس بيروت، جلب السيد محي الدين والده كي يسكن معه. أثناء الشهور القليلة التي قضاها مصطفى القوتلي في الأشرفية انتشرت بساتين الخسّ والفجل على حافتي نزلة المبرومة. كل خسّة تزن أربعة كيلوغرامات او خمسة، بلا ترابها. كان الماء موجوداً. ملأ وقته بإصلاح أرض بور. روى نتفاً من حياته وهو يسقي مساكب البقدونس والرشاد بخرطوم يتدلى من السطح. صادقه السيد أيوب العبد. كانا يدخنان تبغاً يلفّه بأصابع رشيقة في وريقات بيضاء رقيقة مجلوبة من الشام في شاحنات إبنه. ذهبوا الى رأس بيروت مسقط رأسهم. حلّ آل سمعان مكانهم قبل سنوات طويلة من بدء الحوادث. بقيت في الجوار عبارة شائعة لا يعرف الأصغر سنّاً منشأها: «مثل خسّات الحاج مصطفى.»

*

عائداً من الشركة ذات أصيل رأى المهندس ألبر سمعان إبنة الصيدلي عازار واقفة أمام «برج رزق» تنتظر سيارة أجرة. خفّف سرعته وتوقف وهو ينزل النافذة. لم تعرفه كلوديا في البداية. ظنّته واحداً يتحرش بها كما يفعلون عادة. كانت متعبة. الكعب العالي يرهقها. شكرته وهي تجلس على المقعد الذي نظّفه من ملفاته. لم تبدُ مرتبكة وهي تضع جزدانها في حضنها كي تخفي ركبتيها. سألته عن المدام والأولاد. قال إنهم بخير. سألته هل سيرجعون قريباً.

«لا أظن. ربما أفضل أن أسافر أنا اليهم. الحياة هنا صارت صعبة. تعبت أعصابي.»

«لكن الوضع بدأ يتحسن. لا؟»

«الآن. لكن هل يبقى هكذا؟»

سألته عن شغله، وهل يقدر أن يجد عملاً في الخارج. بينما يحكي انتبه الى تململها. بدت مضطربة. ظنّ السبب كلامه. ثم انتبه: كان ينعطف داخلاً الى الحيّ. العيون راقبت الإثنين في الهوندا الزرقاء. ركن السيارة قبل المسمكة. هبط المساء.



«مانشيت» جريدة الثلاثاء 13 نيسان 1976: وصل السوريون الى ضهر البيدر وتوقفوا بطلب من كرامي وعرفات في انتظار التطورات. جنبلاط يطلب من الجامعة العربية التدخل لمنع الإجتياح السوري ويستدعي براون ويجتمع بسولداتوف.

وصل السوريون: فجأة تضاءل البحث في رئاسة الجمهورية... المواقف السياسية كلها تركزت على وجود جيش سوري في لبنان: حجمه ومواقفه، الهدف منه، أبعاد الدخول السياسية، المضاعفات الممكنة على الصعيد العربي والديبلوماسي. هذه الأسئلة التي شغلت بيروت والمقاومة ذهب السيد مالك

سلام الى دمشق للرجوع بأجوبة عنها باسم الرئيس رشيد كرامي والسيد ياسر عرفات مجتمعين... المصادر شبه الرسمية تقول ان القوات السورية واصلت تقدمها على خط دمشق- بيروت، وكانت نحو الساعة الأولى بعد ظهر أمس في ضهر البيدر، فيما رابطت بعض وحداتها على مداخل زحلة ومرتفعاتها وفي المنطقة الصناعية والسهل، وأصبحت الطريق سالكة من شتورة الى زحلة وزال وجود المسلحين عليها. وقد أكدت الأوساط المتصلة بسوريا تقدم القوات السورية النظامية الى ضهر البيدر، الا انها قالت ان هذه القوات ستوقف تقدمها بناء على تمنيات بعض كبار السياسيين والأصدقاء ولا سيما رئيس الحكومة، وذلك في انتظار ما سيحدث من تطورات في الأيام المقبلة. أما عن حجم هذه القوات فقد كشفت أوساط الصاعقة لوكالات الأنباء الأجنبية ان مجموع القوات من سورية نظامية وجيش تحرير وصاعقة «المتوافرة لحفظ الأمن في لبنان» يقارب ال17 ألفاً. وأضافت هذه الأوساط ان حفظ الأمن في مدينة بيروت وحدها يتطلب فرقتين على الأقل.

لا خبز اليوم في بيروت لأن الطحين لم يصل أمس.

الرئيس السوري يهاجم «المتاجرين بالدين والسياسة والثورة وسفاكي الدماء.»

جنبلاط: القصة مطبوخة وهناك شبه موافقة أميركية على التحرك السوري.

الأسد: مستعدون للتحرك الى لبنان لحماية كل مظلوم وضد كل ظالم. نملك حرية الحركة ونتخذ أي موقف من دون أن يستطيع أحد منعنا.

توقفت الاشتباكات بعد 6 ساعات من اشتعالها. قنص ورمايات متقطعة في بيروت وضاحيتيها. مصادر أمنية تقدر الاصابات ب60 قتيلاً و100 جريح. في السادسة صباح أمس توقف الاشتعال المفاجىء بعد ست ساعات من القتال العنيف الذي دار على كل الجبهات في العاصمة والضواحي

واستخدمت فيه مختلف الاسلحة من الرشاشات الى مدافع الهاون واشتركت فيه دبابات المقاتلين من الطرفين وتخللته هجمات وهجمات مضادة. وقدرت مصادر أمنية ما سقط من ضحايا في هذا القتال بنحو ستين قتيلاً ومئة جريح فضلاً عن مزيد من الخراب والدمار والذعر الذي أرهق المواطنين فظلوا ساهرين في الملاجىء حتى الصباح.

في بيروت بدأ القتال قبل منتصف ليل الأحد- الاثنين بقليل وشمل كل المحاور والجبهات واستمر حتى السادسة صباحاً. محاور ساحة الدباس- الامبير- الصيفي- المرفأ- بشارة الخوري- اللعازارية- الامير بشير- ريجنت اوتيل كانت الاكثر اشتعالاً اذ دارت فيها اشتباكات بالرشاشات الخفيفة والثقيلة كما تبادل الطرفان القصف المدفعي بالهواوين والصواريخ التي سقطت قذائفها في الصفوف الخلفية للمقاتلين وشملت أحياء في الاشرفية والصيفي والفنادق وباب ادريس. وشاركت في هذا القتال دبابات الطرفين.

في الوقت نفسه كانت تجري معارك عنيفة في جبهة رأس النبع حيث بدأ القتال في الثانية بعد منتصف الليل واستمر الى الرابعة وشمل شارع فؤاد الأول وميدان السباق وشارع بدارو ومنطقة مصالح الجيش واستخدمت فيه مختلف الاسلحة الرشاشة والمدفعية الخفيفة والثقيلة. كذلك دارت اشتباكات عنيفة في كل المحاور الممتدة على طول طريق الشام بين رأس النبع والأشرفية والسوديكو والناصرة وشارع محمد الحوت. وسقطت قذائف مدفعية في حي السريان ومناطق اوتيل ديو والنويري والحرج. وبعد السادسة صباحاً خفت حدة القتال الا ان التراشق المتقطع استمر في معظم المحاور والجبهات خصوصاً في محاور الوسط التجاري وعلى طول طريق الشام. وسقط نتيجة هذا القتال تسعة قتلى و11 جريحاً وعثر على 15 جثة: خمس تحت جسر فؤاد شهاب واثنتان قي شارع بشارة الخوري وثلاث في سوق الارجنتين خلف مبنى الريفولي وواحدة في ساحة الدباس واثنتان خلف مبنى اللعازارية واثنتان في ساحة الشهداء. وذكرت معلومات من «جبهة الرفض»

بالنسبة الى ما حصل ليل الاحد- الاثنين:» صدت قواتنا محاولة تسلل واسعة من جهة بناية بيبسي كولا في شارع الحاج داود. وقد جرت اشتباكات في سوق الفرنج سقط على اثرها قتيلان من الطرف المهاجم وعدد من الجرحى. ثم جرت محاولة ثانية لسحب الجرحى والقتلى باءت بالفشل.»

من جهة أخرى لم تتوقف عمليات السطو المنظمة في الوسط التجاري. وتعرضت اكثر من بناية للنسف خصوصاً في شارع المعرض. وقال «الوطنيون الاحرار»: «ما زال القناصة متمركزين في الخندق الغميق وبشارة الخوري وهم يركزون نيرانهم على الاماكن الآهلة. وقام النمور الاحرار بعملية تنبيه واسعة للمواطنين في شوارع مونو وسوديكو وعبد الوهاب الانكليزي وقطعوا الطرق المؤدية الى هذه الاماكن حماية للسكان.» واوضحوا انه «في الرابعة فجر الاثنين اشتبكت قوات النمور الاحرار في الليسيه مع الفلسطينيين وحلفائهم عندما حاولوا التسلل الى مقابر البرجاوي وذلك بعدما ركزوا نارهم على مراكزنا في الليسيه والجبهة المطلة على محاور خير الله- البرجاوي وتمكنت قوات النمور الاحرار من منع المتسللين من التمركز داخل المقابر.»

الشياح- عين الرمانة: منذ الصباح خفّت حدة القتال في جبهة الشياح- عين الرمانة بعد ليل وصف بأنه «جهنمي» لم تشهد مثله هذه الجبهة الا في أيامها السوداء. وفي النهار بقيت الجبهة ساخنة وازداد التراشق بالرشاشات الثقيلة من عيار 500 ملم ونشط القناصة في كل المحاور، وتساقطت بعض القذائف والصواريخ على المنطقتين فقتل ثمانية اشخاص وجرح 12 آخرون. وقبل الظهر بقليل حاول مسلحون التسلل من الشياح الى عين الرمانة عبر محاور البريد والريحة وعين الدلبة تغطيهم رشقات طويلة من الرشاشات الثقيلة. وتبودلت النار بين محاور مار مخايل والمازدا والداتسون والعريس وغاليري سمعان فقتل شخصان وجرح ثلاثة. وبين الرابعة فجراً والسادسة صباحاً شهد محور البريد- عين الدلبة- مار مارون قتالاً عنيفاً استعملت فيه مدفعية الدبابات وتخلله قصف شديد بمعدل 4 قذائف كل دقيقة، وأسفر

الاشتباك عن سقوط خمسة قتلى وعدد غير قليل من الجرحى. ودارت على محور سبورت كولا- المازدا- مار مخايل- مارون مسك معركة استعمل فيها الطرفان الدبابات واستمرت من العاشرة ليلاً حتى الصباح، وسقط فيها قتيلان و5 جرحى. وجرت معركة في محور غاليري سمعان- مستشفى الحياة تخللتها قذائف صاروخية. وكانت اصداء المعارك تتردد في الاجواء ولمسافات بعيدة حيث وصلت الى الاشرفية والمنطقة الغربية ورأس بيروت. وذكرت مصادر ان معارك الليل اتسمت بمحاولات التسلل من عين الرمانة في اتجاه الشياح ومن الحدث في اتجاه محطة صفير وبئر العبد، ومن الشياح في اتجاه عين الرمانة. وتردد ان اتصالات بدأت مع منتصف الليل لوقف اطلاق النار ولم تنجح الا في الصباح.

بيروت ليلاً: قرابة منتصف الليل قويت الاشتباكات على المتاريس المتقدمة على خط البحر بين العجمي واعالي باب ادريس كذلك بين فوش والاوتوماتيك وقرب بناية ريجنت. وسقطت في منطقة الصيفي قذائف هاون بعد منتصف الليل بقليل تبعها تراشق في محور التياترو الكبير- الامبير- بيغال. وقال «المرابطون» ان محاولة التسلل من جهة الريجنت قد صدت وحذروا من أي تحرك قد يؤدي الى تدهور الموقف. وقرابة منتصف الليل جرى تراشق بالأسلحة الثقيلة بين محور برج المرّ والفنادق والمنطقة التجارية من جهة وبين برج رزق وجواره من جهة أخرى. واشارت معلومات رسمية الى ان عناصر مسلحة دخلت سوق الصاغة ونسفت 40 محلاً وسرقت محتوياتها. وسمعت خلال الليل انفجارات في منطقة التياترو الكبير.

107
آل الخوري 11 – الطابق الثالث

«أوصلت كارلا الى شغلها في مستشفى الروم ثم نزلت الى الأسواق.

كنت أسوق ترانس ام صفراء. صاروخ. على الغطاء الأمامي وعلى طول جنبها مرشوش بالأحمر شعلة نار. اذا كبست البنزين أول عبد الوهاب الانكليزي تسمع زئيراً في آخره. ارتطمت مرة بكلب يقطع الشارع. طار في الفضاء وسقط على بعد مئة متر. تقريباً. معكم حق بالنسبة الى التواريخ. هذا كله حدث قبل سنوات وأحياناً أنسى بعض التفاصيل. لكنني أتذكر جيداً نيسان ال76. تعبنا ونحن ندافع على كل الجبهات. لكن ابتداء من ذلك الشهر صار دورنا. حين جربنا اقتحام شارع المعرض من جهة الجامع العمري تفاجأوا. لم يتوقعوا اننا يمكن أن نهجم. في نهاية آذار كان كمال جنبلاط يطلع على مونت كارلو ويقول الشباب صاروا بالكحالة. «المرابطون» وزعوا منشورات كتبوا فيها ان الحسم العسكري في غضون ساعات وطلبوا من أهالي المنطقة الشرقية ألا يخافوا لأن أحداً لن يمسّهم بأذى. أنا قرأت المنشورات. لونها أزرق. كانوا يرمونها رزماً على خط التماس. حرب نفسية. لكن في نيسان اختلف الوضع. أكبر خطأ حرق المرفأ في آذار. صحيح أننا استفدنا ووزعنا الحبوب والأغذية على ناس جاعوا وتعبوا، لكن في المقابل الأهالي أفزعهم الدخان الذي وصل الى الأشرفية. الناس فزعوا لأنهم اعتقدوا أننا سننسحب من المرفأ. هذا كان سبب الذعر الحقيقي في الشرقية. أكثر من سقوط الفنادق. نيسان غيّر الوضع. قررت القيادة ان نشن هجمات اختبارية (جس نبض) على معظم المحاور. كانت ساحة البرلمان النجمة عبارة عن كوم حجارة وقضبان حديد وثلاث بوسطات دولة محروقة وبراميل باطون. الأسلاك الشائكة تمتد فوق المتاريس وتشرقط حين نقوص عليها في الليل. منطقة الجامع العمري كانت معهم في تلك الفترة. نهبوها ثم تراجعوا تكتيكياً لأنها تتعرض لقصف مباشر. لم نتمركز فيها. كانت تحصيناتنا قوية على بعد أمتار، في اللنبي وفوش. لكننا قررنا ان نهجم كي نرفع معنويات الرفاق على بقية المحاور. الآن لا أحد يخبركم هذه الأشياء. لكن في ذلك الوقت كنا نعيش ونموت من أجل بناية واحدة، زاوية واحدة في الوسط التجاري. فشل هجومنا. بسبب

العوائق وسواتر التراب. ولأنهم استقدموا تعزيزات. دباباتنا كانت عاجزة عن الدخول من الجهة التحتانية لأنها يمكن ان تتعرض لإصابات مباشرة بال ب 7 من سطح التياترو. أو من تحت أي قنطرة. تراجعنا وغيّرنا الخطة. ركزنا الهجمات على محور الريجنت. كان القمر فوق رؤوسنا، يظهر من غيمات الدخان الأسود ثم يختفي. أصبت بشظية في ذراعي. هنا. ما زالت علامتها. لم أذهب الى المستشفى. سحبها مسعف بالكماشة. كانت نحاساً بلون الشعلة على الترانس ام. أطفأ مكانها بالسبيرتو ونظّف الجرح وربطه. لم أذهب حتى الى المركز. بلعت حبتين مع فودكا. بقيت في قلب المعركة. بعد ليلتين وأنا مع كارلا قالت لي انني أبدو سعيداً جداً وسألتني لماذا؟ كان السرير يهبط حين تقعد عليه. يطقطق كأنه سينكسر. منظر مشاهدتها وهي تلتهم الطعام. لا أعرف أحداً يقدر ان يبلع الكميات التي تبلعها. وأطيب شيء عندها أكل الأرمن: السجق والبسترما والمقانق. كانت تأكل بلا توقف، حتى وأنا أنام معها. في البداية أغضبني الموضوع. ثم صرت أضحك. هذان العنصران أثّرا في نفسيتي ايجابياً في تلك الفترة: علاقتي بكارلا والدخول السوري. خطة الشيخ بيار كانت أن يضرب السوري بالفلسطيني ويرتاح من الإثنين معاً. كنا بسهولة نقدر ان نربح الحرب الأهلية لو لم يتحرك الفلسطيني ضدنا. دخل السوري على الخط وعدّل كفة الميزان. صارت الحرب متكافئة. هذا كان منطق تفكيري في تلك الفترة. لاحقاً تبدّل الوضع لأن الأسد طمع في الشرقية. لا تقدر أن تتنبأ بالمستقبل. على الأقل ليس وأنت تركض من «دشمة» الى أخرى. كان معنا مقاتل ترك النمور الأحرار لأنه تعارك مع قائد فصيل. مرة أصيبت «الدشمة» حيث ركّز مدفعه الرشاش. علق نصفه تحت الأكياس وصار ينادي لنا بأسمائنا، ويصرخ كي نسحبه. لم يكن مجروحاً. أردنا أن نخرج من متراسنا كي نساعده. لكننا لم نقدر. لا زخّات الرصاص ولا القذائف أبقتنا متجمدين حيث نحن. بل الضحك. في حياتي كلّها لم أضحك كما كنا نضحك في حرب الأسواق.»

108
آل عازار 8 – الطابق السابع

قاومت تحرشات المحامي. ساعدها أنه يحسبها عذراء. لكنه لم يتراجع. استغل كل فرصة سانحة كي يمدّ يده. حين تضع له حداً، محاذرة في أسلوبها لئلا تخسر عملها، يلجأ الى الكلام الذي يُحمّر وجهها حتى تخشى أن تختنق. كان نسخة عن أشرار الشاشة العربية. مزيج بائس من رشدي أباظة وفريد شوقي وكمال الشناوي وآخرين كثر لا تحفظ أسماءهم لأنها لم تحبّ يوماً الأفلام المصرية. لم تفهم أين قضى سنوات الجامعة: في الصفّ أم في السينما. كانت تسأله أحياناً عن مادة ملتبسة في القانون المدني أو القانون العقاري (وهذا ثلاثة أرباع شغله) فيردّ عليها بعموميات مبهمة. أو يتبرع بتفسيرات تبدو للوهلة الأولى معقولة، لكنها سرعان ما تكتشف وحدها أنها خطأ في خطأ. أدركت أن شريكه الذي لا يحضر الى المكتب الا نادراً يتولى معظم الأعمال من مكتبه الخاص في الحازمية. لم يكن زخريا الزمّار الشخص الذي يحسبونه في المبرومة. اكتشفت أنه تقريباً لا يشتغل شيئاً! كان وكيلاً لثلاث بنايات وعدد من المتاجر غادر أصحابها لبنان وتركوها في عهدة أقارب أو مستأجرين. تلخص عمله في الدورة الشهرية لقبض المستحقات. لم يكن حتى يسوق سيارته الأولزموبيل. شغّل رجلاً مهجراً من الدامور سائقاً. شاب ثلاثيني ضخم البنية يبدو مهرجاً وهو يغسل السيارة. كان يعري النصف الفوقاني من جسمه ويستعمل الأسفنجة المبلولة بالصابون من دون أن يتخلص من المسدس الحربي المشكوك في بيت جلدي بنّي اللون تحت إبطه. مرة واحدة فقط حاول السائق ان يحشرها في الزاوية وهي تعد الشاي للضيوف. رفعت صوتها. دخل زخريا الزمّار حاملاً نظارته بين أصابعه. رمق الشوفير شزراً فتبخر من المكان. هزّ رأسه لها وقال «أنا مشغول الآن.» بينما

تضع الشاي والقهوة وصحون البيتي فور أمام الضيوف لم ينظر باتجاهها مرة يتيمة. توهمت ان الحسّ الأبوي تحرك في أعماقه. كانت صورته مع زوجته وأولاده تزين مكتبه وتواجه الزوار. إطار مذهب كبير الحجم. في المطبخ الضيق في مؤخرة المكان غمست حبّة بيتي فور في القهوة ثم قضمتها. لم تبكِ. اكتشفت في الأيام الماضية قدرة على التعاطي مع المواقف الصعبة.

❋

حين خلا المكتب من الضيوف اقترب زخريا الزمّار من طاولتها. دار حتى صار وراء الكرسي وهي تبرم بجذعها. ألقى يديه على كتفيها. لم تقطع الأمل. لعله لن يتحرش بها. مسّد كتفيها كأنها طلبت هذه الخدمة. سألها ماذا يفعل بفادي، هل يطرده؟ تنهد كأنه متعب فعلاً بسبب هذا الموضوع. «مفروض أن أطرده. لا أريد شوفيراً يتحرش بسكرتيراتي. هذا غير مقبول. لكنه يعيل أهله وأخوته. مهجّرون مثلكم. كيف أقطع رزقهم؟ أنتِ قرري يا كلوديا. تريدين أن أفصله؟»

❋

مرّت ذات صباح على السوبرماركت كي تشتري بعض الأغراض للمكتب (كلينكس صنفان، وسكر ويانسون، وعلبة ظروف ليبتون، وقنينة ديتول للحمام). شاهدت مريم زغلول بنت الناطورة واقفة تتكلم مع موظف في قسم الأجبان والألبان. من حركة الجسمين عرفت ماذا يجري. خافت على البنت الصغيرة. اقتربت وطلبت أوقية لبنة. وضعت يدها على كتف مريم وسألتها ماذا أرسلتها أمها كي تشتري. رفعت صوتها وهي تتكلم كي يعرف العامل ان البنت ليست مقطوعة من شجرة. أطالت النظر اليه وهي تتناول علبة اللبنة الخفيفة. أشاح بوجهه.

❋

شعرت كلوديا بالذلّ وهو يلمسها. أقفل باب المكتب من الداخل. أكثر من الغضب شعرت بالمهانة. ذلك المساء بلغت «المبرومة» متأخرة. تسلقت

درجاً بلا نهاية. وجدت أختها هناء نائمة على الصوفا. سمعت أمها ساهرة عند الجيران. دارين رفعت وجهها عن المجلة. تجنبت كلوديا لقاء النظرات. سلكت خطاً مستقيماً الى الحمام. اغتسلت طويلاً. أزالت بالماء والصابون أثر فمه عن رقبتها. حين خرجت محمرة العينين رأت دارين تراقبها.

«ماذا؟»

«لماذا تشتغلين عند الوكيل المنحوس؟»

«لا أقدر أن أظلّ بلا عمل.»

«تعالي واشتغلي معنا.»

*

ثلاث صبايا من المبرومة جنين مالاً في تلك الفترة من تعليم الدروس الخصوصية: دارين عازار وسابين الحويك وكوليت زغلول. كنّ يغادرن حيّ العبد في الصباح الباكر ويتوزعن في طرقات شبه آمنة الى السيوفي وحي السريان وسن الفيل وبرج حمود وأطراف النبعة. تسلحن بشجاعتهن الشخصية. وببطاقات تربوية أصدرتها «الهيئة الشعبية» التابعة لحزب الكتائب. كان عملاً تطوعياً مجانياً في الأساس، يهدف الى المحافظة على المستوى التعليمي للجيل الصاعد في ظل التعطيل القسري للمدارس. لكن عدداً من الأهالي كان ميسوراً وقادراً أن يدفع للمعلمات الشابات اللواتي يخاطرن بحياتهن. صبايا بناية أيوب اكتشفن أنهن قادرات لا على تحصيل الليرات فقط، ولكن أيضاً على تدبير أمورهن بمفردهن. اذا بدأ القصف أو القنص فجأة يمكثن حيث هن، في منازل الطلاب، بانتظار وقف إطلاق النار. وقت قصير ثم يخرجن. الإحساس بالإستقلالية منحهن قوّة. وثقة بالنفس. مثل سعيد عازار الذي ذهب عنه الخوف وهو يركض مع حراس الأرز في الشوارع، اكتشفن أن الملجأ يرعب أكثر من العراء. تراجع توترهن. زالت عن بشرتهن بثور. كنّ حرّات قادرات على قضاء نهارات كاملة خارج «المبرومة». يأكلن في بيوت التلامذة أو يشترين من الشارع مناقيش جبنة أو سندويشات

دجاج. الأهالي نظروا إليهن بمزيج من الحبّ والإفتخار. أثناء زمن كثر فيه سفك الدم ظهرن قديسات صغيرات ببناطيل جينز وقبعات كشافة.

109
آل زغلول 9 – الطابق الأرضي

فرحت لرؤية كوليت سعيدة. منذ زواج أختها الأصغر داليا لم ترَها تضحك. أبهج ابنتها التعليم. غيّر شيئاً فيها. تعود عند الغروب باسمة. تحمل في كل يد كيس مشتريات للبيت. زيت وعدس وحليب. علب أناناس أيضاً! في المساء تدرّس أخوتها. تصفّ الثلاثة على الكنبة. مريم وفريدة تشتركان بسهولة. لكن يوسف يفرّ كالقطّ الى مدخل البناية. يفضل الطابة ورفاقه على الدفاتر والفروض. اشترت له كوليت أقلام تلوين. تلوين خشب وتلوين شمع (صيني). حيلة بسيطة علّمته الأبجدية ثم مفردات وقواعد، بالعربية والفرنسية، وهو يرسم أرانب ومنازل وطائرات على الكرتون.

❋

خربش بقلم أخضر على الحائط فوق المجلى. كانت أمّه غائبة تشطف شرفات البناية لأن مطراً تساقط والوحل سال من المتاريس. جرّب رسم شجرة بأغصان طويلة تبلغ البراد. هذّبه أبوه بالعصا. فرّ الى تحت التخت. سحبه من كاحله. ظلّ يضربه. حين زعق بالبكاء لطمه كي يسكت.

❋

وجدته كوليت في مدخل البناية، يبكي قاعداً على الدرج. تركت الكتب على الباب وأخذته الى «دكان أم نجا». اشترت له قنينة ميرندا ولوح شوكولا كيت كات. طلبت منه أن يكفّ عن البكاء وإلا سيوجعه صدره. عانقته حتى سكت. «أنا أحبك كثيراً.» كافحت لئلا تنهمر دموعها. حين فرغت القنينة ردّتها الى الصندوق ودفعت الحساب لأم نجا. خرجت الى الرصيف ورأت

يوسف ساكتاً حزيناً، أكبر من سنواته. كانت الدكاكين تقفل أبوابها. سارا حتى سبيل الماء. غسل وجهه. ملأت حفنتها ماء وصفّفت شعره الى وراء كي ترى جبهته الحلوة. ضحك لرؤية ضفدع أخضر يقفز من الجرن العميق ويختفي وراء تمثال السيدة العذراء. كانت ضحكة مبحوحة تقطع القلب نصفين. رتبت قميصه تحت البنطلون. ورفعت كلساته المتجمع عند كاحليه.

110
آل عطية 5 – الطابق الثالث

«صرت طرشاء. لا أسمع الموسيقى.»

«لستِ طرشاء يا أمي. أنا قصداً خفّفت صوت الفونوغراف. أريد أن أسمع موجز الأَخبار.»

«أي أخبار يا إبني؟»

«السوريون. لم يقولوا هل سيدخل الجيش السوري الى هنا أم لا.»

«لماذا تضحكون عليّ يا إسحاق؟ كيف سيصل الجيش السوري الى مونتريال؟»

*

وجّه الرئيس سليمان فرنجية الى الرئيس السوري حافظ الأسد البرقية الآتية: «سيادة الأخ الرئيس حافظ الأسد رئيس الجمهورية العربية السورية – دمشق: ان الكلمة التي ألقيتموها أمس وتناولتم فيها بصراحتكم المعهودة ما آلت اليه الحالة الخطيرة في لبنان، تحملني على ان أسدي اليكم الشكر العميق باسم الشعب اللبناني وباسمي الشخصي، لما أظهرتم نحو اللبنانيين كافة من عاطفة أخوية نبيلة بدافع من غيرتكم العربية الخالصة على وحدة لبنان واستقلاله وازدهاره، ومن اهتمام كلي بوقف الاقتتال والدمار بعدما شلت امكانات الدولة فيه. ان لبنان اذ يسجل لسيادتكم ولسوريا العزيزة

هذا الموقف الشجاع لن ينسى الجهود الحثيثة التي بذلتم لوضع حد لهذه الأحداث وادراككم منذ بدايتها خطورة أبعادها، هذه الاحداث التي كانت تتجدد في كل مرة بشجارات مختلفة. حفظكم المولى ذخراً لسوريا الشقيقة وللعروبة وللمروءات ووفقنا جميعاً الى ما فيه خير بلدينا والمصلحة العربية العليا». أخوكم سليمان فرنجية.

«... وفي حين تحفّظ جنبلاط على موقف الأسد، رحب به الأسعد وشمعون والجميّل. ووصف الشيخ بيار الجميّل خطاب الرئيس حافظ الأسد بانه «خطاب تاريخي ودرس بليغ تتناقله الأوساط السياسية في كل مكان وهو قاعدة في الحكم والمسؤولية والصدق والصراحة والجرأة والأخلاق، ولعل هذه القاعدة نفسها كانت المنطلق الى حرب تشرين حيث فعل الصدق والاتزان والصمود الرائع ما أدهش الشرق والغرب.» وأضاف: «لا أظن ان في هذه المنطقة الشرق أوسطية من يستطيع ان يكون على اشتراكية أرقى وأعمق من اشتراكية الرئيس الأسد، وليس هناك أي يساري مهما يكن متفهماً ومعايشاً يساريته أو اشتراكيته، يستطيع بلوغ الحد الذي بلغته دمشق في معارج الكمال الى الحرية والاشتراكية.» وانتقد رئيس الكتائب «مدعي التقدمية واليسارية الزائفين الذين أمعنوا في البلاد تخريباً وفساداً.» وقال: «من منطلق الوضوح الكلي الذي لا يعلو عليه منطق جاء خطاب الرجل البطل يمزق الغشاوة عن كل عين، ويدل بإيمان عربي أصيل للخلق الكريم الى أولئك المنافقين تجار السياسة والدين المقنعين بقضايا العرب وفلسطين وهم في الواقع ذلك الصل الذي يظهر لين الملمس الى ان يتمكن من الجسد فيمتص الدماء ولا يرتوي.» وختم الجميّل قائلاً: «ان خطاب الرئيس الأسد درس للكبار ومرجع سياسي ووطني ومدرسة في حد ذاته لقوم يعقلون.»

111
آل عازار 9 – الطابق السابع

لم يعرف ما به. استيقظ شاعراً بألم في جنبه. جلس يشرب القهوة. زوجته انتبهت الى انقباض وجهه. سألته هل بطنه ماسكة؟ لم يكن شخصاً شكاء. تحمّل الألم حتى صار دبابيس حامية. طلب فنجان زهورات. أعدته له مع أنها تظنّه بلا نفع. لم تكن تؤمن بقدرات زوجها كصيدلي رغم أن معظم الناس ذكروا أمامها أنه يفهم في الأدوية. هذه المرة كان الحق معها: الزهورات الساخنة ضاعفت ألمه. انسحب اللون من وجهه. عند التاسعة إلا عشر دقائق صباحاً ساعدته على نزول الدرج وذهبا الى الطوارىء. في سيارة السرفيس قال مقطوع الأنفاس: «هذه الزائدة». الطبيب قال «ممكن.» كبس بأصبعين على موضع الزائدة. صاح الصيدلي راجي عازار كأن لحمه تمزّق. أدخلوه غرفة العمليات. استأصلوا الزائدة الدودية قبل دقائق من انفجارها. كانت ملتهبة الى حد الاحمرار، بادئة بالتفسخ. تلك الليلة نامت كلوديا في المستشفى. على الكنبة حد سريره. هي التي أصرّت. أشفقت على أبيها أن يبقى وحده. كان الأمر مكتوباً، يشبه مقطعاً من فيكتور هيغو أو التوراة: قرابة الثانية بعد منتصف الليل أصابها الأرق. انتعلت السكربينة. خرجت تتمشى قليلاً. كان الرصيف رطباً ومعتماً (معظم مصابيح البلدية تحطم أو احترق). أمام المدخل المضاء بالنيون توقفت سيارة. انفتح باب. يد غير مرئية وضعت على الرصيف سلّة. ثم انطلقت السيارة واختفت. كان العالم ساكتاً، خالياً. اقتربت كلوديا خائفة. انحنت على السلّة. رأت طفلاً ملفوفاً. في البدء لم تعرف أنه أنثى.

*

ذهب الصيدلي الأبيض الشعر الى المستشفى من أجل عملية الزائدة، وعاد يحمل بين ذراعيه طفلة عمرها خمسة شهور! ماذا فعل الجرّاحون؟ فتحوا جنبه وأخرجوا من ضلعه طفلة؟ آل عازار سجّلوا الرضيعة على اسمهم. استشاروا «روزنامة القديسين والقديسات» المحفوظة في جارور عند الست كميلة الحويك، وانتقوا لها اسماً جميلاً أجنبياً: مرغريتا. كانت مثل القمر. ضحكاتها وغرغرتها شغلت سكان الطابق السابع عن أخبار الدخول السوري. صارت مركز الحياة في الطابق الفوقاني من بناية أيوب. نساء ندر ظهورهن هنا مثل الستّ عطية والستّ رزق والستّ صعب وحتى الستّ زيدان التي بدأت صحتها تتحسن (نساء من طبقة أعلى ولكنهن ساكنات في الطوابق التحتانية) تسلقن الأدراج يحملن هدايا للطفلة مرغريتا. حتى المدام الجديدة في البناية، زوجة دكتور الجامعة الذي استأجر على السادس بيت البروفسور هاينيكن مفروشاً، حتى مدام معلوف صعدت وهي تحمل هدية ملفوفة بورق لمّاع أبيض وأحمر. الست طانيوس تركت المحل في عهدة زوجها وصعدت مع ابنتيها. ثلاثتهن في ثياب جديدة. اعتذرت الست أم جان لأنها لم تلفّ الهدية. لم يهتم أحد لأنها مكواة ماركة «توشيبا»، أصلية ثمينة بعلبتها، يكفي أن تنزلق على القميص مرة كي يصير ناعماً كالحرير منبسطاً وأملس كورقة. السيد لويس الخوري تأنق وتعطّر ومرّ لحظة وشرب رشفة من فنجان القهوة. أصرّ أن يترك ظرفاً فيه 100 ليرة على الطاولة. اعتذر لأنه لم يشترِ بنفسه شيئاً للطفلة. كان مبلغاً! لكن السيد لويس كريم. حين ذهب تذكرتَ الست الحويك (أقدمهن هنا) المرحومة أم شارل الخوري وأخبرت الجارات كم تعذّبت بسبب مرض السكري. حضرت المرأة الشقراء المهجّرة المقيمة مع زوجها وولديها عند الجوهرجي ملحم صعب. كانت مجهولة بالنسبة إليهن لكنها جلبت باقة ورد أبيض ومع الورود جوارب قطنية وفانلات للصغيرة. إبنة السمكري والناطورة، كوليت زغلول التي نادراً ما تبتسم لأحد، انشرحت أساريرها أمام ضحكات مرغريتا. كذلك إبنة الأستاذ أندريه

موراني، الساكن هنا بينهم على السابع، صارت تخرج من صومعتها وتقعد مع الباقين كي تنظر الى الطفلة. قبل ذلك كانت تخفي نفسها مثل المحابيس وراء باب مغلق. إبن الستّ بدّور الذي يتكلم بالاشارات لأنه أطرش ويهرب عادة الى الزاوية اذا اقترب منه أحد، صار يأتي ويجلس حد المهد وينظر من بين القضبان الخشب الى العينين الواسعتين تضحكان له. سمح لشربل أن يتفحص شاحنته اللعبة مع أن هذا كان سابع المستحيلات من قبل. جوزف الحويك يلازم كلوديا والطفلة ويملّ حين تنام: «لكن من أمّها يا كلوديا؟ أنتِ أم أمّكِ؟». يونس الحويك الذي يشتغل في الكاراج عند نازو الأرمني بات يعود أبكر من وقته المعهود ويركض الى الحمام كي يزيل الشحم عن يديه قبل أن يحمل مرغريتا. الأبواب شُرعت من جديد على السابع. مُدّدت الهدنة وزقزقت العصافير. الناطورة التي كانت تكره الصعود الى هنا واذا مرّت تمرّ ركضاً كي تبلغ شتلاتها على السطح، غيّرت تقاليدها. صار مقصدها السابع لا السطح. كلوديا لطيفة معها وتتركها تحمل الصغيرة. لم يصعد أحد للتهنئة من بيت آل حبيب. لكن إحدى الصبايا الثلاث التقت أم سعيد عازار في المدخل وباركت لها. المهندس ألبر سمعان سافر قبل وصول الطفلة الى المبرومة. الممرضة ليديا ثابت أخت الشهداء المطلّقة بدت كعادتها في عالم آخر وعلى مسافة بعيدة من حياة البناية. كأنها لم تسمع ولم تعرف! مع أن كل حيّ العبد سمع وعرف! الناس لم يتكلموا الا بالخير على آل عازار بعدما تبنوا الطفلة. الأقاويل المسيئة التي تشيع في مثل هذه الظروف اختنقت قبل أن تبدأ. الكاهن جبرائيل نجّار الذي عمّد الطفلة في كنيسة السيدة ظهر متأثراً على غير عادة. لم يكن تبني مرغريتا عازار حالة يتيمة مفردة لأن الأخيار في وقت الحرب والقتل لا يختفون. لكنه تأثّر بسبب جمال الصغيرة. لم تبكِ حين لمستها المياه المقدسة. «باسم الآب والإبن والروح القدس.» تساءل كيف يقدر إنسان أن يتركها في سلّة على باب مستشفى في المطر والبرد! الجدّة المريضة والدة الست كميلة الحويك طلبت صنارتين وخيّطت للطفلة

كنزة زهرية. قالت لإبنها بشارة حين سألها على التلفون اذا كانت زعلانة منه، انها مبسوطة هنا. أوصته أن ينتبه لنفسه في الغربية. استردت الختيارة صحتها وهي تقيس طول الكم الصوف على الذراع البيضاء الجميلة. كلوديا عازار ضحكت كأنها لم تحزن ساعة في حياتها. تركت الشغل عند محامي النحس ولزمت البيت. حين رجع أخوها سعيد من أرض المعركة وجدهم في صحن الدرج الواسع يتحلقون حول مهد أبيض خشب. سأل لمن هذه؟ أمّه التي ارتفعت في عيون البناية كثيراً خلال الأيام الأخيرة، حملت الطفلة وأعطتها له كي يحملها. كلوديا وثبت ووضعت يدها على كتفه العالي. كانت كتلة أعصاب متحفزة. كأن الطفلة خرجت من بطنها.

«تبنيناها من المستشفى.»

ناس السابع صمتوا ينتظرون موقف الأخ المقاتل. سعيد عازار حمل الطفلة ولاعبها. ضحك كما كان يضحك وهو صغير. ركض بها الى هذه الجهة وتلك. رفعها عالياً حتى اللمبة. أخوه شربل أخذ الرشاش من درب الصغار وخبّأه في مكانه وراء الباب. ثم رجع بسرعة كي يحكي مع سعيد ويرى ماذا جلب من الأسواق هذه المرة.

- نهاية الجزء الأول -

الجزء الثاني

مفقودة: غادرت كوليت عبدو زغلول (18 عاماً) منزل ذويها في بناية أيوب في الأشرفية منذ أسبوع ولم تعد. يرجى ممن يعرف عنها شيئاً الاتصال بالرقم 302402.

مفقود: غادر حاتم مرتضى (15 عاماً) منزل ذويه في المنطقة الغربية ولم يعد. يرتدي قميصاً أزرق مرقطاً بزهر وبنطلوناً فاتحاً. الرجاء ممن يعرف عنه شيئاً الاتصال بالهاتف 340044 أو 340961.

مفقودة: تركت الخادمة فاطمة حيان 7 سنوات (هي من مكتب لميا ريحان للاستخدام) منزل مخدومها الكائن في ساقية الجنزير منذ اسبوع ولم تعد. الرجاء ممن يجدها أو يعرف عنها شيئاً الاتصال بالرقم 313135.

مفقود: فُقد هيثم محمد خليل (15 عاماً) أثناء إجلاء المدنيين من مخيم تل الزعتر، وذكر رفاق له أنه فقد في بياقوت وأخذ الى سجن روميه. يرجى ممن يعرف عنه شيئاً الإتصال بالتلفون 348670.

مفقودة: تركت الخادمة هدبة عبد الرزاق علو، عمرها 14 سنة، منزل مخدومها في الزلقا في 23 أيار 1976. يرجى ممن يعرف عنها شيئاً الاتصال نهاراً بالهاتف 260552 او 261029.

مفقودان: فقد الشقيقان عصام وفريد غزاوي نهار الأحد قبل الماضي بينما كانا في منطقة الحمرا. الرجاء ممن يعرف عنهما شيئاً الاتصال بالرقم 366793 أو بأحد مخافر «الأمن الشعبي» وله مكافأة مالية مقدارها خمسة آلاف ليرة.

مفقود: غادر غريغوار شماسيان (52 عاماً) منزله في الاشرفية يوم الثلاثاء الفائت في سيارته (فولكسفاغن رمادية غامقة رقمها 220910) متوجهاً الى شتورة وقب الياس عن طريق قرنايل. وحتى الآن لم يعد. الرجاء ممن يعرف عنه شيئاً الاتصال بأحد الرقمين 330168 و261199.

نداء من أب خطفت إبنته (صورتان شمسيتان): هذا العجوز يدعى شعبان قطفة وقد خطفت كريمته مفيدة قطفة (الصورة- 20 عاماً) منذ 25 أيار وهي المعيلة الوحيدة له. وهو يوجه نداء الى خاطفيها لإعادتها إليه سالمة.

مفقودون: حسين عياش: حسين عياش فقد يوم الجمعة الماضي. الرجاء ممن يعرف عنه شيئاً الاتصال بالهاتف 340493 او 342624 وله مكافأة مالية.

صلاح أبو شهلا: صلاح أبو شهلا (17 عاماً) غادر قبل 6 أيام مركز عمله في شارع فردان ولم يعد. يرجى ممن يعرف عنه شيئاً الاتصال بالرقم 348165 (مكافأة مالية).

يحيى السيد: فقد قبل ظهر أمس الثلاثاء في منطقة الحمرا يحيى عبد العزيز السيد. وهو يرتدي قميصاً أبيض وأحمر وبنطلوناً أسود. الرجاء ممن يعرف عنه شيئاً الاتصال بالرقم 340230 (علي مطر).

مفقود: الحاج ديب عمار (60 عاماً) فقد قبل 20 يوماً في منطقة برج حمود. زوجته وأولاده يستصرخون ضمائر المسؤولين عن الأحزاب في المنطقة ويرجونهم مساعدتهم في معرفة مصيره والبحث عنه. الاتصال بالرقم 255369.

112
آل عطية 6 – الطابق الثالث

وقعت راشيل عطية في الحبّ. كانت المرة الأولى. قبل الحرب، في مدرسة الأليانس، طاردها كثر. واحد فقط أتعبها: سليم بيضا. تخلصت منه حين هاجر مع أهله الى تل أبيب. كان يجلب لها هدايا الى المدرسة. كولونيا وكتب وأسطوانات تنتجها حصرياً شركة عمه في مصر أو ألمانيا. حين أهداها باقة ورد أحمر أخفتها خشية من الناظرة والمدير. كان طويلاً ملآن الجسم يشارك في رمي القرص في نهاية كل سنة. المدرسة كانت تجبر البنات على حضور الألعاب السنوية. لم تتحمل يوماً الشمس والزحمة وضجة التصفيق والهتاف التشجيعي. إختلافها عن بنات صفّها نشأ من خجلها. طالما توترت في قاعة الإمتحان وطلبت إذناً لدخول التواليت. قاومت مقدار ما استطاعت. كرهت أن ترفع يدها أو اصبعها. أرهقتها نظرات السخرية. المشكلة الأخرى كانت تعرّقها الشديد. خصوصاً أثناء المسابقات غير المتوقعة في مادة الكيمياء. «الحمض مع القلويات يعطيك ماء وملحاً. ليس بالضرورة ملح الطعام.» كرهت هذه المادة وتمنت لو تلغى من المنهج الدراسي. الأستاذ عثمان ديشي تعمّد إذلالها: في نصف الحصة ينظر اليها باسماً ويطلب من الجميع إقفال الدفاتر والكتب وإخراج ورقة بيضاء من أجل فحص سريع، ثلث ساعة. في هذه الدقائق العشرين من الرعب المطلق كانت تفقد كل المياه المخزنة في جسمها. في البداية مالت إلى سليم بيضا: بدا بأخلاقه الرفيعة وابتسامته الوسيمة مناسباً لها. لكن الحياة قادرة أن تسخر من البشر: سوء فهم أدى الى سوء فهم آخر وانعطف بالعلاقة في الاتجاه الخطأ. هكذا تباعدا بدل أن يتقاربا ولم تسقط في غرامه. هو في المقابل أوشك من فرط الحبّ أن يصاب بالسلّ أو النزلة الرئوية. السير تحت المطر من وادي أبو جميل الى

آخر الأشرفية ليلة تلو ليلة لم يكن صحيّاً. 40 دقيقة ذهاباً، وأكثر من ساعتين إياباً وهو يتشرد خائباً حيث يأخذه الحذاء.

*

كانت ترتبك اذا صادفت طوني ثابت في مدخل البناية. وترتبك أكثر اذا التقت أحد الأخوين خوري (شارل وجرجي) لأنهما عند رؤيتها يستعملان المصعد. واذا اختارت الدرج يفعلان مثلها. طوني ثابت كان مختلفاً لا لأنه على الطابق الأول (ريمون زخور على الأول ومع هذا يركب المصعد) ولكن لأنه لم يحدق يوماً الى صدرها. كان هذا سبباً آخر للخجل: صدرها الكبير الذي يلفت الأنظار مهما لبست من كنزات سميكة. أخوه الذي استشهد قبله بأيام حاول مرة أن يعصرها وهو يتصنع كبس الزرّ. كانوا ينادونه «للوس» (التحبب لإسم الياس) وحين تراه على الطريق واقفاً في ملابس الكونغ فو مع رفاقه، لا يبدو لها شبيهاً بالشاب الذي يلهث في علبة الأوسنسير. حين انفجرت الحوادث صارت ترى الاخوة الثلاثة يخرجون معاً من البناية مسلحين بالرشاشات. استغربت لانها لا تشاهد الا طوني هنا منذ سكن أخواه في وسط المدينة. بعد جنازة أبيهم رأتهم مرة في المدخل يتجادلون. لم تعرف السبب. كان ايلي يدلّي جزمته العسكرية السوداء على كتفه. وموسى يصيح محمر الوجه. خافت وصعدت الى البيت. لم تقل لأمها انها خائفة على الأستاذ سليمان شرارة صهرهم المسلم الساكن في البناية. كانت تلتقيه على الدرج ويسألها عن أهلها وعن دروسها. ينزع نظارتيه وتراه لطيفاً لا يؤذي حشرة. مع أنه ضخم. حين علق المصعد بين الطابقين الثاني والثالث تمكن من فتح البوابة وأخرج منه أولاد الدكتور نصار والشوفير الحويك والدكتور شحروري. دلّهم الى لوح المصعد (أوتيس- 200 كيلوغرام- ثلاثة أشخاص فقط) وسألهم ماذا يتعلمون في الصف؟ كانوا 10 أو 11. راشيل لم تخبره ماذا يفعلون: يعدّون حتى الثلاثة ثم يقفزون معاً في الاوسنسير كي يتوقف.

*

حين قالت أمّها انه طلّق ليديا وذهب كي يقاتل مع الشيوعيين لأنه شيوعي،

لم تصدقها. يهرب الى الغربية لئلا يُخطف ويقتل، هذا صدّقته. لكن يحارب؟ كانت تراه نازلاً من السيارة مع ليديا قبل بدء الحوادث وهو يضحك. أكثر من مرة سمعته يحكي مع المهندس ألبر سمعان وهما يلعبان الشطرنج على الشرفة تحت نافذتها ويشربان الشاي. كوّنت صورة عن شخصيته. لم يكن مهتماً بالأحزاب. وكان فوق ذلك يتيماً، بلا أب ولا أم ولا أخوة. أمّها قالت انها لا تعرف كيف ستتحمل ليديا مصيبتها. لم تكن تقصد استشهاد أخوتها الثلاثة. كل بناية أيوب تعرف كم تحبّ ليديا ثابت زوجها: في صيف 1973، أثناء سهرة عرس في بيت آل كرم، رقصا معاً أكثر من ساعتين، متلاصقين كأنهما جسم واحد. كان يرفعها أحياناً وهو يشدّها على جسمه. وهي تضحك مثل طفلة. راشيل تمنت أن يحبّها رجل هكذا. في نيسان 1976 تحقّقت أمنيتها: التقت شخصاً.

*

الذكرى التي تحفظها راشيل عطية من تلك السهرة مخبّأة (أو كانت مخبّأة) في جوارير وألبومات وخزائن موزعة على معظم بيوت «المبرومة». الست أنجيل كرم أرسلت الى المدعوين بعد عشرة أيام من السهرة (حفل عشاء راقص) بطاقة شكر وصوراً فوتوفرافية تخلّد المناسبة. 12 صورة في ظرف من الكرتون الأبيض الصقيل. على كل ظرف شريط أحمر مرجاني، فراشة حرير. تسحب طرف الجناح فيتفتح الظرف وحده كبتلات زهرة، وتبين الصور: 6 مخصصة للعروسين (أجملها صورة المائدة) و6 انتقتها بعناية لبقية المدعوين. الثلاث الأكثر تألقاً كنّ: العروس نادية كرم (وبعد الاتحاد بزوجها: نادية الترك) بفستانها الأزرق المصمم في باريس ومجوهراتها المعروضة على صدر عريض. ليديا ثابت شرارة بثوب أصفر يكشف كتفيها وظهرها العاري. وكلاريتا حاوي نسيبة وليام حاوي (اشتهر لاحقاً بصفته رئيس المجلس الحربي الكتائبي) وصديقة العروس منذ الطفولة: فستان برتقالي يبرز بشرتها الحنطية، وأساور من العاج.

113
آل زخور 12 – الطابق الأول

غرفة المكتبة. الزاوية تحتلها تحفة: غراموفون (فونوغراف من تصميم شركة فيكتور الأميركية) صُنع قبل الحرب العالمية الأولى. هدية الى فيرا سرسق من قصر أهلها. صندوق خشب لمّاع يعلوه بوق نحاسي يطلق الموسيقى كنافورة ماء. لم يُستخدم منذ سنوات طويلة. في الغرفة ذاتها فونوغراف آخر بغطاء خشب (بيك اب) أصغر حجماً وأحدث صنعاً يقعد على منضدة مخصصة له. مسح الغبار في هذه الغرفة أنهك الناطورة وإبنتها التي مدّت يد المساعدة. على الكنبات والمكتب وحتى على السجادة يمكن رؤية أسطوانات عبث بها السيد عيسى زخور في ليالي الوحشة: أثناء ملازمة زوجته جوار ولده ريمون في أوتيل ديو، شرب قناني الويسكي الباقية على الدرسوار، دخّن غليونه، واستعاد (بينما الكهرباء تأتي ثم تنقطع) حياة لن تعود.

«يا ناس أنا منيتي حلو» لعبد اللطيف البنا.

«فين يا جميل وعدك» لأبو العلا محمد.

«اسم الله» لعفيفة اسكندر.

«ما دام الساعة» للور دكاش.

8 أسطوانات لأم كلثوم: الأطلال/ الحب كده/ يا مسهرني/ فاكر لما كنت جنبي/ أغاني وطنية/ لا يا حبيبي (حفلة)/ أجمل 27 أغنية/ أنت عمري.

8 أسطوانات لفيروز: الجمعة الحزينة/ أندلسيات/ المحطة/ اسهار/ ناطورة المفاتيح/ بنت الحارس/ أحلى ما غنت فيروز/ القدس في البال.

*

حطمه العجز. في نصف الليل كان يستيقظ على أنين يتسرب من الغرفة في طرف الممر. تبعته الرائحة الفظيعة من بيروت الى فرنسا. العمليات هنا لم تكن أسهل: علاج الحروق طويل. حاول أن يبقى قوياً. من أجل إبنه. ومن أجل فيرا. لكنه أدرك أنه لا يستطيع. عجز عن التعامل مع الوضع. حين نزعوا الشاش عن وجه ريمون لم يعرفه.

*

تُصنف الحروق درجات. حرق الدرجة الأولى هو الأبسط. سطحي على البشرة. تحمر يدك ثم تشفى في وقت قصير. حرق الدرجة الثانية فئتان: الفئة الأولى أخفّ من الثانية. الجلد يحترق ويتبدل لونه الى أبيض. تصل الإصابة الى اللحم والعضل. من دون مراهم وأدوية تتعذب زمناً طويلاً. وحتى مع هذه لا يذهب الألم. حروق الدرجة الثالثة هي الأقسى. قاتلة. تتوغل في الأنسجة الحيّة حارقة العضل حتى تبلغ العظم. لا يتلوّن الجسم بالأبيض. يتفحّم مسودّاً.

*

نصحوهم بنقله الى مستشفى مونبولييه المختص بعلاج الحروق وزرع الجلد. الدكتور الذي يتولى علاجه في باريس شرح لهم ان هذا غير ضروري لأن العلاج هنا مثل العلاج هناك ولا ضرورة إطلاقاً لإنهاك المريض بالسفر. كان بارعاً، أربعينياً، واثقاً بعلمه. سلخ جلداً من مؤخرة ريمون وردفه، وزرع القطع في ذراعه وبطنه. الأدوية المضادة للإلتهاب منعت موته. أفلح في وقف النزيف. بعد ذلك بدأ يُصلح وجهه. اكتشف ان العين اليسرى فاقدة للرؤية. استدعى طبيب عيون أكّد (بعد فحص دام ثلاثين دقيقة) أنه عطل دائم: الشبكية محروقة. خلال شهر واحد استطاع ترميم القسم الأكبر من إصابات جذعه. أجّل رحلة الى مؤتمر طبّي في هاواي كي يعتني به. كان يدعى غاستون

كوربليه ويجد معنى حياته (مثل الأطباء الإغريق) في شفاء الغير. استشار بالتلفون زملاء في «مستشفى كاليفورنيا التجميلي»، ثم سأل الأخت التوأم للمريض هل هي مستعدة للتبرع بتسعين سنتمتراً مربعاً من جلدها؟ سألته هل العملية موجعة وأي أثر ستترك في جسمها؟ ارتعش صوتها. رأى قطرة عرق تتشكل على رقبتها. شرح لها أنها ستضطر للبقاء في العيادة ليلة واحدة وأن كل شيء سيحدث تحت البنج. لكن عليها بعد ذلك أن ترتاح أربعة أيام في سريرها وأن تأخذ أدوية. سألته عن الأثر؟ «ندبة بطول الاصبع. مثل عملية التوليد القيصرية. ليس أكثر.» أمّها تركتها تفعل ذلك. أبوها شعر بالصدمة. لم يكن يعلم أن هذه الأشياء موجودة في العالم! الألم فتك بريمون بعد العملية التجميلية في جانب وجهه الأيسر. الدكتور كوربليه أبقاه في المستشفى ثلاثة أسابيع ثم سمح لهم بنقله الى البيت. الممرضة أناييس التي حصلوا عليها بعد تقديم طلب الى المستشفى وطلب آخر الى شركة التأمين لازمت ريمون زخور 24 ساعة. تصحبه الى المستشفى في عربة الإسعاف ثم ترجع معه. أعطوها غرفة تجاور الغرفة التي خصّصوها له. كانت غرفة نادين لكن نادين هي التي رتبت كل شيء. لولا اهتمامها كان عيسى زخور يبكي محبطاً. صادقت الممرضة مع أنها عموماً لا تصادق جنس الإناث بسهولة. رافقت الإثنين في الرحلة الدورية الى المستشفى. الجلد الذي أخذوه من ردفها (أقل من 80 سنتمتراً مربعاً) ردّ الى أخيها قسماً من ملامحه. عرجت فترة قصيرة. عانت عند الجلوس على كرسي المرحاض. لا فيرا ولا عيسى تمكنا من البقاء جنب ريمون بعد فك الشاش عن وجهه ورقبته. زوجته استهلكت طاقتها في بيروت. حين تسلقت الطائرة الجو محلقة فوق الدخان الأسود سمعها تزفر ثم تشهق. أعطاها من أدوية ريمون. منذ تلك اللحظة لم تتوقف عن بلع المهدئات. تدريجياً استعادت بعض التوازن. ابتعدت عنها نوبات البكاء المباغتة. حقّقت ذلك بالخروج من حياة البيت. استرجعت عملها في مركز غولبنكيان. تركت شؤون المنزل للخادمة دوريس والممرضة أناييس والأخت

نادين. عيسى زخور أخافه انسحابها السريع: خشي أن تكون مقبلة على انهيار عصبي. ماشياً في شوارع الدائرة الخامسة، ذاهباً الى مقهاه المفضل على ضفة السين، انتبه انه لا يرى الناس ولا المتاجر ولا جمال الأبنية. كان مطرقاً بطيء الخطوة ثقيل الروح. اهتزاز المترو يسبّب الصداع. رشف فنجان إكسبرسو وتصفح الفيغارو. أخبار لبنان على الصفحة الأولى. مربع في الوسط. أبعد الجريدة. فتيات راكضات في شورتات. سيقان ممشوقة. نظر الى مركب بخاري يقطع النهر. بدت العمارات جامدة مهجورة. لم يلمس الكرواسون. كان العالم رمادياً كالحاً ورائحة الجو تنذر بالمطر. اقترب جرسون وسأله هل هو بخير.

114
آل ثابت وشرارة 9 – الطابق الأول

حلقة مفاتيح تتعلق من مسمار حد المغسلة. أحياناً، أثناء غياب ليديا ونوم أم موسى، يستخدمها كي يفتح غرفة طوني. الحيطان عارية. السريران بلا أغطية. فرشتان كثيبتان بلون أخضر فستقي. لا مخدّات ولا بطانيات. ليديا نظّفت المكان قبل أن تغلق الباب. غرفة اسبارطية. الخزانة مقفلة. لم تجد ليديا الوقت (القدرة؟) كي تجمع الثياب في صناديق كرتون أو أكياس نايلون وتتبرع بها لجمعية. فكرت ان تعطيها للناطورة ثم انتبهت أنها لن تتحمل رؤية السمكري أو أي أحد آخر لابساً القمصان الملونة التي كانت تشتريها لأخيها. في الزاوية تحت النافذة الموصدة بحجارة الباطون وأكياس الرمل: طاولة وكرسي. بلا طلاء. شغل النجّار موسى. أثناء الأسابيع الأخيرة التي سبقت مقتله نام هنا على السرير الأقرب الى الخزانة. ايلي كان ينام على كنبة الصالون. الحرب ردّتهما الى البيت. ثم سحبتهما مع الأخ الأصغر الى المقبرة. بقيت على الطاولة أربعة كتب وأجندة مدرسية مجلدة بغلاف نبيذي.

الغبار طبقة سميكة. رفع كتاباً. سقطت منه صورة. جلس على الكرسي ونظر اليها. طوني مع خطيبته (ندى) في ملعب مسقوف. نادي أبناء نبتون. قبل مدرسة زهرة الاحسان. في الخلف تتجمع كومة من كرات السلة. ضخمة. برتقالية مخططة بالأسود. طوني يلفّ ذراعه حول كتفيها. يجذبها اليه. فانلة بيضاء وشورت أديداس كحلي. لا ينتعل حذاء. لكن الجوارب الرياضية تصل الى ركبتيه. على مقاعد التشجيع يجلس ثلاثة أو أربعة أشخاص وهم يشربون مرطبات. تنظر في ذلك الاتجاه. وجهها ضاحك. تنورة قصيرة وبلوزة بيضاء وزنار رفيع. فوق كومة الطابات أُلصق على الحائط جدول تدريبات أو برنامج دورة رياضية.

❋

اتفقا على موعد أمام سينما الأمبير. وصل قبل الموعد بساعة. شرب كوب جلاب واقفاً على الرصيف ينظر الى الناس والسيارات. تأكد من لمعة الصباط. فحص هندامه في زجاج الباتيسري جنب مبنى الشرطة. تأمل دكاكين تجمع بضائعها وناساً يعودون الى بيوتهم وشرطي سير يترك موقعه بحلول المساء. أضيئت المصابيح عند تمثال الشهداء. توافد الأزواج الى السينما ولم تأتِ. راقب الأيدي تتماسك وهي تلج الظلال. وقف في الباب يحمل التذكرتين في يده. سعل من رائحة السمن المحترق في ماكينة البوشار. ظلّ هكذا أكثر من ساعة كاملة بعد بدء العرض. اعتقد أنها ستصل ولو متأخرة. لم تأتِ. عاتبها في المدرسة وسألها كيف تعده ولا تجيء. جلست ساكتة. حين أخبرها أنه ظلّ ينتظرها حتى انتهى الفيلم سألته لماذا لم يدخل ما دام اشترى التذكرة؟

❋

عذّبته كي تتأكد. حين باح بحبّه ضحكت. أصابعها لم تتوقف عن اللعب بقلادتها الذهب.

«أعرف يا طوني.»

لم تخبره أنها راقبته في ذلك المساء وهو ينتظرها أمام السينما وهي قاعدة في سيارة رفيقتها في الجهة الأخرى. حتى بعد أن بدأت تحبّه بالفعل وتتخيّله زوجاً لها في المستقبل كتمت ذلك السرّ. ظلّت كلّما عبرا أمام سينما أمبير أو أمام أوتيل ريجنت تفتح فمها كي تخبره ثم تتراجع في اللحظة الأخيرة. اصطحبها الى المنشرة وراء الريفولي كي تتعرف الى أخيه الكبير. جلب موسى ثلاثة مقاعد قش وجلسوا في المدخل. أرسل صبياً جلب لهم بوظة. أكلوا وضحكوا (طوني خصوصاً) بينما موسى يخبرهم عن صاحب دكان حد المنشرة ذهب كي يتصيد وانقلب به القارب وتصيّده ناس في عين المريسة قبل أن يغرق. لكنه منذ أيام لا يفتح المحل، خوفاً من سخرية جيرانه على الأرجح.

❋

زار البيت فوق التعاونية الاستهلاكية. تعرّف الى أهلها. أدخلته غرفتها. من النافذة رأى عربة الكعك أمام غومون بالاس. طلبت منه أن يجلس، وجلست قبله على الكرسي الوحيد. تحيّر ثم جلس على حافة السرير. كانت السماء زرقاء- برتقالية. الشاحنات التي تعبر جسر فؤاد شهاب هزّت الهواء. سألته هل أحبّ أهلها. لم تنتظر جوابه. أخبرته أنها في الليل تستيقظ أحياناً بسبب الجسر وحركة المرور. كل كميونات المرفأ تتحرك بعد العاشرة ليلاً. سألها أين تنام أختها؟ كان يشعر بالحرج لأنه في غرفتها وأهلها وراء الباب.

«أنا لا أكفيك؟»

❋

أخذها الى المستشفى كي تتعرف الى ليديا. غدرهم الطقس. تساقط المطر غزيراً على زجاج الكافيتريا. أعتم المكان مع أنها الظهيرة. شعشعت اللمبات على دكاترة يتناولون طعامهم ويضحكون. بدت ليديا غير سعيدة. ظلّت تنظر الى ساعتها طوال الوقت. شعر بالقلق والتوتر. حين استأذنت

وقالت انها سترجع بعد دقيقتين خاف أن تتهجم عليها ندى في غيابها.

«أختك جميلة جداً. أنت لم تقل لي!»

«ليست أجمل منكِ.»

«بالتأكيد ليست أجمل مني. لكنها جميلة.»

ضحكاتها أزالت قلقه. عادت ليديا تحمل صينية عليها علب كسترد ورزّ بحليب. ابتسم وهو يتناول الصينية. قالت انها كانت على التلفون. عادة يمرّ عليها سليمان في هذا الوقت. لكنه اليوم لم يقدر أن يترك المدرسة. سألتها ندى أين يعلّم وانساب الحديث.

❋

بعد مدة ذهبوا أربعتهم معاً الى مسرح جامعة القديس يوسف. شاهدوا «روميو وجولييت». فرقة فرنسية أضحكتهم باللفظ الانكليزي. أثناء الاستراحة وقفوا في الخارج على بساط من الزهور المتساقطة. لاحظ الحرارة التي تبديها ندى وهي تتكلم مع صهره واستغرب الأمر. انتهت حيرته آخر الليل حين صار وحده معها أمام باب بيتها. مكثا في السيارة يتبادلان القبل في ظلال الجسر العملاق.

«أختك غريبة قليلاً.»

«ليديا غريبة؟ لماذا؟»

«ماذا ترى فيه كي تحبّه؟»

❋

أكثر من مرة تجادلا بهذا الشأن. لم يفهم موقفها المسبق. كانت حادة. لم يصدق أن السبب دين سليمان (عندها رفيقات مسلمات). حين سألته لماذا لم ينجبا بعد، تضايق وسألها لماذا تتكلم بهذه الطريقة.

«أي طريقة؟»

«صهري عزيز عليّ مثل أخوتي تماماً. لماذا تتكلمين عنه كأنه عدوكِ؟»
«أنا؟»

115
آل صعب 5 – الطابق الثاني

انتظر ملحم صعب كي يعرف كيف ستتطور الأمور. خاف أن يتسرع ويخسر. تجار الوسط التجاري الهاربون توزعوا بشكل أساسي على منطقتين: رأس بيروت (الغربية)، والأشرفية (الشرقية). بعضهم فتح متاجر جديدة. وبعضهم مثله اختار التأني. حين أحرقوا سوق الجميّل بدأ يخطط لاستئجار محل في سوق الصاغة ما ان تتوقف المعارك. زوجته سألته لماذا لا يفتح في الأشرفية. أخبرها عن واحد يعرفه، فتح في عبد الوهاب الانكليزي. «وأنت؟» قال إن الوقت غير مناسب وانه يخاف خسارة كل ما معه. أخفى عنها السبب الحقيقي: وجد الأشرفية غريبة. لم يحبّ حيّ العبد. عاش حياته بين القنطاري والوسط. عندما بدأ النهب في حيّ القنطاري وأذاعوا في الراديو عن البيوت التي تحترق قالت زوجته نجونا من خروم الشبك. كانت على حق: خرجوا قبل وقوع الكارثة. تلفن له السيد عرفان خير الدين وسأله عن صحته وصحة أولاده وسأله هل يرى جاره المهندس ألبر سمعان. دلّه بالتلفون الى مكان البناية في القنطاري وطلب منه ان يخبره هل احترقت. وعده السيد خير الدين أن يمرّ هناك وينظر. كانت ضربة قاسية. في طرقات القنطاري قضى طفولته وشبابه. يراها في المنامات ومرات يستيقظ في الليل محصور البول ويسعى الى الحمام منعطفاً صوب اليمين فيجد نفسه في المطبخ! أمام البراد! من بدّل موقع الحمام وهو نائم؟ زوجته أيضاً تحنّ الى البيت القديم حيث رزقت بأولادها. انقطعت خطوط الهاتف فترة ثم اشتغلت. حين عرفوا ان البناية نُسفت لم يفهموا. سرقوا البيوت والمتاجر،

هذا مفهوم. لكن لماذا النسف؟ ماذا ينفعهم هدم المنازل؟ لم يفقد الأمل في فتح دكان في سوق الصاغة. قرأ الجريدة في نيسان وفكر ان الحرب يجوز أن تتوقف. مرّ على المحل الذي فتحه جاره غسان زيدان واشترى بقلاوة. رأى مدام زيدان التي كانت من قبل مريضة واقفة وراء صينية الكنافة تملأ الكعكات للزبائن وتسقيها قطراً ساخناً رائحته ماء زهر. كان ينتبه للمصروف ويتقشف ما أمكن لكنه يجد تكريم ضيوفه واجباً أيضاً. تعارك مع زوجته أكثر من مرة. لم يقبل طردهم الى حيث لن يتمكنوا من تدبير أمورهم (مجمعات الكسليك). كانت هذه العلة الوحيدة في زوجته: تقدر أحياناً أن تكون بلا قلب. اعتقد أنها ستتآلف بالتدريج مع العائلة الصغيرة المنكوبة. رجاها ان تتحمل بانتظار ان تهدأ الأوضاع ويتاح لهم الرجوع الى بيتهم. حتى لو وجدوا البيت مخرباً، الأرض أرضهم وينصبون خيمة وفي أيام يبنون غرفة باطون وبعد ذلك يزيدون كلما استطاعوا غرفة. لاعب وديع وجميلة أكثر مما يلاعب أولاده. في الملجأ يأتي وديع ويجلس جنبه على الفرشة. يتكوم مثل القنفذ ويسأله متى سيتوقف القصف؟ جمع الصغار في السيارة وأخذهم على طريق جونيه أثناء هدنة. ركن السيارة ونظر اليهم يركضون سعداء في بستان. أشجار مثمرة وأرض مخضرة. عصافير وبحر وشمس. كانت خطته بسيطة: أن ينتظر حتى تتوقف المعارك ويفتح متجراً في سوق الصاغة وينقل سكنه. غدروه وأحرقوا سوق الصاغة أيضاً.

*

سهل أن تتخيله. الأسواق العثمانية المسقوفة ما زالت موجودة: بازارات أسطنبول. أو سوق الحميدية في دمشق. تجدها في حلب وطرابلس وحتى في صيدا. الياس كانيتي وصفها حين زار مراكش. زحمة الألوان والروائح والأصوات. بهجة المكان الذي يعجّ بالبضائع والبشر. لكن سوق الصاغة اختلف عن أسواق بيروت الأخرى. ليس سوق النورية أو سوق الطويلة أو سوق القزاز أو سوق اياس. في مدخله باب حديد مطرق يقفل ليلاً. أعلى

الباب قوس حديد تزينه حروف سوّدها الزمن: «سوق الصاغة والجوهرجية». الطريق مبلّطة حجراً. باتت زلقة في بعض الأماكن. دعسات الناس. عقود وقناطر تظلل واجهات زجاج يبرق فيها الذهب وتلمع الفضة وتتلألأ المجوهرات. مصابيح تنير وسائد مخمل. أساور وقلادات وساعات. خواتم تتعلق من خيوط حرير. لافتات نيون وسجاد أحمر في مدخل متجر عميق تفقد معاشك الشهري وأنت تشتري أرخص قطعة في خزائنه الجميلة.

*

جريدة الاربعاء 14 نيسان 1976: وساطة فلسطينية بين دمشق والأحزاب. تجميد الوضع الأمني يجمد التقدم العسكري السوري ويفتح معركة الرئاسة. اتصالات بين بيروت ودمشق لتفادي كسر العظم بالاتفاق على مرشح يرضي «الناخبين الكبار».

أول الهدنة الممددة: 23 قتيلاً و27 جثة. اشتباكات متقطعة في بيروت والضاحية الشرقية. وتراشق بالمدافع في الضاحية الجنوبية. في اليوم الأول من الهدنة الممددة استعادت بيروت هدوءها النسبي كذلك الضواحي، اذ استقرت الحرب وانحصرت عمليات القتال في الرمايات المتقطعة وتبادل القنص وعاد المواطنون الى حال «اللاحرب واللاسلم» يتحركون ضمن أحيائهم ومناطقهم.

محاور المنطقة التجارية من باب ادريس والمرفأ والريجنت أوتيل الى الريفولي والأوتوماتيك وساحة الشهداء مروراً بشارعي فوش واللنبي، سادها قبل ظهر أمس هدوء حذر تخللته عمليات قنص محدودة نشطت بعد الظهر ورافقها تراشق متبادل بالرشاشات الخفيفة. ولم يبلغ عن وقوع ضحايا في هذه المحاور نظراً الى انعدام الحركة فيها باستثناء المقاتلين المتمركزين خلف مواقعهم ومتاريسهم ونظراً الى بعد هذه المحاور عن الأحياء الآهلة.

محاور طريق الشام من المتحف الى الناصرة وسوديكو ورأس النبع

ومحمد الحوت حتى بشارة الخوري ومحاور المنطقة التجارية، نشط فيها القنص وبعض الرمايات التي استهدفت أحياناً التجمعات السكنية مما أدى الى مقتل تسعة أشخاص وجرح 11 آخرين.

وكانت وقعت اشتباكات محدودة قبل السادسة صباح أمس بين برج المر وبناية رزق في الأشرفية تخللها سقوط عدد من القذائف في المنطقتين الشرقية والغربية وامتدت الاشتباكات فشملت محاور ساحة الشهداء وميناء الخشب والشوارع المحيطة به.

وعثر أمس على ثلاث جثث خلف مبنى الأوبرا كما عثر على خمس أخرى موزعة في بورة التيان والمرفأ وقرب مبنى الأمبير وفي سوق أبو النصر وشارع بشارة الخوري.

ولا تزال المنطقة التجارية بمنازلها ومتاجرها ومكاتبها هدفاً لعمليات السطو المنظمة التي تجري في وضح النهار. ومن بين المحلات التي تعرضت للسلب محل سامي سعادة في خان أنطون بك (لوحات نيون).

من جهة أخرى هددت «القوات المشتركة» بالسيطرة على منطقة المتحف وقصر العدل اذا استمرت عمليات الخطف على الهوية، واذا لم تضع قوات الأحدب (الجيش اللبناني) حداً لهذه العمليات. وكان عشرات المواطنين خطفوا في هذه المنطقة في الأيام الأخيرة.

وقالت مصادر كتائبية ان اشتباكات وقعت في ساعات الصباح الاولى في المنطقة التجارية واتهمت مسلحين يساريين بالتسلل من ناحية المعرض والتياترو الكبير الى سوقي الصاغة وأبو النصر «وقد حطموا الابواب بقصد السرقة فشبت حرائق في بعض المحلات خصوصاً تلك التي تحوي مواد قابلة للاشتعال في سوق أبو النصر». وأضافت ان النار استمرت مشتعلة حتى الظهر لعدم تمكن رجال الاطفاء من الاقتراب من المكان بسبب الرصاص. وذكر بعض الصاغة انه لا يتوقع ان يكون السارقون قد غنموا مصوغات كثيرة

لأن أصحاب المحلات كانوا أفرغوا محلاتهم من محتوياتها قدر الامكان.

وذكرت المصادر الكتائبية انه سقطت بعض قذائف الأر بي جي قرب دير الناصرة وفي شارع عبد الوهاب الانكليزي كما سقطت قذائف أخرى قرب السيار.

الشياح- عين الرمانة: اطلاق النار في جبهة الشياح- عين الرمانة لم يتوقف طوال النهار اذ اشتعلت المحاور الممتدة على طول طريق صيدا القديمة برصاص القناصة الذين تضاعف عددهم فشلوا الحركة في احياء المنطقة من المازدا والداتسون الى معملي الريحة وغندور مروراً بشارع عبد الكريم الخليل وساحة البريد وصنين والمطاحن. وقد قتل أربعة أشخاص وجرح 13 آخرون، كما عثر على خمس جثث محروقة في سيارة على مستديرة الطيونة وعلى ثلاث على مقطع السكة الحديد في الشياح وعلى جثة في مشاتل شمص. وكان ليل هذه الجبهة هادئاً نسبياً سجل سقوط أربع قذائف صاروخية على الشياح.

وجاء في بيان ل«النمور الاحرار» انه جرت عند الظهر محاولة للتسلل في اتجاه مراكزهم في المازدا والداتسون فوقعت اشتباكات عنيفة بالقذائف الصاروخية والهواوين. وقال البيان: «وقد ردت قواتنا المتسللين وسمعت سيارات الاسعاف تنقل المصابين منهم.» وأضاف ان مركز النمور الاحرار في معمل الريحة سجل تراشقاً عنيفاً في الليل بينه وبين معمل غندور وقد أسكت المتمركزين في المعمل الاخير بعدما استخدم القذائف الصاروخية والمدافع الرشاشة من عيار 127 ملم.»

واتسعت أمس الرمايات الكثيفة من مختلف الاسلحة في محاور جبهة الحدث- الليلكي- حي السلم- كفرشيما- الرمل العالي ورافق هذه الرمايات تراشق مدفعي بالصواريخ والهواوين وقذائف الار بي جي مما أدى الى احتراق منزل في الرمل العالي اخترقته قذيفة فقتل في داخله ثلاثة

أشخاص. كما سقط في محاور المنطقة سبعة جرحى حالهم خطرة. وقد عثر على جثتين تحت جسر كفرشيما بين السيارات المحطمة.

وذكر بيان لنمور الاحرار انه بعد اشتباكات الفجر على محاور حنين- الريجي- سان جورج تجدّدت الاشتباكات في الحادية عشرة قبل الظهر «واستعملت فيها المدافع الرشاشة وتساقطت القذائف على مراكز النمور وعلى الاماكن الآهلة وردت بطاريات ومدافع النمور على مصادر النار.» وقال البيان ان «الاشتباكات استمرت متقطعة حتى المساء في جبهة الحدث وكفرشيما حيث صدت قواتنا محاولات تسلل.»

الجبهة الشرقية: الضاحية الشرقية شهدت أمس فترات هادئة نسبياً وأخرى ساخنة في حين لم يتوقف القنص بين الدكوانة وتل الزعتر، وبين الدكوانة والنبعة وسن الفيل، وتبادل المقاتلون هناك بعض قذائف الهاون والصواريخ مما أدى الى مقتل أربعة اشخاص وجرح تسعة آخرين. وقد عثر على جثتين قرب مخيم تل الزعتر وعلى ثلاث في حرج ثابت وعلى إثنتين في محلة الفنار وقرب مشاتل عزام.

كذلك حصل تراشق بين الحازمية وجسر الباشا استخدمت فيه الاسلحة الرشاشة الخفيفة والثقيلة فقتل شخصان وجرح ثلاثة آخرون. وعثر على جثة محروقة في بستان تحت جسر الباشا.

وكان وقع خلال فجر أمس اشتباك في محلة سلاف قرب الدكوانة استمر نصف ساعة كما جرى تراشق بالرشاشات بين النبعة وسن الفيل ما لبث ان توقف في ساعات الصباح وحل محله القنص. وأدى الاشتباك الى مقتل امرأة تعرف باسم أم جاك في شارع مار الياس.

مخطوفون: على صعيد المخطوفين في المنطقة جرى أمس تبادل اطلاق جميع المخطوفين من الطرفين وتم ايصالهم الى حدود المناطق الآمنة. كما تردد ان السريان أطلقوا جميع المخطوفين المحتجزين لديهم من سكان

النبعة.

وأصدر مكتب الاعلام الكتائبي في سن الفيل بياناً ذكر فيه «ان النهار كان هادئاً نسبياً تخللته رشقات من أسلحة خفيفة وثقيلة في حين كان القنص كثيفاً في مختلف أحياء سن الفيل.» وجاء في بيان لنمور الاحرار ان مراكزهم تعرضت لعملية تسلل من مخيمي تل الزعتر وجسر الباشا في اتجاه معمل الصابون وصدوها مع حلفائهم بهجوم مضاد. وقال البيان «ان القنص من جهة النبعة لم يتوقف على محور الصالومي الذي تسيطر عليه قوات النمور الاحرار التي أنقذت امرأة أصيبت برصاص القنص.»

احتجاج للجبهة الشعبية على احتجاز أعضاء منها: أذاعت أمس الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بياناً اتهمت فيه القوات السورية باعتقال عدد من أعضائها ولا سيما ابراهيم ابو ثائر منذ حادث شاتيلا في 8-4-1976.

مرعي يندد بالتدخل السوري في لبنان: القاهرة- و ص ف - صرح السيد سيد مرعي رئيس مجلس الشعب المصري في اجتماع سياسي عقد أمس ان «مصر ترغب في اقامة علاقات جيدة مع كل دول العالم لكنها ترفض في الوقت نفسه أن يتدخل أحد في شؤونها الداخلية.» وتطرق الى الخلاف المصري- السوفياتي فقال «اننا نفتح الباب امام علاقات متوازنة مع الجميع شرط ان يمتنع الاتحاد السوفياتي عن التدخل في شؤوننا الداخلية.» وأشار مرعي الى حملات الصحافة السوفياتية على مصر وقال «ان الاتحاد السوفياتي تمكن بفضل مصر ان يكون له نفوذ في الشرق الاوسط.» وتحدث عن سياسة الولايات المتحدة ازاء مصر فقال انها تطورت «ايجابياً ولكن مع بطء» واشار الى «قبول الادارة الأميركية ببيع مصر 6 طائرات نقل ودعمها اياها مالياً.» وعن لبنان ندّد مرعي «بالتدخل السوري ضد التيار الوطني التقدمي اللبناني والفلسطيني.» وأكد تمسك مصر «بحل لبناني صرف.» وأشار أخيراً الى اسرائيل وما قيل عن امتلاكها 12 قنبلة ذرية فقال:» ان اسرائيل تخطىء اذا

كانت تعتقد انها تستطيع ان تحافظ على غزواتها التوسعية بامتلاك السلاح النووي.»

قتيلان في شارع باستور: وجد أمس شارل منسى (67 عاماً) وشقيقته ماري منسى لمع(53عاماً) مقتولين في ظروف غامضة في شارع باستور. وقد وجد شارل في إحدى البنايات، وماري في منزلها في بناية خليل عفيش.

سفريات الرمال الذهبية: إقامة مجانية في لندن لمدة أسبوع. تذاكر سفر. حجز فنادق. تأجير سيارات. تعلموا الانكليزية مدة شهر بمبلغ 200 باون استرليني.

للمعلومات بيروت ت 254108.

لندن 349591.

116
آل سمعان 7 – الطابق الثاني

أطلّ الباص الذي تؤمنه شركة الميدل إيست في تمام الساعة الخامسة فجراً. شعر المهندس ألبر سمعان بالخوف. كان ينتظر واقفاً بين حقيبتين كبيرتين على رصيف «المبرومة». قسم منه صلّى ألا يأتي الباص. ودّ لو حجز على باخرة وسافر بالبحر من جونيه. هاجمه احساس أنه لن يبلغ المطار. نزل حمّال من الباص المطبوع على جنبه أرزة وطائرة (شعار طيران الشرق الأوسط). ساعده على رفع أغراضه. كان حيّ العبد نائماً والسوق معتماً ومقفلاً. لمح بيك اب محمّلاً بالخضر والفاكهة متوقفاً في الزقاق. مصباحه الداخلي مضاء والبائع (يعرف وجهه لكنه يجهل إسمه) يسكب قهوة في غطاء «الترمس» المعدن. سأل نفسه هل يراه مرة أخرى؟ ارتعش جسمه. وقف شعر بدنه.

*

دارت البوسطة على أحياء الأشرفية. جمعت ركاباً وموظفي مطار وثلاثة رجال درك بلا سلاح. تضاءل خوفه مع امتلاء المقاعد. سلكوا طريق العدلية. بانت سيارات محروقة وبنايات شلّعها القصف. تحت الجسر حطام وكلاب نافقة. توترت الوجوه. الشوفير حاول طمأنة الركاب. نظر اليهم في المرآة وأكّد لهم أن القنص لا يبدأ قبل السادسة. ساعة ألبر سمعان بدت فجأة مهمة. لم يفهم العقربين. لم يفهم الأرقام الرومانية. لم يفهم ماذا يحدث ولا لماذا يشلّه الخوف على هذا النحو. اكتشف شاعراً بأسى عظيم أنه جبان.

*

أوقفهم حاجز على طريق المطار. عرف من الصور على البراميل أنهم في المنطقة الغربية. سال العرق تحت إبطيه. صعد مسلح الى الباص وتكلم مع السائق. كانت لحيته ضخمة سوداء تأكل وجهه. حدج الركاب بنظرة شرّ مطلق. ثم قفز الى الطريق. الشمس معلقة فوق الجبال، ثلث القرص فقط. وسكينة الصباح تمتد الى ما لا نهاية. «سوف نُخطف»، قال الصوت في رأس ألبر سمعان.

*

ثلاثة ملثمون بانوا من داخل الحاجز (مكعب اسمنت مثل المكعبات التي تحوي تحويلات التلفون والكهرباء). يحملون رشاشات على أكتافهم مثل المعاول. كأنهم ذاهبون الى الحقول. غامت الرؤية. تغطى الزجاج بأنفاسه. «لن أرى أولادي.»، قال الصوت.

*

لكن الباص تحرك والملثمون وقفوا يتفرجون. لم يفتحوا النار. أحدهم أخرج علبة دخان من جيبه وبدأ يضيّف رفاقه. حلف ألبر سمعان اذا بلغ الأمان ألا يرجع الى بيروت.

*

لم تستغرق الطريق من بناية أيوب الى باحة المطار أكثر من ساعة. كان الباص يطير كلّما تجاوز حاجزاً. مع هذا لم يصدق ألبر سمعان ساعته. ساعة فقط؟ شعر بها أطول من حياته كلّها. في قاعة المطار فتح حقيبة وأخرج علبة كلينكس ومسح وجهه ورقبته. رمقته موظفة بنظرة غامضة وهي تتفحص التذكرة وجواز السفر. من شكلها عرف أنها مسلمة. خاف أن تمنعه أو تشير الى شخص ما ويأتي المسلحون ويؤخذ الى حيث لا يعلم. الركاب خلفه لم يزرعوا فيه طمأنينة. حتى بعد أن جلس في مقعده في الطائرة المتوجهة الى قبرص ظلّ قلبه يقرع في دماغه. خاف أن يقتله الرعب. جلبت له المضيفة كوباً من عصير البرتقال. ارتفعت الطائرة في الجو. اختفت المدينة المخيفة تحت الجناح. انتشر اللون الأزرق. شرب الكوب. أغمض عينيه لحظة. اهتزّت الطائرة. أعلن الكابتن في المذياع: «نحن نستعد للهبوط في مطار لارنكا. الرجاء ربط الأحزمة.» ألبر لم يصدق. ظنّ أنها خدعة. حين تجاوز رجال الأمن القبارصة بقمصانهم الزرق وبناطيلهم الرمادية بكى بلا خجل. رحلة بيروت- لارنكا دامت 25 دقيقة. زوجته وأولاده ركضوا اليه. جاكوب سبق أليزابيث وهنري. متى صار شعره طويلاً كالبنات؟ قفز على ساقيه ثم تسلّقه وتعلّق برقبته. ركع ألبر سمعان على البلاط. كان بلا طاقة. ربما اعتقدت أنه يبكي تأثراً وشوقاً. أليزابيت أخبرته وهي تلثغ بنصف الحروف أنها عطّلت ولم تذهب الى مدرستها كي تستقبله في المطار. هنري صافحه ثم عانقه. في السيارة أصرّوا أن يركب معهم في الخلف. ربما ساقت مسرورة طوال الطريق، وحدها في الأمام، من لارنكا الى ليماسول، وعلى المقعد جنبها شبح لا يراه أحد.

*

من كان الشبح الجالس في المقدمة؟ من كان ألبر سمعان القاعد في الخلف؟ أولاده أنشدوا أغنية قبرصية احتفالاً به. كلمات غريبة وإيقاع يوناني.

راديو السيارة خشخش بالقبرصي. تراكض البحر عكس السير. لا حواجز ولا قنص. الأصوات تأتي من بعيد. انشطر نصفين على طريق المطار.

❊

فار الزبد على الشاطىء. رمل غريب شبه أسود. مظلات ملونة غير مفتوحة. شاليهات مطروشة بالكلس. دكاكين قش لبيع البوظة والمرطبات. استغرق الإنتقال من بناية أيوب(بيروت) الى مجمع أندريا السكني (ليماسول) صباحاً واحداً. المجمع ثلاثة أبنية متصلة تشكل مكعباً مفتوحاً على الطريق الساحلي. وراء الطريق العريض يترامى الشاطىء والبحر. في الباحة بين الأبنية تتباعد أشجار ومساحات معشوشبة ومقاعد بنّية الطلاء. انحدرت السيارة الى الكاراج. ركبوا مصعداً الى الطابق التاسع. هنري تصارع مع إحدى الحقيبتين. جاكوب قال انه جوعان. أليزابيث طلبت من أبيها أن يحملها. قبّلته ريما وهي تخرج من المصعد وتسبقهم كي تفتح الباب.

❊

حين جلسوا لتناول الطعام عند الواحدة ظهراً طلب قرصين أسبرو. قفزت أليزابيث راكضة الى المطبخ. الأولاد يحبون الأكل على هذه الشرفة. أعدت ريما مسبقاً شيئاً يحبّه: صينية كفتة بالفرن. سألته ماذا يفضل أن يشرب: البيرة أم العرق؟

«عندكِ عرق هنا؟»

«أوزو. مثل العرق.»

رجعت أليزابيث تحمل علبة أسبيرين للأطفال برتقالية اللون. كلّمتها ريما بالانكليزية:» لا. الأخرى. الخضراء والبيضاء.» ثم تابعت بالعربية: «لا يوجد أسبرو هنا. أسبيرين فقط. في وولورث من حيث أشتري كل الأغراض تقريباً فتحوا قسماً مخصصاً للمأكولات اللبنانية. تجد كل شيء. حتى كوسى وورق عنب محشي. في الجناح ب هنا توجد 11 شقة يسكنها لبنانيون.» دلّته

باصبعها الى البناية المواجهة. انتبه الى الإسوارة. تذكر حين اشتراها لها. قبل ولادة هنري بأيام.

*

أليزابيث كالعادة لم تقبل أن تأكل شيئاً غير الزيتون. انشغلت ريما في تخليص الحبّات من النواة. زيتون يوناني كبير الحجم. تولى ألبر تقطيع الكفتة في صحن جاكوب الى قطع صغيرة. اشتبكت شوكة هنري بسكينه. فرّ شيء من صحنه وسقط في طبق الحمص بالطحينة. أليزابيث ضحكت وطلبت ملعقة. زعمت أنها ستأكل معهم من السلطة (خيار باللبن والثوم). ريما سألته عن رأسه، هل نفع الأسبيرين؟ ابتسم وقال انه فقط بحاجة الى ساعة نوم لأنه لم ينم ليلاً.

*

«لن أتأخر. ثلاث ساعات. سأرجع قبل السابعة.»

تركته ممدداً في السرير وخرجت. كانت مضطرة للمرور على المكتب وانهاء الأعمال التي أجّلتها الى بعد الظهر. سمع أصوات الأولاد وراء الباب ثم نداءات في الخارج. لهجة أردنية أو فلسطينية. ريما أخبرته أن العرب كثر في الجناح أ. الارتباك لم يذهب عنه وهو يضطجع معها. بالعكس: كان عاجزاً عن جمع النصفين في جسم واحد. أي نصفين؟ حدث له شيء هناك، وهو ينظر الى الملثمين على الحاجز. بل قبل ذلك: حين رمقه المسلح بتلك النظرة المظلمة. كراهية مطلقة باردة كالجليد قطعته كما تُقطع الكفتة.

*

فتح عينيه. الشمس ملأت الستارة. دمّوية الحمرة. ارتفعت ضجة الناس على الشاطىء. مسح عرقه وهو يغادر السرير. دخل الى الحمام وغسل رقبته ووجهه. في الغرفة حيث التلفزيون وجد الأولاد يشاهدون الرسوم

المتحركة. قفز جاكوب وركض إليه. حمله واستراح على الكنبة. هنري تحرك على الموكيت متراجعاً من دون أن يبعد نظره عن الشاشة. التصق بساقيه وهو يضحك. أليزابيث تدحرجت مثل قطة. دفن ألبر وجهه في رقبة جاكوب وتنشق رائحة اشتاق لها. تدريجياً شعر بنصفه الآخر يدنو منه ويلتحم بالنصف الذي بلغ قبرص.

*

جلبت ريما عشاء جاهزاً: سندويشات «سوفلاكي» وحلقات بصل مقلية وبطاطا مقلية. ضحكت وهي تخرج السندويشات من الكيس الورقي: «هذه مثل الكفتة.» تركته مع الأولاد كي تتحمّم. حين رجعت في قميص نوم أبيض انتبه الى سمرتها الشديدة. استغرب كيف لم يرَ ذلك في السرير. شربا بيرة كارلسبرغ على الشرفة. كانت ليلة هادئة. الأولاد نعسوا وناموا في الكراسي. أيديهم تدلّت الى الأرض. «استيقظوا باكراً من أجل المطار.» ساعدها على نقلهم الى الأسرة. فتحت أليزابيث عينيها وهو يغطيها: رأى السواد الرطب للبؤبؤ والبياض البنفسجي الذي يتحلق حوله. أحاطته بذراعيها النحيلتين. قبّلته على أنفه.

*

سألته ريما عن أهله. تذكر عندئذٍ أنه لم يتلفن كما وعدهم.

«تريد أن تتلفن الآن؟»

طلبت له الرقم وناولته السمّاعة. ردّت أخته في ساقية المسك. لم يفهم لماذا تبكي وهو وصل وبخير. سألها أين أمّه.

«خذ. احكِ معها!»

أمّه أيضاً بكت وهي تسأله عن صحته وعن ريما والأولاد. شعر بما يشبه الغيظ لأنه لم يفهم سبب البكاء. بعد ذلك كلّمته أخته من جديد.

«انشغل بالنا عليك يا ألبر. قالوا على الراديو انهم خطفوا ناساً على طريق المطار.»

117
آل الخوري 12 – الطابق الثالث

«اذا ارتكبت إثماً فانتظر أن تتألم. كما تزرع تحصد. طوبى لصانعي السلام. اذكر خالقك في أيام شبابك. أكرم أباك وأمك. حيث يكون الاعتراف فهناك مغفرة للخطايا. أحب لأخيك ما تحب لنفسك. أكثر من شعر رأسي الذين يبغضونني بلا سبب. هذه تعلمناها في الفرير. ديك صاح/ فجر لاح/ عاش الكشّاف الجرّاح. هذه تعلمناها في الكشّافة. كان معنا واحد اسمه غريغور باسيليوس تعرفت إليه وقت الكرنتينا. قبطي يعرف الصلوات القبطية. الأجبية. كتاب السبع صلوات النهارية والليلية. والخولاجي المقدس. القداسات الثلاثة بالعربي والقبطي. في نيسان ال76 قنصوه برقبته. غدر. كان بلا سلاحه لأنه ترك واشترى دكانين بجبيل وعمشيت وصار يتاجر باللانجيري والثياب. سألته ألا يضجر بالدكان. أخبرني أنه لم يعد يقدر أن يقتل. «سبحنا بالدم يا جرجي.» أنا كنت أحترم غريغور لأكثر من سبب. وحتى بعد أن ترك الأسواق والحرب لم أغيّر موقفي. من الأول قاتل معنا. الأرمن مثلاً لم يفعلوا ذلك. ظلّوا تجاراً، ثعالب، رجل بالبور ورجل بالفلاحة، يهرّبون الفلسطينيين من برج حمود واذا أوقفناهم على حاجز يطلبون الرحمة. كانوا يقبضون ألف ليرة على الرأس. ويقدمون لنا خدمات. لكن ما قيمة الخدمات في الحرب؟ تأخروا كثيراً قبل أن يحلّ عليهم الروح القدس ويصفوا في صفّ الشيخ بشير. مملكة منقسمة على ذاتها تخرب. القيادة كانت تدرك هذا ومن هنا الاصرار على توحيد المنطقة الشرقية وتصفية الجيوب فيها. خصوصاً النبعة وجسر الباشا وتل الزعتر. حين نقلوني من الأسواق الى جبهة الدكوانة- تل الزعتر سألتني كارلا لماذا لا أفعل مثل صاحبي غريغور. سألتها لماذا تريدني أن أموت برصاصة في الرقبة؟ قالت إنها تحبني وتخاف عليّ وتشعر أنها ستخسرني.

أخبرتها انني لا يمكن أن أترك رفاقي يقاتلون وحدهم ويستشهدون وأنا قاعد مثل البنات في البيت. سألتها كيف أستطيع ان أحترم نفسي بعد ذلك؟ وحتى هي كيف ستحترمني اذا طلبت اعفاء؟ قالت انها بالعكس ستحترمني أكثر. هذه الأحاديث كانت تفرحني ولا تضرب على أعصابي أبداً. أنا أيضاً أحببت كارلا على طريقتي. مع أنها لم تكن جميلة كثيراً. زوجة الفرّان ملك اللحم بعجين في بناية الريفولي كانت أجمل منها. بالوجه. وبالجسم. وصاحبتي الأصلية كانت أجمل من الإثنتين. لكنني ارتحت لكارلا لأنها تعرفني. هناك كيمياء لا يقدر الواحد ان يحددها. في التخت وهي تعطيني سيجارة الحشيشة كنت أشعر بالهدوء. أنا أكره الجنازات. لكنني ذهبت الى جنازة غريغور. بعد الدفن قصدت بيت كارلا. تحممت وانتظرتها. حين وصلت أخبرتها عن غريغور وكيف أنقذني في الكرنتينا. علّمتها عبارة كان يردّدها: «ذو كصا بتري.» سألتني ماذا تعني؟ «المجد للآب». سألتني من رأيت في دفنه؟ وهل عنده صاحبة؟ كانت تغمس أفخاذ دجاج في الطحين وتقليها. سألتها عن الدكتور الذي يضايقها في المستشفى، هل تريدني أن أحكي معه كلمتين؟ ضحكاتها ملأت المطبخ. دلّتني من الشباك الى إمرأة في الشارع تحمل مطرة ماء ثقيلة، وأخبرتني انها تشتغل هكذا: تنقل ماء شرب وتبيعه للبيوت. كان أحدهم يصفر للمرأة من نافذته ويدعوها الى الصعود. شتمته كارلا وهي ترجع الى المقلى الذي يطرطش. سألتها هل تريدني أن أتكلم معه كلمتين؟ حين أصيب أحد أقاربها بشظايا على المتحف وجاء أفراد العائلة من البترون الى مستشفى الروم كي يبقوا جنبه، جلبت الى البيت إبنة عمها كي تنام عندها. ماري تيريز كانت فلاحة عادية، عريضة الكتفين، تتكلم لهجة الجبال وتشبه الرجال بطريقة حكيها وحركتها. تآلفت عليّ مع أنها تكره ناس المدن. أخبرتني أنها تدربت على فكّ مدفع الدوشكا وتركيبه لكن والدها منعها أن تقاتل لأنه شمّاس كنيسة كفرحلدا. أخبرتها عن غريغور وكيف كان يقدّس لنا بالقبطية في المتاريس. سألتني أين يقاتل الآن؟ كارلا ردّت قبلي: «في جهنم

الحمرا». أثناء يوم عطلتي الأسبوعية من جبهة تل الزعتر مررت على الشقة ووجدت ماري تيريز وحدها تكنس الرمل المتساقط على البلاط. سألتها أين كارلا، ألم ترجع من المستشفى بعد؟ قالت انها رجعت وتركت أغراضها لكنها نزلت عند الكوافير كي تقص شعرها. سألتها لماذا لم تنزل معها؟ سألتني ماذا ستفعل عند الكوافير، تقعد على الكرسي مثل البلهاء وتقّلب المجلة؟ كانت أميّة لا تقرأ ولا تكتب. وشعرها قصير مبروم، أخشن من «سيف العبد». أركبتها جنبي في الترانس أم وأخذتها في جولة على متاريس الوسط التجاري. لم تنزل الى وسط بيروت الا مرة واحدة وهي صغيرة. لم تكن تتذكر أي شيء غير وجود تمثال للشهداء حد موقف للبوسطات. لكنها تعرف أسماء بعض الأبنية والطرقات على السماع من دون ان تعرف مواقعها بالضبط، لأنها مثل جميع اللبنانيين والعرب تصغي الى نشرات الأخبار والى الملاحق الاخبارية عن سير المعارك. جيمي الأميركي الذي أخبرتكم عنه سألني عندما سهرنا في فيلا جميل عطية لماذا نسمّي كل زاوية وكل زاروب وكل حفرة في الطريق. كان يضيع اذا سأل في بيروت عن أي مكان في أي شارع بسبب العدد اللانهائي من الأسماء. الزاروب ذاته يمكن أن نسمّيه أكثر من اسم، بحسب الجهة التي ندخل اليه منها. أو بحسب السنة. أو بحسب من يسيطر عليه. في الحرب مهم أن تعرف طبيعة الأرض، حدود المنطقة التي يمكنك التحرك فيها. أقل خطأ يقتلك. بالخطف أو بالقنص. ماري تيريز تعجبت حين قلت لها هذا محور اللعازارية، وهذا جنبه محور الأم جيلاس، وهذا في الأسفل محور الأوبرا وهذا محور الريفولي، وهذا جنبه محور الأمبير. كبستُ البنزين ثم غيّرت الفيتاس ثم كبست البنزين ثم رفعت فرامل اليد وتركت السيارة تدور في مكانها وحدها. أرخيت الفرامل جنب نصب الشهداء وكبست البنزين طائراً صوب ساحة الدبّاس مكملاً الجولة التي دامت أقل من دقيقة: «وهذا محور البيغال!». في البدء ظنّت انني أضحك عليها. وهي في ضيعتها في جرود البترون كوّنت صورة خيالية عن مساحة

محاور الأسواق. لم يخطر في بالها ان المكان صغير الى هذا الحد. سألتني لماذا لا ننسفه بالديناميت كلّه فوق بعضه؟ لم أتمكن من أخذها الى محاور فوش واللنبي وباب ادريس بسبب القنص القوي هناك. كانت فترة من الهدوء النسبي. سألتني من أين أجلب البنزين للسيارة. أخبرتها انني أملك كوبونات من مكتب الحزب. سألتني هل يمكنها أن تجد كوبونات للمازوت. «عندكم وجاق مازوت؟» قالت انها تحتاج المازوت وقوداً للتراكتور. ضحكت وأنا أتخيلها تحرث جبال البترون. أخذتها كي تتفرج على جبهة عين الرمانة. كانت الطريق ملآنة أخاديد. تعبت رجلي على الدوبرياج. رفعنا الشبابيك بسبب الروائح. ألصقت وجهها بالزجاج. أدهشتها البنايات المقطوعة بالنصف وكل الأثاث ما زال معلقاً في الفراغ، التخوت والكنبات والبرادات والكراسي والتلفزيونات. توقفنا أمام بناية منسوفة تهدمت واحترقت. أحد الحمامات بقي كما هو تقريباً، سقط مثل العلبة فوق الركام، مخلوع الباب وكرسي المرحاض في مكانه. المغطس في مكانه والحنفيات مسحوبة من مكانها والبلاط مكسر. المرآة باقية فوق المغسلة وجنبها صورة صبي تدمع عينه. هذه اللوحة بالذات للصبي الذي تدمع عينه كانت موجودة في كل بيوت لبنان، عند كل الطوائف، تراها معلقة حتى في دكاكين السمانة. برمنا حيث لا يطالنا القنص ثم قلت لها أنزلي رأسكِ بسرعة وكبست البنزين وطرت. طرطق الرصاص على الغطاء الخلفي. كسروا لي الضوء الورّاني. بدت سعيدة وهي تأكل البوظة التي اشتريتها لها. كنت أحبّ كثيراً هذا النوع من الأعمال. وأنا صغير في أشبال الكشافة كنت أتطوع دائماً لتنظيف شاطىء الروشة والرملة البيضاء من النفايات. كنت أتدلى بالحبل على الجدار الصخري كي ألتقط أكياس النايلون وتنكات المرطبات. حين رجعنا الى البيت وجدت كارلا تنتظر وبالها مشغول. لا أعرف ماذا كانت تفكر. انتبهتُ أنها بدّلت لون شعرها. بعد أيام قليلة عادت الاشتباكات الى المنطقة وساعدتها على رفع أكياس الرمل على الشبابيك من جديد. تبادلنا الخدمات. لا أنسى لكارلا

أنها وقفت معي وأنا أحاول التخلص من الادمان. هي وابن خالي ساعداني على تنظيف جسمي من الهيرويين. بعد معركة النورماندي جربت أن أتوقف. لكن أصعب شيء أن تتوقف. أسهل شيء أن تبدأ: إبرة واحدة وتعلق. دمّك يتعود واذا لم تعطه الجرعة في وقتها يعطش ويصيح. الرجفة وحدها تقطع أوصالك. كل جسمك يتمزق. ابن خالي أدمن الكوكايين. تطورت عنده حالة بارانويا وتوهم أن أهله يتآمرون لقتله. تعارك مع أبيه. كسر عليه لوح الكوي. لولا تدخل الجيران كان قتله. ترك البيت. بعد أسابيع عاد وباس يد والده. ظنّوا أنه تخلص من المخدرات. كل ما فعله كان الانتقال الى الهيرويين. ذهبت البارانويا. كبّر الجرعات لأن الهيرويين هكذا. في البداية يعطيك أروع شعور في الكون. بعد ذلك تجرب وتجرب أن تقبض على ذلك الشعور مرة أخرى ولا تقدر. أنا رأيته قبل أيام من الأوفردوز. كان واقفاً أمام نادي الأنترانيك. لم يعرفني. تكلمت معه وانتبهت أنه لا يسيطر على لسانه. كان لسانه يفلت في فمه وهو يحاول أن يسألني شيئاً. عرفت أنه يريد مالاً. أعطيته كل ما في جيبي. سألته هل أوصله الى البيت. عانقني وذهب. كنت أحبّه وكان صديقاً لشارل ويذهبان معاً الى سهل البقاع لصيد الوروار والمطوق والبطّ. حين أخبروني أنهم وجدوه ميتاً في غرفته تذكرته يعانقني أمام نادي الأنترانيك وقررت أن أتوقف.»

118
آل حبيب 12 – الطابق الرابع

لم يتصلوا مرة أخرى. ترك لهم ميشال حبيب النقود في كيس السانيتا حيث طلبوا. كانت الزبالة مكومة أمام غومون بالاس. والكلاب تعارك القطط. تلفت حوله خائفاً أن يُقنص وهو يربط الكيس بقضبان الباب. لعلع الرصاص وركض. حين بلغ أسفل شارع مونو أدرك أنهم لم يقوصوا عليه وان الرصاص بعيد، جهة ساحة الشهداء. جلس وراء المقود في سيارته البويك في

الشارع الخالي. بكى حتى جفّت دموعه. انتظر مع زوجته وبناته طوال أيام... طوال أسابيع. توقع أن يرنّ التلفون ويدلّوه الى نقطة ما على خط التماس كي يذهب ويتسلّم إبنه. معبر المتحف. أو بشارة الخوري. ربما يطلبون ان يجلب عشرة آلاف أخرى. رنّ التلفون أكثر من مرة. قفز قلبه. زوجته ارتجفت كأنها محمومة. لم يكونوا هم. انتظرهم كأنه ينتظر أجمل صوت في العالم. لا هم اتصلوا ولا كارلوس رجع الى البيت.

*

قصد لجان الإرتباط. لم يترك باباً لم يطرقه. أسابيع طويلة من الجولات اليومية ولم يقع لكارلوس على أي أثر. استقبله شاب لطيف في أحد الأقسام الجديدة التي لم يدخلها بعد. طلب له فنجان قهوة. أجرى اتصالاً وجلبوا له ملفاً فيه معلومات عن كارلوس. ميشال حبيب قفز من مقعده الى المكتب كي يرى الملف. رأى صورة شمسية لإبنه. سقط قلبه خائباً: هو أعطاهم هذه الصور، نسخ منها دزينتين في الستديو ووزعها على المخافر ومكاتب لجان الارتباط مع كافة المعلومات اللازمة. طلب منه الشاب ألا يفقد الأمل. أعطاه طلباً مطبوعاً على الآلة الكاتبة («إستمارة مفقود») وقلم حبر أزرق كي يملأ الفراغات. ثم أشعل سيكارة.

*

في مخفر الناصرة شرحوا له أنهم يحاولون دائماً. لكن حتى الآن لم يمرّ اسم إبنه في اللوائح التي تأتي من الجانب الآخر. الرائد طلب منه الجلوس وأرسل دركياً جلب الجداول ووضعها أمامه. أسماء مرقمة. مسلمون ومسيحيون. بحث بنفسه مرة أخرى عن «كارلوس ميشال حبيب» أو «كارلوس حبيب» أو «كارل حبيب». أعلمه الرائد ان مرور الشهور يضعف فرص نجاة المفقود. لكنه لا يلغي الاحتمال نهائياً. في السيارة لطم المقود. منظر الناس في الشارع تحت الشمس ضاعف آلامه. أخبروه في بيت الكتائب المركزي عن حالات رجع فيها مفقودون بعد غياب طال شهراً كاملاً. سمّوا واحداً من

الأشرفية ظلّ مخطوفاً 26 يوماً ثم رُدّ الى أهله. ميشال حبيب سأل هل يقدر أن يحصل على عنوان هذا الشخص أو رقم تلفونه. استفسروا لماذا؟ «أريد أن أحكي معه. ربما يعرف شيئاً عن إبني كارلوس.» أشفقوا عليه. أعطوه رقماً. تلفن والتقى الرجل. يدعى جوني صفرا. زاره في بيته في شارع أديب اسحاق. شرب عنده فنجان قهوة. استقبله السيد صفرا كأنه يعرفه. أصغى اليه وهو يصف شكل كارلوس وثيابه. تناول من يده الصورة الفوتوغرافية وتأملها حزيناً. شرب ماء ثم تكلم. كشف للسيد ميشال حبيب أن غيره أيضاً يجيء ويسأل عن مخطوفين له. أخبره عن سيدة أرملة بيتها في الجعيتاوي اسمها يولاند عبود جاءت وزارته وهي تحمل قالب كاتوه. قال انها كسرت قلبه. «عندها صبي واحد، عمره 15 سنة، كان عائداً من بيت عمته في البسطة واختفى على الطريق.» زوجة جوني صفرا دخلت الى الصالون وسلّمت على ميشال حبيب وسألته عن صحة المدام. ثم خرجت. بدت مهزوزة. مع أن زوجها رجع من الخطف! بقي قاعداً أقل من ربع ساعة (جلبوا القهوة بعد دقيقتين من دخوله، كأنها جاهزة على الدوام). لم يفده جوني صفرا في شيء. أوضح له أنهم خطفوه من النبعة وأطلقوه أثناء عملية تبادل روتينية. هكذا، بالحظ. لا واسطة ولا فدية ولا تدخل. طوال فترة احتجازه كان مقيّداً في كاراج مظلم يسمع أصواتاً مكتومة وراء حيطان ولا يرى الآخرين. «لا. لم أسمع بإسم إبنك قبل الآن.»

*

كان يستصعب العودة الى المنزل. خصوصاً اللحظة الأولى. لا يقرع الجرس ولا الباب. يستعمل مفتاحه. يحاول ألا يصدر أي صوت. لكنه بينما يشقّ الباب يرى غابي تطلّ. تناثر قلبه شظايا وهو يشاهدها تتهدم أمام عينيه. أم كارلوس. نظرة السؤال التي تقتله قتلاً حين يدخل. حركتها جنب الحائط لئلا تقع. يدها الزرقاء.

*

أكثر من مساء أخّر تلك اللحظة. يركن البويك في «نزلة المبرومة» ويمكث هكذا. تمثال يقعد وراء دركسيون. من داخل البيوت الواطئة تتسرب أصوات أو أغنيات (قديش كان في ناس/ عالمفرق تنطر ناس/ وتشتي الدني/ ويحملوا شمسية...). أحياناً تُفتح نافذة ويرمى منها ماء الغسيل. أو بقايا الشاي. تتكاثر المصابيح. والظلام يتكاثف. حين أخبرته حلا أنها تفكر في السفر الى أميركا ظلّ ساكتاً.

*

أصعب من الإنتظار حد التلفون كان تفقّد البرادات. الجثث التي تتجمع في المستشفيات. وعند الصليب الأحمر. ابتكر زمن الحرب أساليب جديدة لتخزين القتلى. وتأجيل الدفن. بانتظار التحقق من الهويات. هذا «التأجيل» أتاح لليديا ثابت وأخوتها التعرف الى جثة أبيهم الرقيب عزيز ثابت. لسببٍ ما سرق الذين قتلوه ورموه في «بورة التيان» أوراقه الثبوتية. تكررت الحالةً في عائلات كثيرة. استدل الناس من الصحف والاذاعات والمخافر الى برادات تستقبل قتلى لعلهم قتلاهم. امتلأت المدافن.

*

قتلت ميشال حبيب الوجوه الميتة. الأغطية البلاستيك على تماثيل اللحم. رائحة الفورمول. الصمت. خنقته الملامح المتخشبة. جهنم الجليد القابعة سرّاً تحت الأرض. الموظفون الذين قسّوا قلوبهم كي يتحملوا. طنين النيون. العويل والصراخ. ذراع تسقط عن نقّالة. ركبة متحجرة مرفوعة. ولا تقدر أن تنزلها الا اذا كسرت العظم. أسنان بارزة وفم لم ينطبق. جبهة حُشي ثقبها بقطن صار أسود. لمبة تومض في غرفة فارغة. شعر طويل أحمر لفتاة ثلجية البياض لم (ولن) تتجاوز الثالثة عشرة. جفنان مبطّنان. إمرأة تنهار في ممر واطىء السقف. أقارب يحاولون تهدئتها ورفعها عن البلاط. ممرض يمضغ نباتاً هندياً مخدراً (ورق التنبل). جثة شاب عشريني تمزّقت كنزته الصفراء. سيدة ناولته محرمة كلينكس مغمسة بالكولونيا في كاراج أوتيل

ديو. رجل يحضن زوجته وإبنه في براد مستشفى الروم (مار جرجس). صبي يركض أمام منضدة الاستعلامات في مستشفى القلب الأقدس. تاه ميشال حبيب خارج عالمنا. لم يجد كارل. كارلوس. بوّاب سبعيني بطيء الحركة استوقفه وهو يخرج من براد مستشفى رزق وطلب منه كبريتة. كان يحمل سيجارة مطفأة. يد ميشال حبيب تحركت وحدها. القداحة أصدرت طقّة معدنية. اشتعلت السيجارة. دعاه البوّاب الى الجلوس لحظة. جلب له كوب ماء. ضيّفه سيجارة. كان المكان ساكناً. على الأرض قشور ترمس صفراء لم تيبس بعد.

119
آل زغلول 10 – الطابق الأرضي

فريدة عبدو زغلول وحدها في البيت. تتمدد على ظهرها. ضوء يتسرب من شقوق أعلى الأباجور. تؤجل نهوضها والقيام بواجباتها المنزلية. على الطاولة مزهرية فخار بلا زهور. الحيطان تتقشر بالرطوبة. أظافرها طويلة. عيناها واسعتان. تراقب نقط الشمس الموزعة على السقف. تسمع السيارات وراء الحائط، في «نزلة المبرومة». منذ فترة يلازمها تعب. تؤلمها مفاصل جسمها.

*

تهجم الكوارث كالذئاب دفعة واحدة. أجهضت داليا. انفجارات القذائف على محور الناصرة أذت الجنين الهاجع في رحمها. الجفلة تقتل. تقبّل زوجها الوضع برحابة صدر. لم يضطهدها. أكبرت ذلك فيه. تأثّرت. بعد أسابيع قنصوه في سلسلة ظهره. كان يُدخل السلم الخشب عن شرفة المطبخ كي يرفع بعض الأغراض الى التتخيتة. رصاصة من بندقية «ناتو». شائعة الاستخدام بين قنّاصة «المرابطون». اقتحم الصاعق عموده الفقري

ساحقاً الفقرتين الرابعة والثالثة. مزّق نخاعه الشوكي وألزمه الفراش.

*

داليا لم تهجر الدركي المشلول مخايل شليطا. حفظت عهودها الزوجية (في السرّاء والضرّاء). تحوّلت ممرضة مدى الحياة. خادمة في منزلها. عاشت وتحمّلت. استدرجت من البيت الأول في الطابق الأرضي لبناية أيوب أختها مريم (كي تساعدها) ثم أخاها يوسف (كي تُبعده عن الضرب). كان وجهه أزرق كحجر النيل. أمّها قبلت. أبوها عارض ثم تراجع. سكت دائخاً بالعرق الذي صار يشربه سادة بلا ماء وبلا ثلج. بدنه الذي يهرم خفّف حدّة معارضته. إختفاء كوليت عبدو زغلول بدّل السمكري. بدا مرهقاً شبه محطم. لم يعد صوته يرتفع ويهزّ مدخل البناية حين يسكر. تكاثر الشيب في ذقنه. أكثر من مرة شوهد في السوق حاملاً العدّة يدمدم وحده كأنه يُكلّم شبحاً.

120
آل الحويك 8 – الطابق السابع

كميلة الحويك خافت على إبنتها. امتنعت سابين عن الخروج من المنزل بعد خطف صاحبتها كوليت بنت الناطورة. كفّت عن تعليم الدروس الخصوصية. قلّ أكلها. كذلك كلامها. لم تعد تتحمم إلا مرغمة. كآبتها أيبست الحبقات في الغرفة الخضراء. لم تعد تغيّر بيجامتها.

*

لم تستطع سابين أن تشرح ما بها. قبض على قلبها ألم فتّاك لم تعرف قبل ذلك أنه موجود في هذا العالم. عصرت القبضة صدرها. افتقدت سماع صوت كوليت. اشتاقت الى رؤية وجهها. لكن ما عذبها أكثر من الشوق كان

شعورها الباطني العميق أنها خسرت أبداً نصف روحها. أدركت هذا بمرور الأسابيع. لم يرد أي خبر عن كوليت. لم يتصل أحد بعد نشر الإعلان في الجرايد. خالها بشارة المقيم في الغربية جرّب ما في وسعه. عنده أصدقاء وصِلات في منطقة النبعة في الشرقية. كانوا واثقين أنها خطفت هناك، في شارع يفضي الى برج حمود. لم يتأكدوا في أي نقطة بالضبط لأن الحواجز الطيّارة تبين وتختفي في هنيهات. وفي هنيهات اختفت كوليت عبدو زغلول (18 عاماً) عن وجه الأرض.

*

حين تأخرت في ذلك المساء تلفنوا الى بيت كركور في النبعة وسألوا عنها. كانت كوليت تُدرّس ولدي السيد ارواد كركور مادتي العلوم والحساب. ولد في البريفيه والآخر أصغر بصف. ردّت الخادمة أولاً. قالت ان المعلمة ذهبت قبل وقت طويل. ثم ناولت الهاتف لسيدة المنزل. أكّدت مدام كركور ان كوليت غادرت منذ ثلاث ساعات. دبّ الذعر في صوتها:

«ما وصلت على الأشرفية بعد؟»

*

الطريق عشر دقائق بسيارة السرفيس. واذا لفّ الشوفير ودار كي يوصل ركاباً آخرين قد تطول الى نصف ساعة. واذا مرّت كوليت على السوق أو السوبرماركت كي تشتري شيئاً للبيت أو ليوسف الصغير تضيع نصف ساعة أخرى. على الأكثر. سابين الحويك كانت عائدة قبل غروب الشمس من حيّ السريان تحمل دفاترها. عند محطة البنزين رأت شباناً من الجوار مسلحين، يتجمعون حول رانجروفر زيتي اللون، ويصغون الى الراديو والى أجهزة لاسلكي تنقل الخبر أسرع من الإذاعة. سمعتهم ينبّهون سائقي سيارات السرفيس ألا يذهبوا باتجاه النبعة وجسر الباشا.

«نزلت حواجز بعد المطاحن. تحركوا في قلب الأشرفية. لا تبتعدوا.»

*

اعتاد بشارة في غرفته في الكافالييه (شارع الحمرا) أن يبادل آردا نقولا إكمكجي نظرات عابرة. لم يحاول العثور على «بناية عطا الله» مرة أخرى. لكنه جرب رقم التلفون. وجد سنترال عين المريسة معطّلاً. كان يكره أيار (مايو): تقوى الحساسية في جهازه التنفسي وينتبه أنه كبر (خسر) سنة أخرى من عمره. هذه المرة بالذات أتته الخيبة مضاعفة: دخل السوريون وضغطوا على النواب وانتخبوا رئيساً للجمهورية اللبنانية.

❋

عرّفه أحد الأصدقاء الى صحافية بريطانية (كريستين أندروز) في حاجة الى مصوّر. اتفقا على موعد لزيارة منطقة الفنادق. استقلّا التاكسي إلى حاجز الهوليداي إن. شوارع قليلة الحركة، دافئة تحت شمس الصباح، تتباعد على حوافها أشجار مخضرة وسيارات محروقة. المسلحون على الحاجز كانوا يسمعون الإذاعة ذاتها مثل شوفير التاكسي. تحليل سياسي لصحافي أجنبي مهم يظلّ ينسى إسمه: «السيد جنبلاط يظن أنه يستطيع التوصل الى اتفاق أو نوع من إتفاق مع الرئيس سركيس. أنا أعرف أنه كان يفضل السيد ريمون إدّه رئيساً للجمهورية. لكن السيد جنبلاط بارع. ويتعامل مع الأمور بواقعية. حين فشل في منع وصول السيد سركيس الى كرسي الرئاسة في 8 أيار، بدأ المحاولة لسحب كرسي الرئيس سركيس من تحت المظلة السورية. والرئيس الياس سركيس، كما يبدو لي، مستعد لهذا أيضاً. الى درجة ما. انه يريد طاولة مستديرة للحوار يحضر عليها جميع أطراف الصراع للاتفاق على وقف الحرب نهائياً وتعمير لبنان. وحتى السيد ريمون إدّه يقبل هذا. قبل محاولة اغتياله مباشرة في 25 أيار كان اده مجتمعاً مع قيادة حزب الكتائب لإيجاد حلول للخلافات بينهما. علينا قراءة عملية إغتيال السيدة ليندا جنبلاط أول من أمس ضمن هذا السياق: هناك إنذار صارم يوجّه الى السيد جنبلاط كي يتراجع.»

❋

ساعدها. ترجم ما يقوله شاب تسلّح برشاشين معاً. لم يفهم حاجته لرشاشين في مكان هادىء. لعل رفيقه دخل لحظة الى التواليت. أجاب الشاب على أسئلتها متحمساً. كان في السابعة عشرة. ربما أصغر. اذا دخل الجامعة يرسب في معظم امتحاناته. تسأله من الشرق. يردّ من الغرب. يلتقط كلمة مفردة من السؤال ثم ينطلق في مونولوغ مضطرب لا علاقة له بالسؤال أبداً. حاول بشارة أن يساعده ويصحّح مسار الأجوبة. رمقه الفتى بنظرة ضيق وخوف. كأنه على حافة عالية. تركه بشارة يهذي عندئذٍ، وترجم على ذوقه أجوبة مناسبة لأسئلة لا تنقصها النباهة. اقترب مسلحون يأكلون كعكاً ويشربون ليموناضة. سألوا هل تحب الصحافية الشابة أن تأكل أو تشرب شيئاً. شكرتهم بابتسامات بديعة ردّتهم على أعقابهم. جلسوا في نقطة غير بعيدة يتأملون حركتها في البنطلون والحذاء الرياضي. ترجم لها بين جوابين معقولين للفتى المراهق (عن النشأة الطبقية والمعتقدات الفكرية) كلاماً للمراقبين آكلي الكعك يخص تكوين جسمها و«سكبة» ساقيها. بدت مسرورة بانتقائه المهذب للألفاظ.

*

في بهو يتوزعه أثاث محطم التقط صوراً وهي تواجه المسلح وتسجل ملاحظات. بلّورات باقية في ثريا كريستال اهتزّت فوق رأسه. متسخة. سوداء. مرّا جنب بيانو مكسّر. تسلقا درجاً مبقّعاً بالدم. خطت فوق زجاج منثور. شعارات تشوّه الجدران. «ألبرتو مرّ من هنا». ترجمها لها. أحدهم رشّ سبراي على أرزة الكتائب. لم ينجح في محوها. قسم منها حُجب بمنجل ومطرقة. سألته هل يفكر في العمل في مجال الترجمة؟

«لماذا؟»

«أنت سريع.»

على الدرج بين الطابقين العاشر والحادي عشر سألته هل يريد أن يصورّها

وحدها. من نوافذ محطمة الزجاج بان بحر أزرق داكن تظلّله غيوم بيضاء.

«أكيد.»

«لكن عليك أن تعطيني أجوبة الصبي الحقيقية.»

تجنبا سجادة متفحمة يتطاير منها السخام. دخلا صالة تزينها لوحات مائلة. فرّت عصافير دوري من وراء البار. التقط الصورة ورآها بعد أسبوع منشورة في التايمز: «طيور الهوليداي إن - بيروت الغربية».

*

جريدة الجمعة 28 أيار (مايو) 1976: بعد إطلاق النار على اده والتصعيد الذي رافق «عبور» الرئيس المنتخب. مسلسل الرعب يحاول إغتيال الحل. سركيس يستنكر قتل ليندا جنبلاط وجنبلاط يدعو الى ضبط ردود الفعل. الجريمة لم تنسف لقاء السلام بل أخّرته الى مطلع الأسبوع.

الساعة الثالثة والنصف كان السيد كمال جنبلاط يجري آخر مكالمة هاتفية مع الرئيس الياس سركيس ليضع اللمسات الأخيرة على ترتيبات اللقاء الذي حدد موعده في السابعة مساء... وما كاد جنبلاط يضع سماعة الهاتف ويعود الى الصالون حيث كان الصحافيون، حتى دخل عليه أحد المقربين ليبلغه نبأ اغتيال شقيقته السيدة ليندا التي سقطت برصاص أربعة مسلحين اقتحموا منزلها في شارع سامي الصلح... وهكذا انهارت مرة أخرى محاولات الانطلاق نحو الحل السياسي. وقد طرحت فظاعة الجريمة وبشاعتها علامات استفهام مثيرة وكثيرة حول مسلسل الرعب والاغتيالات الذي بدأ بمحاولة اغتيال العميد ريمون اده ثم استمر عبر التصعيد العسكري المفاجىء الذي رافق «عبور» الرئيس الياس سركيس من المنطقة الشرقية الى المنطقة الغربية وانتهى أمس باغتيال السيدة ليندا جنبلاط... وكأن يداً مخربة تمتد الى كل مبادرات السلام اللبناني... وقد أثارت الجريمة موجة استنكار عارمة خصوصاً ان يد الغدر امتدت الى سيدة كريمة لم تتنكر لتراثها وأصرت

على الاحتفاظ بعلاقات الصداقة وحسن الجوار مع الجميع، تجاوزاً للمحنة الطائفية، فأرادت بذلك أن يكون بقاؤها في الحيّ الذي تسكنه رمزاً لتمردها على التقسيم. وكانت ليندا جنبلاط تخصص كل وقتها لمحاولات التهدئة وتقريب وجهات النظر والافراج عن المخطوفين.

الكتائب تعرض على جنبلاط التعاون معها لكشف الجناة الاربعة. قُتلت ليندا جنبلاط وجُرحت كريمتاها في منزلهن في شارع سامي الصلح. (صورتان بعدسة جورج سمرجيان: صورة السيدة ليندا جنبلاط مقتولة. صورة السيد كمال جنبلاط يبكي شقيقته.)

سقطت أمس السيدة ليندا جنبلاط (58 عاماً) أرملة النائب والوزير السابق المرحوم حكمت جنبلاط وعقيلة الأمير حسن الأطرش وشقيقة السيد كمال جنبلاط برصاص مسلحين اقتحموا منزلها في شارع سامي الصلح فوق فرع الشركة الجديدة لبنك سوريا ولبنان. وأصيبت في الحادث الذي أثار استنكاراً شاملاً كريمتا الفقيدة نهى (28 عاماً) وسمر (18 عاماً) ونقلتا الى أوتيل ديو حيث أسعفتا ووضعت أولاهما تحت المراقبة.

كيف وقعت الجريمة؟

قرابة الثانية والربع شاهد سكان بناية البر حشيمي في شارع سامي الصلح أربعة شبان تراوح أعمارهم بين 16 و17 عاماً يترجلون من سيارة ويتوجهون بسرعة الى الطبقة الثانية من البناية حيث منزل السيدة ليندا جنبلاط. وبعد لحظات سُمع اطلاق نار غزيرة ثم خرج الشبان مهرولين وصرخوا في الذين وقفوا لاستطلاع الأمر:» فوتوا... فوتوا أحسن ما نقوصكم«. ثم صعدوا في السيارة التي كانت تنتظرهم. وقالت مصادر كتائبية ان هذه السيارة داتسون خضراء التقط جزء من أرقامها وهو يؤلف الرقم 129 وأنها توجهت بسرعة وسط اطلاق النار نحو مستديرة الطيونة.

وعلى الأثر أسرع الجيران الى منزل السيدة جنبلاط فوجدوها على الأرض قرب الكرسي تتخبط في دمها. فنادوا الدكتور ريشار غريب جار الفقيدة:» طلع رصاص يا حكيم من بيت الست ليندا ومش مسترجين نفوت.» فهرع اليهم ودخل مسرعاً ليجد السيدة جنبلاط تنزف وإبنتها سمر تصرخ.

رواية الدكتور غريب: وقال الدكتور غريب لـ«النهار»:» نظرت الى الصالون فوجدت الدم يسيح فأسرعت الى المرحومة التي كانت تربطني بها صداقة أخوية فتطلعت في ولفظت إسمي ثم غابت عن الوعي، فحاولت إنقاذها بالتنفس الاصطناعي من الفم الى الفم وبالتدليك على صدرها لإنقاذ القلب فوجدت أنها فارقت الحياة. فأسرعت الى غرفة أخرى فوجدت إبنتها نهى بين الخزانة والسرير وهي تنزف فصرخت بعدد من الشبان الذين أسرعوا وطلبت نقلها الى أوتيل ديو مع شقيقتها سمر. ووجدت كذلك ان الرصاص خردق جسم الفقيدة لأنها كانت تنزف من أنحائه وقيل لي ان السلاح المستعمل فيه رصاصات روسية غريبة.»

الكتائب تصل بسرعة: وفور انتشار الخبر وصل الى منزل الفقيدة الشيخ بشير الجمّيل واستدعى المسؤولين الكتائبيين في المنطقة وعقد اجتماعاً معهم في شقة مجاورة لشقة الضحية. كذلك وصل الى المكان السيد داني شمعون ومسؤولون عن الأحرار هناك. ونحو الثالثة جاء العقيد أنطوان حداد والملازم أول كميل عطا من ثكنة طرابلسي المجاورة ثم مسؤول من «التنظيم». وكانت جثة القتيلة لا تزال في مكانها وقد غطيت بشرشف أبيض. وبدت بقع دم على السجادة. وتراكض الجيران فامتلأ بهم المنزل.

وقد أجرى الشيخ بشير الجميل اتصالاً تلفونياً بالسيد كمال جنبلاط وقدم اليه التعازي وقال له: «اننا نعتبر الفقيدة شهيدتنا ونحن مسؤولون معنوياً عن هذا العمل الإجرامي». واتفق معه على الترتيبات اللازمة لنقل الجثمان. فأحضر نعش نقل اليه الجثمان وحملته سيارة إسعاف رافقها الشيخ بشير الجميل والمسؤولان عن الأحرار و» التنظيم» الى حاجز الجيش أمام ثكنة

طرابلسي حيث تسلمه الأب يواكيم مبارك ورافقه حتى منزل جنبلاط في المصيطبة. وعلى الاثر اتخذ تدبير بتكثيف دوريات الجيش من ثكنة طرابلسي والأحزاب في المنطقة.

الجريحتان في المستشفى: وفي أوتيل ديو كان الشيخ بيار الجميل وعدد من المسؤولين الكتائبيين في انتظار الجريحتين نهى وسمر اللتين أحضرتا وأدخلتا غرفة العمليات حيث تبين ان سمر مصابة في رجلها اصابة بسيطة فنقلت الى غرفتها. أما نهى فقد أصيبت في صدرها وطحالها وبكسر في رجلها اليسرى وبجرح عميق في رجلها اليمنى. كذلك أصابت رصاصات أخرى معدتها وكبدها. وكان ثمة خوف على رجلها لأن الشرايين كلها تقطعت الا ان نتائج العمليات التي أجريت لها جاءت مطمئنة. وقد اشترك في هذه العمليات الأطباء البروفسور ادمون مسعود والبروفسور ايلي مشعلاني والبروفسور بشير سعادة والبروفسور انطون غصين والبروفسور بيار فرح. ومن المستشفى اتصل الشيخ بيار الجميل بمكتب السيد كمال جنبلاط وأبدى له استنكاره للجريمة.

ضبط داتسون وراكبين: ونقل ليلاً عن مصادر كتائبية في كسروان ان حاجز العقيبة أوقف سيارة داتسون اشتبه براكبيها وان تحقيقاً بدأ معهما. وذكرت معلومات أخرى ان الشاهدتين الاساسيتين في هذه الجريمة هما ابنتا الفقيدة اللتان شاهدتا المجرمين. من جهة اخرى قال الشيخ بشير الجميل ل« النهار» قرابة منتصف الليل ان الحزب كلف خبراء عسكريين في الملاحقات التحقيق في الحادث وكشف الفاعلين. وأوضح ان التحقيق يجري على محاور عدة «خصوصاً ان لدينا بعض الأدلة ومستعدون للتعاون مع الجميع لكشف مرتكبي الجريمة البشعة، خصوصاً مع ممثلين للسيد جنبلاط». وذكر الجميل ان الرصاص الذي استعمل من نوع روسي «كورس» وهو حاد.

حبس كمال جنبلاط دموعه ثم انهمرت من عينيه وهما مفتوحتان. كتب

نبيل ناصر: قبل الموعد مع الرئيس الياس سركيس بأربع ساعات ونصف... وقف شخص في مدخل الغرفة وقد بدا عليه الاضطراب وقال:

«سيدنا اذا بتريد».

«تفضل».

«لا سيدنا، في قضية مستعجلة وخاصة».

وانتقل جنبلاط الى غرفة مجاورة وما هي الا لحظات حتى عاد مضطرباً... وضغط أوراقه بيده وأبلغنا ان شقيقته تعرضت لحادث ولا يعرف ما اذا كان حادث اصطدام سيارة ام حادث اطلاق نار. وزاغت نظراته. ولمعت عيناه بدموع حبسها وتحاشى ان نراها. وتحول البيت الى ما يشبه خلية النحل. وظلت حقيقة ما جرى لشقيقته ليندا بين الشك واليقين الى ان تأكد من ذلك نجله وليد. (التتمة صفحة 4)... ووقف جنبلاط بيننا لا يصدق: «نصحتها مرات بأن تترك المنطقة لكنها كانت تصر على البقاء بين العائلات الصديقة وتقدم المساعدات.» ووضع يده على خده الأيسر المتورم بسبب التهاب في الضرس. وأخذت الدموع تنهمر من عينيه وهما مفتوحتان وانتقل الى غرفة ثانية وجلس وحده لحظات ثم دخل الأب يواكيم مبارك كي يعزيه...

121
آل الخوري 13 – الطابق الثالث

«أنا أُصبت أكثر من مرة أثناء الحرب. سأخبركم شيئاً لا يعرفه إلا من جرّبه: ألم الرصاص ليس أصعب شيء على جسم الإنسان. التخلص من الإدمان أقسى. كأنهم عقدوا سلسلتين على يديك وكاحليك وربطوك الى سيارتين تحاولان الإنطلاق في اتجاهين معاكسين ولا يمنعهما إلا جسمك. تشعر أنك تتمزق، لكن عظامك (مفاصلك) ما زالت تجمع لحمك بعضه الى

بعض. كل رجفة تستولي عليك تغمرك ببرميل عرق. ماء وشوكولا. شوكولا وماء. وعصير جزر. وكل ما تقدر أن تدخن من سكائر. هذا كان علاجي. لكن الدم أذكى من صاحبه. مستحيل أن تخدعه بالنيكوتين. لا أعرف كيف تحملتني كارلا. كانت تمسك لي السيكارة لأن أصابعي تعجز. أكثر من مرة أوشكتُ أن أهرب. حلمت بحقنة هيرويين. كنت أعرف أن جسمي بدأ ينظف. لكن فظاعة العطش غير قابلة للوصف. كأنك معبّأ بالملح. كنت أشعر بصدري يتفسخ وأنا أرجف تحت اللحاف والبطانيات. الحرارة في الخارج 31. الناس يمشون في الفانلات وأنا أبرد كأنني في ألاسكا. انتخبوا الياس سركيس وأنا أتقلب على حافة الموت. كارلا بقيت جنبي تسمع الأخبار على الراديو. لم أكن أفهم الكلام، لا في المذياع ولا في الطريق. كأنهم يحكون بالسرياني. الرصاص والانفجارات لم تتوقف: إهتزاز الغرفة شعرت به، لكن ليس الأصوات. كل شيء ابتعد كأنني في دولة أخرى. جاء روبير رفّول وزارني. كان يتحرك على مهل. أخبرني أن الطبيب نبّه عليه ألا يطلع الدرج. لئلا تنفك القطب في جرح بطنه. فتحت عينيّ. تعجبت أنني أفهم كلماته. على البلاط جنب رأسي رأيت كيساً ورقاً. كنت على فرشة على الأرض. جنب التخت. هلكت كارلا وهي تحملني الى السرير كلما وقعت عنه. فرشت لي في نقطة لا يمكن أن أقع منها. هذا أيضاً لا يعرفه الا المدمن: السقوط بلا توقف. طلبت الهيرويين كي أوقف الوقوع. كابوس. لكنه حقيقي. أقع من حافة عالية وأظلّ أقع ولا أبلغ القعر. بينما أقع أموت ألف مرة بالرعب من الموت لحظة سألطم القعر. لا يبقى نَفَس في صدري. السقوط السريع يشدّ روحك من فمك. روبير رفّول أخرج من الكيس لوح شوكولا كادبوري وقشّره لي. قشّر لوحاً لنفسه. كارلا ذهبت كي تشتري بعض الأغراض. أخبرني أن الدنيا مشتعلة. «القوات المشتركة يحرقون دواليب ويضعون حواجز لمنع النواب من الاجتماع وانتخاب سركيس، و«الصاعقة» ونحن نتعاون على رفع الحواجز كي نفتح الطريق.» ضحك وهو يقشر لوح تويكس. «حتى

جيش التحرير الفلسطيني يساعدنا على تجميع النواب. يتلقى أوامر مباشرة من الأسد وأركان الجيش السوري، ولا يردّ على قيادة فتح. إذا نزلت الى الطريق لن تصدق ما يحدث. اختلط الحابل بالنابل.» حبس أنفاسه ووضع يده على بطنه. الضحك حرّك قطبه. قبل أن يذهب أخبرني أن جدّه مات. «جدّك؟» كنت أعرف الختيار صانع الأحذية لكنني لم أتذكره الا لاحقاً، وأنا وحدي. كان أبي يأخذني أنا وشارل معه حين يذهب الى مشغله في الجبل. يأخذ للقدم ثلاثة قياسات. قياس من الكعب الى رأس القدم. قياس من رأس الأصبع الصغير الى الكاحل. وقياس لبطن القدم بلف الماسورة عليها. 3 قياسات لكل قدم على حدة. اليمنى غير اليسرى. خصوصاً اذا كنت أعسر. مثل شارل. ذهب روبير وترك شبح جدّه معي في الغرفة. كنت أتذكر الرفوف وعليها القوالب الخشب. لفّات الجلد الواقفة في الزاوية. ماكينة الخياطة. تنكات المسامير والصمغ. الشاكوش على الطاولة المدروزة بمسامير رفيعة. المريول الأحمر الجلد المعلق من مسمار حد الباب. ضوء الشمس الذي يدخل من النافذة العميقة. الطربوش على الكرسي. رائحة المكان. سل مملوء بأكواز صنوبر يابسة: وقود لوجاق الحطب. العتمة اذا أطفأت اللمبة. رجعت كارلا ووجدتني مفتوح العينين أحدق الى السقف ولا أتحرك. هزّتني كي أفتح فمي. خافت أن أكون في صدمة. أردت أن أخبرها عن ذلك المكان وذلك الرجل الذي كان يأخذ قياسات الأقدام ويخيّط لنا أحذية. منذ تلك الليلة بدأت أتحسن. قبل أن أرجع الى جبهة تل الزعتر تعرضت كارلا لحادث سير بسيط واضطروا الى تقطيب رأسها ثلاث قطب. حلقوا دائرة صغيرة من الشعر فوق أذنها. هذا ضايقها أكثر من الحادث والجرح. خرجت وهي تتحمّم. جلبت لها بعض الهدايا. أعلنت أنني سأطبخ من أجلها. لم تصدقني لأنها تعرف أنني لا أقدر أن أسلق بيضة. طلبت منها أن تنام نصف ساعة كي ترتاح. أخرجت من الكيس الذي تركته خارج الباب أطعمة جلبتها من الطريق. كانت الرائحة تملأ المدخل. سمعت مواء القطط في الأسفل.

شعرت بالفرح. وزعت الطعام على صحون ورتبت الطاولة. فراريج محمّرة وفلافل وبطاطا مقلية. صينية خضر مقطعة. بندورة وبقدونس وفجل. كبيس حر وخيار ولفت. علبة طرطور. علب ثوم. خبز مثلثات. كل شيء. ثم ذهبت الى حيث تنام وقلت لها قومي. أخبرتها ونحن نأكل عن أمي. لم أخبرها عن أيامها الأخيرة وما عانت منه قبل الموت. السكري فظيع. قبل النهاية اضطروا الى بتر ثلاثة أصابع من قدمها. أخبرتها عن الصيف الذي سافرنا فيه الى أمستردام وكيف استأجر أبي سيارة وقمنا برحلة طويلة تفرجنا فيها على السدود والطواحين ومزارع التوليب. كانت أمي سعيدة تضحك طوال الوقت. تستيقظ قبلنا وتحضّر لنا الفطور وهي تغني وتترنم بألحان لا نعرفها ولم نسمعها قبل ذلك. أخذتنا كي نسبح ولم يكن أبي معنا. لا أتذكر لماذا، لعله كان يلتقي أحد التجار. شارل كان يعوم مثل السمكة وحين يخرج من البحر وهو يبرق بالماء والشمس... أنا أردت أن أقول شيئاً آخر. كارلا سألتني هل أعتقد أنني سأرجع الى الهيروپين؟ أشعلتُ سيكارة ونظرت الى الدخان يعلو في الهواء.»

122
آل سمعان 8 – الطابق الثاني

الحادثة على طريق المطار غيّرت خططه. كان ألبر آتياً الى قبرص لقضاء عطلة الربيع مع عائلته. قبل نهاية العطلة تلفن الى الشركة في بيروت وأعلمهم أنه غير قادر على العودة. مقابلات العمل في ليماسول بدت له غير مشجعة. على الهاتف اكتشف إمكانية أفضل في نيقوسيا. تداول في الأمر مع ريما. شجعته على القيام بمحاولة استكشافية. حجز بطاقة على الباص من ليماسول الى نيقوسيا. غادر في الصباح الباكر قبل استيقاظ الأولاد.

❊

في التلال بين المدينتين ضربت الإذاعة المصرية الإذاعة القبرصية. فاجأته الكلمات العربية وشعر بما يشبه السحر. اختفت من مكبرات الصوت المزروعة في سقف الباص اللغة اليونانية التي يُعدّلها نصف مليون قبرصي على طريقتهم. غنى عبد الحليم حافظ أغنية تتقطع وتخشخش عند المنعطفات. بدت الأغنية عالقة في أثير المضيق الجبلي تتكرر وحدها منذ زمن قديم. ابتعد الباص عن الساحل وتوغل في مرتفعات الجزيرة. كانت الشمس ترتفع والضوء الباهر لجزر المتوسط يغمر القمح والزيتون. مدرجات وجلول وأودية. أصفر ذهبي وأخضر زيتي مغبر. سكينة بلا نهاية حلّت حين أطفأ الشوفير الراديو. الركاب ليسوا كثراً. معظمهم خلد الى النوم. أو بدوا كذلك. ألبر سمعان تذكر باصاً آخر وصباحاً آخر وقارن بين الإثنين. شعر بسعادة غير محدودة لأنهم لم يقتلوه على طريق المطار. شعر بما يشبه الفخر. كأنه أنجز شيئاً مهماً. كأنه قاتل منفرداً وربح الحرب.

123
آل زخور 13 – الطابق الأول

الغبار يترسب على الأثاث من جديد. لم يترك عيسى زخور مفتاح البيت مع الناطورة. لم يجد أي ضرورة لذلك: يبست الشتلات على الشرفة قبل أن يسقط الهوليداي إن. الصمت كامل. تُعمّقه قطرة تنقط بانتظام من حنفية المجلى. في الثامنة صباحاً يهدر الأنبوب القصدير الممدود فوق التتخيتة. هذه المياه لا تكرّ من حمام البيت على الطابق الثاني (آل صعب يستعملون مثل معظم سكان «المبرومة» الحمام الآخر الفرنجي، بتوصيلاته الأحدث التي لا تثير قرقعة). بل من الحمام العربي القديم – جورة في الأرض– على الطابق الثالث. لا أحد يستخدم الحمام المذكور مرة أخرى أثناء النهار. السيد لويس الخوري لا يزوره أحد. كثير الخروج. يأخذ العصا ويغادر الحيّ. مشياً. أو بالتاكسي الذي يطلبه على التلفون. مرات يسير الى مكتب التاكسيات. في

نزوله على الدرج يسعل سعلة خفيفة على صحن الطابق الثاني. قبل بلوغ صحن الطابق الأول يقرع الحائط أحياناً. لا يزعج أحداً. يعرف أن آل زخور سافروا الى فرنسا. في صباحات قليلة يتلكأ بين البابين هنا. كأنه سيدقّ باب الأرملة برناديت ثابت. كانت تصعد وتخيّط مع زوجته. أيام كانت أم شارل ما زالت حيّة. وأم موسى ما زالت تمشي.

*

الصالون في بيت زخور. ذبابة دائخة ترتطم بالحيطان عاجزة عن الخروج. لوحتان زيتيتان متواجهتان. هدية من روسيا. مراكب وأشجار ونساء. نهر يتوسط الحقول. بيوت خشب بمداخن تزفر غيوماً رمادية. مع أن الطقس يبدو صيفياً. لعلها أفران للخبز والحلويات. على الكنبة الأقرب الى النافذة كتاب نسيه عيسى زخور هنا. أراد أن يأخذه معه. ظلّ يؤجل حزمه في الحقيبة. وفي النهاية لم ينتبه. مفتوح على الصفحة 138 - 139. «مذكرات جمال باشا».

*

غرفة ريمون. ثياب منكوشة على التخت. أحذية مبعثرة. أزواج جوارب. مثل طابات التنس. أحزمة جلدية بكلات فضية. الخزانة مفتوحة ومنبوشة. والده وضّب بعض ملابسه على عجل في إحدى الحقائب. لا ندري ماذا كان يفكر. أكثر من 80 في المئة. هذه العبارة حفظها لأن الدكتور كررّها. الحروق تغطي أكثر من 80 في المئة من مساحة جسمه. لماذا طوى اذاً البنطلون المخمل ووضعه مع القمصان الحرير الملونة؟ على المكتب حيث كان ريمون يدرس بين حين وآخر ترقد أقلام وكتب. دفاتر تحمل شعار الجامعة. الجوارير شبه فارغة. السفلي فقط لا يفتح. ثقيل وعالق. الأشياء محشوة فيه. اذا قلبنا هذا الجارور على السجادة نعثر في قعره (تحت كومة من الذكريات) على:

دفتر علامات باقٍ من صف البريفيه (ملاحظة مدرس الرياضيات: «ممتاز. الى الأمام.» ملاحظة معلمة العربية: «منعزل وإنطوائي! لا يشارك مطلقاً في الصف!»).

قلادة نحاس مقطوعة السلسلة.

دفاتر ورق سجائر لف، بافرا، رفيعة شفّافة، بيضاء بخط أزرق على الورقة البرّانية.

ورق لعب (كوتشينة) ناقص ثلاث أوراق: 7 بستوني و9 ديناري و2 سباتي.

سدّات قناني كولا.

رقعة داما بمربعات بيضاء وحمراء.

بلبل خشب.

قارورة كولونيا فارغة.

كبّاسة تزن كيلوغرامين على الأقل.

طبعة قديمة بالية من «الأيام» لطه حسين.

كتاب مدرسي (علم الحياة - الصف الخامس الإبتدائي - المنهج اللبناني) لطّخت صوره ببقع الزيت والزعتر. أعلى الصفحة الأولى:» ريمون زخور- بناية أيوب- بيروت».

هارمونيكا. 12 ثقباً. بطول مشط الشعر. برونزية وحمراء. تقشّر طلاؤها.

كوب بلّوري مذهب المسكة: في جوف الزجاج تظهر حروف إسمه.

كاسيت «بلوز» (أغنيات من الستينات لجون لي هوكر ومادي ووترز وألبرت كينغ).

ورقة مطوية مصفرّة خطّت عليها فيرا سرسق زخور رسالة (ثلاثة سطور تنتهي بإمضاء أنيق كرسمة) الى أستاذ يدعى لوسيان غاريوس:» نرجو المعذرة لولدنا ريمون الذي كان مريضاً أمس وحرارته 39 ولم يدرس للإمتحان.»

*

في باريس صارت أخته تأخذه في نزهات على ضفاف السين. مصعد

البناية قديم الموديل، ضيق المساحة. حين تدفع الكرسي المتحرك أمامها تضطر للدخول جانبياً قبل أن تتمكن من سحب البابين خلفها. الممرضة أنابيس تصحبهما في بعض الأحيان. يختارون مقهى يجاور النهر. يشربون شيئاً أو يأكلون بوظة. حين تقوم إحداهما بإطعام ريمون بالملعقة تلتفت وجوه عابرة وتسترق نظرة. جلبت له آلة تسجيل ببطاريات وشريط سمّاعة يتركها على كتفه. بعينه الواحدة الحيّة والأخرى الزجاج يثير فيها شعوراً بالحزن لا يصدق. كانت تترك الممرضة قاعدة وتدفع الكرسي أمامها. يقطعان مسافات طويلة وهو يصغي الى الكاسيتات شارداً حيث لا تعلم، وهي تنظر الى الغروب يلون العمارات وصفحة النهر. سقوف فيروزية تتشح بالأحمر. نوافذ تعكس الغيوم. جسور معلقة تحت مصابيح كهرباء. أزواج محبين يترنحون متماسكي الأيدي تحت الأشجار. ليموزين تتوقف أمام أوتيل. إمرأة عائدة الى بيتها تحمل رغيف خبز «باغيت». مركب ينفث دخاناً. لم يتكلما كثيراً. لكنها سمعت من أمّها عن صاحبته كاترين نمر التي بتروا ساقيها من الورك. انتبهت كيف تنقبض يده كلّما صادفوا مشاة ينطقون العربية. حفظت حبوب الدواء الضرورية في حال الألم المفاجىء الشديد. رصدت الخط البياني لحركة الحكاك في جسمه: في الليل يوقظه الجلد النابت في وجهه ويستحيل عليه النوم بلا حقنة. أثناء فترة الصباح ينهكه صدره وبطنه ورقبته. منذ الظهيرة تبدأ أوجاع ساقيه. قبل السادسة مساء يتركز الألم في أسفل ظهره وفخذيه. ينتقل بمساعدتهما الى السرير. يستلقي على جنبه. تدفعان المخدات وتجمعان المساند في نقط محددة لا تؤذيه لكنها تثبّته في مكانه. كانت نادين تقرأ له. مجلات وجرايد فرنسية. أخبار متفرقة من العالم. أشياء من الدنمارك (بواخر عملاقة تمزق شباك الصيد). أو غواتيمالا (زراعة الذرة منيت بخسائر فادحة بعد مرض لم يعرف سببه). أو الهند (الكائنات الغريبة في بحيرة عثمان ساغار خارج مدينة حيدر آباد). وجدت الصحف مسلية أكثر من المجلات. المجلات الاسبوعية الفرنسية يكرر بعضها بعضاً كأنها مجلة

واحدة بإدارة واحدة. المواضيع موحدة وكذلك صور الأغلفة! حاولت أن تضحكه بملاحظات من هذا النوع. سألها مرة عن أطروحة الدكتوراه، ما هو موضوعها بالضبط. شرحت له بإسلوب مبسط. أناييس قالت لها انها ممرضة بالفطرة. وجدت قولها فظيعاً ونفرت منها طوال ساعات.

❊

قبل نهاية أيار (مايو) بدأ يمدّ ساقيه ويقف منفرداً. حاول السير. وجد ذلك ممكناً لولا الألم في ركبتيه. احتكت الحروق عند المفاصل وأخرجت الأنفاس من صدره. استخدمت الممرضة مرهماً جديداً. برودة رائعة غزَت ركبته من الجهة الخلفية. تسرب البرد في بطن ساقه. أحسّ براحة نسي أنها موجودة. سالت الدموع على وجهه.

❊

زارهم أصدقاء من بيروت. كانت صلتهم وثيقة بالعائلة وأصروا على رؤية ريمون أيضاً. جلس معهم الى مائدة العشاء. على الكرسي المتحرك. لكنه لم يأكل. سمعهم يتكلمون عن خلدة ومطار بيروت وانتشار الجيش السوري في أماكن محددة والاشتباكات التي تندلع فجأة في قلب الغربية بين الفلسطينيين ومنظمة «الصاعقة» المدعّمة بالجنود السوريين. سألتهم فيرا هل ينوون البقاء في باريس. سمع إمرأة تضحك ضحكة غامضة ثم تتكلم عن بيت ريفي واسع مع حديقة دفعوا قسطه الأول، في البروفانس (جنوب فرنسا)، غير بعيد من كاسيس. حاول أن يدور برأسه الى جهة الصوت كي يرى صاحبة الضحكة. ضمادات الرقبة أعاقت ذلك. حرّر فرامل الكرسي ثم تحرك الى خلف.

124
آل سمعان 9 – الطابق الثاني

بلغ نيقوسيا قبل ثلاث ساعات من موعده. ظنّ أن الطريق من المحطة الى عنوان الشركة قد تكون طويلة أو معقدة. سائق التاكسي البيضاء الصغيرة ألقى نظرة واحدة على العنوان ثم كبس البنزين وأوصله في أقل من خمس دقائق. ترجل حائراً. دخل المبنى قبل مجيء الموظفين. قرأ أسماء الشركات على اللوحات المعدنية جنب المصعد. تأكد أنه بلغ هدفه. خرج ومشى أمام متاجر مقفلة. بلغ جزءاً قديماً من المدينة. طرقات ضيقة مبلطة وأبنية يونانية الطراز. الحجر رملي أصفر. ليس أبيض. رأى كناسين وعمالاً يحملون أدوات مختلفة يصعدون الى شاحنة ملأى بالصناديق. في زقاق عتيق رأى فرناً مفتوحاً واشترى قطعة كاتوه بزبيب. أكلها ناظراً الى شرطيين يتكلمان بصوت منخفض مع شرطية تربط شعرها الأشقر. انحدر في درب تحفها دكاكين زهور يسيل الماء على أرصفتها. عبق الورود المتعفنة سبّب له عطاساً. انتبه الى أسلاك شائكة في اللحظة التي أوقفه فيها شرطي طويل كنخلة. اكتشف ان نيقوسيا أيضاً مقسومة بخط تماس الى مدينتين. لم يرَ الجنود الأتراك في الجانب الآخر. اعتذر وبادل الشرطي تحية الصباح (غود مورننغ). تراجع سريع الخطى عابراً تحت شرفات خشب مزينة بالزهور شاعراً بخوفٍ طفيف. كانت المقاهي تفتح أبوابها. أطلّ سواح ضاحكون من أبواب فنادق دوّارة. صف فنادق تتراصف أمامه تاكسيات وباصات صغيرة. كانوا إنكليزاً وسويديين ونروجيين. رجال ونساء. معظمهم يتقدم في السنّ. لوّحت شمس قبرص أبدانهم الأوروبية البيضاء. بلغته أحاديثهم. مزيج اللغات. ارتاح حين جلس. طلب كوب حليب بالنسكافيه. فتح حقيبته على الطاولة وأخرج منها ظرفاً. تأكد مرة أخرى من أوراقه. سي في (السيرة).

رسائل التوصية بالانكليزية والفرنسية (لمن يهمّه الأمر). والشهادة العالية من بوليتكنيك زيوريخ مع ثلاث نسخ عنها.

❊

انتقى من سلّة المقهى مجلة سينما. تجاوز مقابلة مع صوفيا لورين وقرأ عشوائياً مقاطع متفرقة من سيناريوهات أفلام تعرض حالياً في الدور الأميركية. «الآن أرى بوضوح: حياتي كلّها كانت تسير في هذا الاتجاه. لم يكن هناك أي خيار آخر لي.» رفع وجهه ونظر الى السيارات الواقفة عند التقاطع تنتظر تغير إشارة السير. شرب البلعة الأخيرة وهو يشعر بالتفاؤل. أحبّ الجملة التي قرأها وأحسّ أنها تنذره بأشياء طيبة. «حياتي كلّها كانت تسير في هذا الاتجاه.» طلب الفاتورة. دفع الحساب. ترك عشرة في المئة بخشيشاً. ألقى نظرة أخرى على ساعة المقهى ثم على ساعته. وقام واقفاً.

❊

أبقته السكرتيرة منتظراً أقل من أربع دقائق. بدت أربعة شهور بالنسبة إليه. في مكتب يغلب عليه اللون البنّي استقبله مدير بريطاني لا يتجاوز الستين من العمر. السكرتيرة ظلّت واقفة في الباب. سأله المدير وهو يدعوه الى الجلوس ماذا يفضل، الشاي أم القهوة؟«ما تشربه.»

همس المدير كلمة «تي» همساً. انسلّت السكرتيرة وانغلق الباب.

❊

تكلّما بالانكليزية. ركّز ألبر أفكاره. قرر ألا يتشتت كما يحدث له دائماً في الأماكن الغريبة عنه. وجد المكتب مرتباً لامع الخشب بارق الجلد كأنه طلي زيتاً.

«أود منك أن تخبرني باختصار عن عملك حتى الآن.»

في خمس دقائق أنهى المهمة.

«هذا جيد. وأنت تفكر في الاستقرار هنا؟»

«أعتقد أن هذا أفضل حلّ بالنسبة إليّ وإلى زوجتي حالياً. في ظلّ ظروف لبنان.»

«أوه لبنان. للأسف الشديد. بالفعل. أنا أعرف بلدكم. زرته أكثر من مرة. بعلبك. فاريا. بيروت. أنا أسمع البي بي سي كل صباح. كيف يمكن لبلد متطور مثل بلدكم أن يصاب بالجنون هكذا؟»

125
آل حبيب 13 – الطابق الرابع

«على شاطىء الرملة البيضاء في الثالثة والربع بعد الظهر توقفت سيارة بلا رقم وألقت على الشاطىء ثلاث جثث ملفوفة ببطانيات رمادية. وبعد دقائق حضر عناصر من «قوات القادسية» وكشف أحدهم على الجثث ووصفها على الشكل الآتي:» إثنان شعرهما أشقر يرتديان ملابس عادية وينتعلان حذاءي كاوتشوك. أما الثالث فأسمر، شعره يميل الى الشيب، وشارباه سوداوان يخالطهما بعض البياض.» وأضاف:» ان النار أطلقت عليهما من مسافة قصيرة فاستقرت الرصاصات في الصدر والرأس ونفذت الى الجهة الأخرى، ويبدو من الدماء التي كانت لا تزال طرية ان القتل وقع قبل ساعة على أبعد تقدير.» وذكر شاهد «ان سيارة تابعة للصليب الأحمر جاءت قرابة الرابعة والنصف ونقلت الجثث الثلاث الى جهة مجهولة.» وكرر شاهد عيان آخر المعلومات نفسها ولاحظ ان الجثث الملفوفة بالبطانيات ربطت اثنتان منها بحبلين والثالثة بشريط كهرباء. وأشار الى أنه لاحظ دماً ينزف من رؤوس الثلاثة. وأوضح ان إحدى الجثث كانت لرجل يميل الى البدانة وقد استقرت فيها رصاصتان في الرأس واحدة قرب العين اليمنى وثانية فوق الأذن اليمنى أما الثالثة فاستقرت في الصدر قريباً من القلب.»

*

كان ذلك الوقت من الشهر، وهي تعاني آلام البطن والظهر والرأس. لجأت الى غرفة أخيها وأغلقت الباب على نفسها. فتحت خزانته. أدخلت وجهها بين القمصان المعلقة. تنشقت بعمق. كي يرجع إليها. كانت الرائحة تضعف. كأنه بدأ يتلاشى. أبكتها الدورة. سمعت حركة في الممر. مشاية تزحف على البلاط. جلست على حافة السرير. سمعت قلبها ينبض. في مكان بعيد، في وقتٍ آتٍ، تنتظرها حياة أخرى... إذا وصلت الى هناك.

❋

حين انعطف داخلاً الى حيّ العبد فاجأته الكهرباء. السيدة طانيوس (أم جان) كانت واقفة على الرصيف تتكلم مع عدد من الأشخاص. ألقت عليه تحية مهذبة كعادتها. اللمبات شعشعت على الدرج. بينما يغرز المفتاح في ثقب القفل انتبه الى ظرف أبيض متروك تحت السجادة (الدعسة). انحنى والتقطه. ليست المرة الأولى. الذين يتركون هذه الدعوات يتجنبون قرع الباب على الأرجح. يعرفون أن زوجته في الداخل.

«على دربك التقينا ربّي، فبارك حبّنا وقدّس زواجنا واجعله سعيداً»

أمين مرشد أسطفان وعائلته خليل جوزيف حبيب وعائلته

يتشرفون بدعوتكم إلى حضور إكليل ولديهم

مرشد & ألبينيا

وذلك يوم السبت 19 حزيران 1976 الساعة السادسة مساء في كنيسة مار سمعان- الكورة.

يلي الإكليل حفل عشاء الساعة الثامنة في مطعم «لوبتيت بارادي» (الجنة الصغيرة).

فرحتهما تبدأ مع الرب وتكتمل بحضوركم

للتأكيد أو للإعتذار

الاتصال قبل 2 حزيران

آل أسطفان 351769

آل حبيب 367281

*

ردّ البطاقة الى الظرف الذي رُسمت عليه فراشتان تطيران جنباً الى جنب. طواه مرتين وخبّأه في جيبه. كان البيت ساكناً معتماً. على الكنبة حد التلفون وصورة كارلوس، وجد غابي نائمة حافية القدمين، والمشاية مقلوبة على الأرض. الغطاء تجمّع وراء ظهرها. وقت طويل مرّ على ميشال حبيب قبل أن ينتبه أنه يتجنب النظر الى زوجته. مثل ولده الذي اختفى، اختفت غابي التي يعرفها. أثناء الشهور الماضية، بينما يبعد نظره عنها عاجزاً عن تحمل النكبة في عينيها، لطمها الزمن بأقسى لطماته. ابيّضّ شعر رأسها. تهدّل وجهها. تكاثرت التجاعيد حول عينيها وفي رقبتها. لم تنطفىء تماماً بعد انهيارها العصبي. هيكلها الباقي تحرك على مهل بين الغرف، وضع ركوة على النار، تفقّد شريط التلفون، راقب الشارع من النافذة. لكنها لم تكن هي: فقط الظلّ الذي تُرك هنا كي يستقبله عند المساء. نظرتها تفتك بقلبه. لم يفهم كيف أو متى حدث هذا الإنقلاب: لاحظ أنها تراقبه بعطف وشفقة. بنوع من الحنان تغدقه الأم على إبنها أكثر مما تغدقه زوجة على زوجها. مع أنها أصغر منه بثلاث سنوات! ومع أنه كان هو دائماً من يرعاها! «يشيخ الزوجان جنباً الى جنب فيسند أحدهما الآخر.» هذه نعمة ربّانية أخرى مُنعت عن بيته. غسل يديه بالصابون والماء وظلّ واقفاً أمام المغسلة.

*

جريدة الاربعاء 26 أيار(مايو) 1976: الاشتباكات ورصاصات القنص تعكر أجواء الهدوء النسبي في بيروت. سقوط 33 قتيلاً وإصابة 57 والعثور على 11 جثة. القتال لم يتوقف في محاور الضاحيتين الجنوبية والشرقية.

الجبهة الشعبية: 19 اعتقلتهم «الحواجز السورية». أعلنت أمس «الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين» ان «حواجز القوات السورية في لبنان تواصل

تعرضها للمناضلين من المقاومة الفلسطينية والحركة الوطنية، فتعتقل العديد منهم وتنقلهم جواً الى دمشق.» وأوردت الجبهة أسماء 19 شخصاً قالت انهم «اعتقلوا بين 1 و5 أيار الجاري على حواجز دير زنون والمطار وخلدة والروشة وأودعوا السجن في سوريا.»

سجّل الوضع الأمني قبل ظهر أمس في بيروت والضواحي توتراً ملحوظاً بسبب استمرار الاشتباكات. ففي قطاع المرفأ- فتال سجل بعض الهدوء المتقطع قبل الظهر بعد ليلة شهدت تراشقاً قوياً بالقذائف والرشاشات الثقيلة. وفي فترة بعد الظهر نعمت المنطقة البحرية بهدوء متقطع لأن الرصاص ظل خفيفاً ودار قنص بين المحاور المتقابلة. اما المنطقة التجارية فقد شهدت تراشقاً متقطعاً امتد من ساحة الشهداء حتى السوديكو. وتركزت الاشتباكات بين خطوط باب ادريس والمعرض والبرج. وسجل تراشق بالقنابل اليدوية والقذائف الصاروخية. ونشطت عمليات القنص على كل محاور اللنبي والأوتوماتيك والريجنت والباريزيانا والامبير والريفولي وسوق الصاغة وأبو النصر والأم جيلاس واللعازارية وبيغال. وفي خط سوديكو- رأس النبع جرى تراشق بين المحاور المتقدمة رافقته قذائف متقطعة وحصل قنص غزير في اتجاه الخندق الغميق. اما في محور المتحف فلم تسجل المعلومات التي توافرت نهاراً أي حادث اطلاق نار مما شجع السيارات على التنقل بكثافة بين المنطقتين الشرقية والغربية. وقد تعكر الجو بعد الظهر بين محاور رأس النبع ودار التوليد الفرنسية والناصرة وسوديكو ومونو وعبد الوهاب الانكليزي على اثر تراشق بالرشاشات والقذائف واشتداد أعمال القنص فقتل شخصان وجرح ثلاثة وعثر على جثة وراء تمثال بشارة الخوري. الى ذلك أسفر القنص والاشتباكات عن مقتل سبعة أشخاص وجرح تسعة والعثور على ثلاث جثث قرب زاوية مقهى «لاروندا» في ساحة الشهداء. وفي المساء سقطت قذائف صاروخية في ساحة كركول الدروز فأحرقت 8 سيارات وامتدت النار الى مدخل بناية كنيعو ومستودع المطاط فيه ثم الى بقية أجزاء البناية مما أدى الى

اخلائها من السكان بواسطة سلالم رجال الاطفاء. من جهة أخرى لوحظت أمس استحكامات ومتاريس بأكياس رمل في مراكز عدة في المطار خصوصاً في البوابة الرئيسية وبرج المراقبة.

المعلومات العسكرية: قالت مصادر «القوات اللبنانية» ان تبادل رشقات المدفعية المضادة للطائرات في اتجاه الملالات والآليات البعيدة دار في محور الأسواق والمنطقة التجارية وامتد الى خطوط باب ادريس والمعرض وساحة الشهداء وكذلك في المحاور التقليدية في مناطق المحكمة العسكرية والمتحف والسيار.» وقال البيان اليومي «للقيادة المركزية للنمور الاحرار» ان قواتها «تسيطر سيطرة تامة على كل المراكز المتقدمة على طول طريق الشام وعلى المراكز المشرفة على الخندق الغميق والبسطة ومحمد الحوت.» اما «المرابطون» فقد ذكروا في بيانهم اليومي انه في محور الريجنت- الريفولي قصفت قواتهم مبنى الريجنت مما أدى الى اشتعال النار في الطبقات العليا وتدمير مربض رشاش 500 وقصفت أيضاً المتراس الملاصق لمبنى بيبلوس. وفي محور الفتال- بناية البورصة ذكر بيان «المرابطون» ان «الفريق الآخر قصف بشدة بنك سورية ولبنان وشارع البورصة وردت قواتنا على هذا التصعيد بقصف أشد عنفاً وكثفت الرماية من رشاشاتها المتوسطة والثقيلة التي استهدفت مراكز تجمعات قوات الانعزاليين واسكتت مصادر نيرانهم. وقصفت قواتنا المتراس الرملي عند المفرزة البحرية.» وعن منطقة اليسوعية- طريق الشام قال «المرابطون» ان ضابطاً تابعاً لهم «قام بعمليات استطلاع أولية لاماكن تحركات العناصر الانعزالية واكتشف شبكة ألغام عددها سبعة موزعة في المنطقة الخلفية لمخفر طريق الشام وفي جوار مبنى اشمون وتحت جسر بشارة الخوري. وعلى الاثر رافق المجموعة الانتحارية الرقم 1 ضابط الهندسة الى منطقة شبكة الالغام وتولت المجموعة تفجيرها بعد اشعال النار في محيطها. وسمع دوي الانفجارات السبعة في أنحاء العاصمة. وعادت قواتنا الى مراكزها المحددة بعد تنفيذ العملية.» وقال بيان ل«قوات ناصر» ان

قذائف سقطت في المصيطبة الساعة السابعة والنصف أدت الى احتراق عدد من الابنية واصابة 12 شخصاً 3 منهم في حال الخطر. وقال البيان ان «قوات ناصر ردت على مصدر القذائف برمايات مضادة وأمنت حراسة على البنايات المحروقة.»

الضاحية الجنوبية: عرفت الضاحية الجنوبية هدوءاً نسبياً طوال الليل الأسبق ونهار أمس على رغم ان محاور الشياح- عين الرمانة شهدت تراشقات عنيفة رافقها تبادل قذائف هاون وار بي جي ومضاد للطائرات. ففي الفجر جرى تراشق في محور مار مخايل- سبورت كولا استمر عشر دقائق وتخلله بعض القذائف. كذلك حصل تراشق في محور غاليري سمعان وآخر في محور مار مارون حيث سقطت بعض القذائف. وذكرت مصادر شبه رسمية ان تسعة أشخاص قتلوا وان 11 آخرين جرحوا. وعثر على جثتين في ساحة البريد وعلى واحدة قرب مستديرة الطيونة وعلى أخرى قرب الداتسون.

الضواحي الشرقية: في الضواحي الشرقية تدهور الوضع الأمني ليلاً وجرت معارك عنيفة في كل محاورها وتجدد القصف بالهواوين على الأماكن الآهلة. وقالت «القوات اللبنانية» ان الدكوانة قصفت بقذائف مدفعية من عيار 21 و82 و 120 ملم من دون ان تسجل أي اصابة مباشرة. اما بيان «النمور الاحرار» فجاء فيه ان «مقاتلي الفريق الآخر والفلسطينيين حاولوا التسلل الى منطقة الدكوانة ممهدين لعملياتهم بقصف متواصل بالهاون والمضاد فردت قواتنا على المهاجمين بقصف متواصل وأجبرتهم على التراجع (...) ودامت الاشتباكات بالاسلحة الثقيلة طوال الليل بين سلاف وتل الزعتر.» وجاء في بيان «القوات المشتركة» ان «جبهات القتال في الضاحية الشرقية لم تهدأ واستمر القتال حتى ساعات الفجر في شكل عنيف على كل محاور القتال التقليدية ثم أخذ يخف تدريجياً الى ان توقف صباحاً لتستمر اعمال القنص فأصيب علي رضوان (14 عاماً) في رجله.» وقالت «القوات اللبنانية» ان محاور النبعة كانت مشتعلة وان قنصاً جرى على الأشرفية في الصباح.»

وقال «نمور الاحرار» ان مراكزهم في البراد اليوناني وعزوز قصفت في شكل عشوائي وبكل عيارات الهواوين من جهة النبعة وسقطت قذائف هاون عدة على سد البوشرية. وشهد محور الانجيلية- بلازا تراشقاً متقطعاً ليلاً تحول الى قنص فقتل من جرائه ولد عمره 8 أعوام وأصيب مواطن برصاصة في رجله. وكانت عمليات القنص مكثفة في كل محاور المنطقة وأحيائها السكنية. وأفادت مصادر شبه رسمية انه «قتل 9 أشخاص في أثناء المعارك وجرح 7 آخرون وعثر على جثة في سلاف وعلى أخرى عند جسر سن الفيل.» وقال «الحزب القومي» ان قذائف هاون سقطت على مواقعه في الضاحية الشرقية «وحاول الانعزاليون التسلل الى مواقعنا في ظهر الجمل من جهة معمل كراون في سن الفيل حيث صدّتهم مكامننا الامامية.»

*

جمعهم الملجأ تلك الليلة. في البيت تعلموا أن يبتعدوا من درب بعضهم بعضاً. لم يحتفظوا بتقليد العشاء العائلي المشترك وقتاً طويلاً بعد اختفاء كارلوس. سهّل التفرّق مرض غابي. حين ردّ اليها الليثيوم قدرة معقولة على التصرف بهدوء ورجعت الى أعمال المطبخ اكتشفت ان هذا غير ضروري: الصبايا صرن يأكلن خارج البيت في معظم الأحيان أو يحضرن شيئاً خفيفاً وحدهن. هي مرضت والخادمة هربت وميشال نادر الحضور في البيت. اذا جلس كي يأكل لا ينهي الصحن. تفقّد المستشفيات وارتياد مكاتب الارتباط والمراجعة شبه اليومية في مخافر الدرك، كل هذا أنهك الرجل.

*

بناته الثلاث كنّ من قبل قريبات منه. بدأ الابتعاد تدريجياً حين كبرن. لكنه لم يتكرس إلا بإختفاء كارل. قبل ذلك اعتقد أن ابتعادهن موقت وطبيعي وانه سيستردهن بمرور سنّ المراهقة. حين تحوّلت نهاراته الى جولات مثلجة في الجحيم جرب أن يجد عزاء وسلوى ودفئاً في وجوه البنات. كان يدور في

البيت، يبحث عنهن ولا يجدهن. اذا جلس مع حلا شغلت نفسها بكتاب. اذا وجد آنا في غرفتها أخبرته أنها ستتحمم الآن. واذا التقى هالة في الممر أخبرته أنها مستعجلة ومضطرة للخروج. تكون أحياناً عائدة الى البيت للتو! تبدّل ثيابها وتخرج من جديد! لم يفهم لماذا يُطرد هكذا خارج عالمهن. كن يسلكن أقواساً مائلة في أنحاء البيت كي يتجنبن التلاقي. حين يدخل الى الصالون من هذا الباب يخرجن من الباب الآخر! لم يتوهم الأمر. قبل أن يخسر الصبي لم يهتم: وجد هربهن منه مضحكاً. وأخبرهن. غابي ضحكت أيضاً لكنها طلبت منه حين انفردا (غرفة النوم الزهر في بيت عين الرمانة) أن يتقبل من الصبايا هذه المزاجية. هزّ رأسه مبتسماً. كانت منتعشة مسرورة تمشط شعرها قبالة المرآة بفرشاة جديدة، في عالمٍ ساكنٍ أليفٍ لم تملأه الجثث بعد.

126
آل طانيوس 6 – الطابق الخامس

أم جان صاحبت الدركي شريكهم في المحل قبل أن تشلّه الرصاصة. لم تندم على النوم معه إلا في مناسبة واحدة: شعرت أن البنت الكبيرة (لينا) عرفت ماذا يحدث. تأكدت من صواب شعورها حين لم تسألها البنت لماذا كان الباب مقفلاً من الداخل.

*

ذهبت مع زوجها كي تزور المسكين في بيته. أخذت معها بعض الأشياء لزوجته المنكوبة إبنة السمكري والناطورة. كان نائماً على ظهره مغطى بالبطانيات. حين هزّته زوجته من كتفه ظلّ نائماً. عبثت بشعر رأسه وهي تبتسم لهما ابتسامات غير مفهومة. دخان البخور خنق الهواء. تساءلت أم جان لماذا النوافذ كلّها مقفلة. فتح مخايل شليطا المنحوس الحظ عينيه. انتحب

مثل الأطفال بينما زوجها يقوّيه بالحكي ويعده بالوقوف والمشي والركض من جديد. نظر إليها مثل كلب يحتضر. تألمت من أجله. حزنت عليه. في السيارة وضعت يدها على كتف زوجها وتأملت الأشجار تطلّ من جنائن دير الناصرة يابسة صفراء لا يسقيها أحد. ظلّت معتكرة ساعتين. في المحل أبهجها لقاء مفاجىء.

*

شاب عشريني لم ترَه من قبل دخل وسأل عن إسم صاحب البناية.

«ماذا تريد منه؟»

اقترب خطوة. كان وسيماً يلبس نظارتين على الموضة ويحمل دفتراً صغيراً شبيهاً بالدفاتر التي يحملها جابي الكهرباء.

«أريد إسمه. ومقابلته. على أي طابق يسكن؟»

أخبرته انه على الطابق السادس، الباب على اليمين. قبل أن يستدير ويخرج دخلت فتاة من سنّه أو أكبر بقليل، قصيرة مبرومة كالسطل، تحمل دفتراً مثل دفتره. قالت له انها سألت في محطة البنزين وأخبروها ان الرجل في المكسيك ويدعى أيوب العبد وهو صاحب المطاحن.

«لا. الرجل هنا على السادس.»

التفت صوب المرأة وراء المكتب في صدر المحل كي تؤكد لرفيقته اكتشافه.

«بيته على السادس. لكنه بالفعل مسافر منذ فترة.»

*

كانا من عناصر «هيئة الأشرفية الشعبية». شرحا لها انهما يعملان ضمن مجموعة مكونة من عشرين شاباً وشابة (بالتنسيق مع «الشعبة الخامسة» في حزب الكتائب و«قسم التموين والاعاشات» في حزب الوطنيين الأحرار)

على إعداد لوائح مفصلة بسكان المنطقة. طلبت لهما قهوة وماء. امتنعا عن قبول الضيافة لأنهما يؤديان الواجب. لكنها أصرّت. الصبية جلست مثل رجل على الكرسي. الشاب وضع ساقاً على ساق وأراح دفتره على حافة المكتب. كان وجهه يحمر قليلاً حين تداعبه بالحكي. رفيقته بدت مهتمة أكثر بالبرادات والغسالات المعروضة. أشارت أم جان إلى عدد من التلفزيونات في الزاوية وأخبرتها انها وصلت للتو من كوريا الجنوبية. أزاحت الصبية الكرسي الى وراء ونهضت كالثور وغابت وراء التلفزيونات وأجهزة التبريد الباقية في صناديقها.

*

أعطته الأسماء التي يحتاج إليها. تأملته وهو يصغي ويسجل في الدفتر.

«أول شيء بيت الناطورة. بنايتنا سبسيال. ناطورة. وحلوة. وتعجب خاطرك. سجل عندك: راغدة زغلول. لا أعرف إسمها الثلاثي ويجوز هي أيضاً لا تعرف. زوجها عبدو فرحان زغلول. عندها ثلاث بنات وصبي. البنت الرابعة متزوجة من دركي بيته بالناصرة. البنت الكبيرة مفقودة منذ فترة. الله يساعد أهلها. الصبي يوسف. البنت المخطوفة كوليت. على الطابق الأول بيتان. بيت عزيز ثابت فيه امرأتان. الكبيرة مفلوجة إسمها برناديت. أم موسى. لا تخرج. معها إبنتها، ليديا، مطلّقة، ممرضة في أوتيل ديو. أبوها كان في الجيش اللبناني. قتلوه. وأخوتها الثلاثة استشهدوا معكم. أنت كتائب أم نمور؟ الشباب الله يرحمهم كانوا ثلاثتهم كتائب. بيت زخور ليسوا في لبنان. راحوا أول الحرب. عيسى زخور صاحب شركة الشيفروليه. زوجته إسمها فيرا سرسق. من بيت سرسق أصحاب قصور الرميل. عندها صبي وبنت. الصبي ريمون كتائب، واحترق بالهوليداي إن. البنت لا أعرف إسمها. سأسأل لك بعد لحظة. سجلْ على الطابق الثاني: بيت المهندس ألبر بطرس سمعان وزوجته ريما. عندهم ثلاثة أولاد. ليسوا هنا. تركوا لبنان. المهندس يسافر ويرجع. الله يساعده من دون إمرأته. أنت تعرف. على

الطابق ذاته بيت الصائغ ملحم صعب، مهجر من القنطاري، وساكن عنده ابن عمه المهجّر من الدامور. عندنا في بنايتنا عائلتان من الدامور. سأصل بالدور. ملحم صعب زوجته اسمها... نسيت اسمها، أم وليد. عندها ثلاثة أولاد والكبير وليد. لا، أصغر من 18. عمره 11 أو 12. المهجر القاعد عندهم اسمه يوسف صعب، زوجته اسمها هند، عندها صبي وبنت. وديع وجميلة. كلهم صغار. الأولاد. على الثالث بيت الخواجه لويس الخوري. أرمل. إبنه الكبير شهيد. شارل الخوري. صورته معلقة على المدخل. حد صورة كوليت زغلول. وإبنه الثاني على جبهة جسر الباشا. أصيب في اقتحام النورماندي. جرجي الخوري. سمعت عنه؟ هنا كل ناس الحيّ يتكلمون عنه. الله يردّ عنه الرصاص. وصلنا على بيت اسحق عطية وهدى عطية. عندهم أربعة أولاد. كلهم صغار الا البنت، راشيل، عمرها 18 أو 19. ومعهم بالبيت أم أسحاق. مريضة ختيارة. خرفت. بيت عطية يهود. على الرابع بيت منصور رزق. المحامي. زوجته الست أم كريم. الابن الكبير سافر الى أستراليا. بقي الصغير رامي، وأخته سارة وأخته رولا. سارة عمرها 21 أو 22. رولا 18 أو 19. على الطابق الرابع بيت ميشال حبيب. الله يصبّره هو وزوجته. عندهم صبي واحد، كارلوس، طالب في الجامعة الأميركية. خطفوه قبل سنة. وراح. وعندهم ثلاث بنات. آنا حبيب وهالة حبيب في الجامعة. حلا أصغر. عمرها 17 أو 18. كل واحدة أجمل من أختها. وشقر. وبيض مثل اللبن. نحن بيتنا فوق بيتهم. زوجي أبو جان. نسيب طانيوس. جان صغير. ونورا عمرها 16. ولينا الكبيرة. وأنا قدامك. حدنا بيت غسان زيدان. صاحب محل الحلو على ساسين. مهجّر من الدامور. هو وزوجته وأولاده. أربعة. كلهم صغار تحت ال18. على السادس صاحب البناية. مثل ما قلت لك. والبيت الثاني استأجره منذ شهرين دكتور مهجّر من الغربية. دكتور أستاذ وليس دكتوراً بالمستشفى. إدغار معلوف. إبنه الكبير في أميركا. الأصغر من الكبير إسمه جوزف. عمره 18. أو 17. والأصغر مروان. والبنت ليلى. على الطابق السابع، وصلنا الى

خوابي العسل. خمسة بيوت. بيت الأستاذ أندريه موراني. معه إبنته. ماتت أمها وصارت ساكنة عنده. أمّها كانت مطلّقة. لورا عمرها 17. جنب بيت الاستاذ أندريه بيت الصيدلي عازار. أبو سعيد. إبنه الكبير سعيد في «التنظيم». مقاتل في الأسواق التجارية. إبن الصيدلي الصغير اسمه شربل. وعنده ثلاث صبايا: كلوديا ودارين وهناء. الأم ناجية. لسانها أطول من برج إيفل. عملوا حسنة وتبنوا طفلة سمّوها مرغريتا. حدهم بيت بولس الحويك. شوفير سرفيس. زوجته كميلة عندها أمها الختيارة. أخوها صحافي وبيته في الغربية. بولس الحويك خطفوه ورجع. يمكن ما تحملوا حكيه ونقّه. وجهه مثل قالب الجفصين. عنده بنت شاطرة اسمها سابين. وأربعة أولاد غيرها. كلهم صغار. حدهم بيت اللحّام أمين بدور. مهجّر من كورنيش المزرعة. كان عنده دكان. فجّروه. إبنه الوحيد أطرش أخرس. صغير. زوجته جورجيت. عندها ثلاث بنات. الكبيرة ريبيكا. بيت عازار أصلهم من المسلخ أو الكرنتينا. تهجروا أول المعارك. هربوا من الأكراد. ومن أسبوعين صار عندنا بيت ثالث مهجر على الطابق السابع. بيت داغر داغر. تهجروا من الغربية. أرملة وثلاثة أولاد. المرأة اسمها إنعام. أولادها كلهم صغار. يتامى الله يساعدهم. أبوهم قتل على باب بيتهم في رمل الظريف. قوصوه وسرقوا السيارة.»

127
آل عازار 10 – الطابق السابع

الطفلة على فرشة تحت النافذة. ترفع قدمها المدوّرة وتحاول أن تقبض على إبهامها بيدها الصغيرة. غرغرتها تجلب الطيور. ظل الحمائم يخفق على البراد وهي تهبط على حافة السطح أو على إفريز النافذة. صحة مرغريتا جيدة. 8 كيلوغرامات. 64 سنتمتراً. أشعة الشمس تضيء ذرّات الغبار. حين تنتهي كلوديا من إعداد الحليب تصيح الطفلة. لعلها جاعت فعلاً. أو لعلها شمّت

الرائحة الحلوة وتود أن تحتفل. تتلقى الرضّاعة ضاحكة الأسارير. كلوديا تحملها على صدرها. الطابق السابع هادىء هذا الصباح. ذهبوا الى القداس وتركوها في النعيم. تتشوق الى الساعة التي تبقى فيها وحدها معها.

❋

في الزاوية «سحّارات» (صناديق خشب) تتراصف فوق بعضها بعضاً مقلوبة على جنبها: هذه مكتبتهن. حين جلبن الصناديق من سوق الخضر سألهن شربل من أين سيجلبن سكربينات كفاية؟ كانت أمهم تضع الأحذية والسكربينات في «سحّارات» مشابهة في البيت القديم. وتغطيها بشرشف أحمر وأبيض لئلا تواجه الضيوف. الصبايا الثلاث ملأن الصناديق بكتب لا أحد يعلم كيف تجمعت بالضبط. الست ناجية عازار طالما تعجبت من بناتها. في عيدها تطلب البنت أسوارة أو عقداً أو تنورة هدية. إلا بناتها. يطلبن من أبيهن كتاباً من بسطات اللعازارية والمعرض والنورية. وهو مثل الأبله يأخذ العنوان المكتوب على الورقة ويبرم على البسطات ويجلبه لهن. لم تكن أميّة ولا هو أميّ. لكنها لم تفهم ماذا يفيدهن بهذه القصص. تستطيع أن تقرأ عناوين الجريدة واللافتات المعلقة فوق الدكاكين. واذا أراد منها المختار أن تكتب إسمها وتوقع في أسفل الطلب أو الاستمارة تفعل ذلك بسهولة. لا تغمس إبهامها بالحبر وتبصم إلا إذا كان الأمر إضطرارياً بالنسبة الى الدولة. أنهكتها كلوديا ثم دارين ثم هناء. ولا واحدة منهن قبلت أن تتعلم الطبخ! كانت تضيعهن حين تحتاج الى مساعدة في الغسيل أو الكناسة ولا تجدهن الا بعد زمن، على الدرج أو على السطح. ومعهن كتاب! كرهت الكتب وساعتها وخصّت أستاذاً إسمه نجيب محفوظ باللعنات. كان قاعداً في القاهرة عاصمة مصر ولا شغل له إلا تسويد الورق وطبع القصص وإرسالها الى لبنان كي يفسد عقول بناتها الثلاث. كيف يقبل شخص محترم أن يقضي وقته في هذه الأعمال؟ كفّت عن مطاردة البنات بالأوامر حين دخلت كلوديا الجامعة لدراسة القانون. فجأة شعرت الست عازار أنها ضئيلة وبلا قيمة وأي واحدة

من بناتها يمكن أن تصير محامية أو دكتورة! مع مرور الوقت تغيّر شعورها: صارت فخورة بامكانيات البنات اللواتي ربّتهن وسهّلت عليهن الحياة بألف طريقة كي يتمكنّ من متابعة الدراسة. كم مرة تولّت بدلاً منهن أشغال المنزل كي يقرأن أو يكتبن الفروض؟

*

كلوديا هي التي بدأت المجموعة لكن دارين أكملتها. ظلّ ينقصها الكتاب الأول فقط. على صندوق مخصص لنجيب محفوظ ألصقت ورقة مقطوعة من كتاب:

(مكتبة مصر 3 شارع كامل صدقي- الفجالة. دار مصر - سعيد جودة السحار وشركاه)

مؤلفات الأستاذ نجيب محفوظ

1 - مصر القديمة (1932).

2 - همس الجنون (1938).

3 - عبث الأقدار (1939).

4 - رادوبيس (1939).

5 - كفاح طيبة (1944).

6 - القاهرة الجديدة (1945).

7 - خان الخليلي (1946).

8 - زقاق المدق (1947).

9 - السراب (1947).

10 - بداية ونهاية (1949).

11 - بين القصرين (1956).

12 - قصر الشوق (1956).

13 - السكرية (1957).

14 - اللص والكلاب (1961).

15 - السمان والخريف (1962).

16 - دنيا الله (1962).

17 - الطريق (1964).

18 - بيت سيىء السمعة (1965).

19 - الشحاذ (1965).

20 - ثرثرة فوق النيل (1966).

21 - ميرامار (1967).

22 - خمارة القط الأسود (1969).

23 - تحت المظلة (1969).

24 - حكاية بلا بداية ولا نهاية (1971).

25 - شهر العسل (1971).

26 - المرايا (1972).

27 - الحب تحت المطر (1973).

العناوين الثلاث الأخيرة أضافتها دارين بخط يدها:

28 - الجريمة (1973).

29 - الكرنك (1974).

30 - حكايات حارتنا (1975).

*

«الكرنك» استعارته من مكتبة المدرسة ولم ترده. مغلف بنايلون أزرق. لن يرجع الى المدرسة لأن البنايات الثلاث اختفت: نُسفت ورُفع ركامها بالجرافات ثم ألقي مع ردم المسلخ والكرنتينا في خليج برج حمود.

*

مرغريتا أنهت ما في القنينة. ظلّت تحاول أن تجد حليباً. حين أزعجها الهواء أبعدت الرضّاعة. كلوديا ضحكت وهي تناولها قنينة ماء. استرخى الجسم الحار على صدرها. تشكّلت قطرات عرق على الجبهة الجميلة. ارتخت قبضتها ونامت. بقيت كلوديا كما هي لا تتحرك. كانت بقعة الشمس أسفل الكنبة. بيضاء باهرة. ثم استطالت حتى بلغت الباب. وهي ثابتة. مسحت بيدها على الرأس الدافىء. ردّت خصلة متعرقة. من الخارج أتى قرع أجراس الأحد. وقعت نظرتها على كتب الجامعة. كانت تعلو «المكتبة» وجنبها صنم نحاسي جلبه سعيد قبل فترة. تمثال غريب بحجم علبة كلينكس لرجلٍ هندي أو صيني جالس مكتفاً منتفخ البطن وهو يمدّ من الأمام والخلف عدداً كبيراً من الأذرع والسيقان. تحايلت في حركتها ومدّت الطفلة على الفرشة. لم تفتح مرغريتا عينيها لكنها أخرجت نفساً دافئاً سكرياً وقطرات حليب. مسحت فمها. تكومت جنبها أنفاً لأنف. كانت تشمّها كما تشمّ كلبة جراءها. ثم قامت ومشت الى الكتب.

❋

أنزلتها ومسحت غبارها. تصفحت «دليل المالك والمستأجر - قانون الايجارات رقم 22/ 71». بحثت عن «ملكية الشقق والطوابق وفقاً لقانون 24/ 12/ 1962». قرأت فقرات من «تأجير الشاليهات في الأبنية المفرزة وفقاً للمرسوم الاشتراعي رقم 88/ 69». أحسّت بالبرد والارتباك وهي تنظر الى ملاحظات خطّتها قبل شهور طويلة بقلم رصاص على هامش «المجلة القضائية». بين أوراق نسختها في مكتب تودّ أن تنسى أنه موجود، عثرت على المواد الخمس الأولى من الدستور اللبناني (صادر بتاريخ 23 أيار 1926... المادة 1 تعدلت بموجب القانون الدستوري تاريخ 9/ 11/ 1943: لبنان دولة مستقلة... حدوده شرقاً خط القمة الفاصل بين وادي خالد ووادي نهر العاصي ماراً بقرى معيصرة- حربعاتة- هيت- ابش- فيصان على علوِ قريتي برينا ومطربا...). قطع شرودها على الحدود الشرقية دخول أبيها لاهثاً يحمل كيس بصل وزنه 20 كيلوغراماً.

❋

سألها هل تدرس للإمتحانات. البهجة المفاجئة في صوته جعلتها تقرر بسرعة وهي تملأ له كوب ماء من الحنفية. منذ صار بلا عمل تشعر بشفقة قاتلة تجاهه. كلّما تكلّم بعباراته القصيرة المرتبكة، تودّ أن تغادر على الفور، الى نقطة بعيدة لا يصل إليها. تأملها وهو يتناول الكوب. ابتسم سعيداً لأنها لن تترك الجامعة. مسح العرق عن وجهه وهي تلومه لأنه حمل الكيس الثقيل وحده سبعة طوابق. أخبرها أنه لم يفعل ذلك.

«الصبي إبن الدكتور الساكن تحتنا، ساعدني.»

مشى الى الطفلة مسترجعاً شيئاً من خفّة ساقيه القديمة.

«رضعت؟»

أخبرته انها شربت نصف قنينة حليب ثم نامت. جلس على الأرض حد الفرشة الخضراء المستطيلة. كانت أنفاسه ما زالت مسموعة، عالية. نقل نظرته بين الوجهين، عميق التقطيبة، وأعلن لكلوديا منشرحاً انها تشبهها.

❋

رعت أباها من بعيد. اعتنت به مقدار استطاعتها. لكنها لم تبدأ بالحكي معه فعلياً إلا بعد تبني مرغريتا. حتى أمها صارت تكلّمها مدة أطول وتتفاهم معها أفضل. في صباح ذلك الأحد، حين قررت فجأة أن تعود الى الدراسة، كانت تفكر لا في مستقبلها فقط بل في طفلتها أيضاً. أرادت أن تحميها. أن تمنحها كل ما تقدر عليه. عاملان أثّرا في قرارها: وجه الطفلة النائمة، وإصرار أختها على الخروج والتدريس حتى بعد أن خطفوا كوليت إبنة الناطورة. شعرت كلوديا بمرغريتا كأنها قطعة من جسمها. كأنها فعلاً خرجت من رحمها ولم تجدها في السلّة بالصدفة على باب المستشفى. وشعرت بدارين كأنها هي (كلوديا) قبل أن تنكسر إرادتها على صخرة المحامي زخريا الزمّار. بحثت في أعماقها عن تلك الجذوة الحارقة التي مكنتها من قبل أن تنهض وتغادر حماماً فظيعاً في آخر الأرض. عثرت عليها برمشة عين: كانت النار منتشرة في

أعضائها. بينما تحمل الطفلة من جديد أيقنت أن شيئاً لن يهزمها.

❋

كان شعوراً عابراً. لكنها تمسكّت به. لن تتراجع عن قرارها. حتى بعد أن أرهقتها القوانين المتشابكة غير الواضحة. انقسمت حياتها الى قسمين: مرغريتا والحقوق. كانت تدرس وهي ترضع الطفلة. أبوها حام حولها كي يأخذ الصغيرة. صار يقرأ في كتب القانون. يسألها عن مواد غامضة وتشرحها له. بهذه الطريقة اكتشفت عناصر وتفاصيل لم تنتبه لها من قبل. انغمست في هذه الحياة حتى نسيت أن الحرب مشتعلة في الخارج. لم تتذكر إلا عند بدء القصف: وقت القصف كانت تهبط الدرج ركضاً حاملة مرغريتا. لا تخاف على نفسها بل على الطفلة. في الملجأ تتحول مرغريتا مركزاً للإهتمام. تتركها أحياناً مع أمها كي تكمل الفصل الأخير من قانون التسجيل العقاري في لبنان (مقتبس عن «نظام تورنس» المعمول به لا في لبنان فقط بل في سويسرا أيضاً. طُبق أولاً في أستراليا سنة 1758. صاغه روبار ريشار تورنس المراقب في مصلحة الجمارك الأسترالية مستوحياً نظام تسجيل السفن في الموانيء. وهو نظام يفرض على مالكي السفن تسجيل أسمائهم في سجل خاص مع قيد اجباري لجميع العقود التجارية المتعلقة بالسفينة من بيع أو نقل أو رهن أو تأمين حتى تعتبر نافذة ويمكن الاحتجاج بها على الغير. سعى تورنس الى إقرار نظام مماثل بالنسبة الى العقارات مع تعيين مركز للتسجيل العقاري. أقرّ خطته البرلمان الاسترالي. وعنه اقتبست الأنظمة العينية العقارية المطبقة في سوريا ومدغشقر والكونغو الفرنسية والسنغال وساحل العاج وداهومي وغينيا وافريقيا الغربية الفرنسية). في ضوء اللوكس سهرت كلوديا بينما الصغار يخلدون الى النوم متكومين في زوايا المستودع. حضنت مرغريتا وحرست نومها. نعست وهي تتأمل استدارة كتفيها والطفرة الحمراء التي تلاشت من جلد رقبتها. تركت أصبعها يتعرق في القبضة الصغيرة. باليد الأخرى قلبت صفحات الكتاب المفتوح على الفرشة. السيد لويس الخوري

راقبها من الكرسي جنب الصناديق الكرتون. كان يحمل الترانسيستور الى أذنه ولا يرفع الصوت لئلا يوقظ النائمين. حين رآها تنظر إليه ابتسم شارداً. لم ترَه مرة واحدة يفرش وينام هنا مثل بقية سكان المبرومة. قبيل الفجر، حين يضعف القصف وتتباعد الانفجارات، ينهض على مهل، بلا ضجة. يودع الراديو جيب جاكيتته. يطوي الكرسي ويحمله تحت إبطه. يهزّ رأسه تحية اذا مرّ من أمامها. ثم يرتقي الدرج مثل شبح ويختفي خارج الباب الموارب.

*

حاولت إقناع دارين بعدم الذهاب الى خارج الأشرفية. بالهم انشغل عليها. أكثر من مرة غابت الشمس وهي لم ترجع بعد. وعدتهم بالحذر. لكنها ظلت تُدرّس تلاميذ بعيدين في المتحف وسن الفيل وفرن الشباك وعين الرمانة. يوم انتخاب الياس سركيس رئيساً ماتوا فزعاً عليها. غافلتهم وخرجت. لم يعرفوا أين اختفت. أبوها دار في الأشرفية يسأل عنها من بيت الى بيت. كان يعرف عدداً من المنازل التي تُعلّم فيها. في بيت نائب مدير «مصلحة السكك الحديد والنقل المشترك» السيد رجا دبّاس (بناية هنري دبّاس- شارع فيليكس فارس) أخبروه انها كانت هنا في الصباح لكنها غادرت الى حصة أخرى. سألهم في أي إتجاه ذهبت. لم يحصل على جواب. سأل في الشارع: هل رأى أحد إبنته؟ وصف شكلها وثيابها وقال إنها تحمل كتباً ودفاتر. لعلع الرصاص في الفضاء. شعر بالذعر وهو يركض أمام دكاكين تقفل أبوابها على عجل. في بيت يجاور حديقة السيوفي تمسكوا به وقالوا لا تخرج. كانت رصاصات القنص تطقطق على تنكات الزهور أمام المدخل. قال ان إبنته برّا على الطريق. خلّص جسمه منهم وركض باتجاه المتحف. ملأ الدخان الجو، أسود خانقاً. أوقفه مسلحون. دفعوه بأعقاب البنادق. «ختيار النحس!» أمروه بالانصراف الى بيته. وصف لهم شكل دارين وثيابها. قال انها تحمل كتباً ودفاتر وتلبس برنيطة زرقاء. سألهم هل رأوها؟

*

جريدة الأحد 9 أيار (مايو) 1976: بيروت ازدادت خوفاً واضطراباً يوم اختيار الرئيس الجديد. حواجز مسلحة وطرق مقطوعة واشتباكات متفرقة في العاصمة والضاحيتين. 43 قتيلاً واكثر من 50 جريحاً. لم تكن بيروت يوماً مضطربة وخائفة كما كانت أمس. فقد أقفرت شوارعها، خصوصاً في المنطقة الغربية. ونزل اليها المسلحون وآلياتهم وحواجزهم وأعادوا اليها «تقاليد» الدواليب المحترقة، كما أطلقوا الرصاص والقذائف في كل الاتجاهات.

والاضراب الذي دعت اليه «الأحزاب والقوى الوطنية والتقدمية» احتجاجاً على الضغوط التي شكوا منها في معركة رئاسة الجمهورية تجاوبت معها المنطقة الغربية وبعض أجزاء في الضاحيتين الجنوبية والشرقية. وقد انتشر المسلحون منذ الفجر في مفترقات الطرق فعطلوا السير وأطلقوا رصاصاً غزيراً في الهواء. واتخذت اجراءات أمن بالغة الشدة في منطقة المتحف- البربير حيث عُززت قوات جيش التحرير الفلسطيني بوحدات الآليات.

انفجارات في بيروت: وكانت بيروت نامت على دوي الانفجارات العنيفة وأزيز الرصاص. وتوالى سقوط القذائف في المنطقتين الغربية والشرقية من العاصمة. وظلت الحال هكذا حتى الثالثة صباحاً عندما بدأت تسمع في منطقة رأس بيروت أصداء اشتباكات بالاسلحة الرشاشة خصوصاً في مناطق الروشة ورأس بيروت وساقية الجنزير في حين كان عدد كبير من المسلحين، الذين تدعمهم المصفحات، يقيمون الحواجز ويمنعون الناس من التجول والسيارات من العبور. وشهدت بعض شوارع العاصمة مواكب سيارة كانت تطلق النار ارهاباً. وأفادت معلومات شبه رسمية انه سقطت في المنطقة الشرقية من الاولى ليلاً حتى السادسة صباحاً 42 قذيفة معظمها في حي السريان، بينما سقطت قرابة عشر قذائف في المنطقة الغربية احداها قرب منزل الرئيس كرامي في زقاق البلاط، ولم يبلغ عن سقوط ضحايا نتيجة القصف. وفي السابعة صباحاً أفاقت العاصمة – وهي لم تنم في أي

حال- على جو متدهور جداً. الرصاص في كل مكان. كذلك القذائف. وفي كل شارع، خصوصاً في كورنيش المزرعة، عمد المسلحون الى قطع الطرق واحراق اطارات المطاط والنفايات واقامة الحواجز بغية الحؤول دون وصول النواب الى منطقة المتحف. وتدخلت قوات من جيش التحرير وأمنت اطفاء الحرائق وازالة الحواجز مما أدى الى حصول احتكاكات تطورت أحياناً الى اشتباكات وتبادل رصاص. وحدث اشتباك في الزيدانية حول اقامة حاجز وازالته ووقعت اصابات عدة. كذلك حصل احتكاك في المصيطبة الا انه طوق بسرعة. ومع اقتراب الحادية عشرة موعد انعقاد الجلسة النيابية تصاعدت حدة التراشق المدفعي واحتدمت الاشتباكات بالاسلحة الرشاشة واحتجز اكثر من نائب في كورنيش المزرعة ثم اطلقوا.

قصف منطقة المتحف: وكانت منطقة المتحف- رأس النبع- البربير- قصر منصور أكثر عرضة للقصف المدفعي منذ السابعة صباحاً. وكانت القذائف تتساقط بمعدل واحدة كل ربع ساعة. واشتد القصف قرابة الظهر وفي الاولى عندما أذيع ان الجلسة انعقدت بعد اكتمال النصاب. وتساقطت حول مبنى قصر منصور قذائف كثيرة جرحت احداها النائب أمين الجميل الذي كان يتحدث باللاسلكي جنب سيارته. وتعرض المستشفى العسكري المركزي للقصف وأدلى ناطق عسكري بالتصريح الآتي: «تعرض صباح اليوم المستشفى العسكري المركزي لثلاث قذائف 120 ملم ادت الى استشهاد العريف الممرض انطون نون في أثناء قيامه بواجبه الانساني. وأصيب ممرض آخر بجروح خطيرة. وكان المستشفى تعرض في وقت سابق ثلاث مرات للقصف خلال هذا الشهر وجرح عدد من الممرضين وخطف ممرض ولا يزال، علماً ان هذه المؤسسة تستقبل المرضى من كل الفرقاء والطوائف.» ووصل القصف المدفعي الى الحمراء حيث سقطت أربع قذائف على دير الآباء الكبوشيين فاستقرت ثلاث منها في الساحة والرابعة ثقبت السطح. ونتج من ذلك تحطم عدد من السيارات والحاق اضرار جسيمة بالمبنى. وفي

السيوفي في الأشرفية سقطت قذائف عدة قتلت خمسة أشخاص بينهم إمرأة وطفلان وجرحت أربعة آخرين وعرف من القتلى إميل أيوب (40 عاماً). وفي الثانية بعد الظهر، فور إعلان فوز السيد الياس سركيس برئاسة الجمهورية أطلقت العيارات النارية، بعضها ابتهاجاً وبعضها الآخر احتجاجاً وسقطت مجدداً قذائف عدة في المنطقتين الشرقية والغربية. وكانت قتلت امرأة في العشرين من عمرها في سوديكو بعد سقوط قذيفة هاون من عيار 120 ملم ووقع جريحان كذلك. وقتلت فتاة في شارع الحكمة على اثر سقوط قذيفة من عيار 120 ملم. حتى المستشفيات: ولم تسلم المستشفيات فقد سقطت في اوتيل ديو أربع قذائف أصابت جناح الطوارىء وأحدثت فيه أضراراً جسيمة. كذلك تعرض جناح آلات غسل الكلى الصناعية في مستشفى رزق للقصف وسقطت فيه قذائف عدة. وأحدثت ثلاث قذائف أضراراً في مستشفى البربير. وقال بيان للنمور الاحرار ان مراكزهم في سوديكو تعرضت للقصف بقذائف ار بي جي وحصلت عمليات قنص طوال النهار وسقطت قذائف هاون 82 ملم اقتصرت على الاضرار المادية «وبقيت هذه الاستفزازات من دون رد التزاماً باتفاق وقف النار.»

الشياح- عين الرمانة: وشهدت الضاحية الجنوبية ليلة مجنونة من القذائف التي تساقطت عليها طوال الليل وفترة طويلة من النهار. وقد جرت اشتباكات عنيفة في محور الشياح- عين الرمانة منذ منتصف ليل الجمعة واستمرت حتى التاسعة صباح أمس. وتساقطت الهواوين على المحاور الساخنة واستعملت الصواريخ والرشاشات الثقيلة من عيار 500 ملم وحصلت رمايات واسعة النطاق بين المازدا وغاليري سمعان ومار مخايل والداتسون. وجاء في بيان النمور الاحرار انه «عند الاولى فجراً قصف مركز صنين بالهواوين وجرى تراشق في محور زعتر- كنعان. وفي أثناء النهار حل القنص مكان الاشتباكات ونالت منه الحازمية نصيباً وافراً.» وأعلم عن سقوط سبعة قتلى وجرح 13 شخصاً وعثر على ثلاث جثث قرب محلة المراية وعلى جثة في

سناتل شمص وعلى مثلها عند تقاطع السكة الحديد في الحازمية.

الحدث – الليلكي: أما في محاور الحدث والليلكي وصحراء الشويفات وكفرشيما فكانت حرارة الاشتباكات مرتفعة... وقتل في هذه الجبهة 9 أشخاص وجرح 13 آخرون وعثر على جثة في صحراء الشويفات.

الضاحية الشرقية: الضاحية الشرقية نالت هي الأخرى نصيبها من القذائف التي تساقطت ليلاً في سن الفيل والنبعة وتل الزعتر والدكوانة. وحصل تراشق بين مختلف المحاور وتساقطت عليها الهواوين والصواريخ والمضاد للطائرات. كذلك تبادلت النبعة والأشرفية القنص بالرشاشات من عيار 500 ملم. وفي النهار خرقت هدوء الجو رصاصات القنص وجاء في بيان النمور الاحرار «انه بين الحادية عشرة والاولى سقط عدد من قذائف الهاون في سن الفيل مصدرها المنطقة الغربية والنبعة.» ولم يبلغ عن وقوع اصابات. وقالت مصادر شبه رسمية انه وقع اثناء الليل خمسة قتلى وعدد من الجرحى. وحصل تراشق بين جسر الباشا وسن الفيل وجسر الباشا والحازمية وتحويطة فرن الشباك بقذائف الهاون والمضاد وأسفرت المعركة عن سقوط قتيل وأربعة جرحى.

صور فوتوغرافية:

الدخان يتصاعد من مستشفى مركز البربير الطبي (جورج سمرجيان).

حرائق تقطع كورنيش المزرعة، وتبدو سيارة ل»المرابطون».

جنود من جيش التحرير الفلسطيني يطفئون النار.

سيارة نائب يعبر خط النار.

قوات الصاعقة أمام قصر منصور.

سيارة الشيخ أمين الجميل مكسرة الزجاج أمام قصر منصور (عدسة فاروج هافليان).

إعلان (رسم شاحنة): هينو

شاحنات وأتوبيسات الديزل هينو صممت وأنتجت بطريقة أدق وأفضل لتخدم باستمرار في خلق عالم عربي أفضل يساهم في مجال الخير العام. وذلك بنقل البضائع والركاب بوفر أكبر وأمان أكثر من أي مكان لأي مكان آخر ومهما كان نوع العمل. للمزيد من المعلومات الرجاء الاتصال بوكلاء هينو المحليين. البحرين (مؤسسة الأميري للبناء والصيانة ص ب 564 - المنامة). الكويت (السادة عبد الله سيد هاشم الغربللي ص ب صفاة 466 و560). ليبيا (مؤسسة اسماعيل عرابي العالمية ص ب 3213 - طرابلس). الامارات العربية المتحدة (عمان ناشيونال ص ب 531 - دبي). جمهورية اليمن الديموقراطية (الشعاع وشركاهم ص ب 651 - كريتر - عدن). الخليج العربي (شركة فالكون للتجارة والمقاولات ص ب 1800 - الدوحة قطر). سلطنة عمان (الفيروز ص ب 230 - مسقط). المملكة العربية السعودية (شركة جمجوم للآليات والمعدات ص ب 1247 - جدة). السودان (حافظ السيد البربري ص ب 760 - الخرطوم). الجمهورية العربية اليمنية (يسلم سالم الشعاع شارع صنعاء ص ب 3344 - حديدة). الكويت (علي أحمد الشواف وأخوانه ص ب 573 - الكويت).

❋

رماه ضغط إنفجار في بستان تحت الطريق. نهض دائخاً معفّراً بالتراب. مشى بلا وعي حتى بلغ مركزاً لحراس الأرز ساعدته فيه قبل زمن طويل صبية تشبه إبنته. كان يسأل عن سعيد. ها هو أضاع دارين هذه المرة. أحدهم ناداه من مدخل بناية حمراء الأباجور. لجأ الى المكان المعتم وجلس على الدرج. عجوز جلبت له ابريق ماء وعلبة كلينكس كي يمسح الدم عن يديه وركبته. تفحص قماشة البنطلون المقطوعة. شعر بألم حيث الجرح في أسفل بطنه. خاف ان يكون قد انفتح. توقفت سيارة سرفيس وزمرت. أعطى السائق ضعف الأجرة. أوصله الى حيّ العبد. وجد دارين في مدخل المبرومة تتكلم

مع بنات الجيران. أمسك بها من كتفيها. هزّها مرتعش الصدر. شهق. لم يبكِ كما بكى عند رجوع ولده. الأيام صلّبت عوده. حضنها ووضع يده على رأسها. أن يشقوك ويستأصلوا منك الزائدة أسهل ألف مرة من الدوران تحت القنص والقصف بحثاً عن ابنتك.

128
آل ثابت وشرارة 10 – الطابق الأول

غرفة السفرة. طاولة خشب سنديان نبيذية اللون، بأربع قوائم حديد ثقيلة قابلة للطوي عند المفاصل. كراسي حديد (عددها 12) بحشيات اسفنج مضغوط وقماش رمادي اللون مقلّم بالنبيذي طولياً. الدرسوار الذي يحوي الأطباق والكؤوس والفضّيات يمتد على طول الجدار. خشبه بنّي قاتم. مسكات الدرف نحاس. تتعلق فوقه من مسمارين غدّارة عثمانية مفضّضة، ممشوقة القسطل، ورثها المرحوم عزيز ثابت عن أبيه عن جدّه. على جرّة بسدّة فخار في الزاوية، تستقر منفضة. رخام أبيض معرّق بأزرق. الستائر مسدلة، خضراء زيتية سميكة حاجبة للنوافذ والأباجور. اللمبة مضاءة. على كرسي أُرجع الى خلف وخرج عن صف الكراسي يجلس سليمان شرارة ويدخن سيكارة. أنين البراد يتسرب من المطبخ. في مركز الطاولة صينية فضّية مدوّرة تغطيها أزهار غردينيا. جلبتها ليديا (في كيس ورق) نهار السبت. كانت بيضاء قوية الرائحة لم تتفتح أزرارها تماماً بعد. اصفرّت بتلاتها بعد يومين وظهر خط بنّي فاتح يحدد حواف كل بتلة مصفرّة. الوريقات الدقيقة في ساق كل زهرة ظلّت خضراء لمّاعة. عطر الأزهار ما زال فوّاحاً. قفا البتلات لم يفقد كل بياضه الثلجي. قطفتها من حديقة أوتيل ديو.

*

قبل الزواج، أثناء فترة الخطبة، سافرا إلى إيطاليا. كانت عطلة الربيع. أقاما

في منتجع على سفوح جبال الألب. كان الكوخ (الشاليه) عبارة عن غرفة واحدة مفتوحة على مطبخ صغير البراد، وفي المؤخرة حمام ضيق بلا مغطس لكنه مزود بدوش. اللبنانيون الآخرون الذين رافقوهما في الرحلة السياحية المنظمة تشتتوا بسرعة في رحلات مستقلة الى أماكن أخرى (تورينو/ ميلانو/ برغامو/ فيرونا). سليمان وليديا تمسّكا بالمنتجع الريفي الساكن على ضفة البحيرة. كانت المياه باردة صافية مثلجة تسطع تحت صفحتها أسماك فضّية-حمراء. في الليل لا يمكنك الجلوس في الخارج بلا بطانية أو كنزة صوف. الحباحب الصفراء المضيئة كانت تظهر بعيد الغروب وتفرش المرج أمام الكوخ، معلقة على علو سنتمترات. طيور البحيرة صاحت عند المساء. بلا كلل غنّت جداجد الصنوبر والشوح الأوروبي. موسيقى الأغصان كانت توقظه ليلاً. من زجاج نافذة الحمام رأى قمماً باهرة يوجّ ثلجها تحت النجوم، وأضواء قوارب وبيوت في الجهة الأخرى من البحيرة. على جدار الشاليه عُلق بوم مصبّر. عسلي العينين. رمادي الريش. كان يراقب سريرهما طوال الوقت. وليديا تنزعج منه. أخبرتهما الخادمة اللطيفة التي تجيء وتنظف كل صباح عند العاشرة، ان البوم محبوب جداً في الألب: يأكل حشرات تقتل الزرع، وينبّه الفلاحين بنداء محدد الى دنو الخنزير البرّي. كانت في الثلاثين من عمرها وتتكلم الفرنسية والايطالية وقليلاً من الألمانية. تجاعيد المناطق العالية أظهرتها في أواخر الأربعين. ذهبا معها كي يتفرجا على البقرات. كانت ترعاها في منخفض يختلف لون أعشابه عن العشب حول الشاليه. جلست على حجر وحلبت بقرة لومباردية مبقّعة بالبنّي. كان ضرعها محتقناً يؤلمها. خارت كأنها جريحة. امتلأ الدلو الخشب. رائحة سكرّية حارة. رغوة تفور. تمايلت وهي تغني لحناً شعبياً حزيناً: راعية أبقار خطفها صيّادون من وراء الجبل الأبيض (مون بلون) في إحدى الليالي فهربت منهم وتحوّلت إلى شجرة صفصاف باكٍ على ضفة نهر سيلينا.

*

في عيد ميلادها مرّت على شارع مونو واشترت من «شوكولا نورا» ثلاث

قطع كاتوه. كانت رشقات الرصاص تُسمع أقوى هنا. على حواجز الكتائب تركوها تمرّ بسرعة كالعادة. اصفرّت صور أخوتها على الزجاج الخلفي لكنها لم تنزعها. حين بلغت البيت وجدت الأكل على الطاولة، وأمها تنعس حد الراديو، وسليمان في المطبخ بالشورت والفانلة يفرك المجلى في انتظار وصولها. استدار فرأت وجهه. رفعت يدها الى فمها. كانت هذه الهدية (المفاجأة) الوحيدة التي تمكن أن يفكر فيها: قصّ بالمقص لحية عمرها سنوات وحلق ذقنه.

129
آل زغلول 11 – الطابق الأرضي

ترنحت راغدة زغلول بين التنكات على السطح. داليا أعطتها علبة دواء. تأخذ حبتين كي تتمكن من النوم. أحياناً تأخذ ثلاث حبّات أو أكثر. فرغت العلبة. جلبت لها غيرها. كانت تجيء وتزورها ومعها يوسف. مريم تبقى في الناصرة لئلا يُترك المشلول وحده. دخلت الرصاصة بين فقرة في الرقبة تُسمى «سي 3» وفقرة تُسمى «سي 4». الإصابة كسرت الفقرتين. لم تفهم لماذا جلبت داليا معها صورة الأشعة. أخرجتها على مهل من الظرف الورقي الكبير. فرشتها على الطاولة ووضعت ظفرها حيث انقطع الحبل الشوكي وقالت لأبيها الساكت: «هنا بالضبط». خشخشت أساور ثخينة. «يا حرام يا مخايل».

*

تسلقت السلم الى سطح الخزان. صدأ القضبان ترك أثراً أحمر على أصابعها. رفعت الغطاء الثقيل. تأكدت من ارتفاع الماء. ترددت ثم ملأت حفنتها. غسلت يديها ومسحت صدغها. حين حاولت بعد ذلك أن تسقي الزريعة كالعادة هاجمتها رعشة واهتزت بالبكاء.

*

أشعلت شموعاً وعيدان بخور في كنيسة دير السيدة. صلّت وتضرّعت أن ترجع إبنتها سالمة. جاء أبونا وتحدث معها. كان يعرفها ويعرف كوليت منذ كانت صغيرة تعبس وهي تتناول القربان. إسم كوليت عبدو زغلول، والدتها راغدة، مسجل في دفاتر العمادة. كان يشفق على الناطورة وأولادها لأنه سمع أن زوجها السمكري يضربهم كثيراً. حاول أن يمنحها كلمات مشجعة تقوّي إيمانها وصبرها. شعر بضيقٍ حين لمح أوتار رقبتها.

❋

سكان البناية كفّوا عن استدعائها. لم تعد الناطورة تساعد في تنظيف البيوت. نكبتها غيّرت عملها. حافظت على نظافة الدرج والمدخل. لم تهمل مسح الملجأ. انتبهت الى إخراج النفايات بلا تأخير لئلا يتجمع البرغش. لكنها تركت شتلات السطح تعطش وتصفر وتيبس. فريدة إبنتها الباقية في البيت حاولت أن تساعدها في أشغال البناية: تلقت بدلاً منها طلبات. ذهبت الى السوق وعادت محملة بأكياس للست عطية والست صعب والست عازار. مدام طانيوس ترسل لها أحياناً أحد شغيلة المحل كي تأتي وتكنس بعد تحميل بضاعة. «أنا أروح يا أمي.» باتت فريدة تلتقط المكنسة والمجرود وتسبق أمّها.

❋

أقاموا مربضاً للمدفعية عند كعب «نزلة المبرومة». صارت الناطورة تنحدر الى تحت وتسأل المقاتلين هل يستطيعون مساعدتها؟ كانت تُبقي معها صورة كوليت والقصاصة المقطوعة من الجريدة. تحمّلها الشباب وقتاً ثم ضاقوا ذرعاً بها. كانت تعرقل حركتهم وترتطم بالقذائف. نهرَها أحدهم. ابتعدت بلا صوت. تعثرت بألواح زنكو وهي تتسلق الطلعة القاسية. أفلتت من قدمها المشاية. تجمعت حولها نسوة لا تعرفهن. أصواتهن لطيفة. جلست بينهن على مقاعد قش. قبلت من يدٍ بيضاء فنجان قهوة. أخبرتها واحدة منهن

عن إبنها الذي قتل بالقنص في المونتيفردي. عجوز على رسغها وشم منقّط، سحبت من يدها صورة كوليت وقالت انها تعرفها ورأتها مرة.

«أين؟»

«عند جرجي الخضرجي. كانت تشتري بطاطا أو فاصوليا.»

❊

طلبت المساعدة من سابين الحويك، صديقة إبنتها. صارت سابين تبكي وترجف كأنها تضربها. تركتها وخرجت الى صحن الطابق السابع ووقفت كالتمثال. تفاجأت بدارين إبنة الست عازار: لم تعطها العناوين فقط بل ذهبت معها الى أكثر من منزل. زارت جميع البيوت التي كانت كوليت تعلّم فيها. دخلت أحياء لم تعرفها من قبل. كانت المياه الزرقاء تزحف من زوايا عينيها وتضيّق أمامها مجال الرؤية. ارتطمت بسيارات وأبنية بارزة المداخل. سحبتها دارين من ذراعها ومنعتها من السقوط في قناة مجارير. أعطتها ماء كي تشرب بعد أن خرجتا من بيت النبعة المنحوس. مدام كركور قابلتهما في الباب. لم تقل للأم الباكية «تفضلي». قالت انها مستعجلة وعندها ضيوف ومضطرة للخروج. بدت منزعجة لأنها هلكت قبل ذلك وهي تردّ على تلفونات الناطورة والسمكري والمدام شليطا أخت المفقودة المتزوجة من دركي قنصوه في رقبته وشلّوه. كانت استفساراتهم عديمة الجدوى، لا تقود الى نتيجة. كيف تستطيع هي أن تساعد؟ هل هي الدولة أم الأحزاب؟ خرجت كوليت كما تخرج في كل مرة. لا، لم تخبرها ولا أخبرت الولدين أين هي ذاهبة، لكنها بالتأكيد كانت عائدة الى بيتها. ماذا أيضاً؟ فقدت مدام كركور أعصابها: أطار عقلها رنين التلفون. صارت تسحب الشريط من الحائط لئلا يوقظها الرجل السكران في آخر الليل.

❊

مدام بغدادي في المقابل استقبلت راغدة زغلول في بيتها في التباريس

كأنها تستقبل زوجة نائب أو وزير. جلست قريباً منها في صالون مخملي الأثاث محصّن النوافذ. لم تعاملها كأنها ناطورة. أصرّت عليها أن تبقى وتشرب فنجان شاي. لم تكن دارين معها. لكنها شعرت بها جالسة على الكنبة لأنها منذ أيام ترافقها في معظم الزيارات. لمحت أخيلة سريعة تسبح جنب وجهها. رأت السيدة اللطيفة تُحرك السكر بملعقة فضة. أصغت الى صوت هادىء يتكلم عن كوليت وتهذيبها وأسلوبها في التعليم. دخل صبي في الثالثة عشرة من عمره وسلّم عليها. كان يقول شيئاً لكن الطنين ملأ رأسها والعتمة الزاحفة من الجهتين أفقدتها الوعي.

130
آل الحويك 9 – الطابق السابع

مرضت العجوز. خافوا عليها أن تموت. حاولوا الاتصال ببشارة كي يجيء ويراها. كانت الخطوط مقطوعة. أرسلوا له خبراً مع ناس يذهبون دائماً الى الغربية. انتظروا لكنه لم يأتِ.

*

زميلة متزوجة يجرب معها منذ فترة قبلت أخيراً وصعدت معه إلى غرفته. بينما يعدّ كأسي فودكا بثلج وعصير برتقال دخلت الى التواليت. استغل الفرصة وانتزع صورة آردا نقولا إكمكجي عن مسند السرير. خبّأها في الجارور. أشعل سيكارة وانتظر.

*

نشرت مجلة أجنبية ثلاث صور فوتوغرافية التقطها في محيط أوتيل الكارلتون يوم انتخاب الرئيس الياس سركيس. صورة «طيور الهوليداي إن– بيروت الغربية» التقطها بعد أسابيع من صور الكارلتون، لكنها نشرت قبلها. المميز في صور الكارلتون التي تأخر نشرها كان ترشيحها لجائزة أوروبية

مرموقة تنظمها مجموعة «مراسلون بلا حدود». وصل الى التصفيات النهائية. نافس مصوّرين (الأول سريلانكي والآخر أريتيري) وخسر.

*

سهر ذات ليلة مع مخرجة مسرحية يعرفها منذ أيام الجامعة. كان المكان مزدحماً، رطباً وحاراً، لكنه انفرد بها- أو أنها هي من انفردت به- في أعماق غيمة من الدخان والكحول. البارمان الذي يشعل الكؤوس بلهب قداحة ظلّ يغمزه كأنه مصاب بخلل في جفنه. أخبرته أنها تكتب أو تترجم نصاً مسرحياً فرنسياً وتنوي استعمال كورس يوناني في مقدمة العرض فقط لتوجيه إنذار حازم الى النقاد والمشاهدين. سألها من أين ستجلب اليونان الى بيروت وماذا سيكون الإنذار؟

«كل شخص يلفظ عبارة أو يكتب جملة ضد مسرحيتي تنزل عليه لعنات الآلهة وتقطع أعضاؤه وتحرق ثم ترمى في البحر.»

كانت تلفظ الراء غيناً لكنه لم يضحك بسبب الألم الذي قبض ملامحها.

*

تذكرها حين قال له أحدهم في الجريدة انه لم يحبّ صور الكارلتون. الصورة الأهم بينها التقطها وهو يتخبّأ وراء عربة إسعاف. بالأبيض والأسود. فتاة «نورية» في السابعة أو الثامنة من عمرها تحاول أن تجرّ أمها الميتة على الرصيف. وجه الفتاة مستدير أبيض كالشمع. عيناها سوداوان متسعتان بالرعب. شعرها مجدول بشريطة بيضاء. قميصها مبقّع. أظافرها مغروزة في معصم أمّها. الدم بقعة قاتمة تسيل تحت المرأة وتقع عن الحافة الحجرية. جثة ضخمة الحجم يستحيل على البنت زحزحتها. تنورة القتيلة سوداء طويلة ملطّخة بالكلس.

*

لم يرجع الى الجريدة في ذلك الصباح. وجد نفسه يسير بلا هدف في

شوارع خالية إلا من المسلحين والحواجز والدواليب المحروقة. لمح تجمعاً وثلاث آليات. انعطف الى اليسار. أحنى رأسه عابراً تحت أغصان. سمع موج البحر. الكاميرا ارتطمت بصدره وهو يقفز عن باب الملعب. في نشأته كان مولعاً بكرة القدم. طالما جلس بين الحشود يشجع فريقه المفضل. كان بيتهم هنا، غير بعيد من مدرسة الآي سي، في النزلة المفضية الى مسبح الحمام العسكري. سكنوا في نهاية شارع بلس ثلاث سنوات قبل أن ينتقلوا الى مكان قريب من شغل أبيه. تمرن مع أشبال «النجمة» سنتين. كان يستطيع تذكر أسماء اللاعبين في فريق الفتيان إسماً إسماً. في مباريات المنتخب الوطني جلس مع أصدقائه على مقاعد الاحتياط. كانت أجسامهم تتوثب بالحماسة. كتل عضل. اذا ركض وراء طابة على الرمل أو العشب يطير ولا يُطبّق عليه قانون الجاذبية. كانت الطاقة فيه غير محدودة. متى وأين وكيف يحدث ذلك التغيّر ولا تعود أنت أنت؟ وهم أيضاً لا يعودون هم؟ لكن أهم من ذلك وقبل كل شيء: متى تبدّلت أنت؟ كيف خسرت تلك الخفّة؟ متى انفصلت عن القاعدين على المدرج يهتفون بأعلى الصوت مثل مخلوق خرافي واحد بعدد لا يحصى من الألسنة. كان نقطة في الموجة الشاهقة العلو. لكنه شعر بنفسه كأنه الموجة كلّها: بحر من الناس وهو البحر. الى هذا الحد كانوا يلتحمون في جسم واحد وهم يهتفون للفريق. متى وقع التغيّر؟ وجد شباك المرمى ممزقة. والنفايات تغطي المدرج. في الجهة البعيدة، حيث كانوا ينصبون أكشاك بيع السندويشات والمرطبات، تحوّلت أرض الملعب الى مستنقع. قسطل مجارير انفجر وصار يصبّ محتوياته هنا. جلس في زاوية معشوشبة طالما ارتاح فيها صغيراً وربط شريط الحذاء وهو يشم زهور البابونج (صفراء كزهور الربيع لكن بتلاتها البيض سريعة الذبول. رائحتها مثل أسبيرين الأطفال. تُستخدم في تركيب الأدوية.) في آخر الملعب تجمّعت طيور لا يعرف أنواعها. لم يتوقف الرصاص. من وراء شجرات الجميز ارتفعت غيمة سوداء كثيفة. دخان كاوتشوك. تخلص من

قميصه. طواه جنبه ووضع الكاميرا عليه. فكّ شريط الحذاء. مدّ ساقيه. كان محمياً بحيطان الملعب والبوابة الحمراء العريضة المقفلة. هدرت آليات في الشارع. لم يتحرك. هناك، في ظلّ الجميزات، كان المدرب صلاح عيتاني يقف مباعداً بين ساقيه في شورته الأصفر وقميصه الأحمر. صفارة تتدلى من خيط صوف على صدره. حارس المرمى سميح شاتيلا كان يجيء الى المباراة حاملاً ترانزستور يسمع عليه مباريات الأهلي والزمالك. يترك الراديو على الأرض في قلب المرمى وحين يهتف قافزاً يضحك الجمهور لأنه يلعب مباراتين معاً، واحدة هنا والأخرى في مصر. يلفّ ركبتيه بمشدات. ويلبس قفازين سميكين مبطّنين اسفنجاً. ارتفع زعيق إمرأة. ظلّ يقوى فترة. ثم سكت. كأنها اختفت من الوجود. متجمداً في الزاوية الظليلة أرهق عينيه النظر الى ضوء أيار (مايو) المشع. الشمس شديدة. حجبتها سحابة سوداء. ثم انهمر الشعاع الأبيض من جديد. فراغ فسيح. ساخن. سالت قطرة عرق على وجهه. دخّن سيكارة ناظراً الى المدرج الخالي. انتبه أن يده ترتعش. تذكر شقّاً طويلاً في الباطون يمتد على طول المدرج وينبت منه خزّ (طحلب). أخضر. زيتي. في الصيف ييبس ويصفر حتى يحترق ويغدو بنيّاً. القروش (فرنكات وعشرة قروش وربع ليرة) تكرج أحياناً وتعلق في الشقّ العميق. يتركها أصحابها. «مغارة علي بابا». يستخرجونها بعد أيام ويشترون بها بوظة أو شوكولا. وقع عراك مرة وألغيت المباراة في نصفها وأخرج الناس وأقفلت البوابة. تسلل مع أصحابه عند الفجر كي يلعبوا. وجدوا في أرض الملعب ثلاثة خواتم، و«بلاك» ذهب، وساعتين «كستك» فضة. على المدرج وجدوا عوينات (نظارة) مكسورة وعدداً من الأزرار وسلسلة فضة مقطوعة. يذكر الأسماء القديمة؟ محمود برجاوي ويوسف يموت وجوزف أبو مراد. سمير العدو وأحمد علامة وليفون. آبو. جوكي. مارديك. تذكّر حين لعبت النجمة مع الراسينغ وربحت (0-3). وحين فاز لبنان على ليبيا (1 - 0). وحين خسر لبنان أمام فريق توربيدو موسكو في المدينة الرياضية (1 - 2).

تذكر مدرب الراسينغ الروماني بوغدان الذي كان يجلب معه الى الملعب في السيارة الفولسفاكن زوجته وبناته. كلّهن شقر خضر العيون. يلبسن بلوزات بيضاء ويضحكن بلا توقف. تنانير قصيرة وسكربينات عالية الكعب. تذكر محي الدين عيتاني (طابيللو) يقعد بعد المباراة على الأرض مغمّساً بالعرق كأنه غطس في البحر، ينزع حذاءه لاهثاً ويطلب ماء. وجوه معلقة أمامه. أصوات تلاشت. تذكر مباراة الهومنمن مع الريجي. والجناح الأيمن الذي انكسرت يده حين ارتطم بالقائم. حاول أن يتذكر إسمه. استغرب أنه أضاعه. أين هو؟ الوجه ما زال يذكره. لكن أين ضاع إسمه؟ والرقم 10 في نادي التضامن؟ كان يغني لفريد الأطرش ويُضحك الجمهور. وحين يمرر الكرة من بين ساقي الدفاع يشتعل الملعب. أين صاروا؟ حطّ عصفور دوري على مسافة قريبة. راقبه بشارة يتقافز قفزات قصيرة وينقد شيئاً بمنقاره. طار خفيفاً. اختفى.

*

جريدة الأحد 9 أيار (مايو) 1976. الكارلتون حاصره الرصاص 4 ساعات وسقط في منطقته 4 قتلى و11 جريحاً: على مدى أربع ساعات أمس كان فندق الكارلتون- حيث ينزل السيد الياس سركيس- هدفاً للتراشق والقنص والقذف. ودارت هناك اشتباكات بين «الصاعقة» و»التنظيم الناصري - فرقة نصر» من جهة والمسلحين من «الأحزاب والقوى الوطنية والتقدمية» من جهة أخرى أسفرت استناداً الى معلومات شبه رسمية عن سقوط 4 قتلى و11 جريحاً.

بدأ التوتر حول الفندق قرابة العاشرة والنصف صباحاً عندما مرّت سيارات مسلحة فوقها مدافع دوشكا ورشاشات ثقيلة وأطلقت عيارات نارية متفرقة. وكان داخل الفندق آنذاك السيد حنا بطحيش أحد قادة «الصاعقة». وفي باحة الفندق الخارجية وداخل البهو كانت تقف عناصر مسلحة بألبسة مدنية وقد أنيطت بها مهمة حراسة السيد سركيس. واستمر رصاص القنص

على الفندق متقطعاً حتى الثانية بعد الظهر عندما مرّت دوريات مسلحة بعد اعلان فوز السيد سركيس بالرئاسة الأولى. وهنا حصل اشتباك وتبادل رصاص استمر حتى السادسة مساء. ولهذا الحادث روايتان، الأولى تقول ان تعليمات أعطيت الى عدد من المسلحين في الكارلتون باطلاق 20 رصاصة من كل سلاح ابتهاجاً بفوز سركيس، فظن المسلحون العابرون ان في الأمر تحدياً لهم فأطلقوا الرصاص في الهواء ثم تطور الأمر الى تبادل نار كان يوجه الى الطبقة الأرضية في الفندق حيث المسلحون. والرواية الثانية تقول ان الدوريات العابرة هي التي كانت البادئة باطلاق النار في اتجاه الفندق فرد عليها المسلحون هناك بالمثل. إلا ان الثابت أن التراشق حصل وتساقطت الرصاصات ذات العيار الثقيل عند المدخل واخترقت زجاج الطبقة الأرضية وبعض الطبقات الأخرى. وساد جو من الذعر نزلاء الفندق فسارعوا الى الطبقات الأرضية، ومنهم من بقي في الطبقات العليا التي يحميها الجناح الإضافي. ومنهم من استطاع التسلل من الجهة الغربية للفندق صوب كورنيش البحر مستفيدين من بناية تُشاد حديثاً قرب الفندق. وأطلقت في اتجاه الفندق قذيفة من الجهة البحرية أصابت بناية مجاورة وأحدثت في الروف ضرراً. واستمر التراشق المتقطع حتى السادسة مساء حين توقف. وعرضت قوات «الصاعقة» تأمين إجلاء الراغبين في ترك الفندق.

6 صور:

مدفع محمول ل»الصاعقة» أمام الكارلتون.

مسلحون من «فرقة النصر».

سيارتان أصيبتا في الاشتباك.

... وشاحنة أصيبت.

رتل من 14 آلية لجيش التحرير الفلسطيني على كورنيش الروشة.

مسلحان في الكارلتون لجهة البيسين.

على صفحة أخرى صورة لسيارات جيب تابعة ل»الصاعقة» تتراصف أمام البريستول: «قرابة التاسعة صباحاً وصلت قوة مختلطة من «الصاعقة» و»جيش التحرير الفلسطيني» وتمركزت أمام «البريستول» ودخل قائدها وهو برتبة نقيب الصالون واتصل بالنواب الذين ينزلون في الفندق لتأمين حماية لهم حتى «قصر منصور». وتمركزت قوة مماثلة أمام «وايت بالاس» في التاسعة والدقيقة الخمسين... وهنا رُسمت خريطة للطريق التي يمكن سلوكها وهي وايت بالاس- الروشة- الاونيسكو- الكولا- صبرا عبر شارع حمد- شاتيلا- جسر فؤاد الأول- قصر منصور. ولأن معظم النواب تلقوا تهديدات بأن النار ستطلق على كل سيارة تحمل لوحة زرقاء، فقد استقلوا سيارات عادية انطلقت بهم في سرعة جنونية لتفادي رصاص القنص ورصاص المكامن...

دمشق: انتخاب سركيس حجر الزاوية لتسوية الأزمة نهائياً. دمشق- و ص ف – استقبلت دمشق بإرتياح شديد نبأ اجتماع مجلس النواب اللبناني لإنتخاب رئيس جديد للجمهورية في شخص الياس سركيس...

الأحزاب ترفض «تعيين الرئيس وتزوير إرادة الشعب» وتدعو للدفاع بالسلاح عن «المناطق المحررة»: اعتبرت «الأحزاب والقوى الوطنية والتقدمية» إنتخاب الرئيس الجديد للجمهورية اللبنانية بمثابة تعيين، نتيجة الضغوط المادية والعسكرية التي مورست على معظم النواب وسط مظاهر من الإذلال المعنوي المهين لأبسط اعتبارات الكرامة الوطنية. وأعلنت رفضها النتائج التي أسفرت عنها جلسة النواب لما انطوت عليه من تزوير، ودعت المواطنين الى الصمود والدفاع بسلاحهم عن مناطقهم المحررة ومتابعة كل تحرك شعبي... ونددت «بالاستفزازات الدموية الخطيرة التي مارستها منظمة الصاعقة والأجهزة الملحقة بها فور إعلان تعيين الرئيس الجديد... حتى وصلت الى حد قصف مخيم برج البراجنة. وقد أظهرت هذه الاستفزازات مدى صحة الحكم القاطع الذي أصدرته «الأحزاب والقوى

الوطنية والتقدمية» على «المشروع الأمني» الخطير الذي يراد للرئيس المعين أن يكون أداة تنفيذه.»

*

كان يشعل سيكارة من عقب أخرى تنتهي. لم يطفئها. تركها على التراب يرتفع منها خيط دخان. عشر سكائر. أعقاب تتراصف. بنّية فاتحة اللون. لم يسكت الرصاص. لكن الرشقات تباعدت. مرّت شاحنات تطلق أبواقها. سمع طوافة عسكرية (هليكوبتر) تحوم فوق البحر. لم يغيّر مكانه في الزاوية. حتى بعد أن غمرت الشمس قدميه. خرجت القوّة منه وهو قاعد هكذا على عشب مصفرّ. عبثت يده بالكاميرا. انتبه الى وسخ على البنطلون. فحص أظافره. شعر بشكّة أعلى الثدي الأيسر. كأن شعرة نبتت خطأ هناك. بعكس اتجاه الشعر. حاول أن يأخذ نفساً عميقاً. زاد الألم. أغمض عينيه. رأى مرة أخرى مسعفاً ومسعفة يركضان على زجاجٍ مكسّر كي يبعدا بنتاً من درب الرصاص.

*

غادر الملعب مبلولاً بالعرق. بينما يقطع الشارع العريض ناداه مسلحون من «الصاعقة». أبرز بطاقته الصحافية. سأله صوت حاد أين كان يصوّر؟ أخبرهم أنه لم يصوّر شيئاً لأنه لم يتمكن من الوصول. بسبب الحواجز.

«هات الكاميرا!»

أعطاهم إياها. يد محترفة فتحت الغطاء بسرعة وأخرجت الفيلم. لمع الشريط تحت الشمس. رأى أخيلة تحترق. وقعت البكرة على الزفت. لمح جزماً عسكرية. انتظر الضربة. لم يتعرض له أحد. تركوه يذهب.

*

جلس في «مقهى عيتاني». طلب قهوة وماء. جلب له الجرسون علبة كلينكس. سأله هل يريد أسبيرين؟ شكره وتناول منه حبّتين. جفّف عرقه. لم يأخذوا الفيلم من جيبه.

*

في البنايات المجاورة ظهرت آثار التبدل الذي عصف بالحيّ. كان يسمع أن عرب المسلخ حلّوا هنا حين تهجّروا من الشرقية. لكنه لم يأتِ ويتفقد المنطقة. بعيدة دقيقتين عن الجامعة الأميركية، و15 دقيقة عن أوتيل الكافالييه، لكنها عالم آخر. بنايات أنيقة هرب أهلها الأصليون وأصابها الهرم بين ليلة وضحاها. تعلقت ثياب ملونة من الشرفات. تغطّت الحيطان بصور الشهداء وشعارات الحرب الأهلية. الشارع البرجوازي الساكن انقلب سوقاً شعبية مزدحمة. خضر وفواكه. دجاج يُذبح ويُنتف ويُسلق على الرصيف. خراف تُعلف بانتظار الأضحى. سمك يُذوّب عنه الجليد فتفوح رائحته الى نهاية الدنيا. رصاص سوفياتي يُباع في علب مختومة أو «فلتاً» في أكياس ورق (أرخص). شرب القهوة فأحرقت لسانه. بلع الماء ودفع الحساب.

«انتبهْ على الطريق يا أستاذ.»

ابتعد باتجاه مخفر حبيش. زجاج صالون الحلاقة (حيث كان يقصّ شعره قبل زمن بعيد) عكس له صورة رجل وحيد يدخل الأربعين حاملاً كاميرا.

131
آل هاينيكن 5 - الطابق السادس

المكتب. هنا يقضي الدكتور إدغار معلوف القسم الأكبر من وقته. أزاح عن الرفوف كتباً ملآنة معادلات لن يقرأها. ووضع مكانها مجلداته. لم يبدّل كرسي البروفسور هاينيكن لأنها مريحة. لكنه أخرج الكنبة الى الصالون: وجدها ضخمة تحتل مساحة كبيرة وهو يحبّ أن يتمشى ذهاباً إياباً في مكتبه. أثناء جولات القصف يغادر صومعته مجبراً. كان يؤمن أنها آمنة بسبب الأباجور المقفل والستائر السميكة. لكن زوجته تخاف ولا تقبل أن تهبط الى الملجأ مع الأولاد من دونه. انتبه في الفترة الأخيرة أنها صارت تعتمد عليه في الشاردة والواردة وهذه في الأصل ليست صفاتها ولا طبيعتها. عزا الأمر

الى تبدل المسكن والى إحساسها بالغربة في حيّ العبد. لكن هذا لم يسهّل عليه شيئاً. استعان بجوزف، الكبير بين أولاده هنا. أرسله في مهمات. طلب منه أن يعاون أمّه في تنظيم شؤون البيت: ترجم جوزف لغة والده الأكاديمية الى أوامر بسيطة. عليه شراء الأغراض التي لا تقدر أمه (أو لا ترغب أمه) أن تشتريها. عليه إنزال أكياس الزبالة التي لا تصعد الناطورة المحزونة كي تنزلها. وعليه الذهاب مرة في بداية كل أسبوع الى مركز البريد الجديد على ساحة ساسين كي يجلب لأبيه طروداً لا تأتي من الخارج ورسائل تضيع في الجو أو البحر أو اليابسة.

*

واصل الدكتور معلوف محاولاته الحثيثة للعيش خارج التاريخ. كانت هذه الطريقة الوحيدة التي يعرفها للحفاظ على سلامته العقلية. قرر عدم الاستسلام للإكتئاب المرضي (زملاء كثر يحيون على الأدوية والعلاج النفسي ويحوم فوق رؤوسهم شبح الانتحار). اختار درباً صعبة حين بقي في البلد متنقلاً من جهة الى أخرى في العاصمة ذاتها. على التلفون- حين اشتغلت الخطوط- أبلغ إبنه الكبير في أميركا ان الأحوال تتحسن في لبنان تدريجياً. كانت الانفجارات للأسف تُسمع عبر الخط الدولي. سأله ابنه ما هذه الأصوات اذاً؟ أعلن الدكتور ادغار أنها بعيدة وقد تكون ألغاماً يفجرها الجيش وهو ينتشر.

*

كتب على ظرف ورقي سميك عنوان أحد الأصدقاء اللبنانيين في جامعة كمبريدج. زان الكتابين في يده، كل كتاب على حدة.

«مأساة الملك لير»، وليم شكسبير، عرّبها وقدّم لها جبرا إبراهيم جبرا، 1968.

«هاملت أمير الدانمارك»، وليم شكسبير، ترجمة جبرا ابراهيم جبرا، 1961.

*

رأى جوزف يقطع الممر بسرعة. ناداه وطلب منه أن يدخل. وقف طويلاً مرتب الهندام أمام المكتب. فاحت، قويةً، رائحة كولونيا «أراميس». حليق الذقن. متورد الخدين. رفع أصبعاً وأصلح النظارة على أنفه. الدكتور معلوف يحفظ هذه الإيماءة. مزيج من الرهبة والخجل. تراجع في الكرسي وفكر في أفضل طريقة للتطرق الى الموضوع. زوجته جلبت المعلومات وتركتها بين يديه. لم يفهم لماذا بالضبط استنسبت أن يتولى هو هذه المسألة الدقيقة. سأل إبنه أين هو ذاهب؟ أجابه جوزف أنه يريد أن يتمشى قليلاً، «هنا، لن أبتعد». شبك الدكتور أصابع يديه وانحنى على المكتب. تجنب النظر صعوداً.

«أمّك بالها مشغول عليك. تقول ان الجيران يتكلمون عن صلة ما بينك وبين الشابة اللطيفة إبنة الأستاذ إسحاق عطية. نسيت إسمها.»

«راشيل يا أبي.»

«صحيح. راشيل عطية. بيتهم على الطابق الثاني. لا؟»

«على الثالث.»

«هذا لا يغيّر شيئاً. ما طبيعة العلاقة بينكما؟ صداقة؟ في أي صف هي؟»

«مثلي. بكالوريا.»

«أنت تجيب على نصف السؤال.»

«صداقة.»

«لكنك لست ولداً يا إبني. أنت تعرف الناس وألسنتهم. ماذا سيقولون عن الشابة؟»

طأطأ جوزف رأسه. بدا محتاراً. لم يفهم ماذا يعني والده تماماً. هل هو ضد أم مع؟ هل يبدي الإستياء من حكي الناس أم من صلته بالبنت التي يحبّها؟

«هذه السنة الأخيرة. مهم جداً أن تكون علاماتك كلّها عالية. لا يمكنك

الحصول على قبول في جامعات تحترم نفسها اذا لم تبذل أقصى جهد ممكن. أنت تعرف هذا بالتأكيد.»

شعر الدكتور معلوف أنه أنجز ما عليه. ناول جوزف الظرف. طلب منه توصيله الى مركز البريد. سأله هل يحمل ليرات في جيبه. ابتسم له. «بالبريد المسجّل. ولا تنسَ الإيصال.»

132
آل العبد 4 – الطابق السادس

بقعة رطوبة تتشكل في سقف الصالون المذهّب. لوحة تجريدية تنسخ القسم العلوي من لوحة «الصاروخ الساقط» (1874) لجيمس مكنيل ويسلر المحفوظة في «معهد ديترويت للفنون». لمبة الشرفة مزوّدة بكلوب زجاج محجّر بدأ الماء يتسرب إليه من «فوق». اذا لم يأتِ الوكيل في وقت قريب ويتفقد البيت المقفل سيقع هذا الكلوب منفجراً على بلاط الشرفة. لن يكون هذا أسوأ شيء. يحوي البيت ثروة من اللوحات والتحف. قطرات الماء ستفسد الخشب والقماش. سكان الطابق السابع الطارئون جلبوا سمكرياً لعب بالتوصيلات وجعل المياه الساخنة تمرّ في أنابيب معدة للماء البارد. قساطل قديمة تتهرأ ولا تتحمّل ماء حارّاً. ركّبوا قازانات كي يتحمّموا. في منفاه الطوعي في مزرعة الأشرفية في بلاد المكسيك لن يعرف السيد أيوب العبد شيئاً عن السقف الذي يتقشر طلاؤه في صالونه العزيز على الطابق السادس. كان يهوى الوقوف على هذه الشرفة عند المساء ويضبط عدسات التلسكوب المجلوب بالبحر من ليفربول كي يراقب المجرة. الكواكب والنجوم والمذنبات. مراكب الصيادين في خليج برج حمود. البواخر الآتية الى الميناء. وسلسلة الأضواء والمنازل على تلال جونيه البعيدة. أثناء خسوف القمر في 4 أيار (مايو) 1966 نقل التلسكوب الى السطح وقضى مع بناته

ليلة لا تنسى. على جدار الصالون تتعلق مؤطرة بالخشب خريطة فلكية تبيّن مواقع الكواكب السيّارة. تزّين حوافها خرائط لنظام «الدبّ الأكبر» (كوكبة نجمية رصدها جون بود سنة 1774 ورسم خطّاً يصل نقاطها على شكل دبّ)، ونظام «الدبّ الأصغر»، مع رسوم فلكية بقلم الفحم تُنسب الى اللورد الانكليزي وليام هرشل الذي اكتشف بالصدفة «نجم الجدي ب» والكوكب السابع في المجموعة الشمسية «أورانوس» (1781) بينما يبحث عن نيزك يسلّي به صديقته المريضة.

*

في منتصف الخمسينات، ذات مساء عاصف، قرع باب هذا البيت عجوز يرتدي الأسمال ويتعكز على عصا. السيد أيوب احتار ماذا يفعل بينما الرجل يهتز أمامه بالسعال. لم يكن متسوّلاً. ولا طالب حسنة. لكنه لم يوضح ماذا يريد أو من يطلب. حاول السيد أيوب أن يعطيه نقوداً فتراجع غاضباً. جلس على البلاط في صحن الطابق السادس. تربّع وأغمض عينيه. لم يعرفوا هل هو مجنون أم درويش غريب الأطوار من هؤلاء الدراويش المغاربة الذين يظهرون أحياناً في أسواق بيروت المسقوفة ويفترشون الأرض فيطرح العابرون على البسط القش أمامهم ليرات معدنية طالبين بركتهم. البروفسور هاينيكن أطلّ ببيجامته المقلمة طولياً يحمل فرشاة أسنانه. في البدء لم يكتشف سبب الجلبة. الحلقة التي انعقدت حول العجوز تكونت من سكان في مختلف طبقات البناية. مدام نصّار تبرعت وشرحت للبروفسور أن أحداً في البناية لا يعرف هذا الرجل. ساعتان كاملتان هكذا. حيرة وضحكات وإرتباك غامض. تبادلوا أسئلة وتعليقات وقصصاً. استدعوا الجيران. حاولوا أن يقنعوا الرجل بالقيام عن الأرض. عبثاً. كان يرتعش جامداً في مكانه وهو يدمدم كلمة غير مفهومة تشبه الزقزقة. ثم حضر رجال الدرك من المخفر. حملوا العجوز بسهولة. أحدهم أمسك بباب المصعد. ألقوا تحية المساء. وذهبوا. ناس المبرومة لم يعرفوا ماذا حدث للختيار الغريب بعد ذلك.

*

أزعجت الحادثة السيد أيوب. تقلّب تلك الليلة طويلاً ثم نهض وترك فراشه. أضاء اللمبات في الممر والحمام والصالون. سبّب ضجّة بعد منتصف الليل. بناته استغربن. كنّ دقيقات الملاحظة. ومع أن الأب لم يعبّر عن ضيقه شعرن بالحيرة: لماذا اختار العجوز بابهم بالذات كي يقرعه؟ من هو؟ وماذا أراد؟

❋

في أميركا الوسطى رأى المهاجر أيوب العبد عدداً من الشخصيات الغريبة. أثناء نزوله في مدينة كولون فكّ مرة شجاراً بين تاجرين سوريين حاول أحدهما التعدي على أعمال الآخر. كان سريع البديهة محبّاً للخير عموماً ومشهوراً بذكائه في اقتناص الفرص. تاجر بالعقارات. عرف مسبقاً أين ستمر سكة قطار أو طريق عجلات وابتاع بأسعار زهيدة عقارات سرعان ما تضاعف ثمنها عشرين مرة. كان يستعمل محامين محليين ويسجل الأراضي بأسماء عدة. حتى قبل أن يكتمل شق القنال كانت تجارة أميركا الشمالية تمرّ في باناما: البضائع المتنقلة بين الساحلين الغربي والشرقي للولايات المتحدة الأميركية كانت تنقل بالبواخر ثم بقطارات سكة الحديد عبر رقبة باناما الضيقة. الخضر والفواكه والمعادن كانت تحمّل من كاليفورنيا وتقطع شريط المحيط الهادىء جنوباً الى محطة سكة حديد تعجّ بالحمّالين الهنود والأسبان والسوريين. من هنا تؤخذ في ساعات عبر أدغال باناما الى الجانب الآخر حيث تنتظر بواخر مبحرة شمالاً الى نيويورك عبر شريط الأطلسي. لاحقاً مُدّت سكة حديد ربطت شرق الولايات المتحدة الأميركية بغربها. هكذا تدنّى الى حد استخدام السكّة البانامية. السيد أيوب وصل الى المكان بعد سنوات من هذا التحول. لكن زوجته الأولى كانت إبنة إدواردو غوميز، الرجل الذي امتلك ذات يوم الحصة الأكبر محلياً في أسهم السكّة المذكورة. في ليلة صيفية حارة، خلال لعبة قمار في فيلا عالية النوافذ يملكها تاجر فرنسي من بوردو يدعى غوستاف فالين، خسر البارون غوميز كامل ثروته:

انتظر ورقة 5 بستوني كي يربح نصف باخرة، فأعطته السماء 8 ديناري ولم تترك له إلا الثياب على بدنه. وثلاث بنات في سنّ الزواج.

❋

حين لمحها أول مرة كانت جالسة على الشرفة تقرأ كتاباً. وضع يده على الدرابزين الخشب. سألها بأسبانيته المقبولة عن موضوع الكتاب. تأنّت قبل أن تجيبه. كانت تعرف أنه يتاجر مع والدها. أخبرته شيئاً عن لورد إنكليزي أو بولندي يذهب للسكن مع قبيلة تعيش في غابة أو جزيرة أقصى شرق آسيا. ابتسم لها وسألها هل تحبّ الموسيقى. كانت هذه جملته المفضلة للتقرب من الكريوليات اللواتي يجذبن فضوله.

133
آل صعب 6 – الطابق الثاني

تتخيتة تأخروا في اكتشافها. ضيقة كصندوق. تعلو الحمام الفرنجي. شبه خالية. لا يكفي أن تحني ظهرك هنا. هذه ليست تتخيتة المطبخ. عليك أن تدبّ على أربع. لعلها بُنيت للأقزام. الطريف أنها رغم ضيقها مزوّدة بنافذة شرقية لم تتحطم بعد. يقرقع لوح الزجاج ويهتز الإطار الخشب كلّما قصف المدفع المستجد عند كعب «نزلة المبرومة». المهجرون الذين يسكنون أسفل الحيّ لم يشكّلوا لجنة تمثّلهم وتقصد بيت الكتائب المركزي كي تلتمس من القيادة نقل الموقع الى نقطة أبعد. مع أنهم يخافون أن يُقصفوا عند اكتشاف المربض من قبل العدو. لم يقلدوا سكان عبد الوهاب الإنكليزي ولا أهالي الرميل ولا تجار السيوفي. كانوا مكتفين بالأرض المشاع التي نالوها، ويدينون للكتائب وخصوصاً للشيخ بشير بأكياس الترابة التي وزعت بلا ثمن. عدا عن الشاحنات التي أتت محملة بالصفيح. وتلك التي جلبت رملاً وبحصاً. ظهر بينهم من جادل المقاتلين وطلب منهم مباشرة نقل المدافع الى مكان بعيد عن

البيوت. لكن هذه الأصوات القليلة المعارضة سرعان ما سكتت: يجوز أن يُتهموا بالتعاطف مع اليسار، خصوصاً أنهم تكلموا من قبل (في ليلة شديدة السخونة) عن دور الكتائب في تهجيرهم من منازلهم الأصلية. السيد ملحم صعب حفظ مسافة بينه وبين الصراعات الدائرة في حيّ العبد. تجنب قدر الإمكان الإنحدار في تلك النزلة التي تعجّ بالأكواخ والنساء القاعدات على الطريق يطبخن وينفخن ويتبادلن الضحك والصراخ. كانت حبّة الباذنجان تقع من يد إحداهن فتدحرجها النزلة الى كعب الحيّ ولا تراها بعد ذلك أبداً. لم يجد هذا شيئاً ظريفاً لأنه رأى ما ينشب أحياناً بين هذه البيوت. مثل جاره المهندس ألبر سمعان، نشأ في طبقة أعلى من هذه الطبقات. لم يبدّل قراره حتى بعد احتراق سوق الصاغة: في أول فرصة ممكنة عليه الإنتقال من هنا وتأسيس محل في مكان مقبول.

❋

على أرض التتخيتة صحف قديمة جفّفتها الحرارة وتكسّر ورقها كالخبز المحمّص. انحلّ الخيط الذي كان معقوداً على الرزمة. في الزاوية الأخرى (المعتمة) رواية بوليسية بالإنكليزية قذفتها الست خير الدين من «تحت» في ساعة غضب. وقعت مفتوحة على قسطل رطب. العفن يغلفها. كأنها فطر أخضر. كانت الست خير الدين تغتاظ من إدمان ابنتها لأغاثا كريستي. تنفست الصعداء حيت قالت نجوى إنها أنهت أخيراً جميع قصص المذكورة. لكنها بدأت بعد ذلك قراءة باتريسيا هايسميث وريموند شاندلر وأرسين لوبين. لم تفهم لماذا تبدّد ابنتها المال والوقت على هذه الروايات البوليسية. لعلها كانت تحارب زوجها جامع الكتب عن طريق ابنتها. أو لعلها بالفعل خافت من الأغلفة الملونة التي تصوّر جرائم فظيعة ونساء شبه عاريات مرميات على أسرَّة غارقة في الدم.

❋

ضوء الشمس يقطع هذه التتخيتة نصفين في ساعات الصباح. لاحقاً

ستستعملها السيدة صعب لتخزين أشياء لا تحتاجها ويجدر بها رميها في النفايات لكنها لا تفعل ذلك لأنها تربّت في عائلة لا ترمي الأشياء. بسرعة اختنقت المساحة الضيقة بالخردة. قبل ذلك كان يمكن لشخص فضولي (ولد عفريت أو بنت مصابة بالضجر) أن يصعد الى هنا على سلم خشب كي ينظر من النافذة (الكوّة) الى جبل صنين أو الى قطعة البحر. واذا جلس قليلاً كي يرتاح في الصندوق الساكن السرّي الذي يخصّه هو وحده (أو هي وحدها) ينتبه الى:

دفتر أحمر الغلاف، مدرسي (50 ورقة)، خُطّت عليه وصفات أطعمة وحلويات. لا نعرف لماذا رُمي هنا، على سبيل الإنتقام أم بالخطأ أم سهواً (صينية سفوف صغيرة: كوب ونصف سميد ناعم/ نصف كوب طحين/ ملعقة عقدة صفراء/ نصف كوب زيت نباتي/ ملعقتا حليب/ كوب من السكر/ كوب من الماء/ ملعقة ونصف بايكنغ باودر/ 18 دقيقة في الفرن).

جريدة أعلى الرزمة ببقعتها الخضراء المسودّة الأطراف وعنوان مقالة أمحت حروفها الصغيرة وباتت غير مقروءة: «البصبصة وعقوبتها في القانون الإنجليزي.»

صفحة بنّية (1959) من جريدة الأهرام:»... الزحام والضجيج. الأطفال الحفاة أشباه العرايا يلعبون في كل ركن ويملأون الجو بصراخهم والأرض بقاذوراتهم. وتكتظ مداخل البيوت بالنساء. هذه تخرط الملوخية. وتلك تقشر البصل. وثالثة توقد النار. يتبادلن الأحاديث والنكات. وعند الضرورة الشتائم والسباب. والغناء والبكاء لا ينقطعان. ودقة الزار تستأثر باهتمام خاص. وعربات اليد في نشاط متواصل. ومعارك باللسان أو بالأيدي تنشب هنا وهناك. وقطط تموء وكلاب تهرّ وربما تشاجر النوعان حول أكوام الزبالة. والفئران تنطلق في الأفنية وعلى الجدران وليس بالنادر أن يتجمع قوم لقتل ثعبان أو عقرب. أما الذباب فلا يضاهيه في الكثرة إلا القمل، فهو يشارك

الآكلين في الأطباق والشاربين في الأكواز، يلهو في الأعين ويغني في الأفواه كأنه صديق الجميع.»

فردة مشاية جلد عشّش فيها عنكبوت.

قصعة فخار مشقّقة.

كبكوب صوف كان من قبل أزرق.

❋

شعر السيد ملحم صعب بالصدمة والحزن وهو يسمع الراديو. لم يكن يعرف القتيلة (الست ليندا جنبلاط شقيقة كمال جنبلاط) ولا رآها مرة واحدة في حياته. لم يكن حتى يحبّ كمال جنبلاط. لكنه انزعج وشعر بالحاجة الى البقاء وحده في غرفة مقفلة.

❋

في المساء قالت إذاعة «صوت لبنان» ان الشيخ بشير الجميّل اتصل بالسيد جنبلاط وعزّاه. حاول ملحم صعب أن يفهم شيئاً لن يقدر أبداً أن يفهمه، مع أنه سيعيش حياة طويلة: كيف يتكلمون مع بعض على التلفون أو تحت قبّة البرلمان ثم يتقاتلون أو يرسلون رجالهم للتقاتل ثم يلتقون من جديد كي يشربوا القهوة أو يتناقشوا في الدستور! كان خبيراً في الذهب والفضّة والمعادن ويستطيع بنظرة (من دون ميزان ولا عدسة مكبرة) أن يخبرك سعر هذا الخاتم أو تلك الإسوارة. لكنه لم يفهم هؤلاء الناس.

❋

ملحم صعب لم يجرّب حتى أن يتخيل الشيخ بشير وهو يتكلم في غرفة ثم يضع سمّاعة الهاتف ويبدو متوتراً ضيق الصدر. كانت محادثة قصيرة (أقل من دقيقتين) بين عدوين قتيلين. لم يكن الشيخ بشير يعلم عندئذٍ أن كمال جنبلاط سيُقتل بالرصاص في 16 آذار (مارس) 1977 وهو ينحدر مع مرافقيه بين

بساتين زيتون في سيارة عادية غير مصفحة على طريق بعقلين- دير دوريت- بيروت. ولا كان يتخيل أنه هو نفسه سيُنتخب عقب الإجتياح الإسرائيلي رئيساً للجمهورية اللبنانية كي يتكلم عن لبنان واحد مستقل مساحته 10452 كيلومتراً مربعاً، ثم يقضي (قبل تسلم مقاليد الرئاسة) عن 34 عاماً تحت أنقاض بيت الكتائب (الأشرفية)، في انفجار 14 أيلول (سبتمبر) 1982.

*

في تلك الفترة الحرجة (نهاية أيار 1976) تفاقمت الأزمة في بيت ملحم صعب. وقع جدال عنيف بين زوجته وأم وديع. انتهى العراك بأبواب تصفع وبكاء يرتفع. الأولاد أصيبوا بصدمة. أحزنه منظرهم. خصوصاً الصبي (وديع) الذي انسحب اللون من وجهه. وقف عند الباب الذي أقفلته أمّه على نفسها ينظر الى الأرض وينتظر كي تفتح له. حين ناداه وليد كي يلعبا في الخارج كالعادة بدا خائفاً منه! ملحم صعب لجأ مع إبن عمه الى وسائل الترغيب والترهيب، وصالحا بين المرأتين المقيمتين تحت سقف واحد. بدا أن الأمور راقت. لكن التشنج ظلّ كامناً تحت السطح ويهدد في أي لحظة- خصوصاً على طاولة السفرة- بالإنفجار من جديد.

134
آل حبيب 14 - الطابق الرابع

«... أكتب لكِ هذه الرسالة وأنا قاعد تحت شجرة صنوبر في أعالي جبال الأبالاتشي. تركتهم يحضّرون الطعام وجلبت هذه الورقة من السيارة كي أقعد معكِ. لا تعرفين الى أي حد أفرح عندما أفكر أنكِ ستأتين الى هنا. هل هذا أكيد؟ هل حجزتِ التيكيت بالفعل؟ كيف ستسافرين؟ أحسن أن تخرجي عن طريق البحر وقبرص. لا تذهبي الى الغربية. توفيق قال لي على التلفون إنه تكلم معكم قبل أيام. حاولت أكثر من مرة أن أتصل بكم

خلال الأسبوع الماضي. لا، لم أسجل في الجامعة بعد. هناك أقارب لنا في مدينة دنفر في ولاية كولورادو. استفسروا لي في الجامعة هناك عن الأقساط. أظنّ أنهم يستطيعون أن يدبروا لي عملاً في محطة بنزين. وأسكن معهم. الآن قفز سنجاب أمامي وركض على الصخور. لا أقدر أن أصف لكِ جمال هذا المكان. أنا في نقطة ترتفع 1920 متراً عن سطح البحر، وتحتي سلاسل غابات خضراء وأودية يتدحرج فيها ضباب كثيف وسريع مثل الموج. لا أعرف أسماء هذه الأشجار. كثيرة ومتنوعة وترتفع الى علو شاهق. هذه الشجرة مع أنها صنوبرة «باين» كما يقول أقاربي، لا تشبه صنوبر بلادنا. الآن حطّت ثلاثة عصافير فوق رأسي. ريشها ملوّن أصفر وأحمر. اذا أصغيتِ جيداً يمكنك سماع ماذا تزقزق: إنها مشتاقة إليكِ وتنتظركِ طوال الوقت. لا تعتقدي أن الغربة أو أميركا غيّرتني. أيضاً لا تعتقدي أنني قبل أن أجيء الى هنا كنت أحبكِ أقل. حين نلتقي سأخبركِ عن الأشياء التي فكرت فيها وأنا أحرس في الليل في الجنوب ثم في وسط بيروت. أنا طلبت من توفيق ألا يخبركِ عن هذه الأمور لأنني أفضل أن تعرفي تجاربي مني أنا لا منه هو. لعل ما حدث كان الأفضل. من يعرف؟ أنا أتحدث عني فقط. لو لم أقاتل في الأسواق ما كنت هنا الآن في أميركا. أعرف شيئاً واحداً فقط يا حلا: أنني أريد أن أكون معكِ. لكن ليس في لبنان. حتى لو انتهت الحرب لا أريد أن أرجع.»

135
آل عازار 11 – الطابق السابع

الذعر الذي أصاب الصيدلي راجي عازار وهو يبحث عن إبنته دارين في الشوارع يوم انتخاب الرئيس الياس سركيس، غيّر شيئاً فيه. إحتراق الصيدلية في ساحة البرج جعله عاطلاً عن العمل. تهجيره من الحيّ القديم طأطأ رأسه. لكن جولة الرعب الأخيرة ألصقته بالقعر. اكتشف وهو ينظر الى الطلاء

المتقشر أسفل باب الحمام أنه سيموت إذا بقي هكذا. نهض وبدّل قميصه وخرج كي يبحث عن عمل في أي محل.

*

شارع حيّ العبد الرئيسي يقطع الحيّ من الشرق الى الغرب ويتميّز (إضافة الى المبرومة) بثلاث علامات فارقة تستعمل للاستدلال متى أراد أحدنا أن يرشد غريباً الى بيت أو دكان:

1 - المسمكة القائمة على كتف المنحدر والمطلّة على نهر بيروت المغطى بأكياس الزبالة.

2 - محطة البنزين.

3 - المقهى.

تواجه محطة البنزين بناية لم تكتمل لكن الناس سكنوها وهي هكذا: كانت الخطة أن يطلوها ذات يوم من الخارج لكن الوقت مرّ والبناية ظلّت عارية. العابرون اعتادوا منظر الباطون الرمادي. يضاعف فقر شكلها (بالتضاد) وجودها قرب «المبرومة». بين المسمكة والمحطة فرّخت بيوت متلاصقة، بحائط «ما بين» مشترك لتخفيف الكلفة. بعضها يتكون من طبقتين، في الأسفل دكاكين وفي الأعلى مساكن. وبعضها طبقة واحدة لكن نافذة واجهته يمكن أن تستعمل لبيع الخضر أو أكياس الخبز أو حتى السمك (اذا كان أحد سكان البيت عنده صنارة وينزل الى البحر). هناك إمرأة عجوز تقعد في باب بيتها وتبيع علب الدخان وباكيتات التنباك والمعسل. زوجها مريض لكنه لا يكف عن القرقرة بالأرجيلة: يُرى على الرصيف منذ الفجر، قاعداً على كرسي وظهره الى الحائط والأرجيلة شغّالة وجنبها ركوة القهوة. اذا مشى يتعكز على عصا. في وقت محدد كل صباح يقوم بنزهة حتى المقهى. رحلة قصيرة تستغرق دقيقتين منطقياً، لكنه يحتاج الى عشرين دقيقة تقريباً بسبب خطواته الصغيرة والبطيئة. كلّما جرّب قطع الطريق تزدحم السيارات

وترتفع الأبواق والشتائم. أحد العمال في محطة البنزين (نوبي طويل يشرب الشاي بالحليب وهو يملأ التنكات مازوتاً) يخاف عليه بسبب رانجات المسلحين المسرعة: يترك النربيش على الأرض ويقفز ويحمله مع عصاه الى الجانب الآخر. بعد محطة البنزين والمغسل البدائي الملحق بها، تتوالى سلسلة كاراجات اختصاصها تلحيم وتصليح اشكمانات يشرقط منها الشرر ليلاً نهاراً، يليها حاووز الماء بتمثال السيدة الذي يعلوه، ثم مطعم الفلافل والفراريج المحمّرة ثم كاراجات ميكانيك وكهرباء سيارات، ثم صالون حلاقة بواجهة زجاج وسخة وخشب بلون الكريم بدأ يفسد ويتبدل الى أسود، ثم مصطبة باطون طويلة عريضة ترتفع نصف متر عن الشارع وتحتلها بسطات خضر مسقوفة بالقصب. الشخص الذي صبّ هذه المساحة إسمنتاً يدعى كلود برباري وكان ينوي فتح مقهى هنا بعد أن تهجّر من شارع المعرض (وسط بيروت) حيث مقهاه الأصلي وبيته الذي نُسف. قتلته رصاصة قنّاص في رأس النبع وهو يشتري لمقهاه الجديد من مقهى على خط التماس أقفل أبوابه، الكراسي والطاولات الباقية إضافة الى الكؤوس والأباريق والمناقل والأراجيل المستعملة والصواني النحاسية. بعد موته أجّرت زوجته المصطبة لبياعي السوق، بالمتر المربع. كان الموقع عظيماً وغير بعيد كثيراً من النزلة العمودية حيث ازدحمت بيوت تستهلك الخضر والحبوب بكميات، ولا تشبع. بعد المصطبة يتعرج صف دكاكين تبيع كل شيء من البيض والحمص وأدوية الغسيل الى الثياب والمشايات وقباقيب الخشب. جنبها كاراج آخر عميق الحفرة يطلّ منها الوجه الملطّخ لكاميليو أرقش (إبن الأعمى الذي يطرطق بعصاه المعدن عند كنيسة السيدة ويبيع ورق يانصيب). أخوه الأصغر موريس يستطيع أن يفك محرك أي سيارة من أي موديل في ساعة واحدة، لكنه يعاني بعد ذلك في جمعه. بعد الكاراج مطعم الفول. جنبه بسطة مهدية النورية بيّاعة الخبيزة والشمّار والزعتر البرّي. لعلها الوحيدة التي تتنقل في

وقت القنص. ثوب قاتم طويل الكمّين وأكياس قماش منتفخة تبيع منها ولا تفرغ. على ذقنها وشم أخضر عتيق. الجزّارون الثلاثة في الحيّ يتجمعون في هذه الجهة. يذبحون على حافة الرصيف غنماً وعجولاً. يعلقون الذبائح حين ينشف دمها بخطاطيف حديد داخل دكاكين ضيقة مشرعة الأبواب. على مسافة قريبة تتلاصق محلات مسقوفة تنكاً لخيّاطين ونجّارين مهجّرين من أسواق احترقت، يكافحون غاضبين ضد الحرارة والذبّان والروائح. سوقهم البائس يليه المقهى المزدهر الذي فتحه المعلم فيليبوس رشيد رزق الله وعُرف ب«قهوة فيليبوس» حتى قبل تعليق اللافتة القماش فوق الشارع. تعدى المعلم فيليبوس على الرصيف ووزع تنكات زريعة لتحديد المساحة. ظلّ يحرك التنكات أبعد فأبعد ليلة بعد أخرى (المحلات تقفل أبوابها قبل المقهى الساهر الى الفجر) حتى استولى على الطريق بالطاولات والكراسي. لم تنفع محاولاته المتكررة لشراء المصطبة العالية الممتازة من الست تقلا أرملة المرحوم كلود برباري. استخدم كل مهاراته وأرسل وسطاء، بلا جدوى. في النهاية رضي بالرصيف والبستان جنبه. كان شريطاً ضيقاً من أشجار تين وصبار ينتهي بقن دجاج مهجور. قطع الشجرات كلّها وجرف قسماً من الأتربة ثم صبّ مصطبته الباطون الطويلة الخاصة. كتم في بطنه كرهاً بلا نهاية للأرملة الشابة ذات الفساتين الضيقة التي تتمايل في الطريق وتتغنج على باعة البصل والبطيخ كأنها أميرة موناكو. شغّل عدداً من صبيان الحيّ في المقهى. علّمهم المصلحة وعاملهم بطريقة مقبولة. كان لبقاً مع الزبائن ويؤمّن خدمات من تحت الطاولة وفوقها ويبيع أفيوناً وحشيشة بعد غروب الشمس. شعر بالدهشة حين سأله صيدلي مهجّر قاعد بلا عمل هل يعرف أحداً يمكن أن يشغّله. طلب كاسة يانسون وجلس قبالته. سمع من قبل عن إبن الصيدلي البسيط العقل الذي يقاتل مع حراس الأرز. أكثر من مرة رأى الصبايا بناته في الشارع. لكن قبل الإبن والبنات كان يسمع عن الست أم

سعيد عازار ويعرفها معرفة العين والأذن وتضحكه حين يراها تجادل الباعة على سعر الخيارة والموزة والصابونة. قوية شرسة نبيهة وتذكره بخالاته. قال للصيدلي انه يعرف زبوناً يأتي كل مساء وعنده صيدلية قرب دير الناصرة ويقدر أن يسأله. سأله راجي عازار هل يقدر أن يدلّه على مكان الصيدلية بالضبط. ضحك المعلم فيليبوس ونادى أحد الصبيان المقرفصين في الطريق يفركون الصواني بالماء والرماد ويلمّعونها بقشر الحامض. طلب منه أن ينشف يديه ويقفز مع الصيدلي الأستاذ ويدلّه الى صيدلية الناصرة جنب دير الناصرة.

136
آل زغلول 12 – الطابق الأرضي

تجنبوها. أشفقوا عليها وخافوا أن تحسب كلامهم معها عتاباً أو لوماً بأي شكل من الأشكال. في نكبتها قصّرت في واجباتها. صارت أكياس النفايات تُنسى على أبواب الشقق حتى تفوح رائحتها أو تنكشها القطط. لولا إبنتها الباقية في البيت (لاحقاً اكتشفوا أنها تدعى فريدة) التي بدأت تعاونها وتحلّ محلها، من كان سيكنس الدرج صبيحة كل خميس، من الطابق السابع الى الطابق التحتاني، ثم يشطفه ويمسحه. مرّوا بلا صوت جنب المرأة التي فقدت إبنتها. تصرفوا كأنها غير موجودة. كأنها اختفت هي أيضاً. كانت ترتدي ثوباً رمادياً غامقاً تُبقّع بطنه وظهره فراشات صفر مضحكة. تقف في المدخل، مائلة على أكياس الرمل، مستندة الى البرميل أو الهواء، تراقب الشارع وترصد الذاهب والآتي. اذا رأت سيارة إسعاف أو سرفيس تتوقف قبالة المحطة أو عند رأس النزلة، تنفتح عيناها الناعستان على اتساعهما ويتجمد النَفَس في فمها. لم ترجع كوليت التي اشترت لها هذا الثوب قبل أن تذهب. لم يتلفن أحد ويبلّغ الوكيل شيئاً. شبه مخدرة، شبه ميتة، مضت راغدة زغلول الى مخافر ومستشفيات ومراكز للصليب الأحمر. كانوا يتلقونها بوجوه كئيبة

أو ناقمة. يتركونها في ممرات بلا مقاعد. حتى يحل المساء. تدنو إحدى العاملات وتنصحها بالخروج قبل إغلاق البوابة. لم تهرب من الرصاص الذي يفرقع على حائط. رأت كلباً رمادياً مقتولاً على الرصيف. وهرّة داستها عجلات شاحنة. تأملتها مكبوسة على الأرض، مثل ورقة، ملتصقة بالزفت تسيل منها مادة كثيفة. مشت في أحياء تظلم بلا كهرباء ويهبّ عليها الهواء بلا توقف. أوقفها حاجز. سمعت ضحكات. كانوا يدخنون ويشربون بيرة أو حليباً. أجلسوها قبالة تلفزيون موصول بشريط الى بيت مشرع النوافذ تبرق فيه اللمبات. كان الشارع خالياً إلا من سيارات احترقت وتكسرت. أمام رانجروفر أحمر اللون رأت رجلاً عارياً إلا من شورت ومشاية يأكل فولاً أخضر ويرمي القشور في الهواء. سألوها ماذا تفعل هنا. وسألوها أين بيتها. أحدهم عبث بشعرها. سألوها هل عندها زوج أو أخوة. سألوها ماذا تحبّ أن تشرب. سمعت إنفجاراً. ارتفع الصياح. عرفت أنها في مكان يُقتل فيه الواحد بسرعة. انطفأت اللمبات. تحرك الرانج الأحمر الى مكان غير مرئي. ابتعدت وهي تسمع صوتاً يناديها كي ترجع وتسهر. لم تكن تعرف أين هي ذاهبة لكن الشوارع أخذتها الى أزقة، والأزقة سلّمتها بعد ساعات الى شارع ضيق طويل يبدأ عند مقهى وينتهي أمام محطة بنزين. في مدخل «المبرومة» الغارقة في الصمت، وقفت مستندة الى الظلام تنظر الى الصورة على الحائط. أكثر من ليلة صعدت في العتمة الدامسة الى «فوق»، ولم تدخل من باب البيت الذي تتركه لها فريدة مردوداً لكن غير مقفل. الست عازار أوقفتها ذات ظهيرة على الدرج ونبّهتها ألا تترك بوابة السطح مفتوحة. لم تعد تنشر غسيلها فوق بسبب الحمائم والوطاويط التي تجيء وتوسخ الشراشف. رأت الأولاد يتبارون في السير على حافة السطح وخافت أن يقعوا.



مدام غابرييلا حبيب التي لا تخرج إلا في ما ندر رأت الناطورة في المدخل وسلّمت عليها باليد. الست الحويك كانت عائدة من السنترال ورأت الست

أم كارلوس تقول شيئاً للناطورة، لكنها لم تسمع الحديث. كان صوتها خافتاً كأنها تتكلم من قعر بئر.

*

في حزيران (يونيو) نادوا على الناطورة كي تساعد في إنزال أغراض من بيك أب توقف أمام البناية. سمعتهم يتكلمون عن قرى شرق صيدا والقصف السوري على مدينة صيدا. رأت السيدة هدى عطية تستقبل بالقبل والعناق سيدة تشبهها شكلاً وثياباً. الست طانيوس خرجت من الدكان يرافقها عمالها. أشارت بيدها وتحركوا وساعدوا في إفراغ البيك أب. راغدة زغلول شاهدت المرأة التي لم ترَها من قبل، تبكي وهي تضع يديها على كتفي مدام عطية. أعطتها ظهرها وهي تدخل البناية. كانت الحقيبة ثقيلة ومسكتها مدببة تجرح اليد. سمعت في تلك اللحظة نداء أوقف قلبها: «كوليت.» استدارت كالمجنونة. رأت فتاة صغيرة شقراء تطلّ من البيك أب. لم تكن كوليت زغلول إبنتها، بل كوليت داوود ليفي إبنة العائلة المهجّرة من البيت المقصوف قبالة قلعة صيدا.

137
آل الحويك 10 – الطابق السابع

انشغل بالهم على بشارة الذي انقطعت أخباره. زاد الطين بلّة الأنباء الواردة من الغربية والجنوب، وعجز بولس الحويك عن الإتصال بأخيه ميشال المقيم في قرية مجدليون (شرق صيدا). كأن هذا لا يكفي: ظهرت سحجة على ظهر الختيارة بسبب ملازمتها الفراش بلا حركة. جاء الطبيب وكشف عليها ونصح بنقلها الى أوتيل ديو. بدا منزعجاً من الرائحة التي بدأت تفوح من الجرح الملتهب. كميلة الحويك ظلّت متماسكة وهي تنتقل مع والدتها في سيارة الإسعاف من «المبرومة» الى المستشفى. ناس البناية تجنبوا

فتح أبوابهم بينما العجوز تهبط الدرج على نقّالة يحملها مسعفان. إلا الستّ عازار والستّ طانيوس: رافقتا العملية من البداية الى النهاية. حين صفرت سيارة الاسعاف مبتعدة فعلت الستّ أم جان شيئاً غريباً عن عاداتها: دعّت الستّ أم سعيد الى شرب فنجان قهوة في المحل.

*

ساعدهم سائق يعمل في «الشركة اللبنانية لتوزيع المطبوعات» التي تؤمن سياراتها توزيع الصحف والمجلات عابرةً خطوط التماس يومياً (المحاربون وقادتهم - وهؤلاء أهم- يهوون قراءة أسمائهم في الصباح). كان يدعى خليل غطّاس وأفلح في العثور على بشارة كيروز في أوتيل كافالييه أخيراً. حقّق نجاحه في أسوأ ساعة. كانت المعارك تلهب المنطقة الغربية والسير من الحمراء الى أي شارع مجاور محفوف بمخاطر. «أمك تسأل عنك يا أستاذ بشارة. أدخلوها الطوارىء. أوتيل ديو.» ذلك المساء قطع بشارة خط التماس داخلاً المنطقة الشرقية. كانت رحلة إنتحارية. على حاجز «القوات المشتركة» قبل المتحف، أوشك الشوفير أن يلفّ ويرجع. الصواريخ صفرت فوق السيارة. شاهدا آليات مشتعلة لمنظمة «الصاعقة» (أمّة عربية واحدة ذات رسالة خالدة). تجنبا جثثاً متململة وسط الشارع. هربا من اشتباك مباغت بالرشاشات والار بي جي. أنقذهما زقاق يبعد أمتاراً عن جهنم. على حاجز الكتائب بعد مقر الأمن العام سدّدوا ضوء المصباح (البطارية) الى وجهه. رأى وجوهاً تنضح حقداً. تبسّم لهم وأجاب على أسئلتهم. شمّ رائحة شواء. عندما تركوا السيارة تعبر انتبه أنه تغمّس بالعرق. ما بقي من الطريق الى أوتيل ديو كان فشخة (خطوة). لكنه خشي أن يقضيا بالقنص في هذه الفشخة. كبس الشوفير البنزين وأطفأ الأضواء.

*

وجد والدته نائمة. أثر البنج. لم يجد أخته. ذهبت الى البيت كي تجلب أغراضها للنوم في المستشفى، وكي تُعشّي الأولاد. بولس تفاجأ به ثم طمأنه

أن أمّه بخير. كان يكذب. ويعرف أن بشارة يعرف أنه يكذب. دخّن معه سيكارة بين شجيرات الياسمين في حديقة أوتيل ديو. سأله أين كان مختفياً.

«بعلبك. وشتورة.»

سأله كيف تمكن من عبور الغربية وسط الاشتباكات. وأخبره أنه لا يستطيع منذ أيام أن يتصل لا بمجدليون ولا بعبرا ولا بلبعا.

«كل الخطوط مقطوعة في الجنوب. التلفونات والكهرباء. العواميد على الأرض.»

سأله هل للجريدة مراسلون هناك؟

«أين بيت أخيك ميشال بالضبط؟»

«وأنت طالع من صيدا على مجدليون، محطة مجدليون، أول مفرق على اليمين بعد المحطة.»

«البيت بعيد عن الطريق العام؟»

«أقل من كيلومتر.»

«دبابات السوريين على الطريق العام. وعلى التلة فوق صيدا. لم يدخلوا الى قلب القرى.»

قذف بشارة سيكارته. رسمت الجمرة قوساً: مذنَّب من شرر. كان يكذب على الرجل الذي يضع يده على قلبه ويبدو متقدماً في السنّ.

❋

جاءت كميلة بعد ساعة. ركضت حين رأته. عانقته وجلست جنبه على المقعد في صالة الإنتظار. ظلّت تمدّ يديها وتقبض على أصابعه بين حين وآخر وتشدّها. المكان فارغ. النيون يئنّ. أخرج من جيبه رزمة نقود. أعطاها لها. وقف بولس الحويك يشرب ماء من البراد المعدن في نهاية الممر. منحهما مساحة.

❋

دخل على والدته. جلس على كرسي عند رأسها. عيناها انفتحتا. لم تبكِ لكن صدرها ارتعش. كلّمته بعينيها وجلس جنبها على حافة السرير. «بشارة. إبني.» كان صوتها منحبساً غير مسموع. لكنه قرأ حركة شفتيها. ابتسم لها. أمسك بيدها. كانت باردة. تكلّم معها. حاول ألا يبدو حزيناً. «أي متى وصلت؟» قال إنه اشتاق لها. كميلة وقفت قرب الباب، بائسة.

❋

وعد بولس أن يسأل له عن أخيه ميشال ويردّ عليه خبراً.

«أنا أعتمد عليك يا بشارة. لا تتأخر عليّ. وأمّك كأنها أمي. لا تشغل بالك. سنهتم بها.»

لم يبقَ في المنطقة الشرقية أكثر من ثلاث ساعات. كان خائفاً ويخفي قلقه. لأنهم اذا عرفوا من هو وماذا يفكر لن يتركوه يعبر الى الغربية.

❋

على كل حاجز توقع الأسوأ. رؤية أمّه هكذا حطّمته. من هذه المرأة خرج الى الحياة. وها هي تذهب. الضوء اقتحم عينيه. الأسئلة والأجوبة. الأخيلة على الحيطان. حاجز النمور ثم حاجز التنظيم. حاجز الكتائب ثم حاجز حراس الأرز. قطعوا المعبر. في الغربية أنزلوهم وفتشوا صندوق السيارة. بعضهم ملثم. الشوفير تصاعد توتره. تكاثرت الحواجز تلك الليلة. أزّ الرصاص من كل الجهات. انفجرت قذائف في الظلام. أشباح البنايات في المدينة المقطوعة الكهرباء راقبتهم مثل غيلان خرافية. كانوا ثلاثة، هو والشوفير وشوفير آخر من «ليبانون تاكسي» عائد من يوم عطلة. في اللاسلكي سمعوا شتائم وصراخاً. ورشقات رصاص. اختلط الرصاص حولهم برصاص خلدة والمطار. شاهدوا عربات بمدافع 500 مسرعة كالصواريخ باتجاه الضاحية الجنوبية. تجنبوا خطوط النار، وكل نقطة فيها مركز لكمال شاتيلا (التنظيم الناصري). شعروا أنهم لن يبلغوا الحمراء. تحوّلت المدينة

متاهة نار وشظايا وزجاج يتكسر. تجاوزوا بوسطة فولسفاكن تحترق. لمحوا إمرأة ميتة على الرصيف. لم يعرفوا كيف أوصلتهم الأزقة قرب مبنى التلفزيون. كأن الطرقات تبدّلت ليلاً. كانت الحمراء قريبة الآن لكنهم عجزوا عن العبور بسبب اشتباك آخر. تسلقت السيارة متراساً تهاوى وسط الشارع. علقت على التلّة. أوشكوا أن يتخلوا عنها. ثم نزلوا ودفعوها. أفلتت وأكملوا الطريق. الانفجارات حاصرتهم. وجد الشوفير ثغرة بين نارين وانطلق مثل مجنون. تصبّب العرق من أجسامهم غزيراً. في مكان ما وسط مدينة ما طالما توهموا أنهم حفظوا شوارعها، أوقفهم حاجز «المرابطون» وسألهم هل مرّوا على حاجز «الصاعقة». النار التي أوقدوها في براميل، أضاءت التقاطع. رأى بشارة رجلاً أبيض الشعر يعبر شارعاً عريضاً وهو يرفع عصاه أمامه. أعمى. كان يتقدم على مهل. لعله أطرش أيضاً.

*

وصل الى فندق الكافالييه في الثانية و55 دقيقة بعد منتصف الليل. المدينة تحترق لكن البار ساكن. شرب ثلاث كؤوس ويسكي عند البار يسمع الراديو، ثم جلس الى الكأس الرابع. الحيطان مبطّنة بالبنّي الغامق. الإضاءة صفراء. خافتة. دخل جورج يحمل جاكيتته على كتفه. ومعه زميل من صحيفة «السفير».

«أين كنت؟»

«في الشرقية.»

«أخوت!»

«أمي في أوتيل ديو.»

جاء الجرسون. انشغلا عنه. أفرغ كأسه وطلب من الجرسون الذاهب كأساً مع ثلج.

«صاحبك وليد في المتين.»

«أنا أخوت؟ هذا أخوت!»

بينما يسأل عن رفاق وأماكنهم بدأ يتحسن. على الأقل تمكن من الحكي. عضلة فخذه كفّت عن الإرتجاف. دخل إميل وأعلمهم أن المعارك محتدمة في كل محاور الجبل وان القصف متواصل على صيدا ومخيم المية ومية. «والهليكوبترات ضربت المتين». غيّر البارمان الموسيقى. جورج أعلن وهو يشعل قداحته انه يفكر في القيام برحلة الى هناك في الصباح.

«الى الجبل؟»

«لا، الى صيدا. وشرق صيدا اذا قدرت.»

سأله بشارة هل سيذهب الى مجدليون؟

«اذا الطريق فاتحة.»

«زوج أختي أهله في مجدليون ولا يعرف عنهم شيئاً. بيتهم بعد المحطة. المفرق على...»

قاطعه جورج بحركة من سيكارته.

«لماذا لا تأتي معي؟»

*

جريدة الإثنين 7 حزيران (يونيو) 1976.

بعد يوم من الاشتباكات والصواريخ بين الصاعقة والتنظيم الناصري و«الحركة الوطنية».

عرفات: الجيش السوري بدأ هجوماً شاملاً.

«جيش لبنان العربي»: الطيران اللبناني قصف مواقعنا في البقاع والجبل.

منظمة التحرير تطلب قمة عربية عاجلة «للتصدي لمخطط التصفية».

هل بدأت المواجهة وبكل الأسلحة بين القوات السورية من جهة و«المقاومة الفلسطينية» و«الحركة الوطنية» و«جيش لبنان العربي» من جهة

أخرى؟ فقد أعلن «جيش لبنان العربي» مساء أمس ان سلاح الطيران اللبناني ضرب مواقع المقاومة و«القوات المشتركة» في الجبل وانه بالتحديد قصف حزرتا وترشيش والمريجات وظهر البيدر وعينطورة والمتين. وأعلن بيان لقيادة هذا الجيش ان القوات السورية قصفت مواقعه في البقاع وان ضحايا كثيرة خلّفها القصف خصوصاً في المريجات.

وجاء هذا التطور العسكري الخطير بعد نهار طويل عاشته بيروت، خصوصاً المنطقة الغربية التي كانت مسرحاً في أكثر من حيّ وشارع لاصطدامات مباشرة بين «الحركة الوطنية» وقوات «الصاعقة» و«التنظيم الناصري» (اتحاد قوى الشعب العامل)... وسجلت هذه المعارك اصابات كثيرة وتخللتها أكثر من مفاجأة كان أبرزها صدور بيان من السيد كمال شاتيلا والنائب نجاح واكيم يعلنان فيه تضامنهما مع المقاومة الفلسطينية ورفض كل تدخل خارجي. وقد صدر هذا البيان اثر احتلال قوات «الحركة الوطنية» عدداً من مكاتب «التنظيم الناصري» و«الصاعقة» في أحياء بيروت الغربية والجنوبية. وقد امتدت الاشتباكات من المطار والمنطقة المحيطة به مروراً ببرج البراجنة وخلدة والناعمة حتى رأس بيروت. وتخلل ذلك مطر من الصواريخ التي كانت تتطاير فوق بيروت خصوصاً في الساعات الأخيرة من الليل. وكان سبق القصف الجوي اشتباك على مدخل بيروت الجنوبي بين قوات الصاعقة من جهة و«جيش لبنان العربي» وقوات «الحركة الوطنية» من جهة أخرى استخدمت فيه المدفعية الثقيلة والهاونات وقطعت على اثره الطريق بين بيروت وصيدا وأطفئت أنوار المطار وعزلت بيروت هكذا عن كل المنافذ.

عرفات يطلب قمة: وفي رسالة مستعجلة على اثر هذه التطورات أبلغ السيد ياسر عرفات الملوك والرؤساء العرب «ان القوات السورية بدأت في الرابعة بعد ظهر الأحد هجوماً شاملاً على قوات المقاومة الفلسطينية وضد الشعبين

الفلسطيني واللبناني» طالباً «التدخل لوقف المذبحة»... وطلب عرفات في رسالته المبادرة فوراً الى عقد مؤتمر قمة عربي «للتصدي للمخطط السوري الذي يستهدف تصفية المقاومة الفلسطينية والشعب الفلسطيني.» وقد تولى مكتب فتح في القاهرة إذاعة نص الرسالة. وجاء في الرسالة «ان القوات السورية تعززها الدبابات في منطقة البقاع بدأت تزحف نحو محور عينطورة حيث توجد القوات الفلسطينية في مواجهة القوات الانعزالية، كذلك نحو محور ظهر البيدر، فيما أخذت القوات السورية تقصف بالصواريخ الأحياء الغربية من بيروت والمخيمات الفلسطينية، وقامت بعمليات عسكرية من المدينة الرياضية ضد مخيمات صبرا وشاتيلا والطريق الجديدة».

قصف وتقدم: على صعيد العمليات العسكرية أفادت المعلومات انه قرابة السابعة والنصف بعد الظهر تدهور الموقف الأمني فجأة عندما ظهرت في أجواء البقاع والجبل طائرات عسكرية راحت تقصف عينطورة والمتين حيث تتمركز «القوات المشتركة» وقطعت الطرق المؤدية اليها فيما بدأت آليات سورية تتحرك في اتجاه منطقة عاليه. ورافق القصف الجوي قصف مدفعي تركز على هذه المحاور. وأفادت المعلومات الواردة في الحادية عشرة ليلاً «ان الدبابات السورية تتقدم على مشارف بحمدون.»

الفطايري: السوريون أسروا مجموعة من المقاتلين التقدميين: الأولى فجر اليوم أدلى السيد أنور الفطايري مفوض الدعاية والنشر في الحزب التقدمي الاشتراكي بالآتي: «أسرت القوات السورية في أثناء إجتياحها ظهر البيدر مجموعة من المقاتلين التقدميين. واننا نحذر من تصفية هذه العناصر أو الإساءة اليها وندعو الجيش السوري الى الإلتزام بالمبادىء التي تمليها مثل هذه الظروف».



سابين الحويك اعتنت بأخوتها أثناء غياب أمّها وجدّتها في أوتيل ديو.

حسّن العمل المنزلي صحتها النفسية المتردية. طبخت وكنست ومسحت. كوت قمصان والدها. حين مزق أخوها يونس بنطلونه في الكاراج جلبت إبرة وخيطاً من علبة أمّها ورتت البنطلون. أخرجت كازاً من القنديل وأزالت بقعة شحم عن كنزة. بينما تناول أختها سندويشة مربى عند المساء تذكرت للحظة صاحبتها التي ضاعت كوليت زغلول. أخوها الأصغر نادى طالباً سندويشة لبنة. ذهبت الى المطبخ وفتحت رغيف خبز وقطعته نصفين، بالطول. كانت تقتصد قدر الممكن لأن الطحين بات ينقطع عن الأفران أكثر فأكثر وأحياناً لا يجدون خبزاً في السوق. في الليلة الأولى التي قضتها من دون أمّها وجدّتها أحسّت بالبرد والخوف. الإنفجارات لم تقترب كثيراً. أوشكوا على النزول الى الملجأ. لكن الراديو قال ان القصف ليس هنا. ظلّوا على الطابق السابع. أبوها لم يخبرها إلا بعد يومين أن جدّتها لن ترجع الى البناية على الأرجح.

«سيأخذها خالي بشارة؟»

«لا يا سابين. جدّتك مريضة كثيراً. سيأخذها ربّنا.»

❋

«الاشتباكات التي بدأت مساء السبت وامتدت حتى فجر الأحد شملت مناطق عدة من برج البراجنة الى برج ابي حيدر مروراً ببئر العبد، بين مقاتلي «الحركة الوطنية» وبعض المنظمات الفلسطينية من جهة ومقاتلي منظمة الصاعقة والتنظيم الناصري من جهة أخرى. ثم تجددت أمس واستمرت حتى الليل واستخدمت فيها مختلف الأسلحة الثقيلة والخفيفة. وشملت شارع عمر بن الخطاب ورأس النبع وبشارة الخوري والبسطة والطريق الجديدة وصبرا وقصقص وشاتيلا وطريق المطار والمزرعة ورأس بيروت. وسقط خلالها عدد من القتلى والجرحى. وشلت هذه الاشتباكات الحركة في بيروت الغربية وضواحيها وخلقت جواً من الذعر حبس المواطنين في منازلهم، وكانت تشاهد طوال النهار سيارات مسلحة تجوب الشوارع في حالة

استنفار تام وكثرت الحواجز والمتاريس أمام مكاتب التنظيمات العسكرية.

24 قتيلاً و48 جريحاً و22 جثة: على هامش الاشتباكات في قلب بيروت الغربية بين الحركة الوطنية والصاعقة والتنظيم الناصري، تجددت بعد الظهر اشتباكات على محاور القتال التقليدية وتبودل قصف متقطع بين المنطقتين الغربية والشرقية. وزادت حدّة الاشتباكات ليلاً في منطقة المرفأ- فتال حيث سجل اطلاق نار كثيف وقذائف هاون وأخرى صاروخية. وقرابة الفجر تجدد اطلاق النار وسجلت عمليات تقدم على مختلف المحاور خصوصاً حول بناية فتال وامتداداً على طول شارعي فوش واللنبي. وحول القاعدة البحرية تتابعت عمليات القنص والرمايات المكثفة من المدافع المضادة للطائرات المثبتة على الدبابات والآليات التي في حوزة الطرفين. وفي محور فوش- الأوتوماتيك جرت محاولات تسلل عدة بين البنايات امتدت الى سوق الجوخ - فخري بك والى المواقع المجاورة لبناية فتال. ورافق ذلك تبادل قنابل يدوية بين المتقاتلين. وصدت عمليات تسلل على خط بناية غرغور. وتساقطت في منطقة العجمي قذائف هاون عدة ورشقات 500. كما سجل اطلاق قذائف مضادة للطائرات مع نار متقطعة في محاور الخندق الغميق- ساحة الشهداء- محمد الحوت. وجرت رمايات مكثفة على طول المحاور في سوديكو والناصرة ومونو وعبد الوهاب الانكليزي والدباس والأمبير والصيفي. ودارت معركة قوية في خط اللعازارية- الام جيلاس- الدباس- بيغال في ساعات بعد الظهر. وبين المتحف والأمن العام وحي السريان وقصر العدل وأوتيل ديو جرى قنص وتبودلت نار من رشاشات ثقيلة رافقتها قذائف هاون واربي جي. وتساقطت قذائف عشوائية على محوري الليسيه- السيار ثم شمل القصف لاحقاً محاور أوليفتي والمتحف وحي السريان وأدى الى مقتل طفل وجرح 5 مواطنين. وسقطت قذائف على كورنيش ميدان سباق بيروت ومنطقة الأمن العام. وأفادت معلومات ان عدداً من الأشخاص أصيبوا ونقلوا

الى المستشفيات. وأشارت معلومات شبه رسمية الى ان ثلاثة قتلى سقطوا نتيجة التراشق وجرح عشرة. وعثر على أربع جثث تحت جسر فؤاد شهاب قرب سينما غومون بالاس وعلى جثة بين الريجنت اوتيل والريفولي وعلى جثتين قرب بناية اللعازارية وعلى جثة قرب المحلات العمومية وأخرى في سوق أبو النصر.

الشياح- عين الرمانة: وتدهور الجو في محاور الشياح- عين الرمانة وراحت القذائف تتساقط عشوائياً في المنطقتين مع قصف مركز بالدوشكا والمضاد للطائرات مما أدى الى اندلاع النار في ثلاثة منازل وفي مخزن للورق. ودارت اشتباكات عنيفة على مختلف المحاور... وافادت مصادر شبه رسمية عن سقوط سبعة قتلى وتسعة جرحى وعثر على جثتين عند مستديرة الطيونة وعلى ثلاث جثث قرب ساحة البريد. وأعلن بيان للنمور الاحرار مقتل أحد عناصرهم جوزف حلو برصاص قناص في محور المطاحن وأشار البيان الى «قصف عشوائي استمر حتى ساعة متقدمة من الليل.»

الحدث- الليلكي- كفرشيما: وفي جبهات الحدث والليلكي وكفرشيما وصحراء الشويفات جرت اشتباكات عنيفة، وتبودل القصف بالهاون والقذائف الصاروخية والمضاد والرشاشات الثقيلة في الصحراء وعلى الجانب الشرقي من المطار وفي محلة بئر العبد والرمل العالي والرويس، وقام الطرفان بمحاولات اقتحام وتسلل. واشتعلت حقول زيتون. وأسفرت الاشتباكات عن سقوط ستة قتلى و11 جريحاً وعثر على ثلاث جثث في صحراء الشويفات وعلى جثتين تحت جسر كفرشيما. كذلك جرى تراشق عنيف بين جسر الباشا والحازمية وغاليري سمعان وفرن الشباك والتحويطة وامتد الى طرف عين الرمانة وأسفر عن سقوط ثلاثة قتلى وأربعة جرحى... وتحدث بيان للنمور الأحرار عن «حشود مسلحة شوهدت صباح أمس في حي السلم وصحراء الشويفات» وقال انها «فتحت النار على نمور الاحرار

وقصفت مراكزهم والمناطق السكنية فقتلت فتاة وجرح شخصان فردت قواتنا على القصف بالمثل وأوقعت في صفوف العدو خسائر فادحة».

الضواحي الشرقية: الضواحي الشرقية زادها اشتعالاً قبل الظهر سقوط القذائف وتجدد الرمايات بالأسلحة الثقيلة على خط الدكوانة- تل الزعتر وسجلت رمايات بالدوشكا والأسلحة الثقيلة شملت محاور الانطونية والشامي وبناية سامي الخوري وسقطت قذائف الهاون في ساحة سلاف وجرت محاولة تسلل قرابة الظهر في اتجاه الدكوانة ورافقتها رمايات كثيفة الا ان العملية توقفت بعد حصول رد معاكس. وفي فترة بعد الظهر سيطرت أعمال قنص على كل الطرق. وفي خط عزوز- النبعة دارت رمايات متقطعة بالاسلحة الثقيلة رافقتها عمليات تسلل وهجومات مضادة. وفتح من جديد خط ضهر الجمل- سن الفيل فسجلت أعمال قنص مكثفة على طول هذا الخط. وتبودل قنص غزير وقذائف بين النبعة وسن الفيل واستهدفت كل الخطوط خصوصاً خطي مار الياس ومفترق البراد اليوناني. وفي فترة بعد الظهر تعرض مخيم تل الزعتر للقنص من رشاشات ثقيلة فيما زادت أعمال القنص في محاور تل الزعتر وسن الفيل، كذلك تعرضت الأحياء الآهلة في سن الفيل للقنص من أسلحة ثقيلة خصوصاً الدوشكا. وأشارت معلومات شبه رسمية الى مقتل خمسة أشخاص وجرح 14 والعثور على ثلاث جثث شرق ضفة نهر بيروت. وقال بيان للنمور الاحرار ان عمليات قنص استهدفت الجسر الواطي «فأصيب عنصر من عناصرنا إصابة خفيفة».

138
آل الخوري 14 - الطابق الثالث

«لم أضرب إبرة واحدة بعد حزيران ال76. حشيشة أوكي، لكن ليس أكثر. الحشيشة أصلاً مفيدة للجسم. طبيّاً. المشكلة أنني صرت عصبياً قليلاً.

أحياناً. ولا أتحمل مناكفات. تعاركت مع كارلا. صرت أقضي كل وقتي بين جبهة الدكوانة- تل الزعتر ومحور جسر الباشا. في تلك الفترة أسرنا واحداً من النبعة. حققنا معه قبل أن نسّلمه الى بيت الكتائب. كان ذكياً مثل الثعالب ويضحك حتى وأنت تضربه. أنا تأثرت. ذكّرني بواحد شيوعي كان يجيء الى بنايتنا لأن شقيقه الدكتور جارنا. نسيت إسمه. لكن عائلته شحروري. استشهد أول الحرب لكن قبل ذلك كنت أتكلم معه. والمرحوم شارل كان يلعب معه داما. «يتشارطان» على نصف ليرة مقابل كل جولة. كنت أتحداه في القفز على الدرج. ونتسابق مع المصعد. الذي أسرناه كان فلسطينياً من أم لبنانية. مواليد برج حمود 1952. لن أقول إسمه. كان مع الجبهة الشعبية، جبهة جورج حبش. توليت التحقيق الأولي معه. شتمني وقال أشياء لم أعد أتذكرها لكنه تكلّم بشجاعة. حين أخذوه منا قررت أن أذهب لرؤيته. لا أعرف لماذا. بقيت أفكر فيه. لم أرَه لأنني لم أجده. لا أعرف ماذا فعلوا به. في الحرب بين الدول، الأسير يمكنك أن ترده وتستبدله بأسير لك. في الحرب الأهلية أيضاً هذا ممكن. لكنه يحدث أقل. الظروف أصعب وأقسى. السجون غير مجهزة أو غير موجودة. حتى الجيوش النظامية تعدم الأسرى. تكذب وتقول انهم ماتوا متأثرين بجراحهم. لكن من يصدق؟ الأسير إذا أطلقته يرجع ويقتلك. من هنا الخطورة. لكنني كنت مستعداً أن أترك ذلك الأسير بالذات. أتركه وإذا عاد أحاربه. يقتلني أو أقتله. ليست مشكلة. عندما وصلتنا تعزيزات من الشمال بعد دخول السوريين منطقة عكار وسيطرتهم على بلدتي عندقت والقبيات التقيت كتائبياً يدعى نقولا نقّاش. تصادقنا بسرعة. صداقة الخنادق لا تشبه أي شيء آخر. في ساعات يصير الشخص كأنه من العائلة. كان بارعاً في استعمال القاذفات، خصوصاً الآر بي جي، ويحبّ التقدم والمخاطرة. في حركتنا كنا نقاتل بالتنسيق مع وليام حاوي لكننا لا نتلقى الأوامر من أحد. إلا في أوقات الطوارىء. حزيران وما بعده كان طوارىء. خصوصاً بعد أن قصف أبو موسى دبابات السوريين على مدخل صيدا وأوقف تقدمهم. القيادة

قرّرت تصعيد الهجمات على تل الزعتر والنبعة وجسر الباشا لتنظيف المنطقة الشرقية نهائياً وقبل فوات الفرصة. نقولا من طرابلس. طويل. أسمر. مشيته غريبة. مثل البطريق. خريج الفرير مثلي. ويحكي الطلياني كأنه نازل على بيروت بالباراشوت من روما. والدته كانت مديرة كاريتاس. ووالده عنده مصبنة. معمل صابون. أهله كانوا معارضين للحرب. أخذني مرة الى بيته. وصلنا طقّة الظهر. فيلا حجر. وبساتين ليمون. عرّفني على أخواته. وعلى الجنيناتي. وعلى ثلاث خادمات. تغدينا من يد طبّاخة حبشية. الجنيناتي قعد وأكل معنا على طاولة السفرة. بالشوكة والسكين. كأنه عم الصبايا أو خالهن. هو وأخوات نقولا طلبوا مني أن أقنعه بالبقاء ليلة. لكنه لم يقبل. كان يكره رؤية أبيه وأمه ويختار الوقت الذي يعرف أنه مناسب للمرور. قبل الليل عدنا الى المتاريس، نقنص على تل الزعتر وندخن. في منتصف حزيران تسللنا الى النبعة وجُرح نقولا برجله. رصاصة تحت الركبة. سحبته ورجعنا. تمركزنا في نقطة هناك كنت أقدر منها أن أرى بالناظور أو من دونه، سطح بنايتنا في حيّ العبد. كانت مميزة. أولاً لأنها طويلة. وثانياً لأن حائط السطح مدهون بلون نيلي. غابت الشمس. نقلوا الجرحى وبقيت وحدي. راقبت الشبابيك على الطابق الفوقاني. معتمة. وبعضها مسدود. على شرفة السادس رأيت لمبة مضاءة. هذا إهمال. كان المفروض أن أقوصّها. اللمبات تجذب أنظار القنّاصين وتهدد حياة الأهالي. تركتها. شارل كان يطلب مفتاح السطح من أجل الطيّارة الورق. يصنعها من القصب. يشق القصبات طولياً بالنصف. يربطها متقاطعة. ثلاثة أضلاع ويلفّ عليها خيط الحرير ويبرم الخيط دائرة على محيط الأطراف. يحفر بالسكين آخر القصبة حتى يعلق الخيط. ثم نلصق على الهيكل ورقاً ملوناً. أحمر وبنفسجي وأزرق. كنّا نأخذ الورق من وراء دكان الخضرجي... من كعب صناديق الدراق الفارغة. نلصقه على القصب والخيط ب»غري»، صمغ مثل صمغ النجّارين نعمله نحن (في علبة حلاوة) من طحين وماء. أهم شيء في طائرة الورق هندستها وتوازنها وذيلها

الطويل. كنا نعقد كذا كبكوب خيطان حرير، ينتهي الأول ونعقد من طرفه الثاني ثم الثالث ثم الرابع، لأن الهواء يأخذها حتى االبحر. أحياناً من شدّة الريح في الطبقات العليا يجرح الخيط يدك. اذا لم تفلته وتعطِ الطائرة مدى بسرعة ترفعك من مكانك أو ينقطع الخيط ونراها تبتعد فوق الكرنتينا وتلال النفايات. جرح الحرير ليس بسيطاً. خصوصاً وأنت صغير واللحم في بطن اليد طري. قنصوا علينا من النبعة وأصابوا واحداً سودانياً أطول من نخلة كان يوزع علينا الشاي والسكر. سقط هو والصينية. تدحرج الإبريق ووقع الشاي على جزمتي. السائل والورق. تناثر السكر على الأرض. الكؤوس الزجاج لم تتكسر. لكن المسكين نزفت رقبته ومات قبل أن نسعفه. الكؤوس ذاتها تراها في كل مكان. في جميع البيوت والدشم. أقداح شاي برقبة في وسطها وحلقة ذهبية متقشرة أعلاها. دخنت سيكارة ونمت وأنا أتذكر المرحوم شارل وجلساتنا الليلية مع النمور على رصيف الريفولي في ساحة الشهداء. سأقول شيئاً قد يبدو غريباً لكم: كلّما قُتل واحد أمامي أشعر بأخي قاعداً جنبي يبتسم.»

139
آل زخور 14 – الطابق الأول

غرفة السفرة. مفصولة عن الصالون بباب زجاج محجّر ينزلق جانبياً على سكّة غائرة في البلاط. خزانة أطباق تقابلها لوحة زيتية لفلاديمير كريمسكي. مؤرخة 1927. هدية من الكونت نيكولا سرسق. عم فيرا سرسق. متزوج كونتيسة من بطرسبورغ تعيش في كاتكا (فنلندا). الأغبرة تتجمع وراء اللوحة (عربة بنّية بزلاجة تنطلق على سهل مغطى بالثلج. حصانان كحليان بشعر كثيف وقوائم قصيرة. اذا أصغيت تسمع زفيراً. أنفاسهما كواكب من بخار أزرق.). في الفراغ بين الحائط وظهر الدرسوار علقت سدّة فلين. وورقة

إمتحان قديمة قابلة للسحب والفضّ. رُسمت عليها شاحنات وحيوانات وأشجار. الخربشة غطت معظم الأسئلة. لم يبقَ ظاهراً إلا الآتي:

واستمطرت لؤلؤاً من نرجسٍ وسقت
وردأً وعضّت على العناب بالبرد

1 – استخرجْ الإستعارات الواردة في البيت الشعري. حلّله وتوسّع في شرحه. (3 علامات).

2 – من خلال خصائص البيت الإسلوبية، حدّد الى أي عصر أدبي ينتمي – الجاهلية، صدر الإسلام، الأموي، الى آخره– معلّلاً إختيارك. (علامتان).

3 – قسّم البيت عروضياً وسمّ بحره. (علامتان).

❋

بينما يتحسن قليلاً تغيّرت طباعه. صار ضيق الخلق يفضّل البقاء وحده. الممرضة أنايس قالت لنادين إن هذا طبيعي.

«أعرف.»

لم يظهر عليها إنزعاج. أعطته مجالاً للتنفس وعادت الى دوامها في مكتبة كوجاس. معضلة أساسية تعقدت في وجهها من قبل، انحلّت فجأة الآن كأنها سُحرت. الإبتعاد عن المراجع وسّع خيالها. اشترت نصف دزينة أقلام. كتبت بسرعة على الدفتر، وبيّضت على داكتيلو ريمنغتون في الليل. أهداها والدها آلة طباعة هاموند (طراز جديد) ضجتها أقل قوّة عند ضرب المفاتيح، لكنها لم تتعوّد عليها. استأجرت «ستديو» (21 متراً مربعاً) في دائرة باريس التاسعة. استرجعت طقوس وحدتها. تناولت سندويشة «سومون» وشربت بيرة على مقعد في مونمارتر. أطعمت الحمائم. تمشت في شوارع باريس المشعشعة بالكهرباء. تجولت بين رفوف مكتبة جيلبير واختارت عن طاولة الأوكازيون كومة كتب أعجبتها عناوينها أو أغلفتها. التقت صديقات لم تَرَهن منذ فترة وأهدت إحداهن (عيد ميلاد في علبة ليل) رواية ملفوفة بورق برتقالي لمّاع وشريطة فضّية («الأشياء»، جورج بيريك). ذهبت الى السينما والمسرح.

اعتنت بأظافرها. اشترت لوناً كحلّياً «إيفون» ولوناً زهرياً ماركة صينية أو يابانية. انتبهت كم افتقدت حياتها القديمة. شربت كأس كونياك مع صاحبها العائد في عطلة يومين من بافاريا. أصغت الى كلامه الحماسي ولاحظت أنه لم يكبر يوماً واحداً. حين سألها ماذا فعلت في غيابه لم تخبره عن أخيها. نظرت الى رأسه الحليق كجنود المارينز (ذكر أنها قَصّة شائعة في ألمانيا الآن) وفكرت أنه يبدو غبياً. استغربت المسافة اللانهائية بينها وبينه. تركته يقبّلها ثم ينام معها. وجدت هذا أسهل لها من الشرح. لكنها عرفت أنها المرة الأخيرة. بعد سفره ستتلفن له مرة واحدة وتنهي العلاقة. في نهاية حزيران أقام مركز غولبنكيان معرضاً نظّمته أمّها. التقت هناك الدكتور غاستون الذي شقّ ردفها وسلّخ قطعة من جلدها. دعاها الى كأس نبيذ. كانت زوجته تقف في الجهة الأخرى من الصالة. أخبرته أن وقتها ضيق الآن. ابتسم وهو ينظر من فوق كتفها الى إمرأة في ثوب أزرق مطرّز بالخرز. تأملت نادين نظرته البارقة. سألها هل تشعر بالجرح وهل يزعجها عند السباحة؟ وسألها من جديد هل يمكنها أن تجد الوقت للقاء ذات ليلة؟

*

استأجروا بيتاً صيفياً في منطقة النورماندي. أخذوا الممرضة معهم. نادين لحقت بهم بعد أيام. في القطار، بينما المناظر تتوالى خارج الزجاج، شعرت بالحزن ثم بالفرح ثم بالحزن من جديد. تغيّرت الأشجار بينما السكّة تنطلق شمالاً ثم غرباً. زحف ظلّ القطار على سهل من الزهور ثم على بحيرة أو ما يشبه البحيرة ثم على بيوت قريبة من السكة تظهر وجوه الواقفين في أبوابها. زاد القطار سرعته. رأت، مؤطرةً في نافذة بيت، عائلة فرنسية (أب وأم وعدد من الأولاد) تجلس الى مائدة الطعام رمشة عين ثم تختفي من الوجود.

140
آل عازار 12 – الطابق السابع

انطلق شربل عازار على خطى أخيه. مع أنه ما زال ولداً. صار يختفي من البيت عند الصباح ولا يظهر إلا بحلول المساء. أين يذهب؟ من يطعمه؟ ساعده على هذا التفلت غياب والده في عمله الجديد (صيدلية الناصرة) وانشغال أمّه بصداقتها المفاجئة بأم جان (الست أنطوانيت طانيوس). باتت تقضي معظم وقتها في معرض الأدوات الكهربائية أسفل البناية. مع أن أم جان، كما علّقت هناء بإستياء، «أصغر سنّاً منكِ يا أمي بسنوات كثيرة!». لم تهتم أم سعيد عازار بكلام بناتها. وبّخت هناء بكلمتين أو ثلاث «أنا أمّك يا بنت! لا العكس!».

❋

حاولت كلوديا أن تلجم شربل الصغير. سألته أين يذهب. أصرّت عليه أن يرجع وقت الطعام الى البيت. كانت خائفة عليه من زعران حيّ العبد. المكان يعجّ بالآتي والذاهب. هذا الشارع يربط الأشرفية قلب المنطقة، بالضواحي الشرقية المكتظة. اذا لم تنتبه لأخيها قد يصاب بأذى. شربل لم يتمرد على أخته الكبرى. كان ذكياً. ثم انه تربّى منذ طفولته على احترامها. لكنه في المقابل زاغ كالزئبق وتسرّب من بين أصابعها بينما تنشغل بكتبها أو بإطعام الطفلة أو تغيير حفاظها. سألت رفاقه على الطابق السابع أين يذهب؟ جوزف الحويك نفى أي معرفة بالأمر. ظلّ سرّ شربل محميّاً حتى اكتشفته دارين بالصدفة.

❋

لأنه على الطريق، ازدهر الحيّ. فتحت معظم الأحزاب مستوصفات طبّية ومراكز، وتبعاً للتقاليد الشائعة فُتحت قبالة المراكز محلات للعب الفليبرز

وأفران لمناقيش الزعتر والكشك والجبنة واللحم بعجين. دارين كانت عائدة من شغل النهار حين رأت أخاها الصغير يتقافز ضاحكاً بين آلات الفليبرز المضيئة اللمبات. كانت عالية القوائم بألواح معدن وزجاج ملونة برسوم نساء، ترنّ طنيناً موسيقياً متقطعاً يمتزج بزعقات اللاعبين وخشخشخة العملة المعدنية والكبسات على الأزرار واللطمات العنيفة على جنب الماكينة اذا علقت الكرة، أو خسر أحدهم، أو حقق انتصاراً. الصفير يئز مثل الرصاص. سدّات قناني البيرة والمرطبات تفرقع وتُقذف على الرصيف مع أعقاب السكائر المشتعلة. المسلحون يدخلون ويخرجون. الراديو يضجّ. الرانجات متوقفة مشرعة الأبواب. رائحة الحشيشة تفوح حتى دكان البوظة. أوراق السندويشات والمناقيش تتكوم خارج سلال الزبالة. البلاط زلق وسخ، والسعادة لا تصدق. كان شربل يفور مثل بركان صغير وقميصه الحمراء معقودة على بطنه. تحطم فرحه دفعة واحدة حين وقعت نظرته الهائجة على أخته دارين، واقفة في باب المحل. طأطأ رأسه وخرج من الجنّة بلا صوت. ارتعش أمام صمتها. طلب منها ألا تخبر أمّه وأباه. «ولا تقولي لكلوديا!» حلف بحياته وحياة سعيد، وحلف بحياة مارو(الطفلة) وحياة ستّنا مريم، أنه لن يدخل دكان الفليبرز مرة أخرى. دارين قادته أمامها الى المبرومة. لم تصدقه. وقالت للجميع أين وجدته، ابتداء من كلوديا.

*

سعيد عازار كان في عالم آخر عندئذٍ. تبعد الأسواق التجارية كيلومترات قليلة عن حيّ العبد، لكنها أرض المعركة. القوانين هناك لا تشبه القوانين هنا. يمكنك قطع المسافة بين المكانين في أقل من نصف ساعة سيراً على الأقدام، لكن هل يمكنك الرجوع؟ بالتدريج تحوّل سعيد عازار الى مقاتل حقيقي. في البدء كان يلعب وينهب. مرّ الوقت وحدثت أشياء ووجد نفسه شخصاً آخر. استشهد رفاق له وشارك في دفنهم. أطلق أعيرة نارية في الهواء حداداً وتحية. استمع الى قادة يشرحون ماذا يجري ولماذا يجري كل هذا. اكتشف

الأبيض والأسود والخط الأخضر الذي يفصل بينهما. هناك، وراء الخط، كانوا يقتلون ويحرقون من أجل طرد المسيحيين الى خارج لبنان والسيطرة مع الفلسطينيين على البلد. مع أن البلد بلدنا والأرز نحن زرعناه. حفظ أبيات شاعر لبنان العظيم سعيد عقل. أفرحه أنه يحمل اسمه. وجد صعوبة في إبقاء القصائد حاضرة في ذهنه. لكنه جاهد من أجل ذلك كما جاهد وهو يزحف على الحطام بين اللنبي وفوش. اغتاظ أمام عجزه عن تحرير الأسواق كلّها من هؤلاء الخونة والمجرمين. رفاقه تعجبوا كيف تبدّل بسرعة من مخلوق ضاحك الى مخلوق تنتابه ساعات تجهم مفزعة. في ليلة بلا ضوء قمر حمل رفيقاً مصاباً وركض به من وراء بلدية بيروت الى مستوصف الكتائب الميداني في شارع فوش. نزف رفيقه كميات هائلة من الدم. كان واحداً من أوائل حراس الأرز الذين عرفهم: قبل زمن طويل، في حياة سابقة، أجلسه تحت شجرة في منطقة الناصرة وأعطاه ربطات خبز كي يأخذها إلى أهله. الدم أثقل ثياب سعيد. ترك صديقه يتخبط بين أيدي المسعفين وذهب الى مركز الجميزة وتحمّم في بركة السباحة وغيّر ثيابه وحصل على جوارب جديدة. لم يأكل لقمة. واصل تدخين السكائر طوال الليل واقفاً على باب الطوارىء في مستشفى مار جرجس. عند الفجر خرج الدكتور من غرفة العمليات وهو يخلع قفازه. كان متسخاً بالدم. دخل سعيد عازار وألقى نظرة أخيرة على صاحبه قبل أن يُنقل الى البراد.



نصبوا كميناً ليلياً قرب محور البيغال. كانت الخطة أن يقتلوا من يتسلل لا أن يأسروه. لكن العملية انتهت بثلاثة أسرى بين أيديهم، لا يعرفون ماذا يفعلون بهم. نفذوا العملية بلا أوامر أو تصريح، وهذا قد يعرضهم للمساءلة. مساءلة شكلية. روتينية. بلا قيمة. لكنها مزعجة مع ذلك. وأحياناً يأتي ضابط عسكري من الكتائب ويصير يقول تلك الأشياء المضحكة عن التنسيق وضرورة التصرف كجبهة موحدة ويتفذلك عليهم كأنه في أسبانيا أو فرنسا

وليس في أسواق بيروت. يجوز أن يطلب منهم تعبئة طلبات أيضاً! الإعدام أسرع وأسهل. أمروا الثلاثة بالركوع حد الحائط. قبل أن يطلقوا الرصاص صاح أحدهم بإسم سعيد عازار.

*

«أنا وليد رفقة، جاركم بالكرنتينا. أختك كلوديا كانت معي بالصف. ألا تتذكرني؟»

كان الضوء واهناً في الزقاق لكنه تعرف الى الوجه الأشقر والعينين الملونتين.

«تذكرتك. أخوك أبو رجل مقطوعة كان مع فتح.»

«أنا مسيحي مثلكم يا سعيد. وأختك صديقتي. اسألها!»

أعطاه سعيد عازار سيكارة كي يدخن نفساً. «سأسألها»، قال معتم الوجه. ثم قوّصه بالمسدس الحربي ثلاث رصاصات في الرأس.

141
آل حبيب 15 – الطابق الرابع

في الملجأ المحتشد لاحظ ميشال حبيب نظرة ابنته حلا تتنقل بين وجهين: أمّها والناطورة التي خطفوا إبنتها. كأنها تقارن بين الوجهين الصفراوين وأثر النكبة فيهما. عرف ماذا يدور في ذهنها. قرر تلك الليلة، بينما الصواريخ تصفر وتهزّ بناية أيوب، أن يسمح لها بالسفر الى بيت خالها في أميركا.

*

غرفة آنا حبيب. على الكومودينة جنب التخت كتاب استعارته من مكتبة كارلوس. حكايات كبلنغ. قرأت قصتين فقط. وجدت جملته صعبة ومفرداته غير مألوفة. الإنكليزية ليست لغتها المفضّلة. اختارت القصص التي سطّر

تحتها أخوها بقلم الرصاص. بينما تقرأ «بوابة المئة تنهيدة» شعرت بكارل جنبها في غرفتها. كأنه يتمدد أسفل السرير ويعبث بشراشيب الأغطية. كان ذلك وهماً لكنها شعرت بالهدوء: أحسّت أنه لا يتألم الآن.

❋

في نهاية حزيران قرع باب بيتهم شخص يحمل رسالة من «الجمعية اللبنانية لأمّهات المفقودين». ميشال حبيب تردد على مدى أيام ثم أخرج الرسالة من حيث أخفاها ووضعها على الصوفا جنب زوجته. فتحتها بأنامل ترتجف. قرأتها بعينين تذرفان دموعاً.

❋

لبست غابي حبيب ثيابها ونزلت وقرعت الباب في الطابق الأرضي. كان موارباً وانفتح وحده. قرعت مرة أخرى. انتظرت. تفاجأت حين سمعت الصوت خلفها. استدارت وأصغت الى فريدة إبنة الناطورة تقول أشياء لا تهمها ولم تأتِ كي تتكلم عنها.

«لا، لا، ليس الزبالة، أنا فقط أريد أن أحكي مع أمكِ.»

وقفت فريدة مدهوشة لا تفهم ماذا تقصد الست حبيب.

«هناك اجتماع وأريدها أن تأتي معي.»

أخبرتها فريدة أنها ستقول لأمّها حين ترجع الى البناية.

«أين راحت؟»

«لا أعرف يا مدام. أمي مريضة. لولا الدواء تموت.»

142
آل الحويك 11 – الطابق السابع

أخّر خروجهما من الحمراء معلومات واردة باللاسلكي الى مكتب

«ليبانون تاكسي» عن إشتباكات وحواجز على مدخل بيروت الجنوبي. كانت الخطة أن يتحركا في الصباح الباكر وقبل أن تحمى الشمس على سقف السيارة. ضيّعا الوقت في مقهى الويمبي يشربان قهوة ويدخنان. التقيا جوزف سماحة ومارون بغدادي. تكلموا عن الوضع. مارون سأل بشارة هل يبيعه بعض صوره للفيلم الوثائقي الذي ينهي مونتاجه الآن.

«كم تدفع؟»

«اذا أعطاني التلفزيون الفرنسي المبلغ الذي طلبته أدفع لك مئة فرنك.»

لم يضحك لأنه تذكر غرفة زرقاء الستائر في الطابق الثالث من مستشفى أوتيل ديو.

❋

تقع مدينة صيدا على مسافة 37 كيلومتراً الى الجنوب من بيروت. هذه ثلث المسافة تقريباً الى الحدود الجنوبية للبلاد، التي تقارب المسافة من بيروت الى الحدود الشمالية ما بعد طرابلس وعكار (92 كيلومتراً). في تلك الفترة شكّلت صيدا ومخيماتها أحد أهم معاقل المقاومة الفلسطينية. الطريق الساحلي اللبناني الذي يربط بيروت بصيدا ثم بصور والناقورة يمتد جغرافياً الى عكا وتل أبيب ويافا وراء الحدود. دشّنته للمرة الأولى (كدرب عجلة لا درب مشاة وخيول فقط) العربات العسكرية لجيوش الحلفاء (1917) بعد هزيمة الجيش التركي في معارك غزة وبئر سبع. الجنرال اللنبي (الذي أُعطي إسمه لشارع في وسط بيروت يحارب سعيد عازار لتطهيره من العدو) تقدم القافلة الزاحفة من الجنوب الى الشمال. حين انطلق بشارة وجورج أخيراً في الإتجاه المعاكس، قبيل الظهيرة، في ذلك اليوم الأسود من حزيران 1976، كانت الشمس حادة ملتهبة تحرق التاكسي، والحواجز مرشوشة على امتداد الطريق تؤخر وصولك من ساعة الى أكثر من ثلاث ساعات.

❋

لبنان قطعة صغيرة على شكل كلية (أو حبّة فاصوليا) في خاصرة الدولة السورية: أراضيها تحدّه من الشمال والشرق وتحتويه حتى جنوبه (جبل الشيخ). منفذ لبنان الآخر (والوحيد) على العالم هو البحر الأبيض المتوسط. الحدود الجنوبية مقفلة منذ 1948. لكن هناك مطار بيروت أيضاً: أثناء تلك الفترة أغلقته المعارك. زحف الجيش السوري من الداخل باتجاه البحر. قطع المضائق الجبلية. أطلّ على مدن الساحل.

❋

الشوفير (محمود قاسم) في السابعة والثلاثين من عمره. ماهر في القيادة. خبير في الكلام مع المسلحين. شعره أسود. وجهه شديد السمرة. على رقبته، تحت ياقة القميص الصفراء، منشفة بيضاء تقيه من العرق. يدخن سكائر «روثمان»، بلا توقف. مشحرة تبغ. جنب ساقه اليسرى، في جيب الباب، قنينة يجرع منها كل عشر دقائق داعياً الأستاذين الصحافيين الى الشرب.

❋

وجوه ملثمة وأخرى مكشوفة. فتشوا السيارة على كل حاجز. قلّبوا بطاقات هوية. تفحصوا لوائح. تبسّموا أو عبسوا. قوّصوا باتجاه غيمة. قنصوا سيارات تسلك درباً أخرى «قادومية» بين بساتين الموز على حافة البحر. في وسط الشارع حمار ميت. لم يعد ممكناً التمييز بين الحواجز. كانت متقاربة تحمل الشعارات ذاتها وعلى آلياتها تخفق الأعلام الملونة نفسها. لكن بعضهم يقتل بعضاً. بعد أطلال الدامور صارت الطريق أسرع. عند معمل الجيّة لتوليد الكهرباء تعالت ألسنة نار عملاقة من خزانات وقود. هبّ الدخان ساخناً وملأ التاكسي.

143
آل رزق 7 – الطابق الرابع

«كريم رزق

شارع هيغاشي – شيوكوجي

شيموغيو

كيوتو – اليابان

600 – 8135

بتاريخ 15-6-1976

نحن بخير. ينشغل بالنا عليكم لكننا في راحة بعد التلفونات. جاين أحبّت أصواتكم كثيراً. صديقة جاين التي تسكن معنا موقتاً قالت إننا محظوظون بكم. أنا لم أكن بحاجة الى قولها كي أعرف. أفهم مشاعركم. أعتقد هذا. وأتمنى ألا يتكرر في حياتي موقف مشابه أجد نفسي فيه مفصولاً عنكم في الأحاسيس وغير قادر على الحصول على موافقتكم. والد جاين طلب مني أن أتقبل هذه الأشياء بصدر رحب لأن الواحد وهو يكبر وينمو ويكوّن شخصيته الخاصة وعائلته لا بد له من التصادم مع عائلته الأولى بين حين وآخر. لا لأنه لا يحبّهم، ولا لأنهم لا يحبّونه، ولكن لأن الناس أجناس والأجيال تختلف، وحتى في العائلة الأشد تلاحماً هناك خلافات وطبائع متناقضة وأفكار لا تتوافق دائماً مع الغير. لا تظن يا أبي أنني لا أقدّر لك تسامحك وكرمك. كذلك أنتِ يا أمي. لكن المسألة أصعب عليّ من هذا... ربما بمرور الوقت يتراجع الضغط الذي أشعر به. سنرى. حاولوا أن تكتبوا لي عنكم وعن أحوالكم. العنوان الانكليزي المسجل على الظرف يكفي كي تصل الرسالة الينا. هنا يستعملون الانكليزية الى جانب لغتهم اليابانية. صعبة جداً

لكنني بدأت أتعلمها وجاين كذلك. الشقة الصغيرة التي نسكن فيها لا ندفع إيجارها لأنها تابعة للمدرسة. صديقة جاين مثلها تعلّم الصفوف الإبتدائية. عندها صديق ياباني يعمل في متجر غير بعيد من مكاننا، في برج كيوتو. المدينة جميلة، ورولا خصوصاً ستحبّها بسبب الحدائق والغابات والمعابد البوذية المحيطة بها. اليابان جبال بركانية عالية والمدن موجودة في السهول الضيقة بين السلاسل. لم نبقَ في طوكيو إلا أسبوعين ثم عيّنت الإدارة جاين هنا وجئنا بالقطار. المكان حيث نعيش حديث نسبياً لكن الشوارع المجاورة أقدم والمنازل فيها رائعة. كيوتو هي العاصمة الامبراطورية القديمة لليابان. الأبنية هنا أقل علواً من الأبنية في طوكيو والأشجار أكثر والناس أهدأ. تعودنا على الطعام وهو شهي خصوصاً الخضر المقلية والأسماك والرز والنودلز (مثل السباغيتي لكنه يعجن من الرز لا القمح). الغزلان غريبة الشكل وتشبه الأغنام الكبيرة ولا تشبه غزلان حديقة الحيوانات في سيدني ولا الغزلان التي كنا نراها في المجلات وكتب المدرسة. ذهبنا الى معبد على تلال كيوتو يعتني فيه الرهبان البوذيون بهذه الحيوانات ويطعمونها. عندهم حدائق للتأمل مصنوعة من الأحجار والحصى فقط. الراهب يرتدي ثوباً أحمر طويلاً ويتربع عند حافة الحديقة المستطيلة ثم ينظر الى الصخرات الموزعة زمناً معيناً وهذا التمرين يساعده على بلوغ الحكمة. عملي في المدرسة بسيط ويشبه الى حد ما العمل الذي كنت أقوم به في الأوتيل في أستراليا لكنني هنا لا علاقة لي بالمطبخ ولا بغرفة الغسيل. إنكليزيتي صارت مقبولة. والآن عليّ أن أتعلم لغة جديدة. جاين صحتها جيدة. تأخذ الدواء بانتظام ولا تعاني مشاكل. سألتِ يا أمي هل أنا سعيد في زواجي؟ بالتأكيد أنا سعيد. وأكثر من ذلك. وجاين مثلي. في المساء نخرج ونمشي ونتفرج على المحلات أو نأكل في أحد المطاعم الصغيرة. في جوار برج كيوتو اكتشفنا حديقة تتوسطها بركة ماء وأشجار أرز وكرز. نحبّ الجلوس هناك. الأطفال اليابانيون

مهذبون جميلون. في الحديقة أجد أحياناً صحفاً أميركية. هناك مكان مضاء بالمصابيح وفيه مجلات وكتب. مكتبة عامة في الهواء الطلق. طاولات ومقاعد خشب. الغربان تحطّ على الطاولات أحياناً. الناس في اليابان يحبّون القراءة كثيراً. المكتبات تظلّ مزدحمة طوال الوقت. أستراليا ليست هكذا. في «نيويورك تايمز» قرأت أن الأمم المتحدة لن تتدخل في لبنان ولا أميركا ولا الاتحاد السوفياتي وأن جامعة الدول العربية تحاول إرسال قوات أمن عربية للفصل بين المتقاتلين. هل هذا صحيح يا أبي؟ أحاول أن أعرف أخباركم من التلفزيون لكن لغتي اليابانية ليست صالحة بما يكفي بعد. أحياناً تمرّ بعض الصور للمطار أو للمخيمات. هل صحيح أن جيش سورية يقاتل الفلسطينيين الآن؟ وهل ستظل المدارس مقفلة؟ فهمت على التلفون أن رامي يدرس في البيت. هذا جيد. وأنتِ يا رولا، هل وصلك أي خبر من الجامعة في فرنسا؟ حاولي يا سارة أن تبدلي موقفكِ. صوتكِ على التلفون أحزنني كثيراً. الغريب أنني كنت أظنكِ أول واحدة يمكن أن تدعمني. لكن العكس هو ما حدث! جاين تقول إنها تود زيارة لبنان ورؤيتكم جميعاً حين تهدأ الأوضاع. أنتم في فكرنا دائماً. انتبهوا لأنفسكم.»

144
آل زيدان 5 – الطابق الخامس

تضاءل البيع. حتى المواد الأولية لم تعد متوافرة بما يكفي. حريق المرفأ أضرّ بصناعة الحلويات على أكثر من صعيد. لكنه تحمّل الأمر. على الراديو سمع أن الوضع أسوأ بكثير في المنطقة الغربية. خفّف الأشياء على نفسه. فكّر في الإيجابيات. زوجته استعادت معظم الكيلوغرامات التي فقدتها أثناء الإنهيار العصبي. تولّت العناية بالأولاد من جديد. في المساء تزورهم أخته مع عائلتها، إذا كان القصف متوقفاً. كان نازلاً معهم على الدرج قبل ليلتين كي

يغيّر موقف سيارته الى مكان أقرب (في الليل تصير السيارات أقل أمام صف الكاراجات). وضعت أخته يدها على رقبته: «سيسليا رجعت الى طبيعتها، لا؟». هزّ رأسه وأظهر الموافقة. «نشكر ربنا.» لكن زوجته لم تشفَ تماماً بعد، ولعلها لن تشفى. تصدّه ليلاً. «أنا زوجك»، قال لها. بكت وانكمشت وتخشّب جسمها. خاف من شدّة البكاء وتركها.

❋

إبن عمته الذي تهجّر من الدامور الى وادي الليمون شرق صيدا ترك البيت الثاني أيضاً نازحاً الى المنطقة الشرقية. سكن في شارع السيوفي وصار يأتي ويقعد عنده في المحل. كل الموظفين في الدولة صاروا بلا أشغال، لكن الراتب الشهري لم يتوقف بعد. عند رجوعه مساء يراهم يزحمون الكراسي في «مقهى فيليبوس». يميّزهم من بطونهم وطريقة تدخينهم الأراجيل. قبل مذبحة الدامور كانت سيسليا تقول له أطرف الأشياء. منذ تعرّف عليها وهي تحبّ الحكي على الناس: تراقبهم في أي مكان وأي وضع ثم تخبرك عنهم أموراً لا تخطر على بالك فتظنّها حقيقية وعرفتها من مصادر موثوقة ثم تكتشف أنها تستنتج بقوّة الملاحظة وحسب. حين عادت تضحك بين حين وآخر، وهي تساعد الاولاد في الدروس، شعر بالماء يتجمع في زلعومه. بلع ريقه ونهض كي يقف على الشرفة دقيقتين.

❋

من الشرفة، في الليالي الهادئة، يقدر أن يتأمل البحر البعيد وأضواء المراكب. السيارات تكرج بلا صوت لكنها تجاهد وتزأر اذا كانت صاعدة من تحت. نزلة المبرومة شبه عمودية. العجلات تزلق على الزفت، خصوصاً اذا كانت قديمة والكاوتشوك أكمل ذوبانه. نقروا مواقع في النزلة وصبّوا فيها الباطون أثلاماً بالعرض كي يتعلق الدولاب بالأرض ولا تبرم المحركات بلا جدوى. لكن حتى الباطون لم ينفع. تجرب السيارات أن تجمع زخماً في الأسفل وتنطلق بأقصى قوّتها، لكن سيارة واحدة منحدرة من الشارع الرئيسي تكفي كي تحبط المحاولة. النزلة ضيقة لا تتسع لعربتين. المفروض أن

يتسامح النازل مع الصاعد. لكننا في حيّ العبد. حين ينزلون من السيارتين من أجل التشابك بالحكي ثم بالأيدي يدخل الحلواني غسان زيدان الى البيت.

*

فاجأته أم يوسف (الناطورة) حين ظهرت في محله تحمل صورة ابنتها المفقودة. سألته هل رآها، هل مرّت قبل فترة؟ لم يعرف أنها لم تنتبه من يكون إلا بعد أن لفظ إسمها. تراجعت الى وراء خطوة كأنها أهانته بلا قصد ومطلوب منها أن تعتذر الآن. حاول أن يتكلم معها وأن يعطيها حبّة معمول لكنها ظلّت تتلعثم حتى خرجت. راقبها تقطع الشارع غير منتبهة للسيارات وتدخل الى متجر الملبوسات في الجهة المقابلة. انتظر وقتاً قصيراً. خرجت مع الصورة (محنية الرقبة) وانحدرت باتجاه «زهرة الإحسان».

*

صار يُسرّع خطواته عند عبور المدخل. ساعده أن الناطورة لم تعد تقف في باب بيتها. تجنب أيضاً النظر الى ابنتها التي تولّت مهامها. كانت نسخة طبق الأصل عنها، لكنها أصغر في السنّ، ولم تتقن جيداً بعد كيف تمسح الزوايا. أشفق على العائلة المنكوبة. لكن من بعيد. تمنى لو كانوا في بناية أخرى.

145
آل الحويك 12 - الطابق السابع

ماتت أم بشارة (غرفة 311) وهي نائمة. لم تكمل ليلتها الخامسة في أوتيل ديو. الستارة الزرقاء التي تفصلها عن المريضة الأخرى أُزيحت جانباً بينما الممرضات يتولين نقلها إلى الممر. كميلة الحويك وقفت باكية لا تعرف ماذا تفعل. جاءت ليديا ثابت وتكلّمت معها. تلفنت بدلاً منها الى البيت كي تبلّغ زوجها. في أقل من نصف ساعة كان بولس الحويك قد وصل. يده على

قلبه. خطوته سريعة. كميلة نظرت إليه يترنح في غيمة دموعها. استغربت أنه متأثر مثلها بوفاة أمّها. كان رجلاً محيّراً. مرّت السنوات وما زال لغزاً. كلّما أوشكت أن تعتبره تمساحاً فعل شيئاً يدهشها.

*

تأخروا في تحديد موعد الدفن. جربوا إيصال خبر الى بشارة. عجزوا عن ذلك (ليس في فندق الكافالييه، ومنذ أيام لا يحضر الى الجريدة. المنطقة الغربية مقلوبة رأساً على عقب بالإشتباكات). دفنوا أمّ بشارة في غيابه.

*

جاهد بولس الحويك كي يعرف شيئاً عن أخيه ميشال. على الأخبار لم يذكروا مجدليون بين القرى التي أصابها القصف. لكنهم سمّوا الصالحية وكفرجرة وعبرا وهذه كلّها تحيط بمجدليون والذي يعرف المنطقة لا بد أن يخاف. زاد ذعره علاقة ميشال المتينة بالتنظيمات الفلسطينية ومعرفته بوجود مواقع تابعة لفتح في البساتين وراء المزرعة. إبنته سابين قرأت له الصحيفة. كميلة بدت مذعورة. لم يعرف هل تخاف من أجله أم من أجلها. ارتكب خطأ حين أخبرها أن بشارة وعده أن يسأل عن ميشال. كانت تعرف أخاها وتعلم أنه لا يبالي بالخطر ويجوز أن يذهب بنفسه تحت القصف الى مجدليون كي يجلب خبراً.

«خالي بشارة ذكي يا أمي. لا تخافي عليه.»

سمع بولس الحويك الكلمات الموجهة الى زوجته. شعر بتأنيب ضمير. عجز عن فهم السبب. كأنه ارتكب جريمة. مع أنه لم يفعل شيئاً. وقبل زمن بعيد خطفوه وضربوه وهو في سيارته لا يضايق أحداً!

*

«جولة استطلاعية من العرقوب الى مدخل بيروت الجنوبي.

8 صور فوتوغرافية:

دبابات وآليات للجيش السوري عند مفترق كفرمشكي.

تجمع لآليات سورية في عز العرب.

درّاسة للقمح في مرج الزهور.

دبابة ل«جيش لبنان العربي» على الشاطىء عند مدخل صيدا من جهة بيروت.

فنيو الكهرباء يصلحون الخطوط في صيدا.

شاحنات تنقل الى مصفاة الزهراني قوارير غاز فارغة.

إزدحام سير أمام محطة زفتا للمحروقات.

هليكوبتر سورية على تلال مطار بيروت.

كتب سعيد معلاوي: ماذا يجري في العرقوب؟ توجهت الى المنطقة في رحلة طويلة شملت جزءاً من البقاع وكل الجنوب وقسماً من جنوب بيروت. بدأت الرحلة من مفترق كفرمشكي فنهر الحاصباني فمرجعيون فالنبطية فصيدا وصولاً الى خلده وبيروت. عند مفترق راشيا الوادي قوات سورية معززة بالآليات الثقيلة والخفيفة. ويقع الخط المتقدم لهذه القوات على بعد 5 كيلومترات من عز العرب وكفرمشكي حيث تتمركز آليات تضم دبابات ثقيلة ومجنزرات وشاحنات عسكرية وسيارات مجهزة باللاسلكي. وفي هذه المحاور تقلص الوجود العسكري الظاهر لكن ثمة خطاً سورياً متقدماً آخر كثر الحديث حوله في الآونة الأخيرة هو خط راشيا- بيت لهيا الموازي لخط كفرمشكي شرقاً. وهذان الخطان يبعدان نحو 35 كيلومتراً من الحدود مع إسرائيل و25 كيلومتراً عن خط النار.

تابعت طريقي من كفرمشكي الى مزرعة فؤاد مخايل حيث الحاجز الاول ل «القوات المشتركة» التي بدا انها جهزت نفسها لنسف المحلة في حال تقدم القوات السورية في اتجاه مرجعيون التي تبعد حوالي 25 كيلومتراً عن هذه

النقطة. وعند موقف الحاصباني استوقفني حاجز ثابت ل»جيش لبنان العربي».

الجبهة هادئة: ولاحظت ان القوات السورية لم تتزحزح من مواقعها في البقاع... ويسود الجبهة هدوء تام والمزارعون يزاولون أعمالهم في الحقول بأمان. أما «القوات المشتركة» و»جيش لبنان العربي» والمقاومة الفلسطينية فعناصرها مستنفرة على طول هذه الجبهة الممتدة من عين عطا- عين حرشه حتى عين فجور تحسباً. أما طريق مرجعيون- المصنع- دمشق فهي سالكة ولم تقفل كما ذكر بعض الأنباء.

وتُسير القوات الاسرائيلية دوريات آلية مكثفة على طول الطريق المواجهة لمنطقة مرجعيون والعرقوب بدءاً من مستعمرة المنارة مروراً بمسكفعام والمطلة والغجر والعباسية ومفترق دان كفريوفال وصولاً الى تلة الرويس المشرفة على العرقوب. كما عززت مواقعها الملاصقة للشريط الشائك بالجنود والمجنزرات والكاشفات الضوئية. وتقوم طائرات الاستطلاع الاسرائيلية برحلات عدة يومياً فوق القطاع الشرقي منذ دخول القوات السورية اليه.

صيدا شبه مشلولة: الحياة شبه طبيعية في مرجعيون والنبطية وتنتظر صفوف من السيارات ادوارها امام محطات المحروقات للتزود بالبنزين بعدما استؤنف الانتاج في مصفاة الزهراني وتجدد توزيع المحروقات. امام المصفاة كانت هناك كذلك شحنات محملة قوارير غاز فارغة تنتظر الدّور لتعبئتها في حراسة ملالات ل»جيش لبنان العربي». وعلى جانبي الطريق الى صيدا بائعو خضر وفاكهة. في المدينة الحياة شبه مشلولة الا ان المواطنين يتجولون في الشوارع ويتفرجون على حطام الدبابات السورية عند مدخل صيدا قرب مستشفى الشاب وفي ساحة النجمة حيث 90 في المئة من المتاجر مقفلة. وفي المدخل الشمالي شاحنتان مدمرتان ل»الصاعقة» أمام الحمام العسكري الذي دمر كذلك.

وفي المية ومية صادفت دبابات ل»جيش لبنان العربي» تراقب الساحل.

أما في الجية فالمتاريس الرملية رفعت لولبياً وسط الطريق كأنها ممرات في سيناء، وخلفها مقاتلون من فتح مزودون برشاشات خفيفة وار بي جي، وفي جوارهم سيارات جيب مجهزة بمدافع 75 ملم و106 ملم.

وفي خلده حاجز ل«جيش لبنان العربي» وبالقرب منه عدد من الدبابات. وبعد 300 متر حاجز آخر ل«الصاعقة» بدا أن عناصره يحملون لوائح بأسماء مطلوبين. ويدقق هؤلاء في الهويات ويقابلونها بما في اللوائح. وكان هذا الحاجز الأخير في الطريق الى بيروت من الجنوب.

وفوق التلال المحيطة بمطار بيروت كانت تحوم طائرات هليكوبتر سورية.»

صيدا- «النهار»- 3 قتلى و6 جرحى في القصف المدفعي السوري لعين الحلوة والمية ومية: بعد المعركة التي دارت مساء الثلاثاء 6/ 15 بين السادسة والثامنة بين «القوات المشتركة» والقوات السورية وأسفرت عن تدمير دبابة على التلة البيضاء الواقعة على جبل شرق صيدا قامت القوات السورية المتمركزة في التلة ووادي عبرا ومجدليون بقصف عشوائي مركز بالصواريخ والمدفعية والمضاد للطائرات على مخيمي عين الحلوة والمية ومية وأبنية مدينة التعمير فقتل طفلان وجرح ستة مدنيين. وشبّ حريق قرب الميتم الاسلامي أخمدته اطفائية صيدا. وبعد الثامنة توقف القتال وكان الأهالي لجأوا الى الملاجىء والأماكن الآمنة خوفاً من تطور المعركة ومرّ الليل هادئاً. وكان نهار أمس هادئاً كذلك، وقبل الظهر أفاد شهود عيان ان القوات السورية الموجودة شرق صيدا تحفر الخنادق للدبابات والمدفعية. وفي الثانية سمع دوي انفجارين في المدينة لم يعرف مصدرهما.

وتواصل «القوات المشتركة» في صيدا زرع الطرق بالألغام في شكل زنار حول المدينة. وشهدت المدينة أمس حركة جزئية في البيع والشراء. وكان الخبز قليلاً. وتتولى لجان شعبية إحصاء كميات القمح التي تنتجها قرى

الجنوب لتخزينها احتياطاً.

طائرات نقل عسكرية في قبرص لإجلاء الرعايا الأميركيين: واشنطن- و ص ف - وصلت الى قبرص منذ يومين طائرات نقل عسكرية للاشتراك في الاجلاء المحتمل للرعايا الاميركيين في لبنان البالغ عددهم الآن نحو ألف شخص. وقال ناطق باسم وزارة الدفاع الاميركية ان ثلاث طائرات من طراز «سي 130» وأربع طائرات عمودية من طراز «أش أش 53» أرسلت الى القاعدة البريطانية في اكزوتيري في قبرص... ومنذ بداية الأزمة اللبنانية كانت الحكومة الاميركية تعلن انها لن تجلي الرعايا الاميركيين عن لبنان الا في حال تعرضهم للخطر وان هذه العملية ستتم جواً بواسطة مطار بيروت.

في صور وصلت باخرة الى الميناء آتية من قبرص تحمل 20 لبنانياً وبضائع مختلفة.

قائد «جيش لبنان العربي»: المعتقلون على الحواجز السورية يعانون الضرب والتعذيب والإهانة. نقلت «وفا» تصريحاً لقائد «جيش لبنان العربي» الملازم أول أحمد الخطيب هنا نصه: «تقوم القوات السورية الموجودة عند مثلث خلده بتوقيف عناصر من جيش لبنان العربي والثورة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية. وقد وردت معلومات مؤكدة أن هذه العناصر تعاني شتى أنواع التعذيب الوحشي والضرب والاهانة في الوقت الذي تأبى علينا قيمنا وشيمنا أن نعامل أسراهم بهذا الشكل...»

تدهور مفاجىء ليلاً في بيروت. قصف مدفعي وصاروخي بين السوريين و«القوات المشتركة» (جريدة الخميس 17 حزيران 1976): تدهور الوضع الأمني فجأة خلال الليل في بيروت بين القوات السورية و«القوات المشتركة» فدارت رمايات منذ 11 ليلاً بالمدافع والرشاشات الثقيلة بين محاور خلده والريفييرا وبئر حسن والمدينة الرياضية ووصلت القذائف الى بئر العبد

ومستديرات الطيونة وشاتيلا والمطار ومحيط صبرا. وقال مصدر عسكري في «القيادة المركزية للمقاومة الفلسطينية والحركة الوطنية «ان «القصف المدفعي استهدف الاماكن الآمنة». وصرح مصدر مسؤول في حركة الناصريين («المرابطون») بالآتي: «بعد المعلومات المؤكدة التي وردتنا عن حملة التصفية الجسدية التي يتعرض لها مناضلو الحركة الوطنية والثورة الفلسطينية فاننا ننذر قوات الاحتلال السورية بالكف فوراً عن هذه التصفيات والانسحاب من منطقة الريفييرا والا استعملنا كل الأساليب المشروعة لضرب هذه القوات وإنقاذ الاسرى والمحافظة على كرامة المواطنين». وعلم من مصادر «الحركة الوطنية» أن الرد على عمليات الاحتجاز بدأ فعلاً قرابة الحادية عشرة والثلث بقصف محور الريفييرا وضواحيه بحيث شمل مثلث البيكنك- قصر رياض الصلح- الريفييرا.

أطباء المنطقة الغربية يطالبون بفك الحصار السوري: حول الحصار التمويني أبرق «المكتب الدائم لتجمع أطباء المنطقة الغربية في بيروت والضواحي» الى الجامعة العربية والأمين العام للأمم المتحدة والصليب الأحمر الدولي في جنيف ومنظمة الصحة العالمية مطالباً بالضغط على الحكومة السورية لفك هذا الحصار. وهنا نص البرقية:» يحيطكم المكتب الدائم لتجمع أطباء المنطقة الغربية علماً ان السلطات العسكرية السورية النظامية المحتلة في لبنان تفرض حصاراً كاملاً في البر والبحر والجو على المدن اللبنانية وتمنع مرور كل المواد الطبية والأدوية وهي بذلك تعرض لخطر الموت جميع جرحى الحوادث والمرضى. ان المكتب الدائم يبدي استعداده لتقديم الوقائع والادلة التي تثبت ذلك. ان هذا التصرف من جيش نظامي ودولة عضو في جامعة الدول العربية وهيئة الامم المتحدة يخالف كل الاتفاقات الدولية وأبسط القواعد الانسانية المتبعة في الحروب. نطالبكم بالتدخل السريع انقاذاً لآلاف الجرحى والمرضى.»

في اليوم العاشر من الصدام: تصريحات الناطق العسكري في القيادة الفلسطينية- اللبنانية: في اليوم العاشر من الاشتباكات بين «القوات المشتركة» والقوات السورية أدلى المصدر العسكري في القيادة المركزية للثورة الفلسطينية والحركة الوطنية بالتصريحات الآتية:»... واصلت قوات الغزو السوري الموجودة في مثلث خلده مصادرة وإتلاف الشاحنات وحمولتها من المواد الغذائية والتموينية الآتية من مدينة صيدا الى بيروت... كذلك يستمر الحصار التمويني على بعلبك ومخيمي البداوي ونهر البارد في شمال لبنان و...»

بيان لحراس الأرز الى لبنانيي المنطقة الغربية: أصدرت أمس «جبهة حراس الأرز» بياناً وقعه أبو أرز قائدها العام موجهاً الى اللبنانيين في الغربية جاء فيه: «ان حراس الأرز يفتحون لكم قلوبهم وبيوتهم في الأشرفية وزحلة وجبل لبنان لتحلوا عندنا معززين مكرمين بين أهلكم وأخوانكم وعيالكم(...) ونحن على أتم الإستعداد للوقوف معكم صفاً واحداً ويداً واحدة لضرب المتآمرين الذين عاثوا خراباً وفساداً في لبنان وضللوكم وقتاً طويلاً وأوهموكم أن معركة تحرير فلسطين تبدأ من بيروت وصنين وعيون السيمان بدلاً من الضفة الغربية وحيفا ويافا وتل أبيب ونتيجة هذا دمروا لبنان وشردوا أهله...»

146
آل زخور 15 – الطابق الأول

البيت يجاور الشاطىء. مستعيناً بعصا يبلغ حافة الماء وحده. صف شاليهات وشمسيات بيضاء. الكبار ما زالوا نائمين. أولاد يراقبون من بعيد. لعل الحروق تخيفهم. حكاك في رقبته. حيث النسيم يلمس اللحم. يتحاشى استخدام أظافره. تؤلم. سطول ملونة. مبعثرة. رفوش بلاستيك صغيرة.

حمراء. وصفراء. فتاة في الخامسة أو السادسة تلبس شورتاً أزرق. حافية. تركض مسرورة. ترتمي في خندق. يهدمون فوقها قصراً رملياً رطباً وأبراجاً دائرية. يأتي البحر ويذهب. تنفس على مهل. رائحة الصباح. أعشاب البحر. أخيلة الأشجار البعيدة. حفروا عميقاً. استخرجوا تراباً مختلف اللون. طمروا جسمها وشعرها. كان ذهبياً طويلاً مستقيماً. لم يبقَ ظاهراً منها إلا الوجه والعنق. رفعت عينيها. كانت تضحك. لم تبدُ خائفة. رأى الموجة تهجم، صفراء عالية، مملوءة أشعة وزبداً. لم تكن ناراً بل ماء. لكن اللهب الأزرق انبثق من هواء نقي ولعق عضلات وجهه. أوشك أن يصيح. استدار عائداً الى البيت وهو يرتعش.

*

من النوافذ ومن الشرفة تظهر قوارب بمحركات. سريعة. تحرث مياه النورماندي. تخلّف شقوقاً عميقة بيضاء في الصفحة الرمادية.

147
آل الحويك 13 - الطابق السابع

اخترقت التاكسي الغيمة السوداء الكثيفة. سعلوا مختنقين. امتلأت رئاتهم مازوتاً. حين قطعت السيارة المنعطف أطلّت مدينة صيدا. أعمدة الدخان ارتفعت من بين الأبنية. دخلوا تحت القصف وذهبوا مباشرة الى شارع المطران.

*

في مركز الحزب الشيوعي التقى بشارة صديقاً من وكالة الصحافة الفرنسية. تفاجأ به.

«أنا أقاتل كي أرجع الى بيروت وأنت تجيء الى صيدا».

ضحك متوتراً.

*

سأله جورج ماذا يريد أن يفعل؟

«مجدليون.»

الرفاق في المركز أعلموه ان الدرب مقفلة بالمعارك:

«طريق صيدا- الهلالية- عبرا- مجدليون مشكوكة دبابات. حتى مشياً لا يمكنك أن تزمط. اذا لم تُقتل بنارنا تقتل بنارهم.»

جورج الخبير بجغرافيا المنطقة سألهم عن طريق حارة صيدا- عين الدلب- القرية- جنسنايا. كانت هذه سلسلة قرى وتلال تمتد بموازاة الخط الأول صاعدة من الساحل الجنوبي، ما بعد مدينة صيدا، شرقاً باتجاه الجبال.

«خط جنسنايا لنا. لكنهم يقصفون علينا بالدبابات من قاطع مجدليون.»

سألهم جورج ماذا حدث لمواقع الجبهة الشعبية وفتح في عبرا والصالحية.

«انسحبنا الى هنا. لم نقاتل هناك.»

بشارة سأل جورج ماذا يفكر.

«اذا ذهبنا الى جنسنايا نقدر أن نكمل الطريق مشياً الى مجدليون. ننزل الى الوادي ونصعد.»

«أنت مجنون يا جورج.»

«أنا المجنون؟ أنا أريد أن أتعشى مع صهري في مجدليون؟»

«ميشال الحويك ليس صهري. أخوه في الأشرفية صهري.»

مقاتل يسمع الحديث أعلمهم أنه يعرف «أبو مارون» جيداً.

«تعرف أين هو الآن؟»

«معظم سكان مجدليون ما زالوا في بيوتهم. يخافون من السرقة اذا تركوا.»

«قصفوا عليهم؟»

«نحن نقصف والسوريون يقصفون. لكن ليس كثيراً. نستهدف المواقع لا البيوت.»

❋

ركبا شاحنة تنقل ذخيرة على خط حارة صيدا- جنسنايا- وادي الليمون. أكلا مناقيش من فرن يخبز للمقاتلين. رائحة الزعتر اختلطت بالمازوت والبارود وما هو أسوأ. سائق الشاحنة دلّهما الى الدبابات السورية في القاطع المقابل. كأن الدبابات لا تُرى إلا اذا أشار بأصبعه! أبطأ سيره وهو يدور حول حفرة أحدثها القصف في الزفت. أتربة وحجارة ضخمة تناثرت في الأنحاء. أرض منكوشة الأمعاء. وسيارة بي أم دبليو سوداء طار صندوقها الأمامي وتعلق ذيلها خارج الطريق هابطاً باتجاه الوادي.

«صوروا! صوروا!»

بدا غاضباً وضاحكاً على التوالي. كأن السيارة له. كان يتعرق بغزارة ويكافح ضد المقود الضخم ويغيّر الفيتاس كل ثانية شاتماً الروس وشاحناتهم «الأنتيكا».

*

ترجلا كأنهما يهبطان من سفينة مخرت عباب الأطلسي. وقفا في ظل شجرة جوز. ارتاحا دقيقة. كانت معدة بشارة مخضوضة. ضحك جورج. وجهه كالشمندر. الشمس سقطت حارقة على الحجارة. بدّل بشارة فيلم الكاميرا. في القاطع المقابل بانت القرى متناثرة البيوت قرميدها أحمر. من هذه النقطة لم تظهر الدبابات. لكن الدوي هزّ سلسلة الجبال.

*

سلكا درباً مهجورة تنحدر بين الأشجار. شاهدا سيارة مرسيدس محطمة. في بستان تين ارتاحا قليلاً. شربا من نبع بارد. كانت الصواريخ تصفر في الأعالي، وكلما هبطا أعمق صار صوتها أخفّ.

*

بين أشجار بطم كثيفة أعتم الجو هنيهة. بدت الحرب شيئاً خيالياً من عالم آخر. زقزقة بين الأغصان. هواء عليل يكسر حدّة ما بعد الظهر. أوشكت الشمس أن تغيب لكن الحرّ لم يتراجع. لهثا بينما جلدهما يتمدد، والدم ترتفع حرارته وجريانه يتسارع.

*

في قعر الوادي أخافهما السكون المطبق. فجأة أحاطت بهما صيحات. من بين الجذوع أطلّت معاطف عسكرية. وجوه مظلمة. غاضبة. مجموعة مسلحة برشاشات وقاذفات ب 7 وقنابل يدوية أمرتهما بالركوع فوراً على الأرض.

148
آل زخور 16 – الطابق الأول

الشرفة مزجّجة. يستلقي على كرسي بحر مسحوب الى خلف ومغمور بظلّ السقف. الشمس تؤذي. الهواء يثير حكاكاً. الشرب (الماء والعصير والسوائل) مهم لشفاء الجلد وتنشيط الأعضاء الداخلية. لكنه يزعجه كثيراً لأنه يتعب عند دخول التواليت. حول الشرفة وتحت النوافذ تتعلق أصص بوغونيا من حلقات متينة. عند طرف الشاطىء يمتد حقل زهور برتقالية غريبة لم يرَ مثلها من قبل. حيث ترتفع الأرض صوب الغابة تتوزع صناديق مكعبة بيضاء. ظلّ أياماً يحدق اليها ويتساءل ماذا تكون قبل أن تخبره نادين أنها قفران نحل.

*

لم تجلب معها الداكتيلو بالقطار. أرادت أن ترتاح بضعة أيام. وجدته هادئاً لا يزفر عند أول كلمة. شربا بيرة وراقبا البحر واليخوت وناس الشاطىء. كانت تتركه قبل الغروب وتنزل كي تسبح نصف ساعة ثم تعود ملتفة بالمنشفة وذرّات الرمل تلتصق بربلتيها. سألته وهي تستلقي على الكرسي جنبه هل يفكر في بيروت.

«بيروت؟»

«تشتاق الى لبنان؟»

كان المعنى واضحاً. رأى مرة أخرى كاترين تميل عليه في جهنم الهوليداي إن. النار والزعيق والحائط الأزرق. عجز عن لفظ الكلمات. فتح فمه نصف فتحة. أراد أن يخبرها. لكن الحكي لم يخرج من قصبته.

149
آل الحويك 14 – الطابق السابع

لم يكسروا الكاميرا. الإهانة سبقت الشرح. أصابت الضربات جنب بشارة. وقع على الأشواك. تمزّق قميصه. استعمل جورج اللهجة الفلسطينية التي يجيدها. أقنع المسلحين أنه من صفّهم لا من صف الكتائب ولا من صف السوريين. سمّى معارف في الجبهة الشعبية وفتح، كرج لسانه، وقال اتصلوا على الجهاز واسألوا عن إسمينا.

«صدقناك.»

لم يتصلوا. العدو يشوش على موجات اللاسلكي. أو أنهم ببساطة استحوا. ليس من ضرب الصحافي، لكن من ظهورهم خائفين وهاربين من ظلّهم. هكذا نجا جورج وبشارة من موت بلا ضرورة في قعر وادٍ في شرق صيدا.



تسلقا المنحدر. بلا صوت. كان المساء يهبط. الوادي يعتم أولاً. التقيا عائلات منحدرة من القرى، نازلة الى الوادي. سأل جورج رجالاً يحملون أطفالاً وأكياساً منتفخة من أين يأتون والى أين يذهبون. الرجال سألوه من يكون حضرته؟ عرّفهم بنفسه وببشارة. تبادلوا الحكي.

«أبو مارون في مزرعته. هو وزوجته وأولاده.»

«في بيته؟»

«لا، في المزرعة. لا تعرفونها؟»

«أين هي؟ في مجدليون؟؟»

النسوة تبادلن نظرات غامضة. الرجال ابتسموا. كانوا متوترين متعبين وعلى وجوههم امارات الفزع. أرشدوا الأستاذين الآتيين من العاصمة الى «قادومية». درب قدم تقودهما بين الأحراج الى مزرعة دجاج. آخر الوادي. «لن تضيعا.» نظروا الى قميص مقطوع الأزرار، والى حذاءٍ ثمينٍ تقشّر تماماً، ثم ابتعدوا. جورج شدّ بشارة من ذراعه. بينما الضوء يتلاشى دوّت مدافع الجبل.

❋

في ظلمة الأحراج أشعل كل منهما سيكارة. عود كبريت أطفأه الهواء. عود ثانٍ صمد محضوناً في بطن اليد. الجمرة يمكن أن تدلّ القنّاصة. خالفا أبسط القواعد العسكرية، بلا مبالاة. طارت دجاجة أرض (برّية). أجفلتهما.

«أخت الدجاج على أخت فتح على أخت سوريا».

اشتبكا مع أغصان عنيدة تسدّ الدرب. لم يتوقف القصف في الأعالي. بعيد لكنه مسموع. تقدما على مهل. أصوات الليل والبرّية. حشرات بين الصخور. لهاثهما الضعيف. بعد وقت، وهما يشعران بالضياع والغباء والتعب، أرشدتهما ضجة دجاج مفاجئة إلى المزرعة.

❋

بنى ميشال الحويك الهنغار الأول في نقطة غير بعيدة من البيت. كانت خطته مزدوجة: تربية الدجاج والانتفاع بالسلح لتغذية البساتين. اشتكت زوجته (أم مارون) من الرائحة القوّية فبنى ثلاثة هنغارات أخرى في كعب الوادي. كلّها باطون ومسقوفة تنكاً. الهنغار الواحد يتسع لألف طير (فروج). لم يربِ الدجاج البيّاض إلا في الهنغار الفوقاني (500 طير) بجوار البيت. في «هنغارات الودايا» (إسمها الشائع) ربى فراريج. شقّ طريقاً للسيارة والبيك

اب من مزرعته الى الشارع العام الذي يصل المنطقة ببلدة جزين. في حزيران ال76 تاهت ملالة سوفياتية الصنع ونزلت من هنا. قصفتها «الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين» وأحرقتها. بعد ذلك ظلّت طلعة مزرعة الدجاج مسدودة خمسة أسابيع.

❊

اعتبر ميشال الحويك نفسه محظوظاً. أقارب زوجته يملكون بستان برتقال على نهر الأولي وبيتاً على مسافة دقيقتين من البوابة الفوقا (صيدا). عندما تقدم الجيش السوري من جهة جزين دخلت «القوات المشتركة» بستان البرتقال وحفرت فيه مواقع ووزعت بين الأشجار مرابض مدفعية. على امتداد المنحدر زرعت ألغاماً. كأن هذه ليست مصيبة كافية: القذائف الأولى التي أطلقتها دبابات السوريين (تي 52) أصابت البوابة الفوقا وجوارها. تهدم جزء من البيت واضطروا الى تركه. ميشال الحويك نزل وساعدهم. كانت الأغراض مبعثرة على البلاط وكسور الزجاج والحجارة تغطي الأثاث الذي احترق. لجأوا الى أقارب في صور. ميشال الحويك أرسل بناته معهم. كي يبعدهن عن الخطر. الصبيان أصرّوا على البقاء معه. وزوجته أيضاً. كذلك الشغيلة. أبقى عماله السوريين في البيت في مجدليون كي يحموه من السرقة، وهرب بعماله الفلسطينيين وعائلته الى «هنغارات الوادايا». مدرجات الجلول قرب الهنغارات مزروعة أشجار مشمش. ضمنها منذ فترة قصيرة. وسّع نطاق زراعته حبّاً بالتنويع. في تلك الفترة بالذات كانوا يجنون الموسم. أولاده مولعون بالمشمش ويهتفون على الحبّات الصفراء الملوّحة بلون برتقالي (مشمش أم حسين). والدتهم تكافح ضد عواطفهم كل ساعة لئلا يصيبهم الإسهال. تنبههم الى غسل المشمش بماء النبع قبل أكله لأن المشمش الساخن «يفرط البطن». اذا رأت واحداً منهم يدنو من المصطبة حيث يُسطح المشمش في الشمس كي يجف تنادي: «أبو مارون، إلحقْ الأولاد!». يحبّون الدجاج ايضاً. الصيصان الصفر أول وصولها الى المزرعة من الفقاسات وعمرها ساعات معدودة. يحبّون مراقبتها وهي تخرج من العلب البلاستيك

وتتراكض مزقزقة على نشارة الخشب المفروشة. في شهرين تكبر وتصير فراريج ويأتي البيك اب ويأخذها. تعلموا من الشغيلة كيف يقسمون كيس العلف (50 كيلوغراماً) الى كيسين كي يسهل حمله. وتعلموا كيف يعيّرون حنفيات المشارب المعدن الطويلة لئلا يرتفع منسوب الماء ويُرطب النشارة ويمرض الفوج بالكريب. كانت أمهم تسألهم ألا تضايقهم رائحة السلح وهم يضحكون ويشعرون أنهم صاروا رجالاً مثل أبيهم وشغيلته لأن رائحة السلح ليست كريهة جداً ويمكنك اذا كنت رجلاً أن تتعود عليها. مثل الشوكة في اليد. مثل ضربة الشمس. مثل لسعة النحلة. إلى هذا العالم وصل رجلان آتيان من العاصمة. ميشال الحويك كان منشغلاً بتوزيع دواء على خزانات الماء من قوارير صغيرة (طعم للدجاج ضد الرشح). وجهه المقطب دلّ الى خوفه من نقصان مخزون العلف في المزرعة. انقطاع الطريق كارثة. يكفي أن يجوع الفوج يوماً أو إثنين كي يخرب بيت المزارع. والكارثة الأفظع هذا الدوي المتواصل الذي يرعب الدجاج ويوقفه عن الأكل ويقتل الديوك الأكبر حجماً. وجد هذا عجيباً: الأقوى يقضي عليه الدويّ أولاً. قلبه لا يتحمل! الطيور الأصغر تموت عادة من عجزها عن الوصول الى المعالف بسبب تدافع الديوك الجشعة. لكنها الآن صامدة في وجه المدافع! تلجأ الى الزوايا وتتكوم خائفة. كأنها تبترد، على عادة الدجاج في موسم الحرّ، حين يحمى سقف الهنغار في الوسط. كل صباح يخشى الدخول الى الهنغار: يهبط وجهه وتعتم عيناه حين يرى ديوكاً بيضاء بعرف أحمر تزن أكثر من كيلوغرامين ونصف، مطروحة على جنبها ميتة. صار يترك للشغيلة أو للأولاد هذه المهمة: اخراج الطيور النافقة ورميها وراء الهنغار، بعيداً حيث تنحدر الأرض الى وادٍ أعمق. الدخول السوري لم يسهّل عليه شيئاً: كان خائفاً على البيت ويصعد كل يوم كي يتفقد الوضع ويجلب بعض الأغراض. عدد من الشغيلة الفلسطينيين اختاروا الهرب جنوباً. أعطاهم مالاً وزوادة للطريق. قبل بدء الحوادث بشهور غادر عدد من شغيلته السوريين عائدين الى بلدهم كما في كل سنة من أجل الخدمة العسكرية. بعضهم كان يرجع الى الشغل عنده حين

تنتهي الخدمة. في حزيران 1976 تفاجأ مرتين: الأولى حين زاره جندي كان من قبل عاملاً عنده وأهداه مسبحة عنبر جلبها له خصيصاً من الشام. والثانية حين ظهر بشارة كيروز مع زميله الصحافي قادمين مشياً وسط الاشتباكات للإطمئنان عليه.

*

كان يعرف بشارة من مناسبات عائلية متفرقة متباعدة (إكليل زواج أو حفل عمادة) لا تكفي كي يكوّن صورة حقيقية عن شخصيته. لم يجلسا مرة واحدة وقتاً طويلاً على حدة ويتبادلا الحكي في أشياء تهمّ. لكنه شعر أنه قريب منه على نحو ما، فهو مثله يساري الهوى، يفضل كمال جنبلاط أو ريمون اده أو جورج حبش في أي يوم وأي ظرف على شخص مثل بيار الجميل أو سليمان فرنجية أو كميل شمعون. كذلك احترمه لأنه متعلم وخريج جامعة وشغوف بعمله وبارع فيه. رأى ملامح أم يونس (كميلة زوجة أخيه) ترقّ إذا ذُكر إسمه. بعد تلك الزيارة المفاجئة في الليل المهزوز بالقنابل صار ميشال الحويك يعتبر بشارة عزيزاً، كأنه من لحمه ودمه. مع أن بشارة لم يفعل شيئاً: فقط أتى من بيروت يحمل سلاماً من بولس. قضى في المزرعة ليلة هو وصديقه (تعشوا صينية دجاج وتحلّوا بالمشمش) ثم غادرا في الصباح.

150
آل هاينيكن 6 – الطابق السادس

اشتغل خط التلفون 24 ساعة ثم انقطع مرة أخرى. أحياناً يعمل لكن ضمن الأشرفية فقط. حين رنّ الهاتف وسمع صوتاً أجنبياً ظنّ الإتصال من الخارج. كانت إمرأة لا يعرفها. تقطّع صوتها. لكنتها غريبة. إنكليزية تُلفظ بطريقة ألمانية أو نروجية أو سويدية. طالت الثواني قبل أن يستوعب أنها لم تطلب الرقم الخطأ وأنها لا تتكلم من أوروبا. كانت هذه مدام هاينيكن،

زوجة البروفسور، تتلفن من الجامعة الأميركية في رأس بيروت للإطمئنان على البناية والبيت بعد جولة القصف العنيفة والمدمرة التي تعرضت لها - بحسب إذاعة عمشيت- معظم أحياء الأشرفية.

*

وجد الدكتور إدغار معلوف صعوبة في تركيز أفكاره. بينما يراجع بحثاً لغوياً (قواعد إعراب «كان» في مدرسة الكوفة) انتبه أن القلم يرجف في يده. وضع يديه على المكتب ونظر إلى أصابعه. جسم الإنسان. الجلد والعظم واللحم. الشعر. المفاصل. الخلايا التي تجدد نفسها. كيف بدأ كل شيء من خلية في الماء. داروين. الشعب المرجانية. النشوء والإرتقاء. إنفجار بعيد هزّ الهواء أمام وجهه. رمش بعينيه. التفت باتجاه الممر. سمع زوجته تقول شيئاً في غرفة أخرى. فحص ورقة على المكتب. حروف مطبوعة. حاول أن يفهم لماذا نسخها ثم طبعها. هو فعل ذلك؟ متى؟ قبل أن يترك الغربية؟ أم هنا؟

سمَّ: عامية. أغضبه غضباً أليماً. يُقال: سمّ بدنه أي أغضبه الى حد الألم. ومثلها: كهرب بدنه. الأولى مشتقة من السم. الثانية من الكهرباء.

السماني: ج سمانيات. نوع من الطيور القواطع، من رتبة الدجاجيات، يطلق على الواحد والجمع. وهو المعروف في بلاد الشام بالفري. ويسمّى أيضاً السلوى.

السّمرمر: طائر من فصيلة الزرزوريات، يزعق على الجراد ويأكل منه كثيراً ولا يلبث ما يأكله حتى يخرج منه. ينهزم الجراد من صوته.

السمنة: 1 - دواء يُسمّن به. 2 - طائر من فصيلة الشحروريات. يُصاد للحمه اللذيذ.

*

كانت هذه عادة قديمة: كلّما اعترضته مشاكل في حياته يلجأ الى القاموس. أو إلى أي موسوعة قريبة. الترتيب الألفبائي للمواد والعالم يردّ إلى جسمه

سلاماً يحتاج إليه حاجة ماسة. كان شديد الهشاشة. أقل طارىء يهدد روتينه اليومي يمكن أن يدمر أعصابه. حين التأم الجرح في جبهته وبدأ الجلد يمحو الشقّ حنّ الى ندبته! صديقه الدكتور فؤاد افرام البستاني أخبره أكثر من مرة أنه أكثر واحد ينطبق عليه بيت المتنبي: «خلقت ألوفاً لو رجعت الى الصبا/ لفارقت شيبي موجع القلب باكيا». الدكتور معلوف استلذّ هذا القول وهو يفكر في بيت آخر: «وظلم ذوي القربى أشد مضاضة / على النفس من وقع الحسام المهند». كانت زوجته تنهكه برغبتها في الهجرة. كلّما جلسا إلى طاولة الطعام تفتح هذا الحديث. اعتبر أنها تضطهده. كانت نوبة ذعر تستولي عليه لمجرد التفكير في جمع كتبه في صناديق من جديد. رجاها أن تؤجل الموضوع. أن تعطيه وقتاً كي يتقبّل الفكرة. لم تسكت. «الى متى تريدني أن أؤجل يا ادغار؟ حتى يقع السقف علينا؟ حتى نموت؟ حتى تقرأ إسمنا في صفحة الوفيات وتتأكد؟»

151
آل الخوري 15 – الطابق الثالث

«بعت الترانس- أم لروني لطَيْف. ظلّ يُخيّل عليها حتى استشهد في الصفرا مارينا بعد حرب السنتين. هو نمور وأهله نمور أصحاب محطة بنزين. أهديت نفسي على عيدي (21 حزيران) سيارة ألفا روميو موديل ال74. نقولا نقّاش طلع معي على البترون كي نجرّبها. كان يعرج ويستعمل عصا. بالصدفة وصلت السيارة على ضيعة ماري تيريز. صوت الجبليين يقدح السماء. استقبلتني كأنني عريسها. لم تكن تعرف أنني تركت كارلا. سألتها أين التراكتور الذي أخبرتني عنه. أخذتني الى وراء البيت. قديم. أحمر. أكله الصدأ. أربعة دواليب: الزوج الورّاني مثل دواليب «السكسويل»، عملاقة. الزوج القدماني مثل دواليب البسكلات، رفيعة وصغيرة. ركبته وسقته كي

أضحك. الألفا روميو دقّت بالأرض لمّا ساقتها ماري تيريز. مات نقولا من الضحك. قاتلتْ للخروج من السيارة. كانت أكبر من المقعد. والدركسيون يجرح رقبتها. لم تقبل أن نذهب من دون أن نتغدى. عبّأت الصندوق الورّاني فواكه. ولبنة «مكعزلة» مكبوسة بزيت. وجبنة. لكارلا. مشينا قبل الغروب. وأنا أنطلق بالسيارة أعلمتها أنني وكارلا تعاركنا. ثم رفعت الزجاج. نقولا ظلّ يتلفت ويتفرج عليها واقفة مفتوحة الفم في الغبار حتى وصلنا الى الطريق العام. تصادق مع ثلاثة نمور وصرنا نترافق في المتاريس المجاورة لجسر مار تقلا. هذا المحور المواجه لجسر الباشا جنّ تماماً في ذلك الوقت. السوريون يحاربون في الجبل وصيدا. ونحن في قلب الشرقية. انفتحت خطوط الذخيرة علينا وأقفلت أمام العدو. كنّا ندك تل الزعتر وجسر الباشا والنبعة دكّاً بالقذائف. من كل العيارات. 160 و120 و155. عندما أوقف الجيش السوري تقدمه في صيدا ضاعفنا القصف للتعويض. صرنا بحاجة الى نصر سريع يقلب موازين القوى على الأرض. العميد ريمون اده طلع على مونت كارلو وأغاظ الرئيس الأسد وهو يحكي عن الترحيب اللبناني بالدخول السوري وعن الستين أو سبعين دبابة التي دمرها الترحيب الواسع في صوفر وصيدا والبقاع. أنا كنت أضحك. قال العميد ان راديو دمشق نسخ من دليل الهاتف أسماء عائلات بيروت، خصوصاً الإسلامية، ثم أذاع انها أرسلت برقيات عاجلة من لبنان تطلب دخول الجيش السوري الى بيروت لحمايتها من المتقاتلين. في الدشم ونحن نقنص على حيّ القلعة وجهة جسر الباشا الأقرب الى تل الزعتر كنا نسمع التصريحات ونتسلى ونشعر أن الحرب لا يمكن ولا يجوز أن تنتهي. جاءتنا تعزيزات. مدافع. آليات. صواريخ أرض- أرض. نمر يدعى طوني طحّان كان يستقبلنا في بيته على الطابق الفوقاني في بناية أهله في التحويطة. من هناك كنا نطال جسر الباشا. وحين نملّ من القنص آخذهم وننزل إلى الأسواق حيث المعارك لا تتوقف ولا تتغيّر. على محور فتال- المرفأ كنا نتسلل ثم يتسللون ثم نتسلل. مرات

نطارد بعضنا بين الغرف. أنا لا أمزح معكم. طوني طحّان أصابوه هكذا، وراء بناية فتال وهو يخرج من النافذة. دخلت الرصاصة من أذنه ولم تخرج. استشهد قبل أن نحمله الى الخطوط الخلفية. ظلّ مفتاح بيته معنا. أنا سكنت فيه أسابيع. بيت «مضوي». والمطبخ فيه جلاية صحون. كنا نجلب من نريد الى هناك ولا أحد يتدخل لأن البناية مهجورة. كل الناس هربوا. جهة المخيم مشرعة على الدوشكا والأر بي جي وال500. والشبابيك عليها متاريس رمل وترابة. كان عنده ستيريو وكل أنواع الكاسيتات. من وديع الصافي وأم كلثوم للرولنغ ستونز وفيفالدي. نقولا كان هوسه الكونتري ميوزيك. هلكني هو وكيني روجرز. كنا نلبس القمصان التي تركها لنا طوني. نمرة صباطه مثل نمرة صباطي. لم أحزن لأنه مات كما حزنت عندما مات شارل. ليس فقط لأن طوني طحّان ليس أخي. لكن أيضاً لأنني تعوّدت على الشهداء. في الحرب تتعوّد. أو تذهب تحت الدعس. روني لطَيْف لم يقبل مني حين قلت له تعال نسافر الى هونغ كونغ. هذا بعد حرب السنتين. حين بدأت الاشتباكات بين الأحرار والكتائب. أنا أردت أن أسافر قليلاً. قالوا لي ان جاكرتا فيها أشياء حلوة، لكنني حجزت الى هونغ كونغ لأن عندي أصدقاء سبقوني الى هناك. روني قال إنه لا يقدر أن يترك الآن. لو قدر وسافر معي كان نجا من تلك المذبحة. أنا أفكر فيهم. الرفاق الذين راحوا هكذا بلا معنى. الذين قضوا في معارك مع العدو كان حظهم أجمل. أصعب شيء أن تستشهد على يد رفيقك. أو من كان رفيقك أمس فقط. نقولا نقّاش أصابوه أكثر من مرة. لكنه الآن في الأرجنتين. عنده محلات ثياب. وأولاد. وأخته عندها مطبعة. هي وزوجها. كان يرسل لي مكاتيب من هناك. على عنوان البيت في الأشرفية. أهله قتلوهم في طرابلس. لا يوجد في بلدنا شخص واحد بلا قتلى أقارب. أنا أجد الدولة اللبنانية إستثنائية في العالم. هي والكونغو وأريتيريا. أبي كان يقول لنا ونحن صغار ان لبنان هو سويسرا الشرق. أولاً بسبب المياه الجوفية وغزارة الأنهار. ثانياً الجبال العالية. ثالثاً الإزدهار في السياحة والبنوك والمطاعم وحجوزات

الفنادق. رابعاً الشوكولا. خامساً الكانتونات. هذا هو النظام المعمول به في سويسرا. لا مركزية. كانتونات. واللغات الرسمية ثلاث أو أربع. التعدد والإختلاف. أبي كان يحب هذه المعلومات ويحفظ إسم أول رجل بريطاني بلغ قمة إفرست على سطح سلسلة الهملايا الهندية. كان سكوتلندياً وهم يكرهون الإنكليز لكنه زرع علم المملكة البريطانية على قمة جبل إفرست. الملكة شخصياً تغدت معه وقلّدته وساماً رفيعاً من رتبة فارس. أعلى نقطة على وجه الأرض. 8850 متراً. أنا في اقتحام مخيم جسر الباشا كنت نظيف الجسم مئة في المئة، متيقظ الحواس. اذا رجعتم الى البيانات الحربية التي كنا نصدرها في تلك الفترة تجدون ان معارك بالسلاح الأبيض دارت بيننا. هذا يكون كذباً اذا كُتب في البيانات. بعد أسابيع من القصف المدفعي المركز لا تجد من يقاتلك بالسكاكين. واذا وجدته تستعمل المسدس الحربي. لأنه أسهل. ولأنك أصلاً تريد ان تستعمله على هدف حيّ وكل الوقت كنت تقوص به تنكات بيرة وفوارغ جوني ووكر. هذا لا يمنع أننا ثبّتنا الحراب في رؤوس البنادق. وفي جسر الباشا بالذات، وبعد ذلك في تل الزعتر، كانت الحربة عملية. أنا رفعت علم الكتائب فوق أرض جسر الباشا. 29 حزيران. كان يوم ثلاثاء. سماء كحلية لا تظهر بسبب دخان القصف والحرائق. وضجة لا تسمعها إلا في قلب المعركة. بعيدة وقريبة. كأنك سكران. الأشياء تتحرك من حولك كما تريد. بطيئة ثم سريعة ثم بطيئة. مصفحات بانهارد تعكس الشمس. ومكبرات صوت تأمر القنّاصة بالاستسلام فوراً أو ننسف بنايتهم من تحتهم. استوليت على مربض رشاش 12.7 ملم. نظر إليّ جورج حبش. بادلته النظرة وأنا أزيح الميت. ملصق ملوّن. شارل كان معجباً بجورج حبش والعمليات العسكرية التي ينفذها. شعرت به معي في المتراس يقوص. وجورج حبش يضحك لنا. هذا أكثر ما بقي في رأسي من ذلك النهار. الوجه الكبير الذي ينظر إليّ. حين انتهى عنقود الرصاص لم أبدّله. لم أجد غيره. كانت الانفجارات تقترب. انتبهت أن الرجل لا يضحك لي. مزقت

الصورة وخرجت. ركضت باتجاه مستودع محصّن. كنا نحاصره بالآليات ونضربه بالقذائف الصاروخية ولا يخرجون منه. رصاصات متفرقة. ذخيرتهم انتهت. نحن منذ أيام نحشد ونستعد. وهم مقطوعون عن خطوط الإمدادات. حاولوا التسلل من مخيم تل الزعتر لنجدتهم. لكننا أحكمنا الحصار هناك أيضاً. رفعنا معدل القصف الى خمس قذائف في الدقيقة. 3 آلاف صاروخ على جسر الباشا وتل الزعتر في ثلاث ساعات. هذه أرقامهم. نشروها في صحف الغربية. لكنها غير دقيقة. لا يمكنك أن تحصي بالأرقام ما يحدث في قلب المعركة. حتى لو ذهبت الى مخزن القذائف وعملت جردة كما يفعل محاسب البنك لن تصل الى جواب صحيح. ماذا عن المدافع البعيدة؟ ماذا عن المرابض التي تقصف من حيث لا يعلم المحاسب؟ في المقابل يجوز أن تعتبر الأرقام أكبر من الحقيقة. ماذا عن القذائف التي تقع في البحر أو تصيب الجانب الخطأ من نهر بيروت؟ الذي يخسر يهمّه أن يبدو خاسراً في وجه قوّة جبّارة. هذه طبيعة الإنسان. أنا أجد أن تاريخ لبنان كلّه هكذا. مبالغات من الجانبين. أنا دخلت مع النمور. هجمنا من أربعة محاور: جسر مار تقلا، الحازمية، التحويطة، وسن الفيل. كان معنا حراس أرز. الكتائب شقوا طريقين بالجرافات. ركضنا وراء الحديد والدواليب. في حيّ محروق أصابوا اثنين يركضان أمامي. انبطحت بين الجثث وانتظرت. أحدهما كان يحمل العلم. أخذته منه. أنا كنت أعرف أن هذه الساعة آتية. كل ما كنا نحتاج إليه هو الهجوم. لا يكفي أن تقصف. المعركة لا تنتهي إلا بالهجوم البرّي. المشاة والجرافات. تل الزعتر صمد فترة أطول. كررنا الهجمات عليه على امتداد شهر تموز. وظلّوا يقاومون. دفاع إنتحاري. لأنه مطوّق كالإسوارة. النبعة سقطت قبل تل الزعتر بأسبوع. النبعة أسهل. تل الزعتر استراتيجي. والفلسطينيون حشدوا فيه. حفروا تحت الأرض. ودعمتهم مدافع الغربية بقصف مواقعنا وإحاطة المخيم بزنار نار وتحريك الجبهات. أكثر من 50 هجمة ولم ندخل. كنا نقصف 24 ساعة. قطعنا عنهم الماء والكهرباء.

الدول تدخلت وجاء الصليب الأحمر وأخرج جرحى ومرضى عجائز وجثثاً في أكياس نايلون. اشتغلت المفاوضات من أجل التسليم. حين اقتحمناه في آب كنت مريضاً. نهار 11 آب كنت في التخت. حرارتي 41. والعرق يبلّ الفانلة. فجر 12 آب قمت من الفراش كي أشارك. لم أصل الى قلب المخيم لأن روبير رفّول رآني أقع وأنا أمشي. ردّوني إلى المستوصف. على الطريق التقيت أسرى مصفوفين على حائط منشرة. بلا صبابيط. جيبات عليها دوشكا. وسيارات إسعاف. وناس معهم كاميرات. وزعيق. النسوان نقلوهن صوب الغربية. كذا بيك اب. الشيخ أمين كان يمنع عمليات الإعدام والتصفية قدر الممكن. ويصرخ في وجه المقاتلين. جاء «الأمن» وأبعد المصورين. منطقة عسكرية. ممنوع. كانت حرارتي عالية. وقعت على الدرج.»

152
آل حبيب 16 – الطابق الرابع

كيف مرّ الزمن؟ جاؤوا الى بناية أيوب أثناء الاسابيع الأولى للحرب. هربوا من منزلهم في البناية التي يملكها موريس حبيب عندما قصفتها مدافع الشياح ليلاً وأحرقتها. نجوا من الموت لأنهم كانوا نائمين في السينما التي تحولت ملجأ آمناً للأهالي بسبب وجودها تحت الأرض. بدوا قادمين من جهنم بينما ينزلون من سيارة محروقة السقف يتبعها بيك آب محمل بأغراضهم. كانوا بين أوائل المهجرين النازحين الى الحيّ. استأجروا شقة على الطابق الرابع. 3 نوم وصالونان وغرفة طعام مع نوافذ خلفية تطلّ على نهر بيروت وخليج الدورة. حين وقعت قنابل على الحيّ سدّوا النوافذ بحجارة الباطون وأكياس الرمل خوفاً من الشظايا. أظلمت الشقة لكن الوجوه الشقراء الباهرة البياض لبنات ميشال حبيب الثلاث سرعان ما أضاءتها. كنّ طوال تلك الشهور الأولى للحرب فتنة الحيّ بأجسامهن البضّة وزغردتهن العالية ونظراتهن الجريئة ثم

اختفى أخوهن الوحيد – أمير العائلة– وسكتن عن الزقزقة.

*

شريكه في السكن الجامعي في بناية بنروز (غرفة 122) كان أردنياً. جلب معه من عمان كتابين مجلدين بالنايلون. «الأرواح الميتة» (غوغول). و«الأجنحة المتكسرة» (جبران). كارلوس أزعجه أنه يدخن بلا توقف، في الغرفة الضيقة. حين طلب منه الكفّ عن ذلك قال «أوكي». بعد ذلك لم يدخن في الغرفة. تصادقا بسرعة. كانت الغرفة تطلّ على ملعب مدرسة الأي سي. اعتادا الجلوس ومراقبة مبارة الفوتبول والتعليق عليها، بينما يشربان بيرة. استمتعا خصوصاً بمباريات البنات. كان شرب الكحول ممنوعاً في بنايات الداخلي. لكنهما تحايلا على القوانين وأفرغا البيرة في أكواب شاي برّداها طويلاً في ثلاجة البناية.

*

حين اشتدت الحوادث عاد شريكه في السكن إلى عمان. تبادلا إتصالين بالهاتف وعرف أنه قدم طلباً إلى جامعة في إنكلترا. فكر جدياً أن يفعل مثله. لكنه وجد الإبتعاد عن أهله صعباً. كان في أحيان كثيرة يترك شريكه على مدى أيام، وينام في البيت لأنه اشتاق إلى طبخ الخادمة وإلى ضحكات أخواته. خصوصاً آنا. أمّه قالت له إنه يبدّد المال على غرفة الجامعة بلا ضرورة. أخبرها عن ملعب الفوتبول والرمل الأحمر الذي يُسبب له تحسّساً في الأنف والحنجرة. لأنها تحبّه، صدّقته. بعد دهر، حين بدأت تشارك في أنشطة «الجمعية اللبنانية لأمهات المفقودين»، شعرت بحاجة شديدة إلى الذهاب إلى تلك الغرفة (بنروز– 122) حيث سكن إبنها. أرادت أن تتفقد المكان وأن تنظر الى ملعب أحمر الرمل أخبرها عنه. بين أخريات منكوبات مثلها وجدت بعض القدرة على التنفس من جديد. أرادت أن تأخذ معها الناطورة المسكينة لكن راغدة زغلول لم تعد تُرى في البناية. كانت تتناول الحبوب باستمرار. تنام أو تشرد في الطرقات. تبقى أحياناً خارج البيت في الليل. أكثر من مرة شوهدت إبنتها فريدة تبحث عنها في أزقة حيّ العبد. ثم اختفت. قلقوا.

انتظروها ولم ترجع. طبعوا صورة قديمة لها (لم يجدوا غيرها) وعلقوها في مدخل البناية جنب صورة إبنتها كوليت.

❊

السيد ميشال حبيب حزن حين اختفت. أكثر من مرة رآها في أوتيل ديو (براد الجثث) وفي مستشفى رزق. أراد أن يوصلها الى البناية في طريق عودته. لكنها مرّت جنبه. كأنه شبح.

❊

ألبوم الصور. كارلوس (19 سنة) في ساحة سان ماركو (البندقية). الحمائم تغطي الأرض. الناس كأنهم في يوم الحشر. يحمل في يده كتالوج متحف فينيسيا. على الغلاف يظهر تمثال لميكال أنجلو. خلفه فتيات ضاحكات لا نعرف من هن. يعتمرن قبعات طُبع عليها بالإنكليزية «بيتزا دانتي». إحداهن تنظر مباشرة إلينا. تبدو كورية أو يابانية. خلفها عمارة بديعة وقبب تلمع.

❊

قبل أن تختفي رآها على طريق النبعة. بعد تهجير أهالي النبعة الى الغربية. آب (أغسطس). شمس تقدح السقف. شاحنات تنفث دخان المازوت. غبار وركام وضجة. كانت معها فتاة رآها من قبل في البناية. لم يتأكد من تكون. يجوز أنها من صبايا الطابق السابع. أوشك أن يوقف السيارة. لكنه لم يفعل. بعد أربعة أيام أو خمسة أخبرته مدام طانيوس وهو يركن السيارة عند الرصيف أن أم يوسف الناطورة مفقودة وأنهم أبلغوا المخافر والمستشفيات. تذكرها مرة أخرى ماشية مع تلك الفتاة التي تسندها. صفراء رفيعة كقصبة. ثوبها عرقان. بدأ يبكي. كان هذا يحدث له أحياناً. يذكره شيء بما وقع له- بما وقع لكارل- ويعجز عن إيقاف دموعه.

153
آل عطية 7 – الطابق الثالث

مرّت فترات عرفت فيها الجدّة لحظة صفاء عابرة. كان صفاء نقياً مطلقاً. تبدّد الضباب وأيقنت أنها ليست في كندا. لعل ارتفاع درجة الحرارة ساهم في هذا. واشتداد القصف في المنطقة الشرقية خلال حرب المخيمين. وقدوم آل ليفي من صيدا. تحلقوا حولها ولعبوا بالأغطية. لم تبعد الصغار. أحبّت وجوههم. نظروا إليها كأنها حيوان عجيب في جنينة الحيوانات. لم تزعل. بادلتهم النظرة ذاتها.

*

حين صارت الانفجارات تهزّ البناية ليلاً نهاراً خافت هدى عطية من البقاء فوق. اشتدّ القصف بين النبعة والأشرفية. من المنعطف بعد المسمكة بانت حرائق تل الزعتر وجسر الباشا. أرادت أن تنزل مع الباقين الى الملجأ. حتى في ساعة الهدوء الوجيزة ظلّت تخطط للنزول والعيش تحت. ما زاد خوفها كان الورقة المطبوعة التي عُلقت في المدخل وعليها تعليمات الدفاع المدني. طلبت من اسحاق أن ينتبه. الخوف يجلب الخوف. لعبت الوساوس في صدرها. منذ سنوات عندها حبّة صغيرة على رقبتها. تحت الجلد. مثل كيس دهن. الآن، فجأة، خافت أن تكون ورماً خبيثاً سرطانياً. تفحصتها أمام مرآة المغسلة. تحركت متوترة بين الممر والمطبخ. رأت أحد الأولاد عند النافذة فصاحت عليه ألا يقف هناك كالغبي. أخذت راشيل إلى غرفة النوم وأقفلت الباب عليهما. سألتها ما هذا الذي تسمعه عن الشاب إبن الدكتور معلوف وعنها. «أقصف رقبتكِ!». راشيل اصفرّت من النبرة العنيفة.

*

تعليمات الدفاع المدني للوقاية من أخطار القنابل والقصف

الوقاية في المنازل:

1 - ان أفضل طرق الوقاية هي الملاجىء والأقبية الموجودة تحت الأبنية أو في الحدائق والساحات العامة.

2 - في حال عدم التمكن من الوصول الى الملاجىء فان زوايا الغرف الداخلية والممرات تعطي وقاية لا بأس بها.

3 - الطبقات السفلية أفضل من الطبقات العليا.

الوقاية في الطرق والساحات:

1 - ان أفضل وقاية هي ملاجىء الحدائق اذا وجدت أو أي بناء تحته ملجأ أو كاراج.

2 - في حال عدم تمكنك من الوصول الى ملجأ عليك الإنبطاح أرضاً.

3 - الإنبطاح في خندق أو حفرة.

4 - اذا كان الشخص في الشارع عليه أن يأخذ وضع الانبطاح قرب حافة رصيف حيث تكون الطرق مقوسة. ووضع الإنبطاح أرضاً يكون هكذا:

أ - توضع اليد والأصابع متشابكة على مؤخرة الرأس لتحمي عروق الرقبة ومؤخرة الرأس من الشظايا.

ب - الفم مفتوح من أجل الضغط.

ج - الرجلان مفتوحتان الى الخارج.

د - الكوعان مفتوحتان قليلاً الى الخارج.

تعليمات خاصة بالملاجىء:

1 - حضرْ الملاجىء والأقبية لتتمكن من العيش فيها أياماً اذا اقتضت الضرورة.

2 – يزود الملجأ بمدخل واسع مضاء محمي بجدار متعرج من أكياس الرمل في حال عدم وجود جدار باطون. ولا بد من وجود مخرج إغاثة واحد على الأقل غير المدخل الرئيسي ومن المهم أن يكون بعيداً عنه في الجهة المعاكسة اذا أمكن. ويزود بحماية أيضاً.

3 – يجب تأمين تهوية الملاجىء. اما بصورة طبيعية بواسطة قساطل. أو اصطناعياً بواسطة مضخات هواء لتصريف الهواء الفاسد وادخال هواء نظيف.

4 – يزود الملجأ بمراحيض بمعدل واحد لكل 25 شخصاً. واذا تعذر وصل المرحاض بالمجرور بطريقة الانحدار الطبيعي يستعاض عنها بمراحيض نقالة.

5 – تأمين النظافة العامة داخل الملجأ.

6 – تقسيم مساحة الملجأ على أساس متر مربع واحد لكل شخص.

7 – تأمين رفش عدد 2 ومعول عدد 2 ومجرفة عدد 2

8 – تأمين قارورة إطفاء ودلو ماء عدد 2 ودلو رمل عدد 2

9 – تأمين علبة اسعافات أولية.

10 – المحافظة على الهدوء والنظام في الملجأ ومراعاة شعور الآخرين.

11 – تجنب الكحول والمنبهات وعدم التدخين.

12 – تعيين مراقب مسؤول داخل الملجأ من السكان مهمته تنفيذ التعليمات لتأمين الراحة والاستقرار للجميع وخلق جوّ من الأخوة مبني على المحبة.

تعليمات للأفراد والعائلات:

1 – تأمين كمية كافية لأيام من الماء والمأكولات في حال الاضطرار للبقاء في الملجأ.

2 – تأمين علبة اسعافات أولية.

3 – ضعْ كل الأشياء خاصتك في حقيبة وكذلك الأشياء الثمينة لنقلها معك عند اللزوم.

4 – جهّزْ جعبة أو حقيبة تحتوي على الضروري للعيش في الأقبية زمناً وليكن فيها: ألبسة، أحذية متينة، حرامات صوف أو لحف، آنية للطعام، وجبة طعام جافة، بطارية (مصباح جيب)، شمع، راديو بطارية، ما يلزم للكتابة ورتي الكلسات، ألعاب، ورق لعب، كتب للمطالعة، أدوات زينة، تواليت، وثائق رسمية وخاصة، مجوهرات ونقود.

عند النزول الى الملجأ:

1 – من المهم ارتداء ملابس عادية ووضع بطاقات الهوية أو تدوين الإسم والعنوان وفئة الدم على ورقة لتحفظ مع كل فرد من أفراد العائلة أو تعلق بالرقبة بواسطة سلسلة.

2 – إقفال قوارير الغاز وقطع التيار الكهربائي من المآخذ الرئيسية وكل الأجهزة وإقفال الحنفيات الرئيسية للمياه والمازوت.

3 – فتح نوافذ الزجاج واغلاق الخشب واسدال الستائر والنزول على الدرج من دون استعمال المصعد الكهربائي.

4 – عدم التجمع على الشرفات والطرق ومداخل الأبنية والملاجىء والأقبية خصوصاً مكان وقوع القذائف.

154
آل عازار 13 – الطابق السابع

لم تمرض الطفلة. كانت صحتها ممتازة. في الليل نادراً ما تبكي. أحياناً يصيبها مغص لكنه لا يدوم فترة طويلة. شغَلَت الملجأ كلّه عن الخوف. كانوا

يتجمعون في الضوء الأصفر للوكس الكاز ويصغون الى الراديو والانفجارات، ويتبادلون التعليقات والقليل من الحكي. أصوات الطفلة ترافق وقتهم. الفتاة النازحة من صيدا، إبنة داوود ليفي، طلبت أن تحمل مرغريتا. خافوا أن توقعها على الأرض. البنت تبدو غير قادرة على حمل جسمها! ظهرت لهم مريضة. لكن الصيدلي راجي عازار تركها تحملها. وقفت تهدهدها وتبتسم لها. مثل لوحة هولندية من عصر النهضة.

❉

من هزائم الربيع (حرب الفنادق) إلى انتصارات الصيف (مخيمات الشرقية) تغيّرت الحالة النفسية في حيّ العبد. بثّت مكبرات الصوت أناشيد النصر. أُلفت مع كأس العرق أبيات زجلية. وأغنيات يسهل دقّ إيقاعها على الطبلة. أهازيج حماسية تنتهي (قبل رنّة الدفّ) بعبارات مثل «والشرقية طهّرناها». تبدّد الذعر الذي ساد أواخر آذار (مارس). في «قهوة فيليبوس» ظهر ما يشبه الإنشراح. ألغى الدخول السوري أي احتمال لحسم عسكري ضد الشرقية. وحتى بعد الخسائر التي وقعت، والحديث عن إنسحاب سوري الى ضهر البيدر وقدوم قوة أمن عربية لحفظ السلام، بان جلياً أن الوضع انقلب. الأراجيل قرقرت مياهها. الدخان ملأ الجو. لكنه لم يكن أسود مثل الدخان الصاعد فوق مرفأ جونيه. ردّوا على سقوط النبعة بقصف عنيف أحرق أهراءات القمح. حين امتلأت دروب الأشرفية بمشردي النبعة التائهين العاجزين عن معرفة الطريق الى المنطقة الغربية تعارك الصيدلي راجي عازار مع إبنته دارين ومنعها من مغادرة البيت. قاومته حتى وسّع الحبس من حدود البيت الى حدود «المبرومة». لكنه لم يقبل أن تغادر البناية. رجوعه إلى العمل منحه هذه القوّة. زوجته راقبت العراك من دون أن تتدخل. كانت مدهوشة. استنتجت أن الحرب أفادته. ناسبها تقييد حركة البنات في هذه الظروف. كانت تقلق عليهن الآن أكثر مما تقلق على بكرها المقاتل أو الصغير العفريت. الأشياء التي تقع في الطرقات أحسن ألا تراها البنات. كانت ناجية عازار جبّارة تميل

الى القساوة، لكن المناظر ضايقتها مع هذا. لم تنسَ أنها هي أيضاً تهجّرت. حاولت أن تخفّف نزلاتها الى معرض أم جان. كرّست وقتاً أطول للبيت. كان بحاجة الى جولة «تعزيل» (تنظيف). خصوصاً بعد سقوط النبعة وتل الزعتر. البناية كلّها نفضت نفسها بعد معارك الصيف. حيّ العبد، كما الأحياء المجاورة، شهد إنقلاباً غريباً داخل المنازل. فجأة صار الضوء قوياً مشعشعاً باهراً ينير زوايا لم يكن يبلغها من قبل. الشمس اجتاحت الأثاث والوجوه. بعد زوال خطر القناصة من جهة الشرق أزيلت التحصينات عن الشبابيك. بان نهر بيروت. الذين تركوا نوافذهم مقفلة بالباطون وأكياس الرمل خوفاً من شظايا القنابل تعرضوا للسخرية. سرعان ما أزالوا قسماً من تحصيناتهم. امتلأت الأدراج بالرمل المتسرب من الأكياس المنقولة. ارتفعت ضحكات صاخبة. انتشر حبور مصدره الشمس في الغرف. سكان نزلة المبرومة فتحوا تجارة: عرضوا خدماتهم مجاناً وفككوا التحصينات. نقلوها الى كعب النزلة واستفادوا منها. مواد بناء. سعيد عازار مرّ على بناية أيوب بعد سقوط مخيم تل الزعتر وأعلم أهله أنه وجد بيتاً ممتازاً في النبعة. لعب بعلاقة مفاتيح كي يروها. بيت واسع. جاهز للسكن. 5 غرف. وحمامان ومطبخ. طابق ثالث. لا يحتاج حتى إلى طرش! لكنه سيدهنه لأن البويا موجودة. أراد أن ينقلهم من مسكنهم الضيق على الطابق السابع في المبرومة.

«لمن البيت؟»

«كيف سأعرف؟ ناس تهجّروا ولن يرجعوا.»

«واذا رجعوا؟»

«كيف سيرجعون يا أمي؟ من سيأتي ويرجعهم؟ الإتحاد السوفياتي؟ أم أنور السادات؟ خلص، خلصنا منهن ومن...»

تراجعت أمام الشتيمة. كانت نبرته مسنّنة. تشوّهت ملامح وجهه. لم تكن تشارك بناتها نظرتهن المستجدة الى أخيهن الكبير. لكنها للحظة عابرة شعرت

هي أيضاً (مع أنها أمّه) أنه ليس هو. كأنه صار شخصاً لا تعرف من يكون. ولا تريد أن تعرف. راقبته يفتح البراد. كان هو. إبنها سعيد. الشكل ذاته. على الأقل من الخلف. وكذلك الطريقة التي ينحني بها ويمدّ رقبته كي ينظر إلى أعماق الرفوف. عصرها ألم. في الزاوية وقفت إحدى بناتها بلا صوت.

155
آل الحويك 14 – الطابق السابع

دفنوا أم بشارة في منتصف حزيران (يونيو)، وظلّوا ينتظرون خبراً منه. كانت الأنباء الواردة من الجانب الآخر تمنع كميلة من النوم. زوجها بولس خشي هو أيضاً أن يكون بشارة نزل إلى شرق صيدا ووقع له مكروه. أثناء الليل، في البيت أو في الملجأ بحسب الوضع الأمني، جلست كميلة محدقة الى مسبحة أمّها كأنها تحصي الحبّات. كانت تتلمس الشرابة الحرير وتشمّ الرائحة الضعيفة الباقية. في الثاني من تموز (يوليو) تلفن لهم شخص من سنترال الجريدة في الحمراء (الغربية). أبلغهم أن بشارة بخير وهو موجود في مدينة صور عند صديق له، وأن السيد بولس الحويك بخير كذلك، وبشارة زاره قبل أيام ونام عنده وهو موجود مع عائلته في مزرعته في مجدليون «ويرسل لكم السلام ويطمئنكم».

«أنا بولس الحويك وأتكلم معك.»

«صحيح. أنت السيد بولس. أخوك ميشال موجود مع عائلته في مجدليون وهم جميعاً بخير».

لم يعتذر عامل السنترال لأنه أخطأ في الإسم. ضحك بدلاً من ذلك. وأعلم بولس الحويك المقيم في الأشرفية أن السيد ميشال شقيقه أرسل له مالاً مع الأستاذ بشارة وأن النقود موجودة الآن في مكتب الجريدة. نظّف حنجرته بسعال قصير وسأله هل يقدر أن يرسل أحداً كي يأخذها؟

«لكنك قلت ان بشارة في الجنوب!»

«صحيح، لكنه أرسل المبلغ إلينا مع زميل. هل تقدر أن تجيء أنت أو أحد من قبلك؟»

«أنا؟ الى الغربية؟»

«اذا كان الأمر غير ممكن وتقدر أن تنتظر يومين سندبّر نحن طريقة. أين بيتك بالضبط؟»

❋

كميلة كانت في السوق تشتري الخضر. أخبرها حين رجعت. استمعت إليه ساكنة.

«أخبرتكِ أنه بخير في صور عند صاحبه. لماذا تبكين؟»

لم تتوقف دموعها. قامت الى الحمام لئلا يتضايق.

❋

في الصباح تلفنوا مرة أخرى كي يتأكدوا من العنوان. هذه المرة كلّمته إمرأة. أعطاها العنوان من جديد وسألها هل يمكنهم الإتصال بالجنوب من سنترال الجريدة.

«نادراً. معظم الخطوط مقطوعة. لكن الأستاذ بشارة يتلفن لنا من صور أحياناً.»

«هل يمكنكِ أن تعطيه رسالة منا إذا تلفن؟ قولي له ان أمّه ماتت منذ أسبوعين ودفناها. البقية بحياتِك. وقولي له ان أخته تسأل عنه وبالها مشغول عليه. لو سمحتِ يا ست.»

❋

حين تركا المزرعة في ذلك الصباح كانت خطتهما النزول إلى صيدا. ثم العودة الى بيروت. على الطريق العام أدركا أن الأمر شبه مستحيل. اشتدّ

القتال. مرّ جيب تابع لـ«منظمة العمل الشيوعي». تولى جورج الكلام مع المسلحين. منذ تعرض لذلك التعدي ووقعت أزرار قميصه بين الأشواك صار بشارة قليل الحكي كثير التجهم. داراه جورج عارفاً طبعه. الجيب نقلهما إلى قرية عين الدلب. كان جورج يعرف ناساً هناك. قضوا ساعات على شرفة فسيحة ينظرون الى القنابل تتساقط على صيدا. دخّنوا عدداً لا يحصى من السكائر. شربوا قهوة ثم ليموناضة ثم قهوة. تغدوا كبّة نيّة محضّرة بسرعة إكراماً للضيوف. أكل بشارة لقمة ثم أشعل سيكارة. قبل الغروب دبّر جورج سيارة أخذتهما الى بيت إبن عمته في صور.

❊

تلك الليلة، عند الثالثة فجراً تقريباً، استيقظ جورج شاعراً بالعطش. لم يجد بشارة على السرير الآخر. بحث عنه. عثر عليه قاعداً على المصطبة في الخارج، حزيناً تحت النجوم. جلس معه. طلب منه ألا يزعل هكذا وأن يشكر ربّه لأنهم نجوا بضربتين وليس أكثر.

«أشعر أن أمي ماتت يا جورج.»

❊

على مدى أيام تابعا تطور المعارك. كانت أياماً سريالية. في الراديو كما في الشارع بدت الأخبار أسرع من الحقيقة، تسبق وقوع الحوادث. كأن الناس اكتسبوا موهبة التنبؤ. لم يبتسم بشارة لملاحظات صديقه. قام بواجبه المهني بلا نفس. صوّر آثار القصف. في 16 أو 17 حزيران سمعا باغتيال السفير الأميركي في لبنان من إمرأة في سوق السمك. السفير ميلوي خُطف في بيروت قرب المتحف، ما بين المنطقتين الشرقية والغربية، وهو ذاهب للقاء الرئيس الياس سركيس، والعجوز تنبأت في صيدا بمقتله قبل أن تجد القوى الأمنية جثث السفير ومرافقيه مرمية على الشاطىء! كانت تنتعل مشاية كاوتشوك وتحمل كيساً مملوءاً بالبزري. سمك صغير شهي يؤكل مقلياً. بدت

غير آبهة بالانفجارات. مع أن السوق مهجورة، والبسطات الخشب نصفها محطم. صيّاد وحيد يبيع ما جمعته شبكته من بحر لا يُعطل في القصف، انحنى يلطو خائفاً في مدخل قبو تهدم نصفه في هزّة ال56. ظلّ نصف القبو قائماً كي يقضي فيه عابرو السبيل حاجتهم ويبولوا على جبّ الطيون، وكي يشتم سكان الجوار «الناس البلا ذوق». هبّ هواء محمّل بروائح الموتى. تلاشت في سخونة الهواء عجوز صيداوية تؤمن أن كل المخطوفين قتلى وتخرج لشراء البزري بينما المدينة تحترق. في مخيم المية ومية صوّر بشارة فتاة تبكي جنب أمّها. كان الرأس مغطى. أراد أحدهم أن يبعد الغطاء عن رأس الجثة. خرج بشارة بسرعة. أفلح جورج في الإتصال بالجريدة من مستشفى صيدا. تكلم مع السنتراليست ثم مع موريس ثم مع إميل. أخبره موريس ان الكهرباء مقطوعة عن بيروت والحرارة 37 وان ألواح الثلج تصل من صيدا رغم المعارك ويباع اللوح في الحمراء بخمس ليرات. مع أنه بليرة واحدة في الجنوب! انتظر جورج أن يطلب منه ثلجاً. لكنه لم يفعل. اشترى جوارب من متجر حد المستشفى. أرسل إلى بيروت مع زميل من «السفير» أفلام بشارة وظرف نقود «إلى السيد بولس الحويك المحترم». بيت إبن عمته في صور تحوّل مقراً لهما. يخرجان في الصباح ويرجعان بعد هبوط الظلام. كان الطعام يترك من أجلهما على طاولة المطبخ أوعلى الغاز. ويجدان الغرفة مرتبة مهفهفة كأنهما في فندق. حتى أغراضهما القليلة منظمة على سطح الكومودينة. ومرات يتفاجآن بمزهرية من نبات الشمّار البرّي وزهور دويك الجبل. قاما بجولة على قرى قضاء النبطية. شاهدا الاستعدادات لتعطيل الدبابات السورية في حال زحفت في هذا الإتجاه. ذهبا ذات ظهيرة إلى صيدا. كان الطقس لاهب الحرارة والدخان الأسود يرتفع من مصفاة الزهراني. في مخيم عين الحلوة، ثم في مخيم المية ومية، تكلم جورج مع مسؤولين وسجّل أجوبة على الكاسيت وغيّر البطارية وسجّل من جديد. مرات كان يقلب الكاسيت ويُسجل على كلام سجّله قبل ساعة أو قبل يوم. «حكي فوق

حكي.» تناولا طعام الغداء في بيت صديق قديم في شارع دلاعة. على الراديو سمعوا تصريحاً لا يمكن فهمه بسبب الضجة. أحدهم اتفق مع أحدهم. في بيروت أو دمشق. توالت الانفجارات. اهتزّت الطاولة وما عليها. كان الوقت يتأخر. في مدخل البناية التقيا بائع كعك على دراجة هوائية يبيع كعكاً بسماق وزعتر لرؤوس تطلّ من الملجأ وأصابع تمتد بالقروش. أعلم الأستاذين ان كعكاته حارة خارجة قبل دقيقة من الفرن. «عظيم. سنرجع بعد ساعة.»، قال جورج باسماً. تحت القصف انطلقا الى صور. بدا السائق مسروراً. «حفلة ختامية»، قال جورج.

*

على حاجز ظهر فجأة، قبل كيلومتر من مدخل صور، تلاسن بشارة مع أحد المسلحين. كان أمراً بلا لزوم. لكنه حدث. خارج السيارة حاول جورج أن يطوّق الموقف بديبلوماسيته. لسبب ما أطلق أحدهم النار. الراعي الماشي مع بقراته جنب الطريق أطلق صيحة وشدّ الحبل لئلا تضيع البقرات في هذا الليل الأسود. استند بشارة الى الصندوق الورّاني. تأوّه. ثم وقع على الأرض.



جريدة الاربعاء 23 حزيران 1976.

هدأت على «الجبهات السورية» وانفجرت في تل الزعتر والنبعة.

فجأة اشتعلت كل الجبهات. من الكورة في الشمال الى الجبل الى بيروت انفجر امس الوضع العسكري على نحو جنوني، وكانت أعنف المعارك حول مخيمات الضاحية الشرقية والنبعة.

صورتان:

1 - القوات السورية المنسحبة عند مرورها في الدامور (جورج سمرجيان).

2 – دخان الحرائق يتصاعد من تل الزعتر (اميل عيد).

منذ الصباح الباكر والقتال يدور في هذه المناطق وكأنه «حرب شاملة» بكل الأسلحة، من المدفعية الى الآليات والمشاة، ثم امتد القصف المتبادل الى العاصمة وضواحيها الأخرى. واحتدمت المعارك بين تل الزعتر وجسر الباشا والنبعة وبرج حمود والدكوانة والحازمية وسن الفيل والمنصورية.

وهكذا وما ان بدأت الحرب السورية- اللبنانية- الفلسطينية تنحسر مع بدء انسحاب القوات السورية من المطار والساحل الجنوبي حتى تجددت الحرب على الجبهات التقليدية، مهددة مصير الحوار الذي تحدثت عنه الاوساط السياسية اللبنانية والعواصم العربية والغربية وتوقعت ان يساعد وصول قوة الأمن العربية على بعثه حول الطاولة المستديرة.

...وتصعيد سياسي: وقد رافق التصعيد العسكري تصعيد سياسي من «الجبهة اللبنانية» عشية انعقاد مؤتمر المصالحة العربية في الرياض. ورأت الأوساط السياسية في مبادرة جبهة الكفور الى التصعيد رداً على بدء الانسحاب السوري ووصول طلائع قوة الأمن العربية... وفي هذا الوقت تحفظ اركان «الجبهة اللبنانية» حيال قوة الأمن العربية فقال الرئيس كميل شمعون انه «يراقب تصرفاتها» وانه سيكون له موقف منها اذا تبين أنها لم تأتِ «لانتزاع السلاح من أولئك الذين أعلنوا الحرب على اللبنانيين». وأكد الشيخ بيار الجميل هذا الموقف هو الآخر قائلاً انه اذا لم يكن دخول قوة الامن العربية بالروحية نفسها التي رافقت التدخل السوري سيظل من دون معنى وقد يصبح عنصر اضطراب. (التتمة في صفحة 4). وفي المساء وجهت «الجبهة اللبنانية» رسالة الى الدول العربية المشتركة في مؤتمر الرياض تحمل بشدة على «التحالف الفلسطيني- الشيوعي» وتهدد، اذا لم يوقف تدخله في لبنان، بطلب مساعدة عسكرية «من كل أصدقاء لبنان في الخارج».

جلود يستنجد بالأسد: وبينما الوضع يتدهور تدهوراً خطيراً وصل الى

بيروت الرائد عبد السلام جلود رئيس الوزراء الليبي، ليشرف بنفسه على الاتفاق الذي تم بين المقاومة الفلسطينية والحركة الوطنية والسلطات السورية. فاذا به يواجه التطورات الجديدة فيتصل لاسلكياً بالرئيس السوري حافظ الاسد طالباً منه العمل على وقف هذا التدهور لئلا تتعرض الجهود العربية المشتركة لانتكاسة قد تدفع بلبنان الى المصير المجهول. وقد اتخذ جلود من غرفة العمليات العسكرية مقراً لمعالجة الأمور المستجدة وذيول الاتفاق السوري- اللبناني- الفلسطيني(...) وبعد خمس ساعات من المحادثات وافق ممثلو الأحزاب الوطنية اللبنانية والمقاومة الفلسطينية على الإتفاق الذي حمله جلود من دمشق والذي وصف بأنه نهائي. وهو يقضي بانسحاب القوات السورية خلال أربعة أيام (بدأ أمس) من المطار وخلدة والجنوب والجبل الى سهل البقاع ومنطقة عكار، على أن تبقى نقطة مراقبة عسكرية سورية في ضهر البيدر، وبأن تفرج المقاومة والأحزاب عن المعتقلين المنتمين الى منظمة «الصاعقة» و«منظمة لبنان لحزب البعث العربي الاشتراكي» و«التنظيم الناصري- اتحاد قوى الشعب العامل». (...) وتناول البحث المعارك التي تدور في الضاحية الشرقية من بيروت والتي تهدد بانفجار الوضع مجدداً، فأجرى الرائد جلود اتصالاً بالرئيس السوري طالباً منه «التدخل لدى الطرف الآخر لوقف الهجوم على تل الزعتر». وذكرت مصادر «الحركة الوطنية» ان الأسد أبلغ جلود انه «سيضغط» على «الجبهة اللبنانية» لوقف الهجوم، وان جلود يرى ان التصعيد العسكري من الطرف الآخر مرده الى ان هذا الطرف يرفض الانسحاب السوري كما يرفض اشتراك ليبيا ودول عربية أخرى في قوة الأمن العربية... وعلم ان نصف القوات السورية الموجودة في منطقة المطار وخلدة (كتيبة ونصف كتيبة) قد انسحب وسينسحب النصف الآخر قبل ظهر اليوم في أثناء تبادل المعتقلين.

راديو دمشق: رصاص ابتهاج يستقبل طليعة العائدين من لبنان: الحادية عشرة والربع ليل أمس، بثت إذاعة دمشق الخبر الآتي: «وصلت الى دمشق

في الثامنة والربع مساء اليوم طليعة الوحدة العسكرية السورية التي كانت في منطقة مطار بيروت الدولي منذ ان لبت نداء الواجب القومي والإنساني وفكت الحصار عن مخيم تل الزعتر ومنطقة المسلخ والكرنتينا. وفي أثناء مرورها في بعض شوارع دمشق، في طريقها الى مقرات مراكزها الدائمة، عبر المواطنون عن ابتهاجهم بعودة هؤلاء الأبطال وتقديرهم للدور القومي والإنساني الذي قاموا به على الساحة اللبنانية في وقف اقتتال الأخوة. وقد عبر بعض جنود هذه الوحدة عن مشاركتهم للمواطنين في بهجتهم وأطلقوا بعض العيارات النارية في أثناء إجتيازهم منطقة دمشق بين الثامنة والربع والتاسعة مساء. وكان تقرر عودة هذه الوحدة ضمن برنامج عمل مهمة الجامعة العربية وبعدما وصلت طليعة قوة الأمن العربية الى بيروت وباشرت مهماتها أمس.»

بثت إذاعة عمشيت ليلاً خبراً مفاده ان «القوات اللبنانية» سيطرت على مخيم جسر الباشا، الا ان مصادر «القوات المشتركة» نفت هذا الخبر مؤكدة ان المعارك تدور على مشارف المخيم.

صرح العميد ريمون إده أمام الصحافيين أنه «ما دام الجيش السوري ضمن قوة الأمن العربية، وما دام ان الجيش السوري في لبنان، فالمؤامرة مستمرة ويمكن ان تزداد خطورة، لأنه كان من المفروض أن يقف القتال لدى وصول طلائع هذه القوة العربية، لكنكم تسمعون قصف المدافع وتقرأون في الصحف أخبار المعارك في ضواحي بيروت وفي معظم الجبهات، وكل ما في إمكاني أن أقوله ان الله وحده أصبح في إمكانه أن يدافع عن بقاء لبنان.»

156
آل هاينيكن 7 – الطابق السادس

إقتحام مخيم جسر الباشا أرهق الدكتور إدغار معلوف. انتشر الألم في

عضلات ساقيه وظهره. كأنه أتى ركضاً تحت الرصاص من الجامعة العربية (الكولا) إلى حيّ العبد. قضى أياماً مكوّماً على نفسه في زاوية الملجأ مع عائلته. الليل والنهار. أشنع حزيران في حياته منذ حزيران ال67. أوشك القصف الشديد أن يطمرهم أحياء تحت حجارة المبرومة. فوق ألمه الشخصي وألم عائلته وجيرانه شعر بألم الذين يُقتلون في هذه الساعة. منطقة القتال (المخيمات) مفصولة عن هضبة الأشرفية بنهرٍ رفيع تشح مياهه صيفاً. يتعرج نهر بيروت منحدراً من الجبال ويصب في خَليج الكرنتينا. بين تلال النفايات. ملأته الحرب جثثاً. ردمت نصفه بركام الأكواخ. الدكتور معلوف متعاطف مع القضيّة الفلسطينية (حق العودة لشعب طُرد من أرضه). كمعظم أبناء جيله حطمته الحوادث. وجدها خارجة على التقاليد والأعراف. لا تفيد أحداً. لم يكن ساذجاً. لكنه اعتبر الحرب دوماً نشاطاً حيوانياً لا يليق بالبشر. الوجوه أنهكته. لم يفهمها. كانت ملامحهم متبدلة. لا تدل الى موقف واضح أو شعور نفسي نقي. أحياناً يشعر بالآخرين مثله. لكن حين يبدأ أحدهم بالحركة جيئة ذهاباً في الملجأ وهو يوشك على لطم الكراتين ينتبه أنه غير محق. أطلّ مسلّح آتياً من الخارجِ رائحته بارود وشمس. كان يقهقه ويقول ان النار تأكل ناس جسر الباشا أكلاً. سمع أحدهم يصفق ويصفر. أغمض عينيه. قاوم الدوخة. لئلا تخرج معدته من فمه.



في المكتب نظّم الجوارير. أبعد ما لا يلزم. زوجته أعدّت له كوب يانسون. ووقفت دقيقة وراء الكرسي بيدٍ على كتفه. ودّ أن تغادر بسرعة. يكره لحظة الشفقة. التعاطف يختلف عن الشفقة. حين ذهبت الى المطبخ انتبه ان حرارته عالية (مع أنه أخذ حبّتي دواء) وأنه يظلم زوجته بلا داعٍ. أراد أن يحلّل مشاعره لكن نظرته تاهت على الأوراق.

❋

مجلة «أبحاث» الأسبانية. عدد الخريف. 1974. أرسله له مدير المعهد الثقافي الأسباني في بيروت صديقه بريميتيفو مرتينث ماتيو. لغته الأسبانية محدودة. لكنه يقرأ العناوين والأسماء بسهولة. مادة «أسبانيا» المنشورة في «دائرة المعارف» (المجلد 11) حرّرها لغوياً. كانت مهمة شاقة (صفحة 165 الى صفحة 348). الجغرافيا الطبيعية. الجغرافيا البشرية: تعدد الأعراق، الأقاليم وميزاتها، الحياة الإجتماعية. الجغرافيا الإقتصادية. النظام والمؤسسات. التاريخ. اللغة الأسبانية وآدابها. الفنون. استعان بزميل أسباني (د. بدرو أراندا) لتدقيق المراجع وضبط عناوينها إملائياً. قضى ليلة كاملة في حذف حرف «قد» المرشوش رشّاً على الصفحات. بعد كل «كان». قال على سبيل الدعابة شيئاً أمام الدكتور فؤاد عن هذه المسألة فطلب منه أن يكتب بحثاً في قواعد استعمال «قد». كان الدكتور البستاني يُهذّب «منجد الطلاب» (دار المشرق- لبنان) في تلك الفترة. «أنا لست عالماً لغوياً»، اعتذر الدكتور معلوف. بدا تواضعه صادقاً: «إذا حاولت لن أكتب أكثر من عشرين سطراً». ابتسم الدكتور البستاني: «حاول. قد تكتب أكثر.» لم يحاول لأنه يكره الفشل. كان مخططاً بارعاً بقدرات تنفيذية غير مصقولة. في العشرينات من عمره (ثم، للأسف، في الثلاثينات) حلم أن يؤلف قبل عتبة الأربعين كتاباً مهماً. عندما دخل العقد الخامس بلا كتاب خفّض سقف طموحه قليلاً: «ذات يوم قد أكتب كتاباً مهماً. إذا سمحت الظروف.»

*

الأفكار جاهزة في رأسه. لا تحتاج إلا الى تنظيم. وربط في سياق. من البداية الى النهاية. لكن الوضع الأمني يعرقل كل شيء. يفسد القدرة على التركيز. الرائحة حاجز آخر. لا يدري كيف يعمل الدماغ وسط هذا الجو. قَبِلَ من العائلة (المشورة أساس الحُكم) وجلب شغيلاً أزال أكياس الرمل عن نافذة الغرفة في نهاية الممر. بيت البروفسور هاينيكن لا يشرف على نهر بيروت. لأنه في هذا الجانب من البناية. لكن الممر يستدير في طرفه. وهكذا

تجد نافذة يتيمة مشرفة على أرض كانت من قبل ساحة المعركة. ندم على إزالة الساتر. حتى قبل أن تهجم الروائح باشتداد حرارة الصيف وهبوب رياح الخماسين. ما وراء النهر صار مقابر جماعية موبوءة. عدد كبير من القتلى سقط قبل الإقتحامات. مئات قضوا بالقصف أو بالمرض. في ظروف الحصار الصعبة دُفنوا عشوائياً بلا تجهيزات كافية. بعد سقوط النبعة (6 آب) ثم مخيم تل الزعتر (12 آب)، مرّ وقت قبل أن تتعاظم الرائحة. حين بدأ التفسخ اللامرئي هبّ الهواء وحمل الأبخرة. الدكتور ادغار معلوف خاف أن يختنق. عندئذ سدّ النافذة. شاحنات الكلس التي أخذوها إلى هناك مرّت في الحيّ وتركت خطّين أبيضين على طول الشارع الأسود. لكن لا الكلس نفع ولا الزفت بعد ذلك. كان يسرع الى الحمام ويغسل وجهه طويلاً. يتمخط بعنف في المغسلة ويغسل شعيرات أنفه. ينفخ من جديد ويستعمل الصابون البلدي وصابون «زست». وتبقى الرائحة. صار يشمّ يديه بعد الغسل والتنشيف ويعبس متألماً. فاحت الرائحة من الأطباق ومن حنفيات الماء ومن شراشف السرير ومن قمصانه. خاف أن يكون هذا مقدمة لإنهيار عصبي. يعرف أن الأمر ممكن. أعصابه لم تعد قادرة على تحمل الضجة. الإنفجارات لا تتوقف. قصف مدفعيّ متواصل بين الشرقية والغربية. ألا يسمعون في «إذاعة لندن» هذا الدوي؟ واذا راقت نهاراً وسكتت المدافع جال المسلحون في الحيّ يقوصون إبتهاجاً. وأمامهم وخلفهم رانجات تحمل مكبرات تبث الأناشيد الحماسية. على أعلىّ صوت. ليلاً نهاراً. واذا لم تأتِ مكبرات الصوت يحتفلون في نزلة المبرومة: يرفعون أصوات المسجلات ويجلبون غجراً. يدقون الطبول والدربكات فلا يغمض له جفن حتى شروق الشمس. لحظة يغفو يهاجمه البرغش. يعقصه في أذنه. تحوّلت البورة القريبة الى مزبلة. اعترضوا وأتت شاحنة البلدية. أزالت النفايات ووضعت براميل زبالة. لكنها بعد ذلك لم ترجع لإفراغ البراميل! في يوم واحد امتلأت وفاضت. تكومت الأكياس على الرصيف. صارت المزبلة أقرب وقانونية والكلّ يقصدها. ناس الحيّ. كذلك القطط. والكلاب. تكاد أن

تسدّ مدخل البناية. تلفنوا وذهبوا وطالبوا. صارت البراميل تُفرغ كل يومين. أقرّت «الهيئة الشعبية» خطة تنظيف شاملة. بيك اب يحمل خزاناً مملوءاً بدواء مذاب في الماء انحدر بطيئاً في النزلة وهو يهدر. المحرك أصفر اللون، وقوده مازوت، يهتز في الخلف. سحابة المطهرات ومبيد الحشرات تنتشر في غيمة واسعة. تأخروا في إقفال باب الشرفة ودخلت الغيمة واجتاحت المطبخ. سعلوا وتجنبوا أن يتنفسوا السمّ. لم ينزعج الدكتور لأن البرغش والذبّان قلّ بعد ذلك. طوال أيام. ثم فقست بيوض جديدة. حين تلفن إبنه الكبير ادوار من غرفته المكيّفة الهواء في «الأم أي تي» وأخبره أن ساحل أميركا الشرقي (ايست كوست) يشهد موجة حرّ ورطوبة غير مسبوقة هذا الصيف، أوشكت الدموع أن تهطل من عينيّه. مسح الدكتور أنفه. لمح أثراً أحمر خفيفاً على الكلينكس. سأله ادوار هل يستطيع أن يرجع الى لبنان في زيارة قصيرة الآن بما أن المعارك توقفت داخل الشرقية؟

*

«مكب العمروسية الحديث لتجميع النفايات وتكريرها» يقع في جوار مطار بيروت. تعطّل بالقصف. حين فتحوه من جديد لم يستقبل النفايات الآتية من المنطقة الشرقية. حواجز كثيرة تعترض الشاحنات. قوة الأمن العربية لا تكفي للحماية. السلطات المحلية أقرّت خطة طوارىء لتنشيط مكب الكرنتينا وتوسيعه. قبل أن ينتهي شهر آب (أغسطس) ارتفعت تلال الزبالة. تحولت الى جبال. على «إذاعة صوت لبنان» قابلوا صيادي سمك أكواخهم هناك، على حافة خليج الكرنتينا. قالوا انهم على إستعداد لتحمل الرائحة الآن، هم وأهالي برج حمود، لكن ماذا سيحدث في الشتاء حين تجيء أول موجة ويفرط الجبل من أسفله وتغمر الزبالة بيوتهم ومرفأ القوارب؟ هل ستعوض عليهم الدولة في تلك الحالة؟ أين الدولة؟ أين الرئيس؟ وأين السمك؟ الزبالة لوّثت البحر. والسمك يختنق ويموت من أكل النايلون.

*

شكّل الراديو مصدراً آخر لتوتر أعصابه. في البيت يقدر أن يتحكم به لكن ماذا يفعل في الملجأ؟ كافح من أجل سلامته العقلية. تعاظم الضغط وهو يقاوم. أثناء وقف إطلاق النار ذهب الى كلية القديس يوسف. جلس في المكتبة ثلاث ساعات وحيداً يتفحص مراجع. شعر بهدوء اشتاق إليه. في طريق العودة أخذه سائق السرفيس في دورات غير مفهومة، وبدل الوصول الى بناية أيوب في ربع ساعة وصل بعد ساعة ونصف. لم تكن الكارثة كل هذا التبديد للوقت، بل مرور السيارة في أمكنة لا يريد أن يتذكر أنها موجودة. شاهد البيوت مدمرة أو محروقة. والأولاد ينتشرون بين الأنقاض ويجمعون قضبان الحديد. الدخان ارتفع في أعمدة. رأى سقيفة زنكو تبنى وسط الركام. لم يفهم من سيسكن هنا. السائق قرأ الحيرة على ملامح وجهه وأعلمه أن هذا مسلخ جديد لذبح الماشية. دلّه باصبعه الى باخرة راسية قبالة جبل الزبالة. «ألا تشمّ؟ هذه أبقار من البرازيل.» حين انعطفت السيارة بانت هنغارات حديد وشاحنات مزودة ببرادات ومساحة مسوّرة بشريط شائك ملأى بالأغنام المربوطة والعجول التي تخور خواراً طويلاً بلا نهاية. عدد لا يحصى من الجزّارين تحرك مع سواطير بارقة في الشمس، فضّية وحمراء. كانت وجوههم بعيدة، معتمة. قبض الجليد على دودة ظهره.



في مدخل البناية التقى السيدة مدلان صعب. كانت تنظر الى ورقة جديدة معلقة جنب صور الشهداء والمفقودين. فوق صورة الناطورة وهي فتاة شابة. بادل السيدة مدلان التحية. لكنه لم يتوقف كي يتكلم معها. قالت له وهو يطلع على الدرج انها دعوة إلى قداس وجناز على راحة نفس المرحومة مدام أنجيل ريشار خوري كرم التي كانت ساكنة حيث بيت طانيوس الآن على الطابق الخامس. استدار مضطراً بعد هذه الديباجة. رسم ملامح الأسى على وجهه. عزّاها بها. «البقية بحياتكم.» هزّت رأسها ولم تخبره أنها أصلاً لا تعرف الفقيدة التي قضت قبل شهور. ولم تشرح له ان آل كرم غادروا

«المبرومة» الى عبد الوهاب الإنكليزي قبل أن ينزحوا هم (آل صعب) من حيّ القنطاري الى الشرقية.

*

على صحن الطابق الأول سمع شيئاً ينكسر داخل بيت يعرف أنه مسكون لكنه لم يرَ أهله قط. لا المرأة المشلولة رآها ولا إبنتها الممرضة في أوتيل ديو. كان يلمح إمرأة أحياناً، رياضية الجسم، تمرّ بسرعة خارجة أو داخلة من البناية. لم يتأكد هل هي نفسها ليديا ثابت أخت الشهداء المطلّقة، أم إمرأة أخرى تسكن البناية أو تزور أقارب. التبس عليه الأمر لأن المرأة المذكورة لا تلبس ثوب التمريض الأبيض. استغرب أنه لم يرَ أياً من الإثنتين ولو مرة واحدة في الملجأ. كلّما عبر هنا، أمام الباب بالخربشة على ورقة الجرس، تخيّل المشلولة دائخة في الظلام على كرسي يدور في مكانه بلا توقف. قبل أن يبلغ صحن الطابق الثالث ارتطم بالسيد اسحاق عطية على لفّة الدرج. تبادلا الإعتذار والإبتسامات. سأل أحدهما الآخر عن صحته وصحة العائلة. شعر بالتوتر يشوب صوته. لم يعرف هل شعر السيد عطية أيضاً. «سيصلحون المصعد»، قال اسحاق عطية. من باب موارب على الطابق الرابع خرجت رائحة قرنبيط. زيت قلي. وطرطور. وأصوات بنات. كان إنزعاجه بالغاً الحد الأقصى. حين دخل البيت مكفهراً محتقن الوجه خافت زوجته أن يكون تعرض لإهانة في الشارع. وقفت مذعورة تنتظر أن يخبرها ما جرى، لاعنةً في سرّها مار يوسف وكلّية مار يوسف.

*

خلع ثيابه وتحمّم طويلاً. لم تذهب الرائحة. كان الصابون يغطيها بعطر رغوته. ثانية فقط. جزء من دقيقة. ثم ينزل الماء من الدوش. وما ان تتبدد الرغوة حتى ترجع الرائحة. لم يبكِ. نشف جسمه جيداً. ثم لبس بيجامة نظيفة، مغسولة ومكوية، رائحتها برش صابون. في مكتبه، جالساً الى فنجان

الشاي المألوف، بين كتبه وكتب البروفسور، استعاد بعض الهدوء. دخلت زوجته تحمل على صحن فضي عود بخور يشتعل ويتضوع عطره في الأرجاء. شكرها وطلب منها أن تتركه في الباب. أخبرته أن كل سكان الحيّ يبخّرون الآن. نقلت له كلاماً سمعته من الستّ جورجيت بدّور زوجة اللحّام على الطابق السابع. حاول ألا يسمع كلماتها ثم انتبه أن هذا الكلام يجوز أن ينفعه: اذا كانت البناية كلّها متضايقة من الرائحة التي تجيء مع هبوب الخماسين فهذا يعني أنه ليس مريضاً في عقله!

157
آل عطية 8 – الطابق الثالث

أول شخص في بناية أيوب ضايقته الرائحة كثيراً لم يكن الدكتور إدغار معلوف. راشيل عطية الواقعة في حبّ ولده جوزف انتبهت قبله. باتت تتشوّق الى الوقت الذي تقضيه وحدها تحلم وتفكر. تفتّحت عليهما عيون «المبرومة» وصار اللقاء أصعب. اكتشفت أنها تفضل البقاء مع جدتها المريضة بدلاً من النزول الى الملجأ. «تحت» تُمنع من الحكي معه وتزجر إذا جربت المشي باتجاه زاويته البعيدة. والدتها، هدى عطية، لم تحارب هذا الميل الجديد الى البقاء في البيت وقت القصف. وجدتها عوناً لها. وضعت فرشة في الملجأ. احتلّت نقطة استراتيجية ترصد نقطتين معاً: الزاوية الخاصة بآل معلوف ذات البرداية الخضراء، ومخرج الملجأ.

❋

أين زُرعت بذرة حبّهما؟ في الملجأ. أين نما واخضرّت أوراقه؟ على أدراج البناية. متى؟ ما بين نيسان 1976 ونهاية فصل الصيف. من حسم أمره أولاً وباشر التقرب من الآخر بالإيماءات ثم بالحكي؟ راشيل. من تردد واحمرّ وجهه وطأطأ رأسه كأنه يخجل بقامته الممشوقة؟ جوزف. أي

شخص في «المبرومة» انتبه قبل الباقين إلى هذه العلاقة؟ سليمان شرارة. لن يخبر أحداً وسيبقى السرّ معه، محبوساً مثله، في مكان مقفل.

❋

كانت نقطة اللقاء الأنسب: صحن الطابق الأول. آل زخور في فرنسا. آل ثابت بابهما موصد طوال الوقت. المشلولة تبدو شبحاً غير موجود. لا تُزار ولا تزور. راشيل عطية تتذكر شكلها، لكن جوزف معلوف لم يرَها مرة واحدة في حياته.

❋

سرعان ما ذاع السرّ لأن الدرج لا يصلح عشّاً. الست طانيوس بدأت تتبسم لهما، حتى حين تلتقي كلاً منهما على حدة في طبقة مختلفة من البناية. الست عازار أيضاً: تعمدت الوقوف أكثر من خمس دقائق مع راشيل على الدرج بين الثاني والثالث تكلمها في أشياء غير مهمة ويبدو أنها تؤلفها الآن فقط كي تطيل زمن الحكي. جوزف الذي ينتظر في الأسفل وصلته نتف من الحديث. لم يكن مهماً. جوزف حدس من النبرة أن الست أم سعيد خبيثة وتعرف أنه تحت ينتظر.

❋

حين جاء آل ليفي صار الإستحمام الطويل مسألة أصعب. كانت تعشق المغطس والتمدد زمناً في الماء تحت الرغوة. وحدها تحت الماء، كأنها تحت البحر، تشعر به معها. تغمض عينيها وترتقي الى الرابع (بيت رزق) ثم الخامس (بيت زيدان) ثم السادس (بيت جوزف). كانت تعرف مكان غرفته مع أنها لم تدخل البيت. غرفته في موقع غرفتها. البيت نفسه يتكرر في الهندسة الداخلية من الأول الى السادس. المطبخ في النقطة ذاتها. والممرات. كذلك الحمام الفرنجي والحمام العربي. والشرفات وأبوابها. وأزرار الكهرباء. صارت تعرف البيت فوقها بعد أن تصادقت مع رولا وسارة.

قبل ذلك عرفت البيت تحتها لأنها زارت عائلة ألبر وريما سمعان مع أهلها وأكلت عندهما المغلي الشهي مغطى باللوز والصنوبر وبرش جوز الهند. حملت الطفل الذي ضحك لها. شعرت بالسحر وهي تدخل بيتاً كأنه بيتهم. لكن غيرهم يسكنه! نسخة طبق الأصل في تقسيم الغرف. لكنه يختلف في الأثاث وتوزيعها. تحت الماء، في المغطس، حلمت بالذهاب الى مكان بعيد حيث تقدر أن تبقى وحدها معه، دائماً، من دون أن يزعجهما أحد. متمددة في القعر غابت الإنفجارات البعيدة. تخيلت الشاطىء الرملي. والبحر الأزرق. والشمس على جسمها. وجسمه. تخيلت حبيبات الرمل الساخنة. مغمضة العينين شعرت بأعشاب البحر تلامس فخذيها. أرادت أن تداعب شعره. أين هو الآن؟ في الملجأ أم في البيت؟ بالتأكيد في الملجأ. تعرف أفكار أمّها. غرفته فارغة. أخبرها أن سريره عند النافذة الشرقية. حيث الخزانة في غرفتها. تخيّلت سريره والشرشف والغطاء. رأت أغراضه على طاولة. رأت مخدته. كانت تريده معها. هنا. في هذا المغطس. ولأن هذا مستحيل ولن يحدث بكت وشهقت وخرجت بوجهها من تحت الماء. عندئذٍ فقط أدركت أنها كادت أن تختنق. لا بسبب قلّة الهواء. لكن من الرائحة.

*

على الراديو قالوا ان التدابير التي أتخذت لطمر الجثث ستتكفل بمنع إنتشار الأمراض والروائح. في حيّ العبد الواقع على سفح الأشرفية والمطل على المنطقة المحروقة عانى الأهالي مع كل هبّة هواء. زاد الوضع سوءاً وقوع الإقتحامات في فصل الصيف. واشتداد الحرارة. ثم هجوم الخماسين. حين بدأ الوضع يتحسن بعض الشيء في «نزلة المبرومة»، مطلع أيلول (سبتمبر)، بعد مطرة أولى سبقت بأيام عيد الصليب، قالت الست هدى عطية لزوجها ان حظهم «تحت» أحسن من حظنا لأن الرائحة عندهم صارت أخف. بدا أن الهواء يرفع الرائحة الى فوق، الى الطبقات العليا. والدليل على ذلك أن الشكوى التي لا تنتهي تصدر من الست عازار ومن الست بدّور ومن الست

الجديدة النازحة من رمل الظريف الى شقة الخادمات على الطابق السابع، الأرملة مدام داغر.

158
آل الحويك 15 – الطابق السابع

برع يونس في الميكانيك. أظهر مهارة نادرة وسرعة في التعلم. رووا في الحيّ أنه تفوق على معلمه نازو. قبل ذلك، في زمن المدارس، قالت أخته سابين انه يحصد أعلى العلامات في صفّه إذا حطّ عقله في رأسه. كان هذا يحدث بالفعل بين آونة وأخرى. ثم يملّ من الدروس ويوشك أن يرسب. حين يلمع ويجلب مسابقة بعلامة 20 على 20 يقول أبوه: «ذكي مثل عمه، الصبي.» وتقول الأم:» ذكي مثل خاله بشارة». حين ينال علامة تحت المعدل (12 في المواد العلمية و10 في الأدبية) يقول الأب: «إبنك يونس مزاجي سويعاتي مثل أخيكِ بشارة يا كميلة.» الأم التي ينقصها الخبث ولا تملك قدرات سوّاقي التاكسي في السبّ والذم تسكت عندئذٍ وتبدو مغتاظة. في زمن الحرب، ومع تكاثر الجيبات العسكرية والرانجات، تخصص يونس فيها حتى صار خبيراً. المقاتلون الذين يخرطشون السلاح على الطالع والنازل، بسبب أو بلا سبب، جلسوا مع «الميكانسيان» الفتي على الصناديق المقلوبة يشربون معه المرطبات التي اشتروها ويتملقونه كي يتجاوز الدور ويصلح لهم عرباتهم قبل الباقين. كان يملك أسرار الماكينات. مثل الخيميائيين في الأزمنة القديمة حوّل الحديد ذهباً.

❋

المعلم الأرمني نازو اضطهده في البدء. حين انتبه أنه دجاجة تبيض ذهباً خفّف التهجم عليه وبدأ المسايرة. قال للأب بولس الحويك أن ولده جيد ولو كان عنيداً أحياناً. لم يكتشف أبو يونس مهارة إبنه إلا بعد أن سمع بالناس

الذين يقصدون الكاراج من أحياء بعيدة. كان عليه أن ينتبه من قبل لأن الصبي أصلح سيارته المرسيدس مرات لا تعد. اعتقد أبو يونس أنها أعطال سهلة يشخصها ويصلحها أي ميكانيكي. لم يتوقع أن يخرج من صلبه ولد يشتهر في حيّ العبد والجوار.

*

في تموز (يوليو)، حين جلب إلى بيتهم موظف من «الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات» ظرف النقود الذي أرسله أخوه ميشال من مجدليون عن طريق بشارة، لم يكن بولس بحاجة ماسة إليه، كما هي العادة. منذ زمن طويل يساعده أخوه في المصروف من دون أن يطلب منه. في الفترة الأخيرة بات المال الذي يجنيه يونس غير قليل أبداً. كان يشتغل «برّاني» من وراء ظهر المعلم نازو. شكّ الأرمني القوي البصر في الأمر. تجنب المواجهة لئلا يخسر الدجاجة.

*

لم يتصل بشارة. بال كميلة ظلّ مشغولاً. لم يفهم بولس ماذا بها. ما داموا قالوا انه بخير ومقيم عند صاحبه في صور فهذا يعني أنه بخير.

«أريد أن أراه. أريد أن أسمع صوته.»

غادر منزعجاً من النقّ. في السيارة، بينما ينقل ركاباً داخل حدود الأشرفية، شعر بالحزن عليها. إحدى النساء طلبت منه توصيلها إلى «التحويطة». تردّد ثم تركها تصعد. تحيّر أي طريق يسلك وسهّلت عليه الإختيار (أو أنه اعتقد ذلك). تبع نصيحتها. كانت الشمس لاهبة كأن الماء يغلي على الطريق. بان سراب يتلألأ على الزفت ثم تلاشى. وجد نفسه في أماكن يفضل ألا يدخلها. دار دورة وضاع بين أزقة تغيرت عليه لأن الأشياء في الحرب تتغير بسرعة. حذّرته بعد فوات الأوان. ولج طريقاً مسدوداً. غيّر الفيتاس كي يرجع الى خلف لأن الاستدارة مستحيلة هنا. قبل أن يرفع قدمه عن الدوبرياج ويكبس

البنزين رأى أم يوسف الناطورة تختفي عند الزاوية. لم يعرف ماذا أوصلها الى هنا. لعلها ما زالت تبحث عن إبنتها. كميلة أخبرته أنها صعدت الى بيتهم وهو غائب وطلبت من إبنته سابين أن تكتب لها على ورقة جميع عناوين البيوت التي كانت كوليت تعلم فيها. الناطورة لا تقرأ فماذا ستفيدها العناوين المكتوبة؟ سألته المرأة هل تعطلت السيارة؟ كبس البنزين وخرج من الزقاق. بعد أيام لمحها مرة أخرى منحدرة عند المسمكة. كانت تعرج قليلاً. أشفق عليها وتوقف.

«أين أوصلك يا أم يوسف؟»

نظرت إليه الناطورة كأنها تنظر الى أي شوفير تاكسي. لعلها لم تسمعه يلفظ إسمها. كانت نظرتها زائغة، وملامحها تائهة كأن وجهها لم يعد وجهاً، كأن الغبار ودخان المازوت يُسيل شكل وجهها. أواخر تموز. لم يكن آب بدأ بعد. حين فُقدت بعد إقتحام تل الزعتر استرجع بولس الحويك ذلك اللقاء أمام المسمكة. شعر بالحاجة إلى أن يحكي لكميلة عن ذلك. كانت نازلة على طريق النبعة كما سمع من آخرين في البناية أنها تفعل. تدخل أماكن خطرة فيها معارك. تقرع الأبواب وتعرض صورة إبنتها على كل شخص تراه في الشارع. أخذت معها إبنة الصيدلي راجي عازار أكثر من مرة. بولس الحويك نبّه زوجته كي تمنع سابين من مغادرة الحيّ. في المساء، وهو يدخل الى المبرومة مرهقاً بالحر عرقان الثياب، كان يلمح إبنة الناطورة، فريدة، تكنس أو تمسح أو تخرج بعض الأغراض من الملجأ أو تحمل دلو ماء كي تغسل الواجهة الزجاجية لمعرض الأدوات الكهربائية. يلقي عليها تحية المساء. لأنها مسكينة. وتردّ وهي تحني رأسها إحتراماً. يرى حركة فمها ويسمع همسة. كأنها خرساء. صاعداً على الدرج يشعر بالإنزعاج ويتمنى ألا يلتقي بها ولا بأمها. حين يبلغ الثالث أو الرابع يتوقف لحظة كي يرتاح خائفاً على قلبه. عند السادس تتعبه لهثته. المصعد ساكت جامد يغيظه مثل شتيمة أو لطمة على جرحه. أخيراً، في صحن السابع، يسمع مرغريتا. طفلة بيت عازار التي تبنوها. تنادي من

داخل الباب المفتوح كأنها عرفت بوصوله. أصوات ملائكية لا تُفهم، لكن القلب يرقص لسماعها. ينسى النهار والشمس والعرق. ينسى المفقودين وساعتهم. يبتسم. يتلكأ لحظة لعل الطفلة تدبّ إلى الخارج.

159
آل زخور 16 – الطابق الأول

أكثر من مرة، وهي في مكتبها في مركز غولبنكيان للفنون (باريس)، التقطت فيرا سرسق زخور سمّاعة الهاتف وأوشكت أن تطلب رقم مستشفى أوتيل ديو (بيروت). كانت تحفظه ولا تحتاج الى دفتر التلفونات. ذات ظهيرة تأملت رقم ليديا ثابت (المنزل) ثم عادت الى مراقبة الغيوم خارج النافذة. خلال شهر حزيران (يونيو)، حين سمعت على التلفزيون الفرنسي أن السفير الأميركي في لبنان فرنسيس ميلوي خُطف وقتل مع مستشاره الإقتصادي وسائقه وهو ذاهب لتسليم أوراق إعتماده الى الرئيس اللبناني المنتخب الياس سركيس، تذكرت نفسها خارجة في الظلام ليلة بعد أخرى من مستشفى في الأشرفية الى أوتيل مجاور. رأت صورتها منعكسة في باب زجاجي. ارتعشت وهي تطرد الذكرى إلى أبعد زاوية في الدماغ. كانت تحلم أحياناً بحبّة سحرية تزيل جزءاً من ذاكرتها وتترك فقط ما تريد هي أن تحفظه في دماغها. انتبهت حين نزلت في مطار فرنسا أنها نسيت في بناية أيوب ذكريات ثمينة (إبريق خزف مجلوب سنة 1966 من الصين؛ تحفة فارسية؛ لوحات زيتية؛ كنبة مريحة قرأت عليها بالفرنسية «مئة عام من العزلة» و«موت في البندقية»). الكنبة صعب شحنها. والإبريق؟ والصحون الشيرازية الزرقاء؟ والقماقم البلور التي تحوي سفناً منمنمة؟ كانت دائماً تتساءل هل تفعل هذا قصداً. هل تتعمد ترك أجزاء منها في أماكن بعيدة يجوز أن ترجع إليها ويجوز ألا ترجع أبداً؟ عندما تزوجت فعلت الأمر نفسه. نصف مكتبتها

تركته في قصر أهلها. خلال فترات التباعد العاطفي بينها وبين عيسى سألت نفسها كيف تكون حياتها من دونه؟ أفضل؟ أسوأ؟ كانت تملك هذه القدرة: التفكير الجريء في قصص مختلفة لحياتها. حين أصيب ريمون لم ترَ كيف تحطمت. الرؤية وأنتِ في قلب العاصفة مستحيلة. لكن بعد الرجوع من بيروت الى فرنسا وإبتعادها التدريجي إلى زاويتها الخاصة من جديد بدأت تلاحظ الآثار التي خلّفتها نار الهوليداي إن فيها. لم يحترق ريمون وحده. احترقت منها أجزاء غير مرئية. على قفا يدها بانت نقط بنية. تجعّد الجلد. لا الكريم (هيلينا روبنشتاين) أزال التجاعيد ولا مزيج الخيار والعسل. صاحبتها الهندية أعطتها وصفة قديمة فيها لبن وكركم. استعملتها ولطخت مناشفها باللون الأصفر. لكن النقط ظلّت. قاتمة. باثنة. تنذر بالآتي. انتبهت وهي تستلقي جنب زوجها كيف تحرك يديها بحيث لا ينتبه الى النقط المستجدة. انتبهت أيضاً في المطعم. وبينما تسكب القهوة. كانت تكره أن تكبر. اعتقدت أن هذا ليس عدلاً. لماذا تكبر قبله؟

*

شعرت بهذا مرة أخرى على شاطىء النورماندي. رأت نادين تخرج من الماء كالحورية. مذهبّة. أبعدت نظرتها إلى الأفق. شعرت بالنار في عينيها. دام ذلك هنيهة. رمشة عين. لكنها لم تنسَ.



العمل أعانها من جديد. كانت خططها تثمر. حظيت المعارض التي نظمتها بتغطية إعلامية ممتازة. جلست ذات مساء في غرفة إبنها وسألته هل يفكر في إكمال دراسته الجامعية. دخلت عليه بمعنويات مرتفعة. في الفترة الأخيرة حققت إنتصارات. ترقت في الوظيفة. صارت مسؤولة عن 14 موظفاً. وأبعدت منافساً. لكن أهم من هذا: تلقت عرضاً من مركز جورج بومبيدو (باريس- الدائرة الرابعة). لن تبدأ الآن. ويجوز ألا تقلع العملية.

فريق العمل ما زال في طور التشكل. لكن العرض بحد ذاته شكل إنتصاراً آخر. في غرفة ريمون التي تفوح برائحة الدواء والمراهم، بدأ الهبوط التدريجي. نظر إليها بعين سليمة وأخرى زجاجية. لم يقل شيئاً. حاولت أن تفتح الموضوع من جانب آخر. كانت ماهرة في طرح المشاريع بطرق ذكية جذّابة واستهداف نقط محددة والتغاضي عن غيرها من أجل الوصول إلى نتيجة سريعة. كل من عمل معها وجدها بارعة. لكنها في البيت - في حياتها العائلية- اكتشفت مرارة الفشل. لم تفهم السبب يوماً. كيف يستطيع زوجها أن يبتعد ويسافر ثم تعرف من آخرين أنه كان مع إمرأة في بون (ألمانيا الغربية)؟ لماذا لم تقل له انها عرفت عند عودته؟ كيف تقدر نادين أن تضع هذه المسافة التي لا يمكن قطعها بينها وبين الجميع؟ لم تتمكن يوماً من فهم التوأمين. لم تفهم سرّ العداء بينهما. والآن، بعد أن حدث ما حدث، لا تفهم التقارب الغامض الغريب. كانت تراهما قاعدين بلا صوت، نادين تقرأ أو تسجل ملاحظات من أجل اطروحتها وهو ينظر الى البحر ويسمع أغنيات لا تسمعها. وجدت نفسها مطرودة وراء الزجاج بعيدة من زهور البوغونيا تسقط الشمس على بشرتها وتبقّعها بلا رحمة. ذهبت الى الماء وسبحت عميقاً ثم استدارت ونظرت الى البيوت والشاليهات والشرفة المزججة حيث ريمون ونادين. كانت إبنتها واقفة تنظر في هذا الإتجاه. فستان أزرق. ورأت إبنها يرفع يده. على مهل. كي ترى أنه يراها. بلعت ريقها. عسل جارح. صارت بلا إنذار سعيدة.

*

في مقهاه الباريسي المفضل اعتاد عيسى زخور قراءة الصحف ذاتها. استوقفه ان السفير الأميركي فرنسيس ميلوي كان عند خطفه من منطقة المتحف راكباً سيارة شفروليه أمبالا خضراء فاتحة، مصفحة وتحمل لوحة ديبلوماسية رقمها 104. قضم قطعة سابليه. ذابت الشوكولا في حلقه. نفض طحين السكر عن بنطلونه. راقب فتيات أسبانيات خارجات في ضجة

وضحك من جوف المترو. أعلى الدرج الهابط الى تحت الأرض جلس رجل على كرتونة. يشرب من قنينة داكنة الزجاج. ينفخ في ناي. موسيقى شرقية. أسود الشعر. أسود الذقن. ملامحه متوسطية. لكنه لا يتكلم. ألقى نقوداً في علبته أكثر من مرة. لم يعرف جنسيته.

160
آل بدّور 4 – الطابق السابع

أتعبه المدير. تعاطى معه بفوقية. أراد أن يُظهر له أنه برغي صغير في آلة السوبرماركت الكبيرة. ويسهل استبداله. يُلقى على الطريق ويُثبت مكانه برغي آخر. لم يفهم اللحّام أمين بدّور سبب هذه المعاملة. ليس بحاجة الى من يفهمه ما يعرفه سلفاً. كل ما يطلبه أن يبتعد الرجل عن زاويته وأن يدعه يقطع اللحمة (الفتيلة) كما يليق بها أن تُقطع. شهور من العذاب. الأسبوع سبعة أيام. واليوم أكثر من 12 ساعة. وحتى في القصف لا يعطل. وظيفة المدير الفعلية: إزعاج من هم تحته. لأنه بلا عمل! هل يذهب هو إلى مكتبه القزاز ويعلّمه كيف يحسب الزيادة على أسعار المعلبات؟ هل «يتفوضل» عليه بكلام بلا معنى؟ هل يقلب فواتيره كما يأتي هو ويقلب سكاكينه؟ كره المدير وساعته. كره كرافاته ونَفَسَه الذي يفسد اللحم. كره خواجات السيوفي الذين يشترون «موزات غنم» من سوبرماركت، ويأخذون العظام مجاناً، لكلابهم، وليس «تعظيمة» لليخاني أو الشوربة، بينما غيرهم يجوع. كره الأبنية الباطون المتراصفة بنوافذها الألومينيوم، وكره الثغرة بين العمارات يلوح منها مخيم تل الزعتر: ركض لئلا يقضي برصاص القنص. عابراً بعد قليل أمام «حلويات زيدان وأولاده» بلع ريقه. قرر ماذا سيفعل. في مدخل المبرومة تهيب المواجهة الآتية. على الدرج الصاعد إلى السابع قال لنفسه «أنا أخبر منها!». استقبلته ضحكات الطفلة تهزّها كلوديا عازار على ركبتها.

وقف قليلاً وتكلم معها. من بيت الأستاذ أندريه موراني أطلّت البنت التي نادراً ما سمع صوتها. سألها عن أبيها. ارتاح هكذا دقائق قبل الدخول. دفع الباب الموارب. شمّ رائحة فاصوليا على النار. كان يحبّها. استبشر خيراً. أعلم زوجته بقراره قبل أن يجلس الى الطعام. كان ينشف يديه ووجهه. أصغت بلا إعتراض. كانت تعرف ما في صدره سلفاً. بدأ يبحث عن دكان مقبول في حيّ العبد كي يستأجره ويفتح فيه ملحمة.

161
آل موراني 6 – الطابق السابع

«جلب مروحة ووضعها في غرفتي. يحمى السطح خلال النهار. قبل الغروب يصير البيت فرناً. إذا تركت صحن اللبنة نصف ساعة على الطاولة يحمض ويصفر لونه. لا تفيد المروحة كثيراً. الكهرباء مقطوعة معظم الوقت. تأتي خمس ساعات كل يوم. أو أقل. نتجنب فتح البراد. نشرع الباب على الدرج فيأتي هواء. البيوت الأخرى هادئة. فتحوا المدرسة قرب كنيسة السيدة. للصفوف الإبتدائية والمتوسطة. هكذا لم يعد صحن الدرج ملعباً. إلا بعد الظهر.

❋

سألتني دارين لماذا لا أخرج معها ومع لينا طانيوس وصديق لينا. «سنبقى هنا في الأشرفية.» قالت ذلك وهي تعطيني ظهرها. «المهم أن تنتبهوا. ولا تتأخروا.» كان يحاول إصلاح التلفزيون. صار معتم الصورة بعد جولة القصف الأخيرة. لعل لمبة احترقت في قلبه وهو يهتز. لم أكن أريد الخروج. لبست بنطلون جينز أزرق وبلوزة كحلية. ونحن ننزل على الدرج سألتني هل أشعر أنني مريضة؟ لم أفهم ماذا تقصد. هكذا بدأ المساء خطأ. ونحن نخرج من البناية ضربني البرميل في جنبي. أحدهم زاد برميلاً للمتراس.

بقيت خاصرتي تؤلمني طوال السهرة. لينا كانت مع صديقها في سيارته، ينتظران قرب «أمباسي». هوندا صفراء. الغطاء يلمع. صعدت في الخلف أنا ودارين. كانت هذه المرة الثانية التي أراه. وأول مرة نذهب في سيارته. طوال الوقت ينظر في المرآة فوق التابلو كي يرانا وهو يحكي معنا. لينا تستدير في المقعد الأمامي وتقعد جانبياً كي ترانا أيضاً. بلوزة حمراء مخرمة. تنورة بيضاء وسكربينة حمراء. ركبتاها مدوّرتان. مثل دارين كانت تضع أحمر شفاه وتكحل رموشها. حول رقبتها برقت سلسلة ذهب. أخبرتني أنها برج الجدي. عبثت بالقلادة ثم مدّت يدها وربتت على ساقي. بعد ذلك انشغلت بصديقها. نظرتُ عبر الزجاج إلى أضواء المحلات. لم أنزله. لأنه مرفوع. قد أكسر المسكة. أو أجرح يدي. الكهرباء تشعرني دائماً بالحزن. لا أعرف كيف أتصرف في مكان ضيق. أرتبك وأشعر أنني معاقة والكل ينظر إليّ. مع أنهم لا ينظرون إليّ. أردت أن تنتهي الطريق بسرعة. أن ينسوا أننا الآن خرجنا وأن يظنوا أنها نهاية السهرة ونعود. كنت مكبوسة على الباب. وأشعر بألم في صدري وجنبي حيث خبطني البرميل وساقي حيث وضعت لينا يدها. ندمت لأنني خرجت من البيت. تخيلت نفسي على سريري أقرأ مجلة وأسمع موسيقى.»

162
آل حبيب 17 – الطابق الرابع

أوصلتها سيارة التاكسي إلى العنوان. فتحت جزدانها وبدأت تخرج ثلاث وريقات بنّية اللون (فئة الليرة) ثم غيّرت فكرها وسحبت ورقة خضراء (فئة خمس ليرات). ترجلت أمام محلات زهور رأتها من قبل. «الزنبقة السوداء». نظرت الى رجل في ثوب أبيض نظيف كالدكاترة وحذاء نبيذي لمّاع يقف في باب الباتيسري المجاور. على الرفوف المبردة للواجهة تراصفت الصواني

الفضّية. أصناف حلويات فرنسية. إكلير وبسكويت وماكرون. كانت الأشكال غائبة لكنها لمحت الألوان. الدواء الذي يحشو رأسها حجارة منعها من الحركة. احتارت ثم مشت في خط مستقيم. بإتجاه بناية صفراء. قديمة. ثلاث طبقات. زرقاء الشبابيك. نبات أخضر على الشرفات. درابزين أزرق. أمام المدخل الخاص رأت سيارات مركونة وعربة مقفلة تشبه البراد النقال الذي يوزع على المتاجر «فروج ليبول». بوّاب قاعد على كرسي قش قفز من مكانه مرحباً بها. بنطلون كاكي. صباط أسود متقشر في المقدمة. قادها بين صفين من أشجار الأوكالبتوس التي لم تكبر كثيراً بعد، الى الباب الأزرق. كان لطيفاً هادىء الصوت. كأن حفيف أوراق الصفصاف جعله هكذا. أعلمها أن الستّات على الطابق الثاني، الباب على اليمين، «الدكتور فؤاد مزهر». لم تكن معلومة ضرورية لأنها وجدت الباب مشرعاً والسيدات مزدحمات في المدخل يتبادلن القبل والعناق.

*

على التلفون سألت السيدة التي تكلمت معها (مدام برناديت مزهر، طبيبة أيضاً، مثل زوجها الدكتور فؤاد) ماذا تجلب معها، ما هي العادة المتبعة؟

«إجلبي لنا نفسك. وصورة إبنكِ.»

في التاكسي التي حملتها عبر الضباب من حيّ العبد إلى شارع فرن الحايك سألت نفسها أين هي نفسها كي تجلبها. خارج الزجاج مرّت آلية عسكرية تنتزع بأسنان جنزيرها جلاميد زفت من الشارع المعبّد. حدّقت إلى فستانها الغامق. لم يتأملها الشوفير في مرآته. لم يستدر صوبها مرة واحدة. لعله مثلها، منكوب، ولا يدري أين هي نفسه.

*

بينما تصغي إليهن شعرت أنها تغرق. كنّ موزعات على كنبات ومقاعد. شبه متحلقات حول طاولة منخفضة في المركز (معدن وزجاج). فناجين

قهوة. منافض. صينية مملوءة بعلب الدخان المفتوحة للضيافة. صحون بيتي فور. كبريت. قداحات. وفي علبة كرتون فتحت كما هي على الطاولة حلوى «برازق» بسمسم محمص. تحت زجاج الطاولة بانت السجادة بألوانها البنّية والصفراء. السكربينات أيضاً. تجنبت النظر إلى الصور المبروزة المحمولة في حضن كل منهن. جلبت ثلاث صور لكارل معها. أخرجتها من الحقيبة حين سألن عنه. كانت الأصوات بعيدة، تخفت ثم تعلو، كأنها تجيء من جزر مفصولة عنها ببحر. لمحت شجرة تميل وراء الستائر. أغصان صنوبر. نسيم خفيف لا يصل. وإذا وصل اندفعت سحابة الدخان وملأت عينيها. لكن الصوت بدأ يتضح. التقطت إسماً. «نديم». كانت الأم تحكي عن إبنها نديم. كفّت السيارات عن العبور في الشارع. الستائر هبطت واستقرت حاجبة شعاع الشمس. وحدها أعمدة الدخان ظلّت تتعالى، رفيعة، متلوية أو مستقيمة، من السكائر والمنافض.

*

في المرة الثانية حاولت أن تتكلم. لكن الدموع منعتها. مدام مزهر عرّفتها إلى إبنها. المحامي يسري الذي يعمل معهم في الجمعية. كان نحيلاً مفرط الطول محني العنق، ويشبه في ملامح وجهه الصورة المؤطرة الثابتة أبدياً حد النافذة. أخبرها أنه أكبر بثلاث سنوات من أخيه كريم وأنه أنهى التدرج في مكتب المحامي ميشال إده. جلس على كرسي غير بعيد منها ثم فتح على منضدة ملفاً وأخذ يخرج بيانات مطبوعة ورسائل بخط اليد. كان ينتقي إحداها ثم يمدها باتجاه إحدى السيدات. بدا هذا طقساً لم تشهده في المرة الأولى. سمعت مدام مرهج (أم نديم) تبكي. لم تستدر كي ترى ماذا يحدث. صوت لا تعرفه، رفيع ومبحوح، سأل عن سيلفانا ولماذا لم تحضر اليوم؟ بقي السؤال معلقاً في الهواء. لم تعرف جوابه.

*

في غرفة أخرى لم ترَ الحيطان. ألواح خشب. كأنها عادت الى المدرسة. خضراء. وسوداء. أسماء بالطبشور الأبيض. عناوين. أرقام هواتف. على

حائط بلا نوافذ ازدحم عدد لا يحصى من الصور الفوتوغرافية، وقصاصات صحف، ورسوم طفولية. الحائط المواجه غطته خرائط عليها علامات بالحبر الأحمر والحبر الأخضر. خريطة لبنان بكل المحافظات والأقضية تظهر عليها أسماء قرى لم تعرف قبل ذلك أنها موجودة. خريطة مدينة بيروت بأسماء الأحياء والشوارع والزواريب، في المنطقتين الشرقية والغربية. خريطة خاصة بمحافظة البقاع علقت جنبها قائمة عناوين وأرقام تلفونات لمستشفيات ومخافر ومكاتب نواب ووزراء في الحكومة. قائمة بمراكز الصليب الأحمر والهلال الأحمر والدفاع المدني. العناوين والتلفونات. في الزاوية خزانة حديد بجوارير حديد مثل الخزائن التي ترى في الإدارات والمصالح الرسمية. يسري مزهر، المحامي الذي خطفوا أخاه كريم مزهر (25 عاماً) في «السبت الأسود» وكرس نفسه لقضية المفقودين في الحرب الأهلية اللبنانية، شرح لها مهمات غير واضحة تنفذها مجموعات دعم تعمل بالتنسيق مع الجمعية. يزورون المسؤولين والسفراء ويشكلون لوائح جديدة بالأسماء. يتصلون بالمخطوفين الذين عادوا لجمع معلومات قد تساعد في إطلاق آخرين محتجزين. يجمعون تواقيع على عرائض. يراسلون الأمم المتحدة وحكومات الدول العربية والغربية. يتفحصون الصحف كل نهار، خصوصاً الصحف التي تصدر في المنطقة الغربية، بحثاً عن صور وأسماء ومعلومات. يتابعون الإذاعات على مدار الساعة. يتصلون بجمعيات أهلية في المنطقة الغربية وفي الجنوب. يتبادلون القوائم. أحياناً يكتشفون من صورة في جريدة شيئاً حاسماً. جزء من مهماتهم أرشفة ما ينشر. هناك مندوبون مكلفون بتفقد المستشفيات يومياً. عندهم صلات بلجان الإرتباط، بقوى الأمن، بالجيش، حتى بالتنظيمات الحزبية. جزء من عملهم مساعدة الأهالي الذين لا يملكون القدرة المادية. هناك عائلات تعتمد في مدخولها على الشخص الذي فقد. نحن بحاجة دائمة إلى تمويل. هناك أهالي لا يملكون شيئاً ويعجزون حتى عن نشر خبر في الجريدة لأنهم لا يعرفون كيف

يتصلون بالصحف! هناك بيوت لا توجد فيها حتى صورة شمسية للمفقود! لا نملك إلا إسمه الثلاثي للبحث عنه. ووصف شكله وثيابه. هناك مفقودون يُعثر عليهم مقتولين ويمكن التحقق من هوياتهم لكن أهلهم لا يعرفون بذلك لأنهم لا يتمكنون من زيارة كل البرادات في كل يوم. تجمدت غابي حبيب وهو يقول «مقتولين». وضعت يدها على حافة جارور مفتوح. مالت الخزانة معها وسقط الجارور على الأرض.

*

ثمة نافذة. لكنها غير مرئية. الأباجور الأزرق مقفل. والزجاج تحجبه أوراق ألصقت عليه. لكن الإطار الخشبي ظاهر. ثمة صور تتوالى عمودياً (كبار وصغار، ذكور وإناث). يخترق حافتها العليا مسمار أو «بينيز» ملوّن. هناك أخبار رُسمت حولها دوائر بالحبر أو بالرصاص أو بالقلم الماركر الأصفر. أسماء وُضعت علامة جنبها (نجمة) أو رُسم سهم وكُتب في الهامش بالحبر الأخضر: «رجع إلى أهله.» أحياناً تجد تاريخاً واضحاً وصورة شمسية. «سعيد خليل مسعد أعيد في 19/ 10/ 1975 بعد خطفه من النبعة مع المرحوم طوني حكيم قبل يومين.» هناك أخبار عُلقت هنا خطأً أو لصعوبة قصّها وفصلها عن خبر آخر منشور جنبها تماماً. إذا أقفلوا الباب دقائق، بسبب إجتماع قصير أو مقابلة في الغرفة المجاورة، تشعر بما يشبه الإختناق. تسمع طنين برغش. أجنحة تلمس وجهك. كأنك وحدك. في الظلام. في مقبرة.

*

أندره غودا: أندره غودا (35 عاماً) خطف منذ أكثر من شهر من منزله في شارع فرنسا. الرجاء ممن يعرف عنه شيئاً الإتصال بالرقم 243873 وله مكافأة مالية.

ميشال مخول: ميشال مخول (سوري) خطف من قرب مقهى الربيع في ساقية الجنزير في تاريخ 1 تشرين الثاني. الرجاء ممن يعرف عنه شيئاً الإتصال

بالرقم 200245.

شكر للصاعقة: جاءنا من عادل اسبر أبو ملحم أنه يشكر جهاز أمن الصاعقة على معاملته الحسنة. (4/ 11/ 1975).

علي قبيسي: فُقد علي بهيج قبيسي منذ سبعة أيام وكان مع مصطفى زعرور وعبد المهيب هاشم في سيارة مرسيدس 180 خصوصية كحلية رقمها 312594. فالرجاء ممن يعرف عنهم شيئاً الإتصال برقم الهاتف 304328.

خطفوا وأطلقوا: أمس خطف مسلحون على طريق ايعات (قضاء بعلبك) سامي نبيه جعجع من بشري ويوسف أبي سمرا وزوجة باخوس هيلاني من طرزا وأربعة آخرين لم تعرف أسماؤهم. وعلى اثر انتشار خبر خطف أحد أبناء دير الأحمر، أقام أهالي البلدة حاجزاً مسلحاً على مفترق دير الأحمر- شليفا وأزالوه بعد تدخل قوى الأمن. وعلم في المساء ان المخطوفين أطلقوا جميعهم.

صورة عثمان صالح (شعره أسود سائل مفروق على جنب. وجه بيضاوي. قميص مشجر عريض القبة): قبل خمسة أيام غادر عثمان محمد صالح (16 عاماً) من النبطية منزل والديه في المصيطبة ولم يعد. الرجاء ممن يعرف عنه شيئاً الاتصال بالرقم 228279 أو 255277.

الاربعاء 29/ 10/ 1975: مخطوفو سان شارل لم يسلموا الى الارتباط: خلافاً لما ورد في تقرير قوى الأمن من ان الذين خطفوا من مرأب مركز سان شارل السادة محمد شرف الدين وعلي زين الدين وبرهان جابر واسماعيل سماحة قد سلموا الى لجنة الارتباط، تبين ان هؤلاء لا يزالون مجهولي المصير على رغم كل الاتصالات التي جرت لمعرفة من خطفهم والى أين نقلوا. وكان أهالي المخطوفين لا سيما آل سماحة في طاريا، في غليان، وقطع فريق منهم طريق طاريا- شمسطار- حدث بعلبك في جرد قضاء

بعلبك احتجاجاً على خطف اسماعيل سماحة.

ضحايا صور قتلوا ولم يحرقوا: تبين أنه خلافاً لما ورد في «النهار» 27/ 10/ 1975 تحت عنوان «شقيقا فلسطيني إغتاله مسلحون في البقيعة ينتقمان من 7 مواطنين ويحرقان جثثهم» ان الحرق لم يتم. اذ ان القتل حصل بالرصاص فقط وقد ثبت ذلك من الكشف على جثث الضحايا قبل دفنها وتحقق الجميع من عدم حرقها. ومن جهة أخرى أجريت للمغدورين من آل حجة مناحة كبرى في بلدة قانا اشترك فيها حشد من أبناء الجوار وتليت صلوات من الانجيل وآي من القرآن على أرواحهم وصلي عليهم في الكنيسة والحسينية، تماماً كما أجري لضحايا آل رزق في صور. وحمل رجال الكفاح المسلح النعشين.

حجز جماعي: مسألة خطف جماعية شغلت أمس لجنة التنسيق ولجان الارتباط. وكان مسلحون في الزيدانية احتجزوا الكتائبي السابق عادل ملحم من سكان المحلة ونقلوه الى مكان مجهول للتحقيق معه. ولما وصل خبر الاحتجاز الى الأشرفية أقدم الكتائبيون على احتجاز 50 رهينة بينهم أطفال ونساء. وقد تمكنت لجنة التنسيق العليا في المساء من اطلاق النساء والأطفال. وأبقي على 10 رجال في انتظار الافراج عن عادل ملحم.

صورة (29 تشرين الاول 1975): دخان حريق اندلع في إحدى غرف فندق الهوليداي إن قبل ظهر أمس.

المفتي الجعفري يطالب بضرب محترفي الخطف: طالب المفتي الجعفري الممتاز الشيخ عبد الأمير قبلان «بضرب محترفي الخطف» وإنقاذ حياة المخطوفين الأبرياء وإعادتهم إلى ذويهم. وحث الشيخ قبلان في تصريح أدلى به أمس السلطة على دهم «أقبية التعذيب» ومعاقبة «السفاحين» وضرب الذين سببوا هيجان منطقتي سعدنايل والكرك بقوة وحزم. ووصف

أعمال الخطف والتعذيب والقتل بأنها «جبانة ولئيمة» وتعبر عن «وحشية القرن العشرين».

جورج دوماني: خرج جورج دوماني (17 عاماً) من منزل والديه في شارع هوفلين- الأشرفية متوجهاً إلى منطقة فردان ولم يعد. الرجاء ممن يعرف عنه شيئاً الإتصال على الرقم 226274. (في الهامش، بخط اليد: تلفنا وأبلغونا أنه أعيد بعد خمسة أيام من خطفه. قابلناه في بيت أهله بتاريخ 3/ 2/ 1976 وسجلنا الحديث على الشريط وحُفظ).

إنتحار شاب في الكفير: حاصبيا- «النهار»: لأسباب لا تزال مجهولة انتحر أمس سعيد سليمان نوفل (18 عاماً) من بلدة الكفير بمادة الديمول. وكشف على الجثة الدكتور رشيد حداد وتولى التحقيق الملازم أول حسن طراد.

ارتد الخطف ولم يبقَ سوى 10 مفقودين و5 قتلى في بيروت وحواجز طيارة عالجها الارتباط: صرحت المصادر الأمنية منتصف الليل انه لم يبق في لوائحها سوى عدد قليل من المخطوفين هم جان أبو عراج وعاطف أنطاكي اللذان خطفا في محلة النبعة وحميد طنوس وبطرس دحداح اللذان خطفا من قرب محلات سبينس في الرملة البيضاء. اضافة الى السيد خطار حدثي الذي خطف على طريق المطار قبل نحو أربعة أيام. وذكرت مصادر رسمية انه في الشياح. وقد رفض أحد رجال الدين تسلمه لأنه ضد الخطف فتعهدته احدى المنظمات وأخذت على عاتقها المحافظة على حياته على ان يعاد الى ذويه بعد معرفة مصير مخطوفي الشياح الخمسة. وعلم ان حدثي في صحة جيدة ويلقى معاملة لائقة ولا خوف عليه. (19/ 10/ 1975).

عُثر أمس على جثة رجل في العقد الثاني من العمر ملقاة في حرج جديده المتن وممزقة بالرصاص. كذلك وجدت جثة رجل مجهول الهوية ملقاة بين

الدكوانة والنبعة (الأحد 19/ 10/ 1975).

الأرجنتين: مقتل ثلاثة تجار من أصل لبناني: لابلاتا- و ص ف- أطلقت دورية عسكرية النار على سيارة تقل 4 تجار من أصل لبناني. وأسفر الحادث عن مقتل 3 واصابة الرابع بجروح خطرة. وعلم ان السيارة دخلت من دون إذن سابق منطقة عسكرية محرمة في منطقة لابلاتا على بعد 60 كيلومتراً جنوب بيونس أيرس.

صورتان من جريدة «السفير»: صاروخ أحرق محطة موبيل لصاحبها الياس الهليط على مدخل رياق... وصاروخ على محطة توتال لصاحبها جوزف مصروعة في أول حوش الأمراء- زحلة.

جثة قرب جسر البحصاص و3 مخطوفين مصيرهم مجهول: عثر صباح أمس قرب جسر البحصاص على مدخل طرابلس على جثة قتيل يدعى نبيل جورج سرور (20 عاماً) وهو مصاب بطلقات نارية في أنحاء مختلفة من جسمه وقد نقلت الجثة الى براد المستشفى الحكومي في طرابلس. وعلم ان القتيل كان اختفى منذ خمسة أيام مع ثلاثة شبان كانوا في رفقته وهم رامز الطبر وبشارة منصور وخاتشيك كرمشيان الذين لا يزال مصيرهم مجهولاً.

غادرت طرابلس الى منطقة عائشة بكار في بيروت سيارة مرسيدس عمومية رقمها 80590 لونها أصفر وأخضر ويقودها أحمد مصري الشعراني وتقل المريضة فاطمة جميل العثمان وإبنها عبد الناصر العثمان. وحتى المساء لم تكن السيارة وركابها قد وصلوا.

زحلة: قبل ظهر أمس عثر في سهل تعلبايا على سيارة مرسيدس رقمها 23366 محروقة وفي داخلها جثتا فؤاد ميلاد أسعد مخايل واميل توفيق منصور من أرصون وكان القتيلان خطفهما حاجز طيار أول من أمس في تعنايل. وتم التعرف الى جثتين أخريين عثر عليهما في تعلبايا وهما لايلي

قيصر المعقر وشخص من آل ابي عون وكانا فقدا ليل الأحد، وما زال هناك مفقود واحد هو سليم خليل أبو عون. (الاربعاء 29/ 10/ 1975).

بعد الظهر حصل اشتباك في المعلقة- زحلة بسبب وجود قناص وقد اعتقله الجيش وهو يدعى فيصل ديب الامام. وفي الليل حصل هجوم مسلح على مزرعة للدواجن في سهل الكرك فقتل مهران كريكور وفصيح سعيد ايلو وعنتر سعيد ايلو وجرح بشير ايلو. وعثر على جثة حيدر علي منذر قرب احدى المزارع في السهل.

الباخرة «زينة»: وصلت الباخرة زينة الى بيروت في 28/ 9/ 1975 ونظراً الى الظروف الحاضرة في لبنان أفرغت حمولتها في مرفأ الاسكندرون. (وكالة أمين غزاوي وأولاده).

صور (1/ 12/ 1975): الطبقة الأولى في أوتيل فينيسيا تشتعل/ حريق أمام السان جورج/ حطام مراكب في نادي السان جورج/ الهليكوبتر التي حاولت إنقاذ محتجزي فينيسيا/ مصفحة في طلعة فينيسيا/ دخان يرتفع من الهوليداي إن/ ثلاث جثث في مستشفى الجامعة الأميركية/ ساحة رياض الصلح ظهر الثلاثاء وبدت الى اليمين مكتبة لبنان التي احترقت/ عجوز تحت قناطر المعرض/ آليات ومقاتلون بين ساحتي رياض الصلح والنجمة/ مسلحون كتائبيون في شارع اللنبي/ سيارات الجيش في شارع المصارف/ ووراء البريد المركزي/ وعند مجلس النواب.

3 جثث في بصاليم: عثر في خراج بلدة بصاليم مساء أمس على ثلاث جثث مجهولي الهوية في العقد الأول والثاني والثالث.

دخل مسلح مجهول في النبطية محل فيليب سليمان شديد (45 عاماً) وأطلق عليه النار من بندقية صيد فأصاب منه مقتلاً وهرب. وقصف العدو الإسرائيلي خراج بلدة رميش في قضاء صور فأصابت القذائف تسعة رؤوس

ماعز فنفقت.

مفقودتان (صورتان شمسيتان لأم وطفلتها): غادرت السيدة يوتا الحوارنة (30 عاماً) ومعها ابنتها عليا (عامان) منزلهما يوم الخميس الماضي ولم تعودا. يرجى ممن يعلم عنهما شيئاً الاتصال بأحد الرقمين 310050 أو 301574.

ميروبا تطلق المخطوفين ال18 على أمل إعادة المهندس خليل: الخامسة بعد ظهر أمس أفرج أهالي ميروبا عن 18 مخطوفاً محتجزين في منطقة نهر الكلب منذ أربعة أيام. وكان أهالي ميروبا أقاموا حواجز هناك على اثر إختفاء إبن بلدتهم المهندس الياس طانيوس خليل الذي لا يزال مصيره مجهولاً. وقد سلم المحتجزون الى السلطة في سرايا جونيه في حضور العقيد ميشال أبو خليل قائد سرية درك جبل لبنان الشمالي والرائد انطون سعد ممثل لجنة الارتباط في المتن الشمالي ورئيس بلدية ميروبا والسيد داني شمعون وعدد من الأهالي. ونقل ال18 الى مراكز الإرتباط بواسطة ثلاث سيارات جيب وهم: محمد أحمد قطعيه، علي حسين قزيحه، محمد حسن مخلوف، نصر سليم رضوان، أحمد محمد العسل، حسني عبد الله يونس، خالد عبد القادر عبد الواحد، أحمد ونوس أحمد سعد، محمد اسعد كرحاني، رباح عبد العزيز الحاج، وفيق رجب حرب، اسعد ونوس اسعد، محمود محمد فتاح، سعيد يوسف جابر، محمد علي سالم شمصين، عبد الباسط عبد الواحد، عصام محمد شميطلي، وعلي محمد ابو شقرا.

مطران السريان الكاثوليك يزور عائلة أحسنت معاملة مخطوفين: المطران افرام جرجور، مطران السريان الكاثوليك في منطقة المتحف، زار أمس مع وفد من أبناء حي السريان في المنطقة بينهم رئيس نادي الشباب السيد افرام غزال، السيد علي عمرو المقيم في حي ماضي والذي كان تعرض للخطف والتعذيب قبل أيام، وشكر المطران جرجور لأقرباء عمرو معاملتهم الإنسانية

لعدد من الأشخاص الذين احتجزوهم من أجل الإفراج عن مخطوفهم. وأبدى أسفه للحال التي وصلت اليها البلاد كما استنكر كل أشكال الإقتتال الطائفي.

163
آل الحويك 16 - الطابق السابع

صرخ جورج. كان السائق بارعاً سريع البديهة. التقط من الصندوق أكياس جنفيص وفرشها على المقعد الورّاني. المسلحون علقوا الرشاشات (سيمينوف) من الأكتاف ومدوا يد المساعدة. أمروا جورج أن يزيح من الدرب. كان غاضباً مستعداً لقتالهم بالأيدي. ألقوا صاحبه نازفاً داخل السيارة. من الحاجز قبل مدخل صور الى بوابة الطوارىء في المستشفى الحكومي طارت المرسيدس كالصاروخ مخترقة الظلام والحقول الصامتة.

*

لم يتركه الشوفير. انتظر معه. كان فضولياً ويهمّه أن يعرف ماذا حدث للأستاذ الذي وسّخ أرض سيارته بالدم. أراد أن يتأكد أن تضحيته لم تذهب سدى. ضيّف الأستاذ الذي يعصر فخذه سيكارة. خاف على الرجل العصبي أن يموت بسكتة. كان توتره يهزّ الصالة والمقاعد الخشب.

*

رشقة اخترقت رجل بشارة. حفرت نفقاً. رصاصة مزقت الطحال من دون أن تؤذي الكلية. ثم خرجت من الخلف. أوقفوا نزيف البطن قبل أن يموت. استخرجوا شظية من قصبة الساق. أبقوه في غرفة العناية الفائقة. دكتور أربعيني خريج تشيكوسلوفاكيا يدعى نزيه بيضون أعلم جورج وهو يمسح عرقاً عن رقبته أن حظ صديقه يفلق الصخر. الشوفير كتم ضحكته وتراجع خطوتين الى خلف ثم استدار مواجهاً زجاجاً عكس ضحكته وظهر الأستاذ

جورج ووجه الطبيب الطريف.

*

طلب منه جورج خدمة. أعطاه رسالة شفهية كي يبلّغها الى بيت إبن عمته. ناوله ضعف الأجرة معتذراً منه لسبب لا يعرف ما هو بالضبط. دلّه الى العنوان. وعده الشوفير بإيصال الرسالة على الفور وطوى المال في جيبه. اختفى في ليل مقفر تصخب فيه ضفادع صور. ولم يبلغ أحداً أي شيء.

*

لمبات تتعلق من حبال. تتهادى في هواء الباب. المستشفى يخلد الى النوم. خارج النوافذ يترامى الظلام. تخلص من الحذاء. ومن الجاكيت. رفع ساقيه. حاول أن ينام قاعداً على الكرسي. لكن الإنفجارات البعيدة منعته. وعراك الكلاب على صندوق النفايات وراء قسم الطوارىء.

*

قبل الفجر خرجت من غرفة العمليات طبيبة شابة فلسطينية اللهجة خضراء العينين وأعلمته أن العملية انتهت وهو الآن في غرفة الإنعاش. سألها عملية ماذا؟ كان نصف نائم مبلولاً بالعرق ويشعر بنبضة فوق عينه اليسرى. «تقطيب معدة بشارة كيروز. أنت السيد جورج، لا؟»

*

لم يكن متأكداً من هو في تلك الساعة. سأل الطبيبة هل يمكنه رؤية صديقه. «لن يستيقظ قبل ساعتين. يمكنك أن تذهب وترتاح وتعود.» فعل كما قالت. مشى في طرقات مظلمة نسيت البلدية أن تزرعها أعمدة ومصابيح. حين بلغ البيت لم يكن الضوء طلع بعد. استعمل المفتاح الذي أعطي له. دخل بلا صوت. وجد المطبخ مناراً بقنديل. وماري (زوجة إبن عمته) تعجن للمرقوق في معجن كبير. سألته ماذا حدث. أجلسته وناولته كوب ماء أذابت فيه سكراً وماء زهر. أخبرها أن بشارة مجروح قليلاً في المستشفى وسألها ألم يمر عليهم شوفير في الليل ويخبرهم. «شوفير؟» أقصى التعجب. حاجبان

يتقوسان. كأنها تسأل: «يسوع؟»

*

اغتسل بسرعة ثم ارتمى في السرير. استيقظ ظهراً. غارقاً في شمس جنوبية حادة الشعاع. خرج من الغرفة غاضباً لأنهم تركوه ينام كل هذا الوقت. لم يجد أحداً يصبّ عليه لعناته. فقط الفراشات تلهو عند المجلى. على البراد اكتشف ورقة ملصقة: «سبقناك».

*

اضطر الى السير. ثم توقفت سيارة خصوصية بعد عين الماء ونقلته المسافة الباقية. شكر الرجل وهو ينزل أمام المستشفى. ضحك الرجل وهو يطفىء المحرك ويترك السيارة تقريباً في نصف الطريق ويترجل هو أيضاً. كان مثله آتياً الى الطوارىء.

*

على مكتب الإستعلامات وجد عجوزاً يأكل سندويشة لبنة وخيار ويزدرد حبّات زيتون من قصعة فخار. كأنها فستق. سأله أين موظف الإستعلامات.

«ماذا تريد منه؟»

واجهته الأسنان المتناثرة في الفم مثل ضحكة شريرة. شعر بخوف غامض، غريب عنه، لأنه لم يكن يوماً متطيراً. سمع ضجة وراء ظهره. التفت ورأى إبن عمته مع زوجته وأولاده. الصغير ركض وقفز الى حضنه. كان يحمل إسمه: جورج. رفعه وسمع من فمه الحلو الصغير أن «عمو بشارة» يأكل طعام الغداء الآن.

*

لم يكن كلام الصغير دقيقاً. حين دخل الغرفة وجد بشارة راقداً على ظهره، أصفر اللون، أكبر من سنواته الأربعين، يحاول أن يتكلم مع ممرضة تحقن أكياس المصل بالفيتامينات السائلة والمواد المضادة للإلتهاب. كان عاجزاً عن الحكي. لسانه ثقيل ورأسه يضج. لكنه ميّز جورج في الباب وابتسم له.

إبتسامة مشوهة بالبنج لكنها حقيقية.

❋

الجريح الآخر في الغرفة كان من آل الأشقر من بلدة بيت شباب في قضاء المتن. سأله جورج هل يمت بصلة قربى ليوسف حبشي الأشقر الذي يؤلف كتباً.

«تقصد إميل حبشي الأشقر. نحن من العائلة ذاتها. لكني لا أعرفه. أنا سكان بيروت.»

«وماذا أوصلك الى صور؟»

«قصة طويلة.»

لم يمهله جورج وخرج كي يدخن سيكارة على الشرفة. في الأسفل توقفت سيارة إسعاف وهي تصفر. ركض المسعفون.

❋

بعد أيام أخرجه من المستشفى الى بيت إبن عمته. منعه بشارة من الإتصال بأخته كميلة. ومن نشر خبر عن الحادثة. وهكذا ظلّ خافياً عنها أنه جريح، وخافياً عنهما أن أم بشارة ماتت.

❋

كانت أياماً شنيعة. حين تأكدا من سقوط مخيم جسر الباشا في نهاية حزيران دبّر جورج سيارة وغادر صور في جولة ميدانية أخرى على قرى شرق صيدا. اختفى 48 ساعة. كان عاجزاً عن البقاء في المنزل ساعة بليدة بعد ساعة بليدة جنب الجريح المكتئب. وكان يشعر بغيظ شديد لأن كل هذا يحدث في بيروت وهو هنا عالق في بيت بين بساتين. طقّ قلبه من سماع الجنادب. ونهيق الحمار في الجلّ. في النهاية فقد صبره وترك بشارة طريح السرير ورجع وحده إلى العاصمة.

❋

في صور استطاع بشارة أن يفكر في حياته. وأين سيذهب من هنا. كانت

الصحف التي تطبع في بيروت تصل متأخرة يوماً أو يومين. ومرات لا تصل. في البداية كافح كي يتثبت عبر الجرايد من أخبار سمعها قبل 24 ساعة على إذاعة لندن. بمرور الأيام اكتشف أن هذا المسعى عبثي كالبحث عن آردا نقولا إكمكجي. كان الآن خارج الزمن يتنفس ناراً تبعاً لساعة آلام الجروح في بدنه. هرب من رصاصات رستم باشا (عين المريسة) فأوشكت أن تلحق به في وادي الليمون (شرق صيدا) ثم اقتحمت جسمه على مدخل صور الشمالي. وها هو في صمت الأرياف: يقلب جرايد قديمة في سرير ليس له (سرير الكافالييه سريره؟) ويبلع الحبّة الأخيرة من ورقة الفيكودين (عشر حبّات، صف مزدوج من 5 حبوب). بلغته انفجارات بعيدة. على الكومودينة مالت باقة من الزهور البرّية تطن فيها نحلة صفراء مخططة بالأسود. على السرير الآخر: الكاميرا. حماها من الأذى البيت الجلدي الذي تبقّع بدمه. ذهب جورج (قبل أن يرحل الى بيروت) واشترى له قميصين وبنطلوناً. كان ذلك مضحكاً- مبكياً. خصوصاً الكيس الذي أفرغه على السرير: جوارب وملابس داخلية. زاهية إبنة ال14 سنة رأته ينظر الى صورة أخرجها مطوية من محفظته ذات ظهيرة وسألته من تكون. لم يعرف ماذا يجيبها. سألها هل تحبّ أن يُصوّرها. ناولته الكاميرا بسرعة، محمرة الخدين، كأنها تنتظر هذه اللحظة منذ حلّ في بيتهم.

❋

ياسر رجع من المرفأ عند المساء وأخبره عن عائلات نازحة من بيروت وصلت اليوم الى مخيم البص- صور. معظمهم هرب من المخيمين في المنطقة الشرقية قبل أن يجنّ القصف. وبعضهم من برج البراجنة. سأله بشارة هل تكلم معهم. سأله عن عددهم. قال ياسر انه سمع هذا من آخرين في المرفأ يعملون مثله في تحرير البضائع. وقال انهم يقولون ان معظم الذين حاولوا الخروج من مخيم جسر الباشا عند اقتحامه قتلوا قبل بلوغ الغربية. وهناك قسم خطفوه للمبادلة ثم صفوه. لكن القصف لم يتوقف بعد على الأشرفية. ولا على الحمرا. ظلّ بشارة ساكتاً. القطب قبضت لحمه. الفيكودين شتّت

تركيزه. خارج النافذة مرّت فتاة تحمل قنديلاً. مشت بين أشجار معتمة. بيضاء القميص. كانت تبحث عن شيء أضاعته. وقال بشارة لنفسه انه هو أيضاً قد يجد ما يبحث عنه، اذا عرف ماذا يكون، لكن من الضروري أولاً أن يغادر هذا السرير.

*

جريدة الاربعاء 30 حزيران 1976.

بعد إعلان الكتائب والأحرار سقوط جسر الباشا... واستمرار القتال حول تل الزعتر

تعثر مشروع الخولي لوقف النار

القوات العربية المنتظرة تأجل وصولها الى أجل غير مسمى

جلّود: هناك مؤامرة دولية يشترك فيها كل العرب

بعد قتال استمر ثمانية أيام متواصلة، دخل الوضع العسكري في الضاحية الشرقية أمس مرحلة فاصلة وخطيرة. ففي الوقت الذي أعلن حزبا الكتائب والأحرار سقوط مخيم جسر الباشا، لوحظ ان «صوت فلسطين» ركز على صمود مخيم تل الزعتر من دون الإشارة الى الوضع في جسر الباشا، الا ان «القيادة المركزية للثورة الفلسطينية والحركة الوطنية» أعلنت في الثانية فجر اليوم «اختراق الإنعزاليين» لمخيم جسر الباشا.

وقد تعثر مشروع اتفاق وقف اطلاق النار الذي سعى اليه الدكتور حسن صبري الخولي وتجول ببنوده وشروطه بين بكفيا والكفور وصبرا، مروراً بالرئيس المنتخب السيد الياس سركيس والرئيس رشيد كرامي. ومع استمرار القتال واحتدامه حول مخيم تل الزعتر الذي قالت «القيادة المركزية» انه ما زال محتفظاً بخطوطه الدفاعية، ومع التهاب جبهات الضاحية الجنوبية حيث شنت «القوات المشتركة» هجوماً واسعاً على الحدث وكفرشيما، ولد اتفاق وقف النار ميتاً. ففي الموعد المحدد لبدء الهدنة، وهو السابعة والنصف

مساء، لم يتوقف القتال، بل ازداد حدة. وكان تعليق الخولي على تعثر جهوده:» الوضع أخطر بكثير مما نظن»... وبالفعل فان الشروط والشروط المضادة ثم تحفظات بعض الاطراف حالت دون اقرار الاتفاق وظل باب المفاجآت العسكرية مفتوحاً على مصراعيه ليدخل من خلاله المزيد من الموت والدمار. ومرة أخرى تعطل دور «قوة الأمن العربية» اذ لم تصل الوحدات السعودية والسودانية، لان المملكة العربية السعودية اشترطت وقفاً شاملاً لاطلاق النار قبل تحريك كتيبتها. ومن المنتظر ان يبت مجلس وزراء الخارجية العرب هذا المساء في القاهرة، موضوع المبادرة العربية ويناقش اسباب تعثرها. وقد حرص الرائد عبد السلام جلود، قبل مغادرته بيروت أمس الى دمشق على اعلان موقف واضح من عرقلة المساعي العربية. فقال «ان هناك مؤامرة دولية يشارك فيها كل العرب». وهاجم السعودية بعنف وهدد بتدخل ليبي «حتى الانتحار» في الحرب اللبنانية للدفاع عن المقاومة ومنع التدويل والتقسيم (راجع صفحة 3).

تجاوزته الأحداث: وهكذا قضت التطورات السياسية والاحداث العسكرية على احتمالات الحل السياسي القريب، خصوصاً ان «الحركة الوطنية» كانت قد أعلنت رفضها لأي حوار وللطاولة المستديرة بالذات في حال استمرار حرب المخيمين وسقوط أحدهما، وكانت أنباء تدهور الوضع في جسر الباشا بعد اشتداد الهجوم عليه قد سبقت الخولي الى «القيادة المركزية» فجاء كأنه يعرض أمراً تجاوزته الأحداث. ذلك ان حزب الأحرار أعلن سقوط جسر الباشا وكرر انذاره لتل الزعتر بالاستسلام، فاعتبرت «القيادة المركزية» ان في الأمر «تسويفاً وكسباً للوقت» وهو ما كان الرائد جلود قد ندد به في مؤتمر.

صورتان:

1 - في الكفور من اليمين: الرئيس شمعون، الرئيس فرنجيه، الشيخ بيار الجميل، الدكتور حسن صبري الخولي، والأباتي شربل قسيس.

2 - حريق مرفأ بيروت كما بدا ليلاً من أنطلياس.

فجر اليوم: «القيادة المركزية» تعلن «اختراق مخيم جسر الباشا»: الثانية فجر اليوم أذاعت «القيادة المركزية للثورة الفلسطينية والحركة الوطنية» البيان الآتي:» في ظل الدعم العسكري والسياسي المستمر من قبل النظام السوري للقوى الانعزالية واصلت هذه القوى هجماتها المجرمة ضد مخيمي جسر الباشا وتل الزعتر لليوم الثامن على التوالي. وفي الوقت نفسه استمرت قوات النظام السوري في تنفيذ مخطط استكمال السيطرة العسكرية على البقاع وقطع طريق عيون السيمان وقصف مواقع القوات المشتركة في عينطورة، في اطار الخطة المتكاملة والمنسقة بين الحكم السوري والانعزاليين. وفي ظل هذا التواطؤ استطاعت القوى الانعزالية حشد القسم الاكبر من قواتها في منطقة المخيمين مطمئنة الى حماية مؤخرها من جانب القوات السورية الضاغطة على مواقع القوات المشتركة في الجبل والبقاع والجنوب والشمال. وبينما كانت القوى الانعزالية تتظاهر بالموافقة على وقف اطلاق النار كانت تواصل الهجمات الشرسة بمختلف الاسلحة ضد المخيمين مركزة على مخيم جسر الباشا الذي استبسل مقاتلوه وسكانه دفاعاً عنه قبل ان تتمكن القوى الانعزالية من اختراقه. وما زالت القوى الانعزالية تتابع هجماتها الشرسة على مخيم تل الزعتر في محاولة لمتابعة مخططها المجرم. ان القيادة المركزية للثورة الفلسطينية والحركة الوطنية اذ تكشف امام الرأي العام العربي والعالمي حقيقة المخطط الانعزالي المدعوم من النظام السوري والهادف الى ضرب المقاومة الفلسطينية وتقسيم لبنان تعلن تصميمها القاطع على مواجهة (...)»

حشود ومعارك مدفعية حول «تلة المير»
هجوم واسع ليلاً على جبهة الحدث
وقصف صيدا واحتدام القتال في الجبل

في الوقت الذي كان الكلام يكثر ليل أمس عن اتفاق لوقف اطلاق

النار، كان القتال يستمر بل يحتدم في كل الجبهات. وأفادت التقارير الأمنية ان التراشق المدفعي استمر في مختلف المحاور كأن شيئاً لم يكن. ففي الضاحية الشرقية استمرت الاشتباكات العنيفة لليلة التاسعة على التوالي ودار قتال حول مخيم تل الزعتر والتلال المحيطة به. وفي منطقة المكلس والمصانع ومحور المنصورية- تل الزعتر ومحور الدكوانة- تل الزعتر أيضاً. واستعملت في هذه المعارك المدفعية التي تساقطت قذائفها على مختلف الخطوط خصوصاً في الحازمية والمنصورية والدكوانة والبراد اليوناني والفنار والجديده... وتعرضت المنازل في هذه المناطق للقصف فاستقرت قذائف عدة داخل البنايات وفي البساتين. وشهد محور المكلس- تل الزعتر معارك ضارية خصوصاً حول «تلة المير» حيث حشد كل الفرقاء الاسلحة الثقيلة وراحوا يتبادلون القصف بعنف. وتجدد اندلاع النار في أحراج المنصورية والمكلس. وكان من الصعب تحديد نتائج المعارك هناك بسبب انقطاع الاتصالات من جهة وتكتم الفرقاء المعنيين من جهة أخرى.

جسر الباشا: أما في منطقة جسر الباشا فقد أفادت معلومات ان اطلاق نار جرى ليلاً وقال مصدر في «الحركة الوطنية» ان الاتصال فُقد ليلاً مع مخيم جسر الباشا الا ان آخر المعلومات أفادت ان قتالاً يجري في بعض الجيوب في منطقة المخيم. اما خط النبعة- سن الفيل فقد استمر فيه القتال القوي بعد محاولات تسلل عدة شنت على مختلف المحاور التقليدية ومنها البلازا ومار الياس. وقوي التراشق بين البراد اليوناني ومفترق النبعة كذلك بين عزوز والجبهة المقابلة له اضافة الى محود ضهر الجمل الذي لم يهدأ. وسقطت قذائف في منطقة النبعة وقرب الجامعة والمستشفى. كذلك تعرضت للقصف الأحياء السكنية في سن الفيل ومحيط الجسر الواطي وكنيسة السيدة وحرج ثابت... وجاء في بيان «القيادة المركزية»: «تمكنت القوات المشتركة من صد كل الهجمات التي قامت بها القوات الانعزالية على مخيم تل الزعتر والتلال المحيطة به طوال هذا اليوم وحتى الساعة

الثامنة من هذا المساء. وتقوم القوات المشتركة بشن هجمات مضادة ضد القوات الانعزالية التي تحاول التقدم في اتجاه تلة المير ولا تزال المعارك محتدمة على كل المحاور حتى ساعة اعداد هذا التصريح الساعة 9:15 من هذا المساء.» ولم يشر البيان الى الوضع في مخيم جسر الباشا، في وقت ذكرت بيانات حزبي الكتائب والأحرار ان «القوات اللبنانية» دخلت المخيم وحي القلعة. وأذاعت القيادة الكتائبية في العاشرة والربع ليلاً تصريحاً للناطق العسكري الكتائبي هذا نصه:» بعدما تحولت منطقة جسر الباشا وحي القلعة والمعامل في منطقة المخيم الى مخيم للتدريب والتخريب وملجأ للمرتزقة والأغراب وبعدما تعرضت المناطق المحيطة بها لتعديات شديدة مما ألحق بمناطق الحازمية والفياضية وعين الرمانة وفرن الشباك والأشرفية الأضرار الجسيمة بالأرواح والممتلكات مما اضطر القوات اللبنانية الى وضع حد للتعديات فقامت بتمشيط هذه المنطقة وتطهيرها من الاغراب والمعتدين. وقد أصبحت المنطقة تحت سيطرة القوات اللبنانية. لذلك فان القوات اللبنانية بعدما أعادت الأمن والاستقرار الى هذه المناطق تدعو أصحاب المعامل والمصانع والأهلين للعودة الى بيوتهم وممتلكاتهم لاستئناف الحياة الطبيعية في حماية القوات اللبنانية.» وأضاف:» ان منطقة جسر الباشا أصبحت عسكرية يمنع الدخول اليها أو الخروج منها الا باذن خاص. كما يمنع التجول فيها من الثامنة مساء الى السادسة صباحاً.» وقال بيان صادر عن النمور الأحرار ان مكتب الاعلام المركزي للنمور الاحرار أوفد مندوباً رافقه بعض الصحافيين لمقابلة عائلات جسر الباشا التي نقلت الى مركز الأحرار في سن الفيل. (التتمة صفحة 4)

خافت على الأولاد. كانت تجمعهم كالصيصان في الزاوية وتضع جسمها بين إبنها الصغير وبقية سكان البناية. قبلت أن يبحث أمين عن دكان في الحيّ لهذا السبب: لم تتحمل وجوده في السوبرماركت البعيد وهي هنا وحدها. عند توقف القصف وتسلق الدرج على مهل الى الطابق السابع خشيت من اللحظة التي تبلغ فيها بيتها: لعله أصيب هذه المرة واحترق وهم في الأسفل.

❋

كان زمناً أبدياً من الرعب لن تنساه جورجيت بدّور طوال ما بقي من حياتها. الى جانب الرصاص والقنابل توجب عليها أن تخاف من المال القليل والطعام الذي يجب تدبيره في كل يوم. كرتونة البيض، 30 بيضة، بخمس ليرات ونصف، ثم ارتفعت الى سبع ليرات. تنكة التاترا بعشر ليرات وربع من التعاونية الاستهلاكية، ومن دكاكين حي العبد بعشر ليرات ونصف. علبة مرتديلا مالينغ كانت بست ليرات وصارت بسبع ليرات إلا عشرة قروش. كل شيء هكذا. كتبت لوائح أسعار وحاولت إختراع وسائل للتقشف والتحايل على المشتريات وتخفيف المصروف.

فول حب 95 قرشاً

حمص 115 قرشاً

عدس أحمر 155 قرشاً

جبنة حلوم 840 قرشاً

قالب عكاوي 375 قرشاً

بن 785 قرشاً

حليب نيدو وسط 705 قرشاً

سردين 105 قرشاً

سمنة هيليوس 725 قرشاً

طون 175 قرشاً

راميك 180 قرشاً

نستله 145 قرشاً

كانت مشكلتها الصغير الذي لا يقدر أن يبدل شيئاً في عادات طعامه. لا نوع الحليب ولا نوع اللحم ولا نوع الخضر ولا نوع الفواكه. أحياناً اذا حاولت إقناعه يصاب بنوبة. لا يقبل. لا يقدر. صارت مستعدة لفرك القدور بأصابعها وأظافرها والإستغناء عن سيف العبد (ليرتان وربع الليرة). علّمت البنات استعمال الماء في الحمام بدلاً من ورق التواليت (95 قرشاً). اشترت صابوناً أخضر (195 قرشاً) عوضاً من الأبيض (200 قرش). لكنها عجزت عن إقناع الصغير ان يأكل مجدرة عدس. بصق اللقمة من فمه. لم يمضغها مضغة واحدة. اذا جلب أمين لحماً معه من السوبرماركت لا يذوقه، إلا إذا كان أحمر تماماً (أمر شبه مستحيل) خالياً من أي شرش دهن. وفوق كل هذا: عليهم شراء أدويته الباهظة الثمن. وعليها الإنتباه إلى ثلاث صبايا. ماذا جلبهم من آخر العالم الى حيّ العبد؟ الشعر يقشعر على بدنها كلّما التقت الإبن الكبير للست عازار على الدرج. رأت نظراته. هدّها القلق. بناية أيوب أذابت شحماً عن ردفيها.

❋

تعطلت المجلى. في أسوأ وقت. تموز (يوليو) الحرّاق. في الصباح الباكر. وهي تسابق الساعة كي «تُطبّق» صينية البطاطا قبل اشتداد القصف.

حصار تل الزعتر حوّل حياتها جحيماً. الإنفجارات هزّت المبرومة. كأنها ستسقطها فوق الأكواخ. شعرت بالمطبخ يميل وبالصحون تنزلق. لم تفهم ماذا سدّ البالوعة لأنها تنتبه دائماً عند غسل الخضر. خصوصاً البطاطا. لا تغسلها إلا في الحمام. الأتربة تسدّ المجلى. أخطأت اليوم وتركت رفقة تساعدها. السبّاك في كعب البناية. عبدو زغلول. لكن السكان لا يدخلونه منازلهم على العموم. يفضلون الأرمني (أوهانس) الساكن وراء المسمكة. أسرع. وأشطر. وأنظف. وإبنته ليست مخطوفة. جورجيت بدّور تسرّع خطوتها في المدخل. تحبس أنفاسها اللاهثة. حين تلتقي الناطورة راغدة في السوق تقطع الشارع الى الجانب الآخر. بسرعة. بين السيارات. قبل أن تنتبه لها. مع أنها لا تحمل لهذه المخلوقة المسكينة إلا المودة. تتجنب النظر الى صورة المفقودة بين صور الشهداء. كوليت عبدو زغلول. كانت تودّها أيضاً. أكثر من مرة شاهدتها تُلاعب أخوتها. وتساعدهم في الدرس. خصوصاً الصغير يوسف. وكانت مهذبة. مرات تتعجب لأنها تراها في المنام. تلتقيها على الدرج أو في باب دكان أو أمام محطة البنزين وتستغرب أنها ما زالت حيّة ولم يخطفوها ويقتلوها كما كانت تعتقد.

*

بولس صاح خوفاً لرؤية المياه السوداء تفور خارجة من ثقوب الأسطوانة ثم تزحف على البلاط النظيف وتدنو من «كرتونة الألعاب». أمرت صوفي أن تجلب الممسحة وتولت بنفسها إبعاد الكرتونة والصبي ومحول الكهرباء (110/ 220 فولت). وبّخت رفقة بعنف. ردت إبنتها بطريقتين: أجوبة دفاعية قصيرة، والإنهماك في التنظيف. طلبت من صوفي أن تقعد مع بولس وتغني له كي يهدأ. مدّت ذراعها في الفراغ بين البراد القديم المقرقع والحائط، محاذرة لئلا تؤذي نفسها في هذا الصباح النحس، واستخرجت كيساً. لبسته في يدها. ركعت في البقعة التي أزالت رفقة وسخها. نقلت سطل النفايات من مكانه وحرّرت القسطل وأبعدت غطاء البالوعة. جذعها السمين اختفى

محشوراً تحت المجلى. أولجت يدها وهي تحاول كتم أنفاسها. بلغت القعر لكن السائل تدفق فوق كوعها ونزل في الكيس. أوجعها كتفها. انعقد شريان. كسرت ظفراً وهي تنظف البالوعة. تابعت العمل. حفنة بعد حفنة. ترسبات لزجة. قاتمة. رائحة تقتل. لم تتوقف. أخرجتها كلّها. حصى وأتربة. كانت سعيدة لأنها ستفتح المجلى بلا مساعدة. أعانها سكون مفاجىء حلّ على بولس بينما صوفي تشدو بصوتها الحلو (يا طير/ يا طاير على طراف الدني/ لو فيك تحكي للحبايب شو بني/ يا طير/ يا طير). حين انتهت وأعادت القسطل وفتحت الحنفية كرّت المياه غزيرة، قوية الهدير في البالوعة. سلكت الأنابيب بلا عائق. كأنها جديدة والآن ركّبوها في البناية. غسلت جورجيت بدور يدها طويلاً ولم يذهب اللون الأسود من تحت الأظافر. أوكلت الى صوفي وضع الصينية في الفرن. بينما تغير ثيابها قُرع الباب وسُمع صوت يصيح في صحن الطابق السابع ان الإعاشة وصلت وكل من يريدها عليه أن يقفز ويلحق الدور أمام مستوصف الأحرار قبل أن يفرغ البيك اب وقبل أن يقوى الضرب.

165
آل موراني 7 – الطابق السابع

ماذا تتذكر لورا موراني حين تقعد حزينة بين آخرين في مطعم هامبرغر يجاور سينما مقفلة؟ ظلّت تنظر الى ساعتها. فكرت أنه يقلق الآن لأنها تأخرت. عبثت بأشياء في حقيبتها. لمحت قلم الحمرة. فضّي الغطاء. يعكس الضوء. ذائب. شبه فارغ. لا تستعمله. لكنها لا ترميه. القلم كان لأمها. دارين عازار حاولت مرة أخرى أن تجرّها الى الحديث. كان ألكسي يقول شيئاً عن بيته في بدارو وعن قفص كبير (أفياري) للعصافير المستوردة من الخارج يزين مدخل فندق في مكان ما وحين يقع إنفجار في نقطة قريبة تصاب

الطيور بالجنون. ويتطاير الريش الملون في كل الشارع. لينا طانيوس ظلّت تمد يدها وتداعب شعره السائل. جاء الجرسون وغيّر المنفضة. تفحّص قناني الكاتشاب والخردل بلا ضرورة ثم ذهب. تأمل لورا قبل أن يبتعد. كانت أمها تسمّي كل شيء. حين اشترت لها كناراً وهي صغيرة، هدية في عيدها، ماذا سمّته؟ بحثت عن الإسم في أعماق ذاكرتها. وجدته محفوظاً بين حفنة أسماء. سيرانو إسم الكنار. كان يوقظها كل صباح. أورسولا إسم السلحفاة التي تزحف بطيئة وتأكل وريقات خس على السطح المشمس قبالة بيتهم. سارغوسا فيردي إسم شتلة الحبق. ميرو إسم الببغاء في بيت خالها. كانت تحبّ كيف تفسر أمّها الأسماء كما تحبّ موسيقى الحروف. فيردي أخضر بالإيطالية. وسارغوسا من سَرْغَسَ أو سُرّ وهي كلمة عربية تعني السعادة. كم مرة أضحكت رفيقات زائرات من المدرسة وهي تأخذهن في جولة على نباتات البيت في المكحول وتعرفهن بأسمائها؟ ماذا سمّت أمّها شجرة الظلّ حين اخضرّت بالماء والفيء بعد أن يبست تماماً لأنها نُسيت في الشمس وعطشت أثناء سفرتهما الى لوكسمبورغ؟ جاهدت لورا كي تجد الإسم. كادت دموعها تسيل لأنها أضاعته. نظرت الى الساعة. تململت على الكرسي.

«تأخرنا».

ألكسي ضحك. لينا أيضاً. لكن دارين وافقتها الرأي وبدأت تستعد للنهوض. كانت السيارات قليلة، مصابيحها الأمامية تضيء زوايا الشارع ثم تختفي. المطعم أراد أن يقفل. لهذا يأتي الجرسون كل لحظة. وراء صف الأبنية ترددت إنفجارات بعيدة. ليلة هادئة نسبياً.

«الساعة بعدها 11».

نهض ألكسي حين نهضت لينا. في السيارة مالت عليه قبل أن يشعل المحرك وقبلته. اختفى وجهها. لورا نظرت الى الخارج، منكمشة الجسم.

كانت على وشك البكاء، غير قادرة على تذكر إسم شجرة الظلّ. دارين شعرت مرة أخرى أنها مفصولة عنها بشبح. كأن أمها الميتة قاعدة بلا صوت، في الوسط، بينهما، على المقعد الخلفي. طوال الطريق ظلّت ساكتة تنظر عبر الزجاج الى المحلات المقفلة ولا تلتفت صوبها. بينما ترتقيان الدرج من الخامس إلى السابع، وحدهما بلا لينا طانيوس الآن، في ضوء القدّاحة، توقفت لورا فجأة ولفظت كلمة:» فرفوحة!» كأنها تنادي أحداً في ظلمة المبرومة! دارين رفعت القدّاحة. مدهوشة، رأتها تضحك، كطفلة مُنحت لعبة وهي مريضة.

*

كان واقفاً في الباب. لوكس الكاز على سطح البراد يلقي ظلّه طويلاً حتى الدرج. بادل صديقتها تحية المساء. ابتسم لها. شعرت بحرارة في صدرها. استدارت مرتبكة. كي تودع دارين. رأتها تخرج المفتاح. تراجع الى داخل البيت.

166
آل ثابت وشرارة 11 – الطابق الأول

كميل صليبا المسؤول في جهاز الأمن وصديق المرحوم موسى منذ سنوات المدرسة، قُتل مع رئيس المجلس الحربي الكتائبي وليام حاوي في يوم واحد. حين عرفت ليديا أن جثته أُحضرت إلى براد أوتيل ديو (رصاصة في الجبين على محور تل الزعتر) لم تتذكره واقفاً على حاجز قبل ساحة ساسين، تحت أشجار حمراء الأوراق، يسألها عن «الأستاذ سليمان». لكنها تذكرته قبل بدء الحرب قاعداً في صالون بيتهم قبالة أخيها موسى يلعبان طاولة زهر (محبوسة أو فرنجية) ويأكلان عنباً. كان قميصه أصفر فاقعاً. أصيل يوم صيفي. شمس برتقالية تذوب في البحر. باب الشرفة مشرع. الضوء يسيل على الكنبات والأرض. الحساسين المعلقة في أقفاص خشب أمام متجر

السجاد أسفل المبرومة تصخب مزقزقة، والسكينة تغمر حيّ العبد.

❊

تحركت ليديا ببطء. كانت مرهقة محطمة المعنويات كما يحدث لها كلّما أُجبرت على المداومة ساعات طويلة في قسم الطوارىء. بسبب نقص الممرضات. والظروف. خرجت دقيقة كي تشعل سيكارة. كان رأسها يؤلمها. كذلك ظهرها. طاردتها رائحة الدم حتى شجيرات الغاردينيا. تفاجأت لرؤية أم يوسف الناطورة قاعدة هناك، على العشب. كان الوقت متأخراً. احتارت ماذا تفعل. أرادت أن تتراجع وتبتعد قبل أن تراها المرأة. لكن التعب أبقاها حيث هي. وألفة المكان. جلست على الحافة الحجرية. ولّعت كبريتة. سحبت نفساً عميقاً من السيكارة. بدت أم يوسف نائمة. مع أنها ليست كذلك. كانت أصابعها تخرج شيئاً من الأرض. ثم ترميه. حركة صغيرة. داخل الغيمة. تحت أضواء المستشفى. في المدينة النائمة. لم ترفع وجهها ولم تنظر في هذا الإتجاه. حين سُمعت صفّارة آتية من بعيد دبّت راغدة زغلول ووقفت ومشت الى حيث تصطف عربات الإسعاف.

❊

ليديا لم تخبر سليمان. مدام طانيوس سدّت عليها الطريق قبل أيام وهي تدخل الى البناية عند السابعة مساء وقالت لها ان الناطورة راغدة وقعت في النزلة وكاحلها على الأرجح مكسور. لم تفهم لماذا تخبرها هي ذلك. إبنتها التي تساعدها (فريدة) أطلّت من داخل البيت. الباب كان مفتوحاً والكهرباء غير مقطوعة. لكن البيت بدا خالياً. سنوات طويلة، حياتها كلّها، قضتها ليديا عزيز ثابت في بناية أيوب. لكنها لم تتجاوز يوماً تلك العتبة. حتى وهي صغيرة والصغار يدخلون كل الأمكنة، لا تذكر أنها دخلت البيت تحت الدرج في الطابق الأرضي. الست أم جان أعاقت حركتها وأربكتها. لكنها لم تتقدم. بقيت عند العتبة. كأن الباب مسدود بمادة غير مرئية. فوق زرّ الجرس علّقوا صورة كوليت المفقودة. بانت الناطورة وهي تعرج قليلاً. فريدة جرّت كرسياً. أجلست أمّها في المدخل. أمام المصعد المعطل. ظلّت تقاوم وتأبى

الجلوس. ثم همدت. قبل أن تنحني ليديا كي تفحص ساقها الملأى شرايين خضراء، قفزت أم يوسف. أفلتت من الأيدي وغادرت المبرومة.

*

قبل سنوات طويلة، في حياة خيالية سبقت هذه الحياة، قبل أن تبدأ الحرب، تابعت ليديا على الراديو مسرحية إذاعية مسلسلة. «دكتور جاكل ومستر هايد». شخص مقسوم إلى إثنين. هكذا هي الآن. في المستشفى تستطيع أن تتكلم مع أي شخص، أن تتعامل مع أي موقف، وأن تتصرف مثل بقية الناس. تقريباً. لكن ليس هنا. ليس قرب البيت. في حيّ العبد تتحول تلقائياً الى إمرأة أخرى. متوحشة. كأنها كبست زرّاً. تهرب من الجميع. تتكلم بالقطارة. مثل معاقة. لا تنظر في العيون. الدرج تتسلقه ركضاً. لا تلقي تحية إلا مضطرة. تتفحص الطريق من بعيد وتختار الجهة الخالية. لا تشتري من السوق المجاور. تجلب مشترياتها من آخر الأشرفية. إذا أجبرت على شراء غرض من هنا تندم طوال أيام. التقت السيد إسحاق عطية في الدكان قبالة صالون الحلاقة. سألها عن صحة أم موسى. كذبت قائلة ان والدتها بخير وصحتها مقبولة. كي تنهي الحديث سألته عن صحة أمّه. أجاب أنها غاضبة منه لأنه أخذها الى كندا. لم تفهم ليديا ماذا يعني. كان يبتسم وينتظرها كي تسأل فيشرح لها وللدكنجي معاً. لكنها دفعت ما عليها وأخذت كيسها وخرجت على عجل.

*

عاشت حرب السنتين في قلق مستديم. السرّ شقّ روحها. في أوتيل ديو خافت على سليمان المحبوس مع أمّها في حيّ العبد. عند رجوعها إلى المنزل خافت أن تحرق القذائف أوتيل ديو (المكان حيث تتنفس) وهي غائبة. التقت في فرن الناصرة كارمين دبّاس، صديقة قديمة تعرفها وتعرف سليمان وتحبّه. كانت تذهب معهما الى المسبح والى ملعب التنس. سألتها هل يتصل سليمان بها من المنطقة الغربية، هل تسمع أخباره؟ كذبت ليديا قائلة إنها لا تعرف عنه شيئاً. رأت الخيبة والمرارة وما يشبه الصدمة في الوجه

الحنطي المستدير. اعتذرت لأنها مستعجلة. تركت الفرن مجوفة الصدر. منهكة. مفككة الأوصال. كأنها لم تنم منذ شهور.

167
آل حبيب 18 - الطابق الرابع

تعطلت الرحلة اليومية لطيران الشرق الأوسط من بيروت الى لندن (12:30 ظهراً). قُصف مدرج المطار واشتعلت طائرة وقُتل قبطانها. ميشال حبيب ألغى حجز الميدل إيست بعد الحادثة. عثر على مقعد لابنته حلا في اليخت السريع كريستيانا (يؤمن الخط يومياً في تمام الساعة 9 صباحاً بصورة منتظمة من جونيه الى لارنكا. للحجز الاتصال بوكالة عون للملاحة والسفريات- جونيه، ساحة البلدية، بناية أنطوان شيحا، الطبقة الثالثة، التلفون 932614 أو 930060). تلفن لأقارب إبن عمه في قبرص وطلب منهم استقبال إبنته ليلة في منزلهم قبل أن تتابع طريقها الى لندن، ومن لندن الى أميركا، للدراسة.

«أهلاً وسهلاً. يمكنها أن تنام عندنا سنة كاملة وليس ليلة فقط.»

شكرهم وأعطاهم تفاصيل الرحلة ووقت وصولها الى الميناء.

❋

حمّلها علبة بقلاوة إضافية للناس في قبرص. أجلسها الى الطاولة في أوضة السفرة وأمسك بيدها بين يديه. قبل إختفاء كارلوس لا تتذكر أن والدها كان عاطفياً هكذا. أصغت إليه. بدا لها فجأة عجوزاً. كان هذا وداعاً ووصايا، في غرفة مخنوقة الجو، محصنة الشبابيك، وبغض النظر عن أقواله لم تكن هي متأكدة أنها سترى لبنان بعد اليوم.

❋

وضّبت أغراضها في ثلاث حقائب، إحداها ما زالت تحمل بطاقة لاصقة خُطّ عليها بحبر أزرق إسم أخيها الثلاثي، بالحرف الأجنبي، وتحته العنوان القديم (بناية موريس حبيب)، ورقم الهاتف في منزل عين الرمانة. أزالت البطاقة. أخذت معها صوراً لأفراد العائلة، وهدايا إلى بيت خالها في كاليفورنيا، وكاسيتات وديع الصافي التي طلبها رضا على التلفون، وكتاباً تقرأه فوق المحيط الأطلسي، رواية مكسيكية مترجمة للفرنسية أحبّت إسم مؤلفها (خوان رولفو) وموسيقى عنوانها (بيدرو بارامو).

168
آل هاينيكن 8 – الطابق السادس

أكثر من حرّ الصيف ومعاركه ضايقه الهجوم الجديد من زوجته. حاصرته بأخبار أقارب لها سافروا أخيراً بالبحر إلى الإسكندرية، على أساس أن يكملوا الرحلة بعد ذلك إلى أقارب في سان لورنزو أو انكارنسيون أو كابياتا أو فيلاريكا. لم يعرف الدكتور إدغار معلوف أين تقع هذه المدن أو البلدات التي تتحدث عنها. انتظرها حتى أكملت حكيها وأدرك أنها في الباراغواي. دولة بلا بحر. محاصرة بدول أخرى. في آخر العالم. لا يدري كيف جذبت لبنانيين إليها. لكنهم هناك. والدليل الأبسط أن زوجته بدأت تتكلم عنهم وتسمّي له أشخاصاً عرفتهم في سنّ الطفولة وكانوا يأتون ويزورون القرية محملين بالهدايا للجميع. تركها تحكي لعل الموجة تموت وحدها. شعر بالأسى ينقر البلاط تحته ويهدد بطمره تحت أطنان الكآبة والتراب.

«... وعندي رقم تلفونهم.»

*

رفعت صوت الراديو كلّما ذكرت الإذاعة أخبار الرعايا الأجانب الذين يغادرون لبنان. لم يكن بحاجة الى هذا لأنه يقرأ الجريدة يومياً. قالت ان عناده

لا يصدق. حاول أن يتسامح معها ما أمكن. في تموز تغلي المياه في الكوز. تصبّب عرقاً بينما تتكلم. حين فرغ صبره سألها ماذا يوجد في الباراغواي الملعونة؟

«سأخبرك ماذا لا يوجد في الباراغواي. ليس عندهم تل الزعتر.»

لم تكن مثله. طالما انتبه أنها تميل إلى اليمين أكثر من اليسار. ولم يبالِ. مع أن أهلها بروليتاريا. وجد الأمر طريفاً. كان حبّه لها ثابتاً لا يتأثر بهذه التفاصيل. في أيام أفضل، أقلِ ضجة وذعراً، تأفف من سذاجة تعليقاتها السياسية وسألها لماذا إذاً لا تداوم على القداس صباح كل أحد؟ سألته ما علاقة القداس والكنائس بما تحكي عنه؟ سخرت منه وقالت أشياء لئيمة لم يعد يتذكرها. كان يملك هذه الخاصية: ينسى ما يؤذيه كي يحفظ مودّته للآخرين.

«اذا كنت تريد أن تظلّ هنا يا ادغار، لماذا لا نفكر في طريقة لإخراج الأولاد على الأقل؟»

*

السفارة الشاهنشاهية الإيرانية

تعلن السفارة الإيرانية في بيروت أنها تنوي تسيير قافلة سيارات لإجلاء الرعايا والطلاب الإيرانيين من لبنان. وستغادر القافلة المذكورة بيروت يوم الجمعة المصادف 16/ 7/ 1976 متوجهة إلى دمشق بطريق البر. فعلى جميع الرعايا الإيرانيين الذين يرغبون في مغادرة لبنان المبادرة الى تسجيل أسمائهم لدى هذه السفارة، القسم القنصلي، في أسرع وقت ممكن.

سافرت قافلة الأجانب بعد تأخرها ثلاثة أيام:

صورتان

1 – السفير البريطاني السيد بيتر ويكفيلد مع عدد من موظفي السفارة.

2 - القافلة في نزلة الرملة البيضاء.

صباح أمس غادرت بيروت الى دمشق قافلة من 40 سيارة بينها ستة أوتوبيسات تنقل 150 أجنبياً ينتمون الى 27 دولة أغلبها أوروبية وأميركية. وكانت سفارة بريطانيا التي تتولى تنظيم عملية ترحيل الأجانب قد اضطرت الى تأجيل هذه الرحلة من السبت الى الأحد فالاثنين فالثلاثاء بسبب خطورة الطريق المقرر أن تسلكه القافلة. وتولت قيادة الكفاح المسلح الفلسطيني و«القوات المشتركة» تأمين الحماية للقافلة حتى الخطوط السورية حيث يرافقها الجيش السوري حتى دمشق. ومن العاصمة السورية يسافر هؤلاء الأجانب بالطائرات الى البلدان التي اختاروا.

الرعايا الأميركيون والأوروبيون وصلوا من بيروت الى اليونان:

أثينا- و ص ف، ي ب- وصلت الى مرفأ البيريه في اليونان السفينة الحربية الأميركية «سبيغل غروف» التي تحمل الرعايا الاميركيين والاوروبيين الذين تم ترحيلهم عن لبنان وعددهم 297 منهم 166 أميركياً. وقال أحد هؤلاء:» كانت رحلة من دون تعقيدات، ولم تتخللها ولادات أو وفيات، بل أقيمت حفلة راقصة على أنغام أوركسترا السفينة.» وقد نام المسافرون على متن «سبيغل غروف» في مهجعين يتسع كل منهما ل52 سريراً، وكان على كل مسافر أن يستريح على السرير لمدة ست ساعات ثم يقوم مفسحاً في المجال لغيره. وكان في استقبال الرعايا سفير الولايات المتحدة في أثينا السيد جاك كوبيش الذي صعد الى السفينة لتحيتهم، وقد توجه هؤلاء الى قاعدة خاصة كان فيها قناصل البلاد التي ينتمون اليها اضافة الى الطبيب ورجال الصليب الأحمر. وسافر الرعايا الأميركيون في اليوم نفسه وفي طائرات خاصة الى الولايات المتحدة، بينما اتخذ الأوروبيون ترتيبات للسفر كل الى بلاده.

شكر للسادات من فورد:

القاهرة- ي ب- تلقى الرئيس أنور السادات أمس برقية من الرئيس

الأميركي جيرالد فورد يشكره فيها على المساعدة المصرية في تأمين إجلاء الرعايا الأميركيين عن لبنان.

كندا تسهل للبنانيين سبل الهجرة إليها:

أوتاوا- و ص ف- طلب أمس السيد روبرت أندراس الوزير الإتحادي لليد العاملة في كندا، من نحو ألف ومئة لبناني موجودين حالياً في كندا يحملون أو لا يحملون سمة دخول سياحية، أن يتقدموا بطلبات هجرة. وقال الوزير ان تدابير أقل وطأة من المألوف ستتخذ في حق اللبنانيين الراغبين في الحصول على اذن هجرة، اذ يسمح لهؤلاء بالبقاء في كندا شرط ان تساعدهم الجالية اللبنانية هناك على إيجاد عمل. وأوضح الوزير ان معظم اللبنانيين المعنيين يرغبون في الحياة في مقاطعة كيبيك. وذكر ان موظفي وزارته الموجودين الآن في قبرص وفي أثينا (اثر إغلاق سفارة كندا في بيروت) يدرسون من خمسة الى ستة آلاف طلب من لبنانيين يرغبون في الهجرة الى كندا. وأشار الى أن كل مواطن لبناني يصل الى كندا ولا يحمل سمة دخول سيرفض دخوله ويبعد الى البلد الذي قدم منه. وفي لندن قالت الإذاعة البريطانية مساء أمس ان 41 لبنانياً وصلوا الى لندن منذ أسبوع عن طريق دمشق موجودين في فندق بالقرب من العاصمة البريطانية لأنهم كانوا في طريقهم الى كندا لكنهم لم يكونوا يحملون الأوراق اللازمة لدخول أي من بريطانيا أو كندا. وقد حصل 15 من هؤلاء على السمة اللازمة لدخول كندا من المندوب السامي الكندي في لندن الذي أعلن أنه سينظر بعين العطف في طلبات الآخرين للهجرة الى كندا.

169
آل زغلول 13 – الطابق الأرضي

تعاظم فزعها على أمّها بعد تهجير النبعة. خافت أن يقتلوها في الطريق.

أو يقع لها ما هو أسوأ. كانوا يقوصون على الطالع والنازل. صلّت من أجلها وصلّت أن ترجع أختها كوليت حبيبة قلبها وصلّت أن تنتهي الحرب وصلّت أن تسمع السيدة العذراء صلاتها. كان وقتها مكرساً للبناية والبيت ولا تجد دقيقة كي تركض الى الكنيسة وترسم شارة الصليب وتركع دقيقتين على البلاط وتلمس طرف الثوب الحجري الأزرق. «السلام عليكِ يا مريم/ يا ممتلئة نعمة/ الرب معكِ/ مباركة أنتِ في النساء/ ومباركة ثمرة بطنك...». السيد لويس الخوري قطع صلاتها وهو نازل على الدرج. حيّاها بلطف وهو يرفع عصاه قليلاً. ردّت عليه وهي تفكر في إبنه شارل الذي استشهد والذي كانت أختها تحبّه من بعيد قبل أن يخطب بنتاً من الغربية. كان البلاط أسود هنا. وظلّت فريدة تفركه. ولم تذهب البقعة.

❋

السيدة زيدان المهجّرة من بلدة الدامور دعتها إلى الدخول. دخلت. طلبت منها أن تجلس. جلست. لم تفهم ماذا تريد منها. خافت أن توسخ لها الكنبة بثيابها. مع أن هذا البنطلون نظيف. انتظرتها كي تأمرها بتنظيف الحمام أو الشرفة. ربما تريدها أن تغيّر لمبة محروقة. لكن السيدة زيدان بدأت تتكلم معها. أخبرتها أنهم يقولون على الراديو ان الناس يعطشون الآن في مخيم تل الزعتر ويموتون لأن الماء مقطوعة عنهم. هزّت فريدة رأسها. سألتها السيدة زيدان هل سمعوا شيئاً عن أختها كوليت أم ليس بعد؟ بلعت فريدة ريقها. جاهدت وسط الدموع. ذهبت السيدة زيدان الى المطبخ وعادت تحمل صينية عليها كعك بتمر. استحت أن تمد يدها وتلتقط قطعة. السيدة زيدان طلبت منها أن تأخذها معها. ظنّت فريدة عبدو زغلول أنها تضيّفها قطعة. لكن مدام زيدان زوجة الحلواني أعطتها الصينية كلّها. «واطعمي أمكِ!»

❋

الست الحويك أيضاً تكلمت معها. كانت فريدة تكنس الرصيف أمام البناية. لمحت الست آتية من السوق مثقلة بالأكياس، لابسة الأسود ثوب

الحداد. ألقت المكنسة عند المتراس وركضت كي تساعدها. في مدخل البناية، حيث يبدأ الظلّ، طلبت منها الست الحويك أن تتوقف لحظة. كانت تلهث متعرقة الوجه. سألتها فريدة هل تجلب لها شربة ماء. ألقت الست كميلة يدها على كتفها. نظرت إليها نظرة كادت تبكيها. للمرة الأولى منذ دهر شعرت فريدة أنها مرئية.

*

ساعدت الست بدّور زوجة اللحّام على تنظيف التتخيتة. أرادتها الست أن تبقى وتأكل شيئاً مع بناتها الثلاث على الطاولة. تحججت فريدة بأبيها وقالت إنها لم تُحضّر أكله بعد. قالت إنها مضطرة للنزول فربما تمرّ أمّها ولا تجدها في البيت وينشغل بالها. بينما تخرج الى صحن الطابق السابع سمعت انفجاراً غير بعيد. كان القصف متوقفاً في ذلك الصباح. منذ استسلم مخيم تل الزعتر لا يهزّ الدوي البناية إلا أثناء الليل، حين تبدأ الجولة الليلية لمدافع الغربية والشرقية. لم تفزع من الإنفجار لأنها تعوّدت. لكنها كالعادة فكرت في أمّها. قبل يومين مرّت وقتاً قصيراً ثم اختفت. لم تأكل شيئاً. عانقتها وهي تبكي ثم هربت. كانت رائحتها فظيعة. كأنها نامت في حفرة أو في زريبة. ركضت خلفها. لكنها انحدرت في النزلة وتبخرت بين الأكواخ. أرادت أن تطعمها كعكة أو عروساً بلبنة. ظلّت تنتظر رجوعها غير عارفة أنها لن تراها حيّة مرة أخرى.

*

السيد عازار توقف عند المساء وهو عائد من الصيدلية وسألها عن صحة أمّها. أخبرته أنها مريضة وتأخذ أدوية وتقضي وقتها بين المستشفيات والبرادات وحتى الآن لم ترجع. كانت تنتظرها أمام معرض الأدوات الكهربائية واقفة على رؤوس أصابعها تحدق باتجاه المسمكة ونزلة النبعة. احتار السيد عازار ماذا يفعل. ظلّ واقفاً هكذا دقيقتين ثم تركها ودخل.

المطبخ. حفظ كل ما فيه. حتى أشكال البقع على البلاط. ورسوم السيراميك فوق المجلى. كما حفظ تفاصيل الحمامين. العربي والفرنجي. أو الصالون. أو غرف النوم. حين يشتد القصف يجلس مع أم موسى وقتاً في الممر. يفرش على الأرض ويقرأ. أو يصغي إلى الإذاعة. لا تأكل إلا قليلاً. يقشر تفاحة ويقتسمها معها. المفروض أن يزيد وزنه هنا. بلا رياضة وحركة. حبيس الحيطان والنوافذ المحصنة. لكن هذا ليس ما يحدث. فقد كيلوغرامات. ليديا خافت عليه لأنه صار يدخن ثلاث علب في اليوم. وأحياناً أكثر. بعد تهجير النبعة وتل الزعتر تعمّقت كآبته. وقعت حادثة في نزلة المبرومة واجتاح الزعيق البناية. من الشقوق بين الأباجور استطاع رؤية الأخوين جرجي ومخايل يخرجان معاً، مثل توأم لم يفصله الجرّاحون، من وراء الطاولة التي تحمل القبّان والأوزان الحديد وعدداً من حبّات الموز، صارخين. جرجي سبق مخايل الى الطريق. كان يمدّ ذراعيه أمامه كأنه يتلقى طفلاً ساقطاً من السطح. ثم اختفى حيث لا يقدر أحدنا أن يراه ناظراً من فواصل أباجور مقفل. غاب الوجه المذعور. لكن الصراخ ازداد حدّة، ولم يختفِ.

*

كثر أنقذوا عائلات من الموت في تلك الفترة. خلّصوهم بسياراتهم أحياناً ونقلوهم الى خط التماس. كان الهاربون من الرصاص يدخلون أزقة قاتلة يضيعون فيها بحثاً عن درب توصلهم إلى المنطقة الغربية. ليديا أخبرت سليمان أن الكتائب وضعوا الآن حواجز على امتداد الطريق لمنع تكرار هذه الحوادث.

صار النقل يتم عن طريق الصليب الأحمر الدولي وشاحنات تؤمّنها قوة الأمن العربية. وصلت دفعة جديدة من القوة العربية وتمركزت عند المتحف الوطني في المنطقة الفاصلة بين بيروت الغربية وبيروت الشرقية. القسم الأكبر منها جنود سوريون. أخبرته أشياء يعرفها من الراديو ومن الصحف التي تجلبها له. لعلها لا تعلم ماذا جرى أثناء النهار في نزلة المبرومة. انتظر أن تدخل أم موسى في الحديث. لكنها هي أيضاً بدت ملتفة بحيطانها، غائبة في بئر لا يصلها ضوء ولا هواء. دخلت ليديا كي تتحمم. انقطعت الكهرباء قبل أن تنتهي. ارتفع في الخارج الضجيج الذي يسمعه كلّما قُطع التيار. أولاد يلعبون. دخن سيكارة وهو يقلي البيض على نار خفيفة. انتبه إلى رجفة يده. زعيق الظهيرة ما زال في جسمه، يتردد كالصدى. كذلك الوجه المذعور. بينما يتعشيان في ضوء الشموع أوشك أكثر من مرة أن يخبرها، ثم تراجع.

*

ليديا كانت تعرف. على الأرجح. اضطرت في تلك الفترة إلى تبديل الطرق التي تسلكها عادة. أسوأ من الأشياء التي تراها في الشوارع (والطوارىء) كانت الأشياء التي تراها في الكوابيس.

*

اصفرّت صور أخوتها الشهداء على زجاج السيارة. موسى وإيلي وطوني. كأن وجوههم تحترق. أزالتها وألصقت بدلاً منها آخر ما بقي في الصندوق. كانت تملك مزيداً من الصور لطوني فقط. في علبة كرتون على المقعد الخلفي. الملصقات داخل البناية لم تصفرّ بعد. حتى الشهداء الأقدم. حنا ساروفيم. وشارل الخوري. وخليل نصّار. لا تبوخ الألوان في الظلّ. يحميها المتراس. نظيفة. شبه جديدة. كل يومين أو ثلاثة تجلب الناطورة أو ابنتها الباقية في البيت، كرسياً، كي تقف عليه وتنفض بالريشة غبار وجوهٍ باسمة.

*

أوضة السفرة. صحيفة مفروشة على الطاولة. أزهار الغاردينيا مخمل بنّي. المنفضة بركان رماد. مقبرة أعقاب ذهبيّة. النظّارة سميكة العدستين. متروكة. الكرسي حيث يجلس عادة مدفوعة الى الوراء. فارغة. من الحمام يُسمع صوت ماء. المكان مخنوق. لا تصل ضجة الشارع إلى هنا. فقط طنين الوقت الذي يعبر بليداً ويترك أثر بزّاقة رطبة على صحن الشاي.

*

جريدة الجمعة 13 آب (أغسطس) 1976.

فيما كانت الترتيبات تتخذ لإخلاء المخيم اليوم

إقتحام تل الزعتر سبق الإتفاق

الخولي تسلّم 150 أسيراً بعد إجلاء 12 ألف مدني

واليوم يسعى الى إخراج مجموعة لا تزال في المخيم

عملية إخلاء مخيم تل الزعتر التي اتفق على أن تتم اليوم الجمعة، بعد اتصالات أجريت بين «القوات اللبنانية» وقيادة المقاومة الفلسطينية واشترك فيها ممثل الجامعة العربية الدكتور حسن صبري الخولي وممثل الصليب الأحمر الدولي السيد جان هوفليغر، تمت أمس على إثر تطورات مفاجئة أشعلت جبهة المخيم من جديد وأدت الى إقتحامه وبالتالي الى سقوطه وإخلاء 12 ألفاً من سكانه المحاصرين منذ 52 يوماً. وفي حين قالت وكالة الأنباء الفلسطينية «وفا» ان إقتحام المخيم «تم بالخديعة والغدر تحت ستار عملية ترحيل السكان التي جرى الاتفاق عليها ليل أول من أمس مع الصليب الأحمر الدولي وممثل الجامعة العربية»، قالت مصادر «القوات اللبنانية» انها فوجئت ليل الاربعاء- الخميس بهجوم على قواعدها وبعملية تسلل من جهة مونتفردي فاضطرت الى اقتحام المخيم. وذكرت هذه المصادر أنه لا يزال في المخيم جيب تحت الأرض اكتشف من اتصالات لاسلكية تمت بينه وبين القيادة الفلسطينية، وان هذا الجيب يضم ما يراوح بين مئتين وثلاثمئة عنصر،

وان اتصالات اجريت بين القيادة الكتائبية والمقاومة الفلسطينية لتأمين خروجهم اليوم سالمين.

دور الخولي وسلام: وقد لعب الدكتور حسن صبري الخولي دوراً كبيراً في الاشراف على عملية الاخلاء، كذلك في الافراج عن عدد من الأسرى لدى «القوات اللبنانية»، وعاونه قادة قوة الأمن العربية والصليب الأحمر الدولي في تسهيل العملية ونقل الذين أجلوا. وكانت أنباء الإقتحام قد استأثرت باهتمام كل الأوساط، وقد رافقتها معلومات عن قصف وتجاوزات فنشطت على الاثر الاتصالات على كل المستويات لتطويق الفوضى التي نشأت والحؤول دون الارتكابات. وأجرى الرئيس صائب سلام لهذه الغاية اتصالات مع السيد ياسر عرفات رئيس اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية ورئيس الكتائب الشيخ بيار الجميل. وقد طلب سلام من الجميل أن يعمل، بإسم الإنسانية، على الحؤول دون وقوع ما سمعه من أنباء عن القتل والذبح، فردّ الجميل مؤكداً انه وضع كل قوة الكتائب في تصرف الصليب الاحمر الدولي لمنع الارتكابات وتمنى على سلام إرسال موفد للتأكد من الأمر. واتصل سلام مجدداً بعرفات وأبلغه نتيجة اتصاله بالجميل وما سمعه منه، لكن عرفات أكد ان التجاوزات مستمرة، وقال ان العقيد علي المدني طلب من المقاومة بواسطة الصليب الأحمر إرسال وفد الى دمشق لمقابلة الرئيس حافظ الأسد وطلب إرسال كتيبة سورية لحماية تل الزعتر. وقد ردت المقاومة بأن هذا الموضوع هو شأن لبناني، لذلك فان أي طلب يجب أن يأتي من السلطات اللبنانية.

تسليم 150 أسيراً: وفي السابعة مساء وصل الدكتور الخولي يرافقه اللواء غنيم والعقيد شداد الى إقليم المتن الشمالي الكتائبي فأجرى من هناك اتصالاً بالشيخ بيار الجميل ثم انتقل ومعاوناه يرافقهم الشيخ أمين الجميل والمحامي جوزف ابو شرف الى مكان في الجديدة كان الكتائبيون يحتفظون فيه ب150

أسيراً من تل الزعتر فتسلمهم الخولي ونقلوا في ثلاث شاحنات لقوة الأمن العربية الى المنطقة الغربية من بيروت.

وصرّح الشيخ أمين الجميل أنه تلقى قبل يومين رسالة خطية من كل التنظيمات داخل المخيم تعلن فيها استعدادها للاستسلام وتطلب التفاوض حول طريقته، «فاتصلنا بالخولي والصليب الاحمر الدولي لاعداد الترتيبات. وليل الاربعاء- الخميس فوجئنا بهجوم على قواعدنا في المنصورية، فتبودل تراشق وقصف وتأزم الوضع. ثم زارنا العقيد علي المدني وأبلغنا رسالة شفهية من الرئيس السوري يطلب فيها بإلحاح وقف النار. لكن الفريق الآخر قام فجر أمس بعملية تسلل من جهة مونتفردي فاضطررنا الى اقتحام المخيم.» وأضاف ان 12 ألفاً أُجلوا أمس من المخيم وقد نقل قسم منهم في 28 آلية للصليب الأحمر الدولي وقسم آخر في 14 آلية الى المنطقة الغربية (...) وفي العاشرة قبل ظهر اليوم يعقد اجتماع في مقر إقليم المتن الشمالي الكتائبي في الجديدة يحضره الدكتور الخولي وكبار الضباط العرب والشيخ أمين الجميل وممثلون من مختلف فصائل «القوات اللبنانية» (الكتائب والنمور الأحرار وحركة الشبيبة وجبهة حراس الأرز والتنظيم) وذكر مصدر مطلع ان البحث سيتناول إتمام عملية إجلاء الذين بقوا في المخيم وقد يتطرق الى مسألة انسحاب القوات الفلسطينية من مناطق الجبل على ان تتمركز القوات العربية في حزام أمني في المتنين الأعلى والشمالي.

الخولي الذي أشرف على العملية: حاولنا تقليل الخسائر ما أمكن: تمنى الدكتور حسن صبري الخولي على فرقاء «القوات اللبنانية» ان تعامل الأسرى والمستسلمين في مخيم تل الزعتر كما عاملتهم الكتائب. وقد عقد الخولي مساء أمس مؤتمراً صحافياً تحدث فيه عن عملية اجلاء سكان تل الزعتر والملابسات التي رافقتها فقال: «تمت أمس عملية إخلاء مخيم تل الزعتر التي لم تكن منظمة كما ينبغي. فقد حصلت في الصباح الباكر بعض الحوادث

المؤسفة أدت الى خسائر في الأرواح. وكنا حريصين على أن تتم العملية من دون خسائر، فاتصلت بالرئيس كميل شمعون الذي وعدني ببذل جهوده لإنجاحها ثم ذهبت والقائد العام لقوات الأمن العربية الى بيت الكتائب حيث اجتمعنا بالشيخ أمين الجميل وبذلنا كل الجهود الممكنة للمحافظة على أرواح المدنيين من سكان المخيم. وأشرف الشيخ أمين بنفسه على العملية. وفي رأيي ان سبب الخسائر التي وقعت هو ان التخطيط للعملية لم يتم كما كان متفقاً عليه، وقد ساعدت عوامل كثيرة على عدم انجاحها كلياً. لقد أدت قوات الامن العربية واجبها فأوفدت عدداً من الضباط والقوات لنقل المدنيين من المناطق المحيطة بالمخيم. وعاونتها الكتائب بكل امكاناتها وساعدتها على التقليل ما أمكن من الخسائر.» وذكر الخولي ان نحو 12 ألفاً أجلوا من المخيم، ثمانية آلاف منهم نقلوا بالشاحنات وألفاً ساروا على الأقدام وثلاثة آلاف ظلوا في المنطقة الشرقية ثم غادروها على طريق عيون السيمان بينهم مواطنون لبنانيون وفلسطينيون وسوريون. وأضاف: «ان الكتائب كان لديها 56 مقاتلاً فلسطينياً وطبيب أسوجي وزوجته و7 ممرضات وقد أمر الشيخ أمين الجميل بتسليمهم إلي وأحضرتهم معي وهذه لفتة طيبة من الكتائب وأرجو أن يطبقها الأخوة الآخرون. فقد كانوا يعاملون الأسرى معاملة طيبة الى حد أن الشيخ أمين أشرف على مجيء الناس الى منطقة المتحف ووضع حراسة كتائبية لضمان سلامتهم.»

الاشتباك و300 قتيل: وسئل الخولي لماذا لم تنجح العملية تماماً فقال: «كان متفقاً بين الكتائب والمقاومة الفلسطينية على ان تتم العملية صباح الجمعة على أن يسبق ذلك اجتماع لكن الذي حصل ان اشتباكاً وقع صباح أمس فتحركت قوات الأمن العربية لتساعد على التقليل من الخسائر ونقلت المواطنين.» وسئل الخولي عن الضحايا التي سقطت فقال: «غير معروفة، لكنني أبلغت عن وقوع 300 قتيل وكانت النار تأتي من كل الجهات.» وسئل هل كان بين المستسلمين صوماليون وليبيون وصينيون وعراقيون، فأجاب:

«لم أتبلغ الا عن جنسيات لبنانية وفلسطينية وسورية ومصرية.» وعن رأيه في الأسباب التي حالت دون انسحاب القوات السورية من لبنان تنفيذاً لقرار الجامعة قال: «منذ ان تم اتفاق دمشق لم تجتمع اللجنة العليا ونعرف ان رئيسي الوفدين السوري والفلسطيني سافرا الى مؤتمر كولمبو فإما ان يعين بديلان عنهما أو يؤجل اجتماع اللجنة وثمة مشاورات جارية لإنعقاد اللجنة.» وسئل هل قابل العقيد السوري علي المدني في مقر عمليات الكتائب، فلم ينفِ ذلك ولم يؤكد، وقال «ذكر العقيد المدني ان سبب وجوده هناك هو إهتمام الرئيس الأسد بالنبعة وتل الزعتر.»

1600 قتيل: نحو الأولى بعد ظهر أمس كان أُجلي من تل الزعتر أكثر من خمسة آلاف شخص جمعوا أمام المدرسة المهنية في الدكوانة تمهيداً لنقلهم الى المنطقة الغربية. ونقل الى إقليم المتن الكتائبي سبعة أشخاص هم: الملازم السوري راجح وزوجته والدكتور يوسف (فلسطيني) والدكتور لورنس ميدمان (أسوجي) وزوجته الدكتورة أنيتا سيلبي (اسوجية) ومقاتلان فلسطينيان. وقال الدكتور يوسف انه كان يمارس مهنته في مستشفى تحت الأرض في تل الزعتر مزود بمكيف هواء ومحركات لتوليد الكهرباء. وفي المستشفى بئر صالحة مياهها للشرب كانت تسحب بواسطة المحركات. ولدى بدء الهجوم على المخيم كان هذا يضم 20 ألف شخص، 17 ألف فلسطيني والباقون من اللبنانيين وغيرهم. وأشار الى ان المستشفى ظل يعمل حتى بدء الاشتباكات ومحاصرة تل الزعتر ثم انقطعت المياه والكهرباء فتعذر على العاملين في المستشفى البقاء تحت الأرض فاضطروا للإنتقال الى البنايات المجاورة. وأضاف ان أكثر ما عاناه مرضى تل الزعتر هو النقص في المياه والأدوية. وهم كانوا يأكلون معظم الأحيان معلبات حمص وفول وعدس. وقد نفدت الأمصال بسبب ضخامة عدد الجرحى. وقال ان الأطفال الذين توفوا في أثناء المعركة (الحصار) ماتوا من الجفاف وانقطاع المياه... وقدّر ما خسره مخيم تل الزعتر منذ بداية الأحداث ب1600 قتيل.

صُوَر اليوم الـ52 في تل الزعتر:

دبابات تقصف تل الزعتر صباح أمس.

دبابتان تتجهان نحو المخيم.

الدخان يتصاعد من المخيم.

علم لبناني فوق المخيم.

كبار وصغار نساء ورجال.

أسرى يصعدون الى شاحنة.

عدد من أبناء المخيم يصعدون الى شاحنات في الدكوانة.

وعند «بوابة الامن العام».

وأمام المحكمة العسكرية.

عبروا من بيروت الشرقية الى بيروت الغربية سيراً.

جندي من قوة الأمن العربية يساعد جريحاً.

شاحنة في شارع فؤاد الأول.

رتل من الشاحنات تحمل عائلات من تل الزعتر على كورنيش المزرعة.

وقبالة المدينة الرياضية.

عدد من أهالي تل الزعتر في دار المعلمين في بئر حسن.

سقط مخيم تل الزعتر بعدما صمد 52 يوماً في وجه 70 هجوماً: سقط أمس مخيم تل الزعتر بعد ما تعرض لقرابة 70 هجوماً خلال 52 يوماً (منذ 22 حزيران). وكان المخيم تعرض في الخامسة صباح أمس لهجوم واسع اشتركت فيه أكثر من 100 آلية. وفي السابعة بدأت مدفعية «القوات المشتركة» خارج المخيم تقصف الحشود المهاجمة وعدداً من محاور الضاحية الشرقية. وقد أحكم المهاجمون الطوق حول المخيم وفتحوا فيه 4

ثغرات نفذوا منها الى داخله. وفي هذه الأثناء كان عدد كبير من سكانه تسللوا ليلاً وفجراً الى الدكوانة. وبين هؤلاء فلسطينيون ولبنانيون. وقرابة العاشرة والربع اقتحم المخيم بعد السيطرة على كل مداخله. وقد نقل قرابة 6 آلاف من سكانه الى الدكوانة وجسر الباشا والمدرسة الفندقية. وقالت المصادر الفلسطينية ان عدداً من الفلسطينيين الذين خرجوا من المخيم لم يصلوا الى المنطقة الغربية. وعلى الاثر وجهت قيادة المقاومة برقية عاجلة الى قيادة المخيم تحذر فيها من عمليات تصفية وتطلب من المقاتلين والأهالي عدم تسليم أنفسهم لغير الصليب الأحمر الدولي(...) واتهمت المقاومة «القوات الانعزالية عند حاجز المتحف بالتنكيل بالمواطنين الفلسطينيين واللبنانيين الذين تمكنوا من مغادرة المخيم وذلك تحت بصر قوات الأمن العربية التي لا تبعد عن الحاجز أكثر من عشرة أمتار.» وعلى اثر ورود معلومات عن إختفاء عدد من سكان تل الزعتر بعد مغادرتهم المخيم وعدم وصولهم الى المنطقة الغربية أقدم مسلحون على خطف عدد من الأشخاص بقصد المبادلة.

171
آل زخور 17 – الطابق الأول

في مونبليه أجريت له عمليتان تجميليتان. في الوجه، ومنطقة البطن. مستشفى الحروق الإختصاصي تتوسطه حديقة مزروعة بدوّار الشمس. سيقان ذابلة مقوّسة. بزور متساقطة من الأقراص. الدكتور غوستاف ماترن زاره ذات مساء وتكلّم معه. جلس جنبه. شرفة تطلّ على نافورة. كان من أصول هنغارية. ذهبّي الشعر. أزرق العينين. أنامله ممشوقة. تتحرك عضلة صغيرة في خدّه الأيمن وحدها. لا إرادياً. انحنى ورفع ساق بنطلون مخمل. بان حرق قديم جعّد الجلد من الكاحل الى فوق الركبة. أخبره نتفاً مشتتة من حياة لم يتخيل وهو صغير أنها ستكون حياته. أصغى ريمون بلا صوت. وقت

طويل. ملأت الدموع صدره لكنه لم يلفظ كلمة.

*

في الليل قاده الأرق الى تلفزيون مضاء. شاهد ما يحدث في بيروت الشرقية. تعاقبت صور فوتوغرافية جامدة، بيضاء وسوداء، من مخيم تل الزعتر. استطاع تبديل القنال. الزرّ تكّ قوي الصوت وهو يبرمه. خشخشة. برغلة رمادية. نقط بيضاء تعبر فضاء أسود. ثم صورة نقية. مباراة تنس. مانيويل أورانتس (أسباني) ضد بجورن بورغ (سويدي). كان المكان ساكناً، أصفر المصابيح، تغني فيه موسيقى كلاسيكية خافتة. رأته الممرضة. اقتربت مسرعة. كان مائلاً على الكراسي. كأنه مات في صالة الإنتظار.

172
آل عازار 14 – الطابق السابع

سعيد عازار اشترك في حصار تل الزعتر. أثناء معارك غاليري متى ودير الراعي الصالح في تموز (يوليو) التقى ثلاثة أشقاء (إبراهيم وروبير وفادي) مهجّرين من بلدة الدامور يقاتلون في صفوف النمور الأحرار. صار صديقهم. حين أخبروه أنهم فقدوا بيوتاً وأقارب لم يستغرب أو يتأثر. أكملوا قائلين إن شقيقهم الأكبر جوني قزّي موجود داخل تل الزعتر. للوهلة الأولى ظنّه أسيراً عند الفلسطينيين. حين شرحوا له أنه شيوعي ومهندس ومسؤول برتبة مفوّض في «الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين» لم يصدق! كانوا في متراس ضيق وحطّت حمامة عند الكوّة وطارت وهو يرى شخصاً أسود البشرة في متراس غير بعيد يطلّ وينظر إليهم كأنه يريد أن يتكلم معهم. منذئذٍ ظلّوا في رأسه، هم والأخ الأكبر جون قزّي العدو المحاصر داخل المخيم مع الفلسطينيين، ظلّوا مرتبطين بتلك الحمامة السوداء (لم تكن سوداء، لكن ماذا يغيّر ذلك؟). حين سأله آمر فصيلهم طوني حنوش الملقب ب«الحنش» والذي استشهد

هناك بعد فترة قصيرة لماذا لا ينضم إليهم، إلى النمور الأحرار، شرح له أنه يفعل ذلك الآن: «نحن جبهة واحدة». في معارك الحصار رأى أحد رفاقه (سامي زوين) ينزف في دير مار روكز. حاول أن يسدّ ثقبين في جسمه. أصابه القناصون كما أصابوا «الشيف» وليم حاوي. تصبّب العرق منه. كان سامي زوين صغير السنّ، في السابعة عشرة أو السادسة عشرة. تمرّس في التسديد البعيد. يقنص على سبيل الماء. من تلّة مار روكز يحقق إصابات مباشرة داخل المخيم. «كأس الماء ثمنه كأس دم في تل الزعتر». في تلك الفترة التحق بهم مقاتلون من الأحزاب الأرمنية ثم انفصلوا عنهم من جديد لتركيز جهودهم على المحاور الجديدة بين كمب مرعش وكمب طراد. مع سقوط النبعة اكتشف سعيد عازار أن لذّة القتال صارت في دمّه. تنقّل بين الجبهات كأنها ملاعب. في الأسواق التجارية اعتاد على متراس كلّه أصدقاء غير بعيد من مبنى البرلمان. كانوا يتبادلون الشتائم مع الجانب الآخر الذي يبعد عنهم أقل من أربعة أمتار. في ليلة هادئة نسبياً دخل في حديث ودّي مع مرابط يدعى لطفي أخبره أشياء عن أهله والصلاة في الجامع وعن «فهود الخندق الغميق» وعن فرن لحم بعجين في الغلغول، هنا على بعد دقائق وراء التياترو، لكنها أرض محرمة على حراس الأرز. سأله سعيد عازار ألا يستحي وهو يقاتل مع الأغراب ضد أهل بلده، أليس لبنانياً؟ انتظر جواباً يفسر له طبيعة لطفي المرابط. لكن اشتباكاً بدأ من جهة الأوتوماتيك، والدوشكا أقفل الحوار.

*

في إقتحام تل الزعتر لم يتورع عن تصفية كل مخلوق اعترض دربه. إلا الأطفال. هؤلاء أنقذهم ودلّهم الى مكان وجود الصليب الأحمر. وهو صغير يساعد أباه في صيدلية ساحة البرج وقعت حادثة لا ينساها: رجل مهم في بذلة بيضاء كالثلج دخل الى الصيدلية في ظهيرة يوم عاصف معتم غزير الأمطار وأخبر الزبائن الموجودين عن دكتور في الجامعة الأميركية كتب

«روشيتة» (وصفة طبية) بدواء خطأ لطفل عمره شهور. ومات. سأل سعيد والده ماذا سيحدث للطفل الميت الآن؟ أجابه أنه سيذهب إلى ربّنا ويعيش مع الملائكة. سأله ماذا سيحدث للدكتور؟ أحدهم - شخص غير والده وغير الرجل في البذلة البيضاء- أعلمه ان الدكتور سيذهب الى جهنم حيث يُشوى بطيئاً على النار ثم يبدل جلده ويشوى مرة أخرى، إلى الأبدية. حين كبر اكتشف أنه يحب رؤية ضحكات الأطفال. اعتنى بهم لا خوفاً من نار جهنم ولكن لأنهم يذكّرونه بأخيه الصغير.

❊

بيت 5 غرف. لم يتأذَ بقصف النبعة. فخم. أخوت الذي بناه هنا. بلاطه رخام. حنفياته نحاس. حصل على مفاتيحه وذهب إلى «المبرومة» مسروراً. تسلق الدرج قفزاً. لم تستوقفه الصور الجديدة في مدخل البناية. الشهداء والمفقودون يتكاثرون طبيعياً في الحرب. على صحن الطابق الرابع لمح صبية شقراء تملأ فستاناً برتقالياً. قنبلة. لكنه منع نفسه احتراماً للجيرة. حيّاها من دون أن يتوقف وهو يصلح الحزام على كتفه. وصل الى البيت لاهثاً من ثقل السلاح والذخيرة. رفع سلسلة المفاتيح وضحك. لم يتوقع ما حدث بعد ذلك. صُدم لأن لا أمّه ولا كلوديا تريدان أن تتركا الشقة الضيقة على الطابق السابع في حيّ العبد.



أخذ منزل النبعة له. جاء رفاق وسكنوا معه. ظلّ يمرّ على بناية أيوب بين وقت وآخر. كي يرى مرغريتا وشربل وأخواته. وكي يأكل من طعام البيت. حين أخبرته أمّه أن الناطورة أم يوسف ضاعت تذكر أنه لمحها مرة على طريق تل الزعتر. قالت أمه إن أم جان طانيوس طبعت لها ملصقاً في المطبعة، ودفعت من جيبها، لكن وكيل البناية المنحوس زخريا الزمّار لم ينشر إعلاناً في الجرايد بعد، مع أنه وعدنا. سعيد تناول ملعقة أخرى من صحن الطبيخ

وسأل أمه ماذا سينفع الإعلان في الجريدة؟ استعمل لقمة خبز ضخمة (ربع الرغيف) ومسح ما بقي من رزّ وفاصوليا. «اذا كانت بعدها عايشة سترجع وحدها يا أمي.»

❋

غاب أسبوعين وعاد. شكت أمّه من ألم في ظهرها. سألها هل تريده أن يأخذها الى الطبيب. «عندك سيارة؟» أخبرها انها جديدة، تويوتا. نزلت كي تنظر إليها. كانت فضّية غسلها للتو في المحطة المجاورة. الأولاد تجمعوا مع شربل. أعطاه المفاتيح. «هذا للباب.» دخلوا إليها. شربل احتلّ مقعد السائق. أمرتهم أمّه بالخروج لئلا يتوسخ الفرش. «اتركيهم يلعبوا.» أخبرته أن والده سيرجع بعد ساعة. «نذهب ونجلبه.» صعدت على المقعد جنبه. شربل تسلّق المسند الى خلف. واحد من أبناء الجيران ظلّ معه. انطلق سعيد عازار إلى صيدلية الناصرة. بينما يعبرون حاجزاً أعلمته أمّه أن الناطورة لم ترجع بعد وأنها فقدت الأمل. توقف أمام الفرن واشترى خبزاً طازجاً وكعكاً حاراً. كانت الشجرة القديمة حيث التقى حراس الأرز للمرة الأولى ما زالت في مكانها. والأعلام ترفرف فوق سطح المدرسة. تفاجأ أبوه بالسيارة. دار حولها. وضع يده على رقبة إبنه. طلب منه أن يفحص زيت الفرامل دائماً. أوصاه بالحذر من السرعة. كأنه ما زال ولداً. كأنه لا يمرّ أمام الرصاص والقذائف ليلاً نهاراً. «هل تريد أن تجربها؟»

173
آل زغلول 14 – الطابق الأرضي

لم يتركوا مكاناً لم يذهبوا إليه. جاءت داليا ومعها شباب وفتيان أقارب زوجها. طلبوا من فريدة أن تخبرهم عن جميع الأماكن التي كانت تقصدها أمّها المفقودة. كانت فريدة تعرف كنيسة السيدة، لكن أمّها لن تضيع هناك. الست طانيوس أرسلت أحد الشغيلة إلى الطابق الفوقاني كي يستدعي دارين

عازار. أخبرت الشباب المتحلقين حول داليا أن أم يوسف كانت تنزل إلى النبعة كثيراً للبحث عن كوليت. نظرت إلى أحدهم يتفقد المراوح الكهربائية وسألته هل يريد أن يشتري. «سأعمل لك سعراً.» كانت المروحة المعلقة من السقف ترسل أزيزاً ولا تبدّل هواء آب (أغسطس) الساخن. تكلّموا مع عبدو زغلول والد داليا. فهموا منه أن زوجته جاءت آخر مرة في الليل، دقيقة، وذهبت. فريدة كانت نائمة. وهو شبه نائم أيضاً. لم يستفيدوا من حكيه شيئاً. تحدثوا مع الجيران. داروا على البيوت الواطئة في «نزلة المبرومة». مشطوا حيّ العبد زقاقاً زقاقاً. ألصقوا صورتها على باب «قهوة فيليبوس». مثل الكشّافة حدّدوا أماكن أبعد يمكن البحث فيها. معظمها في منطقة النبعة. دارين عازار كتبت لهم عناوين منازل. ذهبوا وبحثوا واكتشفوا أن معظم البيوت لم تعد موجودة. تهدمت أو احترقت. بعض المحلات لم يتمكنوا من بلوغها لأنها صارت «منطقة عسكرية». سدّوا أنوفهم حيث الروائح قوية والذبان يملأ الجو. أسرعوا وركضوا. تكلّموا مع ناس في الطرقات. وصفوا المرأة التي تعرج قليلاً. كرّروا لفظ إسمها. وإسم إبنتها كوليت. وجدوا من تذكر رؤية الناطورة مرة ومرتين. هي أو إمرأة تشبهها. صاحب محل فليبرز في برج حمود أخبرهم أنه يعرفها، كانت تحمل صورة لإبنتها المخطوفة وتسأل الذين يلعبون هل رأوها. «مسكينة.» لعبوا دورين فليبر. كل دور بربع ليرة. في مطعم فلافل مجاور أكلوا سندويشات ووسّخوا الرصيف طرطوراً وبزراً من قرون الحرّ المخللة. شربوا لبن «عيران» خفّف عنهم قيظ الصيف ثم تابعوا بحثهم. تكلموا مع سائقي السرفيسات ووجدوا من يتذكرها. بائع غزل بنات وسمسمية يتجول على دراجة هوائية سألهم هل هي أمّهم؟ ضحكوا من سؤاله. سألهم لماذا يبحثون عنها إذاً؟ في طريق تفضي إلى سن الفيل أخبرتهم عجوز لطيفة صاحبة دكان سمانة أنها جلست هنا مرة على حافة الرصيف أمام دكانها. كانت حتى تتذكر إسم البنت التي تبحث عنها (كوليت). المعلومات كانت عادية ولا تدلّ إلى مكان والدة داليا أو مصيرها. خلال الأسبوع الأول

من أيلول (سبتمبر) كفّوا عن التفتيش. نُشر الإعلان في الجريدة.

«غادرت راغدة زغلول (47 عاماً) منزلها في بناية أيوب في الأشرفية ولم تعد. الرجاء ممن يعرف عنها شيئاً الإتصال على الرقم 302402.»

*

بعد أسابيع من اختفاء أمّها، انزلقت قدم فريدة زغلول وهي تمسح الدرج. وقعت على الماء والصابون وظلّت على الأرض. عجزت عن القيام بسبب الألم في وركها. كانت في نقطة ما بين طابقين في بناية خرساء شبه ميتة. تكوّمت على نفسها، تئن وتبكي. «وقعتِ يا بنتي؟» فتحت عينيها. ميّزت في العتمة الخفيفة قامة الدكتور معلوف وملامح وجهه. تكبّرت على الوجع ونهضت وهي تستند إلى الحائط. مدّ يده وساعدها. كان الدلو ساقطاً على جنبه على البلاط. انحنى وقبض عليه من مسكته وأزاحه من الدرب. رائحة كولونيا ملأت الدرج. «يعطيكِ العافية يا بنتي.» نظر إلى الدرج منتبهاً أين يضع قدمه لئلا ينزلق ويكسر عظمه وهو يطلع.

174
آل زيدان 6 – الطابق الخامس

عالجتهم بالنعناع المغلي. واليانسون. الرزّ المفلفل. واللبن. سلقت بطاطا في طنجرة كبيرة ومنعتهم عن أي طعام آخر. شكّت في البطيخ والشمّام أو المشمش والكرز، سبباً للإسهال الذي أصابهم. طلبت من غسان ألا يشتري فواكه من السوق. «من أين أشتري إذاً يا سيسليا؟» أضحكها لأن هذا الصنف من الدعابات غريب عنه. قبل زمن بعيد، قبل الحرب، كانت هي من يُضحك البيت بالتعليقات الظريفة.

*

أكثر من مرة وضعت أكلاً في الصحن وأنزلته بنفسها الى فريدة بنت الناطورة. أبكتها صورة الأم التي ألصقوها حد صورة إبنتها. صورة في المدخل. حد الجرس. وصورة على الحائط خارج البناية. كانت صورة قديمة. بدت راغدة زغلول أخت كوليت زغلول لا أمّها. سيسليا زيدان شعرت بشفقة لانهائية. في 8 أيلول (سبتمبر)، عيد ولدها كامل، خبزت قالب حلوى. غرزت فيه ست شمعات. واحتفلوا. كان مساء هادئاً نسبياً. في الصباح الباكر قطعت قطعتين بتأنٍ، وأنزلتهما على صينية الى الطابق الأرضي.

❊

جاء أقارب في زيارة. ذكروا وجود بيت فارغ في بناية جديدة في عبد الوهاب الإنكليزي. معروض للإيجار. والمبلغ أقل من هنا. سألها غسان ما رأيها. «أكيد. نذهب ونراه.»

❊

كان المفروض أن تشعر بالراحة بعد انتهاء معارك النبعة وتل الزعتر. حدث العكس: أزال غسان أكياس رمل عن إحدى النوافذ فرأت دخاناً أسود وأرضاً محروقة. انتظرت الشمس. والهواء النقي. أتعبت صدرها الذكريات. والرائحة. أقفلت الأباجور الخشب. جاهدت بسبب الصدأ الذي اعترى المفاصل. منذ زمن لم يتحرك. سال العرق على رقبتها. ابتلّ قميص النوم. سمعت خفقة قلبها. ذهبت كي تتحمم.

175
آل زغلول 15 – الطابق الأرضي

المديرية العامة لقوى الأمن الداخلي

قيادة شرطة بيروت

سرية بيروت الإقليمية الثالثة

فصيلة الأشرفية

مخفر الجعيتاوي

رقم 303/ 317

تاريخ: 14/ 9/ 1976

الموضوع: محضر تحقيق حول وجود جثة في خزان مياه على سطح بناية أيوب/ محلة الأشرفية عائدة للمدعوة راغدة زغلول- لبنان، وسبب وفاتها.

في الساعة الرابعة عشرة من يوم الثلاثاء الموافق الرابع عشر من شهر أيلول ألف وتسعماية وستة وسبعين نحن المعاون الأول جوزف كحيل رقم 9561 ضابط عدلي مساعد لحضرة النائب العام الإستئنافي في بيروت التابع فصيلة الأشرفية ومرتدين اللباس العسكري ثبت أنه أثناء وجودنا في مركز الفصيلة أعلمنا هاتفياً عن وجود جثة في خزان مياه على سطح بناية أيوب في حيّ العبد محلة الأشرفية عندها أعلمنا حضرة المقدم قائد السرية الإقليمية الثالثة بهذا الحادث وانتقلنا برفقة كاتب التحقيق مرسيل عطايا رقم 22437 ترافقنا دورية مؤلفة من المعاون كامل قولاقز رقم 2179 والرقيب شمعون رقم 5481 والعريف عاصي فريحة رقم 1179 والشرطي أنطون حميري رقم 3482. وبوصولنا شاهدنا مجموعة من حزب الكتائب وأخرى من حراس الأرز في مدخل البناية وعلى سطحها مع عدد من سكان البناية. وأعلمنا من الحاضرين ان الجثة ما زالت في الخزان وهي متفسخة ويتعذر سحبها. عندها ولدى الكشف على فتحة الخزان شاهدنا علبة دواء لون عسلي أثبت السكان أنهم فحصوها وأعادوها الى مكانها وهي فارغة سعتها 24 قرصاً وماركتها ممحوة يجوز أنها مخدرات وأرسلناها للمختبر الطبي/ مستشفى أوتيل ديو. وشاهدنا أرياش طيور وخصل شعر بنّية وشقراء عالقة بالفتحة متساقطة من رأس الجثة كما شاهدنا بقعة سوائل من الجثة وعفونة سوداء. أما الجثة

فمنقلبة على ظهرها كون الغاز يتجمع في منطقة المصران والبطن. واللحم البائن أصفر بادىء بالتحلل والبطن يلطم سقف الخزان. وطلبنا من مكتب حوادث بيروت فحضرت دورية برئاسة عيسى عبد النور وقامت بأخذ الصور والرسوم وأعلمنا الدفاع المدني بهذا الحادث لتسهيل نقل الجثة وتبين لنا أن المرحومة تدعى راغدة زغلول وهي ناطورة بناية أيوب منذ سنوات كما صرح لنا أهالي البناية والسيد زوجها المدعو عبدو زغلول مهنته سبّاك وقمنا باستماعه على الشكل التالي:

إفادة الزوج عبدو زغلول:

س ج: إسمي عبدو فرحان زغلول والدتي مريم مواليد فرن الشباك عام 1922 وسكان بيروت، الأشرفية، بناية أيوب العبد، الطابق الأرضي، مدخل البناية. أمّي، متأهل، أولادي خمسة، لبناني رقم سجل نفوسي 719 فرن الشباك.

س: بصفتك زوج المرحومة ومتواجد معها بصورة شبه مستديمة أخبرنا تفصيلياً عن كيفية حصول هذه الوفاة ومدى معرفتك بما جرى.

ج: أنا متزوج منذ عشرين سنة براغدة أم أولادي لي منها أربع بنات وصبي، بنتي كوليت مفقودة منذ شهر أيار خُطفت في النبعة، وبنتي داليا زوجة العريف في قوى الأمن الداخلي مخايل شليطا سكان محلة الناصرة أحيل على المعاش بعد إصابته في أثناء الخدمة. زوجتي مريضة تتعالج بأدوية ومفقودة منذ أربعة أسابيع تقريباً وأثناء وجودي لتناول طعام الغداء داخل منزلي مع بنتي فريدة فوجئت بالولد شربل عازار ابن الجيران في الطابق العلوي يدخل الى بيتنا بحالة خوف شديد ويطلب مني الصعود الى السطح قائلاً انهم خلعوا بابه لوجود رائحة قوية ولتغير لون الماء في الحنفية. وذكر أمامي أنه توجد جثة إمرأة في الخزان وهي ترتدي فستاناً مثل الفستان الذي كانت ترتديه زوجتي يوم خروجها وعدم رجوعها في منتصف شهر آب. وصعدت معه أنا وفريدة

وعدد من الجيران الذينِ تجمعوِا وهم هنا الآن وشاهدنا أخاه سعيد عازار على سلم الخزان يحاول استخراج الجثة (...)

س: متى شاهدت زوجتك لآخر مرة.

ج: في أواسط آب، لا أحدد التاريخ بالضبط، وشاهدتها تلك الليلة الأخيرة دقائق معدودة ولم أتمكن من معرفة أين هي متوجهة، وقد مرّت وأنا في الفراش وأخذت شيئاً من الجارور وخرجت.

س: بصفتك زوج راغدة هل تعتقد أن وراء وفاتها نوايا جرمية وبمن تشك؟

ج: لا أعتقد أنه يوجد نوايا جرمية ولا أشك بأحد لأن زوجتي كانت على علاقة طيبة بجميع سكان البناية والحيّ وهي كانت منهارة منذ خطف بنتنا كوليت في أيار كما ذكرت لكم ولا أشك بأحد وأعتقد أنها أخذت الدواء ونزلت الى الماء بسبب الحرّ وغرقت. ولا أرغب الإدعاء على أحد. فقط أطلب تسلمي جثة زوجتي لإجراء مراسم الدفن.

س ج: ليس لدي ما أضيفه خلاف ذلك وهذه إفادتي.

إفادة المدعوة ناجية حدادة:

س ج: إسمي ناجية حدادة إبنة يوسف حدادة والدتي هناء مواليد محلة الكرنتينا عام 1920 وسكان بيروت الأشرفية، بناية أيوب/ حيّ العبد الطابق السابع، زوجة راجي عازار صيدلي بالتمرين موظف حالياً في صيدلية الناصرة/ الأشرفية رقم سجل النفوس 863 برج حمود.

س: بتاريخ 14/ 9/ 1976 كنتِ أول من شاهد جثة المدعوة راغدة زغلول في خزان المياه على سطح بناية أيوب فهل لكِ أن تخبرينا تفصيلياً عن اكتشافك الجثة ومشاهدتك ومعلوماتك عن هذه الوفاة.

ج: أفيدكم وبصراحة أنني على علاقة طيبة بالمرحومة راغدة زغلول

ناطورة بنايتنا وكنت أكن لها كل المودة والإحترام خصوصاً وأنها فقدت إبنتها كوليت زغلول قبل خمسة شهور وتعذبت كثيراً وفقدت رشدها وهي تبحث عنها، وكانت تصحب معها إبنتي دارين عازار كون إبنتي صديقة إبنتها المفقودة وتعرف المنازل حيث عملت في تعليم الدروس الخصوصية. وأعتقد أن المرحومة راغدة خسرت أملها الأخير بعد تهجير أهالي النبعة كونها نزلت الى مدرسة النبعة الرسمية عندما أبلغوها بإكتشاف جثث لعدد من المخطوفين هناك وبحثت بينها ولم تجد كوليت كما دخلت إلى بيوت مهجورة محروقة فيها جثث وفتشت بينها بحسب ما سمعنا من ناس من الحيّ شاهدوها هناك خلال شهر آب. وصباح هذا اليوم 14 أيلول شاهدت وأنا أغسل الخس في المجلى في منزلنا أن مياه الحنفية معتكرة ورائحتها «فطيس» (ميت) وفكرت على الفور ان خزان السطح تلوث بوقوع طيور ميتة فيه كون الحمام يحطّ فوق دائماً والسطح مقفل منذ فترة بسبب اختفاء المرحومة الناطورة ومفتاح السطح معها ولا أحد غيرها عنده نسخة منه وقد طلبناه سابقاً وبحثت عنه إبنتها فريدة زغلول ولم تعثر عليه. وبما أننا نعاني منذ مدة في الطابق العلوي من وجود رائحة لا نعلم مصدرها حسمت قراري وطلبت من إبني سعيد عازار الذي صودف وجوده في المنزل أن يخلع باب السطح. ولدى اتمام الأمر شاهدت فتحة الخزان مفتوحة وأسراب الطيور تقفز على الباطون وكانت الرائحة قوية في الشمس ولا يمكن تحملها. وصعدت أنا على السلم كون إبني سعيد عازار انشغل بإبعاد الطيور وشاهدت شيئاً أسود يتحرك في آخر الخزان وكان ريش الحمام والغربان وسلحها يغطي المياه ولم أعرف أنها جثة الناطورة راغدة زغلول حتى رأيت فستانها وشعرها ويدها الممدودة والساعة التي أذكر أنها ساعتها. وعندها طلبنا الشرطة.

س: هل تعتقدين ان الوفاة حصلت من دون وجود شخص آخر مع المرحومة في ساعة وفاتها وهل هناك أي خلافات بين راغدة وزوجها أو بينها وبين أي أحد آخر أنتِ على علم بها طالما أنكِ ساكنة في البناية نفسها وكانت

بينكما علاقة جوار ومودة.

ج: أخبركم أن راغدة من الأشخاص المساكين الأوادم المحبوبين من جميع معارفها وأولادها وزوجها وسكان البناية والحيّ ولا يوجد لها أي أعداء أو خصومات مع أحد وكانت خدومة مخلصة في عملها ولم أسمع عليها أي شكوى الا أنها انهارت بعد خطف إبنتها كوليت زغلول في النبعة في شهر أيار كما تأثرت كثيراً من شلل صهرها العريف في قوى الأمن الداخلي مخايل شليطا سكان محلة الناصرة زوج إبنتها داليا زغلول الذي قنصوه في ظهره أثناء الخدمة، وإني أعتبر أن وفاتها على علمي أنا وحسب ما شاهدت قد حصلت لها بإرادتها وإرادة ربنا وأترك لكم وللقضاء هذا الأمر.

س ج: كلا ليس لدي ما أضيفه خلاف ذلك وهذه إفادتي.

الكشف على مكان وجود الجثة:

محلّة حيّ العبد الأشرفية، خزان إسمنتي للمياه بعمق ثلاثة أمتار سعة 180 برميلاً قائم على سطح بناية السيد أيوب العبد صاحب المطاحن وهو موجود حالياً في المهجر المكسيكي. على وجه الماء، طافية ومنتفخة في فستان رمادي عليه بقع صفراء، توجد جثة المدعوة راغدة زغلول، مجهولة محل الولادة، مواليد ما بين 1927 و1930 كما أفاد زوجها. ترتدي فستاناً رمادياً رصاصياً وفانلة غامقة تحته بحسب مشاهدتنا الأولية ولم نستطع تحديد أكثر من ذلك في الوقت الحاضر كون الجثة عالقة في آخر الخزان بعيداً من الفتحة ولا يمكن سحبها.

الكشف على الجثة:

إمرأة في العقد الخامس من العمر ترتدي ثوباً رصاصي اللون عليه دوائر صفراء وفانلة سوداء تحت الثوب وهي متورمة الوجه شعرها مبتل بالماء، مطبقة العينين، عادية الأذنين والأنف، علامات الموت بادية على وجهها، جفنها الأيمن متورم أخضر اللون، والجانب الأيمن للوجه بدأ يتفسخ ويعتقد

ان جسمها بالكامل دخل حالة (...) حسب ما شاهدنا من يدها والقدم اليسرى (...) طولها حوالي مئة وخمسة وخمسين سنتمتراً وانتفاخ بطنها يظهرها حبلى لكن هذا شائع في وفيات الغرق التي يتأخر اكتشافها وهناك سلسلة مفاتيح حول رقبتها غارقة تحت الماء، هذا ما شاهدناه ودوّن.

ملاحظة: كلفنا الطبيب الشرعي الدكتور نعيم شاوول بالإنتقال الى براد مستشفى أوتيل ديو بغية إجراء الكشف من قبله على جثة المدعوة راغدة زغلول ووعدنا بتقديم تقريره الطبي فور إنجازه.

نُظم هذا المحضر بالوقت والتاريخ المذكورين في مقدمته ثم خُتم الساعة الثامنة والنصف مساء من تاريخ 14/ 9/ 1976 على نسختين تقدم الأولى مع تقرير الطبيب الشرعي للنيابة العامة الاستئنافية في بيروت والثانية لرئيس مكتب المستندات والمحفوظات.

تقرير الطبيب الشرعي:

تقرير طبي شرعي 358/ 76

التاريخ: 14/ 9/ 1976

بتاريخه أعلاه، وبتكليف من النيابة العامة الاستئنافية في بيروت، بواسطة فصيلة الأشرفية، قمت بالكشف على جثة المرحومة راغدة زغلول، لبنان، مواليد 1927-1930، وذلك في تمام الساعة السادسة مساء في مستشفى أوتيل ديو في بيروت:

وقد تبين لي نتيجة الكشف ما يلي:

1 - الجثة عائدة الى إمرأة متوسطة القامة، في العقد الخامس، نحيلة، بنّية الشعر، ترتدي فستاناً رمادي اللون وفانلة داخلية سوداء وجوارب نايلون ممزقة.

2 - الشعر والثياب ما زالت رطبة.

3 - سحجات وجروح ورضّات متفرقة في الكوع الأيسر والفخذين والظهر والركبة اليسرى.

4 - تعفن وتفسخ في الصدر والزندين.

5 - اليباس الرمّي والزرقة الرمّية زالتا لمرور فترة على تاريخ الوفاة.

6 - تعذر(...) بسبب الحالة المتردية للجثة وإنبعاث غاز الكادافرين والبترسكين من الأحشاء. وأظهر استخدام الإنبوب إمتلاء الرئتين بالماء ما يؤكد إبتلاعه قبل الموت.

في الخلاصة وسبب الوفاة: فإن المرحومة راغدة زغلول قد غرقت في خزان المياه على سطح بناية أيوب/ حيّ العبد/ الأشرفية وتوفت منذ 20 - 30 يوماً.

الدكتور نعيم شاوول

جراحة عامة وعظمية

طبيب شرعي

176
آل حبيب 19 - الطابق الرابع

36 ساعة فصلت بين إزدحام الأجسام في الملجأ المختنق الهواء تحت بناية أيوب (حيّ العبد، بيروت) والسير الحرّ الطليق في الشارع ال42 تحت سماء مانهاتن (فورتي سكوند ستريت). عارية الذراعين، برتقالية الثوب، لامبالية بتفكك أوصالها بعد الرحلة الطويلة فوق أوروبا والمحيط الأطلسي، تعلّقت حلا حبيب بذراع رضا حيدر ولم تفلتها. جرّ حقائبها إلى «نيو أمستردام هوتيل» المجاور. لم تفهم لماذا حجز لها في فندق. كانت تريد الذهاب مباشرة إلى مسكنه في بروكلين. ضحك وهو يكلّمها بالإنكليزية،

ثم ينتبه ويمزج كلامه بالعربية والفرنسية. مع أنها تتقن الإنكليزية أكثر منه، على الأقل قراءة وكتابة. شرح لها أن غرفته أصغر من حقائبها. كانت تتقافز في الفضاء فرحة به وبوصولها، سعيدة بالعمارات الزجاج الشاهقة، بالمطاعم والمشارب وعارضات الأزياء، بالسيارات الصفر والدرّاجات النارية والشبان الأنيقي البذلات، بالمحلات التي تبيع البوظة الآيس كريم، وببهجة الألوان والعطور والأغاني. وقعت في حبّ نيويورك منذ النظرة الأولى. رأت المهرجان يعبر المدينة صاخباً. أدركت في أيام قليلة أنه بلا بداية ولا نهاية وأن نيويورك هي هذا المهرجان الذي لا ينضب. ليلاً نهاراً ملأتها ضجة تعجّ حياة ورغبات وحرية. كهرباء مانهاتن. أنهار الجادات المضيئة. أبراج ومتاحف. مكتبات ومطاعم. أفخم وأجمل محلات ثياب في العالم. سكربينات وجزادين. صنادل ملوّنة. جزم طويلة. بوّابة أميركا تذوب فيها الجنسيات والأعراق والأحلام. كأنها الجنّة. في تلك الدقائق الأولى في «فورتي سكوند ستريت» عانقت رضا خائفة لا تريد أن تبقى من دونه ثانية واحدة. جسمها المهزوز من الطائرة البوينغ 747 ثم من الباص رقم 6 الذي حملها من مطار نيوارك إلى هنا، ذاب بين ذراعين اشتاقت لقوّتهما. معدتها عثرت على مركز التوازن. التأم جسدها من جديد. تنشقت الرائحة التي منعتها ذكراها من التحطم طوال شهور القصف والفزع في بناية مستديرة مشرعة على أربع جهات تهتز اذا سقطت قنبلة وتقرقع نوافذها اذا قصف مدفع من مربض مجاور. نسيت حرب المخيمين ونسيت النبعة ونسيت الصور الحزينة في مدخل «المبرومة» وعلى باب صالون الحلاقة وعلى زجاج «قهوة فيليبوس». قال رضا انه لا يصدق أنها هنا معه في أميركا، أنها جاءت. عناقه الشديد أخرج الأنفاس من صدرها. فاجأتها عاطفته دافقة كالنهر في مكان مفتوح. في بيروت كان يستحي اذا أمسكت يده في الشارع أو الحديقة أو المطعم. جذبها إليه ورفعها عن الرصيف. شعرت أنها نجت. لم يقتلها الرصاص. ولا خُطفت. لم تختفِ عن وجه الأرض وهي تعبر الطريق. حقائبها توزعت بهو

الأوتيل الأحمر الموكيت. مزروعة مثل صخور في الماء، تخبرها شيئاً لا تعرف ما هو. كؤوس النبيذ التي تجرّعتها في الجوّ أثّرت فيها الآن فقط، بينما تلتقط قلماً رُبط بخيط وتوقّع اسمها في سجل الفندق. كتبت اسم أبيها كما كان كارلوس يكتبه، كما كان مكتوباً على بطاقة نزعتها عن حقيبة. الحاجب لم يجد اسمها طويلاً لأنه لم ينظر أصلاً. لكن رضا ابتسم في المصعد وأخبرها أنهم هنا لا يكتبون اسم الأب. كان ملتصقاً بها لا يشبع منها. بنطلون جينز وقميص جديد أصفر. لم تهتم لكلماته لكنها عبست ورفعت أصبعاً. وهو تذكر إيماءاتها وضحك. داعبت رأسه الحليق وسألته متى قصّ شعره. «ذيس مورننغ» (هذا الصباح). بدا لها أطول مما تتذكره وأنضج وأجمل. لم تفلته حتى بينما يسحب الحقائب من مصعد سريع لم تركب مثله من قبل، إلى ممر برتقالي الموكيت. استدار ورأى الباب المعدني الفضّي ينغلق خلفها. استقبلها وهي تقفز عليه. كانت أصوات التلفزيونات تنبعث مسموعة من وراء أبواب تتراصف بانتظام، مرقمة وبارقة المسكات، على طول الممر. أمامها، على سجادات مستطيلة صفراء اللون طُبعت عليها صورة الأمباير ستايت بلدنغ، تُركت صحف أميركية مطوية في بيوت قماش أخضر، قناني ماء وحليب وبيرة، صينية عليها فناجين شاي وإبريق وبقايا طعام. من الجانب الآخر ظهرت خادمة في زيّ رمادي اللون آتية مع عربتها تجمع الأغراض من أمام الأبواب. بدت بحذائها الرياضي الأبيض نسخة أميركية من مضيفة طيران إنكليزية ظلّت تبتسم لها بلا كلل من مطار هيثرو- لندن إلى نيوارك. وهذه المرأة أيضاً ابتسمت لحلا التي تتعلق بصاحبها وتدفعه كي يسرع في ممر طويل. ضحك رضا وهي تبعده عن الحقائب. كأن الحقائب ستتحرك وحدها. كأن الفندق الذي ينقصه عمال كما يبدو، فيه خاصية أوتوماتيكية ترفع الأمتعة عبر الفضاء إلى الغرف المنشودة. بينما يفتح الباب (غرفة 1727) سألها بالعربية هل تريد أن تتلفن إلى خالها؟ «نات ناو» (ليس الآن). عيناها المتسعتان زرعتا رعشة في عمود ظهره. اعتقد أنه صار أقوى خلال

الشهور الماضية، أصلب عوداً، بعد الحرب وبعد التغرب. بينما حلا تتملى من وجهه انتبه أن هشاشته أمامها مخيفة ولا تعرف حدّاً. أحسّ أنها تقدر أن تكسره مثل إبريق زجاج. تورّد وجهها حارّاً. لوّن الدم عاج عنقها. في 18 سنة هي حياتها كلّها لم تشعر يوماً بهذه الرغبة اللانهائية. كان شوقها إليه وهو جنبها يصارع باب غرفة رقمها 1727، بجسم مشدودٍ كوتر وحقيقي وتقدر أن تلمسه بعشرة أصابع، أعظم من شوقها إليهِ في أي وقت مضى. ارتجف قلبها. حين ضمّتهما الغرفة أخيراً تخلّصت من فستانها الخفيف قبل أن يفكّ بكلة الزنّار الذي اشترته له هدية في عيد ميلاده. ساعدته قرب السرير وهو يرتعش كما حدث له في تلك المرة الأولى في شقّة الشيّاح. التصقت به واقفة على رؤوس أصابعها. طقطق خشب الأرضية. حين التحما تلمّست عضلات ظهره. سبحت معه إلى جزيرة بعيدة هي هذه الجزيرة (مانهاتن) لكنها مكان آخر أيضاً. تلاشى العالم في بخار دافىء. طحنها تمثال الرخام الساخن بثقل تتمنى البقاء تحته الى الأبد.

*

«نطلب عشاء أم نخرج؟»

«نخرج بسرعة ونرجع.»

كان الجوع يفتك بهما كأنهما عاشا على تلك الجزيرة النائية سنوات بلا أكل.

«أخذت عطلة ثلاثة أيام من شغلي.»

«ثلاثة أيام فقط؟»

«حجزكِ الى كاليفورنيا بعد يومين، لا؟»

انتعلت السكربينة قبل الفستان وهي ترفع وجهها إليه. أشرقت بشرتها نقيّة وهّاجة.

«أي كاليفورنيا؟ أنا باقية هنا، معك.»

جلس جنبها على حافة السرير. تأخر العشاء ساعة أخرى.

<table>
<tr><td>شقة الخادمات</td><td>آل بدور</td><td>7</td><td>آل موراني</td><td>آل عازار</td><td>آل الحويك</td></tr>
<tr><td colspan="2">آل العبد</td><td colspan="2">6</td><td colspan="2">آل هاينيكين</td></tr>
<tr><td colspan="2">آل طانيوس</td><td colspan="2">5</td><td colspan="2">آل زيدان</td></tr>
<tr><td colspan="2">آل حبيب</td><td colspan="2">4</td><td colspan="2">آل رزق</td></tr>
<tr><td colspan="2">آل الخوري</td><td colspan="2">3</td><td colspan="2">آل عطية</td></tr>
<tr><td colspan="2">آل صعب</td><td colspan="2">2</td><td colspan="2">آل سمعان</td></tr>
<tr><td colspan="2">آل زخور</td><td colspan="2">1</td><td colspan="2">آل ثابت وشرارة</td></tr>
<tr><td colspan="2"></td><td colspan="2"></td><td colspan="2">آل زغلول</td></tr>
</table>

بناية أيوب، حيّ العبد، بيروت.

روايات صدرت للمؤلف:

1. سيد العتمة، 1992.
2. شاي أسود، 1995.
3. البيت الأخير، 1996.
4. الفراشة الزرقاء، 1996.
5. رالف رزق الله في المرآة، 1997.
6. كنت أميراً، 1997.
7. نظرة أخيرة على كين ساي، 1998.
8. يوسف الإنجليزي، 1999.
9. رحلة الغرناطي، 2002.
10. بيروت مدينة العالم: الجزء الأول، 2003.
11. بيريتوس: مدينة تحت الأرض، 2005.
12. بيروت مدينة العالم: الجزء الثاني، 2005.
13. تقرير ميليس، 2005.
14. بيروت مدينة العالم: الجزء الثالث، 2007.
15. الاعترافات، 2008.
16. أميركا، 2009.
17. دروز بلغراد: حكاية حنا يعقوب، 2011.

طيور الهوليداي إن

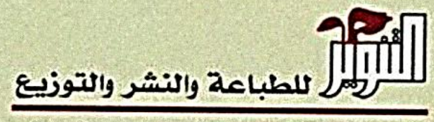
مفقود: غادر كارلوس ميشال حبيب منزله في بناية أيوب في الأشرفية يوم الجمعة الماضي ولم يعد. عمره 22 سنة، يرتدي كنزة صفراء وقميصاً أصفر وبنطلوناً لون كريم. يرجى ممن يعرف عنه شيئاً الاتصال بالرقم 320496 أو 324773.

مفقودتان: غادرت السيدة يوتا الحوارنة (30 عاماً) ومعها ابنتها عليا (عامان) منزلهما يوم الخميس الماضي ولم تعودا. يرجى ممن يعلم عنهما شيئاً الاتصال بأحد الرقمين 310050 أو 301574.

مفقودة: غادرت الشابة لينا نسيب طانيوس منزلها في بدارو يوم الثلاثاء الماضي ولم تعد. عمرها 19 عاماً، ترتدي فستاناً أزرق وكنزة بيضاء. الرجاء ممن يعرف عنها شيئاً الاتصال على الرقم 495371 وله مكافأة.

لوحة الغلاف بريشة سي واي تومبلي





بيروت ـ هاتف: ٠٠٩٦١١٤٧١٣٥٧ تلفاكس: ٠٠٩٦١١٤٧٥٩٠٥
www.dar-altanweer.com
info@dar-altanweer.com
توزيع دار الفارابي